الجمهوريـــــة الجزائريـــــة الديمقراطيـــــة الشعبيـــــة

وزارة التعليـــــم العالي والبحث العلمـــــي

جامعة منتوري قسنطينة

كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية

قسم التاريخ والآثار

رقم التسجيل :.........................

الرقم التسلسلي :........................

قضايا العرب والمسلمين في آثار الشيخ البشير الإبراهيمي و الأمير شكيب أرسلان . دراسة تاريخية وفكرية مقارنة

- الجــزء الأول -

رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في التاريخ الحديث والمعاصر

إعداد الطالب :

- بشير فايد

إشراف الأستاذ الدكتور :

- عبد الكريم بوصفصاف

لجنة المناقشة

تاريخ المناقشة : / /

الاسم واللقب	الرتبـــة	الصفـــة	الجامعة الأصلية
عبد الرحيم سكفالي	أستاذ التعليم العالي		جامعة منتوري قسنطينة
عبدالكريم بوصفصاف	أستاذ التعليم العالي		الجامعة الإفريقية أدرار
سعيد عليوان	أستاذ التعليم العالي		جامعة الأمير عبد القادر
إسماعيل زروخي	أستاذ التعليم العالي		جامعة منتوري قسنطينة
رابح مراجي	أستاذ محاضر		جامعة منتوري قسنطينة
قدادرة شايب	أستاذ محاضر		جامعة 8 ماي 45 قالمة

السنة الجامعية: 1430هـ /1431هـ - 2009م / 2010م .

الإهـــداء

إلــــى روح والدي الذي كانت غاية المنى لديه رؤية أبنائه يحققون النجاحات في دراستهم وفي حياتهم المستقبلية .

إلــــى روح أخي عبد المالك و اختي صورية الذان التحقـا بالرفيق الأعلى وهما في زهرة شبابهما .

إلـــــى والدتي التي صبرت وتحملت وكافحـت مـن أجـل تربيتنا وتعليمنا ، جزاها الله عنا كل خير .

إلـــــى أخي نور الدين وأختاي وهيبة وسهام .

إلـــــى زوجتي وابني عبد المالك .

إلـــــى هؤلاء جميعا أهدي ثمرة هذا الجهد العلمي .

شكـــر وتقديـــر

اعترافا لذوي الفضل بفضلهم ، يسعدني ويسرني كثيرا أن أتوجه بعظـيم شكري وخالص امتناني لأستاذي الفاضل : الأستاذ الدكتور عبد الكـريم بوصفصاف المشرف على هذه الأطروحة ، اعترافا له بفضله الكبير في انجازها ، وهو الذي كان وسيظل مثلي الأعلى فـي الجـد والاجتهـاد والإخلاص في العمل .

كما أوجه شكري وتقديري واحترامي لإدارة وأساتذة قسم التاريخ والآثار وكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بجامعة منتوري – قسنطينة – علـى المساعدات التي قدموها لي في شتى المجالات .

كما اتقدم بالتحية و الشكر الى كل السادة الاساتذة اعضاء لجنة المناقشـة على تحملهم عبىء قراءة هذا و تقييمه .

كما لا يفوتني في هذا المقام أيضا أن أتقدم بشكري وتقديري إلى السـادة الأفاضل : عبد الحليم خلفة صاحب مكتبة خدمات الإعلام الآلـي بحـي الإخوة بن عزيز عموشة ، عبد الكريم خلفة ، الآنسـة حيـاة عنـان ، و الآنسة بكاي وردة على ما بذلوه من مجهودات جبارة لإخـراج هـذه الأطروحة في شكل جيد وحلة أجمل ، وعلى تضحيتهم بعطلتهم الصيفية حتى يكون العمل جاهزا في الآجال المطلوبة .

بسم الله الرحمان الرحيم

((و من احسن قولا ممن دعا الى الله و عمل صالحا و قال انني من المسلمين)) . سورة فصلت – الاية 33 .

صدق الله العظيم .

الفصـــل الثالـــث :

أسباب تخلف العرب والمسلمين
في آثار الإبراهيمي و أرسلان

الفصــــل الرابـــع :

شروط نهضة العرب والمسلمين

عنــد الإبراهيمـــي و أرســـلان

الفصــل الخامــس :

الجامعة الإسلامية في آراء الإبراهيمي و أرسلان

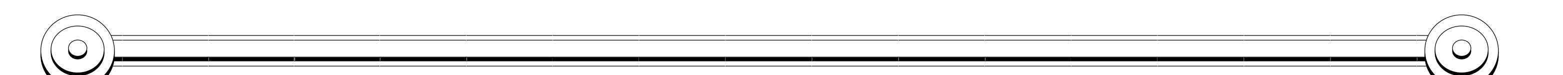
الفصـــل الســـادس :

الوحدة العربية في كتابات المفكرين الإبراهيمي و أرسلان

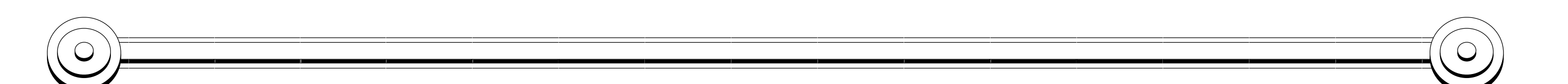
مقدمـــة البحـــث وخطتـــه



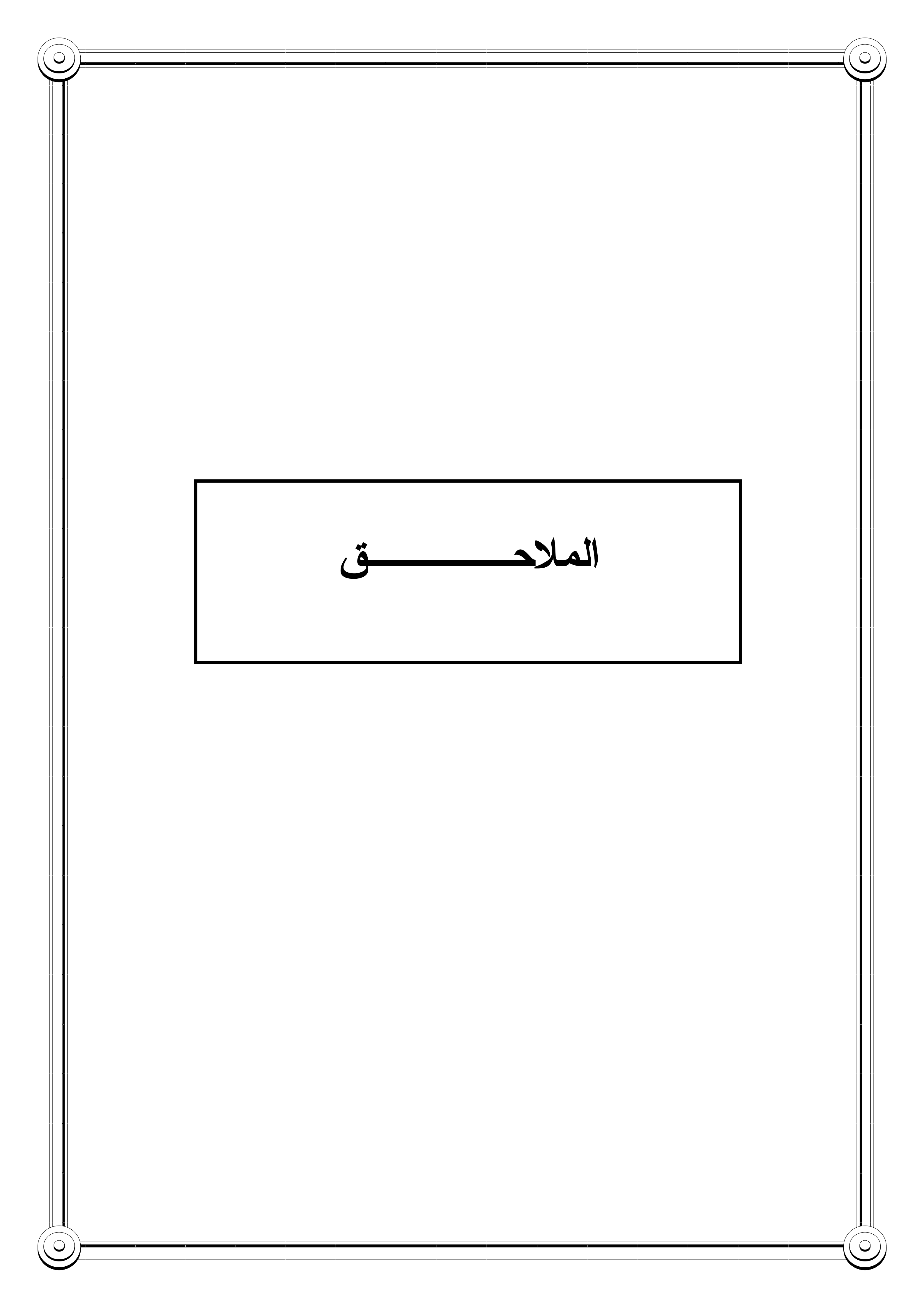
خاتمـــــة البحــــث



ببلوغرافيـــة البحـــــــث



فهـــارس البحـــــــــث



الملاحـــــــــــق

الوثائـــــق الأرشيفيـــــة

الفصــل الأول :

الجزائر و لبنان في عصر

البشير الإبراهيمي و شكيب أرسلان

تمهيد :

انطلاقا من نظرية أن الإنسان ابن بيئته، خصصنا هذا الفصل للحديث عن مميزات البيئة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والدينية، التي ولد ونشأ وتعلم فيها المصلحان والمفكران الشيخ البشير الإبراهيمي و الأمير شكيب أرسلان ، فلا شك أن البيئتين الجزائرية واللبنانية قد كان لهما دورا رئيسا في تنشئة وتكوين شخصية وفكر الرجلين. وهو ما سيظهر عبر فصول هذه الرسالة . فلقد عاش البشير الإبراهيمي أغلب حياته في ظل الاحتلال الفرنسي، الذي أحكم سيطرته على الجزائر منذ سنة 1830م ، ولم يغادرها إلا سنة 1962م بعد ثورة مسلحة دامت سبع سنوات ونصف، انتهج خلالها سياسة تستهدف الهيمنة على العقول والأبدان ، بعد أن تمكن من الاستيلاء على الأرض ؛ فمارس القمع والإقصاء والتهميش ومصادرة الحقوق السياسية والمدنية ، ولجأ إلى التفقير والتجهيل ونشر الأمية بين صفوف الجماهير، وأحكم قبضته على الدين ومؤسساته وشجع الطرقية المنحرفة والدروشة والدجل باسمه، وحارب العلماء ورجال الدين الحقيقيين أمثال الإبراهيمي والمثقفين الوطنيين بالتضييق والإبعاد والنفي والسجن . وعلى النقيض من ذلك فتح الباب امام غلاة المعمرين القادمين من مختلف البلدان الاوروبية، للتمتع بكل الامتيازات السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية و الثقافية ، التي لم تكن متاحة لهم حتى في بلدانهم الأصلية . ومنه يمكن القول أن الجزائر في عصر الإبراهيمي، كانت تتميز ببيئتين : الأولى تشمل معظم المجتمع الجزائري المحروم من أبسط الحقوق الإنسانية ، والثانية أوروبية تضم مجتمع المعمرين ؛ الذين أطلقت إدارة الاحتلال يدهم في القمع والبطش والاستغلال . أما فترة الحرية ، فقد كانت قصيرة جدا بالنسبة للإبراهيمي، لم تزد عن حوالي ثلاث سنوات ، كانت فيها الجزائر في مرحلة انتقالية، لم يقم خلالها إلا بنشاطات محدودة بسبب تقدمه في السن واعتلال صحته من ناحية، ووضعه في الإقامة الجبرية إلى غاية وفاته في ماي 1965م من ناحية ثانية. وعليه فقد اقتصرنا على إبراز السمات العامة ؛ لأوضاع الجزائر طيلة الاحتلال الفرنسي فحسب .

بينما اختلف الأمر بالنسبة الأمير شكيب ،الذي عاش في بيئة تميزت بمرحلتين : هما المرحلة العثمانية والمرحلة الاستعمارية الفرنسية ؛ تباينتا في بعض الجوانب وتشابهتا في

جوانب اخرى ، و لكن و مهما يكن فان المرحلة العثمانية كانت الافضل بالنسبة للامير شكيب لانالمحتل الفرنسي عمد الى القضاء على بعض المظاهر الايجابية التي تميز بها لبنان في
أواخر الحكم العثماني مثل الحرية الثقافية والدينية، وفي المقابل شجع المظاهر السلبية الكثيرة التي لم تنفع الإصلاحات في التقليل منها ، تجذر الفساد وهيمنة رجال الإقطاع واستفحال التعصب العرقي والطائفي. ولما كان شكيب من أوائل اللبنانيين الذين تصدوا لذلك ، كان مصيره المطاردة والعيش في المنفى ، حيث لم يستطع العودة إلى البلاد إلا سنة 1946م تاريخ حصولها على الاستقلال.

وعليه فقد استعرضنا في هذا الفصل ، أنظمة الحكم السياسية والإدارية والقضائية وانعكاساتها في البلدين ، وعمدنا إلى دراسة وتحليل الأوضاع الاقتصادية في مجالات الزراعة والصناعة والتجارة والضرائب والمالية . والأمر ذاته بالنسبة للحياة الاجتماعية، التي عالجنا فيها طبقات المجتمع . والعلاقات السائدة بين مختلف مكونات المجتمع في البلدين . أما في الحياة الثقافية ، فقد تطرقنا إلى وضعية التعليم بكل أنواعه ، ومدى ارتفاع أو انخفاض مستوى الأمية ، بالإضافة إلى واقع الإعلام وبعض الفنون الثقافية . كما تحدثنا بإيجاز عن واقع الحياة الدينية ، والتي تتميز باختلاف أساسي بين الجزائر و لبنان ، من حيث الديانات السائدة ، أو دور المؤسسات الدينية ، أو مستوى الحرية الدينية الموجود . هذا وقد قمنا بمقارنة كل ما استعرضناه في كل مبحث من المباحث التي احتواها هذا الفصل ، حتى يمكننا الوقوف على مدى تأثير البيئتين الجزائرية واللبنانية ، في تشكيل ارائهما في مختلف القضايا العربية الإسلامية الكبرى ، السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والدينية والحضارية ، التي حاولا معالجتها انطلاقا من رصيدهما الفكري والعلمي والثقافي ، الذي اكتسباه أثناء مرحلة الطفولة والشباب من ناحية ، ومن رحلاتهما وأسفارهما ، التي ساهمت هي أيضا بقسط وافر في ذلك من ناحية أخرى .

المبحث الأول : الوضع السياسي في الجزائر ولبنان .

01 – الوضع السياسي في الجزائر :

عاصر الإبراهيمي قيام ثلاث جمهوريات ، تداولت على الحكم بفرنسا ، بدءا بالجمهورية الثالثة (1870 م – 1940 م) ، التي خلفت الإمبراطورية الثانية بزعامة " نابليون الثالث " (Napoléon III (1808م – 1873 م) ، ثم الجمهورية الرابعة (1846م – 1958م) ثم الجمهورية الخامسة ابتداء من سنة 1958م (*) و إلى غاية الاستقلال . و لكن بالرغم من تعدد هذه الأنظمة السياسية ، التي كانت تظهر و تسقط في ظروف معينة ، فإنها لم تختلف في نظرتها للجزائر ، فقد كانت النظرة الاستعمارية مشتركة فيما بينها ([1]) . إذ لم يعرف الجزائريون في الواقع ، إلا الحكم العسكري البوليسي ، الذي ظل مسلطا عليهم ، طيلة الوجود الاستعماري في بلادهم .

أما على المستوى الإداري ، فقد بقي نفس التنظيم المعمول به من قبل ، حيث يتم تعيين الحاكم العام من السلطات المركزية في باريس ، و الذي يكون تحت تصرف وزارة الداخلية ، يساعده مجلس الحكومة ، و مجالس مالية مهمتها استشارية و ليست تشريعية . و على رأس العمالات الثلاث (الجزائر ، قسنطينة ، وهران) كان يوجد ولاة ، يعينون تعيينا من قبل الحكومة الفرنسية .

و قد قسمت هذه العمالات إلى دوائر ، و الدوائر إلى بلديات ، و كانت هذه الأخيرة نوعان : بلديات كاملة الصلاحيات (Communes en pleins exercices) ، تسود حيث يكون عدد الأوروبيين معتبرا ، و تخضع لنفس القوانين المطبقة في فرنسا . و بلديات غير كاملة الصلاحيات (مختلطة) (Communes Mixtes) ، توجد حيث يكون هناك عدد الأوروبيين محدودا جدا ، تسير من قبل مسؤول إداري ([2]) برتبة متصرف إداري (Administrateur) يعين من طرف الحاكم العام أو عامل العمالة ، يساعده في مهامه ممثلون أوروبيون و آخرون

(*) – مازالت الجمهورية الخامسة ، هي النظام الحاكم بفرنسا ، لغاية الآن .

([1])– أبو القاسم سعد الله : الحركة الوطنية الجزائرية 1930م – 1945 م ، ج 3 ، ط 3 ، م و ك ،الجزائر : 1986 م ، ص 54 .

([2]) – المرجع نفسه ، ص ص 15 – 16 .

مسلمون ، الذين يفوق عددهم نسبة 90% من إجمالي سكان البلدية ([1]) . لقد كان هذا النوع من البلديات نوعا شاذا ، عرفته الجزائر دون غيرها من المستعمرات الفرنسية الأخرى ، بل فإنه لم يكن معروفا في العالم بأسره ([2]) .

هذا في شمال البلاد ، أما جنوبها فكان يخضع للنظام العسكري ، و هو ما جعله في شبه عزلة تامة اقتصاديا و اجتماعيا و سياسيا ، كما كان يوجد به نوع ثالث من البلديات ، هو البلديات الأهلية (Communes indigènes) ، التي كان عددها محدودا جدا ([3]) .

و منه نستخلص ، أن السياسة الاستعمارية في المجال الإداري ، قد كانت تهدف إلى تحقيق عملية الإلحاق ، التي دشنها الملك " لويس فيليب " (Louis philippe) (1773 م – 1850 م) ، عندما أصدر مرسوم 22 جويلية 1834 م ([4]) .

تدعمت هذه المنظومة الإدارية ، بفرض سلسلة من القوانين: ((من شر ما عرفه البشر في عالم التشريع الإنساني)) ، ومنها على الخصوص " قانون الأهالي " (Code D'indigénat) ، الذي صدر في فترة حكم الجمهورية الثالثة عام 1871م ، وتضمن جملة من التعليمات والأوامر الصادرة ، عن الضباط العسكريين ، والمسؤولين الإداريين ، والجهات الموكل إليها النظر، فيما يرتكبه الجزائريون من جنح ، مع العلم أن ذلك من مهام المؤسسة التقليدية وهي القضاء . فعلى سبيل المثال فرض على الجزائري حمل رخصة التنقل من مكان لآخر داخل الجزائر، فإذا لم تكن بحوزته يعاقب وهكذا...الخ ([5]) .

([1])– Cherif Benhabyles : L'Algérie Française Vue par in indigène , édition oriental , Alger , 1914 , PP , 50 – 51

([2]) – عبد الكريم بو الصفصاف : الأبعاد الثقافية و الاجتماعية و السياسية في حركتي محمد عبده و عبد الحميد بن باديس ، أطروحة دكتوراه دولة غير منشورة ، ج 1 ، جامعة تونس الأولى ، تونس : السنة الجامعية 1996 م –1997 م ، ص 28 .

([3]) – ابو القاسم سعد الله ، المرجع السابق ، ص 16 .

([4]) – جوان غليسي: الجزائر الثائرة ، تعريب خيري حماد ، ط1 ، دار الطليعة ، بيروت : 1961م ، ص 15.

([5]) – CL Aude Collot : Les institutions de L'Algérie Durant la période coloniale 1830-1962 , édition C.N.R.S et O.P.U , Alger ,1987, p 94.

وقد مكن هذا القانون ، من تحويل الجزائري ، إلى إنسان بدون حقوق ، عليه فقط أن ينفذ بطريقة آلية ، أوامر المسؤول الإداري أو الأهلي ([1]) . و لقد لقي هذا القانون ، معارضة و استنكارا حتى من الفرنسيين أنفسهم ، لبشاعته و عدم إنسانيته ، فقد وصفه أحدهم قائلا أنه يمثل : ((أقصى إجراء في الوقائع الاستعمارية يمكن لقوة استعمارية أن تشنه للضغط على رعاياها ، و لكنه في الوقائع الإنسانية يمكن اعتباره من بقايا العصور الوسطى و محاكم التفتيش)) ([2]) . و قد ظل هذا القانون البغيض مسلطا على الجزائريين ، منذ صدوره ، و إلى غاية جلاء الاحتلال عن البلاد ([3]) .

و من بين تلك القوانين أيضا ، قانون 19 ديسمبر 1900 م ، الذي أعطى للمعمرين قوة مراقبة ميزانية الجزائر ، و شبكة الخطوط الحديدية ، و المواصلات و الغاز و الكهرباء ، و الإشراف على الأشغال العامة ، و استغلال موارد البلاد ، و السلطة الكاملة على الجزائريين ، و هو ما كان " نكبة قاسية " عليهم . علاوة على ذلك فإنه منح للمعمرين حق الانتخاب ، و التمثيل في المجالس النيابية و المالية ، و الحكومية ، و مراقبتها . و قد كان بإمكان المعمرين أيضا ، الضغط على السلطات الاستعمارية ، لكي يحصلوا على القوانين التي تخدم مصالحهم الخاصة ([4]) .

في ظل هذا الوضع ، و جدت الجزائر نفسها و مع مرور الزمن : ((خاضعة لسلطتين : سلطة قانونية و هي سلطة باريس ، و سلطة فعلية و هي الجزائر . أما سيدنا المعمر فإنه يمارس كلا السلطتين : فهو فرنسي في باريس و جزائري في الجزائر ، أما الجزائري فلا حول و لا قوة

([1])– Djilali Ben Amrane : L'émigration Algérienne en France (Passé , Présent , Devenir) , S N E D , 1983 , Alger , P 24 .

([2]) – أبو القاسم سعد الله : الحركة الوطنية الجزائرية 1900 م – 1930 م ، ج 2 ، ط 3 ، م و ن ت ، الجزائر : 1983 م ، ص ص 90 – 251 .

([3]) – عبد الرحمان بن إبراهيم بن العقون : الكفاح القومي و السياسي من خلال مذكرات معاصرة (الفترة الأولى 1920 م – 1936 م) ، م و ك ، الجزائر : 1986 م ، ص 28 .

([4]) – أبو القاسم سعد الله ، المرجع نفسه ، ص ص 86 – 87 .

و لا سلطة له لا هناك و لا هنالك ، في باريس غائب محجور و في الجزائر قاصر محجور)) ([1]) .

إضافة إلى ذلك ، سنت قوانين أخرى ، كقانون التجنيد الإجباري الصادر في : 02 فيفري 1912 م ، الذي تضمن تجنيد الجزائريين في الجيش الفرنسي ، باعتبارهم رعايا فرنسيين (*) ، رغم المعارضة الشديدة من قبل غالبية الجزائريين . و ما تلاه من قوانين اضطهادية أخرى ، كقانون حالة الطوارئ و الرقابة ... إلخ ([2]) ، و التي جعلت المجتمع الجزائري يعيش تحت رحمة الإجراءات الاستثنائية ([3]) ، على عكس الأوروبيين ، رغم أنهم كانوا يشغلون معهم نفس المكان و هو الجزائر .

أما فيما يتعلق بالتمثيل النيابي في البرلمان الفرنسي ، فكان يقتصر على المعمرين ، أما الجزائريون فلم يسمح لهم إطلاقا بالعضوية فيه ، و لو كملاحظين من سنة 1830 م و إلى غاية سنة 1947 م ([4]) . و بعد هذا التاريخ سمح لهم ، أن يمثلوا مواطنيهم في المجلس بثلاثة عشر نائبا ، و العدد الحقيقي كان يجب أن يكون مائتا نائب ، بالنظر إلى التفوق العددي الذي كان لصالحهم ، حيث كان عشرة أشخاص يقابلون فرنسيا واحدا ([5]) .

([1]) – فرحات عباس : ليل الاستعمار ، ترجمة أبو بكر رحال ، د ط ، مطبعة فضالة ، المحمدية ، المغرب : د ت ، ص 125 .

(*) – أورد أبو القاسم سعد الله : أن عدد الجزائريين الذين جندوا في الحرب العالمية الأولى 1914 م – 1918 م ، جنودا و عمالا ، قدر بـــ 252000 مجندا ، و هذا اعتمادا على إحصائيات مستقاة من مصادر فرنسية ينظر أبو القاسم سعد الله : الحركة الوطنية الجزائرية 1900 م – 1930 م ، مرجع سابق ، ص 203 .

([2])– المرجع نفسه ، ص 204 .

([3]) – المرجع نفسه ص 186 .

([4]) – عبد الكريم بو الصفصاف ، المرجع السابق ، ص 34 .

([5]) – الفضيل الورثيلاني : الجزائر الثائرة ، د ط ، دار الهدى ، عين مليلة ، الجزائر : 1992م ، ص 388 .

وعلاوة على ذلك ، امتدت يد الإدارة الفرنسية، حتى إلى الشؤون المدنية للجزائريين، بعد أن ظلت مستقلة إلى غاية 1882م ، من خلال فرضها تبديل أسماء العائلات الجزائرية، بمقتضى مرسوم 23 مارس 1882م من نفس السنة ([1]) .

ومن جانب آخر ؛ وأمام التذمر العام، الذي كان يبديه الشعب الجزائري عامة ، والحركة الجزائرية خاصة ، من السياسة الاستعمارية في كل الميادين ، وعلى كافة الأصعدة، كانت فرنسا تلجأ من حين لآخر، إلى التظاهر بأنها تأخذ مأخذ الجد مطالب الجزائريين ، موهمة إياهم بحسن نواياها في التكفل بها ، وفي حقيقة الأمر كانت تلجأ إلى هذا الأسلوب ، الذي يعتمد على المراوغة ، من أجل ربح الوقت من جهة ، و امتصاص غضب الجزائريين من جهة أخرى([2]) .

فكثيرة هي اللجان التي شكلت ، و اتخذت من الإصلاح شعارا لها ، و منها على الخصوص لجنة : " الثمانية عشر " التي تم تشكيلها سنة 1891 م من أعضاء مجلس الشيوخ ، برئاسة السياسي الشهير " جول فيري " ((Jules Ferry)) (1832 م ، 1893 م) ، و لقد لخصت أعمالها في ثمانية عشر بندا على النحو التالي : ((التعليم ، الأحكام العدلية الإسلامية و محاكمها ، الضرائب و الجبايات ، إعانة الفقراء و المساكين ، الملك المشاع و تأسيس الملكية أخذ الملك للمصلحة العامة ، أخذ الجار بذنب الجار و هو ما يعبر عنه في الإصلاح الحديث (الضمان المشترك) ، القوانين الزجرية ، التجنيد ، التجنيس ، الانتخابات العمومية ، مجلس الشورى العام ، المجلس الأعلى ، النيابة الأهلية في البرلمان ، المجلس الجنائي ، الرباء ، وظيفة الوالي العام)) . و قد قامت هذه اللجنة باستجواب وفد من الجزائريين ، الذين وعدتهم بالنظر في مطالبهم ، نظرة عناية و تفحص ، لكن شيئا من ذلك لم يحدث ([3]).

([1]) – أبو القاسم سعد الله : الحركة الوطنية الجزائرية ، ج2 ، مرجع سابق ص، 184 .

([2])– بشير فايد : الشيخ البشير الإبراهيمي و دوره في القضية الوطنية 1920 م – 1965 م ، مذكرة ماجستير غير منشورة ، قسم التاريخ و الآثار ، كلية العلوم الإنسانية و العلوم الاجتماعية ، جامعة منتوري قسنطينة ، الجزائر : السنة الجامعية 2000م – 2001 م ، ص 32 .

([3])– عبد الرحمان بن إبراهيم ابن العقون ، المصدر السابق ، ج 1 ، ص ص 17 – 18 .

و هناك لجان أخرى شكلت ، خلال النصف الأول من القرن العشرين (ق 20 م) ، بهدف دراسة أوضاع الجزائريين ، و تقديم اقتراحات بذلك إلى الحكومة الفرنسية ، للقيام بإصلاحات سياسية و اقتصادية و اجتماعية و ثقافية لصالح الأهالي ، و لكن دون جدوى فهذه اللجان على سبيل المثال ، عندما تقدم تقاريرها إلى الجهات المسؤولة ، تطل هذه الأخيرة بعد تردد كبير على الجزائريين ، بمشاريع و اقتراحات تسميها إصلاحات ، و في هذا السياق نذكر قانون 04 فيفري 1919 م ، الذي حاولت من خلاله فرنسا ، ترضية الجزائريين الذين شاركوا إلى جانبها في الحرب العالمية الأولى 1914م – 1918 م ، نتيجة للحملة التي شنتها مختلف التيارات و الشخصيات الوطنية ، و على رأسها الأمير خالد (1875 م – 1936 م)(*) ، الذي طالب بحق الشعب الجزائري في تقرير مصيره ، في مذكرة بعث بها إلى الرئيس الأمريكي " ولسن " (Wilson)(**) ، و مؤتمر الصلح المنعقد ب : " فرساي " (Versailles) بفرنسا سنة 1919 م . و لكن كالعادة ، فإن هذه الإصلاحات كانت عكس تطلعات الشعب الجزائري ، أو كما وصفها الأستاذ : " عبد الرحمان بن إبراهيم بن العقون " ([1])، قائلا : ((جاء قانون إصلاحات 04 فبراير 1919 م و كأنه يحمل الحلوى التي تقدم ، كتلهيه للأولاد و الصغار)) ، فقد تضمن منح بعض الامتيازات لبعض الجزائريين ، مقابل التخلي عن شخصيتهم الإسلامية .

(*) – الأمير خالد : حفيد الأمير عبد القادر ، عرف عنه استماتته في الدفاع عن انتمائه العربي ، فكثيرا ما كان يردد في وجه المستعمرين : ((أنا عربي و أريد أن أبقى عربيا)) ، درس في معهد " لويس لوجران " (Louis Le Grand) الشهير ، ثم في الكلية الحربية بـ : " سان سير " ، و كان يتقاضى منحة حكومية ، دخل الحياة السياسية سنة 1913 م ، و ساند برنامج " الجزائر الفتاة " " الشبان الجزائريون " فكان ذلك بداية المشاكل بينه و بين الإدارة الاستعمارية ، خاصة و أنه كان يتمتع باحترام الناس . انتخب مستشارا بلديا ، ثم مستشارا عاما ، كما عين مندوبا ماليا . اعتزل الحياة السياسية سنة 1929 م ، باتفاق بينه و بين الإدارة . هاجر إلى المشرق لمدة قصيرة ، عاد بعدها إلى الجزائر ، مجددا نشاطه السياسي سنة 1924 م ، تحالف مع الشيوعيين ، فكر في الهجرة إلى الإتحاد السوفياتي ، مثل ظهور نجم شمال إفريقيا سنة 1926 م ، نهاية الدورة السياسية . توفي سنة 1936 م . محمد حربي : الثورة الجزائرية سنوات المخاض ، ترجمة صالح عياد و صالح المثلوثي ، د ط ، موفم للنشر ، الجزائر : 1994 م ، ص ص 175 – 176 .

(**) – توماس وود درو ويلسن (Thomas Woodrow) : ظل رئيسا للولايات المتحدة الأمريكية ، من : 1913 إلى 1921 .

([1])– عبد الرحمان بن إبراهيم ابن العقون ، المصدر السابق ، ج 1 ، ص ص 72 – 73 .

و نفس الشيء بالنسبة لإصلاحات سنة 1947 م ، التي قال عنها الشيخ البشير الإبراهيمي ([1]) : ((إصلاحات الجزائر التي شكلت لها إدارة كاملة ، و حشر فيها من الموظفين جند ، و خصص لها في الميزانية مال ، و قدر لها من العمر مال ، و لم يكن لها من العمل إلا التقريرات و الملفات و أسماء المشروعات ، و يقال أنها أخذت بالحسم و الحزم ، فبدلت اللقب و الاسم ، و انتقلت من تنفيذ العهود و الشرائط إلى وضع الخرائط و البركة في الأوراق)) .

إن هذا الوصف الساخر لإصلاحات 1947 م ، إن دل على شيء فإنما يدل على هشاشة سياسة فرنسا الإصلاحية اتجاه الأهالي المسلمين ، فهي تريد الإبقاء على الجزائر ، لكن بدون تكلفة ، يدفعها في ذلك زبانيتها المستوطنون في الجزائر ، بل فإنها كانت تسعى دائما إلى إبقاء الجزائريين مستعبدين ، يخدمون المصالح الاستعمارية ، دون أن يكونوا طرفا في الإفادة منها .

فإصلاحات 1947 م في الواقع ، لم تأتي إلا لتزيد الشقة اتساعا ، و الهوة عمقا ، بين الجزائريين و الفرنسيين ، لأنها جاءت مكشوفة هذه المرة على كافة المستويات : في مسألة التمثيل النيابي ، الانتخابات ، اللغة العربية ، الصحافة ... إلخ . ذلك أن دستور الجزائر ، كما عرف في الصحافة آنذاك ، قد نص على جملة من الإصلاحات الخاصة بالمسلمين الجزائريين ، و لكن أيا من هذه الإصلاحات لم يجد سبيلا من التطبيق ([2]) .

وبعد اندلاع الثورة التحريرية بأربع سنوات، كانت فرنسا ما تزال متشبثة بسياسة الإصلاحات ، التي تعد مطلبا من مطالب الجزائريين ، فبعد مجيء الجنرال " شارل ديغول" (Charles De Gaulle) سنة 1958 م إلى سدة الحكم في فرنسا، أراد أن يحيي سنة أسلافه في مجال الإصلاح ،فبادر بالإعلان عن ما يعرف ب : " مشروع قسنطينة 1958م – 1963م "، بهدف خنق الثورة التحريرية ، وعزلها عن الجماهير الشعبية ، باستقطاب أكبر عدد ممكن من الجزائريين وجلبهم إلى صف سلطات الاحتلال ، من خلال المشاريع الاقتصادية والاجتماعية التي تضمنها المشروع . و بالرغم من هذه المشاريع (الاقتصادية و الاجتماعية) ، التي طرحت بسخاء ، إلا أنها لم تحقق الهدف المنشود ، من قبل رجل فرنسا القوي ، و كان

([1])– محمد البشير الإبراهيمي : آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (عيون البصائر) ، ج 3 ، جمع و تقديم أحمد طالب الإبراهيمي ، ط 1 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت : 1997 م ، ص 507 .

([2]) – بشير فايد ، المرجع السابق ، ص 33 .

مصيرها الفشل ([1]) . لأن هدفه لم يكن الإصلاح ، و إنما تقسيم الشعب الجزائري ، و تقسم الثوار الذين كانوا يخوضون حربا شرسة ضد قواته ، بالإضافة إلى عزل الثورة عن أصدقائها ، و تجنيدهم إلى صف فرنسا ([2]) .

و مجمل القول ، أن الإصلاحات الفرنسية في الجزائر ، كانت كلها مشاريع لذر الرماد في العيون ، تلجأ إليها السلطات الاستعمارية ، كلما أرادت أن تهدأ من الغليان الشعبي ، أو النشاط المتصاعد للحركة الوطنية ([3]) . اعتقادا منها أن كل ما يناله الأهالي من حقوق ، من شأنه أن ينقص من حقوق المستوطنين . و من جانب آخر ، كان التصعيد في ممارسة العنف و القمع ، كلما أصر المسلمون على تغيير الأوضاع ، و الإحراز على حقوقهم ([4]) . لكن سياسة العناد المنتهجة ، كانت تحول دون أن يسمع ، قادة الاستعمار الفرنسي : ((صرخات الوطنيين و المصلحين المدوية)) ([5]) . و سيكتشف هؤلاء فيما بعد ، العواقب الخطيرة لتلك السياسة الملتوية ، حيث أصبح الأهالي يفكرون ، في استرجاع حقوقهم ، بأساليب أخرى أكثر فاعلية و هي الثورة .

أما في الميدان القضائي : فقد عملت السلطات الفرنسية منذ بداية الاحتلال ، على إلغاء القضاء الإسلامي ، أو احتوائه على الأقل ، و تقزيم دوره في حياة الأهالي ، ليحل محله النظام القضائي الفرنسي ، بنفس مؤسساته الموجودة في فرنسا ، وقد لجأت إلى ذلك ، لاعتقادها أن العدالة تشكل عنصرا هاما من عناصر السيادة ، التي لا تمكن تركها في يد الأهالي . ولكي

([1]) – بشير فايد ، المرجع السابق ، ص 34

([2]) – أبو القاسم سعد الله : خلاصة تاريخ الجزائر (المقاومة و التحرر 1830 م – 1962م) ، ط1 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت : 2007 م ، ص 184 .

([3]) – أبو القاسم سعد الله : الحركة الوطنية الجزائرية ، ج 2 ، مرجع سابق ، ص 296 .

([4]) – أحمد توفيق المدني : حياة كفاح (مذكرات) ، ج 2 (1925 م ، 1954م) ، د ط ، ش و ن ت ، الجزائر : 1977 م ، ص 250 .

([5]) – عبد المالك مرتاض : نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر (1925م ، 1954م) ، ط2 ، م و ن ت ، الجزائر : د ت ، ص21 .

يتسنى لها فرض نظامها القضائي ، أجبرت فرنسا الأهالي على قبوله ، والاحتكام إلى مؤسساته ([1]) .

ولكنها عمليا ، وجدت صعوبات جمّة في تطبيق ذلك ، بسبب خصوصية المجتمع الجزائري ، الذي يختلف اختلافا كليا وصارخا مع الواقع الاجتماعي الفرنسي ، ولهذا تم اللجوء إلى أسلوب الإلغاء التدريجي للقضاء الإسلامي ، والتثبيت المرحلي للمؤسسات القضائية الفرنسية في الجزائر . ولما كان القضاة الفرنسيون، المكلفون بالنظر في قضايا الجزائريين ، يجهلون جهلا تاما طبيعة وخصوصية المجتمع الجزائري ، تم الاعتماد على مترجمين قضائيين ، يتقنون اللغة العربية لمساعدتهم ، بمقتضى مرسوم 26 ديسمبر1842م ([2]) .

أما القضاة المسلمون ، فلم يسمح لهم بالنظر، في الأحوال الشخصية للأهالي كالزواج والطلاق والإرث...الخ ، بموجب قانون 25 ماي 1892 م ([3]) ، حيث انتزعت منهم القضايا المدنية والجنائية تدريجيا ، أما أحكامهم التي كانوا يصدرونها، فقد كانت تخضع للاستئناف أمام " غرفة الاستئناف الإسلامية "([4]) . وقد ظل القضاء الإسلامي تابعا لوزارة الحربية الفرنسية ، إلى أن جاء مرسوم 31 ديسمبر 1859 م ، الذي جعله تابعا لوزارة العدل مثل القضاء الفرنسي([5]) .

([1]) – رمضان بورغدة : الجزائريون و العدالة الفرنسية في عمالة قسنطينة خلال القرن 19م ، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر غير منشورة ، قسم التاريخ و الآثار ، جامعة منتوري قسنطينة الجزائر : السنة الجامعية 1999م – 2000 م ، ص ص 75 – 101 .

([2]) – المرجع نفسه ، ص 76 وما بعدها .

([3]) – (C) , OP-Cit , pp . 110-173 .

([4]) – IBID , p- 179.

([5]) – Charles Robert Ageron: Histoire de l'Algérie Contemporaine (1871-1919) , ,
P.U.F , Paris, 1977 ,P 504.

من جانب آخر ، وبغرض استكمال مشاريع التنصير والإدماج في منطقة القبائل أصدرت السلطات الفرنسية مرسوم 29 أوت 1874م ، الذي ألغى العمل نهائيا بالقضاء الإسلامي بالمنطقة ، وجعل محله القضاء الفرنسي([1]) .

و في سنة 1902 م ، تم إنشاء المحاكم الزجرية ، بسبب ثورة "عين التركي " (*) التي اندلعت في نفس السنة ، لتضاف إلى " مجلس العقوبات " (Cours Criminelles) الذي كان يتقاضى أمامه الجزائريون قبل ذلك ([2]) .

و رغم قيام فرنسا بفرض هذه السياسة القضائية الظالمة ، فإن الأهالي قاموا بعدم الاحتكام أمام القضاة الفرنسيين ، و هو ما يفسر قلة القضايا المعروضة على المحاكم الفرنسية ، و ضخامتها في المحاكم التي يقاضى فيها قضاة مسلمون ([3]) .

و من هنا يتبين لنا أن العدالة الفرنسية لم تنصف الجزائريين ، بعد أن حرموا من عدالتهم الإسلامية الخاصة بهم ، التي كانت تستمد أحكامها من الشريعة الإسلامية السمحة ، و هي الوحيدة التي تتلاءم مع طبيعة المجتمع الجزائري بهويته العربية و الإسلامية ، و الدليل على ذلك الفشل الذريع الذي آلت إليه السياسة القضائية الفرنسية في الجزائر ، طيلة فترة الاحتلال ([4]) .

([1]) – Charles Robert Ageron : Les Algériens Musilmans et la France (1871-1919) , Tome 1 , P.U.F , Paris , 1986,P 211 .

(*)– اندلعت بسبب مناوشات، حدثت بين أبناء القرية و رجال الدرك الفرنسي ، ثم تحولت الى مواجهات .

([2]) – أبو القاسم سعد الله : الحركة الوطنية الجزائرية ، ج 2 ، مرجع سابق ص 91 .

([3])– رمضان بو رغدة ، المرجع سابق ، ص 82 .

([4])– بشير فايد ، المرجع السابق ، ص 9 .

02- الوضع السياسي في لبنان :

بدأ تاريخ لبنان الحديث ، إثر انتصار العثمانيين بقيادة السلطان سليم الأول ، في موقعة " مرج دابق " (*) عام 1516م ، على المماليك بقيادة " قانصوه الغوري " ، وبعد هذا النصر دخل لبنان ضمن حظيرة الدولة العثمانية ، وظل كذلك طيلة أربعة قرون . وقد تم تقسيم سورية من الناحية الإدارية إلى ثلاث ولايات هي :

- ولاية دمشق : وضمت سنجق صيدا ، وسنجق بيروت والقدس ونابلس وغزة وتدمر.
- ولاية حلب : ضمت جميع أنحاء الشمال السوري .
- ولاية طرابلس : ضمت حمص وحماة .

وهكذا فإن لبنان ، كان مجزأ بين ولايات طرابلس ودمشق ، وفي عام 1560 م تم إعلان صيدا ولاية رابعة ، وعليه فقد مثل مجيء الأتراك بداية عهد جديد بالنسبة للبنان ([1]) .

ويمكن تحديد لبنان تاريخيا أيام العهد العثماني ، بالمنطقة التي تبدأ من قمم جبال لبنان الشرقية، وتمتد لتصل إلى غاية البحر ، حكمها المعنيون ثم الشهابيون . وقد نشأت فيها سلطة سياسية ، عرفت نموا وتطورا منذ القرن 17م . وإلى يومنا هذا ، جعلت لبنان يتخذ طابعا

([1])- زاهية قدورة : تاريخ العرب الحديث ، دار النهضة العربية، بيروت: 1975،ص ص 282-283 .

(*)- كان من نتائج معركة "مرج دابق " :

1- الرفع من المعنويات العسكرية والنفسية للعثمانيين، لمواصلة حملتهم، للقضاء على الدولة المملوكية.

2- تأمين سيطرتهم على بلاد الشام، وفتح طريق مصر والحجاز في الوقت نفسه أمام العثمانيين.

3- مثلت عاملا لإتمام وحدة الأناضول . فاضل بيات: الدولة العثمانية في المجال العربي (دراسة تاريخية في الأوضاع الإدارية في ضوء الوثائق والمصادر العثمانية حصرا – مطلع العهد العثماني – أواسط القرن 19م)، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت : 2007م، ص130.

خاصا ، وشخصية مميزة ، ووحدة سياسية تولت الأسر والحكومات المتعاقبة على البلاد ، مهمة رعايتها والمحافظة عليها ([1]) .

ويعد لبنان أكثر البلاد العربية ، التي تزخر بالطوائف أو العصبيات المحلية ، التي كان لها دور أساسي في تاريخيه السياسي الحديث والمعاصر ، نذكر منها : الدروز، الموارنة ، المتاولة ، المسلمون السنة .

* الدروز: ينحدرون من الشيعة الإسماعيلية ، ومن جماعات عربية وفارسية ، نزحت إلى جنوب لبنان ، مع مرور الزمن حققت الاندماج ونشأ منها " الدروز " في منتصف القرن الحادي عشر . وقد اختلفت التفسيرات بشأن لفظ " الدروز " ، فهناك من أرجعه إلى أصل فارسي ومعناه "الخياط " ، نسبة إلى داعية فارسي يدعى " محمد بن إسماعيل الدرزي " .
أما الدروز أنفسهم ، فإنهم يرفضون هذه التسمية ، ويفضلون تسميتهم ب : " الموحدين " ، ومعناه الذين يؤمنون بإله واحد. وهم يختلفون عن المسلمين ، في كونهم لا يسمحون بتعدد الزوجات ، وبإقامة صلواتهم الجماعية ليلة الجمعة في أبنية تتميز ببساطتها وتقشفها تسمى" الخلوات ". وقد كان لهم دور مؤثر، في كل الأحداث التي شهدتها ولاية الشام ، خلال العهد العثماني ([2]) .

* الموارنة : يعدون أهم طائفة في مسيحية في لبنان ، بفعل الدور السياسي ، الذي قاموا به في تاريخ البلاد ، ودورهم الريادي في تقرير مصير لبنان وإدارة سياسته . وطدوا علاقاتهم بالصليبيين في وقت مبكر ، حيث عملوا معهم كأدلاّء يرشدونهم إلى الطرق والمعابر . استطاعوا تحقيق الوحدة مع الكنيسة الكاثوليكية في القرن الثامن عشر ، فقام البابا " جريجوريوس الثالث عشر " بإنشاء مدرسة باسم المدرسة المارونية، بهدف تعليم رجال الدين

([1])– عمر عبد العزيز عمر: دراسات في تاريخ العرب الحديث والمعاصر، د ط، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية : 2005م ، ص269 .

([2])–. عمر عبد العزيز عمر، المرجع السابق ، ص ص 275–276 .

الموارنة، ليتسنى لهم القيام بواجباتهم الدينية، على نحو أفضل من ذي قبل . شغلوا وظائف الكتابة والتفتيش والحسابات عند العثمانيين ، من أشهر أسرهم آل " الخازن" وآل" حبيش" ([1]) .

* المتاولة : هم شيعة أصلهم وكيفية نشوئهم يكتنفه الغموض ، اسم " المتاولة" جمع "المتوالي" وهو من أتباع علي بن أبي طالب ، علاقتهم وثيقة بإيران وحكامها، عوملوا بشدة من قبل جيرانهم الدروز، ومن السلطات العثمانية فيما بعد ، فقد حاول والي صيدا " أحمد باشا

الجزار " إبادتهم . امتد نفوذهم في الجنوب فيما يعرف بجبل عامر، ومنطقة البقاع وبعلبك ، وكانت لهم جالية في دمشق ([2]) .

* المسلمون السنة : يمثلون سكان طرابلس بشكل خاص ، والسهول الساحلية، والمدن الساحلية من الشمال إلى الوسط ، حملوا لواء القتال ضد الصليبيين والقضاء على الطوائف التي ارتدت على الإسلام في لبنان وسورية ، ووطدوا سيادة السنة على المنطقة ([3]) .

وقد كانت العلاقات بين هذه الطوائف تتميز بالتعايش الودي ، وبالصراع والاقتتال حينما يتزايد النفوذ الأجنبي في لبنان ، خاصة في سنة 1840م لما انتقلت البلاد من الحكم المصري إلى الحكم العثماني من جديد ، حيث عادت المشاحنات ونشبت اضطرابات خطيرة ، في جبل لبنان بين المسيحيين و الدروز ، قامت إثرها ثلاث حروب أهلية أعوام 1841م و 1845م و1860م، هاته الأخيرة تعد أكبرها . وقد ساعدت عوامل عدة ، على إذكاء هاته الفتن الطائفية منها : السياسية الداخلية العثمانية ، و تركيز السلطة في الحكم المباشر و تشجيعها للصراعات الحزبية و الطائفية ، فضلا عن الدور الخطير ، الذي كان يقوم به المبعوثون الأجانب ، و خاصة الإنجليز ، لإثارة روح الحقد و الكراهية بين أفراد الطائفتين المسيحية والدرزية ([4]) .

([1]) – المرجع نفسه ، ص 277 ، 278 ، 279.

([2])– عمر عبد العزيز عمر ، المرجع السابق ، ص ص 279 – 280.

([3])– المرجع نفسه ، ص 280 و ما بعدها.

([4])– زاهية قدورة ، المرجع السابق ، ص ص 294 – 295 .

و تجدر الإشارة إلى أن الحكم العثماني في المشرق العربي ، كان حكما غير مباشـــر ، باعتبار أن فكرة الحكم لدى العثمانيين كانت بسيطة جدا ، و تتمثــل فـــي أن الدولـــة تضـــطلع بوظائف محددة ، لا ينبغي أن تتجاوزها و هي :

أولا : الدفاع عن ولايات الدولة أو ممتلكاتها و مهاجمة البلاد المجاورة ، و هي مهمة تقع علـــى كاهل الجيش .

ثانيا : للجيش وظيفة أخرى هامة أيضا ، هي الحفاظ على الأمن في الداخل ، تم جباية الأموال الأميرية (الضرائب) ، و توزيعها في وجوهها المختلفة ، الأمر الذي يتطلب إنشاء إدارة مالية.

ثالثا : القيام بالفصل في المنازعات بين الناس ، مما يستلزم إنشاء نظام قضائي .

رابعا : اعتبار الوظائف الأخرى عدا الصحة و التعليم ، خارج نطاق مسؤولية الدولة العثمانية ، و بالتالي تترك للأفراد و الهيئات و الجماعات([1]).

و لما ولد الأمير شكيب أرسلان سنة 1869م ، كان لبنـــان يحكـــم بمقتضـــى النظـــام " الأساسي " (Règlement Organique) الذي تم التوقيع عليه في 09 جوان 1861 م فـــي الأستانة ، من قبل كل من الدولة العثمانية و فرنسا و إنجلترا و روسيا و بروســـيا و النمســـا ، و أصبح بموجبه للبنان متصرف مسيحي كاثوليكي ، يعين من طرف البـــاب العـــالي و يكـــون مسؤولا لدى الأستانة ، على أن يكون عثمانيا من غير اللبنانيين ، مع موافقة الدول الستة علـــى تعيينه ، يساعده في شؤون الحكم مجلس إداري يتألف من اثني عشر عضوا يمثلـــون مختلـــف الطوائف (أربعة عن الموارنة ، ثلاثة عن الدروز ، اثنين عن الروم الأرثوذكس ، واحد عـــن الروم الكاثوليك ، واحد عن السنة ، واحد عن الشيعة) . كما تم تقسيم المتصرفية بموجب هـــذا القانون ، إلى سبع مناطق إدارية أو أقضية ، على رأس كـــل منهـــا قائمقـــام يقـــوم بتعيـــين المتصرف من بين أفراد الطائفة التي تشكل الأغلبية السكانية . أمـــا الأقضـــية فقســـمت علـــى نواحي ، و كل ناحية يكون عليها مدير معين من المتصرف .

أما القرى فيرأس كل منها مختار أو شيخ منتخب من طرف الأهـــالي ، لإدارة الشـــؤون المحلية . و في المقابل أقر النظام الأساسي ، أن المتصرف يساعده في الحفـــاظ علـــى الأمـــن

([1]) – زاهية قدورة ، المرجع السابق ، ص ص 287 – 288 .

فصائل من الدرك اللبناني ، التي أوكلت لها أي أيضا الشرطة القضائية ، و جعــل الضــرائب أساسا للميزانية ، فإذا كان هناك فائض يسلم إلى الباب العالي ، و إذا حدث عجز قامت السلطة العثمانية بسده . كما نص النظام الجديد ، على إسناد القضاء على محاكم ابتدائيــة واســتئنافية، وعلى إلغاء العمل بالإقطاع ، وتحقيق المساواة بين اللبنانيين كافة أمام القانون .

وقد ظل هذا القانون ساري المفعول ، طيلة الحكم العثماني الذي امتد إلى غايــة ســنة 1918م ، ولم تطرأ عليه إلا تعديلات طفيفة اقتضتها الظروف السياسية والداخلية المستجدة([1]). وجدير بالذكر هنا ، أن الأمير شكيب أرسلان تولى سنة 1902 منصب قائمقام مسقط رأسه قرية " الشوف " ، بتعيين من المتصرف " نعوم باشا " صديق عمه المعتزل من المنصب الأمير

"مصطفى أرسلان" ، استمر فيه إلى غاية 1907م ([2]) ، ثم استقال منه بسبب خلافاته الشديدة مع الولاة العثمانيين ، الذين كانوا يغرقون في الفساد ([3]) .

استمر الوضع في لبنان على هذا الشكل ، إلى أن جاءت الحرب العالمية الأولى ، التــي أدت إلى تأزم الحالة السياسية في البلاد، بفعل الوعي الذي تنامى بــين اللبنــانيين مــن جهــة، واشتراكهم في تأليف الجمعيات والهيئات العربية في بيروت واسطنبول وباريس من جهة ثانية، فانخرطوا على اختلاف طوائفهم مع غيرهم من العرب في الحركة القومية العربية . فكــان رد فعل الأتراك اتجاههم ، القمع والاضطهاد ، حيث عينوا " جمال باشا " حاكما على سورية ولبنان وفلسطين ، والذي أمعن في البطش بتهمة معاداة الدولة العثمانية ، وإعدامهم شنقا في ســاحات دمشق وبيروت .

وقد استماتت الدولة العثمانية ، في محاربة حركة الوعي العربي فــي هــذه المرحلــة ، مستخدمة كل الوسائل المتاحة ، ولكنها اضطرت في نهاية المطاف إلى الانسحاب مــن ســوريا ولبنان بعد انتصار الحلفاء ، فاسحة المجال لفرنسا التي بسطت سيطرتها علــى لبنــان، تنفيــذا

([1])- عمر عبد العزيز عمر ، المرجع السابق ، ص 413 وما بعدها.

([2]) – لوثروب ستودارد : حاضر العالم الإسلامي ، ترجمة عجاج نويهض ، م 1 ، ج 1 ، ط4 ، دار الفكــر للطباعة والنشر ، بيروت : 1973 ، ص 33 .

([3]) – محمد شيا : شكيب أرسلان ومقدمات الفكر السياسي، سلسلة كتاب الفكــر العربــي ، د ط ، بيــروت : 1983م ، ص 56.

لاتفاقية " سايكس بيكو " 1916م ، فعينت عليه قنصلها السابق في بيـــروت " جـــورج بيكـــو " مفوضا ساميا ، ومنحته صلاحيات سياسية وإدارية واسعة ([1]) .

وفي 20 أفريل 1920م ، أقر المجلس الأعلى للحلفاء المجتمع في " سان ريمو " بايطاليا، الانتداب الفرنسي على سورية ولبنان ، ثم قام بعد ذلك المفوض السامي الفرنســـي الجنـــرال " غورو" بإصدار مرسوم 31 أوت 1920م ، الذي ضم بموجبه بيروت والبقاع و مدن طرابلس وصيدا وصور وضواحيها إلى متصرفية جبل لبنان ، لتصبح كلها دولة واحـــدة ، وفـــي اليـــوم الموالي أعلن "غورو" قيام دولة " لبنان الكبير " كدولة مستقلة ، تحت مظلة الانتداب الفرنسي ، لينتهي بذلك نظام المتصرفية في لبنان ، رغم بروز بعض حركات المعارضة التي لم تفلح في : " توحيد النضال السياسي والاجتماعي اللبناني ، وصهره في بوتقة وطنية مدنية خالصة"، ويعود

ذلك إلى الفكرة الطائفية المستحكمة ، والتي غذتها الحزبية والظروف المحلية، وتحـــول أغلـــب الزعامات الإقطاعية القديمة إلى زعامات طائفية ، غايتها تمثيل الطائفة التي تنتمي إليها ، وليس المصلحة اللبنانية ([2]) .

ورغم ذلك لم يستسلم اللبنانيون للواقع الجديد ، بل قاموا بعدة ثورات ، أشـــهرها ثـــورة 1920م في جبل "عامل " ، وثورة 1925م التي أظهر فيها المجاهدون الشيعة في جنوب لبنـــان الكثير من الشجاعة والبطولة ([3]) .

اختارت سلطات الاحتلال ، أن تحكم لبنان حكما مباشرا ، حتى و إن ســـمحت بوجـــود مجلس تمثيلي منتخب سنة 1922م ، الأمر الذي كرس السيطرة الفرنسية الكاملة علـــى الحيـــاة اللبنانية ، لأن السلطة الحقيقية ظلت في أيدي الفرنسيين ، رغم الانتخابات التي كانت تجـــري ، و تغير وجوه حكامها الذين تعاقبوا على الحكم في لبنان ، فكان في النهايـــة تـــذمر عـــام مـــن اللبنانيين إزاء ذلك الوضع .

([1]) – زاهية قدورة ، المرجع السبق ، ص ص 302 – 303 .

([2]) – عمر عبد العزيز عمر ، المرجع السابق ، ص 451.

([3]) – زاهية قدورة ، المرجع السابق ، ص 309.

كما لم يغير من الأمر شيئا ، لا ددستور 23 مـــاي 1926م ، و لا إنشـــاء الجمهوريـــة اللبنانية في السنة ذاتها برئاسة رئيس لبناني مسيحي منتخب ، إذ بقي الوضع السياسي يدار مـــن قبل المفوضين الساميين و المستشارين الفرنسيين الذين تم توزيعهم على جميع الإدارات .

و أثناء الحرب العالمية الثانية التي اندلعت سنة 1939 م ، عرف لبنان موجة من القلـــق و الاضطراب ، بسبب سياسة فرنسا التي تميزت أكثـــر بـــالقمع و الســـيطرة علـــى المراكـــز الحساسة ، فلم تترك للبنانيين من مظاهر الحكم الوطني إلا رئاسة الجمهورية . و لما سقطت في يد الجيوش النازية ، حدث تجاذب بين حكومة " فيشي " (Vichy) و الجنرال " شارل دوغول "(Charle de gaulle) حول لبنان ، انتهى بغزوه من قبل القوات الديغولية الإنجليزية ، بعد أن خاضت معارك كثيرة دامت شهرا و نصفا ضد الفيشيين ، فأصبحت البلاد لفترة وجيزة تحت الحكم الديغولي بمساعدة حلفائه الإنجليز .

و لم يتمكن لبنان من الحصول على سيادته الوطنية التامة إلا في ســـنة 1946 م ، بعـــد توحد حزبي وطائفي و شعبي كبير ، في سبيل التحرر و الاستقلال ، كان له صدى قويا في

العالم كله ، وسط تعاطف عربي كبير ، أجبر الفرنسيين على الخضوع للأمر الواقع ، فأعـــادوا الزعماء اللبنانيين إلى مراكزهم في الحكم ، و تعم الجلاء عن البلاد في نهاية شهر ديسمبر مـــن سنة 1946 م ، بالاتفاق مع بريطانيا ([1]) .

و هكذا يتبين لنا ؛ وجود اختلافات أساسية في الأوضاع السياسية التي عاش فيها كل من الشيخ البشير الإبراهيمي و الأمير شكيب أرسلان ؛ فقد عاش الأول طيلة حياته التـــي امتـــدت لحوالي 76 سنة ، في بيئة سياسية استعمارية صرفة ، لم يرى فيهـــا إلا القمـــع و الاضـــطهاد السياسي و التضييق على الحريات و انتهاك حقوق الإنسان على نحو غير مسبوق في التـــاريخ الإنساني ، و إقصاء الأهالي ؛ الذين جعلت منهم عنصرا منبوذا في وطنهم بمنظومـــة إداريـــة و قانونية ، شرعت أساسا لخدمة مصلحة العنصر الأوروبي كاملة ، و لم تراعي منح حتى الحد الأدنى من الحقوق السياسية و المدنية للأهالي ، الذين يشكلون الأغلبية و يؤدون كل الواجبات .

بينما عاش الثاني (الأمير) في عهدين سياسيين مختلفين ؛ أما الأول فيتمثل فـــي عهـــد المتصرفية التي مثلت تطور سياسيا و إداريا في نمط الحكم العثماني في لبنان ، الـــذي عـــرف

([1]) – ينظر زاهية قدورة ، المرجع السابق ، ص 309 و ما بعدها .

خلاله لبنان بعض الجوانب الإيجابية : كالاستقرار في الأوضاع السياسية ، و مشاركة أكثر لمكونات المجتمع اللبناني في إدارة شؤونهم المحلية ، وفق معايير طائفية لم تغفلها السلطات العثمانية ، فحتى و إن لعب دورا كبيرا في ترجيح كفة طوائف على حساب الأخرى ، فضلا عن التطور الذي حصل في أكثر من مجال ، مثلما سنوضحه في المباحث الموالية . أما سلبيات هذه المرحلة فتتمثل في : تزايد التدخل الأجنبي في لبنان ، مستفيدا من الامتيازات الاقتصادية و العسكرية و الدينية و التي كان السلاطين العثمانيون ، يمنحونها للدول الأوروبية فوق الأراضي اللبنانية ، و كان من نتائجها ؛ قيام تلك الدول بإثارة الفتن و الحروب الداخلية ، كما حدث بين الموارنة و الدروز على سبيل المثال .

أما العهد الثاني ؛ الذي بدأ مع نهاية الحرب العالمية الأولى ، و انتقلت فيه إدارة لبنان من العثمانيين إلى الفرنسيين ، فقد كان احتلالا حقيقيا ، حتى و إن سمي انتدابا ، حكمت خلاله فرنسا البلاد بالقمع و التعسف و مصادرة الحريات ، رغم تظاهرها بتحقيق بعض الإصلاحات السياسية التي ظلت شكلية ، و لم تغير من واقع الأمر شيئا . تماما مثلما دأبت على فعله طيلة

احتلالها للجزائر ، حيث تفردت بإنشاء اللجان و تضخيم عدد أعضائها ، وإعمال الدعاية الكبيرة لها ، وبمنحها الأوقات الطويلة لتستكمل تحقيقاتها وتحرياتها، لينتهي بها الحال إلى تدوين تقارير طويلة تبذر فيها الأوراق والحبر لا غير على حد وصف الشيخ البشير الإبراهيمي .

و عليه فإن الإبراهيمي و أرسلان ، يتقاطعان في كون كليهما عاشا في ظل استعمار واحد هو الاستعمار الفرنسي ، ومكمن الاختلاف برأينا في الجانب السياسي هو أنه أوجد في الجزائر وضعا شمل كل مكونات الشعب الجزائري ، حيث طال التعسف والقمع والاضطهاد وإقصاء الجميع دون استثناء ، حتى أولئك الجزائريين الذين أظهروا تأييدا للاحتلال وحاولوا التقرب من إدارته بكل الطرق ، عساها أن تقبل التعامل معهم وتقتنع بأهمية الدور السياسي الذي يمكن أن يلعبوه لصالحها مع أقرانهم الجزائريين ، مع ما يوفره لهم ذلك من مصالح وامتيازات. والعلة في هذا النهج السياسي الفرنسي بسيطة ؛ وهي كون أن الجزائر كانت في نظر كل القادة الذين تعاقبوا على الحكم في فرنسا من سنة 1830م وإلى غاية 1962م ، مقاطعة فرنسية كانوا لا يملون من نعتهم ب : " فرنسا الجنوبية " (La France Du Sud) ، ينبغي أن تكون جزءا لا يتجزأ من " فرنسا الشمالية " (La France Du nord) التي تمثل " الوطن الأم

(Métropole) ، مع اعتبار الجزائريين أهالي (Des indigènes) أي مواطنين من الدرجة الثانية لا يحق لهم بأي شكل من الأشكال ، التمتع ولو ببعض الحقوق التي يتمتع بها المواطنون الفرنسيون والأوروبيون ، لأن منحهم حقوقهم السياسية ، يعني من وجهة النظر الفرنسية الاستعمارية إسقاط مبررات ضم الجزائر إلى المجال الفرنسي ، والمتمثلة في جعلها لتكون متنفسا اقتصاديا واجتماعيا لفرنسا فقط .

أما في لبنان ، فقد اختلف الأمر في جوانب عدة ، من غير أن يعني ذلك أن الوضع فيه لم يكن احتلالا، ففي الوقت الذي تعاملت فيه فرنسا مع الجزائريين في ما يخص انتهاك حقوقهم المدنية والسياسية بعدل وإنصاف ، فإنها في المقابل كرست الطائفية في سياستها اللبنانية، حيث اجتهدت في منح الطوائف المسيحية حقوقها كاملة ، وشجعتها على تبوأ المناصب الإدارية والسياسية ، حتى جعلت منهم قوة سياسية كبيرة في البلاد . بينما أقصت و همشت الطوائف الإسلامية وخاصة السنية منها ، ربما على نحو شبيه بما حدث في الجزائر .

ومن هنا فقد دفع هذا الوضع بالإبراهيمي و أرسلان، على حد سواء ، إلى العمل في الاتجاه الذي يجعلهما ينتقدان ويهاجمان السياسة الاستعمارية الفرنسية في بلديهما ، في المنابر الإعلامية والسياسية ، داخل الجزائر ولبنان وخارجهما ، الأمر الذي جعلهما في نظر الإدارة شخصين خطيرين يهددان مصالحها ، يستوجب الأمر وضع حد لنشاطهما بالمضايقة والنفي والسجن ، وبمحاولة تأليب الجميع ضدهما ، كما سنبرزه في الفصل الثاني من هذه الدراسة ، حيث خصصنا مبحثا لمواقف فرنسا من الرجلين . أما المبحث الموالي ، فسنكرسه للحديث عن الوضع الاقتصادي في الجزائر لبنان في عصر الإبراهيمي و أرسلان .

المبحث الثاني : الوضع الاقتصادي في الجزائر ولبنان :

01- الوضع الاقتصادي في الجزائر :

لقد كانت الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي لها ، تتمتع باقتصاد زراعي تقليدي ، يتماشى و متطلبات المجتمع الجزائري آنذاك ، و لكن بعد الاحتلال تغير نمط الاقتصاد الجزائري ، فأصبح اقتصادا موجها من قبل السلطات الاستعمارية ، بغرض خدمة مصالح الاقتصاد الفرنسي ، و الذهاب بعيدا في استغلال الجزائر أرضا و شعبا .

و لتحقيق هذه الأهداف ، شرعت الإدارة الاستعمارية ، مباشرة بعد الاحتلال ، في اغتصاب ملايين الهكتارات ، من أخصب الأراضي في الجزائر ، و نهب خيراتها و مواردها ، و احتكار جميع الأنشطة الاقتصادية فيها من زراعة و صناعة و تجارة ([1]) ، و تجميع كل ذلك في يد المعمرين ، المتعطشين للاستعمار و الاستغلال .

([1])- ينظر مجلة حضارة الإسلام ، العدد 06 / ديسمبر 1965 م .

(*) - هو الجنرال " توماس روبير بوجو " (THOMAS ROBERT BUGEAU) ، دوق " إسلي "- ISLY - ، ماريشال فرنسا و الحاكم العام للجزائر بين 1840م - 1847م .

و طبقا لهذه السياسة ، سخرت الحكومة الفرنسية كل الإمكانات و الامتيازات و المغريات المادية و المعنوية ، و في هذا الصدد تحدث الجنرال " بوجو " (Bugeaud) (*) ، في مجلس النواب سنة 1840م قائلا : ((إننا في حاجة إلى جحافل دهمـــاء مـــن المعمـــرين الفرنســـيين و الأوروبيين و لكي تجلبوهم فمن اللازم عليكم الاستيلاء على أراضي خصبة لا يطير غرابها ، و حيث ما وجدتم مياه متدفقة ، و أراضي رعوية أنزلوا المعمرين بها و لا يهمهم أمر أربابها ، يجب توزيع هذه الأراضي للأوروبيين حتى يصبحوا أصحابها و أربابها . و يصـــير أصـــحابها الأولون نسيا منسيا . و أخيرا يجب علينا أن نجعل نصب أعيننا هدفا متينا محكما ، و أن ننشـــأ إقليما فرنسيا و لذا فإننا في أمس الحاجة إلى غزو واسع يشبه غزوات القوط (**) ، و إن لـــم نفعل هذا تكون نتيجتنا أوهن من نسيج العنكبوت ".

إن هذا التصريح ، يوضح بدقة الأسس التي بنت عليها ، السلطات الفرنســـية سياســـتها الاقتصادية في الجزائر ، في قطاع الزراعة الذي كان يمثل عصب الاقتصاد الجزائري ، قبـــل الاحتلال .

و في ذلك أيضا ، كتب " فاران " (FARRAND) ([1]) ، أحد أنصار فرنسة الجزائر قائلا : ((يجب أن نستولي شيئا فشيئا ، بدون هوادة و لا شفقة على جميع مراتعهم و مراعيهم ، و نثقل كواهلهم بضرائب مرهقة حتى تتعذر عليهم الحياة ، فلا يجدون ما يسدون بـــه رمقهـــم فيصبحون حينذاك بين أمرين لا ثالث لهما : إما أن يثوروا أو ينخرطوا في جيش فرنسا للـــدفاع عنها)) . هذا الكلام يؤكد أن السلطات الاستعمارية ، كانت ترمي إلى تفقير و تجويع الأهـــالي بكل الوسائل ، لأن النشاط الزراعي كان المهنة الرئيسية لأغلبهم .

(**) – القوط أو الغوط (GOTHS) : شعب من شعوب الجرمانية القديمة ، استقر خـــلال القـــرن الثالـــث الميلادي شمالي البحر الأسود ، ظلوا في صراع متواصل مع الإمبراطورية الرومانية . أقاموا فـــي حـــوض الدانوب أثناء القرن 4 م و اعتنقوا الأريوسية . قاموا بالتراجع أمام زحف الهون سنة 375 م و انقسموا إلـــى فرعين : القوط الشرقيون الذين سيطروا على البلقان ، و اتحدوا مع روما ، و قاموا بغزو إيطاليا ، وانقرضت الدولة سنة 555م . أما القوط الغربيون ، فقد احتلوا روما سنة 410 م ، ثم أخرجوا منها ، و استقروا غربي فرنسا سنة 418 م ، و ثم قاموا بغزو إسبانيا سنة 476 م ، و بها أسسوا مملكة ظلت قائمة حتى الفتح العربـــي سنة 711 م . المنجد في اللغة و الاعلام ، ط 40 ، دار المشرق ، بيروت : د ت .

([1])– فرحات عباس ، المصدر السابق ، ص 74 .

فالزراعة إذن ، كانت أول قطاع اقتصادي تمت الهيمنة عليه ، و بما أن الأرض هي محوره فقد كان يتم يوميا الاستيلاء على أجودها ، و تسليمها للوافدين أصحابها الجدد ، بينما يطرد أصحابها الشرعيون إلى الجبال و المناطق الصحراوية ، مع العلم أن فلاحة الأرض كانت تعيل نسبة 70% من المجتمع الجزائري ، إلى غاية تلك الفترة . و قد بلغت المساحة الريفية المصادرة ، من سنة 1840م و إلى غاية 1950م : 2.703.000 هكتار ، لصالح 52 ألف مزارع أوروبي ، بينما كان بحوزة 532 ألف مزارع جزائري 2.672.000 هكتار([1]) ، 75% منها غير صالحة للزراعة و الرعي ([2]) .

و قد استمرت عمليات المصادرة ، ليصبح ما يقارب 93% تقريبا من الأراضي الساحلية ، التي تتميز بخصوبة عالية في يد المعمرين ، كما كان متوسط ما يملكه المستوطن الأوروبي 108 هكتار مقابل 14 هكتار للجزائري ، و هذا إلى غاية الاستقلال ([3]) .

إن المساحات الشاسعة المستولى عليها من قبل المعمرين ، حولت خصوصا لزراعة الكروم ، إذ وصلت مساحتها سنة 1935م إلى أربعمائة ألف هكتار من جملة المساحة المصادرة ، بعد أن كانت قد بلغت 226 ألف هكتار سنة 1926 م . أما إنتاجها من الخمور ، فقد قدر بـ : 193.000.000 هكتار لسنة 1954 م ، و قد كان إنتاج الكروم يمثل 75% من إجمالي المنتوج الفلاحي الجزائري ، و قد وفر لفرنسا سنة 1953م مبلغ 55 مليار ف .ف قديم . أما أملاك الاستيطان الريفية ، فكانت تدر دخلا سنويا صافيا ، قدره 93 مليار ف.ف قديم ، على الاقتصاد الفرنسي ([4]) . و لاشك أن الأهمية الكبيرة للكروم في اقتصاد الجزائر ،

([1])– رابح تركي : التعليم القومي و الشخصية الجزائرية 1931م – 1956 م ، ط2 ، ش و ن ت ، الجزائر ، 1981م . نقلا عن كوليت و فرانسيس جونسون : الجزائر الثائرة ، ترجمة علوي الشريف و آخرون ، وزارة الإرشاد المصرية : 1957م ، ص ص 132 – 133 .

([2]) – المرجع نفسه ، ص 87 .

([3]) – حسن عبد الرحمان سلوادي : عبد الحميد بن باديس مفسرا ، م و ك ، الجزائر : 1988م ، ص 18 .

([4])– شارل روبير أجيرون : تاريخ الجزائر المعاصرة ، ط 2 ، د م ج ، الجزائر : 1986 م ، ص 126 .

هي التي جعلت المؤرخ الفرنسي " شـــارل روبيـــر أجيـــرون " (CHARLES ROBERT AGERON) ([1]) يصفه بـــ : ((اقتصاد الكرمة)) .

أما المساعدات التي كانت تقدم للمزارعين ، فقد كان يستأثر بها المعمـــرون لوحـــدهم ، فعلى سبيل المثال ، كانت قروض الصـــندوق الجزائـــري للزراعـــة ، تـــوزع بنســـبة 99% عليهم ([2]) .

و في المقابل من ذلك ، كان الفلاح الجزائري الذي يفلح عادة ، أرضا قليلـــة المســـاحة و الخصوبة بطرق بدائية ، عاجزا عن توفير متطلبات أسرته ، و غير حر في التصـــرف فـــي منتوجاته ، لأنه كان رهينة للشركات الاحتكارية ، التي كانت تشتريها منه بأثمان زهيدة جـــدا ، و تعيد بيعها محققة أرباحا خيالية .

أما تربية المواشي ، فقد كانت تعاني هي الأخرى ، من مشاكل عديدة كضيق الأراضـــي الرعوية التي استولى عليها المعمرون ، و لم يترك لهم سوى الأراضـــي الجبليـــة الجـــدباء ، و نقص المياه المخصصة لسقي المواشي خاصة في مواسم الجفاف ، و هو ما أدى إلى تراجـــع النشاط الرعوي بشكل كبير ، بسبب نزوح الفلاحين إلى المدن الكبـــرى ، بحثـــا عـــن العمـــل و ظروف معيشية أفضل ([3]) .

و منه فإن سلطات الاحتلال ، بمصادرتها للأراضي الزراعية و الرعوية ، التي كانـــت في حوزة الأهالي ، و التي تمثل محور نشاطاتهم اليوميـــة ، و توجيههـــا للإنتـــاج الزراعـــي الجزائري ، خدمة للمصالح الاستعمارية ، و متطلبات الاقتصاد الفرنسي ، تكون بذلك قد أحدثت تغييرا كبيرا في بنية الاقتصاد الجزائري ، هذا من ناحية ، و دفعت بالسواد الأعظم من السكان إلى البطالة و الفقر ، من ناحية ثانية ، كما سنوضحه في مبحث آخر من هذا الفصل .

([1]) – المرجع نفسه ، ص 95 .

([2])– الفضيل الورثيلاني ، مصدر سابق ، ص 40 .

([3]) – أبو القاسم سعد الله : الحركة الوطنية الجزائرية ، ج 3 ، مرجع سابق ، ص 40 .

أما فيما يخص قطاع الصناعة : فقد حاول الفرنسيون إقامة صناعة في الجزائر ، و لكن هذه الصناعة ظلت محدودة و خفيفة ، لا تزيد عـــن المنـــاجم و الســـكك الحديـــدة ، و بعــض الصناعات الخفيفة كالمحاجر ، و الهدف من ذلك هو محاولة إبقاء الجزائر متخلفة صناعيا خوفا من فقدان المعمرين لليد العاملة الرخيصة ، و لاعتقاد الفرنســيين أن تطــوير الصــناعة فـــي الجزائر ، سيترتب عنه إخراج الأهالي من الفقر و الجهل و التخلف ([1]) . و هو مالا يتوافق مع الأهداف الاستعمارية عامة ، و أطماع المعمرين خاصة ، الــذين وصــفتهم إحــدى الصــحف الفرنسية المحافظة بـــ : ((الكولون الأغنياء طغاة الجزائر)) ([2]) . و هو وصف يعكس حقيقة المكانة الاقتصادية ، التي أصبح المعمرون يتمتعون بها في الجزائر ، على حساب سكان البلـــد الأصليين . في حين كانت الجزائر ، تزخر بالصناعات التقليدية ، التي تتمركز في كـــل أنحـــاء البلاد ، و تتميز بالتنوع و الجودة ، و الإقبال الكبير عليها من طرف الأهالي ، لكنها عرفت

تراجعا تدريجيا ، و أصبح و جودها ينحصر في بعض المدن القديمة و التاريخية ، كقســنطينة و تلمسان و بجاية و غيرها ([3]) .

أما نظام الضرائب ، فأقل ما يقال عنه أنه لم يكن عادلا ، فقد بلغت القسوة بمستخلصـــي الضرائب الفرنسيين ، أنهم كانوا : ((يأخذون قهرا من الرجل البرنس الذي يكتسي بـــه))([4]) . و في الوقت الذي كان فيه المعمرون ، يدفعون ضرائب محدودة ، كان الجزائريـــون يـــدفعون أنواعا مختلفة من الضرائب : كالزكاة و العشور ، إضافة إلى الحراسة الليلية للغابات ، و أعمال السخرة المختلفة ([5]) .

([1]) – عبد الكريم بوصفصاف، المرجع السابق ، ص 50.

([2]) – أبو القاسم سعد الله ، المرجع نفسه ، ج 2، ص 352. نقلا عن مجلة " إفريقيا الشمالية " ، جوان 1922 ، ص ص 269 – 270 .

([3]) – عبد الكريم بوصفصاف ، المرجع السابق ، ص50 .

([4]) – ابو القاسم سعد الله : الحركة الوطنية الجزائرية ، ج 2 ، مرجع سابق ، ص 40 .

([5]) – المرجع نفسه ، ص ص 89 – 90 .

لقد أدت هذه السياسة الضرائبية ، إلى الزيادة في معاناة الأهالي ، بسبب كثرتها و إرتفاع مبالغها ، مما كان يجبرهم في كثير من الأوقات ، على بيع ما تبقى لهم من أراضي و مواشي ، من أجل تسديدها . و خلال الحربين العالميتين ، عملت فرنسا على تكثيف استغلالها للجزائريين خدمة لأغراض الحرب ، فأثناء الحرب العالمية الثانية على سبيل المثال ، تم إفـراغ مخـازن الغذاء بكل ما تحتويه من كميات ، بحجة تموين فرنسا " أم الـوطن " فانتشـرت المضـاربات و السوق السوداء في تجارة الموارد الغذائية . و زاد في تأزم الأوضاع أكثر الجفـاف ، حتـى أصبح الناس يتناولون الأعشاب ، و يشربون مياه الآبار العفنة ، مما أدى إلى انتشـار الأوبئـة و الأمراض الفتاكة ، التي كادت أن تأتي على سكان البلاد بأكملهم ([1]) .

إن هذه السياسة الاقتصادية المتحيزة لصالح المستوطنين ، قد نجم عنها نتـائج وخيمـة على الأهالي المسلمين ، ومنها انتشار ظاهرة البطالة بقوة ، فقد وصل عـدد العـاطلين سـنة 1954م ، من جملة سكان الأرياف فقط مليون عاطل ([2]) ، بعد أن كان هؤلاء من قبـل ملاكـا زراعيين . أو عمالا أو تجارا يعيشون في ظروف أحسن . أم الذين كان لهم حظ العمل ، فكان يوم واحد من الشغل مثلا خلال الفترة الواقعة ما بين 1930م– 1940م ، لا يكاد يكفي لشـراء قوت يوم واحد ، مع العلم أن تجارة الأهالي قد انخفضت بشكل كبير ، وأصيبت بالكساد ، حتى

أصبح القنطار الواحد من الحلفاء ، يباع بمبلغ لا يزيد عن ثمانية فرنكات قديمـة فـي أحسـن الظروف ، في حين كان سعر خبزة واحدة تزن 600 غرام ، يتراوح ما بين خمسـة وتسـعة فرنكات قديمة . وفي سنة 1953م ، كان لشراء كبش يجب بيع من عشرين إلى ثلاثين قنطـارا من الحلفاء ([3]) .

ومن هنا يتضح لنا ؛ الاختلال الكبير الذي أحدثه الاحـتلال الفرنسـي فـي الاقتصـاد الجزائري التقليدي ، مخلفا وضعا اقتصاديا قاسيا ، حيث انقسمت الجزائر إلى مجتمعين : الأول قليل العدد كثير السطوة متعطش للاستثمار والاستغلال ، تحركه فـي ذلـك غرائـز حيوانيـة

([1]) – المرجع نفسه ، ص 184.

([2])– شارل روبير أجيرون ، المرجع السابق ، ص 132 .

([3])– الجيلالي صاري ، محفوظ قداش : المقاومـة السياسـية 1900م – 1954م ، (الطريـق الإصـلاحي والثوري) ، د ط ، م و ك ، الجزائر : د ت ، ص 165.

متأججة. أما المجتمع الثاني الذي يفوق الأول أضعافا مضاعفة ، فإنه كان يعمل فقط ، ويعـــاني من الفقر والجوع والمرض ، والجهل القاتل والإقصاء والتهميش من قبل ســلطات الاحــتلال . وهو ما سنتطرق إليه بصورة مفصلة ، في المبحث الموالي الذي سنكرسه للوضع الاجتمــاعي للجزائر ولبنان في عصر كل من الشيخ البشير الإبراهيمي الأمير شكيب أرسلان .

وعلاوة على كل ذلك ، لم تتردد فرنسا في الاستنجاد بالجزائريين بعــد نهايــة الحــربين العالميتين الأولى والثانية ، لإعادة بناء نفسها بعد أن أصابها الخراب والدمار ، ولإرجاع الصحة والتوازن للاقتصاد الفرنسي المنهار ، وخاصة في سنتي 1946م و 1947م ، حيــث أضــحى المهاجرون الجزائريون ، يمثلون نسبة (10%) من إجمالي اليد العاملة المستوردة (750 ألف عامل حسب لجنة التشغيل التابعة للمحافظة العامة للتخطيط الفرنسيتين) ([1]) .

وقد زاد هذا النهج الاقتصادي ، من اتساع الشقة بين المجموعة الأوروبية والمجموعــة الجزائرية ، وغذى الروح الوطنية لدى الأهالي المسلمين ، وقد انتبه إلى خطر هــذه السياســة الكثير من الكتاب والمفكرين الفرنسيين ، فحذروا فرنسا من التمادي في ذلك النهج ، خوفا مــن انهيار الإمبراطورية الفرنسية في شمال إفريقيا ، ولكن تصلب المعمــرين فــي مــوقفهم إزاء المسلمين الجزائريين وإبقائهم مستعبدين حال دون ذلك .

وقد كان الإبراهيمي ، واحدا من ملايين الجزائريين ، الذين عانوا من تــداعيات ذلــك ، فعاشوا تلك الأوضاع المزرية ، حتى أنه اضطر إلى بيع الشحم في الأسواق الشعبية ، لإعالــة أسرته بعد وفاة والده ، بالرغم من أن أسرته كانت معروفة بنشاطاتها التجارية ، وهو ما يعنــي يسر حالها ([2]) .

([1]) – الفضيل الورثيلاني ، المصدر السابق ، ص 382 .

([2]) – بشير فايد ، المرجع السابق ، ص 15 .

02 – الوضع الاقتصادي في لبنان :

كان الإقطاع هو النظام السائد في لبنان ، خلال العهد العثماني الذي امتد كما هو معلـــوم إلى غاية نهاية الحرب العالمية الأولى ، حيث سيطرت مجموعة من الأفراد على أغلب الأملاك الزراعية ، عن طريق النفوذ العشائري ، أو الهبة التي كانت تمنحها الدولة ، لمن كان يقدمها لها خدمة ، أو بغرض استرضائهم و شراء تأييدهم لها . فقد وهبت على سبيل المثال " لمصـــطفى باشا التركماني " أحد كبار الأعيان في لبنان ، مساحات واسعة من الأرض ، موزعة على نحـــو مائة قرية فلاحية ، في المنطقة الممتدة على محور حمص حماه ، مكافئة له على إخضاعه لبدو بادية الشام ، و منع اعتداءاتهم على القرى المجاورة ، و على قطعان الماشية .

و كان الإقطاعي ، يوكل شخصا ينوبه في الإشراف على المزروعات و المـــزارعين ، فيعاملهم معاملة الأقنان أو العبيد ، فالمقابل الذي كان يأخـــذه الفـــلاح ثمنـــا لعملـــه ، يخضـــع لاقتطاعات عديدة بأسماء مختلفة : أجور الشـــوباحي (أي مرافـــق الإقطـــاع) ، و الوقـــاف (أي ثمن القهوة و ذبائح) ...إلخ ، فلا يبقى في النهاية للفلاح ما يسد به رمقه ([1]) .

فالأسر الإقطاعية (المقطعجية) ، كانت هي صاحبة النفوذ المحلي ، لها أملاك شاسعة ، جعلتها تبدو مثل الأسر الإقطاعية في المعنى الأوروبي للفظـــة . أمـــا الأمـــراء و المقـــدمون و المشايخ (المقطعجية) ، فكانوا يتولون مسؤولية جباية الأموال المنوطة بالأمير ، في المناطق المختلفة بلبنان ([2]) .

و تجدر الإشارة إلى أن لبنان ، قد عرف خلال العهد العثماني محاولات للنهوض بقطاع الزراعة ، باستيراد المواشي لتحســـين الأصـــناف المحليـــة ، و اســـتقدام خبـــراء زراعيـــين و مهندسين مدنيين متخصصين في مجال الري من إيطاليا ، بهدف توجيه الفلاح اللبنـــاني فـــي تحسين وسائل و طرق الزراعة . و قد حققت هذه السياسة عدة إنجازات ، مثل زراعة شـــجرة التوت لتربية دودة الحرير ، التي توسعت فشملت كافة الجبال الساحلية ، و استقطبت عددا لا

بأس به من الفلاحين ، و ساهمت في تنمية صناعة الحرير ، التي كانت تغطي أكثر من مليـــون و ستمائة فرنكا ذهبيا لمنطقتي طرابلس و صيدا . أما معامل الحرير فقد بلغ عـــددها أربعمائـــة معمل ، منها 75 معملا كبيرا يعمل بها ما بين 10 و 12 ألف عامل سنة 1899 م ([3]) .

لقد بدأ لبنان منذ القرن 19 م ، يصدر خاماته الزراعية للصناعة الأوروبية ، بعد أن كان فيما سبق الفلاحون اللبنانيون ، ينتجون من أجل مسؤوليهم الإقطاعيين و لاستهلاكهم الشخصي . أما المصدرة فتمثلت في الحرير و القطن و التبغ و الفواكه و الصوف و القمح ... و غيرهـــا ،

([1])- ملحم قربان : تاريخ لبنان السياسي الحديث (الاستقلال السياسي) ، ج1 ، د ط ، المؤسســـة الجامعيـــة للدراسات و النشر و التوزيع ، بيروت : 1981م ، ص 66 .

([2])- المرجع نفسه ، ص 66 . نقلا عن كمال سليمان الصليبي : " العثمانيون انتقوا الشهابيين ليتسلموا التـــزام كسروان و المناطق اللبنانية الدرزية " ، جريدة النهار ، عدد 28 مارس 1975 م ، ص 10 .

([3])- ملحم قربان ، المرجع سابق ، ص 67 . نقلا عن جبرائيل منس : الاقتصاد اللبناني ، محاضـــرات فـــي الأكاديمية اللبنانية سنة 1953م ، ص 7 .

مثلما كان عليه الحال في الأقاليم الشامية الأخرى . و لذلك فقد ازدادت صادرات الدولة العثمانية من المواد الزراعية و الغذائية نحو فرنسا، من 12,6 مليون ف ف في أوائل القرن التاسع عشر (ق 19م) ، إلى مائة مليون و نيف بعد عام 1856م ، لا يقل عن 20% منها كان مصدرها الشام ([1]) .

و في الغالب ، لم يكن الفلاح المنتج للخامات الزراعية المعدة للتصدير ، يقوم بتسويقها بنفسه ، بل كان يعطيها للإقطاعيين أو للدولة في شكل ضرائب عينية ، لكنه في مرحلة متأخرة أخذ شيئا فشيئا يبيعها بنفسه ، بعد اتساع التداول النقدي هذا على المستوى الخارجي ، أما داخليا فقد كان تبادل السلع محدودا ، لأن الفلاحين كانوا يلبون كل احتياجاتهم بفضل إنتاجهم الخاص ، و كانوا في نفس الوقت فلاحين و نجارين و حائكين . لكن الأمر اختلف بالنسبة للفلاحين ، الذين انخرطوا في عملية الإنتاج لصالح التصدير ، خاصة مربي دودة القز ، و مزارعي التبغ و القطن ، و أصحاب بساتين الفواكه ، إذ أصبحوا يبيعون منتوجاتهم في السوق ، و يشترون في مقابلها جزءا كبيرا من المواد الاستهلاكية ، بما فيها الخبز ([2]) .

و قد ساعد الإنتاج المتزايد ، على تنشيط التجارة الخارجية ، التي تحولت مع مرور الزمن إلى مورد آخر من الموارد الوطنية ، و كانت سفن تجار فلورنسا (ايطاليا) هي التي تؤمن الأسواق الخارجية ، و صفقات بيع منتوجات لبنان من الصابون و زيت الزيتون و الحرير و القمح ، و غيرها من أنواع الحبوب ([3]) . أما التجار الفرنسيين فقد كانوا يلاقون الترحاب

([1]) - فلاديمير لوتسكي : الحرب الوطنية التحريرية في سوريا 1925م – 1927م (صفحة مشرقة من النضال العربي عضد الإمبريالية الفرنسية) ، تعريب محمد ذياب ، سلسلة تاريخ المشرق العربي الحديث ، دار الغارابي ، بيروت : 1987م ، ص 36 . نقلا عن :

N.VERNEY et G. DAMBMAN : les puissances étrangères dans le levant , en syrie et en palestine , PARIS , 1900 , P 550 .

([2]) – فلادمير لوتسكي، المرجع نفسه ، ص 37 . نقلا عن أ. روبين : سوريا المعاصرة و فلسطين ، بطرسبرج : 1919م ، ص 230 .

([3]) – ملحم قربان ، المرجع السابق ، ص 67 . نقلا عن جبرائيل منس : الاقتصاد اللبناني ، محاضرات في الأكاديمية اللبنانية سنة 1953 م ، ص 7 .

و المعاملة التفضيلية ، حيث بني لهم على سبيل المثال ، نزل في مدينة " صيدا " . بنمط عمراني رائع و تحصينات كبيرة ، أدهشت الملوك الأوروبيين ([1]) .

ومن الواضح هناك أن النظام الإقطاعي ، الذي ظل متبعا في لبنان أثناء فترة الحكم العثماني للبنان ، رغم أنه كان استغلاليا للمجتمع اللبناني ، الذي يمثل فيه الفلاحون النسبة الغالبة من اليد العاملة ، التي تكدح وبالكاد تحصل على ما يسد حاجتها من الغذاء ، إلا أنه في المقابل سمح بإيجاد فائض في الإنتاج الزراعي والغذائي بكميات متزايدة ، كانت توجه للتصدير خاصة للدول الأوروبية الرأسمالية الصناعية ، الأمر الذي ساهم في تنويع مداخيل البلاد من الأموال ، التي كانت تساعد على تنمية الموارد الداخلية ، والرفع من المستوى المعيشي للسكان .

وفي هذا الصدد أيضا ، اشتهرت ولاية طرابلس بتجارة الحرير، وبتصدير القطن ، وبكثرة الأجانب غير المسلمين بها وخاصة الفرنسيين والإنجليز ، الذين كانوا في أغلبهم يحترفون التجارة ، ويمتلكون مراكز تجارية فيها . كما أقيمت في هذه الولاية مؤسسات دينية واجتماعية واقتصادية مختلفة ، مما جعلها تشهد ازدهارا عظيما ابن العهد العثماني ([2]) .

وبهدف إصلاح الاقتصاد اللبناني ، الذي كان يعاني من سيطرة الاحتكار وتنوع وارتفاع الضرائب ، وكثرة الفساد والرشوة ، بادرت الدولة العثمانية إلى إطلاق سياسة الإصلاحات منذ القرن الثامن عشر ، ليس في لبنان فحسب بل في كامل الإمبراطورية ، اثر الوعي الذي أخذ ينخر كيانها بعمق اقتصاديا وسياسيا وعسكريا واجتماعيا ، وقد تفاعل المجتمع اللبناني مع حركة الإصلاح تلك.

استهدف الإصلاح الجانب المالي بشكل خاص ، حيث ركز على تثبيت قاعدة الضرائب وأصول جبايتها ، لكن اللبنانيين شأنهم كشأن معظم شعوب السلطنة العثمانية ، لم يستفيدوا من ثمرات هذا الإصلاح ، بسبب استفحال عادات الفساد والرشوة وشراء الحظوة في أوساط المسؤولين والموظفين العثمانيين على مختلف مستوياتهم . ولكون هذا الإصلاح فرض ضرائب

([1]) – المرجع نفسه ، ص67. نقلا عن سعيد عقل : " أربع حقبات صنعت استقلال لبنان " ، جريدة النهار ، 22 جانفي 1974م .

([2]) – فاضل بيات ، مرجع سابق ، ص 206 .

جديدة ، إلى جانب الضرائب التقليدية ، فضاعف بذلك من الخسائر الاقتصادية ، وفاقم من المشكلة الاقتصادية والاجتماعية على الساحة اللبنانية ([1]) .

ولما انتقل حكم لبنان من السلطة العثمانية ، إلى الاحتلال الفرنسي بداية من سنة 1918م كما هو معلوم ، الذي انتهج سياسة اقتصادية تخدم المصلح الاقتصادية الرأسمالية الفرنسية . ففي الميدان الزراعي ، سعت فرنسا إلى الإبقاء على ملكية الأرض الإقطاعية ، وتعزيزها وتوسيعها ، وإلى تأمين الأراضي للاستعمار الزراعي الفرنسي ، بتدمير الملكية الفلاحية تدريجيا وبالدرجة الأولى الأراضي المشاعة . ولم يحتفظ الإقطاعيون في ظل الاحتلال الفرنسي بأراضيهم وثرواتهم فحسب ، بل بفرقهم المسلحة وحق محاكمة الفلاحين ، وغير ذلك من الامتيازات ، التي جعلتهم يمثلون سلطة محلية ، كانت بمثابة جهاز مساعد للسلطات الاستعمارية . كل ذلك انعكس سلبا على الإنتاج الزراعي ، فتدهورت تربية دود القز ، وتراجع محصول القمح والشعير والقطن والكروم .

وقد قاوم الفلاحون اللبنانيون بشدة السياسة الزراعية الفرنسية في بلدهم ، بالقيام بانتفاضات وثورات شعبية ، مثل انتفاضة حوران 1920م ، التي دفعت سلطات الاحتلال ، إلى إطلاق " قانون الإصلاح الزراعي " ، لامتصاص غضب الفلاحين ، والذي لم يمس سوى نسبة ضئيلة جدا من الأراضي الزراعية في البلاد ، فظلت الملكيات الكبيرة هي المسيطرة، مع ما تتسم به من طرق استغلال إقطاعية سبق وأن تحدثنا عنها في بداية هذا المبحث .

وكان من نتائج هذه السياسة الزراعية ، إضافة إلى تدهور الإنتاج الذي تطرقنا إليه ، الإفقار المتزايد للفلاح اللبناني ، ودخول البلاد في أزمة زراعية ، أدت إلى انخفاض الإنتاج

الموجه إلى التصدير ، كما كان عليه الحال في العهد العثماني، بل وصل الأمر إلى أن أصبحت السلع الأوروبية تتدفق بصورة متزايدة ، أمام العجز في الإنتاج المحلي ([2]) .

([1])- بنظر مجموعة من الباحثين : الأقليات والقوميات في السلطنة العثمانية بعد 1516م ، منشورات الجمعية التاريخية اللبنانية ، ط1 ، الفنار ، لبنان : 2001م ، ص7 وما بعدها .

([2])- ينظر فلادمبير لوتسكي ، المرجع السابق ، ص 101 وما بعدها .

أما في قطاع الصناعة ، فينبغي التذكير بأن الرأسمال الأجنبي ، لم يعمل على خنق الصناعة المحلية فحسب ، بل سعى للقضاء عليها . كما أن التدابير التي اتخذت ، أدت إلى فقدان الصناعة الوطنية اللبنانية لأسواقها التقليدية العربية والعثمانية ، وتردي أوضاعها على نحو خطير ، وإفلاس آلاف الحرفيين ، وغلق الكثير من معامل الحرف الصغيرة وحتى الكبيرة نسبيا .

وزاد من تفاقم الوضع إقدام الاحتلال ، على تقسيم البلاد إلى دويلات صغيرة ، فرضت الرسوم الجمركية على انتقال السلع فيما بينها ، لأن لكل دويلة منها وضعت لها شروط الحياة الاقتصادية بها ، من ضرائب وقوانين زراعية وتجارية وما شابه ذلك ، كل ذلك أدى إلى تدمير السوق الداخلية ، فكان قطاع الصناعة المتضرر الأكبر من ذلك ([1]) .

أما في المجال المالي ، فقد فرضت العملة السورية الجديدة المتمثلة في النقود الورقية ، التي ترتب عنها آثار وخيمة على مستوى السوق ونظام القروض ، ومدا خيل الحرفيين وأجور العمال ، وحياة جميع الفئات السكانية عدا المضاربين الماليين ، مما خلف سخطا كبيرا لدى الجميع .

أما في ميدان الضريبة ، فقد تم الإبقاء على نظام الضرائب العثماني ، مع استبدال الضرائب العينية بالضرائب النقدية ، وظل هذا النظام قائما طيلة الاحتلال ، مع بعض التعديلات البسيطة التي أدخلت عليه ، بهدف زيادة عائدات الخزينة . ولم يؤدي ذلك إلى أي تحسين في وضع الفلاحين ، لأن المبالغ التي كان يستخلصها جباة الضرائب الحكوميون ، لم تكن أقل مما كان يحصل عليه الفلاحون من مداخيل . و زيادة على الضرائب العثمانية القديمة ، أبقت الإدارة الاستعمارية على بعض الضرائب الاستثنائية التي كانت قد فرضتها أثناء الحرب ، كما أقرت على نحو متواصل عددا لا يحصى من الغرامات و التعويضات . و سيطر رجال المال الفرنسيون ، على البنك العثماني و بنك سوريا ، و وضعوا أيديهم على الشركات الكبرى ، مثل

شركة التبغ و ميناء بيروت ، و محطات الطاقة الكهربائية و النقل البحري و البري و الهاتف ، بدعم من أكبر بنوك فرنسا و هي : " بنك باريس و البلاد المنخفضة " (Banque de Paris et

([1]) – ينظر المرجع نفسه ، ص . 110 وما بعدها .

" بنك القرض الزراعي الجزائـري التونسـي " (Société Foncière des Pays Bas) ، الذي فتح فروعا له في لبنان و سوريا ، و بنك " الشركة العامة الفرنسـية " (Société Générale) ، و " الشـركة الجزائريـة " (Compagnie Algérienne) التي فتحت أيضا عددا من الفروع في البلاد . و كان هدف جميعهـا ، تحقيـق أقصى ما يمكن من الأرباح ، و نهب ثروات لبنان و المنطقة ([1]) .

وعلى ضوء ما جاء في المبحث ؛ نستخلص أن الأوضاع الاقتصادية في البلدين كانـت متشابهة إلى حدها ؛ فبغض النظر عن المرحلة العثمانية التي كان فيها الاقتصاد اللبنـاني يلبـي الاحتياجات الأساسية للسكان من المواد الغذائية والزراعية ، وتعدى ذلك إلى أن أصـبح يـوفر للبلد فائضا إنتاجيا هاما يتم توجيهه نحو التصدير حتى إلى الدول الأوروبيـة ، رغـم النظـام الإقطاعي المنتهج ، الذي كان يقترب في خصائصه إلى إقطاع العصور الوسطى الذي ودعتـه أوروبا خلال عصر النهضة . فإن الذي حدث خلال الاحتلال الفرنسي ، يمكن وصفه بالانقلاب الاقتصادي الهائل في الجزائر ، وبتحالف الرأسمالية مع الإقطاع في لبنان ، فإذا كان النمطـان مختلفان ، فإن النتيجة واحدة وهي ، الإمعان في استغلال الجزائر ولبنان أرضا وشعبا .

فلقد هيمنت الإدارة الاستعمارية الفرنسية في الجزائـر ، هيمنـة تامـة علـى الحيـاة الاقتصادية ، وغيرت كل شيء في الاقتصاد الجزائري ، بـدءا بالاسـتيلاء علـى الأراضـي الزراعية والرعوية الخصبة في السهول الساحلية والهضاب والمناطق الداخلية ، ومنابع الميـاه والغابات والمناجم والمحاجر ، وبجلب التقنيات الفلاحية الجديدة التي لم يعهدها الفلاح الجزائري ؛ المتمثلة في : الآلات والأسـمدة والمبيـدات الحشـرية وأنظمـة السـقي وبنـاء السـدود والمخازن...الخ ، وبفرض اقتصاد السوق الذي سبب الإفلاس للمجتمع الفلاحي الجزائري لجهله التام به . وتوجيه كل ذلك لصالح مجتمع المعمرين ، الذي كان يتقوى بالمساعدات السخية التي كانت تغدقها عليه السلطات ، فتحول إلى دولة داخل دولة على حد وصف البعض له . وهم

([1])- ينظر فلاديمير لوتسكي ، المرجع السابق ، ص 94 وما بعدها .

الذين تجردوا من كل القيم والأخلاقية والإنسانية من أجل الأموال وجني الأرباح ، بغض النظر عن الطرق المؤدية إلى ذلك. وقد أبلغ " فرحات عباس " حين قال([1]) : بأنه لا ذمة ولا ضـــمير لهم ، وبأن انتشارهم في البلاد كان بمثابة البلاء المستطير . وتحولوا مع تعاقب الوقت إلى آلـــة تبتلع كل شيء ذا قيمة لدى الأهالي ، وإلى مشكلة حقيقية ليس للجزائريين فحسب بـــل لفرنســـا ذاتها ، حيث بلغ بهم الأمر حد القيام بمحاولات للاستقلال عنها خلال الثورة التحريرية الكبرى .

وهو ما يفسر دفاعهم العنيف عن فكرة الجزائر فرنسية ، ورفضهم المطلق لأي تفاهم مع الجزائريين ، أو مجرد طرح فكرة إعادة النظر في الوضع الفرنسي في الجزائر ، فإن دل ذلـــك على شيء إنما يدل على الحياة المريحة والممتازة التي كانوا يحيونها ، على حساب سكان البلاد المحليين الذين كانوا يكدحون دون أن ينالوا شيئا .

والأمر ذاته حدث في لبنان مع اختلاف في الشكل لا في المضمون ، إذ انتهى الأمر إلى سياسة اقتصادية يمكن القول عنها أنها فريدة في نوعها ؛ وهي تحالف الرأسمالية الفرنسية مـــع الإقطاع المحلي اللبناني ، فلم تحدث هذه الظاهرة في أي مكان من العالم في حدود علمنا ، لأن الرأسمالية والإقطاع لا يمكن لهما أن يسودا من الناحية العلمية في مكان واحد ، لكن ذلك تحقق في لبنان وبنجاح لصالح المستعمر الخارجي (الانتداب) والمستعمر المحلي (رجال الإقطاع) على حساب اللبنانيين الذين تضرروا كثيرا من هذه السياسة المنتهجة ، ومن التدابير التي اتخذت على مستوى مختلف القطاعات الاقتصادية وخاصة قطاع الزراعة . فحتى وإن كان الوضع سيئا أثناء الحقبة العثمانية ، إلا أنه ساء أكثر لما تولى الفرنسيون زمام الأمور فـــي البلـــد ، الـــذي تعرض حسب المؤرخين إلى عمليات نهب واستغلال لم يشهد مثيلا لها حتى أيام الأتراك. وهـــو ما يبرر كون أن الفرنسيين ؛ أبقوا على كل الأنظمة العثمانية القديمة في كل ما هو اقتصـــادي ، وأدخلوا عليها بعض الإضافات ، حتى تستجيب لأهدافهم التي تأتي على رأسها تنمية الاقتصـــاد الفرنسي وازدهاره .

وإذا كانت فرنسا ، قد أولت عناية كبيرة لقطاع الزراعة في الجزائر ولبنان ؛ فإنها فـــي المقابل قد سعت منذ البداية إلى تحطيم البنية الصناعية الموجودة ، رغم أنها لم تكن ترقى إلـــى المستوى المطلوب آنذاك ، لمنع قيام أي نهضة صناعية بالبلدين ؛ يمكن لها أن تنافس أو تهدد

([1]) – فرحات عباس ، المرجع السابق ، ص 95.

الصناعة الفرنسية ، لأن المطلوب فقط هو الحصول على الخامات الزراعية والمنجمية وتوجيهها إلى الصناعة الفرنسية في " الوطن الأم " ، التي كانت متعثرة بفعل شح مصادر تموينهـا بتلـك المواد والخامات . فلا غرابة أن نجد أن هذا القطاع في غاية البدائية والتخلف ، عشية اسـتقلال البلدين .

وفاقمت سياستها في المجالين الضريبي والمالي من الوضع ، فالضـرائب كانـت تنمـو باطراد نوعا وكما ، وقضت على كل ما يملكه السكان في الجزائر ولبنان وخاصة في المنـاطق الريفية ، مع فارق في كون أنها شملت كل الفئات الاجتماعية في الجزائـر ، فـي حـين أنهـا استهدفت في لبنان بصورة محددة المسلمين شيعة وسنة ، واستثنت المسيحيين وعلـى رأسـهم الموارنة ؛ الذين لم يتضرروا من ذلك ، لأن إدارة الانتداب عملت على جعلهم وسيطا اقتصاديا بينها وبين المجتمع المحلي ، وهو ما نجحت فيه . أما المؤسسات المالية التي أنشأتها ، فكانـت بغيتها تقديم القروض للمعمرين في الجزائر ، والإقطاعيين المسيحيين والرأسماليين الفرنسـيين في لبنان ، وتسهيل حركة تصدير السلع والبضائع إلى فرنسا وأوروبا .

ومن الطبيعي ؛ أن تترب نتائج وخيمة لهذا الوضع الاقتصادي على الحياة الاجتماعيـة للمجتمعين الجزائري واللبناني ، وهو ما سنقف عليه في المبحـث الآتـي بعنـوان : الوضـع الاجتماعي للجزائر ولبنان في عصر البشير الإبراهيمي و شكيب أرسلان.

المبحث الثالث : الوضع الاجتماعي في الجزائر ولبنان :

01- الوضع الاجتماعي في الجزائر :

كان سكان الجزائر في أواخر العهد العثماني ، ينقسمون إلى طبقات و مجموعات طائفية ، تتميز عن بعضها البعض بنمط المعيشة و أسلوب الحياة ، و تباين مصادر الرزق ، و طبيعة علاقاتها مع الحكام . فسكان المدن كانوا يتكونون من عدة مجموعات طائفية و مهنية([1]) ، تأتي الأقلية التركية ، التي تتشكل في أغلبيتها من الجنود الأتراك " الإنكشارية " في المرتبة الأولى ، من حيث المكانة الاجتماعية ، رغم عدد أفرادها الذين لا يتجاوزون العشرة آلاف فرد (10.000) . و إضافة إلى العمل في الجيش ، كانوا يمارسون الوظائف الإدارية ، أو التجارة بفتح دكاكين القماش و المجوهرات و المواد الكمالية ، أو الإشراف على بساتينهم التي كانوا يملكونها في ضواحي المدن . ثم تأتي طبقة " الكراغلة " ، التي تكونت عن طريق تزاوج الجنود الأتراك بنساء جزائريات ، قدر عددهم في أوائل القرن التاسع عشر (ق 19 م) بعشرين ألف نسمة (20.000 ن) ، احتلوا المرتبة الثانية في السلم الاجتماعي ، بفضل علاقاتهم الخاصة بالأهالي ، و لاشتغالهم بالزراعة و التجارة و المهن الحرة و حتى في الوظائف الإدارية من ناحية ، و بالسلطات العثمانية من ناحية أخرى .

ثم طبقة " الحضر " (البلدية) التي يقطن أفرادها بالمدن ، و هم من أصول أندلسية و شريفية ، يزاولون التجارة و التعليم و القضاء و ركوب البحر ، و كان منهم الكثير من الفقهاء و العلماء ([2]) .

أما فيما يخص المراتب الدنيا ، فكانت توجد مجموعات " البرانية " ، التي هاجرت إلى المدن الكبرى من مختلف أنحاء الوطن ، بحثا عن العمل و حياة اجتماعية أفضل . و منهم " الميزابيون " (منطقة ميزاب) ، و" البساكرة "(بسكرة) ، و " الزنوج " و" الجيجيليون " (منطقة جيجل) ، و الأغواطيون (منطقة الأغواط) ، و جماعة " القبائل " .

([1])- ناصر الدين سعيدوني ، المهدي البوعبدلي : الجزائر في التاريخ (العهد العثماني) ، ج 4 ، م و ك ، الجزائر : 1984م ، ص 87 .

([2]) – المرجع نفسه ، ص ص 92-94 .

أما بالنسبة للجماعات الأجنبية ، فكانت هنالك الجالية اليهودية ، التي بلغ عـددها عنـد بدايـة الاحتلال ثلاثون ألف نسمة (30.000 ن) ، يتمتع أفرادها بنفوذ اقتصادي كبير ، و مجموعة " الدخلاء " و تتألف من التجار الأجانب و قناصل الدول الأوروبية ، و أفـراد البعثـات الدينيـة و الإرساليات التبشيرية و الأسرى المسيحيين ([1]) .

أما سكان الريف ، فيمثلون غالبية سكان البلاد ، إذ كانت نسبتهم تفوق 95% من مجموع السكان ، و يتألفون من عدة جماعات و منها : " قبائل المخزن " ، التي تقوم بمهـام و أعمـال فلاحية و عسكرية و إدارية ، و تمثل حلقة الاتصـال بـين الأريـاف و المـدن . و قبائـل " الرعية " ، التي كانت تخضع لسلطة " البايات " عن طريق " القياد " و الشيوخ ، و تعامل عادة بأسلوب القسوة و الاضطهاد ، خاصة في استخلاص الضرائب ([2]) .

و بناء على هذا التعريف المختصر ، نلاحظ أن المجتمع الجزائري كان مجتمعا طبقيـا ، في شكل هرمي من حيث الامتيازات و المكانة الاجتماعية ، تختص فيه كـل جماعـة سـكانية أو طائفة مهنية ، بأدوار نشاطات محددة تكمل بعضها البعض .

و رغم وجود بعض الطبقات المهمشة ، إلا أن المجتمع الجزائري في عمومـه ، كـان يعيش في هدوء و انسجام ، في حين كان المستوى المعيشي ، يختلف من المدن إلى الأريـاف ، حسب مداخيل كل مجموعة سكانية ([3]) .

أما بعد الاحتلال ، فقد تغير الوضع الاجتماعي ، بسبب سياسة الاستيطان التي انتهجتهـا فرنسا ، و التي أدت إلى انقسام المجتمع الجزائري إلى مجمـوعتين اجتمـاعيتين مختلفتـين : المجموعة الأوروبية و الجالية اليهودية ، و المجموعة الجزائرية الإسلامية .

فالمجموع الأوروبية ، كانت تنمو باستمرار ، و تتغذى بالمهاجرين الأوروبيين ، الـذين كانوا يتدفقون على الجزائر ، و قد شجعهم في ذلك تلك التسهيلات و المساعدات السخية المقدمة لهم كالتكفل بسفرهم ، و حصولهم مجانا على أخصب الأراضي الجزائرية ، التي كانت

([1]) – ناصر سعيدوني ، المهدي البوعبدلي ، المرجع السابق ، ص ص 99 و ما بعدها .
([2]) – المرجع نفسه ، ص 105 و ما بعدها .
([3])– صلاح العقاد : المغرب العربي ، ط 3 ، المكتبة الأنجلو المصرية : 1969م ، ص ص 160-161 .

تصادرها الإدارة الاستعمارية من الجزائريين المالكين الشرعيين لهـــا . فتمكنـــوا مـــع مـــرور الزمن ، من السيطرة على المصالح الاقتصادية و الحيوية في البلاد ([1]) .

و رغم التباين العرقي ، و عواطف البغض و الكراهية ، التي كانت تسود فيما بينهم ، إلا أنهم كانوا يشتركون في نظرة الحقد و العنصرية الطافحة اتجاه الجزائريين ، لا يـــرون فـــيهم سوى " سلالة مقهورة " ، يحق لهم التصرف فيها كما يتصرفون فـــي أملاكهـــم الخاصـــة ([2]). و الدليل على ذلك هو ، رفضهم قبول اندماج الجزائريين ، الذين نجحت الكنيسة في تنصيرهم ، داخل المجتمع الفرنسي ، إذ ظلوا ينظرون إليهم على أنهم مسلمون و فقط ([3]) .

أما اليهود ، فأصبحوا من المجموعة الفرنسية ، بعد أن مـــنح لهـــم قـــانون " كريميـــو " (CREMIEUX) الصادر في 22 أكتوبر 1870م ، حق التجنس بالجنسية الفرنسية ، فانتقل عددهم من 34 ألف نسمة سنة 1830م ، إلى مائة و ثلاثون ألف نســـمة (130.000ن) ســـنة 1950م ([4]) . و لم تفعل فرنسا ذلك ، إلا لتستقطب هؤلاء إلى صفها ، و تستخدمهم كأداة قمـــع إضافية لصالحها ضد الجزائريين .

و قد عملت السلطات الاستعمارية ، على منع أي تقارب بين اليهود و المسلمين ، عـــن طريق زرع الفتن بين الطرفين ، ثم تتدخل بعد ذلك لصالح اليهود ، و علـــى ســـبيل المثـــال حوادث 05 أوت 1934م بقسنطينة ، التي كان المعتدي فيها اليهود ، و الضحية المسلمون ، ف بدلا من أن تميل السلطات الفرنسية إلى العدل و الإنصاف بين الفريقين ، مالـــت إلـــى صـــف اليهود ، و عاقبت المسلمين الذين كانوا مظلومين ([5]) .

أما المجموعة الجزائرية ، التي كان يقدر عدد أفرادها ســـنة 1830م ، بعشـــر ملايـــين نسمة ، بناءا على رأي أحد الكتاب الجزائريين المعاصرين ، فإنهـــا تعرضـــت إلـــى الإبـــادة الجماعية ، من قبل قادة الجيش الفرنسي في الثلاثينات و الأربعينات من القرن التاســـع عشـــر ميلادي(ق 19م) ، مما عرضها للانهيار في الريف أو المدينة على حد سواء . ففي المدينة ،

([1]) – عبد الكريم بو الصفصاف ، المرجع السابق ، ص ص 62- 63 .

([2]) – ابو القاسم سعد الله : الحركة الوطنية الجزائرية ، ج 2 ، مرجع سابق ، ص 27 .

([3]) – عبد الكريم بو الصفصاف المرجع السابق ، ص 64 .

([4])– عبد الرحمان بن إبراهيم بن العقون ، المصدر السابق ، ج 1 ، ص ص 432–438 .

([5]) – المصدر نفسه ، ج 2 ، ص 114 .

قضت على مكانتها البرجوازية الاستعمارية قضاء تاما ([1]) ، و في الريف تم تفقير السكان و تجهيلهم و نفيهم إلى الجبال و الفيافي و القفار ، حتى تحول الفلاحون إلى بؤساء و مشردين أما إذا أرادوا الاستمرار في الحياة ، فكان عليهم قبول العمل في مزارع المعمرين و ضيعاتهم ، بأجور زهيدة و لساعات تعمل طويلة قد تصل في اليوم الواحد إلى أربع عشر ساعة (14) ساعة ([2]) .

و قد أدت هذه السياسة الاقتصادية المتبعة ، إلى انتشار الفقر و الجوع و المرض و الموت ، على نطاق واسع ، فعلى سبيل المثال ارتفع عدد الوفيات من 11850 حالة سنة 1939م إلى 133388 وفاة سنة 1942م ، أي بزيادة تقدر بـ 108% ([3]) . فكانت الأوبئة و المجاعات إضافة إلى عمليات الإبادة و التطهير ([4]) ، أحد الأسباب الأساسية المؤدية إلى الوفيات ، ففي سنة 1849م فقط حصد وباء الكوليرا في مقاطعة قسنطينة لوحدها 9434 نسمة ، و توسع ليؤدي إلى إبادة قبائل عن آخرها ([5]) .

و في هذا الصدد أيضا ، تعد مجاعة أواخر الستينيات من القرن 19م ، من أخطر المجاعات التي شهدتها البلاد ، لكونها امتدت إلى نصف البلاد تقريبا ، و لما خلفته من عدد هائل من الضحايا . فقد بدأت إرهاصات تلك المجاعة المدمرة منذ سنة 1866م ، و وصلت إلى ذروتها سنة 1867م ، و استمرت حتى سنة 1870م ، مخلفة خسائر بشرية فادحة تراوحت ما بين مائتي ألف (200.000) و خمسمائة ألف (500.00) قتيل ، و الآلاف من اليتامى

([1]) - AGERON (CH .R) Histoire de L'Algérie… OP-çit , P60 .

([2]) - . AGERON (CH .R) Histoire de L'Algérie… , P.55-58.

([3]) - DJALALI BENAMRANE , OP-CIT,PP.35-38

([4])- ينظر فرانسو مسبيرو : سانت آرنو أو الشرف الضائع ، ترجمة مسعود حاج مسعود ، د ط، دار القصبة للنشر ، الجزائر : 2007م .

([5])- A.NOUS CHI :" Constantine à la Veille de la Conquête " , cahiers de Tunisie , N:11;TR,1955,PP210-214 .

والأرامل ، و المشردين الهائمين على وجوههم بحثا عن جذور النباتات و أوراق الأشجار ، و حتى لحوم البشر لأكلها ، كما ورد في بعض التقارير الفرنسية ([1]) .

و في واقع الأمر ، أن عدد سكان الجزائريين كان يتراوح على نحو خطير طيلة الاحتلال ، فإذا لم تكن هناك مجاعات أو أوبئة ، تولى الجيش الفرنسي المهمة ، مثلما حدث في يوم الثامن ماي 1945م ، الذي ارتكبت فيه مجازر وحشية في كل من سطيف و قالمة ، خراطة ، يندى لها جبين البشرية ، و التي فاقت في وحشيتها أي تصور ، ضد أبرياء عزل خرجوا من ديارهم إلى الشوارع ، يهتفون بطريقة سلمية بنهاية الحرب العالمية الثانية 1939م – 1945م ، و بسقوط الديكتاتوريات العسكرية ، و يطالبون فرنسا التي كانوا إلى جانبها خلال الحرب بالأرواح (*) و الأموال ، أن تفي بوعودها ، و تعاملهم بمعاملة الصديق الذي وجدته إلى جانبها في أعسر الأوقات . فتنظر إلى مطالبهم بعين الاحترام و التفهم ، لكنها كافأتهم على تلك التضحيات ، بقتل أكثر من خمسة و أربعين ألف جزائري رجالا و نساء و أطفالا و شيوخا ، و بإحراق الديار و إتلاف الثمار ، و بانتهاك الحرمات الإنسانية . و قد دفعت تلك الأعمال الشيخ البشير الإبراهيمي ، إلى اعتبارها أعمالا لو شهدها فرعون لتبرأ منها و لأفتخر بعدم ارتكابه لها ، و هو الذي كان يذبح الأنبياء و يستحي النساء(**) ([2]) .

([1]) – للمزيد من التفاصيل حول المجاعة ينظر رمضان بورغدة : " أضواء جديدة على المجاعة و تداعيتها على المجتمع الجزائري في أواخر الستينات من القرن 19 م " ، مجلة الحوار الفكري ، مخبر الدراسات التاريخية و الفلسفية ، جامعة منتوري قسنطينة : العدد 05 / أوت 2009 م ، ص 135 و ما بعدها .

(*) – قدر الشيخ الفضيل الورثيلاني ، عدد القتلى بسبعين ألف (70.000) قتيل ، و المعتقلين بثمانين ألف (80.000) معتقل ، ردا لجميل الجزائريين الذين شاركوا في الحرب إلى جانب فرنسا ، بنصف مليون من خيرة شبابهم جنودا و عمالا . الفضيل الورثيلاني ، المصدر السابق ، ص 86 .

(**) – ينظر مقالنا بعنوان : " مجازر 8 ماي 1945م كما تحدث عنها الشيخ الإبراهيمي " ، من كتاب : محاضرات ملتقى مجازر 8 ماي 1945م في الذاكرة الوطنية ، و لاية سطيف : 2005م ، ص 120 و ما بعدها . و للإطلاع على بعض جرائم الاحتلال الفرنسيين في الجزائر ينظر سعدي بزيان : جرائم فرنسا في الجزائر ، د ط ، دار هومة ، الجزائر : 2009 م .

([2]) – مقتطف من محاضرة ألقيتها ، خلال الملتقى الوطني : " مجازر 8 ماي 1945م بداية نهاية الاستعمار الفرنسي في الجزائر " ، أيام 5 و 6 و 7 ماي 2008 م ، جامعة فرحات عباس سطيف .

و الأمر ذاته ، حدث خلال الثورة التحريرية 1954م – 1962م ([1]) .

و هكذا يمكن القول ؛ أن الاحتلال الفرنسي في الجزائر ، قد أحدث خللا كبيرا في تركيبة المجتمع الجزائري و في بنيته التحتية ، و قد أدى إلى ذلك إلى إضعاف أدائه السياسي و العسكري في البلاد ، و إضعاف دور العائلات الكبرى ، التي كانت تمد المجتمع بالإطارات الوطنية المختلفة ، التي يوكل إليها أمر الإشراف على إدارة شؤون البلاد ، و تقليص نفوذها الذي كانت تتمتع به قبل الاحتلال على جميع الأصعدة ([2]) مثلما كان عليه الأمر بالنسبة لعائلة الحداد التي قادت ثورة 1871م بالشرق الجزائري ، و حتى تلك التي سعت إلى التقرب من الإدارة الاستعمارية ، لاقت المصير ذاته ، بعدة وسائل و طرق ، و منها تأليب العائلات المعادية لها ضدها و تشجيعها ماديا و معنويا ، بهدف تقويض المكانة الروحية و السياسية التي كانت تتمتع بها في بلاد القبائل خاصة ، و في بقية جهات الجزائر عامة ([3]) .

و قد دفعت هذه الظروف ، بفئة هامة من الجزائريين ، إلى الهجرة إلى خارج البلاد ، نحو الأقطار العربية و الإسلامية خاصة ، و نحو فرنسا و أوروبا عامة ، و قد كان لهذه الهجرة الأثر الطيب على المستويين الفكري و السياسي في الجزائر ، إذ أدت إلى الإسراع في خلق وعي سياسي و ثقافي و تطور فكري ، ظهرت ثمارهما الأولى بعد الحرب العالمية الأولى ، من خلال النضال السياسي ، الذي تبلور في شكل حركات سياسية و إصلاحية ([4]) .

و بهذا الشكل ، تكون سلطات الاحتلال الفرنسي ، قد قضت على الانسجام الطبقي ، الذي كان بين مختلف فئات المجتمع الجزائري ، في الأرياف و المدن على حد سواء ، في أوائل عهد الاحتلال ، بسبب سياسة الاستيطان التي أدت إلى تقسيم المجتمع ، إلى قسمين متباينين في

([1])– ينظر شهادة السفاح " الجنرال بول أوساريس " (PAUL AUSSARES) في كتابه : شهادتي حول التعذيب (مصالح خاصة : الجزائر 1959م – 1959م) ، د ط ، ترجمة مصطفى فرحات ، دار المعرفة ، الجزائر : د ت .

([2]) – AGERON (CH.R) : HISTOIRE DE L'ALGERIE , OP-CIT, P.57 .

([3]) – بشير فايد : " جوانب من حياة الشيخ سي عزيز بن الحداد " ، مجلة الآداب و العلوم الاجتماعية ، كلية الآداب و العلوم الاجتماعية ، جامعة فرحات عباس سطيف ، الجزائر : العدد 04 / جوان 2006 ، ص 67 ، 68 ، 70 .

([4])– عبد الكريم بو صفصاف ، المرجع السابق ، ص 67 .

العرق و الثقافة و المكانة الاجتماعية . فالمجتمع الأول يمثل المعمرين ، المتـدفقين باسـتمرار على الجزائر ، و الذين احتكروا جميع الأنشطة الاقتصادية ، و يتمتعون بكل الحقـوق المدنيـة و السياسية .

أما المجتمع الثاني ، فهو الذي يشكل الأغلبية المسلمة ، التي كان ينظر إليها علـى أنهـا مجرد وسيلة استغلال ، يتصرف فيها المعمرون كما يشاءون . و من هنا تمكنت فرنسا ، مـن تقويض أركان المجتمع الجزائري ، و تفكيك تركيبته الاجتماعية و نمط حياته الذي كان عليـه قبل الاحتلال .

و لم يختلف الأمر كثيرا عنه في لبنان ، حيث سادت العبودية بأبشع صورها في المناطق الريفية ، التي كانت تستوعب النسبة الأكبر من إجمال سكان البلاد ، الذين يحترفون الزراعـة و الرعي و بعض البضائع التقليدية .

و قد تساوى في ذلك الوجود العثماني و الانتداب الفرنسـي ، حيـث وضـعا السـلطة الاجتماعية في يد العائلات و العصبيات العرقية الكبرى ، التي مارست حتى صلاحيات الدولـة في الإقطاعات التي كانت تحت طائلة نفوذها و سطوتها . و ظلت تدافع عنها بكل ما أوتيت من قوة ، حتى تضمن ديمومة ذلك الوضع ، الذي أتاحه لها النظام العثماني الذي لم يجد أي إشكال في تثبيت و توحيد المنظومة الإقطاعية ، طالما أن ذلك يمنح لـه الاسـتقرار فـي الأوضـاع و استمرار تدفق المنافع الاقتصادية عليه . و لما جاءت حكومة الانتداب الفرنسي ، تعزز موقفها أكثر خاصة بالنسبة للعائلات و الجماعات المسيحية المارونية .

و إذا كان الاحتلال الفرنسي في الجزائر ، قد أوجد مجتمعين : أوروبي يملك و يسـيطر و ينتفع بكل شيء ، و آخر لا يملك شيئا و يقاوم من أجل بقائه ، فإنه في المقابل قد أوجد فـي لبنان برجوازية إقطاعية مسيحية قوية محلية ، موروثة عن العهد العثماني التي تقوت أكثر بعـد ذهابه ، مرتبطة مصالحها بمصالح الأقلية الأوروبية المتحالفة معها . اسـتطاعت أن تتمفصـل تدريجيا في أهم دوائر السلطة و القرار ، و هو ما لم تتفطن إليه فرنسا في الجزائر إلا في الفترة الأخيرة من وجودها هنالك ، حيث سعت لخلق ما يسمى بالقوة الثالثة ، بعد أن شـعرت بـدنو رحيلها عن البلد .

02- الوضع الاجتماعي في لبنان :

كما سبق وأن اشرنا إليه في المبحث السابق في جزئه الذي خصصــــناه للحـــديث عـــن الوضع الاقتصادي في لبنان ، أن النظام الذي كان سائدا سواء في المرحلة العثمانية أو الفرنسية هو النظام الإقطاعي ، الذي كانت له تداعيات و انعكاسات كبيرة على المجتمع اللبناني المؤلــف بصورة خاصة من الفلاحين ، الذين كانوا يعملون في ظروف لا إنسانية في أغلــب الأحيـــان ، بفعل تسلط البرجوازية الإقطاعية التي استمرت في هيمنتها الاقتصادية و السياسية على البلاد ، حتى بعد رحيل العثمانيين و استبدالهم بالفرنسيين الذين أبقوا على الأوضاع ذاتها ، مع بعــض التعديلات الطفيفة ، التي رؤوا أنها ضرورية لتحسين ور فع درجة الاستغلال المـــادي ، الـــذي جاؤوا لأجله إلى منطقة الشام بصفة عامة .

فقد كان أولئك الفلاحون ، يعيشون جنبا إلى جنب مع الحيوانات الذين يســهرون علـــى تربيتها و رعيها ، في أكواخ يعتم أجواءها الظلام و الرطوبة ، مبنية من الطين أو الحجـــارة . أما طعامهم اليومي فلا يتعدى خبز الشعير أو الذرة مع اللبن ، أما اللحم فلم يكن يستهلك إلا في الأعياد الكبرى ، في حين كانوا يلبسون الثياب الرثة و القذرة . و قد وصف أحد الكتاب ذلـــك الوضع بالقول : ((أن كل شيء في حياة الفلاحين كان يوحي بالبؤس المدقع الموروث من زمن طويل ، و من النادر أن تجد قرية سليمة لأن الأطلال كانت منتشرة في كل مكان ، خراب شامل للأرض و للناس الذين كانوا يزرعونها)) ([1]) .

و الوضع ذاته كان يعشه العمال في قطاع الصناعة ، الذين كانوا يتقاضون لقاء عملهـــم اليومي المضني ، أجرا زهيدا لا يكفي إلا لسد الرمق ، يعانون من سوء التغذيـــة باســـتمرار ، و يسكنون الأكواخ ، و يعيشون في فقر مدقع . و لم يكن يوم العمل خاضعا لأي قانون ، يبـــدأ من طلوع الفجر حتى غروب الشـــمس ، أي أن المـــدة تتـــراوح مـــا بـــين 14 و 16 ســـاعة في اليوم([2]) .

([1]) – فلاديمير لوتسكي ، المرجع السابق ، ص 33 .

([2]) – المرجع نفسه ، ص 56 ، نقلا عن فؤاد الشـــمالي : نقابـــات العمـــال ، مطبعـــة الرايـــة ، بيـــروت : 1929 م ، ص 9 .

و قد بلغ الجشع بأرباب العمل ، أنهم كانوا يستغلون استغلالا بشعا النساء و الأطفال على حد سواء ، أما ظروف العمل فكانت غير صحية على الإطلاق : أكواخ ضيقة و قذرة ، و أقبية رطبة و مظلمة . لا أثر للضمان الاجتماعي و لا لأنظمة السلامة ، و حرمان تام من كل الحقوق المهنية ([1]) .

في لبنان و في غيره من المناطق الأخرى من الشرق العربي ، كانت العائلات الكبرى ذات العصبيات القوية ، هي التي تتبوأ المكانة الاجتماعية الأولى في البلاد ، تضطلع بمهام جباية الضريبة للدولة على مساحة محددة من الأرض عرفت بـ " المقاطعة " ، و لذلك سمي أفراد تلك العائلات بـ : " المقاطعجيون " ، الذين دأبوا على حمل ألقاب الشرف مثل : (أمير و شيخ) . و أصبحوا طرفا فاعلا و مؤثرا في شبكة العلاقات الاقتصادية و الاجتماعية ، تلجأ إليهم السلطة للعب دور الوسيط الطبيعي بينها و بين بقية الفئات الاجتماعية المشكلة للنسيج الاجتماعي اللبناني ، إدراكا منها لأهمية نفوذها الاجتماعي و الاقتصادي و السياسي ، و هو تحالف يمكن التعبير عنه بالمصالح المتبادلة بين الطرفين . تحتاج إليهم السلطة لكي تتمكن من إظهار سيادتها و فرضها في أرض الواقع ، و يحتاجون هم إليها لضمان تفوقهم الاجتماعي الذي يدر عليهم الامتيازات و السلطة الجزئية التي يمارسونها ، بتفويض من السلطة السياسية . و هو الأسلوب الذي ظل الباب العالي متمسكا به ، طيلة المدة التي خضعت فيها المنطقة لسلطانه .

و في الواقع ، تمكن بعض " المقاطعجية " ، من الحصول على امتيازات أوسع ، جعلت منهم فئة متميزة سياسيا و اجتماعيا و قانونيا عن كل العائلات : كممارسة القضاء داخل دوائرهم في القضايا التي لا تقتضي إصدار أحكام بالإعدام ، و تنفيذ قرار المحاكم الدينية . فضلا عن الإستئثار لوحدهم بالوظائف السامية في بلاد الأمير و جيشه ، و حق حمل الأسلحة و الظهور بمظهر شبه اقتطاعي .

و كان الحيز الجغرافي ، الذي تمارس في العائلات المسيطرة نفوذها على مجموعات عائلية من المزارعين ، موزعة بين قرى عديدة تسمى : " المقاطعة " أو : " المقطوعة " ، حيث تنهض العائلة بأكملها بمهمة جباية المستحقات المالية إزاء مصلحة الضرائب ، و بقدر ما ينجح

([1]) – فلاديمير لوتسكي ، المرجع السابق ، ص 56 و ما بعدها .

أولئك الأعيان في أداء دور الوسيط بين الدولة و الفلاحين ، بقدر ما يحصلون على المزيد من الصعود الاجتماعي ، الذي يغدقه عليهم الباب العالي .

سمح هذا الوضع فقط ، للمشايخ و الأمراء و رجال الدين المارونيين ، من الاستئثار باستثمار ثلثي الأراضي الزراعية ، مقابل ثلث يتمثل في قطع صغيرة يقوم باستغلالها بعض متوسطي الحال من الفلاحين ، بينما كانت أكثرية السكان لا تملك شيئا ، تمضي معظم أوقاتها في البحث عن العمل ، فإن وجدته يكون عن طريق " المرابعة " التي تعني عقد شراكة بين طرفين : مالك الأرض و الفلاح (الشريك) الذي يبيع له قوة عمله ، و هو عقد موثق يضمن التبعية المطلقة للفلاح لدى الشيخ ، و تبدأ الشراكة بدفع الفلاح مبلغا من المال يقدر بربع قيمة المحصول السنوي ، و هو بمثابة ضمان حسن عناية الفلاح بالأرض و الأشجار و ما تحويه من هياكل .

و من أشهر العائلات التي حظيت بهذا الوضع الاجتماعي المريح و المتميز : " المعنيون " الذين كانوا على رأس المناطق الدرزية في الجبل ، و تمكنوا من انتزاع الاستقلالية الذاتية للمنطقة ، و " الشهابيون " الذين انتموا إلى المعنيين بالمصاهرة ، و بسطوا نفوذهم على " وادي التيم " ، و احتلوا المرتبة الأولى على رأس " الهرمية الاجتماعية العائلية " ، باعتبارهم تابعين مباشرة إلى السلطان عن طريق الوالي ([1]) .

و مع تزايد النفوذ الأوروبي في البلاد ، الذي انتهى بفرض الانتداب الفرنسي ، شهد الوضع الاجتماعي اللبناني تحولات عدة و أساسية تتمثل في ؛ صعود فئات اجتماعية جديدة أبرزها الطائفة المارونية ، التي شكلت مع مرور الزمن برجوازية مسيحية : ((استمدت ديناميتها من كونها الوسيط المميز للنشاط الاقتصادي الأوروبي . بينما لم يحظ الأعيان المسلمون ... بأي دعم يرفعهم إلى مستوى طبقة جديدة . و قد منحت الثروة المكتسبة نفوذا لأصحابها بفضل المواجهة الحديثة بين الشرق و الغرب ، تلك المواجهة التي عاناها سواد الفئات الاجتماعية الأخرى التي بقي الإبهام يلف حاضرهم و مستقبلهم)) ([2]) .

([1]) – ينظر عارف العبد ، المرجع السابق ، ص 33 و ما بعدها .

([2]) – المرجع نفسه ، ص 73 .

و إذا كان هذا هو الحال في المناطق الريفية الواسعة ؛ عائلات أرستقراطية كبرى تهمين على الحياة الاقتصادية و الاجتماعية في الأرياف بفعل نفوذها السياسي ، فإن القسم الأكبر من سكان المدن كان متكونا من الطبقات الوسطى ، أي من مختلف الشرائح البرجوازية الحضـرية الصغيرة ، التي تتألف من الحرفيين و المستخدمين في التجارة ، صغار الموظفين و المستخدمين و رجال الدين ، و فئة المثقفين الشباب و خاصة الطلاب منهم . عددهم كان قلـيلا ؛ لكـون أن الغالبية الساحقة من السكان كانت تقطن في الأرياف ، و تمارس نشاطا رئيسيا هو الزراعـة ، و عليه فقد كانت المدن غير متطورة ، و بمثابة مراكز تجارية و إدارية أكثر منها صـناعية ؛ من أهمها بيروت و حمص و حماه و طرابلس ([1]) .

و علاوة على سكان الأرياف و المدن ؛ كان هناك ما يسمى بالبدو الرحل ، الذين ذهبت بعض التقديرات إلى كونهم كانوا يمثلون حوالي 10% من إجمالي السكان في لبنان و سـوريا معا ، يتنقلون باستمرار و انتظام بين مناطق الرعي الشتوية و الصيفية في الصـحراء ، ففـي فصل الخريف تنتقل إلى الشرق و يسمى هذا بالتشريق ، و في فصل الصيف تنتقل إلى الغرب و يعرف ذلك بالتغريب . هذا و رغم حالة الترحال الدائم ، إلا أنها لم تكن تعيش بمعـزل عـن المجتمع الحضري ، حيث ظلت الصلات بينها و بين السكان الحضريين قوية جدا ، خاصة فـي جانبها الاقتصادي . و غني عن الإشارة أن بعض أفراد هذه العائلات ، كثيرا ما يتحولون إلـى رعاة لقطعان المواشي لدى المشايخ ؛ كمحاصصين (لهم حصـة معينـة منهـا) أو كـأجراء مستخدمين أو كعبيد ؛ فقد تزايد عدد العبيد لعوامل عدة منها : الحروب القبلية ، و فقدان القبائل الضعيفة لمراعيها و قطعانها ، بالإضافة إلى ضم القبائل التي تجرد من ملكيتها قسرا إلى القبائل الأقوى منها .

و كما سلف ذكره أنه ؛ كان من نتائج هذه المعطيات الاجتماعية وجود أقليـة مسـيطرة و مستغلة ، و أغلبية فقيرة و محرومة خاصة في الأرياف ، في العهدين العثمـاني و الفرنسـي على حد سواء ، الأمر الذي غذى انعدام الاستقرار السياسي ، فكثيرا ما كانت التجمعات السكانية الريفية الفقيرة ، تعبر عن تذمرها من الوضع في شكل انتفاضات و ثـورات مثـل : ثـورات الفلاحين في الجبل أعوام 1854م و 1858م 1859م ،و ثورات منطقة جبل الدروز بين 1886م

([1]) – فلاديمير لوتسكي ، المرجع السابق ، ص 25 و ما بعدها .

و 1887م .... و غيرها . و التي لو تؤدي إلى أي نتائج إيجابية لصالح الفلاحين ، نتيجة للقمع الشديد الذي ردت به عليها السلطات العثمانية ، بتأييد من الدول الأوروبية في بعض الأحيـــان ، أو لتواطؤ بعض قادتها .

أما أثناء الانتداب الفرنسي ؛ فقد قاوموا بشدة و بعنف سياسة الحكومة الفرنسية ، التـــي أبقت على نفس السياسة السائدة خلال المرحلة العثمانية ؛ مع إضافة ضرائب جديدة و غرامات و تعويضات ، و عمدت إلى مصادرة الأراضي الواسعة الخصبة ، كما كانت تقـــوم بــــه فـــي الجزائر و تونس و المغرب ، توطيدا و توسيعا للملكيات الاقتصادية الكبرى ، و تأمينا للمزيـــد من الأراضي للاستعمار الاستيطاني . فلا غرابة أن تكون غالبية الثورات و الانتفاضات ضـــد حكومة الانتداب ، قد اندلعت في المناطق الريفية و تزعمها فلاحون ([1]) .

و بالإضافة إلى المقاومة عن طريق الثورات و الانتفاضات التي لم تتوقف ؛ لجأ أبنـــاء الطبقات الفقيرة في لبنان إلى أسلوب آخر للمقاومة و هو الهجرة الخارجية ؛ فـــآلاف الفلاحـــين و الحرفيين الصغار المفلسين ، كانوا يتركون لبنان سنويا بحثا عن حياة اجتماعية أفضـــل فـــي الولايات المتحدة الأمريكية و المكسيك و الأرجنتين و البرازيل ... إلـــخ . فـــبعض التقـــديرات أشارت أن عدد اللبنانيين المغتربين المنتشرين في كل أنحاء العالم ، ناهز حوالي نصف ســـكان لبنان ، و هذا عشية الانتداب الفرنسي ، و هو ما يدل على أن الوضع الاجتماعي كـــان مزريـــا و في غاية السوء . هاته الهجرات ، و إن لم تغير شيئا كثيرا في حياة اللبنانيين في تلك الأثناء ، حيث كان عدد معتبر منهم يضطر إلى العودة حاملا معه الخيبة اليـــأس ([2]) ، إلا أنهـــا شـــكلت ظاهرة لبنانية مميزة ، سمحت فيما بعد و لغاية الآن ؛ بوجود مغتربين لبنانيين يتبوءون مراكـــز رفيعة في مختلف دول العالم و خاصة في قارة أمريكا ؛ في حقول العلم و الصناعة و التجـــارة و السياسة و الطب ، و المهن الحرة ، بل أن منهم من أصبحوا وزراء و رؤساء و أعضاء في المجالس النيابية ، و هي ظاهرة لا ينافسهم فيها إلا السوريون و الفلسطينيون ، كما أدت إلى

([1]) – ينظر فلاديمير لوتكسي ، المرجع السابق ، ص 41 و ما بعدها .
([2]) – المرجع نفسه ، ص 57 .

جعل لبنان بلدا من أكثر البلدان انفتاحا على العـــالم، ثقافيـــا و سياســـيا و اقتصـــاديا و فكريـــا و إنسانيا ، و لا يزال كذلك ([1]) .

هذا من ناحية ، و من ناحية أخرى ؛ فقد ظلت نسبة الأمية مرتفعة كثيرا في لبنان (40% ســنة 1930م) ، خاصة في الريف اللبناني لاسيما عند الإناث ، كما أنها كانــت أكبــر لــدى أبنــاء الطوائف الإسلامية من الطوائف الأخرى ، و النسب الموالية التي سجلت عام 1935م ، توضح ذلك : 83% بين الشيعة ، 66% بين السنة ، 53% بين الدروز ، 53% بين الأرثــوزكس ، 48% بين الموارنة ، 38% بين الكاثوليك . بالرغم من أن التعليم الطائفي الخاص ، جعل مــن لبنان يحتل المركز الأول بين دول الانتداب ([2]) . لكنها تظل نسبا ضعيفة، بالمقارنة مع نظيرتها في الجزائر ، التي كان فيها المجتمع أميا بالكامــل ؛ نتيجــة للذهنيــة الاســتعمارية الفرنسـية العنصرية ، التي كانت ترى في فتح مدرسة عربية حرة ، جريمة تستوجب إدخال صاحبها إلى السجن ، و الزج به في نفس الزنزانة مع اللصوص و المجرمين . حتــى تنشــأ أجيــال مــن الجزائريين تجهل حقوقها و واجباتها ، و جل همها العمل لدى مجتمع المعمرين في ظروف أقل ما يقال عنها أنها لا إنسانية .

و في الأخير نسجل أن ، الجزائريين و اللبنانيين على حد سواء ، قــد قــاوموا بأشــكال مختلفة هذا الوضع ، بالثورات الشعبية المســتمرة و النضــال السياســي و الهجــرة الداخليــة و الخارجية ، فرار من المأزق الاجتماعي الخطير الذي دفعهم إليه المحتل الفرنسي، بسياســته الاقتصادية القائمة على الاستغلال و النهب للثروات . و هو ما حصــل مــع الشــيخ البشــير الإبراهيمي و الأمير شكيب أرسلان ، اللذان أمضيا جزءا معتبرا من حياتهما خــارج بلــديهما بحثا ، عن فضاءات أفضل تسمح لهما باستكمال تكوينهما العلمي و الثقافي و نضالهما الفكــري و السياسي ، و هو ما كان مستحيلا في ظل التجويع و التفقير و التجهيل ، هذا الأخير يعد إحدى أكثر الحلقات سوادا في التاريخ الاستعماري ، كما سيظهر في المبحث القادم .

([1]) – ينظر مالك شارل : لبنان في ذاته ، د ط ، مؤسسة بدران و شركائه للطباعة و النشر ، بيروت : 1984م ، ص 17 . و ما بعدها .

([2]) – فتوني علي عبد : البلاد العربية و التحديات الثقافية المعاصرة ، ط 1 ،دار الفارابي ، بيروت : 2007م ، ص ص 36 – 37 .

المبحث الرابع : الوضع الثقافي في الجزائر ولبنان

01- الوضع الثقافي في الجزائر :

قبل الاحتلال كانت الجزائر تشهد انبعاثا مستمرا للثقافة العربية و الإسلامية ، تتولى رسالتها المدارس و الزوايا و المساجد و الكتاتيب القرآنية . و من مظاهر هذا الانتعاش الثقافي ؛ انتشار المؤسسات التعليمية في الأرياف و المدن على حد سواء ، و انخفاض نسبة الأمية بشكل ملفت للنظر ، بالمقارنة مع الدول الأوروبية نفسها و على رأسها فرنسا ([1]) . فقد تميز التعليم في الجزائر حينئذ ، بالانتشار الواسع و النظام المحكم ، لاسيما في الحواضر العلمية كقسنطينة و بجاية و الجزائر و تلمسان ، بفضل نخبة من المعلمين و الأساتذة ، الذين كانوا يسهرون على ترقية التعليم و تطويره و نشره بين مختلف الأوساط الشعبية . و لعل ما يؤكد ذلك ، ظهور مثقفين بارزين من الطراز العالي قبل و عشية الاحتلال الفرنسي ، أمثال : ابن حمادوش الجزائري (*) و ابن العنابي (**) ، و حمدان بن عثمان خوجة (***) ، و غيرهم الذين تركوا مؤلفات راقية في مختلف العلوم و الفنون و الآداب .

([1])- فرحات عباس ، المصدر السابق ، ص 60 .

(*) - ابن حمادوش الجزائري ، ولد في مدينة الجزائر سنة 1107 ه (1695م) ، و توفي بعد حوالي تسعين سنة في مكان و تاريخ مجهولين ، تقلد عدة وظائف دينية ، إضافة إلى العلوم الشرعية و اللغوية ، فقد تخصص في علوم الطب و الفلك و الرياضيات و الصيدلة و الحساب ، كما عرف برحلاته خارج الجزائر من أجل الإطلاع و الاستكشاف . ينظر أبو القاسم سعد الله : رحلة ابن حمادوش الجزائري ، د ط ، م و ك ، الجزائر : 1982 م .

(**)- ابن العنابي : ولد سنة 1189ه (1775 م) ، و توفي سنة 1267 ه (1851 م) ، من أسرة كانت لها مكانة دينية و فكرية هامة ، كان يتمتع بثقافة كبيرة في العلوم الشرعية ، تولى عدة مناصب منها منصب القضاء الحنفي في عهد الداي أحمد باشا ، و عرف عنه أنه كان شديد النقد للسلطات الفرنسية على خرقها لإنفاق 05 جويلية 1930 م . ترك أثار فكرية عديدة ، منها كتاب " السعي المحمود في نظام الجنود " . ينظر عمر بن قينة : شخصيات جزائرية ، ط 1 ، دار البعث ، قسنطينة ، الجزائر : 1983م ، ص 21 و ما بعدها

(***)- حمدان بن عثمان خوجة : من المولودين (الكراغلة) ، ولد حوالي سنة 1773 م و من المحتمل بالجزائر العاصمة ، أما وفاته فمن المرجع أنها كانت بين سنتي 1840م-1841م ، سافر إلى الكثير من البلدان الإسلامية و المسيحية ، خلف لنا عدة آثار من أشهرها كتاب " المرآة " (LE MIROIR) الذي ألفه سنة 1883م . للمزيد ينظر : حميدة عميرواي : دور حمدان خوجة في تطور القضية الجزائرية

غير أن انتشار العلم و المعرفة في الجزائر ، لم يصل إلى المستوى الإنتـاج المـادي ، مثلما أصبح عليه الوضع في أوروبا في ذلك العصر ، و إنما كانت الثقافة الجزائرية ثقافة أدبية و روحية و فكرية ، لم تتحول إلى توظيفها بعد ، إلى الحياة المادية كالصناعة و التجارة وغيرها من الأساليب التكنولوجية ، التي أصبحت تبحث في مجاهل الكون و أسرار البر و البحر علـى حد سواء .

و من ثمرات الازدهار التعليمي و الثقافي ، أن أربعين بالمائـة (40%) مـن السـكان الذكور ، كانوا يحسنون الكتابة و القراءة ، و احتواء كل قبيلة و حي عصري على مدرسة([1]).

أما بعد الاحتلال ، فقد انقلبت الموازين و تغيرت الأوضـاع ، إذ تـم انتهـاج سياسـة تعليمية ، تعتمد على التجهيل و الفرنسة و الإدماج و التغريب ([2]). و نجـاح هـذه السياسـة : ((يكمن في العزل القسري للمقومات الحضارية للتراث العربي الإسلامي في الجزائر و تغييـر الهوية الثقافية السائدة ، و من ثم على الجزائر أن تكون فرنسية في كل شـيء ، و أن تنسـى ذاكرتها و جسور اتصالها بالماضي دفعة واحدة و إلى الأبـد)) ([3]) . إن هـذا الكـلام يحـدد بدقة ، الخطوات التي سطرتها السلطات الفرنسية ، لتحقيق الأهداف السالفة الذكر .

و في هذا السياق ؛ تم الاستيلاء على مراكز الثقافة العربية و الإسـلامية مـن مسـاجد و مدارس و زوايا ، و تحويلها إلى مراكز للثقافة الفرنسية و للهيئـات التبشـيرية المسـيحية ، أو إلى ثكنات و إسطبلات و متاجر ، لأن هذه المراكز هي التي كانت تحتضن التعليم التقليـدي في الجزائر ، أما الأوقاف الإسلامية فقد لاقت المصير نفسه ، الذي لقيتـه نفـس المؤسسـات الإسلامية الأخرى ، و التي كانت تمولها و تمنحها الديمومة و الاستقرار ([4]) .

إن هذا الهجوم الاستعماري الشرس على الثقافة العربية الإسلامية ، كان ينبع من إدراك قادة الاحتلال الفرنسي ، أن هذه الثقافة هي العائق الرئيس ، الذي يمكن أن يقاوم ما كانت تسعى

(1827م–1840م) ، ط 1 ، دار البعث ، قسنطينة ، الجزائر : 1987 م .

([1]) – FANNY COLONNA : instituteurs Algériens 1883-1939 , O.P.U , ALGER , 1975,PP .27-30

([2])– رابح تركي ، المرجع السابق ، ص 104 .

([3]) – عبد الكريم بوصفصاف ، المرجع السابق ، ص 87 .

([4])– رابح تركي ، المرجع نفسه ، ص ص 93–95 .

إليه من مسخ و تشويه ([1]) ، و من ثم وجب تجريد الشعب الجزائري منها ، و طمس معالمها و مسخها و : ((صبها في قوالب تلاءم أهدافه ، و مخططاته لتضمن لوجوده البقاء)) ([2]) . و قد صرح بهذه السياسة أحد الفرنسيين قائلا : ((إننا لم ننتصر على الجزائريين ما داموا يقرؤون القرآن و يتكلمون اللغة العربية ، فيجب أن نزيل القرآن من وجودهم ، و أن نقتلع العربية من ألسنتهم)) ([3]) . و من هنا فقد كان على سبيل المثال ، فتح مدرسة في نظر الفرنسيين : ((أخطر من فتح مصنع لإنتاج الأسلحة و الذخائر ، استعدادا للثورة ، و أخطر من فتح محششة يدار فيها الأفيون و الكوكايين و بقية السموم)) ، كما قال الشيخ " الفضيل الورثيلاني " ([4]).

فكانت القرارات و المراسيم في هذا الصدد ، تتهاطل بلا انقطاع ، و منها مرسوم 1892م ، الذي منع على المدارس القرآنية استقبال التلاميذ أثناء ساعات الدراسة اليومية للمدارس الفرنسية ([5]) ، و فرض تقديم طلبات رخص فتح المدارس العربية ، و كانت في غالب الأحيان ترفض أو لا يحصل أصحابها على الرد إطلاقا ([6]) . و قرار 13 فيفري 1933م ، الذي منع العلماء و رجال الجمعية ، من التدريس في المساجد و إقامة حلقات الوعظ و الإرشاد بها . و قانون 8 مارس 1938 م ، الذي نص على منع أي شخص أو منظمة من إنشاء مدرسة و التعليم فيها ، و الذين يخالفون ذلك ، يتعرضون للسجن أو التغريم أو معا ([7]). و ما أكثر معلمي اللغة العربية ، الذين حوكموا أو غرموا و سجنوا مع اللصوص و المجرمين على حد سواء ، بحقد و كراهية كبيرين : ((فلقد شهدت المحاكم في الجزائر مناظر مخجلة

([1])– أحمد محساس : " التعليم و الثقافة في الجزائر خلال الحقبة الاستعمارية " مجلة الثقافة ، الجزائر : العدد 85 جانفي / فيفري 1985 ، ص 57 .

([2]) – حسن عبد الرحمان سلوادي ، المرجع السابق ، ص 28 .

([3]) – الإبراهيمي : الآثار ، ج 2 (1929م – 1940 م) ، مصدر سابق ، ص

([4]) – الفضيل الورثيلاني ، المصدر السابق ، ص 90 .

([5])– FANNY CC , OP-çit , P.6 .

([6]) – رابح تركي : " الصراع بين جمعية العلماء و إدارة الاحتلال الفرنسي بالجزائر ما بين 1933م – 1939م " ، مجلة الثقافة ، المرجع نفسه ، ص 125 .

([7]) – المرجع نفسه ، ص ص 195–197 .

يساق فيها معلمو اللغة العربية في موكب اللصوص و القتلة و المجرمين لمحاكمتهم على صعيد واحد ، و قد تنال رحمة القضاة الفرنسيين بعض القتلة و اللصوص و لكن ما جربت يوما أن تنال معلم اللغة العربية أبدا)) ([1]) . و على سبيل المثال ؛ فقد بلغ سنة 1948م و حدها ، عدد المعلمين الذين حوكموا بتهمة التعليم " الحر " ، حوالي ثلاثين معلما و مديرا ([2]) .

و سعيا أيضا إلى فرنسة الألسنة و العقول ([3]) ، تم إبعاد اللغة العربية من الإدارة و فرض اللغة الفرنسية كلغة لغة رسمية في جميع الميادين ([4]) ، و تشجيع استعمال اللغة العامية في الكتابة و المدارس ([5]) . كل هذا من أجل تحطيم اللغة العربية ، التي كانت بالنسبة للفرنسية : ((بمثابة الصخرة الغيور ، و العدو الحقود اللدود)) ، على حد تعبير الدكتور " عبد المالك مرتاض ([6]) .

أما بالنسبة للتعليم في المدارس الفرنسية ، فقد سمحت فرنسا لفئة قليلة من الجزائريين ، بارتياد تلك المدارس على غرار أبناء الجالية الأوروبية ، لحاجتها الشديدة لخلق نخبة ثقافية و سياسية مفرنسة ، تستعملها كأداة هدم لمقومات الشخصية الجزائرية ، و لحاجتها إليها في تولي بعض المناصب الإدارية ، التي يتطلب أن يشغلها أبناء الأهالي ([7]) ، لكن في حدود ضيقة ضيقة خوفا من أن يتحول المتعلم الجزائري المفرنس ، إلى سلاح ضد فرنسا ذاتها ([8]) .

([1])- الفضيل الورثيلاني ، المصدر السابق ، ص 90 .

([2]) – العربي الزبيري : المثقفون الجزائريون و الثورة ، منشورات المتحف الوطني للمجاهد ، م و ن ا ، الجزائر : 1995م ، ص 72 .

([3]) – عبد المالك مرتاض : نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر (1925م – 1954م) ، ط 2 ، م و ن ت ، الجزائر : 1983 ، ص 21 .

([4])- رابح تركي : التعليم القومي و الشخصية الجزائرية ، مرجع سابق ، ص ص 92-93 .

([5]) – عبد الرحمان سلوادي ، المرجع السابق ، ص 29 .

([6]) – عبد المالك مرتاض ، المرجع نفسه ، ص 35 .

([7]) – أبو القاسم سعد الله : الحركة الوطنية الجزائرية ، ج 2 ، مرجع سابق، ص 198 .

([8]) – رابح تركي ، المرجع نفسه ، ص 104 .

فكانت هذه المدارس ؛ التي تستقبل في صفوفها بعض الجزائريين ، تقدم لهم تعليما يمجد كل ما هو فرنسي حضارة و ثقافة و جغرافية ، و يمقت كل ما هو عربي و جزائري ([1])، وفق منهاج تربوي محكم ، يحاول تنشئة أجيال جزائرية مقطوعة الصلة بمقوماتها و جــذورها ([2]) ، ليجعل في النهاية هؤلاء المتعلمين الفرنسيين يرددون بصوت مرتفع : ((أجدادنا هــم القولــوا – سكان فرنسا الأقدمون – ، الرومان هذبونا و مدنونا ، أكبر رجالنا نابليون بونابرت ، قديستنا القومية جان دارك ... إلخ)) ([3]) .

أما الظروف التي كانوا يتعلمون فيها فهي غير مناسبة تماما ، عدد محــدود للحجــرات الدراسية التي تعرف اكتظاظا كبيرا ، و تعمد في اختيار أضعف المعلمين ، و فارق شاسع فــي الميزانية المخصصة لهم ، مقارنة مع نظيرتها التي تخصص لأبناء الأوروبيين ([4]) .

و هو ما يفسر انخفاض نسبة التمدرس خاصة في الأرياف ، إذ كان يلتحــق بالمدرســة الفرنسية ، طفل جزائري واحد مــن بــين خمســين أو ســبعين طفــلا وصــلوا إلــى ســن التمدرس ([5]) .

أما بالنسبة للتعليم العالي ، فلم يكن مفتوحا إلا في وجه أبناء الأعيــان المتعــاونين مــع السلطات الاستعمارية ، و لذلك فإن نسبة الطلبة الجزائريين ، كانت لا تزيــد عــن 15/1 مــن مجموع الطلبة الجامعيين ([6]) .

و لم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل تم الاستيلاء حتى على المكتبات العمومية ، و نهــب مخطوطاتها و كتبها و إحراقها ، و هذا منذ أيام الأولى للاحتلال ، مثل ما حدث لمكتبة " الأمير

([1]) – عبد المالك مرتاض ، المرجع السابق ، ص 20 .

([2]) – رابح تركي : التعليم القومي و الشخصية الجزائرية ، مرجع سابق ، ص 104 .

([3])– أحمد توفيق المدني : حياة كفاح (مذكرات) ، ج 2 (1925م – 1954م) ، ش و ن ت ، الجزائــر : د ت ، ص 32 .

([4])– رابح تركي ، المرجع نفسه ، ص 104 و ما بعدها .

([5]) – أحمد محساس ، المرجع السابق ، ص 73 .

([6])– المرجع نفسه ، ص 67 .

عبد القادر " (1807م–1883م) الذي كان يقتفي آثار الجيش الفرنسي في الصحراء ، بأوراق كتب مكتبته المبعثرة ([1]) .

و قد وصف الزعيم المصري " محمد فريد "(1868م–1919م)([2]) ، الذي زار الجزائر في أوائل القرن العشرين ، الحالة التي آلت إليها الثقافة في البلاد قائلا : ((أصبحت و ليس فيها من المدرسين بالجوامع إلا ما يعد على الأصابع ، و قل الطالب و المطلوب و هجرت ربوع العلم ، و خربت دور الكتب ، و صارت الديار مرتعا للجهلاء ، و كادت تندرس اللغة العربية الفصحى ، و باختصار فحالة التعليم بالقطر الجزائري سيئة جدا ، و لو استمر الحال على هذا المنوال لحلت اللغة الفرنسية محل اللغة العربية في جميع المعاملات بل ربما تندرس اللغة العربية مع مرور الزمن فلا حكومة تسعى في حفظها ، و لا تدع الأهالي يؤلفون جمعيات لفتح المدارس لمنعها أي اجتماع خوفا من أن تشتغل جمعياتهم بالأمور السياسية)) . و الحق أن " محمد فريد " و رغم قصر مدة إقامته بالجزائر ، إلا أنه استطاع أن يلاحظ الوضع المتردي الذي وصلت إليه الأوضاع الثقافية في الجزائر آنذاك ، فجاء وصفه السابق معبرا عن ذلك بأدق تعبير .

و في هذا الصدد أيضا ، قال السيد " مطران " (MOTRAN) الذي كان وزيرا فرنسيا سابقا ، و زار الجزائر رفقة وفد من كبار الفرنسيين سنة 1954 م ، و أدلى بشهادته عما شاهد و رأى ، و مما جاء فيها : ((إن مليونين من أبناء المسلمين ، لا يتلقون أي تعليم على أي مقعد مدرسي ، و ذلك بعد أن بسط عليهم النظام الاستعماري رحمته طيلة 125 عاما ، و رأينا أن المسلمين لا يشاركون في التعليم الابتدائي إلا على نسبة 10% و ليس لهم بالتعليم العالي إلا ثلاثمائة طالبا ، و رأينا الأبواب العلمية كلها موصدة في وجه المسلمين ، و خرجنا من كل ذلك بنتيجة عظيمة ، إذا كنا في فرنسا نجهل معنى العنصرية ، فهي في القطر الجزائري القانون الرئيس المعمول به)) ([3]) . إن شهادة السيد " مطران " هاته ، إضافة إلى تصويرها للوضع

([1]) – رابح تركي : التعليم القومي و الشخصية الجزائرية ، مرجع سابق ، ص 94 .

([2]) – عبد الرحمان سلوادي ، المرجع السابق ، ص 30 . نقلا عن محمد فريد بك : " التعليم و المدارس في الجزائر " ، جريدة اللواء ، عدد 612 / 13 أكتوبر 1901 .

([3])– الفضيل الورثيلاني ، المصدر السابق ، ص ص 191–192 .

الثقافي الشاذ الذي كانت تحياه الجزائر ، فإنها ذات مصداقية كبيرة ، لكون صاحبها شخصية سياسية مرموقة في الأوساط السياسية الفرنسية .

أما فيما يتعلق بالإعلام ، فإن الجزائر قد عرفت الصحافة في وقت مبكر منذ الثلاثينات من القرن التاسع عشر (ق 19م) ، لكنها كانت صحافة فرنسية لا تخدم إلا المصالح الاستعمارية . و في مطلع القرن العشرين (ق20م) ، بدأت في الظهور صحافة جزائرية إصلاحية باللغة العربية ، و لكنها كانت تتعرض إلى التوقيف و المصادرة ، و تعاني معاناة شديدة من مشكل التمويل .

و قد كانت السلطات الإدارية الاستعمارية ، تبرر رقابتها المشددة على تلك على الصحافة الجزائرية ، بحجة تهديدها للأمن العام ، تطبيقا لقرار 28 أوت 1939م ، الذي أعطى للإدارة حق مراقبة المطبوعات و حتى منعها أو وقفها . و بهدف تشويه صورة الصحف الجزائرية كانت تنعتها بالصحف " المعادية " و " التخريبية " ([1]) . و قد عانى الشيخ البشير الإبراهيمي كثيرا من هذه التعسفات الإدارية ، التي كانت تحد من حرية الرأي و الكتابة و الصحافة .

([1])– أبو القاسم سعد الله : الحركة الوطنية الجزائرية ، ج 2 ، مرجع سابق ، ص ص 33-45 .

02- الوضع الثقافي في لبنان :

على خلاف ما كان عليه الوضع الثقافي في الجزائر ، الذي تميز بالجمود و الركود كنتيجة طبيعية للسياسة الاستعمارية الفرنسية ، التي أمعنت في التجهيل و زرع الأمية وسط الجزائر ، و إقصاء و تهميش فئاته المثقفة . فإن الوضع الثقافي في لبنان ، قد عرف ابتداء من النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، ازدهارا و نموا ، بفضل انتشار المدارس و إنشاء المطابع و الصحف و تشكيل الجمعيات .

فبحكم أن لبنان بلد متعدد الطوائف ؛ فقد سعت كل طائفة لإنشاء مدرسة خاصة لتعليم أبنائها ، لاسيما بعد انتشار الإرساليات الأجنبية ، فظهرت مدارس كثيرة متنوعة الاتجاهات ، يمكن تصنيفها إلى ثلاثة أصناف : المدارس العثمانية ، المدارس الأجنبية ، المدارس الوطنية .

- المدارس العثمانية : كانت تابعة للدولة و شملت :

- الكتاتيب : مثلث النمط القديم في التعليم ، الذي يقوم على تحفيظ القرآن الكريم ، ثم مبادئ القراءة و الكتابة و الحساب .

- المدارس الرشدية : مدارس ابتدائية ، لم تكن متقدمة علميا و حضاريا بالقدر الكافي ، تدرس العلوم الدينية و اللغة التركية ، و مبادئ اللغتين العربية و الفارسية دون اللغات الأوروبية ، أما مدة الدراسة فكانت أربع سنوات في هذه المرحلة .

- المدارس الإعدادية : يتولى فيها التدريس أساتذة من دار المعلمين ، و تقوم بتدريس اللغة التركية و الحساب و الهندسة ، و القانون العثماني و اللغة الفرنسية مع استثناء اللغة العربية ، أما مدة الدراسة فيها فكانت ثلاث سنوات .

- المدارس السلطانية : أنشأت في مراكز الولايات فقط ، لاستقبال الطلبة الناجحين في المرحلة الإعدادية . و الدراسة فيها قسمان : القسم العالي و يشمل شعبتي الآداب و العلوم لمدة ست سنوات . أما القسم العادي ، فتدرس فيه مناهج المدارس الإعدادية باللغة التركية ، و من أراد متابعة دراسة فيتعين عليه الالتحاق بمدارس الأستانة العالية (العليا) ([1]).

([1]) – منى حسين الدسوقي : الشيخ مصطفى الغلاييني في مفاهيمه الإصلاحية ، ط 1 ، المكتبة العصرية للطباعة و النشر ، بيروت : 1999م ، ص ص 22-23 .

– المدارس العالية (العليا) : تشمل دار المعلمين و المعلمات ، و دار الفنون و مكاتب الفنـــون و الصنائع المختلفة ، تقبل فقط الطلبة الذين في حوزتهم شهادات في مـــن المـــدارس الرشـــدية و الإعدادية و السلطانية .

– المدارس الرشدية العسكرية : ينتقل إليها الطلبة بعد إكمالهم الدراسة في المرحلة الابتدائيـــة ، و بعد إتمام الدراسة بها يلتحقون ، بالمدرسة الإعدادية العسكرية فيتخرجون منها برتبة ضباط .

– **المدارس الأجنبية (التبشيرية)** : كانت تقوم بإنشائها الإرساليات و البعثات الدينية الأجنبية ، و خاصة منها : الآباء العازاريون اليسوعيون ، المبعوثون الأمريكيون ([1]) . و من أشهر تلـــك المدارس : المدارس المارونية فـــي بيـــروت ، المعهـــد البريطـــاني الإغريقـــي الكـــاثوليكي (Le collège patriarcal grec –catholique de Beyrouth) ، المعهد الجهوي لزحلة (Le collège Régional de ZAHLE) ، و مدرســـة الأطبـــاء الـــثلاث بيـــروت (L'école des trois docteurs de Beyrouth) ([2]) ، و مـــدارس البنـــات الانجليزيـــة و الأمريكية ، و مدارس الراهبات و الكليات اليوسوعية ... ، و غيرها من المدارس التي أنشأها الأجانب بعد حوادث عام 1860م .

– **المدارس الوطنية** : كانت الطوائف المسيحية السباقة إلى الإفتتاح المدارس في لبنان ؛ و من أقدم تلك المدارس : " الكلية الوطنية " في بيروت للمعلم " بطرس البستاني " ، التي أسسها عـــام 1863م ، و " المدرسة البطريريكية " للروم الكاثوليك التي أنشئت سنة 1865م ، و مدرســـة " الحكمة " للمطران " يوسف الدبس " عام 1865م ... إلخ . و من الكليات الإسلامية : " الكليـــة العثمانية الإسلامية " في بيروت عام 1908م ، التي درس بها نخبة من المتعلمين و المثقفـــين " كجورجي زيدان " (1861م–1914م) و الشيخ "مصطفي الغلاييني " ([3]) .

([1])– منى حسين الدسوقي : المرجع السابق ، ص 22 ، 23 ، 24 .

([2]) – BERGER – LEVRAULT : La Syrie et le liban sous l'occupation et mondât français 1919-1927 , éditeurs Nancy , paris , strasbourg , 1929.P 96 .

([3]) – ينظر منى حسين الدسوقي ، المرجع نفسه ، ص 124 و ما بعدها .

و على ضوء كل ذلك ، يظهر أن التعليم في لبنان خلال العهد العثماني ، كان مرتبطا بالديانات و المذاهب ، لأن الدولة العثمانية لم تنظر إلى التعليم كوظيفة من وظائفها الأساسية ، إذ ركزت جل اهتمامها على حماية أراضيها ، و محاولة التوسع متى سمحت لها الظروف بذلك ، و على بناء نظام داخلي للحكم يضمن لها الاستقرار و يحفظ لها و جودها . و هو ما يفسر تركيز سلاطينها كل جهودهم من أجل تعزيز القوة العسكرية ، و ضمان ولاء المقاطعات الخاضعة للإمبراطورية . فأخذت جميع الطوائف المسيحية و الإسلامية و اليهودية على عاتقها مهمة الاضطلاع بالتعليم و إدارة شؤونه ، مستفيدة من الامتيازات و التنظيمات التي توفرها الدولة . كما استغلت الدول الكبرى هذا الوضع ، لفتح الطريق أمام البعثات التبشيرية الغربية لمزاولة نشاطها في الإمبراطورية بصورة عامة و في لبنان بصورة خاصة . و كان من نتائج ذلك أن أصبحت المقاطعات اللبنانية ، من أكثر أجزاء السلطنة ازدهارا في ميدان التربية و التعليم ، حيث كان الإلمام بالقراءة و الكتابة واسع النطاق في بيروت و صيدا و طرابلس و أغلب مناطق الجبل . مع تفوق واضح للطوائف المسيحية ، بسبب الدعم الغربي لها ، لتتحول إلى مدخل استخدمته تلك الدول للنفوذ إلى المنطقة . على حساب الطوائف الإسلامية ، التي كان حظها ضعيفا في الحقل التعليمي و التربوي ، لافتقادها للدعم الكافي المقصور على السلطنة ، و لحذرها الشديد من تلك السياسة التي رأت فيها محاولات لطمس هويتها و مقوماتها الحضارية ([1]) .

أما أثناء الانتداب الفرنسي ؛ فقد استمرت حرية التعليم القائم على الطائفية و المذهبية ، مع تدخل متزايد لحكومة الانتداب في شؤونه ، باشتراط الحصول على الموافقة الرسمية لفتح المدارس ، و السعي لطمس معالم الثقافة و الحضارة العربية خدمة لأهدافها الاستعمارية ، من خلال جعل اللغة العربية لغة ثانوية ، تقتصر على بعض المدارس التي تستقبل أبناء الطبقات الفقيرة من اللبنانيين ، في مقابل فرض اللغة الفرنسية كلغة رسمية للتعليم ، و تكريس المناهج و الأساليب و أنظمة الامتحانات و المراتب العلمية و معادلتها ، و الكتب المدرسية الفرنسية

([1]) – ينظر علي عبد فتوني ، المرجع السابق ، ص 10 و ما بعدها .

المعتمدة في العملية التربوية . و قد استمر هذا الوضع ، حتى بعد حصول لبنان على استقلاله لسنوات طويلة ([1]) .

و الدور ذاته كان للإرساليات الأجنبية و الطوائف الدينية في مجال الطباعة ، فقد تم تأسيس أول مطبعة في لبنان سنة 1610م في " دير قزحيا " بإيعاز من البابا الماروني ، و التي طبعت كتاب " المزامير " باللغة السريانية و اللغة العربية ، انتشرت بعد ذلك المطابع في كامل لبنان على يد كبار القساوسة ، الذين أدركوا أهمية فن الطباعة في نشر الأفكار و توعية الناشئة و هذا و قد مثل تأسيس المطبعة الأمريكية ببيروت عام 1834م ، أكبر حدث في مسار حركة الطباعة بالمنطقة ، على مستوى نوعية المؤلفات و كميتها المطبوعة ، حيث تزايدت الكتب المدرسية و المؤلفات العلمية ، التي نهل من معينها كتاب و مفكرو النهضة الحديثة . كما قدمت تلك المطبعة يد المساعدة للمؤسسات المحلية ، فيما يتعلق بالحصول على المطابع ، و المعدات التي تحتاج إليها ، و تدريب العمال على تقنيات العمل المطبعي ، و قد أدى التنافس الطائفي إلى ظهور المطبعة الأرثوذكسية و المطبعة الكاثوليكية ، فكان من ثمار ذلك ازدياد حركة الوعي في كامل البلاد ، و تبلور عوامل النهضة من صحافة و مدارس . و سرعان ما استقطبت الحركة المطبعية ، أبرز كتاب النهضة و مفكريها ، الذين اهتموا بالتصحيح و التأليف و الترجمة . و من أشهر المطابع التي ظهرت بعد المطبعة الأمريكية : " الجوائب " لأحمد فارس الشدياق(1861م–1898م) التي ظهرت عام 1870م ، " المعارف " لبطرس البستاني" (1898م–1969م) عام 1867م ، " المطبعة الوطنية " 1865م ، المطبعة الشرقية " 1858م لإبراهيم النجار ، " المطبعة السورية " بيروت 1857م ... إلخ ([2]) .

لقد ساهمت الحركة المطبعية النشطة ، التي شهدها لبنان في العهد العثماني و أثناء فترة الانتداب الفرنسي ، في ازدهار الترجمة و خاصة الكتب الدينية (التوراة و الإنجيل) ، من لغاتها الأصلية إلى العربية (و التوراة من العبرية ، و الإنجيل من اليونانية) . و في إصدار الكثير من المعالم و دائر المعارف التي مازالت ذات قيمة علمية لغاية الآن ، إضافة إلى الكتب اللغوية والأدبية الراقية و دواوين الشعر . أما الجرائد و المجلات ، فقد بلغ عددها سنة 1892م

([1]) – للمزيد ينظر على عبد فتوني ، المرجع السابق ، ص 29 و ما بعدها .

([2]) – ينظر منذر معاليقي ، المرجع السابق ، ص 84 و ما بعدها .

أربع عشرة جريدة و مجلة ([1]) ؛ و من أبرزها : " مـرآة الأحـوال " 1855م ، " السـلطنة " 1857م ، " حديقة الأخبار " 1858م ... و كلها مسيحية . أما الجرائد الإسلامية فلم تظهـر إلا في سنة 1875م ، أين أنشأت جريدة " ثمرات الفنون " . و فضلا عن الصحف الدينية ، كانـت هناك الصحف السياسية مثل : " نفير سوريا " لبطرس البستاني ، و " لسـان الحـال " لخليـل سركيس(1842م-1915م) ، و العلمية مثل : " الحقوق " ، " الشفاء " ، " التجارة " ، " النحلة " . و الأدبية كـ : " الجنان " ، " الزهرة " ، " المقتطف " ، " الهلال " . و منها من كانت جامعـة ؛ فشملت الاجتماع و العمران و العلم و الأدب و التاريخ ، و النقد و السياسة : " كالنبراس " التي أسسها الشيخ مصطفى الغلاييني .

و مجمل القول أن الصحف في لبنان ، كانت نتاجا لجهود الأفراد و الجماعات ، و لـيس نشاطا رسميا تقوم به الدولة ، فقد اضطلعت كل جريدة بمهمة نشر دعوة مؤسسها ، و التـرويج لأفكاره الدينية أو الطائفية أو القومية ([2]) .

كما عرف لبنان في عصر شكيب أرسلان ، ازدهار فن المسرح ، حيث يعد البلد العربي الذي ولدت فيه أول مسرحية عربية على يد " مارون النقاش " (1815م – 1855م) ، الـذي أقام مدة من الزمن في إيطاليا أين مثل روايته " البخيل " ، ثم تلا ذلك العمل بروايات أخـرى . و قد لاقى عمله التمثيلي هذا ، مقاومة شديدة ، ولخشية العامة من أن يكون المسرح عاملا مفسدا للأخلاق و الآداب ، لكن الأمر اختلف فيما بعد ، إذ وصل عدد الروايات المسرحية سنة 1915م إلى أكثر من 900 رواية ([3]) .

([1]) – فيليب حتي : تاريخ لبنان ، مرجع سابق ، ص 561 و ما بعدها .

([2]) – منى حسين الدسوقي ، المرجع السابق ، ص 26 و ما بعدها .

([3]) – فيليب حتي ، المرجع نفسه ، ص 569 .

(*) – أورد جورج أنطونيوس آن : أن اللغة العربية الفصحى عرفت انحطاطا و فسادا كبيرين في بلاد الشام خلال القرن 18م ، ظهرا في استخدامها لدى العامة بدون ضوابط و فـي الإنتـاج الأدبـي الـذي اتصـف بالمحدودية و الانكماش و قلة الإبداع ، رغم محاولات النهوض بها في تلك الأثناء . جورج أنطونيوس : يقظة العرب ، ترجمة ناصر الدين الأسد و إحسان عباس ، ط8 ، دار العلم للملايـين ، بيـروت : 1987م ، ص ص 101-102 .

و لقد استفادت اللغة العربية كثيرا من هاته الحركية الثقافية ، إذ تحولت بفضل أولئك الكتاب و الأدباء اللبنانيين ، من لغة لا يتعدى استخدامها حدود العامة و الشعر و الدين (*)، إلى : ((لغة مرنة طيعة تصلح للتعبير عن العلوم التكنولوجية و الفلسفية و الشعرية و عن العلوم الطبيعية بدقة و وضوح)) . و هي اللغة الغنية بجذورها ، و من تلك الجذور ، استطاع أولئك الكتاب و الأدباء صياغة كلمات فريدة ، وفق قوانين الاشتقاق العربي المتعارف عليها . تماما مثلما كان عليه الحال في القرن التاسع الميلادي ، لما نقلت العلوم و الفلسفة الإغريقية إلى بغداد ([1]) .

و بناءا على ما تم عرضه يتضح لنا ؛ أن الإبراهيمي و أرسلان قد نشأ في بيئتين ثقافيتين مختلفتين ؛ فقد ذهبت فرنسا بعيدا في سياستها التجهيلية للمجتمع الجزائري ، إدراكا منها أن الأمية هي عامل أساسي لتكريس بقائها في الجزائر ، فإذا فتحت أبواب العلم و المعرفة و الثقافة أمام الأهالي ، فسيصبح وجودها في البلد مهددا في أية لحظة . لأن ذلك سيسمح في تقديرها بقيام نهضة وطنية شاملة ، تجعل من محاربة الاستعمار و القضاء عليه ، هدفا رئيسيا لها .

و هو ما دفع الشيخ البشير الإبراهيمي ؛ إلى أن يصرخ عاليا في وجه فرنسا قائلا : ((و ليقع الاستعمار أو ليطر فإننا نتعلم لغتنا و ديننا ، و لو في سم الخياط (ثقب الإبرة) أو على مثل حد الصراط (الجانب الحاد من السكين))) ([2]) . و هو رد عنيف من لدن الإبراهيمي ، يحمل في ثناياه تحديا كبيرا لفرنسا ، التي أرادت بسياستها الثقافية تلك ؛ أن تحول الجزائر إلى بلد للجهل و الجهلاء . و منه فإن فرنسا ؛ قد اتبعت في المجال الثقافي خطين متوازيين في وقت واحد : الخط الأول هو تهديم أسس الثقافة العربية و الإسلامية في البلاد ، و الثاني هو نشر الأمية من أجل التحكم في الشعب الجزائري و استمرار بقاء الاستعمار في بلاده .

([1]) – فيليب حتي ، المرجع السابق ، ص 570 .

([2]) – ينظر محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 3 ، مصدر سابق .

و خلافا لذلك ، فإنه و بالرغم من أن النهضة الثقافية في لبنان ، قد قادتها الطوائف الدينية و الجماعات المذهبية و العرقية ، و الإرساليات التبشيرية المسيحية الغربية ، على اختلاف ولائها المذهبي و السياسي ، فإن ذلك لم يمنع من جعل لبنان بلدا منتجا للفعل الثقافي و الفكري و الأدبي فحسب ، بل يتبوأ مركز الريادة في العالم العربي الإسلامي . و لا غرابة أن يكون المهد ، الذي انطلقت منه الطلائع الأولى للحركة القومية العربية الحديثة ، بغض النظر عن خلفياتها و الأطراف المستفيدة منها . و بالتالي يمكن القول أن الفترة التي عاشها الأمير شكيب أرسلان ؛ و خاصة النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، تعد من أخصب الفترات في تاريخ الثقافة العربية في لبنان بصورة خاصة ، و في المشرق العربي بصورة عامة . وهو ما يفسر كون أن الجزائريين كانوا ، يقصدون الحواضر العلمية في مصر و الشام و الحجاز ، لتحقيق طموحاتهم العلمية و المعرفية ، التي اصطدمت في بلدهم بالجهل و الجمود اللذان كانا يخيمان على بلادهم و يكادا أن يطبقا عليها . و بطبيعة الحال أن فرص الوصول إلى ذلك ، لم تكن متاحة للجميع ، حيث يتطلب الأمر إمكانات مادية معتبرة ، و استعدادا بدنيا و نفسيا كبيرين ، لبعد المسافة بين الجزائر و المشرق العربي ، و التكاليف المالية الكبيرة ، التي تتطلبها إقامة الطلبة هنالك . و في هذا عانى الشيخ البشير الإبراهيمي كثيرا ، حتى استطاع أن يحقق مبتغاه . و هو ما لم يكن مطروحا بالنسبة للأمير شكيب أرسلان ، الذي وجد المجال مفتوحا أمامه ، لكي يلم بشتى العلوم و المعارف ، في كنف أسرته الغنية ، التي كانت إمكاناتها المادية تسمح لها بتوفير تعليم راق جدا له ولإخوته في البيت العائلي ، دون الحاجة حتى إلى الذهاب إلى المدارس ، المنتشرة في لبنان و الشام ، و هو ما سنكتشفه أثناء حديثنا عن نشأة و تعليم الرجلين في الفصل الثاني من هذه الدراسة .

و الحق أن – القحط الثقافي – الذي دفع فئة معتبرة من الجزائريين ، إلى مغادرة الجزائر باتجاه المشرق حيث فرص التعليم أكثر و شروط العليم أفضل ، بقدر ما كان مرهقا لهم و لعائلاتهم ماديا و معنويا ، فإنه من جانب آخر ساهم في استمرار و تعزيز أواصر التقارب بين المغرب و المشرق ، و خاصة أن الدول الاستعمارية الكبرى و على رأسها فرنسا ، قد سعت بكل الطرق إلى قطع الصلة الحضارية التي تربط بين طرفي العالم العربي . فكان من

ثمار ذلك اجتماع القوى المؤثرة في العالم العربي الإسلامي : ((على مناصرة القضايا المصيرية التي تمس- العرب - و المسلمين بغض النظر عن مراكز وجودها بفضل ... شعورها العميق بالانتماء لأمة واحدة ، و تعرضها لعدو مشترك)) . فكلما استجدت مؤامرة تمس بلدا من تلك البلدان ، أسرع العلماء و المصلحون إلى تشكيل الجمعيات ، لإظهار المناصرة له و حشد الجماهير و الرأي العام للدفاع عنه . و بفضل كل ذلك ، حفظت الصلات الحضارية بين الجناحين العربيين ، و ساهم بقدر كبير في تحرر تلك البلدان من نير وقيود الاستعمار الغربي ([1]) .

([1])- ينظر مولود عويمر : أعلام و قضايا في التاريخ الإسلامي المعاصر ، تصدير أبو القاسم سعد الله ، ط 1 ، دار الخلدونية ، الجزائر : 2007 م .

المبحث الخامس : الوضع الديني في الجزائر ولبنان :

01 – الوضع الديني في الجزائر :

كان الإسلام ، هو الدين الذي يدين به تسعة و تسعون بالمائة (99%) من الجزائريين ، قبل سقوط الجزائر بين مخالب الاستعمار الفرنسي ، و كانت أماكن العبادة من مساجد و زوايا منتشرة في المدن و الأرياف ، يؤمها الناس من كل مكان ، لأداء شعائرهم بكل حرية و اقتناع ، و كان هناك تعايشا بين المذهبين السائدين في البلاد و هما المذهب الحنفي (مذهب الدولة العثمانية) ، و المذهب المالكي (مذهب الجزائريين) . كما كانت يسود المجتمع فكرة التضامن الإسلامي ، بين كافة عناصر السكان ، بل كانت كل من الديانتين المسيحية و اليهودية محترمة ، يؤدي أصحابها طقوسهم الدينية في كنائسهم أو معابدهم ، بكل حرية أيضا .

و لكن مع سقوط البلاد ، تحت ضربات قوات الاحتلال ، شرعت فرنسا في محاصرة الدين الإسلامي و مؤسساته ، و مقاومته في كل مكان بروح صليبية حاقدة ، نلمسها في تصريحات رجال الدين المسيحيين و القادة السياسيين و العسكريين الفرنسيين ، و منهم الكاردينال : " شارل لافيجري " (CHARLES LAVIGERIE) (*)([1]) ، الذي صرح بأنه يتعين على فرنسا بأن تحرر الشعب الجزائري من قرآنه .

و بناءا على هذا التصريح ؛ و غيره من التصريحات رجال الدين الآخرين ، راحت إدارة الاحتلال تخضع شؤون الدين الإسلامي لسلطتها ، ناقضة بذلك ما التزمت به في معاهدة 05 جويلية 1830م (**) ، التي تعهدت فيها باحترام الدين الإسلامي و مقدساته و رموزه ([2]).

(*) – شارل لافيبري (CHARLE LAVIGRIE) : هو لافيجري شارل مارسيال ألمان ، ولد سنة 1825م في مدينة " بايون " بجنوب فرنسا ، تولى منصب رئاسة أسقفية الجزائر ، و قام بتأسيس فرقة (الآباء البيض) ، التي تكفلت بمهمة التبشير المسيحي في شمال و وسط إفريقيا .

([1]) – عبد الرحمان سلوادي ، المرجع السابق ، ص 29 .

(**) – معاهدة 5 جويلية 1830 م : تم تحريرها من طرف قائد الحملة الفرنسية على الجزائر (دوبر مون) (DEBOURMONT) ، و وقع عليها الداي حسين .

([2]) – خديجة بقطاش : الحركة التبشيرية في الجزائر 1830م – 1871 م ، د ط ، مطبعة دحلب ، الجزائر : 1992 م ، ص 20 .

إذ بدأت بالاستيلاء على المساجد ، و قامت بتحويل أغلبها إلى كنائس و مصالح إدارية و عسكرية و تجارية ، بل هدمت البعض الآخر بحجة المصلحة العامة ، و توسيع الشوارع و الحدائق و المساحات العمومية ، مما أدى إلى تناقص أعدادها تناقصا كبيرا في كل أنحاء الجزائر . و على سبيل المثال فقد كان بمدينة الجزائر وحدها سنة 1830م مائة و ستون (160) مسجدا ، لم يبقى منها سنة 1961م إلا حوالي ثمانية مساجد . و من أشهر المساجد التي تعرضت إلى الاعتداء ، مسجد (كتشاوة) (*) الذي تم تحويله إلى كنيسة كاتدرائية ، في عهد " الدوق دوروفيقو " (DUC DORIFIGO) ، تحمل اسم القديس " سانت فليب " (SAINT PHILLIPE) . و قد اختير هذا المسجد بالذات ، نزولا عند رغبة " دورو فيقو " الذي طالب جنوده ، أن يختاروا له أجمل مسجد في مدينة الجزائر ، فكان له ما طلب ([1]) ، و المصير ذاته لقيه مسجد " حسين باي " بقسنطينة ، إذ حول إلى كنيسة راقية .

أما المساجد التي أبقت عليها السلطات الاستعمارية و عددها قليل ، فقد عينت للإشراف عليها ، شريحة من الجزائريين كونتهم تكوينا خاصا باللغة العربية و الفرنسية ، منفذين لأوامرها ، لا يتصرفون في شؤون تلك المساجد ، إلا بإذن من الحكام المحليين في كل مدينة أو قرية . و قامت بإبعاد الأئمة و علماء الدين الجزائريين ، الذين كانت ترى في بقائهم خطرا على سياستها الاستعمارية في البلاد ([2]) . بل فإنها عمدت ، إلى إسناد الإشراف على بعض الهيئات الدينية الإسلامية ، إلى موظفين مسيحيين ، و لبعض الجنود الجزائريين الذين حاربوا مع فرنسا في الحرب الكونية الأولى ، مكافأة لهم على جميلهم ([3]) .

أما بشأن الأوقاف ، فقد تم الاستيلاء عليها بمقتضى قرار 07 ديسمبر 1830م ، لتصبح من أملاك الدولة الفرنسية ، بأنواعها المختلفة : (أوقاف الطرق ، العلوم ، أوقاف مكة والمدينة ، أملاك الجيش) ([4]) . و لقد كانت هذه الأوقاف ، بمثابة مراكز اجتماعية

(*) – كتشاوة : و معناها بالغة التركية سوق الماعز .

([1])– عبد الحميد خزار : " جذور الحركة التنصيرية في الجزائر " ، مجلة الرواسي ، جمعية للإصلاح الاجتماعي و التربوي ، باتنة ، الجزائر : العدد 07 / فيفري / مارس 1993 م ، ص 101 .

([2])– محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 3 ، مصدر سابق ، ص 196 .

([3])– المصدر نفسه ، ج 2 ، ص 193 .

([4])– خديجة بقطاش ، المرجع السابق ، ص ص 24-25 .

و اقتصادية ذات منفعة عامة ، تتكفل باحتياجات الفقراء من تعليم و مسكن و طعام ، و إلى غير ذلك من الخدمات العامة و الإنسانية ([1]) . و قد أوكل أمر تسييرها إلى وكلاء ، يجهلون تماما طرق تسييرها ، اغتنموا الفرصة لتحويل جزء من عائداتها لحسابهم الخاص ([2]) .

مع العلم أن هذه الأوقاف ، كانت تمثل في كامل أنحاء الجزائر نحو 66% من إجمالي الأملاك العقارية و الزراعية ، و يعود ذلك إلى : (شغف الجزائريين بحبس أموالهم على المساجد و الزوايا و أضرحة الأولياء و أندية العلم و الحرمين الشريفين خاصة) . و قد بررت الحكومة الفرنسية إغتصابها للأوقاف ، بأن الجزائريين غير مؤهلين لتسييرها إداريا و ماليا ، لأنها مهام من إختصاص الإدارة الفرنسية ([3]) .

و حتى الركن الرابع في الإسلام و هو الصوم ؛ لم يسلم من يد الإدارة الإستعمارية ، إذ عمدت إلى إنشاء " لجنة الأهلة " ، من موظفين و قضاة و أئمة ممن يأتمرون بأوامرها ، بغرض التفريق بين المسلمين في بدء الصوم و في يوم العيد ، و هو ما خلق إضطرابات كبيرة في مواعيد هذه الشعائر الدينية الهامة ([4]) . والمصير نفسه لقيه الحج ، إذ كانت السلطات الفرنسية لا تمنح رخص الحج للجزائريين الراغبين في أداء هذه الفريضة ، إلا بعد أن يدفعوا الرشوة ([5]) . وقد حدث في الكثير من المرات ، أن قامت بمنع الحج عن بعض الجزائريين ، بقرارات رسمية مثل قرار سنة 1908م ، الذي أصدره الحاكم العام " جونار " (JONARD) ([6]) و رغم صدور قرار 07 ديسمبر 1905 م ، الذي فصل أمور الدين الإسلامي عن سلطة الحكومة الفرنسية ، إلا أن فرنسا استمرت في تدخلها و تسييرها لشؤون الدين الإسلامي ، طيلة فترة الاحتلال ، في الوقت الذي حررت فيه الديانتين المسيحية و اليهودية .

([1])- عبد الحميد خزار ، المرجع السابق ، ص 101 .

([2])- خديجة بقطاش ، المرجع السابق ، ص ص 24 – 25 .

([3]) – محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 3 ، مصدر سابق ، ص 18 .

([4])- صالح خرفي : الجزائر و الأصالة الثورية ، د ط ، ش و ن ت ، الجزائر : 1977 م ، ص ص 171–172 .

([5])- ينظر مجلة حضارة الإسلام ، العدد 6 ، مرجع سابق ، ص 85 .

([6]) أبو القاسم سعد الله : الحركة الوطنية الجزائرية ، ج 2 ، مرجع سابق ، ص 110 .

و لكي تبرر اعتدائها هذا على الدين الإسلامي ، و تسكت الاحتجاجات الشديدة من لدن الأهالي ، كانت الحكومات الفرنسية المتعاقبة ، تحاول إقناعهم بأن تدخلها في أمور دينهم ، هو من مصلحة المسلمين ([1]) .

و هكذا ، ففي الوقت الذي كانت فيه السلطات الاستعمارية تحاصر الدين الإسلامي و مؤسساته ، كانت الكنيسة الكاثوليكية تقود حملة تبشيرية واسعة النطاق ، مستخدمة الجمعيات التنصيرية ، و الرهبان و القساوسة الذين كانت ترسلهم إلى الجزائر ، بهدف تمسيح أكبر عدد ممكن من المسلمين ، و ضمهم إلى أحضان الدين المسيحي . معتمدة في ذلك القيام بالأعمال الخيرية : كإنشاء المستشفيات ، و دور اليتامى و العجزة و المدارس للبنين و البنات ، و توزيع الصدقات المالية و الطعام على الفقراء و المعوزين ، و خاصة أثناء الكوارث الطبيعية : كالمجاعات و الأوبئة و الجفاف ، مثلما حدث في سنوات 1866 م – 1869 م ، التي عرفت فيها الجزائر مجاعة رهيبة . بسبب الجفاف ، حصدت مئات الآلاف من الضحايا ، و جعلت الجياع ينتشرون في كامل البلاد ، يقتاتون من الجذور و الأعشاب ، و من المزابل و الفضلات .

فظهر الكاردينال " شارل لافيجري " ، الذي إستغل ظروف تلك المأساة الإجتماعية ، و أنقذ الكثير من الجياع و المرضى من الهلاك ، بإسم الصليب و فرنسا ، و جمع ما يقارب ألف و ثمانمائة (1800) طفل مشرد و يتيم و مريض ، و وزعهم على العديد من المراكز التي أنشأت خصيصا لهم ، قصد معالجتهم و تنصيرهم . و كانت عمليات التبشير و التنصير ، تتركز في مراكز محددة من البلاد : كالقرى الفقيرة و الجبلية ، و منطقة القبائل ([2]) . و قد سار على هذا الدرب ، كل المبشرين الذين جاؤوا بعد الكاردينال " لافيجري " .

و من ناحية أخرى ، و عملا بسياسة فرق تسد ، عملت فرنسا على خلق الصراعات المذهبية بالجزائر ، كذلك الصراع الذي إندلع بين الإباضيين و المالكيين في " غرداية " حول الآذان ، فقد كان هناك تقليد قديم في المدينة ، يقر أن آذان الصلوات لا يرفع إلا من مسجدها

([1]) – محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 3 ، مصدر سابق ، ص 119 .

([2]) – ينظر خديجة بقطاش ، المرجع السابق ، ص 105 و ما بعدها .

القديم ، فخالف ذات يوم المالكية هذا التقليد و كانوا أقلية في المدينة ، برفع الآذان من مسجدهم الصغير ، فاستغلت فرنسا هذه الحادثة ، لتزيد في هوة الخلاف و الخصام بين الفريقين ([1]) .

و جملة القول ، أنه بالرغم من المجهودات الجبارة ، التي بذلتها السلطات الفرنسية للقضاء على الإسلام و مؤسساته ، باعتمادها على جيوش جرارة من المبشرين المسيحيين ، و بتحالفها مع شيوخ الطرق الصوفية المنحرفين ، الذين كانت لهم اليد الطولى في نشر البدع و الخرافات ، و تشويه وجه الإسلام السني الصحيح ، إلا أن الجزائريين ظلوا متمسكين بدينهم ، ملتزمين بأداء فرائضه ، محافظين على مقدساته و أخلاقه و مبادئه السامية ، معتمدين على أنفسهم ، في إعادة بناء المساجد و الزوايا و المدارس القرآنية ، التي تشكل حجر الزاوية في حياتهم اليومية .

و الواقع أنه ، حتى الأئمة و المفتين الذين كونتهم فرنسا تكوينا خاصا ، للإشراف على المؤسسات الدينية الإسلامية ، قد تحولوا بدورهم إلى مصلحين وطنيين ، ينشرون العلم بين مواطنيهم ، و يذودون عن الإسلام و حماه في الجزائر ، و قد كانوا يمثلون الانطلاقة السليمة ، للحركة التجديدية التي قادها الشيخ عبد الحميد ابن باديس (1889 م – 1940 م) و الشيخ البشير الإبراهيمي (1889 م – 1965 م) ، و رفاقهما بعد الحرب العالمية الأولى ([2]) .

([1])– أحمد توفيق المدني ، المصدر السابق ، ج 2 ، ص 212 .

([2])– بشير فايد : الشيخ البشير الإبراهيمي و دوره في القضية الوطنية (1920 م – 1965 م) ، مرجع سابق ، ص 31 .

02 – الوضع الديني في لبنان :

يتميز لبنان عن كل البلاد العربية و الإسلامية ، بتعدديته الدينية و الطائفية و المذهبية ، حيث ينقسم سكانه وفقا للانتماء الديني إلى مسيحيين و مسلمين ، و بدورهم ينقسم المسيحيون إلى عدة طوائف هي : الموارنة ، الأرثوذكس الشرقيين ، الكاثوليك الشرقيين و البروتستانت . أما المسلمين ، فينقسمون إلى شيعة و سنة و دروز .

و من المعروف أنه خلال القرن الخامس الميلادي ، كان أغلب سكان لبنان و سوريا قد اعتنقوا الدين المسيحي ، و كانت السريانية هي اللغة السائدة بينهم ([1]) . و لمعرفة أسباب هذا الانقسام داخل الديانة الواحدة ، ينبغي الرجوع إلى الأزمان الأولى للمسيحية في المنطقة ، حيث تكونت الطوائف المسيحية الأولى في الشرق انطلاقا من جذع مشترك ظهر في " أنطاكية " ، التي كانت تمثل مركز الولاية الرومانية في سوريا ؛ و هي مدينة واسعة تعايش فيها نصف مليون من السوريين من يهود و يونان و رومان ، ثم تحولت مع مرور الزمن إلى حاضرة أسقفية الشرق ، أين بشر القديس " برنابا "(*) و القديس " بولس " (**) و القديس " بطرس " (***) ، و هي في وقتنا الحالي أرض تابعة للجمهورية التركية . و قد انفجر هذا الجذع المشترك لأول مرة ؛ في القرن الخامس ميلادي ، لما انفصل " النساطرة "

([1])– عارف العبد : لبنان و الطائف (تقاطع تاريخي و مسار غير مكتمل) ، ط 1 ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت : 2001م ، ص 31 .

(*) – القديس " برنابا " : هو رفيق " بولس الرسول " في التبشير الديني المسيحي ، من أصل قبرصي . المنجد في اللغة و الأعلام .

(**) – القديس " بولس " : اشتهر بلقب رسول الأمم ، كان في البداية من أعنف مضطهدي المسيحية ، و بعد أن عمده " حننيا " على طريق دمشق ، اندفع متفانيا في التبشير بين مدن آسيا الصغرى و اليونان . كان اسمه قبل اهتدائه " شاوول " ، قتل في روما بقطع الرأس سنة 67 م . خلف أربع عشر رسالة ، وجهها إلى الكنائس المختلفة أو إلى بعض تلاميذه . المنجد في اللغة و الأعلام .

(***) – القديس " بطرس " : (نحو 10 ق . م –67 م) هو سمعان بن يونا أول رئيس على الكنيسة ، احترف صيد السمك ، إدعى أن المسيح قد وضعه رئيسا على الرسل ، أقام في أنطاكية ، و قتل في روما أيام " نيرون " . المنجد في اللغة و الاعلام .

أو " النسطوريون " ، الذين يؤمنون بمذهب " نسطوريوس " بطريرك القسطنطينية عام 428 م ، الذي أدين من مجمع أسس عام 431 م ، و حكم عليه بالنفي في صحراء مصر عـام 435 م ، بتهمة التمييز بشيء من الإفراط في شخص المسيح الطبيعة البشرية على حساب طبيعته الإلهية. و إنفصال " اليعاقبة " القائلون بطبيعة واحدة للمسيح ، و المنشقون بعد مجمع " خلقيدونية " فـي 451م ، و تكوينهم للكنيسة " اليعقوبية " أو " المونوفيزية " القائلة بالطبيعة الواحدة حيث سـميت باسم يعقوب البرادعي ، و هو راهب سوري ، و " أوديسا " و هي كنيسة تتبع إلى اليوم مطران أنطاكية ، و تنتشر كنائسها في سوريا و العراق و فلسـطين و قبـرص و مصـر و أرمينيـا و الحبشة.

و إنفصال الأقباط ، الذين أسسوا لأنفسهم كنيسة قومية في مصر ، مع إحتفاظهم بولائهم لبطريريك الأسكندرية ، الذي أدين من قبل مجمع " خلقيدونية " لإعلانه دعم المذهب اليعقـوبي القائل بالطبيعة الواحدة . و انفصال الأرمن ، الذين تهيكلوا فـي كنيسـة أرمينيـة غريغوريـة (أورسولية) ، و رفضوا القبول بقرارات مجمع " خلقيدونية " لعام 451 م .

و قد أدى التنافس بين بيزنطة و روما ، إلى تركيس الانقسام المسيحي فـي المنطقـة ، لينتهي الوضع في لبنان و في الشـرق الأدنـى ، بانقسـام المسـيحيين فيـه إلـى كاثوليـك و أرثوذكس و بروتستانت ([1]) .

و في هذا الصدد ، تعد الطائفة المارونية من أهم الطوائف المسيحية في لبنـان ، التـي أقامت علاقات جيدة في وقت مبكر مع الصليبيين ، و مع الفرنسـيين منـذ 21 مـاي 1250 م تاريخ حصولهم على تعهد من فرنسا بحمايتهم ، و الذي مثل بداية لود تقليدي بـين المسـيحيين و الغرب في لبنان ([2]) ، لازال مستمرا إلى يومنا هذا . و الحماية ذاتها تمتعت بهـا الطوائـف المسيحية الأخرى ، خاصة أثناء فترة الحكم العثماني للمنطقة ، فقد تنافست الدول الكبرى آنذاك ممثلة في بريطانيا و روسيا و فرنسا لاحتواء تلك الطوائف ، بالتقرب إليها عن طريق

([1]) – ينظر لورانت شابري ، آني شابري : سياسة و أقليات في الشرق الأدنـى (الأسـباب المؤديـة إلـى الانفجار) ، ترجمة ذوقان قرقوط ، ط 1 ، مكتبة مدبولي ، القاهرة : 1991م ، ص 399 .

([2])– ينظر عمر عبد العزيز عمر : دراسات في تاريخ العرب الحـديث و المعاصـر ، د ط ، دار المعرفـة الجامعية ، القاهرة : 2005 م ، ص 277 ، 278 ، 279 .

المساعدات المتنوعة التي كانت تقدمها لها ، و البعثات التبشيرية المسيحية التي تغلغلت في وقت مبكر في المنطقة ، و تمكنت من تحويل ولاء تلك الطوائف إلى الدول الكبرى ، الراعية للتبشير بدلا من الحكم المحلي ([1]) .

أما الإسلام فقد اعتنقته أكثريته سكان سوريا ، عند ظهوره و انتشاره في المشـرق (*)، و لقد تأثر سكان المناطق اللبنانية و خاصة الجبلية منها ، تأثرا كبيرا بهذا الدين الجديد عقائـديا و ثقافيا و اجتماعيا ، في حين كان هذا التأثر قليلا نسبيا في الجهات الساحلية و الداخليـة ([2]) ، و لم يسلم معتنقوه في لبنان كما في أغلب البلاد العربية و الإسلامية من الانشقاق و الانقسـام ، الذي بدأ كما هو معلوم في القرن التاسع الميلادي بعد وفاة الرسول (ص) ، حيث كـان أوائـل المنشقين الخوارج و الشيعة ([3]) . ثم استمر الوضع بعد ذلك في التصاعد ، إلى أن أصبح العالم العربي و الإسلامي ، يعج بالمذاهب و الفرق السنية و الشيعية على حد سواء .

ينتشر المسلمون السنة في منطقة طرابلس بشكل خاص ؛ و في السهول و المدن الساحلية حتى الوسط ، و هم الذين تحملوا عبئ القتال ضد الصليبيين ، و دحر الطوائف التي خرجت عن طوع الإسلام في لبنان و سوريا ، و وطدوا سيادة السنة ([4]) . بينما يتمركز الشيعة فـي وسـط البلاد ، و هم فرع من الشعية الإسماعلية أو الفرقة السبعية ، التي سيطرت في القـرن التاسـع على كامل العالم الإسلامي تقريبا ، و تقوم على النظام السري ، و على عقيـدة دينيـة فلسـفية مستلهمة من الفكر القديم و لاسيما " الأفلاطوني " ، و قد وضعت لنفسها هدفا واضحا هو إسقاط النظام القائم ، بغية : ((إقامة مجتمع أكثر عدلا يديره الإمام ، الـرئيس الشـرعي للإنسـانية أكملها))([5]) أما الدروز ؛ الذين أثير و لا يزال الكثير من الجدل حول أصولهم و حقيقة

([1]) – للمزيد من التفاصيل ينظر مجموعة من الباحثين : الأقليات و القوميات فـي السـلطنة العثمانيـة بعـد 1516 م ، منشورات الجمعية التاريخية اللبنانية ، ط 1 : لبنان ، 2001 م .

(*) – فتح العرب المسلمون لبنان انطلاقا من طرابلس ، زمن الخليفة الراشد " عمر بن الخطـاب " ، حيـث تحولت إلى قاعدة صناعية و زراعية و تجارية و بحرية هامة . زاهية قدورة ، المرجع السابق ، ص 275 .

([2]) – عارف العبد ، المرجع السابق ، ص 31 .

([3])– ينظر لورانت شابري ، آني شابري ، المرجع السابق ، ص 83 و ما بعدها .

([4])– ينظر عمر عبد العزيز عمر ، المرجع السابق ، ص 280 و ما بعدها .

([5])– ينظر لورانت شابري ، آني شابري ، المرجع نفسه ، ص 105 و ما بعدها .

معتقداتهم الدينية ، كما بيناه في الفصل الثاني من هذه الدراسة ؛ في معرض حديثنا عن أصول عائلة شكيب أرسلان ، فيتمركزون في الجنوب و تحديدا في منطقة " الشوف "، و يستلهمون عقيدتهم من التصورات الإسماعيلية ، التي نمت و تطورت لديهم لتصبح نظرية دينية قائمة بذاتها ؛ بعيدة كل البعد عن أصلها الأول و عن العقيدة الإسلامية ككل ، فقد : ((إتجهت نحو جميع التصورات الدينية في عصر انبثاقها ، و تحت مشعل التوحيد دمجت عناصر صادرة عن المسيحية و اليهودية بعضها مع بعض إلى جانب اقتباسات من الغنوصية و الأفلاطونية الجديدة و الفارسية ...)) . و قد انكفأت الطائفة على نفسها في الجبل لاسيما جبل "جرمون " و " الشوف " ، متجنبة الاختلاط بالطوائف الأخرى أو التبشير لمنهجها ، منتظرة عودة " الحاكم بأمر الله الفاطمي " المخلص لإتباعها ([1]) .

و يوعز هذا التوزيع الجغرافي للطوائف المسيحية و الإسلامية ، إلى الغزوات و الحملات منذ أيام الصليبيين وصولا إلى الأيوبيين و من ثم المماليك ، حيث نزح الموارنة من الشمال إلى " كسروان " و "جبيل " ، و حلوا محل الشيعة الذين جمعوا أنفسهم في جبل "عامل " و" البقاع " . و بينما توجه سكان الساحل إلى تجارتهم ، و سكان جبل " عامل " إلى عزلتهم و تقيتهم ، توجه الدروز و الموارنة في " الشوف " ، كل ذلك شكل نواة دولة لبنان الحديثة بتنوعها الديني و الطائفي و المذهبي ([2]) .

و كنتيجة لهاته الفسيفساء الدينية و المذهبية ، كان من الطبيعي أن تؤثر على المجتمع اللبناني ، بشكل إيجابي أو سلبي لاعتبارات محلية و إقليمية و خارجية . فهناك العلاقات بين المسيحيين و المسلمين بغض النظر عن الطائفة أو المذهب ، و التي تتحكم فيها بالدرجة الأولى العوامل التاريخية ، فقد ظل المسيحيون يحتفظون بمشاعرهم الدينية إزاء المسلمين أصحاب الدين الجديد ، حتى لما كانت تحكمهم دول إسلامية سنية أو شيعية . و هناك العلاقات المسيحية

([1])– للمزيد من التفاصيل حول أصول الطائفة الدرزية و اعتقاداتها الدينية و الفكرية ، ينظر لورانت شابري ، آني شابري ، المرجع السابق ، ص 114 و ما بعدها .
([2])– عارف العبد ، المرجع السابق ، ص 33 .

المسيحية ؛ إذ لم تمنع الوحدة في الدين من وجود صراعات و خلافات عميقة بين الطوائف المسيحية ذاتها . و أخيرا العلاقات بين الطوائف المسلمة فيما بينها ، التي كانت كثيرا ما تتفجر إلى مواجهات مسلحة مثلما كان عليه الحال بين السنة و الدروز . لكن هذا لا ينفي وجود فترات للتسامح الديني ، و التعايش السلمي ، بفضل وجود أمراء متسامحين بنو سياساتهم على الترفع عن التعصب الديني ، و المساواة بين الطوائف الدينية المختلفة (*) .

فخلال فترة الحكم العثماني عموما ، كان التوتر على أشده بين السلطة الحاكمة من جهة ، و بين الدروز و الموارنة من جهة ثانية . فكثيرا ما كان يحدث الاصطدام بين هذه الأطراف ، و لقد لعبت عوامل عدة في إذكاء ذلك و منها : سياسة تركيا الداخلية ، و تركيز السلطة في الحكم المباشر ، و سعيها لضرب تلك الطوائف بعضها البعض ، زيادة على الدور الخطير الذي قام به المبعوثون الأجانب و خاصة الإنجليز منهم ، بإثارة الحقد و البغضاء بين المسيحيين و الدروز ([1]) .

و الواقع أن تلك أن تلك الإصطدامات ، كانت تنتهي في كل مرة بمذابح و مجازر بين الدروز والعثمانيين و الدروز و المسيحيين ، و من أشهرها : ما حدث في " حاصبا " عام 1845 م ، وثورة جبل " حوارن " سنة 1851 م ، و" دير القمر " ، و " حاصبا " الثانية سنة 1860 م ، التي ارتكبت فيها أعمال وحشية من قبل عدة أطراف و منها الأتراك و الأكراد ، و كان " للأمير عبد القادر " (1807 م –1883 م) ، دور كبير في إخمادها و إنقاذ المسيحيين من مذبحة حقيقية كادت أن تأتي عليهم ([2]) .

أما الشيعة ، و بحكم أن السلطة العثمانية كانت أكثر تمسكا و دفاعا عن المذهب السني ، فقد كان وضعهم أكثر صعوبة ، حيث انكمش تأثيرهم المذهبي ، و انحصر في المدن الصغيرة و القرى في جنوب لبنان ، و استمر تراثهم علي أيدي بعض العائلات من العلماء . بل أدى

(*) – تعد في هذا الصدد ، فترة حكم الأمير " فخر الدين " المعيني ، أفضل مثال على إمكانية وجود التسامح الديني في لبنان ، و هو المسلم السني . ينظر زاهية قدورة ، المرجع السابق ، ص 273 و ما بعدها .

([1])– زاهية قدورة ، المرجع السابق ، ص 295 .

([2]) – للتوسع في ظروف و ملابسات و نتائج تلك الأحداث ، ينظر سهيل زكار : تاريخ بلاد الشام في القرن التاسع عشر ، د ط ، التلوين للدراسات و الترجمة و النشر ، دمشق – حلبوني : 2006 ، ص 232 و ما بعدها .

العداء بين الطرفين بالحكام الأتراك إلى القيام بإعدامات لعلماء شيعة ، و منه فقد تطلع الشيعة ، إلى الترويج لمذهبهم خارج لبنان و المناطق التي تقع خارج السيطرة العثمانيـــة ([1]) ، و ظـــل شعورهم كأقلية مذهبية حيا ، عبروا عنه بتوجه سياسي خاص يرمي إلى الاستقلال عن السلطنة العثمانية ، التي مارست عليهم أجهزتها الإدارية سياسة قهرية مميزة ، كرد فعـل منهـا علـى الصراع الذي نشأ بينهما و بين الدولة الصفوية الشيعية في إيران ، و كنتيجة لتحامـل بعـض علماء السنة في دمشق عليهم باستصدار فتاوى دينية تبيح قتلهم و إهدار دمائهم ([2]) .

و غني عن التنويه ، أن السلطة العثمانية الحاكمة ، و علاوة على تشـجيعها و دعمهـا للسنة ، فإنها شجعت كذلك التعاليم الصوفية في لبنان – تماما مثلما فعلت في الجزائر على سبيل المثال وصفها الطريقة الخلوتية (*) المتأثرة بتعاليم " ابن عربي " و الطريقة الشاذلية (**)

([1]) – ألبيرت حوراني ، المرجع السابق ، ص 45 و ما بعدها .

([2])– ينظر محمد سعيد بسام : " الحركة الوطنية في جبل عامل في أواخر عهد الدولة العثمانية " ، مجلة الفكر العربي ، لبنان : العدد 39 – 40 / جوان / أكتوبر 1985 م .

(*) – الخلوتية : أسسها محمد الخلوتي الفارسي ، الذي توفي في القيصرية سنة 1039 م ، في وسط تركيـا الأسيوية ، أما الذي وضع أسس الطريقة فهو تلميذه عمر الخلوتي ، الذي نظم التعلم بطرق استمدها من أستاذه ، و أضفى عليها طابعا خاصا ينفرد عن غيره ، أما مبادئ الطريقة فهي كالآتي :

– وجوب العزلة مع كل شروطها – الزهد المرفوق بالذهول و الذكر و المقدس – اليمين المغلظـة (الطاعـة المقدسة) – العهد بين الشيخ و العضو التابع – معرفة أسماء الله السبعة المعبرة عن الصفات السبعة الحفية للروح (السر المطلق) – العبودية الإنسانية في السياسة – المعارضة و الكره و الحقد و الانتقام من السلطة الزمنية . عبد الكريم بوصفصاف : جمعية العلماء المسلمين الجزائـريين و علاقتهـا بالحركـات الجزائريـة الأخرى 1931م – 1945 م (دراسة تاريخية و إيديولوجية مقارنة) ، رسالة ماجستير منشـورة ، م م و م ، م و إن إ ، الجزائر : 1996م ، ص ص 180-181 .

(**) – الطريقة الشاذلية : تنتسب هذه الطريقة إلى الشاذلي طعوج الدين أبي الحسن علي بن عطية علاوة بن عبد الجبار الشاذلي ، ولد سنة 593/1196 ه و توفي سنة 1196م/656 ه ، بقرية " غمارة " قـرب " سـبتة " بالمغرب الأقصى . تلقى تعليمه على يد أستاذه " عبد السلام المشيش " الذي اكتشف فيـه النبـوغ و الـذكاء ، فنصحه بالذهاب إلى تونس حيث يقع جبل أزلاس في ملتقى الشاذلية الذي اشتق منها اسمه و ذلك سنة 625 ه ، و هنالك عرف مذهبه نجاحا و رواجا كبيرين ، مما جعله يتعرض لمعاناة شديدة سببها مضايقة الحكام

القادمة من الحواضر الصوفية في المغرب الأقصى فـارس و مـراكش ، و تعـاليم الطريقـة النقشبندية (*) ([1]) .

و وفقا لذلك ؛ لا يمكن اعتبار ما تعرض له الدروز و الشـيعة أثنـاء العهـد العثمـاني اضطهاد دينيا بل سياسيا إن جاز التعبير ، فالعثمانيون لم يضايقوا أفراد تلك الطوائـف بسـبب تعاليمها المذهبية ، و إنما بفعل مواقفها السياسية ، التي كانت متعارضة في أغلب الأحيان مـع سياسة الدولة العثمانية و مصالحها في المنطقة ، فحرية إقامة الشعائر الدينية و إقامة المؤسسات الخاصة بها و الإشراف عليها كانت مكفولة للجميع . كما أن هذا الوضع لم يكن ثابتا فـي كـل مراحل الحكم العثماني للبنان ، بل كانت الفجوة تتقلص في بعض الأحيان ، لاعتبارات ظرفيـة و لرغبة السلطة في تجاوز الانسداد الحاصل .

كما لا يمكن أن نغفل ، أن الوضع الجيد الذي تمتع به المسيحيون في بعض الفتـرات ، ليس مصدره رغبة الباب العالي ، في جعلهم يعيشون في وضع أفضل من الطوائف الأخـرى ، و إنما مرده إلى الحماية الدينية التي مارستها بعض الدول الأوروبية ، و على رأسـها فرنسـا و بريطانيا اتجاه المسيحيين داخل السلطة العثمانية ، ضمن إطـار الاتفاقيـات التـي تعـرف بــ : " الامتيازات " (CAPITULATIONS) ([2])، و هم الذين صنفهم القانون العثماني

التونسيين له . فاتخذ القرار بالانتقال إلى مصر ، التي فرض فيها نفسه على جميع علمائها بما فيهم العز بـن عبد السلام الذي أضحى من أصدقائه المقتربين . و تتخلص تعاليم هذه الطريقة في : الروحانية النقية الطاهرة ترك الخلق لله وحده ، القيام بالصلاة في كل الأوقات و في كل مكان و في أي ظرف ، إسقاط جميع مظـاهر اللعب و الصخب التي كانت تتميز بها الطرق الصوفية الأخرى . ينظر عبد الكـريم بوصفصـاف : جمعيـة العلماء المسلمين الجزائريين و علاقاتها بالحركات الجزائرية الأخرى ، مرجع سابق، ص 182 و ما بعدها

(*)– النقشبندية : نسبة إلى بهاء الدين محمد النقشبندي (ت 791 ه – 1389 م) ؛ صوفي كبيـر مـن أهـل بخاري ، أسس الطريقة النقشبندية التي انتشرت في الصين و الهند و تركستان و تركيا . دفن فـي بخـاري ، من أشهر كتبه : " الأرواد البهائية " ، " سلك الأنوار و هدية السالكين " . المنجد في اللغة و الإعلام .

([1])– ينظر ألبرت حوراني : تاريخ الشعوب العربية ، ج 2 ، ترجمة نبيل صـلاح الـدين ، مراجعـة عبـد الرحمان الشيخ ، د ط ، الهيئة المصرية العامة للكتاب : 1997 م ، ص 45 و ما بعدها .

([2])– مجموعة باحثين : الأقليات و القوميات في السلطنة العثمانية بعد 1516 م ، مرجع سابق ، ص 34 .

ضمن فئة " أهل الذمة " ، و فرض عليهم دفع الجزية مقابل أن تتولى الدولة حمايتهم ، و منح لهم الحق في إنشاء مؤسساتهم الخاصة بإشراف رؤسائهم الروحيين .

ولا ريب أن أفضل وضع استفادوا منه ؛ كان أثناء فترة الانتداب الفرنسي على لبنان ، لما شجعت فرنسا الانقسام الطائفي ، ودفعت به أكثر نحو البروز والتشعب ، بتوزيعها لمناصب الإدارة العليا على المخلصين والموالين لها من المسيحيين المؤيدين للانتداب ، حتى وان قامت ببعض المبادرات لصالح المسلمين ، لإظهار نفسها في ثوب الحاكم العادل الذي يساوي بين رعاياه ؛ كتشجيع فتح المدارس القرآنية (Les écoles coraniques) ، وتشجيعهم على إحياء المناسبات والأعياد الدينية على غرار الطوائف اللبنانية الأخرى([1]).

وهكذا كان الوضع الديني في لبنان أفضل بكثير منه بالجزائر ، بحيث أن الموقف في الجزائر كان في غاية الحساسية و الخطورة ، لأن المجتمع الجزائري وجد نفسه أمام محتل يريد أن يقبر له دينه ، و يعيده إلى الديانة المسيحية التي تركها مع مجيء الفتح الإسلامي ، في مخطط مدروس استهدف ضرب المؤسسات الدينية من مساجد و مدارس و كتاتيب قرآنية ، لأن قادة الاحتلال كانوا يعون جيدا بأن مشروع (الجزائر الفرنسية)(L'ALGERIE FRANCAISE) ، لن يتكرس إلا إذا جرد الجزائريون من هويتهم الوطنية ، و مقوماتهم الشخصية متجسدة في الإسلام و اللغة العربية . و حري بنا هنا أن نقول ، أن ما وقع في الجزائر في هذا المضمار ، هو أشبه بمحاولة اقتلاع شجرة من بيئتها الطبيعية ، و زرعها في بيئة أخرى ، لا يمكن لها أن تحيى فيها مهما وفرت لها من شروط و عناية . الأمر الذي تطلب بذل جهود معتبرة من قبل علماء و مثقفيها الوطنيين ، من أجل إفشال ذلك المخطط . من أمثال الشيخ عبد الحميد بن باديس و الشيخ البشير الإبراهيمي ؛ و غيرهما من أقطاب الحركة الإصلاحية التي قادتها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين .

أما في لبنان، فبالرغم من التشابك الديني والمذهبي المعقد الذي يتميز به ، إلا أن الحرية في ممارسة الشعائر والطقوس كانت مكفولة للجميع وفي كل مراحل تاريخ لبنان الحديث والمعاصر . فإن حدثت فتن واقتتالات طائفية بين مكونات الشعب اللبناني ، فإن السبب فيها لم

([1])– عبد فتوني علي ، المرجع السابق ، ص 29 وما بعدها .

يكن الحكم العثماني لأنه كان سنيا حنفيا، وإنما أسباب سياسية بالدرجة الأولى ، بفعل تعدد وتعقد الميول والولاءات والعلاقات في المنطقة إقليميا ودوليا . فلم نعثر من خلال اطلاعاتنا ، في أي فترة من الفترات أن أتباع ديانة ما أو مذهب ما ، اضطهدوا لأنهم يخالفون الآخر عقيدته أو مذهبه ، أو منعوا من القيام بشعائرهم وطقوسهم الدينية ، لأن المجتمع اللبناني الواسع في حقيقة الأمر ، يتألف من مجتمعات طائفية ومذهبية صغيرة منغلقة على نفسها دينيا وجغرافيا وثقافيا ، الأمر الذي يوفر حماية تلقائية للأتباع والمعتنقين .

فلب القضية إذن ، كان في الولاءات السياسية التي تتحكم فيها الخلفيات الدينية والمذهبية وحتى الاقتصادية ، فالمسيحيون وجدوا أنفسهم في تحالف أشبه بالطبيعي مع الدول الأوروبية المسيحية الكبرى ، التي كانت تطمع في أملاك الإمبراطورية العثمانية، وتسعى لاقتسامها فيما بينها . ولأن العلاقة بين تلك الأطراف ، كانت تتم خارج إرادة الحكام العثمانيين في أغلب الأحيان ، كان من الطبيعي أن تكون ردود أفعال إزاء ذلك ، تمثلت في حملات التأديب والقمع بغية استعادة السيطرة على الوضع . والمثال الثاني على ذلك الدروز ، الذين تعرضوا لعمليات التضييق والعنف وحتى المجازر رغم عقيدتهم الإسلامية ، لكون ولائهم المذهبي و السياسي كان متصلا بقوة سياسية إقليمية مناوئة للباب العالي ، المتمثلة في إيران التي كان يحكمها الصفويون الذين لم يخفوا أطماعهم التوسعية في المنطقة . فكان من الطبيعي في الأعراف السياسية ، أن تتصرف السلطات العثمانية مع المسحيين و الدروز على ذلك النحو الذي أشرنا إليه . مع التنبيه على أنه وجد من المسيحيين و من الدروز ، من كانت علاقاته ممتازة و وطيدة بالحكام العثمانيين المحليين و بالباب العالي ، مثل الأمير شكيب أرسلان الذي حضي بمكانة خاصة لدى أعلى المستويات ، بل تمكن من الحصول على عضوية " مجلس المبعوثان " (البرلمان العثماني) في الأستانة ، مخالفا لتوجهات نسبة كبيرة من أهل طائفته ، و تحمله للانتقادات العنيفة التي كانت توجه له في هذا الإطار ، و لكنه استمر في نهجه السياسي بعزيمة و إصرار ، و ظل مؤيدا للخلافة إلى غاية إلغائها سنة 1924م . بل أنه قاتل من أجلها ، في جبهات الحرب العالمية الأولى في ليبيا و البلقان مثلما سيظهر في الفصل الثاني من هذه الأطروحة .

خاتمة الفصل :

بعد هذه المقارنة، بين الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والدينية، في كل من الجزائر ولبنان، في عصري الإبراهيمي و أرسلان ، نخلص إلى أن الأول ؛ قد عـاش على غرار بقية الجزائريين ، ظروفا سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية ودينيـة اسـتثنائية ، ربما لم يسبق أن شهدتها شعوب المستعمرات الأخرى في التاريخ الحديث والمعاصر ، بسـبب سياسة حكومات الاحتلال ، التي استهدفت السيطرة على الأبـدان والأرواح ، بشـتى الطـرق والوسائل ، لإبقاء وجودها في البلاد ، وضمان استمرار استغلالها أرضا وشعبا.

بحيث اعتبرت فرنسا الجزائريين مواطنين من الدرجة الثانية ، تطلـق علـيهم اسـم : " الأهالي " (Les Indigènes) بدل الجزائريين ، يؤدون الواجبات و لا ينتظرون الحقوق ، إذ لا يتساوون مع الأوروبيين لا في الانتخاب و لا في حرية إبداء الرأي ، و لا في الاستفادة مـن الميزانية و فرص العمل ، و المشاريع الاقتصادية و المرافق الاجتماعية . و في مقابل ذلـك ، كان المعمرون يستأثرون بكل الحقوق السياسية و المدنية ، التي قد تفوق تلك التي كان يتمتع بها أقرانهم في بلدانهم الأصلية .

بينما عاش الأمير شكيب، خلال عهدين مختلفـين ، العهـد العثمـاني وتميـز عمومـا بالاستقرار ، رغم بعض الفتن والاضطرابات ؛ التي كانت تندلع مـن حـين لآخـر ، بسـبب صراعات طائفية أو مذهبية ، أو ضد استبداد وتعسف الحكام المحليين ممثلـي الإمبراطوريـة العثمانية ، أو المجتمع الإقطاعي الذي كان يستغل المجتمع اللبناني بأبشـع صـور الاسـتغلال ويعامله معاملة العبودية والاحتقار ، متقويا بالدعم الطائفي والعثماني معا . وهنا يمكن أن نشـبه الإقطاعيين اللبنانيين بالمعمرين الفرنسيين والأوروبيين في الجزائر ، فكلاهما كان يفتقد إلى القيم والأخلاق والإنسانية ، لا هم له سوى جمع الأموال والثروات ، بكل الوسـائل والطـرق ، ولا يبالي إن هلك المجتمع كله جوعا وفقرا ومرضا . وبعد رحيل العثمانيين دخل لبنان في مرحلـة أكثر استبدادا وانحطاطا ، حيث تأكد للبنانيين أن شعار المساعدة والتطوير الذي رفعتـه الـدول المنتدبة في المنطقة ، لم يكن في حقيقة الأمر سوى غطاءا للرغبة في الاستغلال و الهيمنة ،

و لو بالتحالف مع الجماعات الإقطاعية ، التي استفادت أكثر من الانتداب الذي ضمن لها الحماية و التغطية السياسية . بل أنهم تمكنوا من الاستئثار بالمناصب السياسية و الإدارية الحساسة في الدولة ، و لم يكتفوا بذلك بل راحوا يمارسون صلاحيات ليست من اختصاصهم كالسلطة القضائية في المناطق التي تقع في دائرة نفوذهم ، و هو مؤشر خطير على إستراتيجية فرنسا في لبنان خاصة و المنطقة عامة .

أما بخصوص القضاء في الجزائر ؛ فقد عمدت السلطات الفرنسية ، إلى تعطيل ثم إلغاء المنظومة القضائية الإسلامية نهائيا ، التي كانت تتخذ من الشريعة الإسلامية و خصوصية المجتمع الجزائري ، مصدرا لأحكامها . و لما وجدت صعوبات جمة في بداية الأمر ، بسبب الفروقات الصارخة ؛ بين المنظومتين القضائيتين الفرنسية و الجزائرية هذا من جهة ، و الإختلاف الكلي و الحادم بين الواقع الإجتماعي الجزائري و نظيره الفرنسي من جهة ثانية ؛ إتبعت سلطات الإحتلال أسلوب التدرج ، في حرمان الجزائريين من التقاضي و فق أوامر الشريعة الإسلامية ، إلى أن جاء مرسوم 29 أوت 1874م ، الذي أقبر نهائيا القضاء الإسلامي في الجزائر .

أما بخصوص القضاء في لبنان ؛ فقد عانى المجتمع اللبناني كثيرا من التعسف العثماني في هذا المجال ، حيث لم تكن المؤسسات القضائية تتمتع بالإستقلالية المفترضة و مدعمة بالمنظومة القانونية المطلوبة ، التي تكفل لجميع المواطنين المساواة و العدالة أمام القانون ، مهما كانت الميولات السياسية أو الإنتماءات الدينية أو الطائفية أو المذهبية . فكثيرا ما كان الناس يعدمون بالجملة من طرف الضباط و القادة العسكريين ، دون المرور عبر المؤسسة القضائية ، التي يعد الفصل في المنازعات بين المواطنين و المسؤولين و الحكام من صميم مهامها . و لعل أسوء ما إنحدرت نحوه السلطات السياسية العثمانية في لبنان ، هو أن تمنح جانبا من السلطة القضائية للإقطاعيين . و في ظل حكومات الانتداب ، لم يتغير شيء في هذا المضمار ، حيث ساء الأمر أكثر ، لأن تلك الحكومات وضعت من أولوياتها تكريس الطائفية ، و التعامل مع مكونات المجتمع اللبناني بلا عدل و لا المساواة ؛ فقد تمتعت الطوائف المسيحية بكل حقوقها

السياسية والمدنية بما فيها القضاء العادل ، في حين حرمت الطوائف المسلمة من حقوق المواطنة تلك ، وظلت تعاني الاستبداد و الظلم و التعسف .

أما على الصعيد الاقتصادي ، فقد تشابهت الأوضاع في البلدين إلى حد كبير ، حيث تعرض كلاهما إلى أبشع أنواع الاستغلال و النهب للأملاك و الثروات . ففي الجزائر ؛ قامت السلطات الاستعمارية الفرنسية ، بتحطيم بنية الاقتصاد الجزائري ، الذي يعتمد على قطاع الزراعة بالدرجة الأولى ، عن طريق مصادرة الأراضي الزراعية ذات المردودية الإنتاجية العالية ، و بالتهديد و الطرد و سن قوانين نقل الملكية الزراعية و الحيل القانونية . كما تم الاستيلاء على الأراضي الرعوية و الغابات ، لتضييق الخناق على قطاع الرعي ، الذي كان يمثل نشاطا أساسيا لغالبية السكان ؛ الذين وجدوا أنفسهم ، إما : في بطالة أو عمالا في مزارع وضيعات المعمرين ، يتقاضون أجورا زهيدة و في ظروف عمل مأساوية .

و الواقع أن المعمرين ؛ لما إستولوا على تلك المساحات الزراعية و الرعوية ، قد أحدثوا تغييرا جذريا في طرق إستغلالها و طبيعتها الإنتاجية ، إذ جلبوا معهم وسائل و تقنيات زراعية جد متطورة آنذاك ، و قاموا بتجميع تلك الأراضي في شكل شركات و مستثمرات فلاحية ضخمة ، بحوزتها مئات الآلاف من الهكتارات ، التي تنتج محاصيل صناعية ؛ موجهة أساسا لخدمة الإقتصاد الفرنسي خاصة و الأوروبي عامة : كالكروم و الحوامض و التبغ ... إلخ .

أما قطاع الصناعة ؛ فقد ظل تقليديا لعدم اهتمام سلطات الإحتلال بتطويره ، فاقتصرت على بعض الصناعات الصغيرة ، الموجهة لتلبية بعض احتياجات المعمرين ، في حين تلاشت أهمية الصناعات التقليدية الجزائرية تدريجيا ، حتى في المدن التاريخية التي كانت مهدا لها . أما نظام الضرائب ، فقد كان رحيما بالمعمرين ، مجحفا في حق الجزائريين ، لم يراعي ظروفهم الإقتصادية و الإجتماعية .

وفي لبنان ، أدى النهج الإقتصادي المتبع من قبل الدولة العثمانية و نظام الإنتداب الفرنسي على حد سواء ؛ إلى تكوين مجتمعين متباينين في الوضع و المكانة ؛ مجتمع " المقطاعجية " الذي ضم إلى جانبه كبار رجال الدين المسيحيين ، و الحكام و المسؤولين

و الأعيان المحليين ، زيادة على المعمرين الفرنسيين ، و استأثر بكل وسائل الإنتاج من أراضي زراعية و رعوية ، عالية الجودة و الخصوبة ممتدة الأطراف . و مارس العبودية البائدة ، على الفلاحين اللبنانيين الذين يمثلون في المقابل المجتمع الثاني ، الذي يقدم لأسياده الإقطاعيين ، الإنتاج الوفير بكل أنواعه بدءا بالحبوب و انتهاء بالحرير ، يعمل لساعات طوال و يعيش في ظروف هي أقرب إلى الهمجية أو البدائية ، مثلما أكدت عليه أغلب الكتابات التي تمكنا من الإطلاع عليها .

و لعل الوصف المفيد في هذا الإطار ، هو الجشع الذي كان يدفع مجموعة اجتماعية و طائفية و سياسية قليلة العدد ، إلى استعباد غالبية المجتمع ، فحتى أولئك الفلاحين الصغار الذين كانوا يستغلون أراضيهم بأنفسهم ، كان مصيرهم الإفلاس و التحول إلى عبيد لدى " المقطاعجية " . و الحال نفسه بالنسبة للحرفيين و الصنائعيين في المدن ، الذين كانوا لا يصمدون أما المد الإقطاعي ، الذي زحف على كافة القطاعات الاقتصادية . و أمام المنظومة الضريبية ، التي كانت تأتي على كل ما استطاع الفلاح أو الحرفي اللبناني توفيره ، بعد كل ما يتعرض له من قهر و استغلال .

و عليه نستخلص أن السياسة الاقتصادية في الجزائر و لبنان في عصر الإبراهيمي و أرسلان ، قد أحدثت خللا كبيرا في اقتصاد البلدين ، فجعلتهما في خدمة المعمرين و الإقطاعيين ، و في خدمة اقتصاديات فرنسا و أوروبا معا .

فكان من الطبيعي ؛ أن تنعكس هاته الأوضاع الاقتصادية سلبا على المجتمعين الجزائري و اللبناني ، ففي الجزائر اهتز الانسجام الطبقي الذي كان سائدا بين مختلف الفئات الاجتماعية في الأرياف ، أو في المدن دون استثناء منذ بداية الاحتلال ، نتيجة لسياسة الاستيطان ؛ التي أدت إلى تقسيم المجتمع إلى قسمين متباينين في العرق و الثقافة و المكانة الاجتماعية ، فالمجتمع الأول يمثل المعمرين المتدفقين باستمرار على الجزائر ، الذين احتكروا لأنفسهم كل الأنشطة الاقتصادية ، و تمتعوا بجميع الحقوق المدنية و السياسية . أما المجتمع الثاني ؛ الذي يتألف من الأغلبية الجزائرية المسلمة ، التي كان ينظر إليها على أنها مجرد وسيلة استغلال ، يتصرف

فيها المعمرين كما يشاءون . و من هنا ، تمكنت فرنسا من تقويض أركان المجتمع الجزائري ، و تفكيك تركيبته الاجتماعية التي كان عليها قبل الاحتلال .

و إذا كان المجتمع الجزائري، قد أفسد انسجامه و فكك تركيبته الاستيطان الأوروبي ، فإن نظيره اللبناني قد انتهى إلى المصير ذاته ، لكن على نحو آخر ، فالانقسام و عدم الانسجام هما خاصيتان ملازمتان له منذ قرون عدة ، كما سبق الحديث عن ذلك ؛ نظرا لفسيفسائيته الدينية و الطائفية و المذهبية . و لما جاء الحكم العثماني و بعده الانتداب الفرنسي ، تعاظمت الفوارق الاجتماعية بصورة خطرة ، و تقلصت معها إمكانات التعايش الاجتماعي بين تلك المكونات المتنافرة أصلا . فأنتج ذلك مجتمعات متباينة في كل شيء بدل مجتمع واحد ، تعيش على رقعة جغرافية صغيرة جدا . تتجاذبها جهات مختلفة محلية و إقليمية و دولية ، و هو الوضع الذي لازال قائما في البلاد إلى غاية هاته اللحظة ، و يشكل أكبر عامل ضعف للمجتمع و الدولة اللبنانيين .

أما فيما يتعلق بالميدانين : الديني و الثقافي ؛ فقد اختلفت أوضاعهما في الجزائر و لبنان، ففي الجزائر كان الوضع في غاية الخصوصية و التفرد ؛ إذ انتهجت فرنسا سياسة أخطر من الميادين السابقة ، لأنها أدركت بفكرها الاستعماري ؛ أن تحكمها في الحياة الثقافية و الدينية : هو الضمان الأكبر لبقاء و استمرار السيطرة العسكرية و الاقتصادية .

ففي الميدان الثقافي ؛ حاربت التعليم العربي الحر بشتى الطرق ، و سمحت بتعليم فرنسي محدود ؛ لأبناء الجزائريين المتعاونين معها خدمة لمصالحها الاستعمارية . مما أدى إلى انحطاط ثقافي و فكري و علمي كبير ، خيم على الجزائر مدة طويلة من الزمن .

أما في الميدان الديني ؛ فقد احتكرت فرنسا لنفسها حق التصرف في شؤون الدين الإسلامي ، رغم أنها دولة علمانية ، فقامت بإلحاقه بالحكومة عن طريق التدخل في مؤسساته و شعائره ، كما سعت إلى تشويهه ؛ بتشجيع الطرق الصوفية المنحرفة ، و التحالف معها ضد علماء الدين الأحرار ، الذي توسمت فيهم الخطر على سياستها . فضلا عن فتح أبواب البلاد على مصراعيها ، أمام الحركات التبشيرية المسيحية الكاثوليكية .

بينما تمتع المجتمع اللبناني ، بحياة ثقافية و دينية أفضل بكثير منها في الجزائر ، فبالنسبة للميدان الثقافي شهد لبنان انتشارا و رواجا كبيرا للثقافة و الفكر أواخر ، العهد العثماني و طيلة فترة الانتداب الفرنسي ، بالرغم من أن الوصاية العثمانية قد أسقطت كما هو معلوم الثقافة من دائرة اهتمامها ، و تركتها للسكان المحليين لينهضوا بها بأنفسهم . و بالرغم من أن حكومات الانتداب الفرنسي قد سمحت بالنشاط الثقافي ، لكن في الحدود التي لا تتعارض مع مصالحها الاستعمارية في لبنان ، مع تدعيم ذلك بفتح المجال أمام البعثات التبشيرية المسيحية التي أحدثت ثورة كبيرة في الصناعة الثقافية ، من خلال جلب المطابع العصرية ، و إصدار الصحف و المجلات ، و إنشاء الجمعيات الثقافية و العلمية و الأدبية . أما الجانب الديني ، فنستطيع القول أن حاله كان أفضل منه بكثير في الجزائر ، لأن الحرية الدينية لم تتعرض إلى مضايقات كبيرة فلم تمنع المكونات و الجماعات الدينية اللبنانية ، من تعلم تعاليمها الدينية أو نشرها ، أو من بناء مؤسساتها و الإشراف عليها مثلما حدث في الجزائر .

و لعل النقطة السلبية الوحيدة في هذا الصدد ، هو الصراعات و النزاعات و الفتن ؛ التي كانت تندلع من حين لآخر ، تغذيها العصبية الدينية و الطائفية ، التي تتغذى بدورها من الخلفيات و الأهداف السياسية سواء في المرحلة العثمانية أو الفرنسية . و هو ما فشلت فرنسا في تحقيقه في الجزائر ، لأن المجتمع الجزائري هو من المجتمعات العربية و الإسلامية القليلة أحادية العرق و الدين .

و في الأخير ؛ لا شك أن الأوضاع السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية و الثقافية و الدينية، السالفة الذكر ، قد لعبت دورا أساسيا في تنشئة الرجلين ، و في تكوينهما العلمي و المعرفي ، و بناء شخصيتهما من النواحي النفسية و الفكرية ، و في صياغتها مواقفهما من قضايا عصرهما : الوطنية و الإقليمية و الدولية ، كما سيظهر في الفصول الموالية من هذه الأطروحة .

تمهيد :

سبق التطرق في الفصل السابق ، إلى الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والدينية ، التي ولد وترعرع فيها كل من الإبراهيمي و أرسلان ، حيث سمح لنا ذلك ، بالوقوف على الجو العام ، والتحولات المختلفة التي عرفتها بيئتهما ، التي أثرت في تكوين وبلورة أفكارهما وتصوراتهما الإصلاحية والتجديدية ، إزاء مجمل قضايا الأمة العربية الإسلامية ، خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين ، وهو بلا شك تأثير جوهري ، كما سلفت الإشارة إلى ذلك .

وسيكون محور البحث في هذا الفصل ، حياة وآثار الرجلين : الإبراهيمي و أرسلان ، حيث عاشا حياة حافلة بالأحداث والنشاطات ، والنضال والإنتاج الفكري والعلمي والأدبي ، لكننا سنوجه عناية اهتمامنا فقط إلى الجوانب التي تخدم موضوع أطروحتنا هاته . اعتمادا بالدرجة على ما كتبه كل واحد منهما عن نفسه ، ثم على كتابات وشهادات من عاصروهما من شخصيات ومفكرين وتلامذة . ولعل ما استرعى انتباهنا في هذا المحور من الدراسة ، هو أنه وبالرغم من المادة الخبرية الهامة التي تراكمت مع مرور الزمن حول حياة المفكرين ، إلا أن الكثير من نقاط الظل والغموض لا تزال في حاجة إلى إثراء أو تفسيرات . ومنها على سبيل المثال ؛ موقف الشيخ البشير الإبراهيمي من الثورة التحريرية في أيامها الأولى ، فرغم بيانات التأييد والمساندة ، التي كتبها وأمضاها تباعا باسم مكتب جمعية العلماء بالقاهرة منذ اليوم الثاني لاندلاعها ، إلا أن هاته القضية لم يحسم فيها إلى غاية الآن بالنسبة لبعض الأوساط الثورية والأكاديمية ، وفي حقيقة الأمر القضية لا تخص الإبراهيمي وحده ، وإنما جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ككل . أما فيما يتعلق بالأمير شكيب ، فقد صادفنا من يشكك في حقيقة دوره ، على كافة المستويات والأصعدة ، وينتهي إلى الحكم على مساره السياسي و النضالي بخيانة مصالح الأمة لحساب أعدائها في الخارج . و الحق أننا لم نعثر في أثاره على ما يؤيد صحة هذا الرأي ، دون أن يعني ذلك أننا نتخذ بذلك موقفا منحازا للأمير .

و عليه فإننا لا ندعي ، أننا قد أتينا بالجديد في هذا الفصل ، لأن المادة التاريخية المتوفرة لدينا لم تسمح بذلك ، و لذلك نأمل في المستقبل القريب ، أن تظهر بعض المستجدات بخصوص تلك الإشكالات المبهمة في حياة الرجلين ، خاصة بالنسبة للإبراهيمي الذي لا زال الكثير من

مقربيه و تلامذته و مريديه على قيد الحياة ، و في هذا نعاتب نجله الدكتور " أحمد طالب الإبراهيمي " ، الذي لم يأتي بالجديد حول حياة والده ، إذ اكتفى بإيراد المعلومات التي نجدها متكررة في كل ما كتب عنه في هذا المضمار . و حتى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الحالية ، نعتقد أنها و رغم ما بذلته من جهد و نشاط ، للتعريف بالجمعية و تراثها و نضال أعضائها ، إلا أنها لم تتمكن من غاية الآن ، من إيفاء كل ذلك حقه .

و مهما يكن فإن الشيخ البشير و الأمير شكيب أرسلان ، و بالرغم من كل العقبات المتنوعة التي صادفاها في حياتيهما ، إلا أنهما إستطاعا أن يجعلا من نفسيهما قطبان متميزان من أقطاب الفكر و الإصلاح ؛ ليس في مجتمعيهما اللبناني و الجزائري فحسب ، و إنما في الأمة العربية و الإسلامية قاطبة . فقد إعترف لهما بالتميز و التفرد في العديد من المجالات ، معاصروهما بالدرجة الأولى ، ثم من ألف و كتب حولهما من سياسيين و مفكرين و أكاديميين و تلامذة ، إستشهدنا بأراء و مواقف بعضهم عبر فصول هذه الدراسة ، وفق ما تدعو إليه الحاجة العلمية و المعرفية .

و نختم الحديث بشأن هذه النقطة ، بالقول أن الدراسات الأكاديمية التي سلطت الضوء على حياة و أثار المصلحين لا تزال محدودة ، بالرغم من مرور أكثر من 45 سنة على وفاة الإبراهيمي و حوالي 63 سنة على وفاة أرسلان ، خاصة فيما يتصل ببعض القضايا التي بقيت تثير الجدل حولها ، كما أشرنا إليه آنفا .

لقد كرس الإبراهيمي و أرسلان ، جهودهما و طاقاتهما، لخدمة قضاياهما الوطنية و القومية ، و لم يتوقفا عن ذلك حتى و هما في أسوء أوضاعهما الصحية و أرذل العمر ، و هي حسبنا دلائل كافية ، على مصداقية ما قدماه من عطاء و نضال و تضحيات . مع العلم أن الظروف المعاشة ، لم تكن تسمح البتة ببروز أعلام في الوطن العربي أو الإسلامي على شاكلتهما ، و خاصة في الجزائر التي كان من نتائج السياسة الإستعمارية فيها ، أنه كان من النادر جدا أن تجد في مدينة بأكملها أو قرى مجتمعة شخصا يقرأ أو يكتب ، فكيف بعالم أو مفكر . لأن ذلك يعد من أكبر المستحيلات ، و لكن و رغم ذلك إستطاعت عائلات عريقة بإمكاناتها الخاصة ، أن تصنع الإستثناء فكونت و خرجت طاقات علمية و فكرية و ثقافية ،

أخذت على عاتقها النهوض بالمجتمع ، بل و الدفاع عن مصالح الأمة كما حصل مع الشيخ البشير الإبراهيمي ، الذي لم يحض بنفس الظروف الجيدة التي وفرتها عائلة أرسلان لابنها شكيب . و لكنه و مع ذلك إستطاع أن يكشف عن قدرات فكرية وعلمية هائلة ، تجلت في تحليله الدقيق للواقع العربي و الإسلامي ، و في جملة التصورات و الحلول التي حددها لمعالجته ، و أكثر من ذلك أنه أظهر تفوقا واضحا ليس على شكيب فحسب ، و إنما على عدد المفكرين و المصلحين في عصره ، في بعض الجوانب أو التفاصيل و الجزئيات .

و عليه فقد تتبعنا في هذا الفصل ، أهم مراحل حياة الشخصيتين ؛ بدءا بمولدهما الذي كان سنة 1889 م بالنسبة للإبراهيمي و 1869م بالنسبة لارسلان ، ثم نسبهما العائلي ، ثم درسنا نشأتهما و تعليمهما ، بالإضافة إلى رحلاتهما و أسفارهما ، و إعتنينا بإستعراض موقف الإستعمار الفرنسي منهما ، و بالحديث عن وفاتهما و بإبراز ما خلفاه من أثار فكرية و علمية سلمت من يد الضياع و خاصة أثار الإبراهيمي ، التي إندثر جانب كبير منها ، بسبب الظروف الإستعمارية ، الأمر الذي حرم الأجيال الجزائرية و العربية و الإسلامية الصاعدة على حد سواء من الإستفادة منها .

المبحث الأول : الإبراهيمي و أرسلان مولدهما و نسبهما

01 – البشير الإبراهيمي : المولد و النسب :

ولد محمد البشير الإبراهيمي ، بن محمد السعدي ، بن عمر بن محمد بن السعدي ، بن عبد الله بن عمر الإبراهيمي ، صباح يوم الخميس الرابع عشر شوال عام 1306 هجرية ، الموافق لـ : 13 جوان 1889 م (*) ([1]) ، بقبيلة " أولاد براهم " بقرية " رأس الوادي " (**) بدائرة سطيف و هي قبيلة عربية النسب ، تنتمي في أصولها إلى الأدارسة ، و قد قال في هذا الصدد : ((قبيلتنا تعرف بأولاد براهم بن يحيى بن مساهل ، و ترفع نسبها إلى إدريس بن عبد الله (***) الجذم – الجد – الأول للاشراف الأدارسة و إدريس هذا – يعرف بإدريس الأكبر و هو الذي خلص المغرب الأقصى بعد موقعة فخ (****) بين العلويين و العباسيين ، و إليه ترجع أنساب الأشراف الحسينيين في المغربين الأقصى و الأوسط)) ([2]) .

(*) – أورد " محفوظ قداش " خطاء في كتابه : تاريخ الحركة الوطنية 1919م – 1951 م ، الجزء الأول ص 22 ، أن الإبراهيمي ولد سنة 1880 م .

([1])– محمد البشير الإبراهيمي : في قلب المعركة (1954م –1964م) ، جمع و تصدير أبو القاسم سعد الله ، ط 1 ، دار الأمة ، الجزائر : د ت ، ص ص 98-90 .

(**) – ذكر " شارل روبير أجيرون " خطأ ، أن الإبراهيمي ولد في مدينة بجاية في كتابة تاريخ الجزائر المعاصرة ، الجزء الأول ، ص 222 . أما رأس الوادي فهي حاليا دائرة إدارية تابعة لولاية برج بوعريريج.

(***) – إدريس إبن عبد الله : و يعرف بإدريس الأول ، مؤسس سلالة بني إدريس بالمغرب الأقصى ، رحل من مكة إلى مصر و منها إلى المغرب الأقصى ، حيث قامت قبائل البربر بمبايعته ، فتح تلمسان ، قتل سنة 791 م بأمر من الخليفة العباسي هارون الرشيد ، على ما يقال . المنجد في الأدب و العلوم .

(****) – الفخ : واد بالقرب من مكة المكرمة ، فيه قتل العباسيون الحسين إبن علي مع الكثيرين من أتباعه ، في ذي الحجة سنة 169 هجرية الموافق لـ : 11 جوان 786 م ، و قد دأب العلويون على الإحتفال بذكر هذه الحادثة إلى يومنا هذا . المنجد في الأدب و العلوم .

([2])– محمد البشير الإبراهيمي ، المرجع نفسه ، ص ص 205 – 207 .

و يضيف الإبراهيمي على أن ؛ نسب قبيلته العربي ينتهي إلى قبيلة قريش (*) أو هلال بن عامر (**) : ((فمما لا شك فيه أن نسبنا عربي صميم ، إن لم يكن في قريش فهو في هلال بني عامر لأن موطننا الحاضر من المجالات التي كان لبني هلال فيها مضطرب واسع لأول هجرتهم من صعيد مصر في أواسط المائة الخامسة)) .

و بناءا على هذا ؛ نستنتج أن الإبراهيمي كان كثير الإهتمام بأصول قبيلته و عائلته ، و أنه كان شديد التحمس و الإعتزاز بأصله العربي ، على غرار عدد لا بأس به من الجزائريين آنذاك ، مكتفيا فقط بالقول أن أجداده ينحدرون من نسب عربي أصيل ، دون أن يتتبع ذلك عن طريق الشجرة التناسلية كما هو معروف ، و لسنا نعرف هل السبب في ذلك عدم توفرها لديه ، أم أنه لم يهتم بذلك لاسباب معينة ، قد تكون إنشغاله بالعمل التربوي و الإصلاحي ؟ .

و قد كان وحيد والديه من الذكور الذين توفوا كلهم ([1]) ، و ثالث أختين ، أما أمه فهي حدة بنت محمد (***) ([2]) .

و عليه فإن الإبراهيمي ؛ ولد و ترعرع في كنف هذه القبيلة العربية العريقة ، الأمر الذي كان له كبير الأثر ، في تربيته و تنشئته ، و في بناء شخصيته و تشكيل فكره ، لأن مثل هذا العامل هو من الأهمية الكبيرة في هذه الجوانب ، كما يستضح في المبحث الثاني من هذا الفصل .

(*) – قريش : قبيلة عربية عظيمة من كنانة من العدنانية ، أسياد مكة و كبار تجار القوافل ، لها فروع كثيرة منها : أمية و نوفل و زهرة و مخزوم ، و أسد و جمح و سهم و هاشم وتيم و عدي . المنجد في اللغة و الاعلام .

(**)– هلال بن عامر : قبيلة عربية عدنانية الأصل ، هاجر بعضها إلى مصر ، وجههم رفقة بني سليم الخليفة الفاطمي " منصور المستنصر " لمحاربة " المعز بن باديس الزيري " ، فقاموا بغزو إفريقيا ، و تمكنوا من إحتلال القروان و سوسة و تونس إثر " معركة حيدران " سنة 443ه/1052م ، أبطال القصة الشهيرة بسيرة بني هلال ، و هي قصة شعبية وجدت رواجا شعبيا كبيرا في العالم العربي ، منذ العصور الوسطى ، المنجد في اللغة و الاعلام .

([1])– محمد البشير الإبراهيمي : في قلب المعركة ، مصدر السابق ، ص ص 89–90

(***) – لم نتمكن من معرفة أسماء تواريخ وفاة إخوته الذكور ، و المكانة العائلية لوالدته .

([2])– محمد مهداوي : البشير الإبراهيمي نضاله و أدبه ، ط 1 ، دار الفكر دمشق : 1988م ، ص 289 .

02– شكيب أرسلان المولد و النسب :

ولد شكيب أرسلان ابن الأمير حمود (توفي سنة 1887 م عن 59 سنة) ، ابن الأمير حسن (ت سنة 1852م عن 57 سنة) ، إبن الأمير يونس (ت سنة 1820م عن 60 سنة) ، ابن الأمير فخر الدين (ت سنة 1770م) إبن الأمير حيدر (ت سنة 1722 م) ، ابن الأمير سلمان (ت سنة 1695 م عن 60 سنة) ([1]) ، في ليلة الإثنين الموافق للأول من شهر رمضان من شهر ست و ثمانين و مائتين بعد الألف للهجرة (1286 ه) ، الموافقة للخامس و العشرين من ديسمبر سنة ألف و ثمانمائة و تسعة و ستين ميلادية (1869م) ، في " حارة الأمراء " بحي أرسلان بقرية " الشويفات " (*) ([2]) ، التي تقع إلى الجنوب الغربي من العاصمة بيروت ، و تبعد عنها بحوالي عشرة أميال ، و عن البحر الأبيض المتوسط بنحو ميل ([3]) . و تعد "الشويفات " بـ إحدى قرى مقاطعة " الشوف " الجبلية ، ذات المناظر الطبيعية الخلابة و الساحرة ، التي أبهر جمالهما الكثير من الشخصيات الأجنبية التي زارتها ، و منها الشاعر الفرنسي " لامارتين " (LAMARTINE) (**) ، الذي كان يتردد عليها من حين لآخر ، فكتب فيها أروع قصائده الرومانسية . و قد لعبت المنطقة دورا بارزا في التاريخ منذ القديم ، حيث إكتشفت بها سنة 1974م ، مغارة قدر الخبراء عمرها بحوالي أربعة ملايين سنة ([4]) ، كما

([1])– شكيب أرسلان : بنو معروف أهل العروبة و الإسلام ، إعداد و تقديم سعيد المولى ، ط 1 ، دار العودة ، بيروت : ص 49 .

(*) – الشويفات : مفردها شويفة ، و سميت بهذا الإسم لأنها تقع على ثلاث تلات جمع تلة ، و الشويفة معناها التلة ، و قد كان عدد سكانها آنذاك حوالي عشرة آلاف نسمة ، و المهاجرون عنها حوالي ستة آلاف نسمة .

([2])– أحمد الشرباصي : شكيب أرسلان داعية العروبة و الإسلام ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف و الترجمة و النشر ، القاهرة : 1963م ، ص 15 .

([3])– المرجع نفسه ، ص 295 .

(**) – لامارتين (LAMARTINE) : هو الفونس دولا مارتين ، شاعر و سياسي فرنسي ، ولد في منطقة " ماسون " ، توفي سنة 1869 م .

([4])– جمال مشاعل : " الشوف تراث عريق فوق ذرى الجبال " ، مجلة العربي ، الكويت : العدد 461 ، ص ص 143 – 192 .

تم العثور على الكثير من الآثار الإغريقية و الرومانية و البيزنطية ، و منها قطع نقدية مكتوبة بالحرف الإغريقي تعود إلى سنة 220 ق م ، تحمل صور القائد " الأنطويوخس " آخر القادة المقدونيين الذين ورثوا الحكم عن الإسكندر المقدوني(356 ق م- 324 ق م) (*) . أما الآثار و المعالم الإسلامية فتتواجد بها بكثرة ، و منها مقام نبي " أيوب عليه السلام " الذي يتواجد في إحدى القمم الجبلية .

و لأن المنطقة تتميز بكثرة الشلالات و المنابع المائية العذبة ، فإن سكان قرى " الشويفات " ، إحترفوا عبر العصور زراعة الخضر و الأشجار المثمرة ، و خاصة أشجار الزيتون ، التي تتكيف مع البيئة الجبلية للمنطقة ([1]) . والده هو الأمير " حمود بن حسن الأرسلاني " (**)، الذي توفي سنة 1305 ه الموافقة لـ سنة 1887م ، أي لما بلغ الثامنة عشر

(*)- الإسكندر المقدوني : الملقب " بذي القرنين " ، ولد في مقدونية و توفي في بابل ، تعلم على " أرسطو " ، خلف أباه " فليبس " ، عزم على فتح الفرس فانتصر عليهم في " إيسوس " سنة 333 ق م ، ثم في سواحل فينيقيا بعد أن حاصر " صور " سبعة أشهر ، ثم في مصر حيث أسس الأسكندرية سنة 332 ق م و أخيرا تتبع " دار يوس " في العراق ، و انتصر عليه في " كوكايل " بالقر من من " أربيل " سنة 331ق م، وتابع زحفه إلى أطراف فارس و تجاوزها إلى ضفاف نهر " السند " . المنجد في اللغة و الاعلام.

([1])- جمال مشاعل ، المرجع السابق ، ص ص 133 – 144 .

(**)- حمود بن حسن الأرسلاني : عرف بالذكاء و الكرم و الشجاعة ، و بإجادته للغة العربية ، و معرفته للغة التركية ، و إهتمامه بالأدب و الشعر ، دفن بالشويفات . احمد الشرباصي ، المرجع السابق ، ص 16 .

أما والدته فهي سيدة شركسية (*) ذات أصول عريقة ، عاشت أكثر من مائة عام ، كان شكيب يعبر عنها في أغلب الأحيان بـ: السيدة الوالدة ، أنجبت خمسة أولاد هم على التوالي : نسيب (**) و شكيب مترجمنا ، حسن ، أحمد و عادل (***) ([1]) . أطلق عليه والده إسم " شكيب " و هو إسم فارسي و معناه في اللغة الفارسية " الصابر " ، و مادة " الشكب " في اللغة العربية تدل على العطاء و الجزاء ([2]) .

(*) – الشركس أو الجركس : شعوب قطنت سابقا شمال غربي القوقاز ، و الشاطئ الشرقي للبحر الأسود ، هاجر أغلبها إلى تركيا و سوريا و الأردن . المنجد في اللغة و الاعلام .

(**)– الأمير نسيب : ولد سنة 1248 هجرية ، إشتهر بقول الشعر الجزل ، تولى العديد من المناصب الإدارية في لبنان و منها مدير المنطقة " الشوف " ، كما كانت له نشاطات سياسية ، في أواخر أيامه إعتزل الإدارة و السياسة ، و انصرف إلى ممارسة الزراعة و كتابة الشعر . حازم صاغية : " البعد الذهني في الصراع العربي الإسرائيلي " ، مجلة العربي ، الكويت : العدد 443 / أكتوبر 1995 م ، ص 25 .

(***)– الأمير عادل : شاعر و لغوي ، أختير نائبا عن جبل لبنان في " مجلس المبعوثان " العثماني ، خلال الحرب العالمية الأولى ، كما كان من المقربين من الأمير فيصل في دمشق ، و ترأس ديوان شقيقه " الأمير عبد الله " في الأردن مدة ثلاث سنوات ، قاد إقليم " البلان " خلال الثورة السورية عام 1925 م ، مثل سورية في هيئة الأمم المتحدة ، تولى وزارة الدفاع و الخارجية و التربية في سوريا . كان ضمن الوفد السوري الذي شكله " الحاج أمين الحسيني " مفتي فلسطين و رئيس المجلس الإسلامي الأعلى ، للسفر إلى أمريكا في سبيل القضية الفلسطينية ، إثر حادثة " البراق " سنة 1929 م ، لقب " بأمير السيف و القلم " . حازم صاغية ، المرجع نفسه ، ص 25 و ما بعدها .

([1])– سامي الدهان : شكيب أرسلان حياته و آثاره ، ط 2 ، دار المعارف ، مصر : 1976م ، ص 63 .

([2])– احمد الشرباصي ، المرجع السابق ، ص 15 .

أما نسب الأسرة الأرسلانية ، فضارب في تاريخ أنساب العرب ، حيث أن جدها الأكبر هو " الأمير أرسلان " الذي توفي سنة إحدى و سبعين و مائة هجرية ، و هو بدوره ينحدر من نسل الملك " المنذر بن ماء السماء اللخمي " ، و قد شكل هذا النسب العريق ، مصدر فخر و إعتزاز لأل أرسلان ، الذين كان لأجدادهم الأرسلانيين دور بارز في تاريخ المنطقة ، فهذا الجد " الأمير عون " كان ممن شاركوا في فتوح الشام رفقة الصحابي الجليل " خالد إبن الوليد ". و ممن إستشهدوا في معركة " أجنادين " (*) ، أما " الأمير أرسلان بن مالك المنذري " ، فقد حارب ضد الروم في لبنان بأمر من الخليفة العباسي " أبي جعفر المنصور "(**) ، كما أبلوا البلاد الحسن في صدر الحروب الصليبية (***) ، و في الفتوحات الإسلامية هذا من ناحية ، و من ناحية أخرى فإن آل أرسلان ، فرع من الطائفة الدرزية ، إحدى الطوائف الطوائف المؤلفة للنسيج الإجتماعي اللبناني ، إلى جانب السنة و الشيعة و الموارنة و الروم و الأرمن ... و غيرهم . و في هذا الصدد ، نسجل تضاربا كبيرا في نسب الطائفة الدرزية ، إذ إختلفت في ذلك المصادر القديمة و الكتابات الحديثة على حد سواء ، فمنها

(*) – أجنادين : موقع بين الرملة و بيت جبرين في فلسطين ، حدثت فيه المعركة بين العرب و البيزنطيين ، إنتصر فيها العرب على البيزنطيين بقيادة " أرطيون " سنة 234 ق م . المنجد في اللغة و الاعلام .

(**) – أبو جعفر المنصور : هو أبو جعفر المنصور ، عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب ، ولد في ذي الحجة سنة خمسة و تسعين هجرية ، تمت مبايعته سنة ست و ثلاثين مائة هجرية ، و قد دامت ولايته إثنتين و عشرين سنة . عرف بالحزم و صواب الرأي ، و حسن السياسة و العطاء الجزيل . خلف سبعة أبناء هم : المهدي جعفر و سليمان و عيسى و يعقوب و جعفر الأصغر و صالح الملقب بالمسكين ، و بنت تسمى عالية ، دفن بمكة . علي بن الحسين المسعودي : مروج الذهب و معادن الجوهر ، ج 3 ، سلسلة الأنيس ، موفم للنشر ، الجزائر : 1989م ، ص 390 ، 389 ، 355 .

(***) – الحروب الصليبية : إنطلقت الحروب الصليبية ، إثر دعوة وجهها البابا " أوربان الثاني " ، إلى المسيحيين لتحرير بيت المقدس ، و مجمع " كليرمون " – CLERMONT – في فرنسا عام 1095 م ، و الذي حضره إثنى عشر (12) مطرانا و ثمانين (80) أسقفا و تسعين (90) أبا . و قد دامت هذه الحربالإستعمارية قرنين من الزمن (1096 م – 1291) ، شهد خلالها المشرق العربي الخراب و الدمار الذي عطل قوى الإبداع و التطور في الحضارة العربية الإسلامية . أحمد صارم " الغزو الصليبي للشرق العربي بين الدوافع الحقيقية و الأهداف المعلنة " ، المجلة العربية للثقافة ، المنظمة العربية للثقافة و التربية و العلوم : العدد 26 / مارس 1994 م ، ص 108 .

من تنسب الدروز على أنهم الفرقة الرابعة من الشيعة ، و أنهم من أتباع " أبي محمد الدرزي " الذي كان مواليا للخليفة الفاطمي " الحاكم أبي علي المنصور إبن عبد العزيز " ، كانوا إسماعيلة في البداية ثم تخلوا عنها ، و يعتقدون بألوهية الحاكم ([1]) .

و هناك من نسبهم إلى الفرس و العرب ، فقد ذهب الدكتور " فيليب حي " إلى أنهم من الفرس و العرب الذين ينحدرون من أصول فارسية ، حيث نزحوا إلى " وادي التيم " بسورية و استقروا هناك ، ليجد " الحاكم بأمر الله الفاطمي (*) " في زعيمهم " الدرزي " الشخص المناسب للترويج لتعاليمه الباطنية ، التي ترجع في معظمها إلى العقائد الفارسية ، التي إمتزجت بعقائد و أفكار أخرى و منها : الأفلاطونية (نسبة على الفيلسوف أفلاطون) و المسيحية و الزرادشتية و الهندوكية (ديانة الهنود) و المعتزلة (فرقة إسلامية) و الصوفية ([2]) .

أما " آمين طلع " ([3]) ، صاحب كتاب " أصل الموحدين الدروز " الذي يعد من أهم المراجع في تاريخ الدروز ، فذكر أن وجودهم في الشام يعود إلى القرن الثالث للهجرة ، لما نزحت بعض قبائل " بني ربيعة " من شبه الجزيرة العربية إلى لبنان ، و أستوطنت في منطقة " الجبل " و في قضائي " الشوف " و " المتن " ، و كانت " بسكنتا " هي عاصمتهم الأولى ، و يضيف أن آخرين منهم في أقضية " حاصيبا " و " راشيا " المعروفة باسم " وادي التيم " ، و في " البقاع " و " وادي العجم " و " غوطة دمشق " و " جبل الدروز " و " الجبل الأعلى " في شمال سوريا ، و في " " صفد " و " جبل الكرمل " من أعمال فلسطين .

و نزل بنو تميم الله بن ثعلبة في وادي التيم المعروف " بالجهم " ، و نزل بنو كلب في البقاع الممتد بين " بلعبك " و " حمص " ، أما بنو هلال بن عامر بن صعصعة فقد إتخذوا جبل

([1])- احمد الشرباصي ، المرجع السابق ، ص 16 .

(*) - الحاكم بأمر الله الفاطمي : هو أبو علي المنصور بن العزيز بالله ، ولد بمصر يوم الثالث و العشرين ربيع الأول سنة 375 هجرية ، تولى الخلافة سنة 386 هجرية و عمره إحدى عشرة سنة ، إشتهر بالجود بالمال و بسفك الدماء ، حاول نبش قبري الصحابيين عمر إبن الخطاب و أبي بكر الصديق لكنه فشل . أسس دار الحكمة ، و مكتبة دار العلم . أبي عبد الله محمد الصنهاجي : أخبار ملوك بني عبيد و سيرتهم ، تحقيق و تعليق جلول أحمد البدوي ، م و ك ، الجزائر : 1984 م ، ص 57 و ما بعدها .

([2])- احمد الشرباصي ، المرجع نفسه ، ص 19 . نقلا عن مجلة الهلال ، عدد مارس 1990 م ، ص 226 .

([3])- أمين طلع ، المرجع السابق ، ص 199 .

الدروز موطنا لهم ، و الذي كان يعرف فيما سبق بجبل بني هلال نسبة إليهم ، و لحد الآن مازال بنو عامر يسكنون القسم الشمالي من جبل الدروز و عاصمتهم " شهباء " .

أما بنو عجل بن عمر من آل عبد القيس ، فنزلوا بقضاء " الشوف " و عاصمتهم " بعقلين " و مازالوا هنالك لغاية الآن ، ثم جاء بعدهم إلى المنطقة بنو معن بن زائدة و عاصمتهم " دير القمر " ، تم التنوخيون و بني لخم مناذرة العراق الذين وفد منهم أميران بغرض مقاومة الروم على شاطئ البحر الأبيض المتوسط ، و هما الأمير" عون " خلف " مالك " و هذا الأخير خلف " أرسلان " جد الأرسلانيين ، الذين إستوطنوا مقاطعة " العزب " مثلما هم الآن بطلب من الدولة العباسية (*) .

و بعد هذا السرد المفصل ، يرد آمين طلع على الكتابات التي تنسب الدروز إلى القائد الصليبي " الكونت درو " (DREUX) و حتى إلى اليهود ، بالقول أنها إدعاءات لا سند لها ، لأن الحملة الصليبية الأولى التي دعا إليها " بطرس الناسك " (**) كانت في سنة 1096 م (***) ، أما تاريخ الدروز فيرجع حسبه إلى ما قبل ذلك بقرن ، لأن " الحاكم بأمر الله الفاطمي " مؤسس الطائفة الدرزية و إمام مذهبها ، تولى الخلافة سنة 995 م ([1]) .

و الواقع أن هذا التضارب في نسب الدروز ، قد دفع بالأمير شكيب أرسلان نفسه إلى الرد على من إعتبرهم مشككين في عروبة قومه ، فألف كتابا أسماه : " بنو معروف أهل العروبة و الإسلام " ، أكد فيه أن الدروز عرب أقحاح و أن عروبتهم أصح من عروبة كل عرب الجزيرة العربية قاطبة ، معتبرا القول بأنهم من بقايا الصليبيين و اليهود رأي سخيف : ((و يا ليت شعري ماذا وجد في الدروز مما يشبه الإفرنج الصليبيين أسحنتهم أم ألوانهم أم تركيب رؤوسهم أم أخلاقهم أم عاداتهم أم لفظهم بالعربي الفصيح الذي لا يساويهم فيه أحد من

(*)– لم نتمكن من معرفة السبب الحقيقي ، الذي دفع بالخلفاء العباسيين إلى الطلب من الأرسلانيين أجداد الأمير شكيب أرسلان ، الإستقرار في المنطقة .

(**) – بطرس الناسك (نحو 1050 م–1115 م) : راهب فرنسي دعا إلى الحملة الصليبية الأولى . المنجد في اللغة و الاعلام .

(***) – هذا التاريخ خاطئ ، لأن دعوة بطرس الناسك كانت سنة 1095 م ، أما الحملة الصليبية الأولى فقد إنطلقت سنة 1096 م كما هو معروف .

([1])– آمين طلع ، المرجع السابق ، ص ص 20 – 21 .

جميع سكان سورية ؟ و كيف تمكن أن يتحولوا هذا التحول العظيم من إفرنج صليبيين إلى عرب أقحاح ؟ و متى وقع هذا التحول و أين و متى ؟)) .

و إضافة إلى ذلك ، تحدى الأمير أصحاب هذا الرأي ، أن يأتوا بدليل من كتابات القدماء " كابن الكثير " ، أو " ابن خلدون " ، أو " ياقوت الحموي " ، أو " ابن عساكر " ، أو " الذهبي " أو " أبو شامة " ، أو " ابن النديم " ... أو غيرهم من المؤرخين العرب و المسلمين ، الذين يشهد لهم بالتمكن في هذا المجال . أما الأدلة التي ثبت حسبه عروبة الدروز ، فهي كالآتي :

01 – سحنتهم العربية الخالصة و تشابههم فيما بينهم ، حيث يمكن التمييز بين الدرزي و غيره بسهولة .

02– فصاحة لغتهم العربية ، و إخراجهم الحروف من مخارجها الصحيحة ، فتجد الدرزي البسيط يتحدث لغة فصيحة ، تفوق فصاحة المتخصص في النحو .

03 – كون كل المصادر الدرزية و غير الدرزية ، تتفق على أنهم من نسل اثنتي عشر قبيلة عربية هاجرت من حلب إلى لبنان ، في أوائل العهد العباسي .

04 – كونهم من " الشيعة السبعية " ، أي القائلين بالأئمة السبعة و هم فرقة من الشيعة ، مع العلم أن شيعة سوريا هم عرب أقحاح .

05 – وجود بطون و أفخاذ في المجتمع الدرزي ، تتصل أنسابها على قبائل عربية ، و منها من مازالت الصلات بينها لغاية الآن .

و إذا كان الأمير لا ينفي ، وجود بعض العائلات الدرزية ذات أصول تركية أو كردية ، فإنه في المقابل يرفض أن يتخذ من ذلك دليلا ، يخرج حسبه الطائفة الدرزية ، من النسب العربي .

فانه من جهة أخرى– وجدناه– يهاجم بشدة ، كل من ينفي عند الدروز صفة الإنتماء الإسلامي ، و يروج بأنهم من الفرق الباطنية الخارجة عن الدائرة الإسلامية ، قائلا بأن قومه مسلمون يقيمون جميع الشعائر الإسلامية المفروضة ، و يتواصون فيما بينهم بالرابطة الإسلامية ([1]) .

([1])– ينظر شكيب أرسلان : بنو معروف أهل العروبة و الإسلام ، مصدر سابق ، ص 71 و ما بعدها .

و يتصف الدروز بشكل عام ، بالقناعة المفرطة ، إذ لا يميلون إلى الهجرة و الترحال طلبا للثروة و المال ، أو إلى التأنق في اللباس و الطعام ، و لا إلى الإشتغال في المهن الشاقة التي تتطلب الجهد و الصبر ، فهذا الزهد دفع الكثيرين إلى إعتبارهم أصحاب كسل ([1]) .

و يضيف إلى ذلك الشيخ محمد عبده ، في تقرير قدمه إلى والي بيروت سنة 1886م أنهم : ((قوم خلو من العلوم بالمرة سذج كأنهم في بداية البداوة ، و لكنهم أذكياء بجودة الفطرة ، و لا يخش على كبارهم أن يخلعوا مذهبهم إلى مذهب آخر ، و إنما يخاف على أبنائهم من ذلك و على كبارهم من الإنقياد السياسي للإنجليز))([2]) .

و يبدو من هذا الوصف ، أن الشيخ محمد عبده ، إنما يحاول أن يلفت انتباه المسؤولين العثمانيين في المنطقة إلى ضرورة التساهل مع الدروز و معاملتهم معاملة حسنة ، فقد يدفعهم تعسف بعض الولاة و القادة العسكريين ، إلى التحالف مع الإنجليز الذين بدأوا يمهدون الطريق للسيطرة على الشام ، مستغلين في ذلك تذمر الشاميين من السياسة العثمانية بصورة عامة .

و بناءا على كل ما تم عرضه في هذا المبحث ، الذي أدرجناه للحديث عن مولد و نسب الشيخ البشير الإبراهيمي و الأمير شكيب ، نلاحظ أن الرجلين ينتميان إلى جيل واحد ، حيث الإبراهيمي ولد سنة 1889م ، بينما أرسلان ولد سنة 1869 م ، أي جيل النصف الثاني من القرن 19م ، بالرغم من أن الأمير قد سبق الإبراهيمي بعشرين سنة . كما لاحظنا أيضا ، أن تاريخ مولدي الرجلين موثقان بدقة ، ويمكن تبرير ذلك بالمكانة الاجتماعية والثقافية والعلمية للعائلتين اللتان انحدرا منهما ، فعائلة الإبراهيمي كانت من أكبر وأعرق العائلات العربية في الجزائر ذاع صيتها في كل أنحاء البلاد وحتى خارجها ، أما عائلة الأمير شكيب فقد كانت تلعب دورا كبيرا و أساسيا في الحياة الإجتماعية و السياسية ، بل و حتى في بلاد الشام كلها .

و في معرض حديثنا عن نسب العائلتين ؛ لاحظنا أن الإبراهيمي قد تحدث عن نسبه العائلي بإقتضاب شديد ، مكتفيا بالقول أنها ذات أصول عربية عريقة تتصل بشكل و آخر بقبيلة

([1])- أمين طلع ، المرجع السابق ، ص 11 .

([2])- عبد المنعم حمادة : الأستاذ الإمام محمد عبده ، د ط ، مطبعة الإستقامة ، مصر: 1945 ، ص 14 .

قريش أحد أشهر القبائل العربية و أعرقها ، دون أن يوثق ذلك بالشجرة التناسلية كما هو متعارف عليه في مثل هذه القضايا . و الأمر ذاته ، فيما يتعلق بالمعلومات الخاصة بأخوته ووالدته ، حيث لم نعثر على أي شيء مفيد في ذلك ، و قد إنتظرنا صدور مذكرات نجله الدكتور " أحمد طالب الإبراهيمي " ، لعلها تميط اللثام عن ذلك ، لكن دون جدوى ، حيث تجنب الدكتور الحديث عن الأمور العائلية و الشخصية عن قصد حسبه ، مثلما أشار إليه في الجزء الثاني من المذكرات ، ردا على الاستفسارات ، أو الإنتقادات التي وجهت له منتقدة إياه تارة و ملاومة له تارة أخرى . إذا كنا قد وجدنا مبررا للإبراهيمي الوالد ؛ بقولنا أنه ربما يرجع ذلك إلى إنشغاله بالعمل التربوي و الإصلاحي الذي كان يأخذه منه كل وقته ، فحال دون أن يتوسع في الكتابة و ربما التأليف في أصوله العائلية ، فإننا لم نقف عند السبب الحقيقي الذي دفع بالإبراهيمي الإبن إلى الإحجام عن ذلك ، خاصة و أن نسب العائلة عربي عريق و لا يطرح أي إشكال ، كما هو الحال بالنسبة لآل أرسلان أجداد الأمير شكيب أرسلان ؟ .

و عليه ؛ فإنه إذا كنا قد وجدنا شحا كبيرا، في المعلومات المتعلقة بعائلة الإبراهيمي ، فإننا عثرنا على كم كبير من المعلومات حول عائلة الأمير شكيب أرسلان ، سواء في كتابات الأمير ذاته ، أو في كتب غيره من المؤرخين و المؤلفين اللبنانيين و العرب على حد سواء ، بل وجدنا أنفسنا أمام موضوع جدير بالبحث و الدراسة و المناقشة ، و هو أصول الطائفة الدرزية التي تنتمي إليها عائلة الأمير شكيب ، بسبب تضارب المعلومات حول أصولها الحقيقية هل هي عربية أم أوروبية أم تركية ؟ ، و حول كونها إسلامية العقيدة أم غير ذلك ... ؟ .و في كل ذلك ، كان الأمير مدافعا مستميتا عن عروبة و إسلام طائفته مفتخرا بذلك ، مستغربا و متسائلا عن خلفيات من ينفون عنها العروبة و الإسلام ، و ينسبونها إلى الصليبيين و غيرهم ؟ .

و في واقع الأمر ؛ أنه لا دفاع الأمير شكيب أرسلان المؤكد لعراقة الطائفة الدرزية ، و لأحقيتها في موقع مرموق ضمن الدائرة الإسلامية ، و لا كتابات و أقوال المشككين في ذلك ، إستطاعت أن تزيل اللبس و الغموض عن حقيقة الدروز و إعتقاداتهم الباطنية ، التي تبدو حتى لنا كباحثين محايدين في حاجة إلى مزيد من البحث و الدراسة .

و هو الإشكال الذي لم يطرح إطلاقا ، بالنسبة لعائلة الإبراهيمي أو قبيلته ، على إعتبار أنها عربية مسلمة على المذهب المالكي ، الذي يعد المذهب الغالب لدى كل شعوب المغرب

العربي هذا من جهة . و من جهة أخرى تجب الإشارة ، إلى أن الإبراهيمي ينتمي إلـــى عائلـــة تنتمي بدورها إلى قبيلة كبيرة ، من ضمن نسيج إجتماعي قبلي كبيـــر ، يتشـــكل منـــه القطـــر الجزائري آنذاك . بينما ينتمي الأمير إلى طائفة عرقية و دينية و مذهبية ، من جملة الطوائـــف الدينية و العرقية و المذهبية ، التي تعد الأساس الذي يقوم عليه المجتمع اللبناني منـــذ قـــرون ، و الدولة اللبنانية منذ إستقلالها و إلى غاية الآن .

و منه فإن الإبراهيمي ، ولد في عائلة لم يكن نسبها العربي و إنتماؤهـــا العقائـــدي إلـــى الإسلام محل تشكيك أو إنتقاد ، بينما العكس بالنسبة لعائلة الأمير شكيب ، التي كتب الكثير حول أصولها و عقائدها ، و ما زالت هذه الإشكالية مطروحة لغاية الآن ، خاصـــة فـــي الســـنوات الأخيرة ، بالنظر إلى الدور السياسي الذي أضحت الطائفة الدرزية تلعبه في لبنان ، سواء خلال الحرب الأهلية اللبنانية التي إندلعت فـــي نهايـــة القـــرن العشـــرين ، أو فـــي مطلـــع القـــرن الحادي و العشرين .

المبحث الثاني : نشأتهما و تعليمهما :

01 – الإبراهيمي نشأته وتعليمه :

نشأ الإبراهيمي في عائلة جزائرية ذائعة الصيت ، توارث أفرادها العلم أبا عن جد منذ أكثر من خمسة قرون ([1]) ، يقصدها طلاب العلم من مختلف أنحاء البلاد ، فتتكفل بكل مستلزمات إيوائهم وتعليمهم ، إلى أن يحصلوا على مبتغاهم العلمي والمعرفي .

مما أكسبها مكانة متميزة وسط القبائل والعشائر ، حيث كانت ترجع إليها طلبا للإفتاء في القضايا الدينية ، وللصلح في النزاعات والخصومات التي تنشأ فيما بينها ، وقد أكد هذا الدور العلمي والتربوي والدين والاجتماعي ، الذي كانت تقوم به عائلته بقوله ([2]) :((كان لأجدادي تاريخ قديم ، في العلم يرجع إلى قرون ، وكانوا مرجعا في الفتوى الدينية والصلح بين العشائر مهما شجر بينهم خلاف ، وكانوا ملاذا لطلبة العلم لا تخلوا بيوتهم من عشرات طالبي العلم يرحلون إليهم من أقاصي البلاد ،فيقومون بإطعامهم وتعليمهم ، ومنهم من لا يخرج إلا عالما)) . ومنه نستخلص أن طلبة العلم والمعرفة ، الذين كانوا يلوذون إلى عائلة الإبراهيمي ، قد كانوا يفضلونها على سائر العائلات الأخرى في المنطقة ، لحسن ضيافتها لهم ، وللمستوى العلمي الجيد الذي يجدونه لدى علمائها وشيوخها ومعلميها .

في ظل هذا الجو العائلي المحفز ، نشأ الإبراهيمي على غرار أبناء العائلات الريفية الجزائرية المتعلمة ، بساطة في العيش ، ومحافظة في السلوك ، واستقامة في الأخلاق . فقام على تربيته وتعليمه في بداية الأمر ، عمه الشقيق الأصغر لوالده " محمد المكي الإبراهيمي " ، الذي كان عالما معروفا بوطن " ريغة " (*) ، وفريد عصره في التمكن من علوم اللغة العربية وآدابها ، فكان محمد البشير يلازمه حتى في الطعام والنوم ، فضلا عن التعليم وقراءة القرآن على يديه (**) ، ونعتقد أن هذه الملازمة (***) هي التي مكنته من استظهار القرآن الكريم

([1])– محمد البشيرالإبراهيمي : في قلب المعركة ، مصدر سابق ، ص 90.

([2])– محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 5 ، مصدر سابق ، ص 189.

(*)– وطن " ريغة " : اقليم يشمل عدة بلديات تابعة لولاية سطيف وهي : عين ولمان ، بوطالب ، أولاد سيدي أحمد ، الحامة ، الرصفة . وقد عرف الاقليم عددا من مشاهير العلماء في الخطابة واللغة والفقه والقضاء منهم : جمال الدين أبو محمد عبد الله بن سعيد بن قايد ، هارون بن النصر الريغي ... وغيرهم .

(**) – محمد مهداوي ، المرجع السابق ، ص 33 .

وعمره ثماني سنوات ، وحفظ " ألفية ابن مالك " و " تلخيص المفتاح " ، بالإضافة إلى ما كان يتمتع به من ذاكرة وحافظة ((خارقتين للعادة)) ([1]) .

ولما بلغ سن التاسعة من عمره ، أصبح يفهم مفردات القرآن الكريم وغريبه ([2]) ، وهي السنة نفسها التي أصيب فيها بعاهة العرج في رجله اليسرى ، نتيجة للإهمال والتقصير في العلاج ، وقد خلف ذلك في نفسه ألما حادا وحزنا كبيرا ، ذكر بأنه شغله عنهما شغفه بالعلم وتعطشه للمطالعة وقراءة الكتب ، في شتى التخصصات والمجالات ([3]) .

ولما وصل إلى سن الرابع عشرة ، حفظ " ألفية العراقي " في النثر والسير، " ونظم الدول " " لابن الخطيب " (*) ، ومعظم رسائله المجموعة في كتاب " ريحانة الكتاب " ، ومعظم رسائل فحول كتاب الأندلس والشرق العربي ، وكتب اللغة والأدب .

وعندما أصيب عمه بالمرض ولازم الفراش ، أذن له بالتدريس نيابة عنه لزملائه الطلبة وهو في سن الرابع عشرة ، ولما مات عمه واصل الأستاذ الشاب تدريس ما تعلمه من عمه ، وما أجاز له تدريسه إلى غاية اجتيازه سن العشرين .

لقد مثلت الثقة الكبيرة التي وضعها عمه فيه ، نقلة نوعية ومرحلة جديدة ومثيرة في حياته ، تحدث عنها بصراحة فريدة بقوله ([4]) : ((وما أشرفت على الشباب حتى أصبت بشر آفة يصاب بها مثلي وهي آفة الغرور والإعجاب بالنفس ... وكدت أهلك لولا طبع أدبي كريم ،

(***)- ذكر عادل نويهض أن الإبراهيمي تلقى تعليمه الأول على يد أبيه ، ثم في زاوية" ابن علي الشريف " في " شلاطة " بجبال القبائل . ينظر عادل نويهض : معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر ، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر ، بيروت : 1980م ، ص 13 .

([1])- محمد البشير الإبراهيمي : في قلب المعركة ، مصدر سابق ، ص ص 90-91 .

([2])-المصدر نفسه ، ص 209.

([3])- المصدر نفسه ، ص 90 .

(*) - ابن الخطيب ،: وزير ومؤرخ وأديب ، ولد في لوشة جنوبي غرناطة ، من أسرة هاجرت من الشام إلى الأندلس ، تعلم على يد كبار الشيوخ ، ولي الوزارة ، عرف بذي : " الوزارتين " : الأدب والسيف ، اتهم بالزندقة فقتل ، له عدة مؤلفات : في التاريخ وتخطيط البلدان ، الشعر والأدب ، التصوف والطب ، أهمها : " الإحاطة في أخبار غرناطة " . المنجد في اللغة والأعلام .

([4])- محمد البشير الإبراهيمي : المصدر نفسه ، ص 91 ، 92 ، 93 .

ورحلة إلى الشرق كان فيها شفائي من تلك الآفة)) . وهي ولا شك عوارض نفسية ، قد تغري الشباب الذين يتفردون عن أقرانهم ، بتلك القدرات الذهنية والفكرية ، والاستعدادات الذاتية ، التي كان يتمتع بها الإبراهيمي الشاب الطامح إلى بلوغ أعلى الدرجات العلمية .

وهكذا فالإبراهيمي ؛ وبالرغم من أنه ولد في فترة كانت فيها الجزائر قد عرفت فيها تخلفا علميا و ثقافيا كبيرا ، بسبب السياسة الاستعمارية الفرنسية التي عملت على تجهيل الشعب الجزائري ، و تحطيم هويته الوطنية التي ترتكز على العروبة و الإسلام ، و هذا عن طريق منع التعليم العربي الديني الحر ، و الاستيلاء على مراكزه من مدارس و مساجد و كتاتيب قرآنية .

و بالرغم أيضا ؛ من إقامته في عمق الريف الجزائري ، بعيدا عن حياة المدن التي كانت توفر لساكنيها ظروفا أسهل للدراسة و التعليم ، إلا أنه أقبل على طلب العلم و المعرفة بشراهة و نهم كبيرين ، و تمكن في ظرف وجيز من أن يستوعب و يفهم ما كان يتجاوز سنه بكثير ، و ما كان يجد زملائه الطلبة صعوبة كبيرة في تحصيله . و ما قيام عمه " المكي الإبراهيمي " بإجازته للتدريس ، دون غيره من علماء و معلمي العائلة أو المنطقة ، إلا دليلا على ذلك .

و لأن الجزائر أصبحت لا تلبي طموحاته العلمية و المعرفية ، بسبب السياسة الاستعمارية السالفة الذكر ، اتخذ الإبراهيمي سنة 1911م قرار الهجرة إلى المشرق العربي ، الذي كان مقصد طلاب العلم و المعرفة ، من كل أنحاء البلاد العربية و الإسلامية ، لما كانت يتوفر عليه من مؤسسات علمية ذات مستوى علمي مرموق ، بالمقارنة مع نظيراتها في المغرب العربي .

في سن الواحد و العشرين ، قصد الإبراهيمي المدينة المنورة (*)، التي سبقه إليها والده الشيخ " السعدي الإبراهيمي " فرارا من القمع و الإضطهاد الفرنسيين ([1]) ، فمر بتونس

(*) – ذكر الشيخ أحمد حماني ، و هو أحد أعضاء جمعية المسلمين الجزائريين ، أن البشير الإبراهيمي رحل الى المشرق العربي فرارا من التجنيد الإجباري ، لكننا نعتقد بعدم صحة ذلك ، لأن الإبراهيمي لم يكن مؤهلا للخدمة العسكرية ، بالنظر إلى الإعاقة الجسدية التي كان يعاني منها ، و قد سبق الحديث عنها في بداية هذا المبحث . ينظر أحمد حماني : الصراع بين السنة و البدعة ، ج 1، ط1 ، دار البعث ، قسنطينة ، الجزائر : 1984 م ، ص 237 .

([1])– محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج1 ، مصدر سابق ، ص ص 9 – 10 .

و ليبيا ([1]) ، ثم القاهرة التي أقام فيها ثلاثة أشهر ، حضر خلالها دروس نخبة من علماء الأزهر ، من أمثال الشيخ " سليم البشري " (1867م – 1917 م) ، و الشيخ " محمد بخيت " (1854م – 1935م) ، و الشيخ " يوسف الدجوي " (1860م – 1946م) ، و الشيخ " عبد الغني محمود " (توفي سنة 1928) ، و الشيخ " السمالوطي " ، و "" سعيد الموجي " .

و اتصل بأمير الشعراء " أحمد شوقي " (*)و بشاعر النيل " حافظ إبراهيم " (**) ، كما حضر عددا من الدروس في دار الدعوة و الإسلام " التي أسسها الشيخ " رشيد رضا " (***) . و قد مكنته تلك الاتصالات و الدروس ، من الإطلاع على الأفكار الإصلاحية و التأثر بها ، و خاصة أفكار " رشيد رضا " ، الذي اعتبر وفاته فيما بعد خسارة كبيرة للعالم الإسلامي([2]).

([1])– محمد مهداوي ، المرجع السابق ، ص 35 .

(*) – أحمد شوقي : ولد حوالي 1869م ، إلتحق في سن الرابعة بالكتاب على غرار أبناء جيله ، ثم بالمدارس الإبتدائية و الثانوية ، أكمل تعليمه الثانوي سن 1885م ، فانتقل إلى مدرسة الحقوق لدراسة القانون لكنه آثر الإلتحاق بقسم الترجمة الذي فتح بها حديثا ، و تخرج منه سنة 1887 م مع حصوله على منحة لدراسة الحقوق في فرنسا ، منحها إياه " الحذيوي توفيق " . يعد من أعمدة البحث و الإحياء في الشعر العربي ، حيث واصل المسيرة التي بدأها البارودي في إستلهام التراث العربي و الإستفادة منه ، مع التجديد فيه . مصطفى عبد الشافي ، المرجع السابق ، ص ص 32– 33 .

(**) – حافظ إبراهيم : ولد سنة 1871 م في محافظة أسيوط ، حيث كان يعمل والده ، إلتحق بالمدرسة الحربية و تخرج منها سنة 1891م ، عمل في وزارة الحربية ثلاث سنوات و في وزارة الداخلية عام واحد . عين سنة 1911 م في القسم الأدبي بدار الكتب المصرية في عهد وزير التربية " حشمت باشا " ، حيث مكث فيه إلى غاية وفاته سنة 1932 م . يمثل شعره حلقة أخرى في حركة البعث و الإحياء ، فمن جهة سار على النهج القديم ، و دعا إلى التخلص من ما لا يتصل بالحياة المعاصرة من صور و أخيلة من جهة ثانية ، و زيادة على ذلك تطلع إلى الصور الإنسانية الرحبة الجذابة في الآداب الغربية . مصطفى عبد الشافي ، المرجع نفسه ، ص 20 و ما بعدها .

(***) – رشيد رضا : ولد في قرية " قلمون " في طرابلس الغرب بلبنان سنة 1865 م ، صاحب مجلة " المنار " ، و ناظر مدرسة الدعوة و الإرشاد الكلية بمصر ، تلميذ الشيخ محمد عبده ، بعد وفاة أستاذه واصل نشر تفسيره للقرآن الكريم . المنجد في الأدب و العلوم .

([2])–محمد البشير الإبراهيمي : في قلب المعركة ، مصدر سابق ، ص ص 9 – 10 .

الفصـــل الثانـــي :

الشيخ البشير الإبراهيمي والأمير شكيب أرسلان حياتـهما وآثارهما

شد الرجال بعدها قاصدا المدينة المنورة عن طريق البحر ، من مدينة " بور سعيد " إلى " حيفا " بفلسطين ، و منها ركب القطار إلى المدينة ([1]) ، التي وصلها في أوائل سنة 1912م متخفيا مثلما فعل والده . و فيها درس على يد كبار علمائها الذين استقروا بها من شتى أنحاء البلاد العربية و الإسلامية ؛ مختلف العلوم : كعلوم التفسير و الحديث ، الفقه و التراجم ، أنساب العرب و أدبهم و دواوينهم ، علم المنطق و الحكمة الشرقية ، و أمهات كتب اللغة و الأدب ([2]) .

و حضر الدروس التي كان يلقيها الشيخ " عبد العزيز الوزير التونسي " في : الموطأ و فقه الإمام مالك ، و في التوضيح لإبن هشام . كما لازم الشيخ " حسين أحمد الفيض الأبادي " ، في درسه لصحيح مسلم . و قد تأثر بهذين الشيخين تأثر كبيرا ، فقال ([3]) عنهما : ((و لقيت من المشايخ ما شاء الله أن ألقى ، و لكني لم أرى مثل الشيخين فصاحة في اللسان و دقة في الملاحظة و الغوص عن المعاني و إستثارة الفكر ، و التقريب للمعاني القصية)) .

و أخذ علم التفسير ، عن الشيخ الجليل " إبراهيم الأسكوبي " (*) ، و الجرح و التعديل و أسماء الرجال عن الشيخ " أحمد البنزرجي "(**) و أنساب العرب و أدبهم الجاهلي و السيرة النبوية عن الشيخ " عبد الله الشنقيطي " ، و علم المنطق عن الشيخ " عبد الباقي الأفغاني " ، و أمهات كتب الأدب المشهورة عن الأديب " محمد العمري الجزائري " ([4]) .

و لم يكتف ، بما كان يتلقاه من كبار هؤلاء العلماء ، فراح يتردد على كبريات مكتبات المدينة ، التي كانت تحتوي على عشرات الآلاف من الكتب و المخطوطات النادرة : في علوم التفسير و الحديث و أصول الفقه ، و علم الكلام و الأدب و الأخلاق و التاريخ ، و علم المنطق ... إلخ . و من أشهر تلك المكتبات : مكتبة شيخ الإسلام " عارف حكمت " ، مكتبة " السلطان محمود " ، مكتبة " الشيخ الوزير " ، مكتبة " بشير آغا " ، مكتبة " آل الصافي "

([1])–محمد مهداوي ، المرجع السابق ، ص 35 .

([2])– محمد البشير الإبراهيمي : في قلب المعركة ، مصدر سابق ، ص ص 9 – 10 .

([3])– المصدر نفسه ، ص ص ، 211 – 216 .

(*) – إبراهيم الأسكوبي : من أصل لبناني ، كان يحسن عدة لغات .

(**)– أحمد البنزرجي : هو من أجاز للإبراهيمي بجمع معارفه العلمية ، توفي بدمشق سنة 1919 م .

([4])– محمد البشير الإبراهيمي : المصدر نفسه ، ص ص 211– 212 .

مكتبة " رباط سيدنا عثمان " ، مكتبة " عبد الجليل برادة " ، مكتبة الوزير التونسي " العربي زروق " ([1]) .

و لا شك أن ؛ هذه المكتبات العديدة العامرة بالمؤلفات و المخطوطات ، قد أشبعت تعطش الإبراهيمي للمطالعة و زيادة التبحر في مختلف العلوم و المعارف ، فضلا عن إحتكاكه بروادها من العلماء و الطلبة ، و هو ما كان يفتقد إليه في الجزائر .

و زيادة على ذلك ، كان يلقي الدروس تطوعا على شباب المهاجرين في المسجد النبوي الشريف ([2]) ، أين كانت له مع بعض زملائه الطلبة لمسات تجديدية على مضامينها و طرق إلقائها ، مستفيدا من خبرته في التدريس في الجزائر ، لما رخص له عمه " المكي الإبراهيمي " ذلك ، و هو في سن الرابع عشرة ([3]) .

و في المدينة المنورة أيضا ، تم أول لقاء بين الشيخ البشير الإبراهيمي و الشيخ عبد الحميد ابن باديس (1889 م –1940 م) ، أثناء موسم الحج لعام 1913م ، تلته لقاءات أخرى بشكل يومي عقب صلاة العشاء التي كانا يؤديانها في المسجد النبوي الشريف ، ليستمر سمرهما في بيت الإبراهيمي ، و هذا طيلة ثلاثة أشهر ، و هي الفترة التي أقام فيها ابن باديس بالمدينة المنورة ([4]) .

و قد مهدت تلك اللقاءات الثنائية ، إلى وضع تصور مشترك لمشاريعهما المستقبلية في الجزائر ، في ميادين التربية و التعليم و الإصلاح و مقاومة الاستعمار الفرنسي ، أثمرت فيما بعد تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بالجزائر العاصمة ، بتاريخ 05 ماي 1931م ([5]) .

توطدت صلات الود والتآلف و التعاون بين الرجلين ، لتزداد متانة و ارتباطا ، بعودتهما إلى أرض الوطن ، و قد وصف الإبراهيمي تميز تلك العلاقة قائلا ([6]) : ((فلقد و الله كنا

([1])– محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 3 ، مصدر سابق ، ص 553 .

([2])– محمد البشير الإبراهيمي : في قلب المعركة ، مصدر سابق ، ص 215 .

([3])– المصدر نفسه ، ص ص 93 – 219 .

([4])– محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، المصدر نفسه ، ج 1 ، ص 10 .

([5])– محمد البشير الإبراهيمي : في قلب المعركة ، المصدر نفسه ، ص 216 .

([6])– محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، المصدر نفسه ، ج 3 ، ص 553 .

إخوان صفاء ، و مازلنا إخوان صفاء ، حتى نجتمع عند الله راضين مرضيين إن شاء الله)) .
و على هذا الأساس ظل الإبراهيمي ، يعتبر إبن باديس رائد علماء الشمال الإفريقي ، و أنه إليه يعود الفضل في النهضة العلمية و الأدبية و الاجتماعية و السياسية ، التي شهدتها الجزائر مع نهاية العشرينات ، و بداية الثلاثينات من القرن الماضي ([1]) .

و لكن مقام الإبراهيمي ، لم يطل كثيرا بالمدينة المنورة ، فقد اضطر إلى مغادرتها إلى بلاد الشام سنة 1916 م ، رغم تعلقه بها و تفضيله لها عن كل البلاد ، لمكانتها و للأجواء الروحية التي تسودها ، بسبب قيام الدولة العثمانية بترحيل كل سكان المدينة إلى سوريا و الآناضول بتركيا ، بسبب الحرب العالمية الأولى و ثورة " الشريف حسين بن علي " ، و عجزها عن تموين الجيش العثماني المتواجد هنالك و المقدر بخمسين ألف (50.000) جندي ، و المدنيين البالغين ثمانين ألف (80.000) مدني ([2]) .

و كان وصوله إلى دمشق في أخريات شتاء عام 1917 م ، و قد أنساه حزنه على هذا الترحيل الإجباري ، رغبته في لقاء العالمين الدمشقيين الكبيرين " عبد الرزاق البيطار" (*) و " جمال الدين القاسمي " (**) خاصة ، و بقية علماء سورية عامة ، الذين قرأ مؤلفاتهم أو سمع عنهم و عن منزلتهم العلمية ([3]) .

و منه نستنتج ، أنه كان يخطط مستقبلا لزيارة الشام ، بغرض لقاء علمائه و أدبائه ، قبل أن يقوم بذلك مرغما ، و لأن المنطقة لم تكن هي الأخرى أقل شأنا من المدينة المنورة ، فيما يتعلق بإنتشار المؤسسات التعليمية و المراكز الثقافية ، و إزدهار النشاط العلمي و الفكري بها .

([1])– محمد البشير الإبراهيمي : <u>في قلب المعركة</u> ، مصدر سابق ، ص 215 .
([2])– المصدر نفسه ، ص ص 93 – 213 .
(*) – عبد الرزاق البيطار : هو عبد الرزاق البيطار بن حسن بن إبراهيم البيطار ، ولد و توفي بدمشق (1834م – 1916م) ، ملك ناصية علوم الدين و الأدب و التاريخ ، مصلح سلفي العقيدة ، له عدة كتب مطبوعة . خير الدين الزركلي : <u>معجم الأعلام</u> ، ج 5 .
(**) – جمال الدين القاسمي : هو جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسن الحلاق ، ولد و توفي بدمشق ، من أئمة الشام و علمائه في الدين و الأدب ، سلفي العقيدة ، له عدة مؤلفات منها : " دلائل التوحيد " ، " الفتوى في الإسلام " ، ... إلخ ". خير الدين الزركلي : <u>معجم الأعلام</u> ، ج 4 .
([3])– محمد البشير الإبراهيمي : <u>الآثار</u> ، ج 3 ، مصدر سابق ، ص 565 .

و لما إستقر به المقام بدمشق ، أخذ يلقي دروسا في الوعظ و الإرشاد ، و في الحـــديث و التفسير بالجامع الأموي : ((فكان يملي الحديث من حفظه بالإسناد إلى أصوله القديمة ، ثـــم يشبعه تفسيرا و شرحا ، بما يوافق روح العصر و أحداثه)) . و قد مكنه هذا الأســـلوب مـــن إستقطاب شريحة هامة من أهل المدينة ، الذين أعجبوا بعلمه الغزير و حفظه الكثير و براعتـــه في التفسير ([1]) .

عمل بعدها ، أستاذا للغة العربية في المدرسة السلطانية (**) للصفوف النهائية المرشحة لنيل شهادة البكالوريا ، وهي المدرسة الثانوية الوحيدة في دمشق ، وقد كان يختار للتدريس فيها نخبة من العلماء والأساتذة البارزين من الشام وخارجه ، ثم أصبح أستاذا لآداب اللغة العربيـــة وتطور فقه اللغة العربية ومراحلها وفلسفتها ، فتخرج على يديه مجموعة من الطلبة النجبـــاء ، الـــذين أصـــبحوا فيمـــا بعـــد أعلامـــا وأقطابـــا بـــارزين ، فـــي دنيـــا الفكـــر والأدب والسياسة (***) ([2]) .

ومن الطبيعي ، أن يتنافس أصحاب المدارس الأهلية في دمشـــق ، لضـــم الإبراهيمـــي لأطقمها التدريسية ، إذ أنه في ظرف وجيز ، استطاع أن يحبب إلـــى طلبتـــه اللغـــة العربيـــة وآدابها ، بفضل خبرته المحترمة في التدريس وعلمه الواسع ، وذاكرته القوية ومنهجه التربوي السليم . وأن ينال الحب والتعظيم منها لأخلاقه العالية ، ومثاليته وإنسانيته .

([1])- محمد مهداوي ، المرجع السابق ، ص 39 .

(**) - المدرسة السلطانية : اتخذتها السلطات العثمانية مدرسة ، وسمتها (المكتب الاعدادي) ثـــم أصـــبحت تعرف باسم (مكتب عنبر) . محمد مهداوي ، المرجع نفسه ، ص 93 .

(***) - ومنهم الدكاترة : جميل جميل صليبا ، أمين الريحاني ، المحايري ، عدنان الأتاسي ... وغيرهم .

([2])- محمد البشير الإبراهيمي : في قلب المعركة ، مصدر سابق ، ص ص 93 – 213 .

وقد بلغ تعلق طلبته به ، حد زيارته في بيته حتى في العطل المدرسية ، وفي ذلك يقـول تلميذه الدكتور " جميل صليبا " (*) ([1]) ، الذي تأثر به أيما تأثر : ((... أعجبنا بسـعة علمـه ،وقوة ذاكرته ، واستقامة منهجه ، لأنه كان يملي علينا البحتري وأبي تمام عن ظهر قلب مـن أولها إلى آخرها ، ويقرب معانيها من إفهامنا بالتفسير المحكم والشرح الدقيق والتحليل الأدبـي الجميل ، حتى ولد في نفوسنا حب اللغة العربية وآدابها ، ولعلنا لم نحب هذه اللغـة إلا بتـأثير الشيخ أولا ، فقد أحببناه حبا عميقا ، وانتقل هذا الحب منه إلى مادته ، ولا غرو فقد كان رحمه الله أعظم الناس في أعيننا ، وكان حببه إلى نفوسنا تواضـعه ، ولطفـه ووقـاره ، وشـجاعته وعفته ، وشعوره بكرامته ، وحرصه على القيام بواجباته ، وتعلقه بالقيم الإنسانية المثاليـة)) . هذا ويعد " صليبا " ، من أبرز التلامذة (**) الذين كتبوا وتحدثوا عن أستاذهم الإبراهيمـي ، خاصة فيما يتعلق بمنهجه التربوي ، والجوانب الإنسانية في شخصيته .

زيادة على ذلك ، عقد الكثير من اللقاءات والاتصـالات والصـداقات ، مـع العلمـاء والمفكرين ورجال الأدب والثقافة في سورية ، مثلما كان يفعل أثناء إقامته بالمدينة المنـورة ، كما كان يتردد باستمرار على مكتبة " آل القاسمي " الشهيرة ، ينقب في مخطوطاتهـا النفيسـة وكتبها القيمة . وقد وصف إقامته بدمشق قائلا ([2]) : ((ولقد أقمت بين أولئك الصح الكرام أربع سنين إلا قليلا ، وأشهد صادقا أنها الواحة الخضراء في حياتي المجدبة ، وأنها هي الجزء

(*) – جميل صليبا : هو حبيب خوري داود صليبا ، ولد في قرية القرعون في لبنـان سـنة 1902م ، كـان عضوا بمجمع اللغة العربية بدمشق ، وعميدا لكلية التربية بجامعة دمشق ، حصل على شهادة الدكتوراه في الفلسفة من جامعة السوربون سنة 1927م ، له عدة مؤلفات في علم النفس والفلسفة . توفي بلبنان سنة 1976م محمد مهداوي ، المرجع السابق ، ص 40.

([1])– جميل صليبا : " مقتطفات من مذكرات الدكتور جميل صليبا عن الشيخ البشـير الإبراهيمـي " ، مجلـة الثقافة ، الجزائر : العدد 87 ، ماي / جوان 1985م ، ص ص 55– 56 .

(**)– ومنهم الأساتذة : عبد القادر المظفر ، بهجت البيطار ، عبد الكريم الطرابلسي ، جـودت المـارديني ، قاسم ورضا القاسميين ، سعيد العزي ، عبد القادر المبارك ، محمد الخضـر الحسـين (1876م ، 1958م) وهو : عالم جزائري اختص في علوم الشريعة والأدب واللغة ، تولى مشـيخة الأزهـر والزيتونـة ، ودرس بالمدرسة السلطانية ... وغيرهم . محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج3 ، مصدر سابق ،ص 566.

([2])– محمد البشير الإبراهيمي ، المرجع نفسه ، ص 566.

العامر ، في عمري الغامر)) .

و لم يقتصر نشاط الإبراهيمي في دمشق ، على التدريس والبحث والتنقيب في المكتبات العامة والخاصة ، بل شارك في النشاط السياسي ، وأبدى مواقف وآراء إزاء الأوضاع السياسية ، التي كانت تشهدها سورية في تلك الفترة الحساسة جدا من تاريخ المنطقة ، فقد رفض تأييد نقيب الأشراف " جمال باشا " (*) الذي طلب منه أن يسخر قلمه ولسانه لخدمة سياسته ، بسبب سياسته الاستبدادية والقمعية واحتقاره للعنصر العربي . وهو موقف نحسبه جريئا ، بالنظر إلى ما عرف عن ذلك القائد ، من قسوة وبطش بمعارضيه وخصومه .

كما انضم إلى الكثير من الأندية والجمعيات السورية ، التي كانت تسعى إلى توحيد صفوف العرب ، ومنها بصورة خاصة " النادي العربي " الذي أسسه الدكتور " عبد الرحمان شهبندر " : أحد قادة الرأي ، وزعماء الثورة العربية في النصف الأول من القرن العشرين الميلادي . كما أيد الثورة العربية "والأمير فيصل " (**) ، الذي دخل دمشق سنة 1918م ، بعد أن طرد الأتراك نهائيا من المنطقة ([2]) . هذا الأخير طلب من الإبراهيمي الرجوع إلى الحجاز ، للإشراف على إدارة التعليم هنالك ، لكنه رفض رغم إلحاح " فيصل " عليه ، لعدم رضاه على سياسة أبيه " الشريف حسين " ([3]) .

(*)- نقيب الأشراف " جمال باشا " : عينته الدولة العثمانية واليا على سوريا في ديسمبر 1913م ، تظاهر في البداية بإحياء التراث العربي و اللغة العربية وأمجاد العرب ، لكي يخفي عداءه للعرب ، فعمل تدريجيا على إبعاد الكتائب العربية المنضوية ، تحت لواء الجيش التركي ، من دمشق إلى الأناضول واستبدلها بكتائب تركية . عمل مديرا لفرع الجواسيس في جمعية الاتحاد والترقي ، قام بسلسلة من الإعدامات ضد المعارضين للحكم التركي بين سنتي 1915م – 1916م ، في دمشق وبيروت ، بتهمة التعاون مع الانجليز و " الشريف حسين " . للمزيد ينظر زاهية قدورة ، المرجع السابق ، ص 240 وما بعدها .

(**)- الأمير فيصل : هو الأمير فيصل بن الحسين بن على بن الحسين الهاشمي ، ولد بالطائف سنة 1883م ، رحل مع والده إلى الأستانة سنة 1891م ، اختير نائبا عن مدينة جدة في مجلس النواب العثماني ، عين قائدا للجيش العربي المحارب في فلسطين إلى جانب الإنجليز لطرد الأتراك سنة 1920م ، بعد احتلالها من قبل القوات الأوروبية فر إلى أوروبا ، ثم نودي به ملكا على العراق سنة 1921م . توفي في سويسرا بالسكتة القلبية . خير الدين الزركلي : الأعلام ، ج 5 .

([2])- محمد مهداوي ، المرجع السابق ، ص 41 .

([3])- محمد البشير الإبراهيمي : في قلب المعركة ، مصدر سابق ، ص ص 93 -94 .

فاستمر به المقام بدمشق ، إلى غاية سنة 1920م ، يقدم المساعدة للدولة العربية الناشئة ، من خلال مساهمته في تعريب الإدارة وتكوين الإطارات الحكومية ، وإلقاء المحاضرات على طلبة التعليم العالي بالنادي العربي ([1]) .

وبعد تسع سنوات من الغياب عن الجزائر ، قرر الإبراهيمي العودة إليها سنة 1920م ، مغادرا دمشق " الفيحاء " ، التي عاش فيها أحلى أيامه ، وأروى فيها ظمأه العلمي والمعرفي ، ولذلك كان يوم الوداع قاسيا عليه ، فقال فيه ([2]) بعد ثلاثين سنة : ((ويوم الوداع ما أقساك ، لا أنسى ما حييت مواقف الوداع بمحطة البرامكة والأستاذ الخضر يكفكف العبرات ، وتلامذتي الأوفياء : جميل صليبا ، ونسيب السكري ، والأيوبي ، يقدمون إلي بخطوطهم كلمات في ورقات ، ما زلت محتفظا بها احتفاظ الشحيح بماله)) . وبناء على كلام الإبراهيمي هذا ، نستشف مدى تعلقه الكبير بدمشق خاصة وبالبيئة الشامية عامة ، لأن إقامته فيها مثلت نقلة عظيمة في حياته ، رغم أنه هاجر إليها مكرها ، إذ اكتشفه الدمشقيون بمجرد نزوله بعاصمتهم التاريخية ، فسارعوا إلى مجالسته وفتح المجال أمامه لممارسة وظيفته الطبيعية كما كان يسميها وهي التعليم ، رغم أن دمشق في تلك الأثناء كانت تحفل بكبار الأساتذة و العلماء والمفكرين والأدباء ، ممن لا يتيسر أمر منافستهم بسهولة ، فسجل وبنجاح كبير رغم حداثة سنه وقلة خبرته ، اسمه في النهضة التعليمية التي أثمرت ، بعد أن أينعت في سوريا عموما ودمشق خصوصا .

وتجاوز ذلك ، إلى المساهمة في الحياة السياسية ، بالمشاركة والانخراط في النوادي التي كانت تهتم بالشؤون السياسية ، وبإبداء رأيه ومواقفه بشجاعة وجرأة كبيرتين ، في الأحداث والتطورات التي عرفتها سوريا خلال وبعد الحرب العالمية الأولى ، رغم خطورة الأمر خاصة عند نهاية الحكم التركي بالمنطقة ، وما الإعدامات التي قام بها " جمال باشا " نقيب الإشراف في سوريا ، إلا دليلا على ذلك .

([1])- محمد خير الدين : مذكرات الشيخ محمد خير الدين ، ج1 ، مطبعة دحلب ، الجزائر : 1985م ، ص 412 .

([2])- محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج3 ، مصدر سابق ، ص ص 567 – 568 .

وخلاصة القول ، أن رحلة الإبراهيمي إلى المشرق العربي ، قد فتحت أمامه آفاقا علمية وفكرية وإنسانية رحبة ، لم يكن ليجدها لو بقي في وطنه الجزائر ، الذي تركه يعيش جفافا ثقافيا وعلميا وفكريا كبيرا ، بفعل السياسة الاستعمارية الفرنسية ، التي اتخذت من التجهيل الشامل لكل فئات الشعب الجزائري ، أداة إستراتيجية لضمان بقائها في البلاد ، وبالتالي استغلال مواردها البشرية والاقتصادية دون عناء .

02 – شكيب أرسلان : نشأته و تعليمه :

في عائلة أرستقراطية ، يعتز أبناءها بانتمائهم العرقي ، و بإمارتهم للأدب و العلم و السياسة منذ قرون ، نشأ الأمير شكيب أرسلان ، و تلقى دروسه و معارفه الأولى ، حيث أنه و بمجرد أن بلغ سن الخامسة من عمره ، إختار له والده رفقة شقيقه (نسيب) معلما يدعى الشيخ (مرعي شاهين سلمان) ، ليعلمهما في البيت المبادئ الأولى في القراءة و الكتابة .

و لما إنتقلت الأسرة إلى منطقة " عين عنوب " ، أحضر لهما الشيخ " أسعد أفندي فيصل " لتحفيظهما القرآن الكريم ، فحفظا جانبا منه عن ظهر قلب دون إكماله ، ثم إلتحقا بالمدرسة الأمريكية في حارة " العمروسية " ، بعد عودة الأسرة إلى قرية " الشويفات " ، و فيها تلقيا دروس الجغرافيا و الحساب و مبادئ اللغة الإنجليزية ... و غيرها .

و في سنة 1879 م أدخلا مدرسة " الحكمة " ببيروت ، التي أسسها المطران " يوسف الدبس " (*) ، رئيس الساقفة الطائفة المارونية ، و قد إشتهرت هذه المدرسة بتفوقها في اللغة العربية ، ظلا يدرسان بها مدة ثماني سنوات ([1]) .

و في مدرسة " الحكمة " ، تعلم الأمير شكيب و شقيقه نسيب ، على يد نخبة ممتازة من الأساتذة في تلك الفترة و منهم : الشيخ " عبد الله البستاني " (**) الذي تعلم على يديه اللغة العربية .

(*)– يوسف الدبس : مؤرخ و عالم مشهور ، عرف في زمانه بسعة الثقافة و بتبحره فيها ، ألف كتابا ضخما تحت عنوان : " تاريخ سورية " منذ الخليقة إلى يومه ، يتألف من ثمانية مجلدات ، و يعد من أضخم المؤلفات و أوسعها في هذا المجال . تعلم اللغات السريانية و اللاتينية و الإيطالية ، و علوم المنطق و اللاهوت ، ترقى في الكهنوتية حتى منصب أسقف على أبرشية بيروت و نواحيها . قام ببناء كنيسة تعد من أكبر كنائس سورية ، خلف العديد من المؤلفات في علوم المنطق و التاريخ . أحمد الشرباصي ، المرجع السابق ، ص 24

([1])– أحمد الشرباصي ، المرجع نفسه ، ص 24 .

(**) – الشيخ عبد الله البستاني : أستاذ جليل ، إشتهر بحبه للمفردات اللغوية و سعة معارفه ، حيث ظل طوال حياته ينقب عنها ، فجمعها في معجم كبير هو : " البستان " . له مؤلفات أخرى في النحو و التاريخ ، و قد تميز شعره بالجزالة و الفخامة . أحمد الشرباصي ، المرجع نفسه ، ص 66 .

و تلقى بعض دروس " ابن عقيل " (*) على يد " الخوري بولس عواد " الذي أصبح مطرانا فيما بعد ، و اللغة الفرنسية على يد المعلم " شاكر عون " (**) ، و اللغة التركية على يد ضابط يقال له : " عبد السلام بكمن الشام " ([1]) . و بفضل هؤلاء الأساتذة المختصين في اللغات ، تمكن الأمير من أن يستوعب الكثير من الألفاظ و المفردات التركية و الفرنسية الإنجليزية ، وهو لا يزال صغيرا ، و ذلك إلى جانب اللغة العربية شعرا و نثرا و نحوا ، حيث أخذ عنهم الشعر الجاهلي و المعلقات (***) و شعر المخضرمين (****) و حفظ الجيد منها ، وما هي إلا سنوات قليلة حتى أصبح يقرض الشعر وينظمه بأسلوب متين ، ولغة نقية ، يتنافس في ذلك مع أخيه " نسيب " الذي كان الأفضل منه ومن زملائه في قرض الشعر .

(*) – ابن عقيل : هو ابن عقيل بهاء الدين عبد الله (1298 م – 1367 م) ، نحوي مصري من أئمة النحاة ، اشتهر بشرحه " ألفية ابن مالك " . المنجد في اللغة و الأعلام .

(**) – شاكر عون : ولد سنة 1854 م ، أرسل بعد حوادث سنة 1861 م إلى مدرسة " فرساي " الثانوية بباريس ، مارس التعليم لسنوات في مدرسة " الحكمة " ، و " الشيخ عباس " ببيروت . من آثاره : ترجمته لكتاب " التاريخ العام " " لبوسويه " رفقة الشيخ عبد الله البستاني ، أنشأ مجلة " النديم " ، له مقالات عديدة في الأدب و علم الإجتماع ،عرف بتضلعه في اللغة الفرنسية تضلعا كبيرا.توفي سنة 1926 م . سامي الدهان ، المرجع السابق ، ص67 .

([1])– سامي الدهان ، المرجع نفسه ، ص 66 .

(***) – المعلقات : مجموعة من القصائد الطويلة الموثوق بصحتها ، اختلف في سبب تسميتها بالمعلقات ، فهناك من يرى بأنها سميت كذلك لنفاستها أي لمستواها الشعري الراقي ، بينما يرجعها آخرون إلى كونها كانت تعلق على أستار الكعبة . كما اختلف أيضا في عددها ، فهي سبع عند البعض و عشر عند البعض الآخر . و من أشهر شعراء المعلقات : امرئ القيس ، زهير بن أبي سلمة ، طرفة بن العبد ، أبيب بن ربيعة ، عمرو بن كلثوم ، الحارث بن حلزة ، عنترة بن شداد . تعد من أهم مصادر الأدب الجاهلي . ينظر زبير دراق : المفيد الغالي في الأدب الجاهلي ، د م ج ، الجزائر : 1994 م ، ص ص 128–129 .

(****) – الشعراء المخضرمون : هم الشعراء التي امتدت حياتهم بين العصر الجاهلي و العصر الإسلامي ، حافظ شعرهم على الطابع القديم (الأغراض لم تتغير) ، لكن الفكرة المتناولة أصبح يميزها المضمون الإسلامي ، فقد تحول مثلا المدح من مدح الزعماء و الشخصيات إلى مدح الإسلام و رسالته و الرسول (ص) من أشهرهم : " كعب بن زهير ، حسان بن ثابت ، عبد الله بن رواحة ، الحطيئة ... و غيرهم " .

وإذا كان الأمير ، أقل تفوقا في قرض الشعر من أخيه " نسيب " ، فإنه في المقابل أظهر نبوغا وجدارة في النثر ، حيث كان مدرسوه وأساتذته يلجئون إليه كلما احتاجوا إلى خطيب أو شاعر أو كاتب . وقد اعترف له بموهبته الشعرية والخطابية الشيخ " محمد عبده" (1843م – 1905م) ، لما زار مدرسة "الحكمة " ، إثر نفيه إلى بيروت خلال ثورة أحمد عرابي باشا(*)، حيث خاطبه بعد أن استمع إلى بعض أشعاره بقوله :((إني اعرف اسمك وستكون من أحسن الشعراء)) ، وهي شهادة يطمح إليها أي شاب طموح في مثل سنه .

وفي سنة 1887م ، دخل بمعية أخيه " نسيب " المدرسة السلطانية في بيروت ، أي لما بلغ سن الثامنة عشر ، وفيها أقاما سنة دراسية واحدة ، تلقيا خلالها دروس اللغة التركية والفقه، وحضرا درس مجلة الأحكام العدلية على يد الشيخ " محمد عبده "، وقد أحب الأمير هذا الأخير ولازمه في مجالسه الخاصة ، وانعقدت بين الشيخ وأسرة الأمير صداقة قال فيها : ((فكنا نزوره في منزله ببيروت وكان يزورنا ببيتنا بالجبل ، وكان المرحوم والدي يجل الأستاذ الشيخ كثيرا ، وكان الشيخ يجل والدي كثيرا أيضا ويقول أنه من أعقل ما عرف في حياته)) .

وقد كان والد الأمير كثيرا ، ما يصطحب ابنه معه إلى بيت الإمام للسمر عنده ، فكان لذلك الأثر العظيم في تكوينه وتوجيهه ، حيث اتخذ منه : ((مثلا أعلى لحياته ، ورأى في أدبه وسيرته ودعوته للإصلاح وعمله لخير المسلمين طريقا يسلكها و شعارا يرمي إليه ، و نهجا يسير فيه ، حتى غدا يقلده في خطابه وفي آثاره ومقالاته)) .

ولما توفي والده سنة 1887م ، احتار الأمير فيما ينبغي أن يفعله ، وهو في حداثة سنه وضعف تجاربه في الحياة ، لتحقيق طموحاته البعيدة المتمثلة في أن يصبح زعيما من زعماء الإصلاح في العالم العربي ، على نهج أستاذه الملهم الشيخ " محمد عبده " يدفعه في ذلك التقدير الذي كان يلقاه ويسمعه من كل من عرفه أو احتك به ([1]) . فقرر السفر إلى سورية بغية

(*) – ثورة أحمد عرابي باشا : اندلعت سنة 1881م بقيادة أحمد عرابي باشا ، الذي التف حوله الفلاحون والجيش والنواب ، بهدف إسقاط حكومة " رياض باشا " ، وإنشاء دستور حقيقي لمصر . ينظر زاهية قدورة ، المرجع السابق ، ص 361 وما بعدها .

([1])– سامي الدهان ، المرجع السابق ، ص ص 67 – 68 .

الاتصال بأعلام الفكر والأدب والعلم والسياسة ومنهم بشكل خاص : الشيخ " محمد عبده " الذي غادر بيروت بعد انتهاء فترة نفيه ، و "سعد زغلــول " (1838م – 1827م) (*) ، والشــيخ " علي يوسف " صاحب " المؤيد " الذي تعرف عليه عن طريق زيارة أداها له في مقر الجريدة ، وقد أعجب الشيخ بالأمير ، وكلفه على الفور بأن يكتب افتتاحية العدد المنتظر صدوره ([1]) .

قصد بعدها مصر ، وهو في سن الواحدة والعشرين ، ليتمكن من الانضمام إلــى حلقــة أستاذه في القاهرة ، الذي أضحى يعرفه معرفة شخصية ، فلازمه مدة شهرين كاملين ، تعــرف خلالها على ملازميه الذين سيكونون فيما بعد طلائع النهضة العربية الحديثة ومــنهم : " أحمــد زكي باشا " (1866م–1934م) ، وأدباء ومفكرون وساسة كثيرون .

لقد مثلت هذه البيئة الجديدة ، التي انضم إليها الأمير الشاب أكبر جامعــة دخلهــا فــي حياته ، إذ سمحت له بأن يخرج منها وهو على اطلاع واسع بدروب الثقافــة والفكــر والأدب والسياسة ، وزادته يقينا بتجسيد أحلامه وأمانيه في الدفاع عــن قضــايا الإســلام ، والخلافــة والعروبة و مقاومة الاستعمار ، وهو النهج الذي اختاره السيد " جمال الدين الأفغاني " وتلميذه الشيخ "محمد عبده " .

قرر الأمير بعد ذلك لقاء " الأفغاني " ، فسافر إلى " الأستانة " عبر باريس ، التي تعرف فيها على أمير الشعراء " أحمد شوقي " (1868م–1932م) ، وأصبحا يلتقيان يوميا في مقهــى " داركور " ، كما استغل وجوده هنالك ليعالج من مرض كان قد ألم به . التقى بعــدها بالأفغــاني سنة 1892م ، وهو في الثانية والعشرين من العمر ، فدارت بينهما أحاديث حول مصر والشرق

(*) – سعد زغلول : ولد سنة 1838 م ، كان والده من أمراء المدفعية في عهد محمد علي باشا ، تخرج من المدرسة الحربية سنة 1854م ، اشتغل بوزارة الخارجية بالأستانة ، أتقن اللغة العربية والفارسية والتركية ، عينه الخديوي إسماعيل في سلاح الفرسان ، تولى وزارة الأوقاف ثم الحربية في عهد الخديوي توفيق ، انظم إلى الثورة العرابية سنة 1882م ، فقبض عليه ونفي إلى " سرنديب " التي قضى فيها سبعة عشر عاما ، إلى غاية صدور العفو عنه سنة 1900م . يعد من أول المجددين في الشعر العربي الحديث ، حتى تعود إليه جزالته ورصانته ، وتصوير شخصية الشاعر وبيئته وقومه وعصره ، تصويرا يتصف بالإخلاص والصدق . مصطفى عبد الشافي : في الشعر الحديث والمعاصر ، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ، الإسكندرية : 1998م ، ص 13 وما بعدها .

([1])– سامي الدهان ، المرجع السابق ، ص 27 .

والغرب والإسلام ، والاستعمار والتبشير ، فأعجب به الأفغاني أيما إعجاب وقال لـــه : ((أنـــا أهنئ أرض الإسلام التي أنبتتك)) . وهي شهادة تقدير أخرى ، يحصل عليها الفتى الشاب ، بعد تلك التي نالها من الشيخ محمد عبده في مصر .

وبفضل هذه الرحلة ، تمكن الأمير من الوقوف على دسـائس الاسـتعمار وخططـه ، للاستيلاء على بلاد العرب والمسلمين ، فاختار الوقوف إلى جانب الدولة العثمانية ضد الغرب ، مطابقا لموقف الأفغاني وعبده ، حتى لا يتفرق الشرق الإسلامي ولا تتفرق صفوفه ([1]) .

وبالنظر إلى ما تم عرضه ، بشأن نشأة وتعليم الأمير شكيب أرسلان ، نخلص إلى أن ، الوضع الأرستقراطي لعائلته كان له دور ايجابي في ذلك ، حيث نشأ في جو عائلي ممتاز كذلك الذي توفره العائلات الغنية لأبنائها ، يسرة في العيش وكثرة في الحوافز الماديـة والمعنويـة ، التي لها بدون شك أهمية كبيرة في تنشئة الفرد وتحقيق رغباته . فبفضل ذلك ، تمكـن مـن أن يدرس بشكل منفرد رفقة شقيقه " نسيب " على يد كبار علماء لبنان ، الذين كانوا يأتونه للبيت ، ويلقنونه العلوم والمعارف الضرورية المناسبة لتلك المرحلة من عمره ، وقد تجاوز ذلـك إلـى تعلم اللغات الأخرى من تركية وفرنسية وإنجليزية . وهي ظروف لاشك أنها لم تكن متاحة لكل أبناء جيله ، في مسقط رأسه " الشويفات " أو في كامل لبنان .

وقد رأينا كيف أن عائلته قامت بإرساله إلى مدرسة " الحكمة " ببيروت، لاستكمال تعليمه بها ، وهي المدرسة التي كانت تستقبل أبناء العائلات اللبنانية الكبيرة ذات الجاه و الصيت ، ثـم أرسلته بعدها إلى المدرسة " السلطانية " التي لا تقل عنها سـمعة ومكانـة . ولمـا أصـبحت المدارس اللبنانية والجو الثقافي والعلمي بلبنان ، لا يلبيان طموحاته العلمية والمعرفية والثقافية ، أرسلته إلى سوريا ومصر ليحقق ذلك دون مشقة أو عناء . وقد مر بنا أن كبار العلماء ، كـانوا يسعون للتقرب منه ومن أخيه " نسيب " وليس العكس ، بفعل نفوذه العـائلي سياسـيا وماديـا ومعنويا ، ففي تلك الأوقات ليس من السهل ، لطفلين أو شابين مثل الأمير وشقيقه أن يصـاحبا ويلازما ملازمة تامة ، علماء من طراز الشيخ محمد عبده على سبيل المثال .

([1])- ينظر سامي الدهان ، المرجع السابق ، ص 67 وما بعدها .

وعليه فإن الظروف التي نشأ وتعلم فيها كل من الشيخ البشير الإبراهيمي والأمير أرسلان مختلفة تماما ، فالإبراهيمي ترعرع في عائلة اشتهرت بعلمائها وبتقديمها للعلوم والمعارف لكل من يقصدها من مختلف جهات الجزائر ، فوجد فيها كل ما ينبغي أن يتعلمه في حداثة سنه ، رغم السياسة الاستعمارية الفرنسية التي حاربت بلا هوادة ، هذا النوع من التعليم الذي كان يتم بعيدا عن سيطرتها . في حين أن الأمير شكيب أرسلان ، تمكن هو الآخر من الحصول على تعليم جيد ، وهولا يزال طفلا ليس لأن عائلته كانت مثل عائلة الإبراهيمي ، وإنما لأنها كانت قادرة ماديا على توفير تعليم راقي لأبنائها ، بجلب علماء كبار مهما كانت مكانتهم العلمية والثقافية هذا من ناحية .

ومن ناحية أخرى ، أن الظروف التي كانت سائدة في كل من الجزائر ولبنان مختلفتان تماما ، ففي الجزائر وكما مر بنا عرفنا أن فرص التعليم كانت ضئيلة جدا بالنسبة للجزائريين ، فالإبراهيمي كان محظوظا جدا ، لكونه ولد في عائلة تاريخها حافل بالعلم والعلماء ، فسياسة تجهيل المطبقة ، جعلت البلاد تغرق في جو من الجهل والأمية والخرافة ، على نحو لم تعرفه من قبل . فآلاف العائلات الجزائرية ، لم تكن قادرة على تعليم أبنائها حتى مبادئ القراءة والكتابة ، فما بالك بالتعليم النوعي الذي تلقاه الأمير شكيب أرسلان في لبنان ، لضعفها ماديا تارة ، ولأن المدارس أصبحت مغلقة أو مهجورة تارة أخرى .

وإذا كان الأمير شكيب أرسلان ، قد استكمل تعليمه خارج لبنان في سورية ومصر ، فإن الأمر ذاته كان بالنسبة للبشير الإبراهيمي ، لكن مع اختلاف في الظروف ، فقد سافر الإبراهيمي إلى المشرق العربي فيما يشبه المغامرة ، بسبب بعد المسافة بين الجزائر والبلدان المشرقية ، وما يتبع ذلك من فقدان للأمن في الطريق ، وبسبب قلة ذات الحال ، حيث نجم عن السياسة الاقتصادية الفرنسية في الجزائر ، إلى إفقار العائلات الجزائرية الكبرى ومنها عائلة الإبراهيمي ، التي لم تعد لها نفس المكانة الاقتصادية التي كانت تتمتع بها قبل الاحتلال . في حين سافر الأمير شكيب إلى سوريا ومصر ، برعاية مادية ومعنوية تامة من عائلته ، التي كانت تعد من أغنى العائلات في لبنان وربما في المشرق العربي ، ومن أكثرها نفوذا في المنطقة ، ولدى الدولة العثمانية التي سعت إلى التقرب من آل أرسلان ، منذ بداية عهدها بالشام بوسائل عدة : ومنها منحها مناصب إدارية سياسية ، تولى الأمير شكيب أرسلان واحدا منها .

وبالرغم من تلك الظروف والعوائق ، التي كانت تقف في وجه الطموحات العلمية للبشير الإبراهيمي ، فقد تمكن في النهاية من تلبية رغبته الشديدة ، في الاستزادة من العلم والمعرفة ، والتبحر في كنوز العرب وتاريخهم وذخائرهم الفكرية والتراثية ، وتحول إلى أستاذ مقتدر ، اعترف له جميع العلماء والأدباء والأساتذة والطلبة ، بالبراعة والمهارة الفائقتين في تقديم المعارف الغزيرة لتلامذته ، بطرق ومناهج تربوية سليمة ، تغرس في الملتقي حب التعلم والتطلع إلى المزيد من المعارف . وبفضلها تمكن أيضا ، من الاحتكاك بالبيئات الاجتماعية والحضارية التي مر أو نزل بها ، فأكسبته المزيد من التعمق في فهم الواقع العربي والإسلامي آنذاك ، وسمحت له بالاتصال بكبار أساطين الفكر والعلم والأدب ، في مصر والمدينة المنورة ودمشق ، على تعدد تخصصاتهم العلمية وميولهم الفكرية .

والأمر ذاته بالنسبة للأمير شكيب أرسلان ، فحتى وإن كان لم يمتهن مهنة التعليم والأساتذية ، فإنه أظهر هو الآخر نبوغا وتفوقا كبيرين في شتى العلوم والمعارف ، وحتى في قرض الشعر ، باعتراف كبار أقطاب الفكر والعلم والأدب آنذاك من أمثال الشيخ " محمد عبده " والسيد "جمال الدين الأفغاني" والشيخ "رشيد رضا" ، الذين توسموا كلهم فيه النبوغ والتفوق ، وتنبئوا له بمستقبل زاهر في عالم الأدب والفكر والسياسة .

ولقد أظهر كل من الإبراهيمي والأمير ، ميولا للسياسة حتى وهما حديثي السن ، ولا يزالان في حاجة إلى المزيد من الوقت لتنمية وإنضاج شخصيتهما ، من خلال انخراطهما في الحركة السياسية التي كانت تشهدها كل من مصر وسوريا في تلك الأثناء ، وإبداء آرائهما ومواقفهما إزاء القضايا المطروحة آنذاك على الساحة العربية والإسلامية ، بجرأة كبيرة ، مثبتين أن المبادئ يجب أن تخضع للسياسة وليس العكس ، مخالفين بذلك الواقع السياسي العربي والإسلامي ، الذي كان يطبعه النفاق والانتهازية والجري وراء المصالح الشخصية الضيقة ، على حساب المصالح العليا للأمة ، دون تقدير للعواقب . وعليه يمكننا أن نعتبر الشيخ البشير الإبراهيمي و الأمير شكيب أرسلان ، نموذجان حيان يقتدي بهما في هذا المجال ، لأخلقة العمل السياسي في عصرنا الحالي .

المبحث الثالث : رحلاتهما وأسفارهما :

01- الإبراهيمي رحلاته وأسفاره :

بالإضافة إلى رحلته الأولى إلى المشرق العربي التي كانت سنة 1911م ودامت تسع سنوات ، كرسها للاستزادة في طلب العلم والمعرفة ، والإطلاع على التطورات الثقافية والسياسية ، التي كانت تشهدها المنطقة في تلك الفترة الحساسة من تاريخ العرب المعاصر ، قرر الشيخ البشير الإبراهيمي بحلول سنة 1952م ، شد الرحال مرة أخرى إلى المشرق العربي وبعض البلدان الإسلامية . طلبا للمساعدة من الأشقاء العرب والمسلمين ، لدعم النهضة العلمية والثقافية الناشئة في الجزائر ، بقبول بعثات طلابية من تلاميذ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، تدرس بمعاهد وجامعات تلك الأقطار على نفقاتها الخاصة ، ولتقديم المساعدة المالية للجمعية ، حتى يتسنى لها الاستمرار في نشاطها التربوي والإصلاحي ، بشكل منتظم (*) .

فغادر أرض الوطن، يوم السابع من مارس 1952م ، بإتجاه المشرق العربي عن طريق باريس ، ومنها ركب القطار نحو روما ، التي إستقل في مطارها طائرة هولاندية باتجاه القاهرة ([1]) وبمجرد حلوله بهاته الأخيرة ، سارعت العديد من الشخصيات السياسية والعلمية والأدبية والإعلامية لتحيته والترحيب به . وخلال إقامته القصيرة بمصر ، والتي دامت تسعة أيام ، ألقى بعض الدروس وزار جامعة " الملك فؤاد ". قصد بعدها باكستان ، حيث إمتطى طائرة هولاندية إلى بغداد ثم البصرة ، وأخيرا كراتشي عاصمة البلاد آنذاك ، فأستقبل إستقبال القادة والزعماء .

وقد أرجع أسباب إختياره لباكستان ، كمحطة أولى في رحلته تلك إلى : ميولها الإسلامية ودأبها على إستقبال علماء الإسلام ومفكريه وكتابه ، وإستضافتها للمؤتمرات الإسلامية التي تعنى بالشؤون الإسلامية ، زيادة على إستعداد حكامها لتقبل النصائح والإرشادات ، وتبنيهم لقضايا الشعوب الإسلامية السياسية ، وأخيرا جهل الكثير من المسلمين بهذا البلد الإسلامي مما يتطلب التعريف به لديهم ([2]) .

([1])- محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج1 ، مصدر سابق ، ص 29 .

(*) – للمزيد من التفاصيل حول فلسفة الإبراهيمي في التربية والتعليم ، ينظر جريدة البصائر ، الأعداد : 106 ، 109 ، 110 ، 111 ، 112 .

([2])- ينظر محمد البشير الإبراهيمي ، المصدر نفسه، ج4 ، ص 31 و ما بعدها .

ورغم أنه وجد صعوبة كبيرة في التواصل مع الباكستانيين ، بسبب جهل أغلبهم باللغـــة العربية ، إلا أنه تمكن من استقطابهم ونيل إعجابهم ، من خلال المحاضرات ودروس الجمعـــة التي كان يلقيها في المساجد ، فضلا عن كبار الشخصيات الباكستانية المرموقة (*) التي استقبلته بشكل رسمي ، واستمعت باهتمام لنصائحه وتوجيهاته .

وعقد ندوة صحفية ، حضرها رجال الصحافة وممثلو وكالات الأنباء ، تحدث فيها عـــن الوضع السياسي في شمال إفريقيا عامة والجزائر خاصة . كما أقيمت على شرفه العديـــد مـــن حفلات التكريم ، التي لم يتركها تمر دون توجيه النقد والنصح لعلماء الدين المســـلمين . شـــرع بعدها في رحلة منتظمة عبر القطار إلى المناطق الداخلية الباكستانية ، بغـــرض التقصـــي فـــي أرض الواقع حول قضية كشـــمير (**) ، ومشـــكلة الحـــدود التـــي اســـتحكمت بـــين الهنـــد وباكستان (***) .

وزيادة على ذلك ، ألقى العديد من الأحاديث الإذاعية تمحورت حول أخـــوة الإســـلام ، وضرورة رجوع المسلمين إلى هدي القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، وصلاحية النظـــام الإسلامي لقيادة العالم الإسلامي . وحضر أشغال المؤتمر الإسلامي ، المنعقد بكراتشي في شهر ماي 1952م ، الذي ألقى خلاله خطبة ، حمل فيها مسؤولية تردي أوضاع الاسلام والمســـلمين إلى العلماء ، بتعصبهم المذهبي واهتمـــامهم بقشـــور الـــدين ، وتـــركهم لكتـــاب الله وهـــدي الرسول " ص " ([1]) .

(*) – منهم : الحاكم العام لدولة باكستان " غلام الله " ، ورئيس الوزراء " دولة خواجـــة " ، وزراء الدعايـــة والمعارف ، السيدة " فاطمة جناح أخت القائد محمد علي جناح " ...وغيرهم .

(**) – كشمير : منطقة تقع في شمال غربي الهند ، تتقاسمها الهند وباكستان ، مســـاحتها 242.000كلـــم^2 ، تمتد بها جبال " الهملايا " الشمالية وجبال " كاراكور" وحوض الهندوس الأعلى ، وتشمل ولاية "جمو" وكشمير في الهند ومقاطعة " يلتستان " في باكستان . من أهم مدنها : " سري نغر" ، "جمـــو" ، "ســـكاردو " . تشـــتهر بأوديتها الخصبة ، والفواكه ، زراعة الذرة الصفراء والأرز والتبغ ، تربية الماعز والغـــنم ، منـــاجم الفحـــم والبوكيت ، الصناعات التقليدية ، الأخشاب والأصواف والحرير . المنجد في اللغة والأعلام .

(***) – مازالت مشكلة الحدود بين الهند وباكستان لغاية الآن ، وفي كل مرة تكاد أن تـــؤدي إلـــى الحـــرب بين البلدين.

([1]) – محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 4 ، مصدر سابق ، ص 79 .

ومع بداية شهر جوان من سنة 1952م قصد العراق ، و أقام فيه إلى غاية شهر أوت من نفس السنة فزار العديد من مدنه ، ملقيا عشرات المحاضرات الاجتماعية والدروس الدينية ([1]) ، والأحاديث الإذاعية ([2]) .

أما المحطة الثالثة في رحلته ؛ فكانت المملكة العربية السعودية ، التي أقام فيها من شهر أوت 1952م إلى شهر أكتوبر من نفس السنة ، قام فيها بالاتصال بالكثير من علمائها وفقهائها ورجال الإصلاح بها ، فضلا عن إلقاء المحاضرات والأحاديث والدروس الاجتماعية والدينية ([3]) .

وفي الفترة الممتدة من شهر أكتوبر 1952م وإلى غاية خريف 1954م ، زار كل من الكويت وبغداد ودمشق وعمان ومكة المكرمة والقدس ، انطلاقا من القاهرة التي اتخذها مركزا لنشاطه السياسي والعلمي ، طالبا الدعم المادي والمعنوي لمشاريع جمعية العلماء في الجزائر ، لتتمكن من الوقوف في وجه السياسة الفرنسية ، التي كانت تستهدف القضاء على الكيان الحضاري للمجتمع الجزائري ، بضرب مقوماته الشخصية ممثلة : في الدين الإسلامي واللغة العربية . وقد أثمرت تلك الجهود والمساعي ، بقبول العديد من الحكومات العربية والإسلامية التكفل ، بتدريس المئات من الطلبة الجزائريين على نفقاتها الخاصة ([4]) .

وبمجرد وصول أخبار اندلاع الثورة التحريرية إلى مسامعه ، سارع الإبراهيمي إلى تأييدها عبر سلسلة من البيانات ، كان أولها في اليوم الثاني من شهر نوفمبر 1954م ، الذي اعتبر فيه الثورة رد فعل طبيعي من الشعب الجزائري ، ضد السياسة الفرنسية الظالمة ، التي عاملت بها شعوب المغرب العربي معاملة الحيوان ، دون أن تتعظ من تاريخها الإجرامي ، وحتى من تعرضها للاحتلال النازي وما فعله بالشعب الفرنسي . أما البيان الثاني ، فأصدره في اليوم الموالي ، أي في الثالث من شهر نوفمبر بعنوان : " إلى الثائرين الأبطال من أبناء الجزائر والمغرب العربي اليوم حياة أو موت : بقاء أو فناء " . تلته بيانات أخرى باسم جمعية العلماء ،

([1])- محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 4 ، مصدر سابق ، ص 76 وما بعدها .

([2])- محمد البشير الإبراهيمي : في قلب المعركة ، مصدر سابق ، ص 97 .

([3])- محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، المصدر نفسه ، ص 109 وما بعدها .

([4])- للاطلاع بشكل موسع ، على جهوده خلال هذه الفترة ، ينظر بشير فايد : الشيخ البشير الابراهيمي و دوره في القضية الوطنية 1920م – 1965م ، مرجع سابق ، ص 126 وما بعدها.

حيا فيها الثوار ، مشددا على التحلي بالصبر والاستبسال ، لان المعركة من اجل الحرية ستكون حسبه طويلة جدا وباهظة الثمن ([1]) .

ونعتقد بأن تلك البيانات ، تؤكد إلى حد كبير ، أن الإبراهيمي كان من أوائل الشخصيات الجزائرية بالخارج ، التي تجاوبت بشكل ايجابي مع إعلان اندلاع الثـورة التحريريـة ، رغـم الجدل الذي مازال يثار هنا وهناك ، حول حقيقة مواقف العلماء من الثورة (*) .

وزيادة على تلك البيانات ، فإنه وظف كل ما في يوسعه لخدمة الثورة الجزائرية ، حيث لم يدع وسيلة اعتقد أنها تصب في مصلحة الثورة إلا ووظفها ، ومنها طلبه الجريء من شـيخ جامع الأزهر ، أن يدعو الناس إلى الجهاد ، الامر الذي دفع بالضـابط الفرنسـي " سـيرفي " (SERVY) إلى تحميل العلماء مسؤولية تدبير الثورة ضد فرنسا ([2]) . بالإضافة إلى التنقـل بين مختلف الأقطار العربية والإسلامية ، انطلاقا من مصر ، يستنهض الهمم ويحث على بـذل الدعم المادي والمعنوي للثورة ، رغم تقدمه في السن وتأثير الأمراض والعلـل التـي سـكنت جسده ([3]) .

دون كلل أو ملل ، رغم أن حالته الصحية كانت تثير شفقة كل من يراه أو يلتقي به ، إلى أن حصلت البلاد على حريتها في يوم الخامس من شهر جويلية عام 1962م ، تلك الحرية التي قال فيها ([4]) : ((... الحمراء اللعوب والزهراء الدعوب ، والحسناء التي تبـوأت القلـوب ... التي طال شوقنا إليها وطلبناها بالكلام ، فلم تزد إلا إعراضا وازورارا ، حتى للتي هي أقـوم ، فطلبناها بالحديد وخضنا دونها الهول والهائل ، وبذلنا في سبيلها المهج أمهرناها الأرواح ،

([1])- للإطلاع على البيانات ينظر محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج5 ، مصـدر سـابق ، ص 37 ومـا بعدها.

(*) – للاطلاع على جانب من ذلك الجدل ، ينظر جريـدة الخبـر الأسـبوعي ، الجزائـر : العـدد 543 ، 22– 28 جويلية 2009م . و العدد 545 ، 05–11 أوت 2009م .

([2])- مولود قاسم نايت بلقاسم : ردود الفعل الأولية داخلا وخارجا على غرة نوفمبر ، دار البعث ، قسنطينة ، الجزائر : 1984 ، ص 67 .

([3])- ينظر بشير فايد : الشيخ البشير الإبراهيمي ودوره في القضـية الوطنيـة 1920م – 1965م ، مرجـع سابق ، ص 134 وما بعدها .

([4])- محمد البشير الإبراهيمي ، المصدر نفسه ، ص 134 وما بعدها .

فأسلست وانقادت)) . وصف لا شك أنه في غاية الروعة والدقة ، لا يصـــدر إلا عــن كاتــب مبدع ، لم يذق طعم الحرية منذ أن رأى الحياة .

02- أرسلان رحلاته وأسفاره :

كان الترحال والسفر جزء لا يتجزأ من شخصية الأمير ، لا يستطيع أن يمكث في مكان ما إلا مدة وجيزة ، حتى وإن كانت ظروفه ميسورة وجيدة ، فقد فضل مغادرة لبنان مرة ثانية على أن يبقى فيه ، رغم المناصب الإدارية التي منحت له ، والتي كان الجميع يسعى وبكل الوسائل والطرق لتقلدها ، لما توفره لأصاحبها من سلطة ونفوذ ومكانة اجتماعية مرموقة ، وقد أعرب صراحة عن كرهه لتلك المناصب بقوله : ((أكره المناصب وأعاف خدمة الحكومة)) ، اعتقادا منه أن المنصب الإداري والسياسي ، يحد من حريته ويكبح طموحاته التي رسمها لنفسه ، وهي خدمة قضايا أمته : ((الذي يريد أن يهتم باستقلال الأمم عليه قبل ذلك أن يطالب باستقلال نفسه حتى لا يقال فيه طبيب يداوي الناس وهو عليل)) ([1]) .

وعليه ، فإن الأمير ، قد اختار طريق خدمة قضايا الأمة العربية والإسلامية وليس المصالح الشخصية الضيقة ، فما إن قامت ايطاليا بإعلان الحرب على الدولة العثمانية في ليبيا يوم 29 سبتمبر 1911م ، بحجة حماية مصالحها وحقوقها وحقوق الدول الأوروبية في ليبيا ، وشروعها في الاحتلال ([2]) ، حتى سارع إلى استنكار العدوان بشدة ، وراح يكتب إلى مختلف الجهات بما فيها السلطات العثمانية في الأستانة ، يدعو إلى مساعدة الليبيين ومدهم بالمال والسلاح ، كما كتب إلى السيد " رشيد رضا " يحثه على ضرورة تحريض المصريين لنجدة الشعب الليبي ، حتى يتمكن من الصمود والاستمرار في المقاومة ([3]) .

ولم يكتف بذلك ، بل سافر إلى ليبيا متخفيا بغية الجهاد ، رفقة مجموعة من المتطوعين العرب بقيادة القائد العثماني " أنور باشا " (*) ، حيث تسللوا خفية إلى فلسطين أولا ثم إلى

([1])- نجيب البعيني : من أمير البيان شكيب أرسلان إلى كبار رجال العصر ، ط1 ، دار المناهل ، بيروت : د ت ، ص 380 .

([2])- جلال يحي : المغرب الكبير (العصور الحديثة وهجوم الاستعمار) ، ج3 ، د ط ، دار النهضة العربية ، بيروت : 1981م ، ص 740 .

([3])- احمد الشرباصي ، المرجع السابق ، ص 28 – 29 .

(*) - " أنور باشا " (1882م – 1922م) : قائد تركي ، كان له الدور الكبير في خلع عبد الحميد سنة 1909م ، عين وزير للحربية سنة 1914م . كان يمثل رفقة " طلعت باشا " مثلثا نافذا في الحكم ، وقاد جيوش القوقاز والدردنيل ، تم اغتياله سنة 1922م " بسمر قند " . المنجد في اللغة والأعلام .

مصر ثانيا للوصول إلى مدينة " بنغازي " الليبية ، وقد هلك الكثير منهم في الطريق في الصحراء بين " وادي الأردن " و " بئر السبع " ، بسبب العطش والمرض . كما أنهم وجدوا القوات الإنجليزية تحول بينهم وبين هدفهم ، فلم يتمكن سوى الأمير وبعض مرافقيه (*) من المرور ، متخفين في هيئة الهلال الأحمر ، وكان شعار الأمير في ذلك : ((إن لم نقدر أن نحفظ صحاري طرابلس لم نقدر أن نحفظ صحاري الشام)) ([1]) .

وبعد رحلة طويلة ، وصل الأمير ومن بقي معه على قيد الحياة إلى جبهات القتال ، وانضم بسرعة إلى صفوف المدافعين عن " طرابلس " و " برقة " ، فكانت له مساهمات كبيرة في الحرب بآرائه السياسية والعسكرية ، وفي ذلك قال الزعيم الليبي " سليمان الباروني " : ((لو أخذت الحكومة العثمانية بتفاصيل الخطة التي رسمها الأمير شكيب أرسلان ، ونفذت بحذافيرها لما ضاع الأمل في إنقاذ طرابلس وبرقة ، ولاستطعنا على الأقل إطالة الحرب لثلاث أو أربع سنوات أخرى)) ([2]) .

وتقديرا للجهود السياسية والعسكرية ، التي بذلها الأمير لصالح القضية الليبية ، تلقى رسالة شكر وتقدير من القائد " عمر المختار " (1858م – 1931م) ، باسم المجاهدين الليبيين ، الذين وجدوا في مقالات الأمير سندا معنويا لهم ، لما كانت تنقله من أخبار كفاحهم ضد الاحتلال الايطالي من جهة ، وفضحها للجرائم التي كان الجنود الايطاليون يقترفونها في حق الشعب الليبي الأعزل من جهة أخرى ([3]) .

وبعد عودته من الجبهة الليبية في شهر أوت 1912م ، انضم إلى الحرب التي اندلعت في " البلقان " في نفس السنة واستمرت إلى غاية سنة 1913م ، بين تركيا والحلف البلقاني المتكون من : اليونان وصربيا وبلغاريا والجبل الأسود ، هذا الأخير أعلن الحرب على الدولة العثمانية بدعم سري من بريطانيا ومن الروح القومية البلقانية المتطرفة ، خسرت خلالها تركيا كل

(*)– منهم القائدان : " مصطفى كمال " ، و " عزيز المصري " .

([1])– محمد شيا ، المرجع السابق ، ص 60 ، 68 ، 69 .

([2])– شكيب أرسلان : شوقي وصداقة أربعين سنة ، مطبعة عيسى بابي الحلبي ، القاهرة : 1936م ، ص35.

([3])– لوثروب ستودارد ، المصدر السابق ، م 1 ، ج 1 ، ص 33 .

أراضيها الأوروبية ما عدا العاصمة " الأستانة " وشبه جزيرة " غاليبولي " ([1]) . وقد قام الأمير في هذه الحرب ، بمهمة المراقبة على بعثات الهلال الأحمر ، وتوزيع الإعانات التي جمعت في مصر على مسلمي " الروميللي " ([2]) .

وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى 1914م – 1918م ، ووقوع المنطقة العربية في الشام تحت طائلة السيطرة الاستعمارية ، فضل الأمير المنفى ، فاستقر في البداية في بلدة " مرسين " التركية القريبة من الحدود السورية رفقة أسرته ([3]) ، وعمل على تشكيل لجان لمقاومة الفرنسيين والإنجليز ، لكنه غادرها بسبب صعود " الكماليين " (نسبة إلى مصطفى كمال آتاتورك) إلى السلطة في تركيا ، قاصدا سويسرا ([4]) .

وبهذا تنتهي مرحلة دافع فيها الأمير عن الدولة العثمانية ، من خلال مشاركته بنفسه في الحرب إلى جانبها ، وبسعيه لحشد الدعم المادي والمعنوي لها محليا ودوليا . لتبدأ مرحلة جديدة من حياته تمتد إلى غاية وفاته سنة 1946م ، قضاها متجولا في البلاد الأوروبية والأمريكية يدافع عن قضايا العرب والمسلمين ، وعلى رأسها قضية الاستعمار الذي لم يدخر جهدا ، في كشف مخططاته وأساليبه ، وفي فضح جرائمه لدى الرأي العام الأوروبي خاصة والدولي عامة . فحياة المنفى رغم قساوتها ، لم تكن لتنال من عزيمته النضالية ، ومن طموحاته التي رسمها لنفسه في بداية حياته ، وهو لا يزال شابا يافعا .

كانت سويسرا أول محطة أوروبية ، يقيم فيها الأمير مع المنفيين العثمانيين ([5]) ، توجه بعدها إلى " برلين " الألمانية ، التي اشترى بها بيتا لتكون مقر إقامته الدائم ، ومنها سافر إلى " جنيف " السويسرية لحضور أشغال المؤتمر السوري الفلسطيني المنعقد هنالك سنة 1921م ، الذي عين فيه في منصب الأمين العام ، وقد طالب المؤتمر بمنح الاستقلال لكل من سورية

([1])– أحمد نجيب قاسم : التاريخ الحديث والمعاصر ، دار المعارف ، مصر: د ت ، ص ص 248 –249 .

([2])– شكيب أرسلان : بنو معروف أهل العروبة والاسلام ، مصدر سابق ، ص 25 .

([3])– احمد الشرباصي ، المرجع السابق ، ص 37 .

([4])– محمد شيا ، المرجع السابق ، ص 79 .

([5])– شكيب أرسلان ، المصدر نفسه ، ص 26 .

ولبنان وفلسطين ، وبحقهما في الاتحاد وإلغاء نظام الانتداب . كما اختير من قبل اللجنة التنفيذية للمؤتمر ، كعضو في الوفد العربي المشكل ، للدفاع عن قضايا العرب أمام عصبة الأمم [1] .

وخلال المؤتمر ، التقى بالشيخ " رشيد رضا " ، وتم الإتفاق بينهما على أن تقوم مجلة " المنار " في مصر ، بنشر مقالات الأمير حول الحرب العالمية الأولى وكوارثها بعنوان : " كوارث سوريا في سنوات الحرب من تقتيل وتصليب ومخمصة ونفي – مشاهدات ومجاهدات شاهد عيان ، هو الأمير شكيب أرسلان " ، استمر صدورها تسعة أشهر [2] .

في نفس السنة ، أجرى رفقة الشيخ " رشيد باشا " ، سلسلة من الاتصالات مع كبار المسؤولين الايطاليين ، قصد إقناع الحكومة الايطالية بالتعامل مع العرب على أساس المصالح المتبادلة ، مخالفة للسياسة الإنجليزية والفرنسية [3] .

كما أسس العديد من الجمعيات في برلين منها : " هيئة الشعائر الإسلامية " ، التي تألفت من ممثلي الجاليات الإسلامية المقيمة في ألمانيا بما فيهم موظفي السفارات ، بغرض التكفل الجيد بشؤونهم هنالك [4] ، و " النادي الشرقي " الذي أنتخب رئيسا له تحت إشراف مجلس برلين البلدي والجنرال " لوندوروف " ، وهو عبارة عن محفل اجتماعي لا يهتم بالأمور السياسية ، ضم ممثلين عن كل الأجناس الشرقية في ألمانيا منهم : العرب والأتراك والشركس ، المغاربة ، النصارى ، اليهود ، البراهمة ...وغيرهم .

بطلب من " أنور باشا " ، سافر الأمير إلى موسكو في شهر جوان من عام 1921م ، بغرض الاطلاع عن قرب على الأوضاع الروسية ، وعما إذا كان في الإمكان استفادة العرب والمسلمين ، من الدعم والمساندة الروسيين سياسيا واقتصاديا . بالإضافة إلى ذلك ، استغل الفرصة للإلتقاء ببعض الأدباء الطاغستانيين (طاغستان) والقازاغيين (القازاغستان) ، وتناقش معهم في الكثير من القضايا والشؤون [5] .

---

[1]– لوثروب ستودارد ، المصدر السابق ، م 1 ، ج 1 ، ص ص 35 –36 .

[2]– شكيب أرسلا ن : لماذا تاخرالمسلمون وتقدم غيرهم ؟ ، د ط ، م رحاب، الجزائر: 1989، ص 13.

[3]– احمد الشرباصي ، المرجع السابق ، ص 38 .

[4]– المرجع نفسه، ص 38 . نقلا عن مجلة الشورى ، العدد 25 / فيفري 1926م .

[5]– لوثروب ستودارد ، المصدر نفسه ، ص ص 286 –333 .

انتخب في شهر مارس 1922م ، أمينا عام لمؤتمر الشعوب المقهورة المنعقد في " جنوة " الإيطالية ، وفي شهر جويلية من نفس السنة زار " لندن " للاجتماع بالمسؤولين بشأن الانتـــداب على سورية ولبنان وفلسطين . وخلال عامي 1923م – 1925م ، أقام في مدينـــة " مرســـين " التركية بالقرب من سوريا التي كانت تستعد للثورة على الانتداب ، وللقاء والدته وعائلته .

في شهر أكتوبر من عام 1925م ، قرر الأمير الاستقرار نهائيا في سويســـرا ، بعـــد أن انتدبه المؤتمر السوري الفلسطيني المنعقد بالقاهرة ، بغية متابعة القضية السورية أمام عصـــبة الأمم ، فأقام أولا في مدينة " لوزان " إلى غاية 1930م ، انتقل بعدها إلى " جنيف " .

سافر إلى روما في شهر فيفري 1926م على رأس وفد سوري ، بغرض عرض القضية السورية أمام لجنة الانتداب التابعة لعصبة الأمم ، فقابل رئيس اللجنة المركيـــز " تيـــودولي " ، وقدم له المطالب السورية التي لخصها فيما يلي : إلغاء الانتداب الفرنسي ، وحـــدة ســـورية ، وضع دستور لها ، تحديد العلاقة بين سورية وفرنسا ([1]) .

كما نشر في الصحف الإيطالية تقريرا ، كشف فيه الأوضاع السيئة التي آلت إليها سورية جراء الانتداب ، وتواطؤ فرنسا مع تركيا على حساب سوريا ووحدتهما ، بضـــم أجـــزاء مـــن الأراضي السورية إلى تركيا وهي " أنطاكية " و " الإسكندرونة " ، مما أثار غضب فرنسا من جهة واهتمام الملك الإيطالي من جهة أخرى . وقد ظل يصـــدر البيانـــات والمقـــالات ويعقـــد الأحاديث ، دفاعا عن وحدة سورية واستقلالها رفقة صديقه " إحسان الجابري " ([2]) .

شارك في نوفمبر 1925م ، في مؤتمر باريس للتفاوض حول استقلال ووحدة ســـورية ، وفي شهر جويلية 1926م ، انتخب عضوا في لجنة رئاسة مؤتمر الخلافة ، وهو حركة إسلامية نشأت إثر قيام " مصطفى كمال أتاتورك " بإلغاء الخلافة الإسلامية ، وقطع كل الـــروابط بـــين تركيا والعرب و المسلمين ([3]) .

وفي شتاء سنة 1927م ، قام بزيارة إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، وحضـــر مـــؤتمر عرب المهجر المنعقد في مدينة " ديترويت " بدعوة من الجالية العربية هنالك . كما نشر العديد

([1])– شكيب أرسلان : بنو معروف أهل العروبة والإسلام ، مصدر سابق ، ص ص 26 – 27 .
([2])– أحمد الشرباصي ، المرجع السابق ، ص 39 . نقلا عن جريدة الشورى ، عدد 25 فيفري 1926 .
([3])– شكيب أرسلان ، المصدر نفسه ، ص 27 .

من المقالات في الصحف العربية ، التي كانت تصدر هناك ، بالإضافة إلى مذكراته في جريدة " مرآة الغرب " بنيويورك ([1]) .

انتقل بعدها إلى موسكو ، استجابة لدعوة وجهت إليه من قبل القادة الروس ، لحضور الاحتفالات المخلدة لمرور عشر سنوات على قيام الثورة " البلشفية " ، ثم عرج على بلجيكا للمشاركة في مؤتمر مكافحة الاستعمار ([2]) .

وفي سنة 1929م قصد مكة المكرمة لأداء فريضة الحج ، مرورا بمدينة " بورسعيد " المصرية ، التي كان له فيها لقاء بالسيد " رشيد رضا " ، أستقبل خلالها إستقبالا رسميا من طرف الملك السعودي " عبد العزيزآل سعود " ، الذي أحسن وفادته طيلة مدة إقامته في المملكة ، وقد توج رحلته تلك بتأليف كتاب عنونه بـ : " الإرتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس المطاف " ([3]) .

وتميزت سنة 1930م بالنسبة للأمير بنشاطات وأعمال كثيرة ، منها تأسيسه لمجلة " الأمة العربية " (LA NATION ARABE) ، التي كانت منبرا هاجم فيه الإستعمار ، وناقش قضايا العدالة والحقوق ، باللغة الفرنسية التي كان يتقنها . ويعود سبب إختيار الكتابة بهاته اللغة الأخيرة ، الى إعتقاده بأنها الطريق المختصر للوصول الى العقل الأوروبي ، ففي الأوروبيين من ينظر بعين الإنصاف لقضايا العرب المسلمين ، التي تعمل الحكومات الإستعمارية على طمسها وإخفائها عنهم : ((لأن صيحتنا مع بعضنا البعض لا يعلمون منها شيئا ، وإن علم أحد منها بعض الشيء ، فتكون حكوماتهم التي هي أساطين الإستعمار وحيتان الأكل وطواغيت الظلم وأماثيل الرياء والمكر ، فهي تكتم عن شعوبها كل حقيقة من جهة الشرق. فإذا ينبغي أن ندخل على رأيهم العام بالحقائق التي تدأب حكوماتهم بطمسها ويجب بذل ما نقدر عليه لتعديل هذا الرأي العام أو بعضه ليكون لهم منه خصماء ولا يتحدوا بإزاءنا))([4]).

لهذا السبب حرص الأمير حرصا شديدا ، على استمرار صدور المجلة بانتظام كل شهر ، رغم

([1])- سامي الدهان ، المرجع السابق ، ص 89 .

([2])- الطيب بنونة : نضالنا القومي في الرسائل المتبادلة بين شكيب أرسلان وبين الحاج عبد السلام بنونة ، ط 1 ، مطبعة دار الامل ، تونس : 1981 ، ص 129 .

([3])- أحمد الشرباصي ، المرجع السابق ، ص 46 .

([4])- نجيب البعيني ، المصدر السابق ، ص ص 239-281 .

أحواله المادية التي لم تكن ميسرة ، فكثيرا ما كان يتعرض لأزمات مالية ، تعجزه عن تلبية مطالبه المعيشية وتكاليف إصدار المجلة ، فقد إضطر إلى أن يرهن بيته في باريس ويبيع مزرعة له في دمشق ويرهن بيتا إشتراه في برلين ([1]) .

وزار في السنة نفسها إسبانيا ، التي أسس فيها : " الجمعية الإسبانية الإسلامية "، و "البيت العربي " بمدريد ، رفقة نخبة من الوطنيين المغاربة وعدد من الإشتراكيين الإسبان ، بهدف التنسيق والتعاون بين المغاربة ، وتوطيد الصداقة مع العرب والمسلمين ، ومن إسبانيا عرج على المغرب الأقصى ([2]) .

لقد دفعت المكانة المرموقة ، التي أضحى الأمير شكيب يتمتع بها على الساحتين العربية الإسلامية والأوروبية ، بإحدى الشخصيات الإنجليزية السامية أن تقترح عليه سنة 1930م عقد لقاء بينه وبين الزعيم الصهيوني " حاييم وايزمان " ، لتبادل الآراء بينهما حول القضية الفلسطينية لإيجاد حل يرضي الطرفين ، لكنه رفض المبادرة إنطلاقا من إيمانه بعدالة قضية الشعب الفلسطيني ، وبطلان المزاعم الصهيونية في فلسطين .

ومنه يتضح لنا أن الحكومات الإستعمارية ، حتى وإن لم تتفاوض مباشرة مع الأمير ، فإنها قد أدركت أنه يشكل طرفا أساسيا لا يمكن تجاهله ، في تعاطيها مع القضايا العربية والإسلامية ، فسعت إلى التقرب منه عن طريق الوساطات مثلما فعلت بريطانيا ، وعملت أخرى على مطاردته وتضييق الخناق عليه ، مثلما كانت تقوم به فرنسا ، دون أن تتمكن جميعها من تليين مواقفه من سياساتها ، أو تحييده على الأقل .

وفي الفترة الممتدة بين 1931م و 1933م ، حضر المؤتمر الإسلامي العام المنعقد بالقدس ، وزار بلاد البلقان التي كانت له فيها إتصالات بالرئاسة الدينية الإسلامية هنالك ، وحضر مؤتمر الطلاب الشرقيين في روما ، ومنها عاد إلى سويسرا لزيارة الملك " فيصل " الذي كان يعالج في مدينة " بيرن " ، ولما توفي أم صلاة الجنازة على جثمانه .

وفي عام 1934 ، إلتقى بالزعيم الإيطالي " موسيليني " في روما ، وإستطاع أن يقنعه بإعادة 780 ألف مواطن ليبي الى وطنهم ، وإسترجاعهم لأراضيهم . كما شارك ضمن بعثة

([1])- الطيب بنونة ، المصدر السابق ، ص ص 133-134 .

([2])- أحمد الشرباصي ، المرجع السابق ، ص 41 نقلا عن جريدة الشاب ، عدد 05 ماي 1937 .

المصالحة العربية بين ملك الحجاز وإمام اليمن رفقة " الحاج أمين الحسيني " وشخصيات عربية أخرى ، وقد تمكنت اللجنة من التوفيق بين الطرفين وعقد الصلح بين البلدين . كما حضر مؤتمرا إسلاميا في مكة ، وزار فلسطين في نفس السنة .

وبعد عام من توقيع معاهدة جلاء القوات الفرنسية عن سورية ، عاد شكيب إلى سورية حيث استقبال الزعماء ، نشط فيها العديد من المؤتمرات والمحاضرات ، بالاضافة إلى مشاركته في مؤتمر " بلودان " لدعم الشعب الفلسطيني ، الذي انتخب فيه نائبا لرئيس المؤتمر ، كما عين رئيسا للمجمع العلمي العربي بدمشق .

ولما اندلعت الحرب العالمية الثانية سنة 1939م ، اتخذ من مقر اقامته في سويسرا مركزا لعقد الإتصالات مع العرب السوريين في أمريكا اللاتينية ، عن طريق الرسائل وكتابة المقالات الصحفية في مجلاتهم ، بهدف توجيه نضالهم السياسي وتأطيره . ومن جانب آخر ، انضم إلى المساعي السياسية التي كان يقوم بها الزعماء العرب ، ضد السياسة الفرنسية والبريطانية في الوطن العربي ومنهم بشكل خاص " الحاج أمين الحسيني "و " رشيد عالي الكيلاني " ، " علال الفاسي " ، " أحمد مصالي الحاج " الجزائري (1898م – 1974م) ...وغيرهم ، إلى غاية سنة 1946م تاريخ عودته الأخيرة إلى لبنان ووفاته بها ([1]) .

واستنادا اليه ، نستنتج أن الإبراهيمي وأرسلان قد قضيا نسبة معتبرة من حياتيهما في السفر والترحال ، دفاعا عن قضاياهما الوطنية والعربية والإسلامية . فقد بذل محمد البشير مساعي وجهودا جبارة ، في البلاد العربية والإسلامية ، التي ظل يتردد عليها طيلة عشر سنوات ، والتي كان لها الفضل الكبير في إنجاح المشاريع التربوية والإصلاحية ، التي باشرتها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، منذ تأسيسها مع مطلع الثلاثينات من القرن العشرين ، بما استطاع أن يحصل عليه من مساعدات مالية للجمعية من جهة ، وتمكنه من إقناع حكومات تلكم الدول ، بقبول التكفل المادي بالبعثات الطلابية الجزائرية من جهة أخرى .

ولولا تلك الجهود أيضا ، لما تسنى للحكومات والشعوب العربية والإسلامية على حد سواء ، أن تطلع على حقيقة ما كان يحدث في الجزائر من طرف الاستعمار الفرنسي ، الذي

([1])– شكيب أرسلان : بنو معروف أهل العروبة والإسلام ، مصدر سابق ، ص ص 27 –28 .

ربط بقاءه في البلاد ، بفصل الشعب الجزائري عن جذوره العربية والإسلامية ، واستبدالها بأخرى لاتينية .

وعلاوة على ذلك ؛ سجلنا العمل الدبلوماسي المتميز ، الذي قام به لصالح الثورة التحريرية ، منذ الأيام الأولى لاندلاعها ، لكسب الدعم المادي والمعنوي لها ، يدفعه في ذلك اعتقاده أنها الفرصة الأخيرة للشعب الجزائري للخروج من المأزق ، الذي وضع فيه لأكثر من قرن ، وهو ما حدث فعلا .

أما الأمير شكيب ؛ فقد قضى حوالي ثمانية وثلاثين سنة مترحلا ومسافرا ، زار خلالها الكثير من البلدان والدول في قارات آسيا وإفريقيا وأوروبا وأمريكا ، بغرض القيام بمهام رسمية كالوساطات والمفاوضات ، أو قصد السياحة والبحث والتنقيب ، أو فرار من مطاردة الحكومات الاستعمارية ومخابراتها ، التي كانت ترصد كل تحركاته ، وتقتفي أثاره حيثما حل وارتحل .

التقى خلالها ، عددا هائلا من الساسة والمفكرين والزعماء والقادة ، والأدباء وكبار رجال العصر ، وربط معهم علاقات صداقة وتعاون ، كما اتصل بالكثير من الهيئات والجمعيات والمنظمات ، العاملة في حقول السياسة والأدب والفكر والعلوم ، وحقوق الإنسان والأعمال الخيرية ، فانفتحت أمامه أبواب الاطلاع والاحتكاك ، واكتساب التجارب والخبرات على مصراعيها .

والظاهر أن كلا الرجلين لم يحصر نضاله في الدفاع عن قضيته الوطنية ، بل تعدى الأمر لديهما إلى القضايا الكبرى ، التي كانت تواجهها الأمة العربية والإسلامية مثل :الاستعمار والتخلف والانقسام والصراعات الحزبية والطائفية والمذهبية ...الخ . لأنهما أدركا مدى الارتباط الوثيق بين القضايا الوطنية و القومية ، وأنه لا يمكن لبلد أن يتحرر وينهض بنفسه لوحده ، دون أن يتلقى المؤازرة والمساعدة من البلدان الأخرى ، التي تشترك معه في روابط العرق واللغة والدين والجغرافية ، والوضع الواحد والمصير المشترك .

والملاحظ أن محمد البشير وشكيبا ؛ قد اختلفا في الوجهة التي اختاراها لنشاطهما الإصلاحي والسياسي والدبلوماسي ، خارج الجزائر ولبنان ، فقد اختار البشير المشرق العربي وبعض الدول الإسلامية غير العربية ، لأنه بلده كان في أمس الحاجة لتلك البلدان من أجل مساعدته على مقاومة السياسة الفرنسية ، والمسخ والتجهيل والتشويه التي طالت كل شيء ،

وأضحت تهدد بفصله نهائيا عن مجاله الطبيعي العربي الإسلامي . ثم لاحتضان ثورته التحريرية الكبرى ، التي لا تزال في بدايتها في تلك الأثناء ، ولا يمكن لها أن تحقق أيا من أهدافها دون التفاف الشعوب والحكومات العربية والإسلامية معها ، من خلال تقديم كل أشكال وأنواع التضامن والنصرة اللازمين .

في حين اختار الأمير شكيب بصورة، خاصة أوروبا وأمريكا وآسيا ، حتى ينقل القضايا اللبنانية والسورية والعربية والإسلامية ، إلى قلب الدول الكبرى ، بتعريف الرأي العام بها الذي كان خاضعا لتأثير مغالطات الإعلام الاستعماري ، و الجماعات السياسية والمالية الضاغطة هنالك ، وعلى رأسها الصهيونية التي استغلت جبروتها المالي وسطوتها الاقتصادية والسياسية ، للتعتيم على مشاريعها الاستعمارية الاستيطانية في فلسطين ، بدعم من حكام بريطانيا وفرنسا ، على حساب المصالح الفلسطينية والعربية والإسلامية في فلسطين على سبيل المثال .

ومعناه أن أهدافهما كانت واحدة ، بينما الإستراتيجية اختلفت ، وبرأينا يمكن أن نضيف إلى ذلك سببا آخر للاختلاف في الوجهة ، وهو أن الإبراهيمي كان أحادي اللغة ، حيث لم يكن يتقن سوى اللغة العربية التي كان علما من أعلامها ، بل ومن مجدديها في القرون الأخيرة . أما بالنسبة لشكيب فقد اختلف الأمر ، حيث أنه كان متعدد اللغات : فبالإضافة إلى اللغة العربية التيكان يجيدها هو الآخر ، تمكن من إجادة لغات أخرى كالفرنسية والتركية والألمانية والسويسرية ...وغيرها . مما يسر له سبل العيش والحركة والاتصال في تلك الدول ، وهو ما لم يكن متاحا للإبراهيمي الذي كانت فرنسا تحرم شعبه من تعلم العربية فما بالك باللغة الفرنسية ، التي كانت تجود بتعلمها إلا على فئة محدودة من أبناء الجزائريين ، ممن لا تستطيع أن تستغني عن خدماتهم ، لكن في إطار جد ضيق ، لأنها لم تكن تثق حتى في المخلصين لها .

والملفت للانتباه أن شكيبا ، قد بلغ به حماسه القومي والديني ، حد المشاركة في الجهاد ضد الاحتلال الإيطالي في ليبيا، وضد الحركات الانفصالية المسيحية في البلقان ، بتحريض ودعم من الدول الأوروبية الكبرى ، كاشفا عن حنكة قتالية وعسكرية هامة ، من خلال اقتراح الخطط العسكرية كما حدث في ليبيا ، والتي تأسف البعض لعدم اعتمادها وتنبأ بالنصر لو حدث

ذلك . كما أبان عن قدراته أيضا في حقل تقديم الخدمات الصحية والإنسانية للجرحى ، في جبهات القتال كما مر بنا .

أما الإبراهيمي ، وإن لم يسلك الطريق الذي سلكه شكيب في هذا المضمار ، لكنه في حقيقة الأمر تمنى المشاركة في الثورة التحريرية الجزائرية ، لما انتهت إلى مسامعه أخبار اندلاعها في القاهرة ، مبررا عجزه عن ذلك ، بالمهمة السياسية والدبلوماسية التي كان يقوم بها في الخارج ، وبتقدمه في السن وإصابته بالعديد من الأمراض والعلل التي سكنت جسده ، وجعلته يتحرك بصعوبة .

ومها يكن ، فقد تمكن محمد البشير وشكيب ارسلان ، من انجاز الأهداف التي رسماها لنفسيهما أثناء ترحالهما وأسفارهما ، بل استطاعا أن يجلبا الانتباه والاهتمام والدعم للقضايا التي كانا يدافعان عنها ، إلى الحد الذي أزعجا فيه الدوائر الاستعمارية الغربية عامة والفرنسية خاصة ، وهو ما سيتضمنه المبحث الرابع من هذا الفصل ، الذي جاء تحت عنوان : موقف الاستعمار الفرنسي الإبراهيمي و أرسلان .

المبحث الرابع : موقف الاستعمار الفرنسي منهما :

01- موقف الاستعمار الفرنسي من البشير الإبراهيمي :

كانت إدارة الاحتلال الفرنسي ، تراقب تحركات الشيخ الإبراهيمي منذ أن عاد إلى المشرق العربي سنة 1920م ، مثلما كان عليه الأمر بالنسبة للشيخ " عبد الحميد بن باديس" ، حيث كانت تنظر إلى كل ما يقومان به من أعمال تربوية وإصلاحية بعين الريبة والشك . وقد ازدادت مخاوف الإدارة من الإبراهيمي ، بسبب ما أظهره بعد المؤتمر الإسلامي الأول المنعقد سنة 1936م بالجزائر العاصمة ، من تصعيد واضح في موقفه منها وبشكل علني ، فبمناسبة مرور مائة عام على احتلال مدينة قسنطينة (1837م – 1937م) ، بادر إلى تحرير نداء دعا من خلاله الشعب الجزائري ، إلى إفساد الاحتفالات الفرنسية المخلدة ، كما فعل مع "عبد الحميد ابن باديس" أثناء الاحتفالات المئوية لاحتلال الجزائر (1830م – 1930م) ([1]) .

وبسبب بعض التقارير الإستخبارية ؛ التي اعتبرته بأنه ذو توجه وهابي (الحركة الوهابية) ، ويكن عداءا شديدا لشيوخ الطرق الصوفية ، الذين وجدوا أنفسهم في موقف دفاع عن النفس ، يتدخل في كل شيء حتى في طريقة دفن الموتى ، كما أنه لم يتردد في الإفصاح عن كرهه الشديد للدولة الفرنسية ولسياستها الاستعمارية .

وأضاف أحد تلك التقارير ، أنه تمكن من تحقيق نجاحات كبيرة في الأوساط الشعبية ، لما يتمتع به من ذكاء وجرأة كبيرين ، فتحول بسرعة إلى ضمير حي للمجتمع التلمساني (تلمسان) (*) ، الذي كان قبل سنوات قليلة تحت توجيه الزعامات الطرقية . وخلص التقرير إلى أن القضية الفرنسية قد ضاعت في المنطقة بسبب الإبراهيمي . وأوصى تقرير آخر ، بوضع حد لنشاط الشيخ ، حيث جاء فيه : ((إن هذا المشاغب المداهن ، والطموح البارد والمناور ، لا يجب أن يترك له الخيار ، فهو إما مع فرنسا أو ضد فرنسا)) ([2]) .

([1])- محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج1 ، مصدر سابق ، ص 309 وما بعدها .

(*) – قام مكتب جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، بإيفاد الشيخ البشير الإبراهيمي إلى تلمسان عاصمة الإقليم الوهراني (الغرب الجزائري) .

([2])- أبو القاسم سعد الله : " الشيخ البشير الإبراهيمي في تلمسان من خلال الوثائق الإدارية 1933م –1940م ، مجلة الثقافة ، الجزائر : العدد 101 / 1988م ، ص ص 97 -98 .

ولهذه الأسباب ، استصدرت السلطات الفرنسية قرارا إداريا مؤرخا في 31 ديسمبر 1938م ، يقضي بغلق مدرسة دار الحديث (*) ، التي أسسها الإبراهيمي بتبرعات أهل " تلمسان " دون سبب يذكر ([1]) . لتقوم الأكاديمية الفرنسية في شهر سبتمبر من سنة 1939م ، في تلمسان باحتلالها وإلحاقها بمدرسة " دوفو " (DEFAU) الفرنسية في شهر سبتمبر من سنة 1939م ، بحجة ظروف الحرب ([2]) .

وبالموازاة مع هذه الإجراءات ؛ حاولت سلطات الاحتلال عن طريق أحد عملائها وهو القاضي " بن حورة " (**) ، استدراج الشيخ للعمل لصالح دول المحور (ألمانيا ، إيطاليا) من خلال الأحاديث الإذاعية وكتابة المقالات الصحفية ، مقابل أن تسند إليه منصب " شيخ الإسلام " ، الذي كانت تفكر في إنشائه في الجزائر ([3]) .

مما دفع بالسلطات العليا في باريس ؛ ممثلة في رئيس الوزراء " دولادييه " (DELADIER) ، إلى إصدار قرار الإبعاد والنفي في حقه إلى منطقة " أفلو " الصحراوية بالجنوب " الوهراني " ([4]) ، بحجة واهية وهي أنه يشكل خطرا كبيرا على الأمن العام للبلاد ([5]) . فقام عامل تلمسان باعتقاله يوم 12 أفريل من سنة 1940م ، مباشرة بعد وصول الأمر من الوالي العام ([6]) .

(*)–مدرسة " دار الحديث" : أطلقت عليها تسمية دار الحديث ، نسبة إلى " دار الحديث الأشرفية " التي تأسست منذ قرون في دمشق ، وكان من مدرسيها : الإمام " الحافظ محمد الدين النووي " ، و الإمام " النظار التقي الدين السبكي " . وقد احتوت على مسجد وقاعة للمحاضرات وأقسام للطلبة ، وتم افتتاحها في 27 سبتمبر 1937م ، بحضور المجلس الإداري لجمعية العلماء ، برئاسة الشيخ عبد الحميد ابن باديس . محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 1 ، مصدر سابق ، ص 309 وما بعدها .

([1])– المصدر نفسه ، ص 313 .

([2]) – ابو القاسم سعد الله : " الشيخ البشير الإبراهيمي في تلمسان ..." ، مرجع سابق ، ص ص 97 – 98 .

(**) – انتقل إليه في مقره بتلمسان ، في محاولة لإقناعه بالعرض .

([3]) – محمد البشير الإبراهيمي ، المصدر نفسه ، ص 19 .

([4]) – محمد خير الدين ، المصدر السابق ، ج1 ، ص 19 .

([5])– ابو القاسم سعد الله : الحركة الوطنية الجزائرية ، ج 3 ، مرجع سابق ، ص 152.

([6]) – ابو القاسم سعد الله : " الشيخ البشير الإبراهيمي في تلمسان ..." ، المرجع نفسه ، ص 101 .

وهكذا فضل الشيخ الإبراهيمي، حياة المنفى والإبعاد ، على أن يكون أداة دعائيـــة ضـــد دول المحور ، مخاطرا بحياته تماشيا مع شعاره الشهير : ((إن من يبيع قلمه ولسانه يكون قـــد ارتكب جريمة أقبح من بيع الجندي لسلاحه)) ([1]) . وقد مضى في موقفه هذا ، رغم مســـاعي الإدارة المحلية في " تلمسان " لإقناعه بالتراجع عنه ، ولما لم تفلح في ذلك قالت لـــه : اذهـــب لتوديع أهلك واحضر حقيبتك ، أما هو فرد بأنه ودّع أهله وحقيبته جاهزة ([2]) . وهو رد يعكس استعداده للتضحية ، من أجل المبادئ التي رسمها لحياته ، رغم إدراكه لما ينتظـــره فـــي بيئـــة صحراوية مقفرة تكاد تخلو من السكان ، وهو الذي تعود على النشاط والحركة الدؤوبين .

ولما أصبح رئيس جمعية العلمـــاء شـــاغرا بوفـــاة " ابـــن بـــاديس " ، حاولـــت الإدارة الاستعمارية الممثلة في شخص الوالي العام ،التأثير على أعضاء المجلس الإداري للجمعية ([3]) ، للحيلولة دون اختيار الإبراهيمي رئيسا لها ، مقابل وعود بتقديم الدعم والمساعدة لهـــم ، لكـــن المجلس لم يأبه بتلك الضغوط والإغراءات ، فاختار الإبراهيمي بالإجماع رئيسا وبكل حريـــة ، وتم إبلاغه بالقرار في منفاه ، مفوتا بذلك على فرنسا فرصة احتواء الجمعية وتدجين أعضائها .

وأمام الإقبال الشعبي المتزايد على الإبراهيمي في منفاه " بأفلو " ؛ عمد حاكم " أفلو " إلى إتخاذ مجموعة من الإجراءات : كمنع الناس من الإتصال به ، ونشر الأكاذيب عنه عن طريـــق الجواسيس والعملاء ، والدعوة إلى مقاطعته والتحرش به ، فضلا عن مراقبة بريده ، واستنطاق و طرد من استمروا في زيارته والاتصال به ، غير مكترثين بالأمر ([4]) .

كل ذلك لم ينل من عزيمته وتصميمه ، على مواصلة نشاطه الإصلاحي بالمنطقة ، حيث استطاع في ظرف قصير أن يجمع شريحة عامة من أهلها ، على تبني المشـــروع الإصـــلاحي وتقديم الدعم له ، زيادة على مهامه كرئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، التي ظل على

([1]) – محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج3 ، مصدر سابق ، ص ص 43 – 52 .

([2]) – أحمد قصبية : " الشيخ البشير الإبراهيمي في منفاه بأفلو " ، مجلـــة الثقافـــة ، الجزائـــر : العـــدد 87 ، ماي / جوان 1985م ، ص 280 .

([3])– للإطلاع على تفاصيل المحاولة ينظر محمد خير الدين ، المصدر السابق ، ج 2 ، ص 17 ،20 ،278 .

([4]) – احمد قصبية ، المرجع نفسه ، ص 280 و ما بعدها .

إتصال دائم بمكتبها ، يزوده بالتعليمات والتوجيهات الإدارية والتربوية اللازمة ([1]) ، إلى غاية إطلاق سراحه يوم 28 ديسمبر 1942م ، مع بقائه تحت الرقابة القضائية إلى أن تضع الحرب العالمية أوزارها ([2]) . فاختار مدينة الجزائر ، مركزا لإدارة شؤون جمعية العلماء ([3]) ولتنقلاته إلى مختلف جهات الوطن ، لبث روح الإصلاح وغرس بذور النهضة ([4]) .

كما واصل نشاطه في الميدان السياسي بعزيمة كبيرة ، على خلاف ما كانت تريده السلطات الاستعمارية ، حيث كانت له إتصالات مكثفة مع مختلف قادة الحركة الوطنية ،على رأسهم "فرحات عباس "(*) الذي كانت علاقاته به قوية ، و التي توجت فيها بعد بتأسيس حزب " حركة أحباب البيان والحرية " بمدينة سطيف ، في الرابع عشر من مارس من سنة 1944م . كما قدم بتاريخ الثالث من شهر جانفي 1944م ، تقريرا مفصلا إلى لجنة الإصلاحات التي تشكلت عقب زيارة " شارل دوغول " (1890م – 1970م) (CHARLES DE GAULLE) إلى قسنطينة "في ديسمبر 1943م ، ضمنه وجهات نظره في المجالات التي ينبغي مباشرة إصلاحات فورية فيها وهي : القضاء الإسلامي ، المساجد والأوقاف ، التعليم العربي الحر ([5]) .

([1])– بشير فايد :الشيخ البشير الإبراهيمي ودوره في القضية الوطنية الجزائرية " 1920م – 1965م " ، مرجع سابق ، ص 94 .

([2])– محمد البشير الإبراهيمي : في قلب المعركة ، مصدر سابق ، ص 96 .

([3])– أحمد قصيبية : المرجع السابق ، ص 292 .

([4])– أحمد توفيق المدني : " الابراهيمي كان أمة ، كان جبلا ، كان عصرا "، مجلة الثقافة ، العدد 87، مرجع سابق ، ص 44 .

(*)– فرحات عباس : ولد عام 1899 بجيجل ، بدأ الحياة السياسية منذ العشرينيات في " فيديرالية المنتخبين " رفقة الدكتور" إبن جلول " ، أسس في شهر ماي 1938 م " اتحاد الشعب الجزائري " ، ثم " حركة أحباب البيان والحرية " في شهر مارس 1944م ، بعد ان تحالف مع العلماء ، وحزب " الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري " في ماي 1944م . انضم الى جبهة التحرير الوطني سنة 1955م ، ثم أصبح عضوا في المجلس الوطني للثورة الجزائرية عام 1956م ، ثم رئيسا للحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية (1958م – 1961م) ، بعد الاستقلال شغل منصب أول رئيس للجمعية الوطنية ، لكنه سرعان ما استقال منه سنة 1963م ، توفي عام 1970م .

([5])– للاطلاع على محتوى التقرير ينظر الإبراهيمي : الآثار ، ج2 ، مصدر سابق ، ص 135 وما بعدها .

ومع التطورات التي عرفتها نهاية الحرب العالمية الثانية ، كثف من اتصالاته ولقاءاته ، حيث شارك في اجتماع انعقد بمخزن السيد " محمد علي عباس التركي " أحد كبار أثرياء الجزائر بحضور " فرحات عباس " و الشيخ " محمد خير الدين " (1902م – 1993م) و" توفيق المدني " ، بغرض تدارس الأوضاع المستجدة بعد انهزام الألمان وحلفائهم في الحرب [1] .

وعقب المجازر الوحشية التي اقترفتها القوات الفرنسية يوم الثامن ماي 1945م ، بدعم من المعمرين المتعصبين في " سطيف و قالمة وخراطة " بشكل خاص ، والتي خلفت استشهاد أكثر من خمسة و أربعين ألف جزائري ، بالإضافة إلى الجرحى . هاجم الإبراهيمي بشدة تلك الأعمال الوحشية ، التي ارتكبت في حق جزائريين عزل وأبرياء ، لا ذنب لهم سوى أنهم خرجوا إلى الشوارع ، مبتهجين بانتصار الحلفاء ، ومطالبين فرنسا الوفاء بالعهود التي قطعتها على نفسها خلال الحرب ، مقابل التضحيات الجسام التي قدموها لها في حربها ضد النازية والفاشية [2] .

جرائم اعتبر أنها من الفظاعة ، بحيث أن فرعون لو شهدها لتبرأ منها ولافتخر لعدم ارتكابه لها ، ولذلك فهي وصمة عار أبدي سيظل حسبه يلطخ جبين فرنسا ، مهما تقادم الزمن عليها : ((أما والله لو أن تاريخ فرنسا كتب بأقلام من نور بمداد من عصارة الشمس في لوح منحوت من صفحة القمر ، ثم قرضه عشاقها المتيمون باللؤلؤ المنثور بدل القرض المشعور ، والشعر المنثور ، ثم كتب في آخره هذا الفصل المخزي بعنوان " مذابح سطيف وقالمة وخراطة " لطمس هذا الفصل ذلك التاريخ كله)) [3] .وصف يعكس حجم الصدمة العنيفة التي أحدثتها تلك المجازر في نفسية الإبراهيمي ، فجاء رده أعنف على دولة لطالما ، تغنت بأنها إنما جاءت للجزائر لتنشر المدنية والرقي في البلاد ؟ .

---

[1] – أحمد توفيق المدني : حياة كفاح ، ج 2 ، مصدر سابق ، ص 382 .

[2] – محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 3 ، مصدر سابق ، ص 376 .

[3] – المصدر نفسه ، ج 5 ، ص 283 .

وردا على هذا الموقف الجريء ، قامت الشرطة الفرنسية بمداهمة بيته واعتقاله يوم السابع والعشرين ماي 1945م ، أي بعد أسبوعين من تاريخ المجازر بتهمة تدبيرها والقيام بـ : " المؤامرة الكبرى " على فرنسا ، وهي تهمة تعاقب عليها القوانين الفرنسية بالإعدام ([1]) ، فتم حبسه بالسجن العسكري "بباب الوادي " (*) ، حيث وضع في زنزانة تحت الأرض تنعدم فيها أدنى الشروط الصحية لمدة ثلاثة أشهر ، فأصيب بعدة أمراض في يده وكتفه ([2]) ، وأمام تدهور حالته الصحية بشكل خطير ، سارعت السلطات الاستعمارية إلى نقله خارج السجن ، ولما استعاد بعضا من قواه ، حولته إلى السجن العسكري "بقسنطينة " ، حيث مكث فيه ثمانية أشهر ([3]) ، ليتم الإفراج عنه يوم السادس عشر مارس من سنة 1946م ، تنفيذا لقرار التاسع مارس 1946م ، الصادر عن " الجبهة التأسيسية الفرنسية " ، المتضمن العفو الشامل عن مساجين أحداث الثامن ماي 1945م ([4]) .

ومباشرة بعد استرجاعه لحريته ، عاد إلى نشاطه بنفس الإرادة والعزيمة ، في الميادين التربوية و العلمية و الأدبية و السياسية والاجتماعية ([5]) . إلى غاية سنة 1952م ، تاريخ مغادرته لأرض الوطن باتجاه المشرق العربي والعالم الإسلامي ، للدفاع عن القضية الوطنية هنالك .

([1])– محمد البشير الإبراهيمي : الاثار ، ج 3 ، مصدر سابق ، ص 379 .

(*) – " باب الوادي " : حي من الأحياء العتيقة والشهيرة بمدينة الجزائر .

([2])– احد توفيق المدني : حياة كفاح ، ج 2 ، مصدر سابق ، ص ص 96 – 225 .

([3])– أحمد حماني ، المصدر السابق ، ج 2 ، ص 269 .

([4])– محمد البشير الإبراهيمي ، المصدر نفسه ، ج2 ، ص 77.

([5])- أحمد حماني ، المصدر نفسه ، ص 269 .

02- موقف الاستعمار الفرنسي من شكيب أرسلان :

لقد تميزت العلاقة بين الأمير شكيب والدولة الفرنسية بالخلاف والتوتر ، بسبب مواقفه المعادية للاستعمار الأوروبي من ناحية ، وللسياسة الفرنسية في البلاد العربية والإسلامية من ناحية ثانية . فقد مر بنا أن الأمير شارك في الحرب إلى جانب الليبيين ، ضد ايطاليا في حملتها العسكرية على ليبيا ، وفي حروب البلقان سنة 1912م دفاعا عن الدولة العثمانية .

وفضلا عن ذلك ، فإنه لما اندلعت الحرب العالمية الأولى سنة 1914م ، سارع في إبداء موقفه منها ، بإعلان تأييده للدولة العثمانية ، ضد دول الحلفاء التي كانت فرنسا واحدة منها . وقد بنا موقفه ذاك على كونه كان يعتقد بأن الخلافة العثمانية ؛ رغم ما وصلت إليه من انحلال وضعف ، مازالت تمثل عامل وحدة للعرب والمسلمين ، فحذر في هذا الصدد " الشريف حسين " أمير مكة ، الذي تزعم الثورة العربية المناهضة للأتراك ، من الثقة في الإنجليز حلفاء الفرنسيين الذين عقدوا معه حلفا يتم بموجبه التعاون العسكري بينهما ، لطرد الأتراك نهائيا من المشرق العربي قائلا له : ((قل بحرمة جدك ابن الشريف كم عقدا عقده الإنجليز ولم ينقضوه ؟ وكم عهدا أبرموه ولم يجعلوه أنكاثا ؟ أخالك تجهل التاريخ وتكابر في المتواتر من شأنهم الإخلال بالعهود والمواثيق إلى الحد الذي تنكر فيه هذه الحقيقة التي تتجلى في جميع معاملاتهم سواء مع المسلمين أو مع سائر الأمم)) ([1]) .

وقد جاهر الأمير بموقفه عاليا ، رفقة مجموعة من الكتاب العرب ، الذين اتخذوا من جريدة " الشرق " بدمشق منبرا لدعوتهم ([2]) . وأثناء حملة الأتراك على قناة السويس عام 1916م لأجل استرجاعها من الإنجليز ، وجه الكثير من دعوات الجهاد إلى جانب الأتراك ([3]) . زيادة على ذلك قام بجولات في العديد من القرى اللبنانية ، دعا من خلالها إلى التطوع ونصرة الدولة العثمانية ، كما شارك بنفسه في الهجوم على القناة تلبية لنداء " جمال باشا " (1872م-1922م) ([4]) .

([1])- نجيب البعيني ، المصدر السابق ، ص 112.

([2])- سامي الدهان ، المرجع السابق ، ص ص 74 - 78 .

(3)- نجيب البعيني ، المصدر نفسه ، ص 92 .

([4])- لوثروب ستودارد ، المصدر السابق ، م 1 ، ج 1 ، ص ص 16 -17 .

ولما استقر به المقام بألمانيا ، سارعت فرنسا إلى اتهامه بتأييد " جمال باشا " والعثمانيين انطلاقا من " برلين " ، كما سعت إلى تشويه صورته لدى اللبنانيين بكافة الطرق والوسائل ومنها : قيامها بحجز باخرتين محملتين بالمؤونة ، أرسلهما المهاجرون اللبنانيون لأهاليهم في لبنـــان ، وأذاعت بأن السلطات التركية هي التي حجزت الباخرتين بإيعاز من الأمير ، رغـــم أنـــه بـــذل مساع كبيرة لضمان وصولها إلى بيروت .

وقد اعتبر هذه التهمة الملفقة : ((منتهى التزوير والباطل والقحة)) (*) ([1]) ، فحسبه أن فرنسا وبريطانيا هما اللتان منعتا الباخرتين من الوصول إلى هدفهما المحدد ، عن طريق القائـــد الفرنسي في البحر المتوسط ، الذي تلقى التعليمات من حكومته . ورغم أن التهمة كانت باطلة من أساسها ، إلا أن فرنسا تمكنت من خلالها أن تستعدي شريحة واسعة من اللبنانيين ، وتؤلبهم ضده ([2]) .

ازدادت العلاقة بين الأمير وفرنسا توترا ، بعد أن جـــاهر برفضـــه واحتجاجـــه علـــى محاولتها إبعاد بربر المغرب الأقصى عن الدين الإسلامي ، لإصدارها مـــا يســـمى بـــالظهير البربري ، ودعوته العرب والمسلمين وغيرهم ، للوقوف في وجه تلك الخطوة التي اعتبرهـــا : ((من أفظع من اعتدى على الإسلام والمسلمين)) ، إذ لم تجابه بشدة وحزم ، ستكون تكـــرارا لما حدث في الأندلس .

لم تتوقف الاتهامات الفرنسية للأمير عند هذا الحد ، بل أخـــذت منحـــى تصـــعيديا ، إذ وصفه أحد الجنرالات الفرنسيين في الرباط ، بالرجل المأجور لقوى خفية ، ورد عليه الأميـــر بقوله :((فليخسأ كما يخسأ الكلب ، أنا لا يشتريني أحد ، ولا أعمل برأي أحد إلا ما يعني لـــي وأراه من مصلحة ملتي وقومي)) ([3]) .

ولقطع الاتصالات بينه وبين الوطنيين المغاربة ، مارست الحكومة الفرنسية ضـــغوطات كبيرة على نظيرتها الإسبانية ، حتى تشدد الرقابة على بريده ، ولما أحسن بذلك أخذ يكتب

(*)– القحة : الغلظة والخشونة .

([1])– شكيب أرسلان : سيرة ذاتية ، د ط ، دار الطليعة ، بيروت : 1969م ، ص 235 .

([2])– محمد علي الطاهر : ذكرى الأمير شكيب أرسلان ، د ط ، القاهرة : 1947م ، ص 495 .

([3])– الطيب بنونة ، المصدر السابق ، ص 82 .

رسائله بأسماء وعناوين مستعارة ، فيشير إلى فرنسا على سبيل المثال ب : ((الأم الحنون)) ، والمقيم العام الفرنسي ب : ((القديس)) ... وهكذا .

كما منعت كل كتاباته ومقالاته ، وصادرت كل الكتب التي يرد فيها اسمه مهما كانت موضوعاتها ، فقد حدث أن قامت بنفي أحد تجار الكتب لأنه وجد بحوزته كتاب الأمير . ناهيك عن الحملات الصحفية ، التي كانت تعمل على تشويه صورته واختلاق الأكاذيب والافتراءات عنه، كالتساؤل حول حقيقة مصدر الأموال التي كان ينفقها هو وزملائه ، أو الزعم على أنه على علاقة بمركز الدعاية الألمانية في الشرق ، واشتغاله كمساعد في تحرير جريدة " الشرق الجديد " (NEW ORIONT) ، وتنسيقه مع اللجان الثورية العاملة في " برلين " و" ميونيخ " ، التي كانت تحت إدارة السلطات الشيوعية في موسكو حسب زعمها ([1]) .

وقد دفعت هذه المضايقات والمطاردات بالأمير ، إلى أن يزور المغرب الأقصى متنكرا ، حتى لا تعلم السلطات الفرنسية بوجوده ، لكنه لم يكن يدري أنه بمجرد نزوله بمدينة " طنجة " ثم " تطوان " المحتلتان من قبل اسبانيا ، أنه كان تحت مراقبة مخابراتها هنالك ، حيث تمكنت من اكتشاف أمر الزيارة بالرغم من سريتها . وراحت تتابع كل تنقلاته ولقاءاته ، وتعد التقارير بشأنها ، بالتنسيق مع نظيرتها في منطقة الحماية الفرنسية ، فعلى سبيل المثال أشارت إحدى تلك التقارير ، أن زيارة الأمير تمر في هدوء ودون تصريح علني . لكن القنصلية الفرنسية العامة في " تطوان " ، ظلت قلقة من زيارته للمدينة ، فعكف أعوانها على تتبع تحركاته بأنفسهم .

ولما رأت السلطات الاسبانية ، تزايد الوافدين عليه ، والمكرمين له في حفلات رسمية ، سلمت له أمرا بالطرد ، رغم رفضه له واحتجاجه عليه . ولما وجد إصرارا على ذلك ، أبلغ محافظ الشرطة بأنه سيعود إلى اسبانيا بمحض إرادته ، وقد فعل ذلك ([2]) .

هذا بالنسبة لعلاقة الأمير شكيب أرسلان ، بالمغرب الأقصى ، أما بالنسبة للجزائر فقد كانت له اتصالات ومراسلات مع بعض الشخصيات الإصلاحية : كالشيخ " الطيب العقبي " ، و"أحمد توفيق المدني "(1899م-1983م) ، " الشيخ عبد الحميد بن باديس " ،

([1])- أحمد الشرباصي ، المرجع السابق ، ص 10 ، 41 ، 42 .

([2])- الطيب بنونة ، المصدر السابق ، ص 21 وما بعدها .

" السعيد الزاهري "(1899م-1956م) ، " مبارك الميلي " . كما كانت مجلة " الشهاب " تنشر له من حين لآخر ، بعض مقالاته التي تدور حول قضايا العرب والإسلام . أما مع " مصالي الحاج " ، فقد تعود اتصالاته به حسب أحد التقارير الفرنسية إلى سنة 1934م ، لتتوثق العلاقات بينهما أكثر أثناء لجوء مصالي إلى " جنيف " ، إثر الحكم عليه بالإبعاد في ماي 1935م .

وقد كان للأمير دور كبير ، في التأثير على التوجه الفكري والسياسي للعلماء من ناحية ، وعلى إحداث نوع من التقارب والتضامن بين العلماء وحزب الشعب الجزائري من ناحية ثانية . حيث أثمرت مساعي الأمير إلى عقد اجتماع في باريس يوم 21 فيفري 1937م ، تحت رئاسة وبحضور : " مصالي الحاج "(1899م-1974م) ، " الفضيل الورثيلاني "(ت1959م)، " السعيد الصالحي " ، " الحبيب بورقيبة " (1903م-2000م) ، وفيه تمت المصالحة بين الفريقين .

ولأن إدارة الاحتلال الفرنسي في الجزائر ، كانت على علم بتلك الاتصالات والمراسلات وبمنشورات الأمير التي كانت تتسرب إلى الجزائر ، عبر عدة طرق وقنوات ، كجريدة " الأمة العربية " (LANATION ARABE) ، فقد فرضت عليها مراقبة شديدة ، انطلاقا من قناعتها المتمثلة في أن الوعي الوطني الذي أخذ ينمو في الجزائر ، إنما يرجع إلى مؤثرات خارجية ، وبخاصة نشاط شكيب أرسلان ودعايته باتجاه أقطار المغرب العربي ([1]) . وهي أسباب كافية لتجعل منه شخصية خطيرة ، وغير مرغوب فيها لدى الحكومات الفرنسية .

الأمر الذي يدفعنا إلى الاستنتاج بأن السلطات الفرنسية ، كانت تعد الأمير من ألد أعدائها ، بسبب معاداته لسياستها الاستعمارية بشكل عام وفي المغرب العربي بشكل خاص ، نظرا للجهود الكبيرة التي بذلها لتوعية الجاليات الشرقية في أوروبا ، والأوساط الفكرية والثقافية والسياسية المدافعة عن حقوق الإنسان في القارة الأوروبية ، مستغلا في ذلك صداقاته

([1])- للمزيد من التفاصيل حول ، موضوع علاقة الأمير شكيب أرسلان بزعماء الحركة الوطنية في الجزائر ، ينظر أحمد صاري : شخصيات وقضايا من تاريخ الجزائر المعاصر ، د ط ، المطبعة العربية ، غرداية ، الجزائر : 2004م ، ص 77 وما بعدها .

(*)– Rapport du ministère des affaires étrangère : direction des affaires politiques et commerciales, 26 Janvier 1934 , 22 Janvier , les archives nationales de Tunisie .

والاحترام والدعم اللذان كانا يلقاهما من الجميع .

وهكذا كانت السلطات الفرنسية على أعلى مستوى ، ترى في كل من الشيخ البشير الإبراهيمي والأمير شكيب أرسلان ، شخصيتان خطيرتان غير مرغوب فيهما لديها على الإطلاق ، بفعل ما كانا يقومان به من نشاطات تربوية وإصلاحية وسياسية داخل الجزائر ولبنان وخارجهما ، حيث لقي كل ذلك تجاوبا شعبيا ونخبويا منقطع النظير ، فسعت بشتى الوسائل والطرق ، من أجل كبح جماحهما أو استدراجهما إلى صفها ، بإغرائهما بالمناصب والأموال دون جدوى ، فقد فشلت فشلا ذريعا في إسكات صوت الإبراهيمي وتحجيم دوره في الحركة الإصلاحية الوطنية ، بنفيه إلى صحراء " أفلو " القاحلة والمقفرة ، وفي إبعاده عن جمعية العلماء بمحاولة فرض مرشحها المفضل ، الذي راهنت من خلاله على احتواء المشروع الإصلاحي كمرحلة أولى ، تمهيدا لقبره في المرحلة الموالية . لكن ذلك لم يحدث بفضل تجند زملائه العلماء ، الذين أحبطوا تلك المحاولة الإنقلابية داخل بيت الجمعية .

لكنها لم تستسلم وراحت تتحين الفرص للإيقاع به ، وهو ما حدث عقب مجازر 8 ماي 1945م ، حيث لم تتأخر في اعتقاله وسجنه لمدة إحدى عشر شهرا ، في ظروف قاسية ومأساوية ، لكنه ورغم كل ذلك لم يتزحزح أو يخضع وبقي وفيا لنهجه ، ولقناعاته التي لم تتغير قيد أنملة . بل أنه خرج من السجن ، أكثر تشددا في مواقفه السياسية وجرأة وتحديا ، غير مبال بردة فعل الإدارة ، التي لم تتسامح معه بطبيعة الحال .

والأمر ذاته ، حدث مع الأمير شكيب أرسلان ، الذي كانت فرنسا منزعجة منه بشدة ، جراء نشاطاته السياسية في الدول الأوروبية والآسيوية والأمريكية والإفريقية (المغرب الأقصى وتونس) ، المناهضة للسياسة الاستعمارية بصفة عامة والسياسة الفرنسية بصفة خاصة . فعملت على ترصد تحركاته ومطاردته في أي مكان يحل به ، عبر شبكة جواسيسها وعملائها الذين كانوا يراقبون الإبراهيمي أيضا ، ويكتبون حوله يوميا تقارير بكل شيء يقوم به مهما كان تافها. ورغم ذلك فشلت في الإيقاع به أو القبض عليه لأنه كان حذرا جدا . وهنا يوجد اختلاف جلي في أسلوب الإبراهيمي وأرسلان ، فالأول بحكم طبعه الثوري كان اندفاعيا يجاهر بما يريد ، ويهاجم وينتقد بعنف الإدارة الاستعمارية وأعوانها من العيون والجواسيس وشيوخ

الطرق الصفية المنحرفين ، بل أنه في الكثير من الأحيان ، كان هو من يتحدى ويستفز خصومه من سلطات الاحتلال ومعاونيهم . أما أرسلان ، فقد عرف عنه أنه سياسي مداهن يهاجم وينتقد عندما تسنح الظروف ، ويهادن ويلين من مواقفه لما يتطلب الأمر ذلك ، دون أن يعني ذلك أنه كان مسالما لفرنسا أو حلفائها الغربيين .

لقد تحول الإبراهيمي والأمير شكيب ، إلى قضية تشغل بال الساسة والحكومات الفرنسية المتعاقبة ، التي كانت تتابع نشاطهما بانتظام وعلى أعلى مستوى ، ولما فشلت في الحد من إقدامهما وحماسهما ومثابرتهما في الدفاع عن قضاياهما الوطنية والقومية ، راحت تكل لهما الأكاذيب وتروج عنهما الإشاعات ، لكي تهتز مصداقيتهما لدى الجماهير الجزائرية واللبنانية ، العربية والإسلامية ، وحتى الرأي العام الغربي ، الذي أظهر جزء منه تعاطفا أو على الأقل حيادا في التعامل مع القضايا المرتبطة بالاستعمار الغربي . ومثلما رفض الإبراهيمي وأرسلان الإستسلام لفرنسا أو الإنجرار لمحاولتها احتواءهما ، فإن هذه الأخيرة أيضا ظلت ثابتة في موقفها منهما ، حيث ظلا مطلوبين لدى أجهزتها الأمنية والعسكرية ، إلى أن غادرت لبنان سنة 1946م ، وطردت من الجزائر 1962م ، وهو ما سمح لهما بالعودة إلى بلديهما والإقامة فيهما لمدة قصيرة جدا ، إذ توفي أرسلان أسابيع بعد عودته ، بينما امتد عمر الإبراهيمي لأكثر من سنتين في جزائر الاستقلال . مخلفين تراثا فكريا وسياسيا وعلميا غزيرا ، يأتي الحديث عنه في المبحث الآتي ، الذي أدرجنا فيه وفاة الرجلين وردود الفعل حولها ، بالإضافة إلى مؤلفاتهما في شتى المجالات والتخصصات التي سلمت من الضياع .

المبحث الخامس : وفاتهما وآثارهما :

2- الإبراهيمي وفاته وآثاره :

توفي الشيخ البشير الإبراهيمي ، ظهر يوم الخميس التاسع عشر ماي 1965م ، عن عمر يناهز السادسة و السبعين عاما ، بمنزله بحي " حيدرة " بالجزائر العاصمة ، و قد صلي على جثمانه في المسجد الكبير ، وسط حضور جماهيري كبير ، تقديرا لمنزلته الدينية و الأدبية ([1]) ، و دفن بمقبرة " سيدي محمد " بالعاصمة ، يوم الجمعة العشرين ماي 1965م ([2]) .

و قد أبنه رفيقه و نائبه في رئاسة جمعية العلماء الشيخ " محمد خير الدين " (*) ، بكلمة جاء فيها ([3]) : ((الله أكبر : هوى نجم البشير ، و جف ذلكم الصوت الجهير ، و سكن ذلك القلب الكبير ، و جف ذلكم القلم السيال الخطير ، و أصبح كل ذلك في حكم التاريخ ... مات محمد البشير الإبراهيمي العالم المحقق الأبل ، و الكاتب المبدع المفتن ، و الخطيب الأشدق المصقع ، و المصلح الديني و الإجتماعي الموفق ، المفكر الحر الجريء ، و الإمام السلفي الأكبر ، و المؤمن المطمئن النفس الصادق الإيمان)) .

أما شاعر الجمعية " محمد العيد آل خليفة " (1904م -1979م) ([4]) ، فقد رثاه بقصيدة

([1])- الطاهر فضلاء : الإمام الرائد الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في ذكراه الأولى ، د ط ، مطبعة البعث ، قسنطينة ، الجزائر : 1967م ، ص 65 .

([2])- محمد خير الدين ، المصدر السابق ، ج 2 ، ص 412 .

(*) - الشيخ " محمد خير الدين " : ولد في شهر ديسمبر 1902م في واحة " فرفار " في بسكرة ، تلقى في شبابه تربية دينية إسلامية ، تعلم النحو و الفقه في قسنطينة على يد علمائها . هاجر سنة 1918م إلى تونس ، لإكمال دراسته في جامع الزيتونة ، حيث تخرج منه سنة 1925م بشهادة التطويع . أنتخب عضوا في المكتب الإداري لجمعية خلال مؤتمرها التأسيسي ، تولى نيابة رئاستها من سنة 1946م و إلى غاية سنة 1956م ، تولى نيابة إدارة معهد إبن باديس بقسنطينة . انضم إلى الثورة التحريرية ، التي كلفه قادتها بعدة مهام و مسؤوليات ، تولى منصب النيابة في المجلس الوطني الجزائري بين 1962م و 1964م . توفي يوم العاشر من ديسمبر 1993م .

([3])- محمد خير الدين ، المصدر نفسه ، ص 412 .

([4])- الطاهر فضلاء ، المرجع نفسه ، ص 65 .

ألقاها حول قبره بعنوان " لست أنسى " ، و مما جاء فيها :

أي خطب هز البلاد عويلا و دهاها فما تفيق ذهولا
أي رزء أصبنا منه ما كاد يدك الجبال دكا مهولا ؟
أي خصف طوى البلاغة و السؤدد و المجد و الكفل الطويلا ؟
أي هويل تشيب منه النواصي يوم شاء الإبراهيمي عنا الرحيلا ؟
يوم شاء البشير أن يترك الدنيا و يمضي لربه مستقبلا ؟ (*).

و من الطبيعي أن تثير وفاة الشيخ الإبراهيمي ، الحزن و الأسى في الجزائر و في غيرها من الأقطار العربية و الإسلامية ، ففي الجزائر اعتبر الأستاذ " محمد الطاهر فضلاء " ([1]) تلميذ الإبراهيمي ، وفاة أستاذه كارثة و مصيبة عظيمتين أصابتا المسلمين ، بالنظر إلى مكانته الدينية و الأدبية و اللغوية .

أما في المشرق العربي ، فقد سارع أقطاب الفكر و الأدب و السياسة ، و الهيئات العلمية و الثقافية ، إلى إقامة حفلات التأبين ، و الحديث عن مناقبه و أدبه و فكره عبر المقالات الصحفية و الأحاديث الإذاعية ، و مما قالته إحدى الشخصيات : أنه بوفاة الإبراهيمي ، يكون العرب و المسلمون قد دفنوا مع جسده : " إدارة معارف لا تعوض " . أما على الصعيد الرسمي ، فقد بادرت الحكومات إلى تنكيس الأعلام عن المباني الرسمية ، و إعلان الحداد([2]).

و بمناسبة الذكرى الأولى لوفاته ، أقيمت احتفالات بالمناسبة بقاعة " ابن خلدون " في شهر ماي 1966م ، ألقيت فيها الكثير من الخطب و القصائد الشعرية التأبينية ، إشادة به و أسفا على فقدانه ، قام تلميذه " الطاهر فضلاء " بجمعها و طبعها في كتاب تحت عنوان " الإمام الرائد محمد البشير الإبراهيمي في ذكراه الأولى " .

وبهذا تتوقف مسيرة علم من أعلام الجزائر المعاصرة ، حفلت بالنضال والمقاومة ضد الاستعمار الفرنسي ، الذي ظل يستغل مقدرات البلاد البشرية والمادية ، طيلة مائة واثنين وثلاثين عاما ، منتهجا في سبيل ذلك سياسات وأساليب أبعد ما تكون عن القيم الإنسانية

(*)- ينظر الملحق الاول ، من ملاحق الشيخ البشير الابراهيمي .
([1])- الطاهر فضلاء ، المرجع السابق ، ص ص 65 – 118 .
([2])- المرجع نفسه ، ص 73 .

والحضارية ، تطبيقا للمبدأ الميكيافيلي الشهير: " الغاية تبرر الوسيلة " . استعمار سعى لتحويل البلاد إلى أراضي أوروبية لسانا وروحا ، وكاد أن يحقق ذلك لولا ظهور نخبة جزائرية مسلحة بالعلم والوطنية ، تصدت للمشروع الفرنسي ، رغم القمع والقهر اللذان كانت فرنسا تجابههم بهما .

أما فيما يتعلق بالتأليف ، فإن البشير الإبراهيمي لم يوليه اهتماما ، لأنه كرس جل أوقاته وحياته ، لتربية النشء وتعليمه ، وللإشراف على الشؤون الإدارية لجمعية العلماء ، التي استلم إدارتها في النصف الثاني من شهر أفريل 1940م ، بعد وفاة رئيسها الأول الشيخ " عبد الحميد ابن باديس " ([1]) ، وجريدة " البصائر " لسان الحال الجمعية ومعهد ابن باديس ([2]) ، وقد أوضح ذلك قائلا ([3]) : ((لم يتسع وقتي للتأليف والكتابة مع هذه الجهود التي تأكل الأعمار أكلا ولكني أتسلى بأنني الفت للشعب رجالا ، وعملت لتحرير عقوله تمهيدا لتحرير أجساده ، وصححت له دينه ولغته فأصبح مسلما عربيا ، وصححت له موازين إدراكه فأصبح إنسانا أبيا ، وحسبي هذا مقربا من رضا الرب والشعب)) .

ومنه نستخلص أن الإبراهيمي ؛ لم يأسف على عدم اهتمامه بالكتابة والتأليف ، رغم أنه كان في إمكانه أن يؤلف عشرات المؤلفات ، في الفقه والأدب واللغة والاجتماع ، لأن الوضع الثقافي والعلمي في الجزائر خلال الفترة الاستعمارية ، المتسم بالجمود والانحطاط ، كان يقتضي التضحية بالطموحات الشخصية لفائدة المصلحة الوطنية العليا .

وفي هذا الإطار ، ذكر نجله الدكتور " أحمد طالب الإبراهيمي " ([4]) : أن والده كانت له عدة مؤلفات وكتابات مخطوطة ، في المجالات الدينية واللغوية والأدبية والاجتماعية ، لكنها ضاعت أثناء الثورة التحريرية لما كان في المشرق العربي ، عند بعض تلامذته ، أو ببيته الذي اقتحمه الجيش الفرنسي ، و استولى على كل ما به من كتب و مخطوطات . يضاف إلى ذلك أن عددا كبيرا من الخطب و الدروس و المحاضرات ، التي دأب على إلقائها ارتجالا و لم تسجل .

([1])- محمد البشير الإبراهيمي : في قلب المعركة ، مصدر سابق ، ص ص 299 – 230 .

([2])- عبد المالك مرتاض ، المرجع السابق ، ص 154 .

([3])- محمد البشير الإبراهيمي : المصدر نفسه ، ص ص 229– 230 .

([4])- محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 1 ، مصدر سابق ، ص 6.

و قد أورد الشيخ البشير ([1]) ، عناوين تلك المؤلفات في مقاله : " خلاصة حياتي العلمية " الذي كتبه بطلب من مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، لما أنتخب عضوا فيه سنة 1961م ، و هو يمثل خلاصة شاملة لسيرته الذاتية فحصرها في ستة عشر مؤلفا و رسالة و هي :

- " عيون البصائر " : تشمل المقالات التي كتبها في جريدة البصائر في سلسلتها الثانية ، و هو المؤلف الوحيد الذي طبع في حياته بعد الإستقلال ، و قد ظهرت الطبعة الأولى منه سنة 1963م بالقاهرة ، ثم في الجزائر سنة 1971م .
- كتاب " بقايا النقايات (*) و النفايات في لغة العرب " : جمع فيه كل ما جاء على وزن فعالة (من مختار الشيء أو مرذوله) .
- كتاب " بقايا فصيح العربية في اللهجة العامية في الجزائر " : تناول فيه بالدراسة أصول اللهجة السائدة في مواطن " بني هلال بني عامر" ([2]) .
- كتاب " أسرار الضمائر في العربية " .
- كتاب " التسمية بالمصدر " .
- كتاب " الصفات التي جاءت على وزن فعل " .
- كتاب " الإطراء و الشذوذ في اللغة العربية " .
- كتاب " نظم العربية في موازين كلماتها " .
- كتاب " ما أخلت به كتب الأمثال من الأمثال السائرة " .
- رواية " كاهنة أوراس " .
- كتاب " شعب الإيمان " : جمع فيه الفضائل و الأخلاق الإسلامية .
- رسالة في " الفرق بين لفظ المطرد و الكثير عن إبن مالك " .
- رسالة في " ترجيح أن الأصل في بناء الكلمات العربية ثلاثة أحرف لا إثنان " .
- رسالة في : " مخارج الحروف و صفاتها بين العربية الفصيحة و العامية " .

([1])- محمد البشير الإبراهيمي : في قلب المعركة ، مصدر سابق ، ص 230 – 231 .

(*) – النقايات : جمع نقايا و نقاء : خيار الشيء و خلاصته . المنجد في اللغة و الأعلام .

([2])- محمد عباس : البشير الإبراهيمي أديبا ، د ط ، د م ج ، الجزائر : د ت ، ص 70 .

- " ملحمة رجزية " ، تبلغ ستة و ثلاثين ألف بيت ، من الرجز السلس اللزومي في كل بيت منه ، ألفها في المنفى .

و لا شك أن هذه المؤلفات ، ذات قيمة أدبية و لغوية كبيرة ، كان من شأنها أن تثري المكتبة العربية ، لو لم تمتد إليها يد الإتلاف و الضياع .

أما المقالات و الخطب و الدروس و المحاضرات ، التي أمكن جمعها و طبعها على فترات ، فمصدرها بشكل خاص جريدة " البصائر " الثانية ،التي كان يكتب فيها أسبوعيا ، قبل أن يرحل إلى مصر سنة 1952م في رحلته الثانية إلى المشرق العربي ، التي سبق الحديث عنها في مبحث سابق . عالج فيها مواضيع دينية و سياسية و اجتماعية و إصلاحية و أدبية ، اعتمد فيها على توظيف القرآن الكريم و خاصة القصص منه ، و الأمثال العربية و أسلوب التهكم و السخرية ، و توظيف قواعد اللغة العربية توظيفا فنيا ، و الجرس و الإيقاع الموسيقيين.

و يرى الدكتور " عبد المالك مرتاض " ([1]) ، أن أسلوب الإبراهيمي أدبي كلاسيكي متين ، بليغ و مبدع ، و العلة في ذلك حسبه أنه من أحفظ أهل زمانه للقرآن الكريم ، و للأحاديث النبوية الشريفة ، و للأدب العربي القديم شعره و نثره ، و هي خاصية تجعله أكبر أديب في الجزائر خلال النصف الأول من القرن العشرين (*) .

و في هذا الصدد أيضا ، يقول الدكتور " محمد زغينة " ([2]) ، الذي درس " المقالة الوجدانية في نثر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين " أن الإبراهيمي : ((أعطى للمقال طابعه الخاص به ، و منحه مذاقه الخاص و لون تفكيره ، و خصوصية تفرده ، مما يدل على ثقافة واسعة ، و فكر عميق و حس مرهف)) . و يضيف : أن الإبراهيمي ، أظهر في كتاباته تفوقا كبيرا في : ((توظيف المفردات توظيفا موسيقيا ، مع حسن الربط بينهما ، و بين المعاني

([1])- عبد المالك مرتاض ، المرجع السابق ، ص 124 ، 125 ، 154 .

(*) - روى احد أصدقائه الملازمين له في دمشق ، أنه في مرة من المرات لما ذهب معه في سيارة أجرة لأداء صلاة الجمعة بالقدس إنطلاقا من دمشق كعادته ، إستظهر خلال الرحلة كتاب " البيان و التبيين " للجاحظ كاملا ، حيث لم يستفق هو و السائق و إلا و هما أمام المسجد الأقصى .

([2])- محمد زغينة : المقالة الوجدانية في نثر أدباء جمعية علماء المسلمين الجزائريين (1926م -1953 م) ، دار الهدى ، عين مليلة ، الجزائر : 2005م ، ص ص 80-81 .

و السمو بالأسلوب لأن شخصيته موسوعية مشدودة إلى الماضي مستغرقة في الأساليب التراثية بفعالية الحاضر)) .

و الواقع أن الإبراهيمي ، كان كثير الاجتهاد ، في البحث و التنقيب عن الألفاظ العربية المدفونة ، التي كادت أن تندثر نهائيا ، لإحيائها و إلباسها لباس العصر ، حتى تؤدي دورها الحضاري ، و تضمن وجودها إلى جانب اللغات العالمية ([1]) .

و من ناحية أخرى ، فقد أتاح لنا إطلاعنا على كتابات كتابة الشيخ البشير ، اكتشاف أنه كان ملما بثقافة و أفكار عصره ، و هو ما أكده نجله الدكتور " أحمد طالب " ([2]) ، الذي أورد أن والده كان يملك ثقافة عصرية وقف عليها بنفسه ، و حتى في تخصصات كانت في ذلك الوقت حكرا على فئة قليلة جدا من الجزائريين ، ممن درس في المعاهد و الجامعات الفرنسية ، و منها علم النفس ، حيث كان له إطلاع واسع على أراء " وليام جيمس " (WILIAM JAMES) (*) و " تشارلز داروين" (CHARLES DARWIN) (**) و " جون ستيوارت ميل " (JOHN STEWART MILL)(***) ... و غيرهم .

و تجدر الإشارة ، إلى أننا اعتمدنا في رسالتنا هاته بشكل خاص ، على أثار الإبراهيمي التي جمعها و قدمها نجله الدكتور " أحمد طالب " تحت عنوان : " أثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي " ، في طبعة جديدة صدرت عن دار الغرب الإسلامي ببيروت سنة 1997م ،

([1])- عبد الله حمادي : مساءلات في الفكر و الأدب (محاضرات) ، الديوان الوطني للمطبوعات الجامعية ، الجزائر : 1994 م ، ص 87 .

([2])- محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 1 ، مصدر سابق ، ص 18 .

(*) - " وليام جيمس " - WILIAM JAMES - (1842م – 1910م) : فيلسوف أمريكي ، ولد في ولاية نيويورك ، يعد أحد مؤسسي مذهب " البراغماتية " القائل بأن الحقيقة لا قبعة لها ، إن لم يكن لها تأثير في الواقع . المنجد في اللغة و الأعلام .

(**) - " تشارلز داروين " - CHARLES DARWIN - (1809م – 1882 م) : عالم طبيعة إنجليزي ، صاحب نظرية التطور في الأجناس الحية ، قال إن ذلك نتيجة " اختيار طبيعي " لصالح الأجناس الأكثر أهلية للبقاء . المنجد في اللغة والأعلام .

(***) - " جون ستيوارت ميل " – JOHN STEWART MILL – (1806م – 1873 م) : فيلسوف و اقتصادي إنجليزي ، من أتباع المدرسة الإخبارية ، له كتاب في المنطق الاستدلالي و الإستنتاجي .

و جاءت في خمسة أجزاء ، ضمنها كتابات و دروس و محاضرات و أحاديث الشيخ من سنة 1929م و إلى غاية 1965 م . و قد تميزت هاته الطبعة عن سابقاتها ، كونها تضمنت آثارا نشرت لأول مرة من جهة ، بالإضافة إلى مراعاة الجانب المنهجي فيها من جهة ثانية ، فاختص كل جزء بمرحلة زمنية محددة وضع لكل منها سياقها التاريخي ، مع إحالات و تعاليق عند الضرورة .

و في الأخير نصل إلى أن الإبراهيمي ؛ لم يشتغل بالكتابة و التأليف ، بسبب تفضيله للمصلحة العامة على حساب المصلحة الخاصة ، انطلاقا من اعتقاده أن خدمة الأمة تقتضي تقديم الأولى على الثانية ، أي التضحية بالطموحات الشخصية و نبذ الذات و الأنانية ، فأظهر بذلك استعداد كبيرا للعمل و النضال من أجل قضية بلاده العادلة ، و أستمر على هذا النهج السليم حتى بعد أن استعادت البلاد حريتها ، في الوقت الذي كان بإمكانه أن يركن إلى الراحة و الهدوء . و إذا كان هذا هو الحال بالنسبة للشيخ البشير الإبراهيمي ، فإن الأمر اختلف مع الأمير شكيب أرسلان ، الذي استطاع أن يوفق بين النضال و النشاط السياسي و الإصلاحي و بين الكتابة و التأليف ، فخلف لنا رصيدا هائلا من الكتب و المؤلفات و الرسائل و المقالات ، التي تحدثنا عنها سالفا .

1- أرسلان وفاته وآثاره :

تحققت للأمير أمنية الوفاة على أرض لبنان ، حيث عاد إليها سنة 1946م ، بعد أن انتظر طويلا لكي تتاح له الفرصة ويرفع عنه قرار الإبعاد ، ليزور بلده وعائلته وأصدقائه ، إذ ظل المسؤولون الفرنسيون متمسكين بإبقائه بعيدا عن المنطقة ، حتى لا يؤثر في سياستهم ومصالحهم في المشرق العربي . مما دفعه إلى اليأس والخشية من أن يموت في منفاه ، دون أن يحقق حلمه ذاك .

لكن الأقدار شاءت له أن يحقق حلمه ، بعد جلاء القوات الفرنسية وإعلان استقلال لبنان ، وفي ذلك قال ([1]) : ((أحمد الله عز وجل الذي سهل لي أن أفارق الحياة على أرض هذا الوطن الذي أحببته . أنا سعيد أن أدفن في تربته الطاهرة التي لا ترفرف فوقها راية أجنبية)) .

عاد بجسد سكنته أمراض وعلل عديدة ، منها : تصلب الشرايين وداء النقرس والحصى في الكليتين ، والزكام المزمن في شعاب الرئة ، وضيق التنفس والمثانة والتهاب العيون ([2]) ، لهذا نصحه الأطباء بالركون إلى الراحة والتقليل من الجهد ، والاعتكاف لوحده وملازمة سريره ، وعينوا له ممرضة تهتم به وتمنعه من الحركة ، لكنه غافلها ونزل من سريره فسقط أرضا وأصيب بشلل نصفي ([3]) ، جراء نزيف حاد في الدماغ أدخله في غيبوبة لمدة أربعة أيام ، انتهت بوفاته يوم 09 كانون الأول (ديسمبر) سنة 1946م ، عن عمر يناهز السابعة والسبعين سنة ، وبعد أربعين يوما فقط من عودته إلى بلده لبنان ([4]) .

نقل جثمانه إلى " الجامع العمري " بيروت في موكب جنائزي حاشد ، وبعد الصلاة عليه استأنف الموكب الضخم السير إلى المتحف الوطني ، تتقدمه فرق الجيش والدرك ووفود الهيئات والطلاب ، ورئيس الجمهورية اللبنانية السيد " بشارة الخوري " (*) ، الذي سبق للأمير شكيب

([1])- شكيب أرسلان : لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم ؟ ، مصدر سابق ، ص 13 .

([2])- احمد الشرباصي : شكيب ارسلان من رواد الوحدة العربية ، مرجع سابق ، ص 48 .

([3])- سامي الدهان ، المرجع السابق ، ص 100.

([4])- احمد الشرباصي ، المرجع نفسه ، ص 94 .

(*) - " بشارة الخوري " (1890م – 1964م) : من مواليد " رشميا " ، ظل رئيسا للجمهورية اللبنانية من 1943م – 1952م ، حيث نالت البلاد استقلالها خلال فترة رئاسته . المنجد في اللغة والأعلام .

أن أنقذ والده " خليل الخوري " (**) أثناء الحرب العالمية الأولى وأعاده من منفاه .

ثم حمل إلى مسقط رأسه بـــ : " الشويفات " ، حيث صلى عليه شيوخ عقــل الــدروز ، وأبّنه ممثلو مناطق الجبل بحضور وفود اقضية " الشوف" و"المتن " و " كسروان " و" الجنوب " و " جبل الدروز " ، ليتم دفنه في قبر خاص قرب مدافن أسرته غير بعيد عن مسكنها ([1]) . بعد أن رثاه وأبنه صديقه الشاعر " خليل مطران " في قصيدة ، ضمنها حزنه وأساه على أفول شمس ، ظلت تضيء فيما حولها لأكثر من نصف قرن (***) .

وقد تلقى العالم العربي والإسلامي نبأ ، وفاة الأمير الذي ظل يدافع عن قضاياه إلى آخر أيامه بالحزن والأسى ، فظهر نبأ نعيه في أغلب الصحف ، التي سارعت إلـــى بيـــان ســـيرته ومواقفه ونضاله القومي ومكانته الأدبية والعلمية ، فجاء في جريدة " الكتلة القاهرية " : ((نعى إلينا مراسلنا من بيروت أمير البيان المغفور له شكيب أرسلان المجاهد العربي والعالم الفيلسوف والكاتب المفكر والمؤلف العظيم الذي عرفته الأمم العربية بطلا مـــن أبطـــال الجهـــاد والعلـــم والعرفان)) ([2]) . أما جرائد "الحياة " و " نداء الوطن " و" البيرق " اللبنانية ، فقد وصفت شكيبا بأمير الفصاحة والبيان وبأبي العروبة ، وبـــأن وفاتـــه هـــي : ((مصـــاب العروبـــة والأدب والشعر)) ([3]) . كما بادر أصدقاؤه ومحبوه في جميع أنحاء العالم ، إلى تأليف اللجـــان لإقامـــة حفلات التأبين وبيان أعماله و مآثره ، وقد بادر صديقه " محمد علي الطاهر " ([4]) ، إلى جمـــع وتصنيف وطبع كل ما قيل وكتب حوا الأمير في حفلات التأبين ، وعلـــى صـــفحات الجرائـــد والمجلات في كتاب ضخم أسماه "ذكرى الأمير أرسلان " ، وتم طبعه في القاهرة سنة 1947م ،

(**) – " خليل الخوري " (1836م– 1907م) : أديب لبناني ، من مواليد " الشويفات " ، أســس جريـــدة " حديقة الأخبار " سنة 1858 وهي أولى الجرائد في بيروت ، أخوه " سليم الخـــوري " (1843م – 1875م) ، أسس رفقة " سليم شحادة : " مجموعة آثار الأدهار " . المنجد في اللغة والأعلام .

([1])– أحمد الشرباصي : شكيب أرسلان من رواد الوحدة العربية ، مرجع ســابق ، ص ص 95 – 96 .نقـــلا عن جريدة الأهرام ، عدد 11 ديسمبر 1946 .

(***)– للإطلاع على القصيدة ينظر المرجع نفسه ، ص 97 .

([2])– محمد علي الطاهر ، المرجع السابق ، ص 10 .

([3])– المرجع نفسه ، ص 111 ، 119 ، 122 .

([4])– المرجع نفسه ، ص 111 و ما بعدها .

أرسل منه نسخة إلى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، فشكره رئيسها الشيخ البشير الإبراهيمي ، وهنأه على صنيعه اتجاه صديقه الأمير ، وطلب منه أن يؤلف كتابا بقلمه يحوي تاريخ الأمير ، وهو واجب يقع على كل من عرف الفقيد حسب الإبراهيمي .

وبوفاة الأمير شكيب أرسلان ، يسدل الستار على علم كبير من أعلام لبنان والعرب والمسلمين ، كرس جل جهده وطاقاته ، لخدمة القضية اللبنانية والسورية والقضايا العربية والإسلامية الكبرى ، عبر الخطابة والكتابة والصحافة ، والدبلوماسية والجهاد في جبهات القتال ، والمشاركة في المنتديات والمحافل الدولية . بل تعدى ذلك إلى الدفاع عن قضايا الشعوب المستضعفة والمحرومة في شتى بقاع العالم ، لأن قضاياها هي قضايا الشعوب العربية و الإسلامية ، و مصيرها هو مصير واحد في نهاية المطاف ، وما ردود الأفعال المحلية والدولية عقب وفاته ، إلا دليلا قاطعا على تلك المكانة الرفيعة ، واعترافا بذلك الدور المتميز الذي لعبه . وقد حصل الأمر ذاته مع الشيخ البشير الإبراهيمي ، كما سبق سنبرزه في هذا المبحث أيضا .

أما بالنسبة لآثاره ، فقد خلف لنا الأمير شكيب ، عددا كبيرا من المؤلفات في مجالات الشعر والأدب واللغة والفكر ، والتراث والترجمة والتاريخ والاجتماع والسياسة والسيرة ، عرف كثير منها طريقه إلى النشر ، وبقي جانب آخر مخطوطا أو مفقودا . وكما هائلا من المقالات الصحفية تعد بالمئات ، نشرها في المجلات والجرائد الرائدة في تلك الفترة ، في المشرق العربي وفي أوروبا وأمريكا اللاتينية . زد على ذلك آلاف الرسائل الشخصية ، التي كان يتبادلها مع كبار أعلام عصره ، من رجالات الفكر والأدب والسياسة والصحافة .

كما أنه كان من المتابعين ، لكل ما ينشر في الوطن العربي والعالم الإسلامي ، وفي الدول الأوروبية وحتى الأمريكية ، من مؤلفات وإصدارات ومقالات ، بالتعليق أو النقد أو الترجمة ، ساعده في ذلك ثقافته الموسوعية ، وإجادته للغة الفرنسية والتركية والإنجليزية وجانبا من الألمانية .

أولا المؤلفات المنشورة :

– ديوانه الشعري : " الباكورة " : طبع أول مرة سنة 1887م ، احتوى على قصائد شعرية شملت مختلف الأغراض الشعرية المعروفة : كالمساجلات الشعرية التي كانت بينه وبين معاصريه من الشعراء ، وهي عبارة عن مناظرات ورسائل تهنئة ومداعبات شعرية ، الغرض منها التلاعب بالألفاظ وإظهار المهارة البلاغية والبيانية . بالإضافة إلى قصائد في المدح ، وأخرى في وصف الأماكن والمواقع ، التي زارها في رحلاته إلى البلاد العربية و الإسلامية .

– " الدرة اليتيمة لابن المقفع " : قام بتحقيقها وتصحيحها ، طبعت سنة 1893م بالمطبعة الأدبية ببيروت ، ثم بمطبعتي الجامعة سنة 1897م والقاهرة سنة 1910م ، جاءت في مائة وعشر صفحات .

– " المختار من رسائل أبي إسحاق الصابي إبراهيم بن هلال ابن زهرون الصابي " : قام بتنقيحه والتعليق على حواشيه ، وهو كتاب حفل ببيلغ الكلام وفريد الحكم والنكت والأخبار . وإبراهيم الصابي هو من أبرع أهل العراق بلاغة ، كرس حياته في خدمة الخلفاء وخلافة الوزراء حتى وهو في سن التسعين . من مؤلفاته كتاب " التاجي " نسبة إلى " تاج الملة " أحد ألقاب " " عضد الدولة " (*) ، وصف من بين : ((كتاب الدنيا وبلغاء العصر)) (**) .

– " آخر بني سراج " : رواية من تأليف الكاتب الفرنسي الشهير " دوشاتو بريان " ، عرّبها الأمير وأضاف إليها ملحقا من ثلاثة أقسام ، تحوي خلاصة لتاريخ الأندلس إلى سقوط غرناطة (***) .

(*)– " عضد الدولة " (فناخسرو) (ت سنة 983 م) : من أعظم ملوك بني بويه ، إبن ركن الدين الدولة ، قرّب إليه العلماء والآباء واحسن رعايتهم ، قام المتنبي بمدحه ، أنشأ البيمارستان العضدي في بغداد ، استوزر الصاحب بن عباد ، من أثاره " بند أمير " بشيراز ، المنجد في اللغة والأعلام .

(**)– ظهرت طبعة حديثة لهذا الكتاب ، بدون تاريخ ، طبع دار النهضة الحديثة ، بيروت .

(***)– ظهرت الطبعة الأولى منها سنة 1897م ، عن مطبعة الأهرام بالإسكندرية ، ثم الثانية سنة 1924م بمطبعة المنار . تروي حكاية فتا تونسيا من أصل أندلسي زار غرناطة ، لإستكشاف موطن أجداده ، وبينما هو يتجول في شوارعها لمح فتاة اسبانية فأحبها حبا عظيما وتزوجها ، لكنه تبين له فيما بعد أنها من سلالة " آل بيغار " الذين فتكوا بأجداده ، ولذلك آثر الأمير نقلها إلى العربية .

– كتاب : " تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وجزائر البحر المتوسط " : تحدث فيه عن رحلته إلى إسبانيا سنة 1930م قادما من باريس ، بغرض تتبع واستقصاء أخبار وأيام العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط ، والوقوف على آثارهم .

– كتاب " لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم ؟ " : عبارة عن رسالة كتبها في ثلاثة أيام ، بطلب من الشيخ " أحمد بسيوني " الذي اقترح عليه أن يبين لقراء " جريدة المنار " ، الأسباب الحقيقية التي أدت إلى ضعف المسلمين وانحطاطهم من جهة ، ورقي وازدهار الدول الأوروبية والولايات المتحدة الأمريكية واليابان من جهة أخرى . وما إذا كان في إمكان المسلمين تدارك الأمر ، ومنافسة تلك الدول حضاريا ، مع احتفاظهم بكامل هويتهم وشخصيتهم (*) .

– كتاب " أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر " : مخطوطة مجهولة المؤلف ، قام بنشرها بعد أن عثر على نسختها الوحيدة في العالم ، تصف سقوط غرناطة وآخر عهود العرب والأندلس ، صاحبها مؤرخ عاصر الأحداث .

– كتاب " محاسن المساعي في مناقب الإمام أبي عمر الأوزاعي " : الإمام الأوزاعي هو أحمد بن محمد الموصلي الدمشقي ، المتوفى سنة 780 هجرية .

– ديوان " روض الشقيق في الجزل الرقيق " : هو ديوان شقيقه الأمير " نسيب أرسلان " ، قام بإخراجه و تحقيقه و التعليق عليه بعد أن جمع أشعاره ، نشره في دمشق سنة 1925م بمطبعة إبن زيدون .

– كتاب " تعليقات على تاريخ إبن خلدون " : طبع في القاهرة سنة 1936م ، بلغت تعليقات الأمير فيه حوالي أربعمائة صفحة ، يعد من أهم المصادر عن تاريخ الأتراك العثمانيين ، فهو شاهد عيان على تلك المرحلة .

– كتاب " آناتول فرانس في مباذله " لجان جاك بروسون : ترجمه إعجابا بشخصية آنا تول فرانس الغريبة ، التي نسج على منوالها أدباء و منهم عرب (**) .

(*) – تكفلت بنشره " جريدة المنار " ، ثم طبع بعد ذلك في كتيب صغير سنة 1940م ، لقي صدى حسنا في العالمين العربي والإسلامي ، لما احتواه من دقة في وصف علل المسلمين وسبل علاجها . أما الطبعة التي اعتمدنا عليها في رسالتنا هاته ، فقد صدرت عن مطبعة رحاب بالجزائر سنة 1989م .

(**)– حذف منه الأمير بعض الألفاظ والعبارات التي أوردها " بروسون " ، حول مجون أستاذه واستهتاره ، متهما إياه بخبث النية في فضح أستاذه .

– كتاب " الإرتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف " أو " الرحلة الحجازية " : كتاب وصف فيه مشاهداته أثناء رحلته لأداء مناسك الحج .

– كتاب " الحلل السندسية في الأخبار و الآثار الأندلسية " : موسوعة كبرى تتألف من خرائط جغرافية ، و صورا تشكيلية للأماكن و المواقع و المدن .

– كتاب " خلاصة تاريخ الأندلس " : خصصه للحديث ، عن الجوانب المجهولة من تاريخ الأندلس ، التي تناولها بالكتابة المعاصرون والذين جاءوا من بعدهم .

– كتاب " حاضر العالم الإسلامي " (*) للكاتب الأمريكي " لوثروب ستودارد " (1883م – 1950م) (LOTHROP STODARD) : عربه الأستاذ عجاج نويهض ، أما الأمير فقد كتب في مقدمته وحواشي وتعليقات بلغت أربعة أضعاف النسخة الأصلية ، حتى أصبح يعرف بالأمير وليس بكاتبه الأصلي . يعد هذا الكتاب موسوعة جغرافية وتاريخية وإحصائية عن مختلف الأقطار الإسلامية ؛ وخاصة النائية منها في ذلك العصر ، إضافة إلى مباحث سياسية وتراجم وأخبار ، تحرى فيها صاحبها النزاهة والموضوعية في نقلها واستعراضها .

– كتاب " أعمال الوفد السوري الفلسطيني " : ضمنه البيانات والمذكرات والمطالب التي قدمها الأمير ، وشاركه في وضعها أصدقاءه " إحسان الجابري " و " ميشيل لطف الله " و " سليمان كنعان " ، طبع سنة 1923م بالمطبعة السلفية بمصر .

– كتاب " مظفر باشا " : ينسب للأمير ، هاجم فيه مظفر باشا الذي ظل متصرفا على لبنان سبع سنوات (1902م – 1909م) ، عامل خلالها عائلة أرسلان بقسوة ، وتسبب في استقالة الأمير من منصب القائم مقامية .

– كتاب " غارات العرب على فرنسا ومن فرنسا على سافواي بيمونت وسويسرا في القرن الثامن عشر والتاسع عشر بحسب روايات المؤرخين المسيحيين والمسلمين " ، للمستشرق الفرنسي الشهير " المسيو رينو " (1795م – 1867م) ، ترجمه الأمير عن نسخة نادرة أضاف إلها تعريفات للأعلام النادرة فيها ، وقد قدم الأمير بهذه النسخة خدمة عظيمة للمكتبة العربية

(*) – عنوانه الأصلي هو : (The new world of Islam)، العالم الإسلامي الجديد .

– كتاب آثار تاريخية سلطانية : أربعة كتب صدرت عن أبي الحسن علي ابن أبي النصر ابن أبي الأحمر والد أبي عبد الله آخر ملوك غرناطة ، حققها الأمير ونشرها في الأهرام سنة 1897م والمنار سنة 1925م .

– كتاب " السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة " : ضمنه كل ما كان بينهما من مراسلات وكتابات وإتصالات طيلة أربعين سنة ، قامت بطبعه مطبعة " إبن زيدون " بدمشق سنة 1937م ، وهو كتب ضخم .

– كتاب " شوقي أو صداقة أربعين عاما " : ضمنه أيضا كل ما كان بينه وبين أمير الشعراء " أحمد شوقي " ، من رسائل وكتابات وإتصالات ولقاءات خلال صداقتهما التي امتدت لأربعين عاما ، طبعته مطبعة " عيسى بابي الحلبي " سنة 1936م .

– كتاب " رسالة البلاشفة " و " رسالة رحلة إلى ألمانيا " : لم يعثر عليهما لغاية الآن ، رغم ورودهما في أكثر من مصدر (*) .

ثانيا : مخطوطات غير منشورة :

عددها أربعة وعشرون مخطوطا ، يوجد أغلبها حسب الدكتور " سعود المولى " ([1]) ، الذي قام بإعداد وتقديم كتاب " شكيب أرسلان : بنو معروف أهل العروبة والإسلام " ، في المكتبة الخاصة بالملك المغربي الراحل " الحسن الثاني " (1929م–1999م) .

– " بيوتات العرب في لبنان " .

– " البيان عما شهدت بالعيان " (قد تكون مشاهداته خلال الحرب العالمية الأولى) .

– " تاريخ بلاد الجزائر " (**) .

– " ما لم يرد في متون اللغة " .

– " حيات شكيب بقلمه " (***) .

(*) – يرجح الدكتور " سعود المولى " ، أن تكون أجزاء من الرسالة الأولى لم تطبع بعد ، أو أنها قد ضاعت. ينظر شكيب أرسلان : بنو معروف أهل العروبة والإسلام ، مصدر سابق ، ص 175 .

([1])– المصدر نفسه ، ص ص 177–178 .

(**) – لسنا ندري ، إن كان ذلك الكتاب حول الجزائر .

(***) – كتاب " حياة شكيب بقلمه " : قد يكون كتابه : " شكيب أرسلان سيرة ذاتية " ، الذي نشر حديثا ، واعتمدنا عليه في أطروحتنا هذه .

- " بحث عن طرابلس وبرقة " .
- " الحلة السندسية في الأخبار البوسنية " .
- " إختلاف العلم والدين " .
- " مدنية العرب " .
- " الجيش المعبأ في تاريخ أوروبا " (ربما أثناء الحرب العالمية الأولى) .
- " قضيتين مع سمو الخديوي " (قد يكون الخديوي عباس) .
- " تاريخ لبنان " .
- " التعريف بمناقب سيدي أحمد الشريف السنوسي " .
- " إصلاح العامية " .
- " الفوضى الإسلامية وما جنته على المسلمين والوحدة الإسلامية وما جنته على المسلمين ".
- " قطف العسلوج في وصف الماء المثلوج بجوار البيت المحجوج " .
- " الحجر الكريم فيمن ولد من الماء بثريم " .
- " الديانة في ألمانيا " .
- " سيرة صلاح الدين الأيوبي " .
- " العقد الثمين فيمن من العلماء تجاوز الثمانين " .
- " الإسلام في المستعمرات الأوروبية " .
- " الحرب العالمية الأولى " .
- " دليل العالم الإسلامي ".
- " الجزء الثاني من رسائل أبي إسحاق الصابي " (*) .

ثالثا : المقالات :

كتب الأمير عددا لا يحصى من المقالات ، في مجلات وجرائد عربية وغير عربية ، في الفترة الممتدة من سنة 1887م و الى غاية 1946م تاريخ وفاته ، نورد فيما يلي أهمها وتـــاريخ كتابة الأمير فيها :

- " الأهرام " ، القاهرة ، 1887م – 1900م .

(*) – تحدثنا عن الجزء الأول منه ، ضمن مؤلفات الأمير المنشورة .

- " المقتطف " ، القاهرة ، 1900م – 1940م .
- " المؤيد " ، القاهرة ، 1911م – 1912م .
- " المقتبس " ، دمشق ، 1906م – 1913م .
- " الشرق " ، دمشق ، 1914م – 1915م .
- " المنار " ، القاهرة ، 1912م – 1914م .
- " الرأي العام " ، بيروت ، 1913م – 1914م .
- " الإصلاح " ، بيروت ، 1912م – 1914م .
- " مجلة المجمع العربي " ، دمشق ، 1924م – 1931م .
- " الزهراء " ، القاهرة ، 1923م – 1927م .
- " الفتح " ، القاهرة ، 1926م – 1936م .
- " الشورى " ، القاهرة ، 1924م – 1930م .
- " الشباب " ، القاهرة ، 1936م – 1939م .
- " العلم العربي " ، الأرجنتين ، 1939م – 1946م .
- " الإستقلال " ، الأرجنتين ، 1940م – 1946م.
- جرائد أخرى مثل : " الأخبار " و " الجهاد " و " الاخوان المسلمين " و " كوكب الشرق " و " منبر الشرق " و " الأسبوع " (مصر) ، " الشهاب " (الجزائر) ، " لاتروبين دو لوريون " (نيويورك) ، " غلاسنيق " (يوغوسلافيا) ، " الوحدة " و " الدفاع " و " الجامعة الإسلامية " و " العرب " و " الجامعة العربية " (فلسطين) ، " الصفاء " و " الأديب " (لبنان) ، " المنار " و " الجبل " و " فتى العرب " و " ألف باء " (سوريا) ، " السجل " و " البلاد " (العراق) ، " العرب " (الهند) ، " برقة الجديدة " (ليبيا) ، " العلم " (المغرب) ، " الحرية " (تطوان) ... وغيرها ([1]) .

([1])– شكيب أرسلان : بنو معروف أهل العروبة والإسلام ، مصدر سابق ، ص 178 ، 179 ، 180 .

رابعا : الرسائل الشخصية :

تروي السيدة " سليمى " زوجة الأمير ، أنه كان يقرأ أو يكتب كل يوم ثلاثة عشر ساعة ، الأمر الذي جعل أولاده لا يستفيدون من مساعدته لهم في دراستهم ، أو بالجلوس معه أو الحديث إليه ، وفي ذلك أيضا ذكر بنفسه لأحد أصدقائه أنه خلال سنة 1935م كتب ألفا وسبعمائة وإحدى وثمانين رسالة شخصية ، ومائة وستة وسبعين مقالا وقصيدتين ومقطوعة وحرر كتابا عن " أحمد شوقي " في ثلاثمائة وخمسين صفحة ، وحواشي " لابن خلدون " في خمسمائة وستين صفحة ، وذيل ديوان أخيه نسيب " روض الشقيق " مع ترجمة له ولنسب العائلة . كما كتب قسما هاما من الجزء الأول من كتاب حول الأندلس ، وعلق على ديوانه الشعري ، وتبعه بترجمة كتاب " ليفي بروفنسال " الذي سبقت الإشارة إليه آنفا .

ويرى الدكتور سعود المولى ([1]) ، أنه إذا كان الأمير قد كتب خلال سنة واحدة هذا الكم الهائل من الرسائل ، فإنه بلا شك قد كتب عشرات الآلاف من الرسائل طوال مسيرته الحياتية ، موزعة لدى أقربائه وأصدقائه من الشعراء والأدباء والمفكرين والعلماء والساسة والأعيان (*) ، بادر مؤخرا بعض المؤلفين والكتاب إلى جمعها وتصنيفها وطبعها في مؤلفات ، مثل كتاب " رسائل الأمير شكيب أرسلان إلى كبار رجال العصر" لأحمد نجيب البعيني " ([2]) ، وكتاب " نضالنا " القومي في الرسائل المتبادلة بين شكيب أرسلان والحاج عبد السلام بنونة " الذي نشره " الطيب بنونة " بالمغرب سنة 1986م ([3]) ، وكتاب " وثائق سرية حول زيارة الأمير شكيب أرسلان للمغرب " الذي أصدره وعلق عليه محمد ابن عزوز الحكيم سنة 1980م بالمغرب ([4]) .

([1])- ينظر سعيد المولى ، المرجع السابق .

(*) – من أشهرهم وأبرزهم : الحاج أمين الحسيني ، محمد علي الطاهر ، رشيد رضا ، محب الدين الخطيب ، أحمد شوقي ، محمود سامي البارودي ، بشارة الخوري ، خليل مطران ، عبد الرحمان عزام ، إحسان الجابري ، شكري القوتلي ، فارس الخوري ، الملك فيصل الأول ، الحبيب بورقيبة ، الملك عبد العزيز آل سعود ، مصالي الحاج ، علال الفاسي ، الفضيل الورثيلاني ... وغيرهم .

([2])- ينظر نجيب البعيني ، المصدر السابق .

([3])- ينظر الطيب بنونة ، المصدر السابق .

([4])- ينظر إبن عزوز الحكيم : وثائق سرية حول زيارة الأمير شكيب أرسلان للمغرب ، د ط ، مطابع الشويخ ، تطوان ، المغرب : 1980م .

ويذكر الطيب بنونة [1] : أن الأمير كان من كثرة الكتابة يشعر بحروق في عينيه ، فيقوم بغسلهما بأحد المحاليل ، وحينما يشتد عليه المرض يتوقف عن الكتابة لأيام ، ويكتفي بالإملاء على غيره دون رغبة منه ، لأنه يفضل دائما أن يكتب رسائله ومقالاته بنفسه . أما الخط الذي يكتب به فهو خط النسخ ، مع الميل إلى خط الرقعة في بعض الحروف ، ويتميز بصفة عامة بالأناقة والوضوح .

ومنه نصل إلى أن الأمير شكيب أرسلان ، يعد بحق موسوعة علمية وفكرية ، في شتى العلوم والتخصصات ، حيث لم يترك مجالا إلا وكتب فيه ، معتمدا على ما قرأه واطلع عليه من أبحاث ودراسات سابقة . ونحن نقرأ مؤلفاته ، تبين لنا أنه ملم بكل ما كان يصدر في البلاد العربية والإسلامية ، وفي أوروبا وأمريكا اللاتينية ، الأمر الذي أعطى لكتاباته تلك بعدا موسوعيا ، وحتى الكتب التي حققها وعلق عليها، أصبحت تعرف باسمه لا باسم مؤلفيها الأصليين ، لكثرة الحواشي والتعليقات التي أضافها عليها. ولعل ما أعطى مصداقية أكثر، لما كتبه الأمير خاصة في المجالات الجغرافية والتاريخية ، هو زيارته لتلك الأماكن والبلدان محور البحث والدراسة ، مثلما حدث بالنسبة لموسوعة " الحلل السندسية في الأخبار الأندلسية " ، حيث زار كل مناطق الأندلس ووقف على آثارها ومعالمها بنفسه .

و بالنظر إلى ما جاء في هذا المبحث ، يتضح لنا أنه بوفاة الأمير شكيب أرسلان و الشيخ البشير الإبراهيمي ، يكون العالم العربي و الإسلامي قد خسر فعلا ، قطبان من كبار أقطاب الفكر و الثقافة و الأدب و الإصلاح ، حيث أشارت إلى ذلك أغلب ردود الفعل مباشرة بعد إعلان وفاتهما . فقد كرسا حياتهما و جهودهما لخدمة القضايا الكبرى لبلديهما لبنان و الجزائر على التوالي ، و لأمتهما العربية و الإسلامية ، دون أن يغفلا حتى القضايا الإنسانية المشتركة ، بفضل تنشئتهما الممتازة و تكوينهما الديني و العلمي السليم ، اللذان أهلاهما للقيام بمثل هذه المهمة الصعبة على أحسن وجه .

---

[1]- ينظر الطيب بنونة ، المصدر السابق .

لقد اضطلع الإبراهيمي و أرسلان للقيام بثلاثة مهام أساسية : فالأولى تتمثل في مقاومة الاستعمار الفرنسي الذي بسط سيطرته على بلديهما ، منتهجا سياسة القمع و التجهيل و الإفقار و لو بدرجات متفاوتة من بلد لآخر ، حيث كان الأمر أكثر سوء بالنسبة للجزائر ، مما جعلهما هدفا له . و قد رأينا كيف تعامل معهما : الاعتقال و النفي و السجن بالنسبة للشيخ البشير الإبراهيمي ، و الإبعاد و المطاردة في كل مكان بالنسبة للأمير شكيب أرسلان ، لكنهما استماتا في ذلك إلى أن تحصل بلداهما على استقلالهما و سيادتهما التامتين : لبنان سنة 1946م و الجزائر 1962م .

أما المهمة الثانية ، فتمثلت في الدفاع عن قضايا العرب و المسلمين ، و التي يمكن أن نصنفها إلى قضايا حضارية كالتخلف و أسبابه و النهضة و شروطها و المدنية الإسلامية و أصالتها ، و قضايا سياسية و منها القضية الفلسطينية و الوحدة العربية و الجامعة الإسلامية ... و غيرها . و أغلب هذه القضايا هي محور دراستنا هاته .

أما المهمة الثالثة ، فهي الاشتغال بالكتابة و التأليف ، من أجل تنمية الرصيد الفكري و الأدبي و العلمي للأمة ، و في هذه وجدنا حظ الشيخ البشير الإبراهيمي قليلا جدا للأسباب التي أوردها بنفسه و استعرضناها في بداية هذا المبحث . و رغم ذلك فإن ما خلفه لنا من الآثار التي عرفت طريقها إلى النشر ، و إن كانت لا تعكس منزلته الأدبية و الفكرية و العلمية ، فإنها كافية حسبنا لكي نسلط الضوء من خلالها على أرائه و أفكاره و اجتهاداته ، في ميادين الدين و الأدب و اللغة العربية و الاجتماع و الأخلاق و السياسة .

لكن الأمر اختلف بالنسبة للأمير شكيب ، الذي استطاع أن يوفق بشكل مذهل بين النضال ، و بين الكتابة و البحث و التنقيب ، فخلف لنا رصيدا معرفيا و أدبيا و فكريا يصعب حصره ، و قلما نجده لدى غيره من الأعلام بمثل ذلك التنوع و التوسع ، و الأسلوب في الكتابة الذي يعتمد على المزج بين القديم و الحديث .

و نعتقد أن الشيخ البشير الإبراهيمي ، كان يملك القدرات الفكرية و العلمية و الذهنية ذاتها التي كان يملكها الأمير ، و التي كانت ستجعل إنتاجه الفكري و العلمي غزيرا مثل إنتاج الأمير ، لو لا اضطلاعه بالقضية الجزائرية التي اختلفت عن القضية اللبنانية من حيث الظروف

والملابسات هذه من جهة ، و لتكريسه لجل أوقاته لإدارة شـؤون جمعيـة العلمـاء المسـلمين الجزائريين ، لما للعمل الإداري من دور سلبي في هذا الجانب ، لكونه يستنزف طاقات الفـرد و يسلبه حرية النشاط و الحركة و المبادرة من جهة أخرى .

و لذلك وجدنا الأمير شكيبا ، يستقيل من المناصب الإدارية المغرية التي منحت له أيـام الحكم العثماني للبنان ، لأنه أدرك في وقت مبكر أن الحرية و الاستقلالية شرطان أساسـيان ، ينبغي توفرهما في كل من يدافع عن فكرة جريئة أو يتبنى قضية عادلـة ، أو يسـعى لتحقيـق مشروع حضاري طموح .

و مهما يكن ، فإن ما خلفه لنا الإبراهيمي و أرسلان من كتابات و نصوص ، هي فضلا عن قيمتها الأدبية و الفكرية و العلمية ، فإنها ذات قيمة تاريخية كبيرة ، لأنها تؤرخ أولا للبيئـة الاجتماعية و السياسية و الثقافية التي ولدا و ناضلا فيها ، و للعصـر الـذي عاشـاه الحافـل بالأحداث الكبرى على الساحتين العربية الإسلامية و الدولية على حد سواء . و قد شـكلت لنـا مصدرا أساسيا ، في إبراز أرائهما و مواقفهما من قضايا العرب و المسلمين الكبرى : السياسية و الحضارية ، التي سنتطرق إليها في هذه الدراسة بالنقاش و التحليل و المقارنة ، عبر الفصول الأربعة الموالية .

خاتمة الفصل :

نستخلص مما تقدم ؛ أن الإبراهيمي و أرسلان حتى وإن ولدا في تـاريخين مختلفـين : سنة1869م بالنسبة للأول وسنة 1889م بالنسبة للثاني ، إلا أنهما انتميا إلى الجيل ذاته مولـدا ، وظروفا سياسية تتمثل في اشتداد الهجوم الاستعماري على المشرق العربي الذي يشـكل لبنـان جزءا منه ، وحضارية وتتمثل في الانحطاط والتخلف الشاملين اللذان كانت تغرق فيهما الـبلاد العربية والإسلامية ؛ في مقابل القفزة الكبيرة التي خطتها الدول الأوروبية في مدارج العصرنة والتفوق التكنولوجي .

وولدا أيضا، في كنف عائلتين عريقتين نسبا وتاريخا ومكانة اجتماعية ، وهو ما هيأ لهما الظروف المناسبة ، لكي ينشأ نشأة تربوية وسلوكية وعلمية ممتازة . فقـد كـان الإبراهيمـي محظوظا لما انحدر من عائلة جزائرية كبيرة ، اشتهرت بالعلم وتعليمه لكل مـن يطلبـه مـن مختلف أنحاء الوطن ، إذ سمح له ذلك بتلقي شتى العلوم الدينية والدنيوية في ظـرف وجيـز ، وسنه لم يتجاوز الرابع عشرة بعد ، وهو الدور الذي اضطلعت به العائلات الجزائرية الكبـرى في مختلف أنحاء البلاد وخاصة الريفية منها .

لقد كان لتلك العائلات الفضل الكبير ، في المحافظة على هذا التعليم التقليدي ، الذي يقوم أساسا على تدريس اللغة العربية وعلومها ، وتحفيظ القرآن مع تفسيره ، إضـافة إلـى العلـوم الدينية الأخرى : كالفقه والأصول والحديث والسيرة النبوية ...الخ ، مع شيء من علوم العصر : كالحساب والجغرافيا والفلك ...الخ . في الوقت الذي كانت فيه سلطات الاحتلال ، تحارب هذا النوع من التعليم وتقاومه بكل الوسائل والطرق ، رغم طابعه التقليدي ، لأنها كانت تـرى فيـه أفضل إطار يحفظ مقومات الشخصية الجزائرية من الاندثار والزوال ؛ وهي العروبة والإسـلام وأخلاقه السامية . فرغم الاضطهاد وسياسة التجهيل الشاملة المنتهجة من فرنسا ، والتـي أدت إلى تناقص عدد المتعلمين بشكل كبير ، والانتشار الواسع النطـاق للأميـة والجهـل ، إلا أن العائلات الجزائرية الكبرى خاصة في الريف ، ظلت تمد المجتمع الجزائري بالإطارات التـي يحتاج إليها خاصة في الميدانين التربوي والديني .

أما عائلة شكيب أرسلان ، وإن كانت من بين العائلات الأرستقراطية المثقفة ليس في لبنان فحسب بل في الشام ككل ، فإنها مع ذلك لم تتمتع بالمكانة العلمية السالفة الذكر التي تمتعت بها عائلة الإبراهيمي ، وقد عوضت هذا النقص بما تحوزه من مداخيل وثروات ، كانت تستثمر جانبا منها في تعليم أبنائها ؛ بجلب أشهر علماء المنطقة إلى مقر إقامتها لكي ينشئوا نشأة علمية وتربوية متينة على أيديهم ، وبتوجيههم للالتحاق بأكبر المؤسسات التعليمية في المشرق العربي ، التي تستقبل أبناء العائلات والأسر الميسورة فقط ، نظرا لارتفاع التكاليف التي تفرضها على طلبتها ولنوعية التعليم الراقي الذي كانت تقدمه لهم . فقد لاحظنا أن أكبر علماء لبنان والشام ومصر ، كانوا رهن إشارة أبناء عائلة أرسلان وخصوصا الأمير شكيب وشقيقه نسيب ، بل لمسنا في المراجع التي اطلعنا عليها ، أن تنافسا كان حاصلا بينهم لنيل تلك الحظوة ، وطبعا السبب في ذلك هو الأجور والعطايا التي كانت تغدقها عليهم ، والمكانة الاجتماعية والسياسية الكبيرة التي كانت تحتلها في البلاد والمنطقة ، وحتى لدى السلاطين العثمانيين .

وعليه فإن التعليم الراقي حتى في لبنان ، لم يكن متاحا لكل أبناء العائلات اللبنانية ، بغض النظر عن مركزها الاجتماعي والسياسي ، بل كان حكرا على الأرستقراطيات المحلية التي انفردت بتلك الميزة عبر عدة أجيال . بينما لاحظنا أن ذلك النوع من التعليم ، كان يقدم في الجزائر بدون مقابل أي مجانا ، حيث تتولى تلك الزعامات العلمية ، جلب أحسن المعلمين والعلماء إلى مراكزها التعليمية ، وتقديم أفضل الأجور والظروف الاجتماعية لهم ، زيادة على التكفل التام بكل مصاريف تمدرس وإقامة التلاميذ والطلبة ، حتى ينهوا تعليمهم ويتخرجون وهم جاهزون ليصبحوا علماء أو معلمين ، يساهمون في كسر طوق الجهل والأمية التي ضربته فرنسا الاستعمارية على الجزائر ، بل أن منهم من كان يتلقى مساعدات مالية في شكل منح من حين لآخر ، يستغلها في شراء ما ينقصه من مستلزمات ، أو يبعث بها إلى أسرته الفقيرة بطبيعة الحال . كل ذلك بفضل الأملاك الوقفية والخيرية المنتشرة في كامل أنحاء البلاد ، والتبرعات المالية والعينية التي كانت تجمع وتوجه إلى تلك المراكز التعليمية ، لكي تخفف عنها أعباء المهمة ، وتضمن استمرارها في النشاط والتطور .

ورغم ذلك ؛ كانت تلك الخدمات التعليمية محدودة ، بالمقارنة مع الآفاق العلمية الرحبة ، التي انفتحت في ذلك العصر ، فكان على أبناء الجزائريين : إما الاكتفاء بالنزر القليل من العلم ، الذي كانوا يحصلون عليه في داخل البلاد وفي كنف العائلات الكبرى ، وإما ترك البلاد وشد الرحال إلى المراكز العلمية الكبرى في المغرب و المشرق العربيين ، أو في العالم الإسلامي . وهو ما قام به الشيخ الإبراهيمي ، الذي لم يستطع أن يقاوم شغفه بالعلم والمعرفة والإصلاح ، الذي دفعه إلى أن يهاجر المشرق العربي سنة 1911م ، مع العلم أن هذا الاختيار لم يكن في متناول الجميع ، كما أشرنا إلى ذلك سابقا . وهو الأمر الذي قام به الأمير شكيب ، الذي هاجر إلى سوريا ولبنان ، بحثا عن بيئة علمية وثقافية أفضل وأرقى ، مع فارق في كون الإبراهيمي اخذ طريقه باتجاه المشرق العربي ، في رحلة أشبه بالمغامرة المحفوفة بالمخاطر لأسباب مادية وأمنية ، في حين أشرفت عائلة شكيب بنفسها على كل مراحل رحلته وتفاصيلها ، وطيلة إقامته التي كانت مريحة جدا بمعية شقيقه " نسيب ". وهو ما لم يكن متوفرا لمحمد البشير ، الذي تدبر أمر نفسه بنفسه .

ومهما يكن فإن هجرة الإبراهيمي وأرسلان خارج بلديهما ، وهما لا يزالان شابان يافعان ، قد مثلت مرحلة خصبة وهامة في حياتهما ؛ إذ فتحت أمامهما أبواب الإطلاع والاستزادة من مختلف العلوم ، والاحتكاك بحياة الشعوب العربية والإسلامية خارج الجزائر ولبنان ، بعيدا عن جو عدم الاستقرار السياسي بالنسبة لشكيب ، ورقابة الإدارة الاستعمارية الفرنسية بالنسبة للشيخ البشير ، فتمكنا من أن يجدا ضالتهما فيما هاجرا إليه .

ولم تكن في الحقيقة تلك الهجرة ، ذات فائدة لهما في التحصيل العلمي والمعرفي فحسب ؛ بل مكنتهما من اكتساب ثقافة سياسية معتبرة ، حصلا عليها من خلال مشاركتهما في العديد من النشاطات السياسية التي شهدها المشرق العربي آنذاك ، والشيء نفسه كان يحدث مع اللبنانيين والجزائريين الذين كانوا يهاجرون إلى المنطقة للغرض ذاته .

ولعل ما يؤكد ايجابيات تلك الهجرة ؛ عودة الإبراهيمي من المشرق العربي ، الذي ذهب إليه طالبا للعلم ، وهو يحمل مشروعا تربويا وإصلاحيا وسياسيا طموحا ، اتفق عليه مع الشيخ " عبد الحميد ابن باديس " . ومن هنا يتضح لنا الدور الكبير الذي لعبه المشرق العربي ، في

الحركة التربوية والإصلاحية والنهضة السياسية ، اللتان عرفتهما الجزائر مع نهاية الحرب الكونية الأولى ، و كان لهما الفضل في مقاومة السياسة الاستعمارية ، التي رمت إلى تجهيل الشعب الجزائري ، وتشويه عقيدته، وتزوير تاريخه وهويته ، حتى يتسنى لفرنسا أن تتحكم في حاضره ومستقبله .

وفي المقابل من ذلك ، فتحت تلك الهجرة أعين الرجلين على الواقع العربي والإسلامي ، المتسم بالتخلف الشديد والانحطاط الفظيع ، وعلى المخططات الاستعمارية التي كانت تحيكها ضده الدول الأوروبية الكبرى ، وسمحت لهما ببلورة فكرهما السياسي في هذه النقطة بالذات ، خاصة بالنسبة لشكيب الذي كانت تشغله القضايا القومية الكبرى بالدرجة الأولى ، لأنه كان يرى أن حماية لبنان والشام لن تكون ذات جدوى ، إذا لم يكن هنالك تكاثف وتآزر في محاربة الاستعمار ودسائسه ، في كل قطر عربي وإسلامي بل وفي غيرهما . في حين كان الإبراهيمي يقدم القضية الوطنية الجزائرية عن القضايا القومية ، مبررا موقفه هذا ، بكون أن ظروف البلاد العربية والإسلامية الأخرى ، ليست هي التي كانت تحياها الجزائر في تلك الأثناء ، حيث كانت فريسة لاستعمار يكاد أن يحولها إلى أرض مسيحية قلبا وقالبا ، وبالتالي فإن أي استمرار في التقاعس أو التردد عن إنقاذها ، يعني بالنسبة إليه ضياعها نهائيا من الخارطة العربية والإسلامية ، وستصبح أثرا بعد عين ، وخير مثال على ذلك ما حصل للأندلس .

اشترك الإبراهيمي والأمير ؛ في نظرتهما " الراديكالية " التي تمقت الاستعمار عامة والفرنسي خاصة ، وتتعدى ذلك إلى محاربته ومقاومته فكريا وثقافيا وسياسيا ، ولعل تميز أرسلان عن الإبراهيمي كونه انضم إلى الجهاد المسلح ضده في ليبيا والبلقان . كما كشفا عن وعي سياسي كبير في التعامل مع محاولاته لتدجينهما ، بمحاولته إقناعهما للعمل لصالحه ، أو على الأقل بتحييد دورهما . رغم الإغراءات الهامة التي كانت ستغدقها فرنسا عليهما ، لو أنهما استجابا لتلك المحاولات ، وانضما إلى قافلة المثقفين والمفكرين والمصلحين والسياسيين ، الذين كانت فرنسا تشتري ذممهم وفي أسوء الحالات صمتهم . وقد أجهروا برفضهما لذلك الاستدراج المسموم صراحة ، ولم يتركا للإدارة أو السلطات الفرنسية أية فرصة لتوريطهما . وهو الذي كان يغضبها ويدفعها إلى الانتقام منهما أو ردعهما .

لقد أدركا بفضل نضجهما السياسي الذي اكتسباه مبكرا ، بفضل احتكاكهما واطلاعهما الواسع ، أن الاستعمار يسعى لبسط سيطرته على كل العالم العربي والإسلامي ، وأن ما كان يطلقه من وعود بتحرير المشرق من تخلف واستبداد العثمانيين ، ما هو إلا تحريض لشعوب المنطقة من اجل مساعدته على تسريع وتيسير تحقيق أهدافه الاستعمارية لا غير . ولذلك ساندا الدولة العثمانية أثناء الحرب العالمية الأولى ضد فرنسا وبريطانيا ، رغم ما جلبه لهما ذلك من هجومات شديدة ولاذعة من الخصوم العرب أنصار الثورة العربية ، وخاصة شكيب أرسلان الذي تعرض فضلا عن ذلك ، إلى مضايقات كبيرة بل وتهديدات لحياته ، لكنه بقي رغم كل ذلك صامدا متمسكا بمواقفه ، ولما انتهت الحرب ذكر الجميع بها ، مؤكدا صحة تنبآته باحتلال المنطقة ، وقد اعترف واعتذر له بذلك كبار قادة الثورة العربية وعلى رأسهم الأمير" فيصل " .

أبان الأمير شكيب ؛ عن قدرات كبيرة في العمل السياسي والدبلوماسي ، حيث قضى عشرات السنين في التنقل بين العواصم الأوروبية وكبريات المدن في أمريكا وآسيا وإفريقيا ، يجري الاتصالات والمفاوضات ، ويعقد الندوات السياسية ويؤسس الجمعيات والأندية ، ويحاضر في الملتقيات ، حتى أصبح رقما صعبا في معادلة مقاومة الاستعمار ، وشخصية مفتاحية لا ينبغي تجاوزها أو تجاهلها حتى بالنسبة للدول الاستعمارية الكبرى ؛ فقد دفع نشاطه المعادي للحركة الصهيونية ، إلى حد سعي بريطانيا لتنظيم لقاء معه في أي مكان يختاره هو بنفسه مع الزعيم الصهيوني " حاييم وايزمان " ، لكنه رفض هذا المسعى الإنجليزي ، لأنه أدرك مرامي بريطانيا منه ، والمتمثلة في استدراجه والتأثير على مواقفه المتصلبة من المشاريع الصهيونية في فلسطين .

أما الإبراهيمي ورغم تكوينه اللغوي والأدبي والديني ، وميوله الإصلاحية ، إلا أنه كشف هو الآخر عن قدرات لا بأس بها في المجالين السياسي والدبلوماسي ، حيث أبهر كل من التقى به من ملوك وأمراء ورؤساء ، وشخصيات سياسية وفكرية ذات مكانة وصيت عالميين ، مع فارق بينه وبين أرسلان ، كونه كان أكثر اندفاعا في التعبير عن مواقفه وآرائه وفي طلب ما يرغب به ؛ فقد أمر شيخ الأزهر في القاهرة أن يعلن الجهاد من على منبر الجامع الشهير ، وحشد التعبئة والدعم لصالح الثورة التحريرية أثناء اندلاعها . والأمر ذاته قام به مع الملك

السعودي " ابن سعود " ، الذي طلب منه أن يخصص مصنعا من مصانع الأسلحة في المملكة ، لدعم الثورة الجزائرية مباشرة بالأسلحة وقد تحقق طلبه . هذا الأسلوب كان كثيرا ما يحرج بــه من يقصدهم ، فيستجيبون لطلباته على نحو سريع . ولذلك كان خصومه يتحاشونه ويحذرون من مواجهته رأسا في الجزائر وخارجها ، إنقاذا لأنفسهم من لسانه السليط وتقريظه الجارح لهم .

لقد كشفت ردود الفعل على وفاتهما ؛ المكانة الكبيرة التي استطاعا أن يحصلا عليها في الأوساط السياسية والفكرية والإصلاحية والعلمية والأدبية والشعبية ، حيث اعتبــر الجميــع أن وفاتهما مثلت خسارة كبيرة للعالمين العربي والإسلامي ، وحتى بالنسبة للشعوب الأخرى التــي كانت اشتركت مع العرب والمسلمين في تعرضها إلى الاستعمار ، وكثيرا ما دافع الإبراهيمــي وأرسلان عنها بسبب وحدة الظروف من ناحية ، ولمواقفهما الايجابية من القضــايا الإنســانية العادلة ، ودعوتهما إلى الحوار والتعاون بين تلك الشعوب المضــطهدة مــن ناحيــة أخــرى ، فالاستعمار في تقديرهما وباء ، لا يهمه إلا الاستغلال والسيطرة والنفوذ .

ومن خلال اطلاعنا ، على كل ما خلفه الرجلان من إنتاج فكري وعلمي ، نصــل إلــى أنهما كانا يملكان ثقافة موسوعية شملت شتى حقول العلم والمعرفة ، اعترف لهما بها كل مــن احتك أو اتصل بهما أو قرأ لهما ، وعززتها الرحلات والأسفار التي قامــا بهــا . وبتمحــيص ودراسة لذلكم التراث القيم ، يتبين لنا أن الإبراهيمي كان بارعا ومجددا في اللغة العربية وآدابها ، بل أنه تفوق على كل معاصريه الذين سلموا له إمارة البيان العربي ، بل أن تبحره في هــذين الحقلين جعله يصحح أخطاء كبار اللغويين القدماء والمحدثين ، كما أظهر إلماما كبيرا بــالعلوم الدينية وخاصة علم الفقه ، وهو ما سمح له بأن يقوم فقهاء الإسلام خلال كل العصور التي مــر بها التاريخ الإسلامي . ثقافة دينية وظفها في محاربة الطرق الصوفية المنحرفة وشيوخها فــي الجزائر ، الذين وجدوا أنفسهم عاجزين عن مجاراته بالحجة والدليل ، فلجئوا إلى النيل منه عن طريق تشويه صورته ، وبالشتائم والطعن في عرضه ، وبتحريض الإدارة الاستعمارية ضده .

أما آثار الأمير شكيب ، التي توزعت تقريبا على كل المجالات ، فقد أظهرت لنا أنه كان على قدر عال من الإلمام بعلوم التاريخ والاجتماع والسياسة والجغرافية والآثــار ، والأنســاب وطبائع الناس والأقوام ...الخ. ومنه فإنها تمثل بحق كنوزا فكرية وعلمية ، لا غنى عنها في

العديد من المجالات والقضايا والاختصاصات ، أثرت المكتبة العربية والإسلامية . كتبها بأسلوب سلس من نوع السهل الممتنع ، على عكس أسلوب الإبراهيمي الذي يصعب حتى على كبار أهل الاختصاص في اللغة والأدب ، حيث لا زال محل اهتمام الباحثين والدارسين في الجامعات ومراكز البحث في الجزائر والبلدان العربية والإسلامية .

وبالنظر إلى المضامين الفكرية والسياسية لذلكم التراث ، نجد أنهما تطرقا إلى كل القضايا التي تهم المجتمعات العربية والإسلامية آنذاك ، وعلى رأسها : التخلف وأسبابه ، النهضة وشروطها ، الجامعة الإسلامية ، الوحدة العربية ، التي كانت محور الدراسة في أطروحتنا هاته.

تمهيد :

كانت إشكالية التخلف العربي والإسلامي ، من الإشكالات الأساسية التي أثارت وشغلت أذهان وأفكار جيل من المفكرين والمصلحين ، الذين عاشوا بين النصف الثاني من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين ، فخلال هاته الفترة الزمنية ، كانوا شهودا بأنفسهم على الانقلابات التكنولوجية المذهلة ، والتحولات الاجتماعية والسياسية والحضارية التي عرفتها أوربا خصوصا والعالم عموما ، أين وجدوا أنفسهم مجبرين على خوض تجربة النقد الذاتي لمجتمعاتهم المتخلفة ، في عالم يحفل باستمرار بالمتغيرات . فانصبت جهودهم حول تقييم الواقع العربي الإسلامي وإمكانياته ، في شتى المجالات مع المتطلبات التي فرضها العصر الحديث ، وقد أفرزت تلك الجهود تشريحا لنواقص وعيوب النظام الاجتماعي و الثقافي و الاقتصادي السائد في البلاد العربية والإسلامية ، وخاصة في ميادين التربية والبحث العلمي والتكنولوجي والوسائل الحديثة ، و في كل القطاعات ذات العلاقة بالنشاط الاقتصادي ([1]) . وقناعة بضرورة معالجة كل ذلك ، وفقا للخصوصية الثقافية والدينية والحضارية ، التي لا تتوافق مع نظيراتها لدى الأمم الأوروبية .

اتفقت تلك الأفكار والآراء ، التي تناولت قضية التخلف العربي الإسلامي ، في صوره الذهنية والذوقية والسلوكية والسياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية ، على فظاعته وجسامته ، وعلى عمق الفجوة الحضارية بين العرب والمسلمين من جهة ، وبينهم و بين الأمم الأوروبية الغربية من جهة ثانية ([2]) . و أنه ليس وليد فترة زمنية قريبة ، و إنما نتيجة منطقية لتراكمات تمتد إلى قرون خلت ، يمكن الوقوف عليها ، باستقراء أحداث التاريخ (السياسية و العسكرية و الاجتماعية) و تقلباته . فضلا عن كونه من العمق و الشمول الكبيرين ، بحيث يتطلب الأمر استقصاء الأسباب الحقيقية ، حتى يصبح في الإمكان الوصول إلى الحلول الناجعة

([1])- ينظر أنور أبو طه و آخرون : خطاب التجديد الإسلامي الأزمنة و الأسئلة ، ط 1 ، دار الفكر ، دمشق : 2004م ، ص 169 و ما بعدها .

([2])- كريم جبر الحسن : عملية النهوض الحضاري ، ط 1 ، دار الهادي للطباعة و النشر و التوزيع ، بيروت : 1993م .

للخروج من تلك الحالة التي وصفوها بالمرض المزمن ([1]) . و خلصت في تحليلاتها إلا أن أسباب التخلف عدة ؛ صنفتها إلى أسباب : دينية و ثقافية و نفسية و أخلاقية و فكرية و سياسية قدمت بعضها على الآخر بحسب البيئتين الاجتماعية و الثقافية لأصحابها .

و بغض النظر ، عن إسهامات أولئك المفكرين و المصلحين ، فإنها قد تميزت في غالبيتها بالجرأة في الطرح ، و شكلت أساسا صلبا لفهم قضية تأخر الشعوب العربية و الإسلامية ، التي تحولت مع مرور الزمن إلى موضوع للكثير من البحوث المستفيضة و الدراسات الموسعة ، مستفيدة من بعض الكتابات الغربية في هذا المجال ، التي قدمت : ((دعما كبيرا للموقف النقدي و التساؤلي ، الذي يبديه مثقفو العالم – العربي – الإسلامي آنذاك إزاء قضية انحطاط الحضارة – العربية – الإسلامية ، و في الوقت نفسه إزاء مسألة توسع و تعاظم القوة الأوروبية في جميع المجالات)) ([2]) .

و عليه فسنتناول في هذا الفصل ؛ الذي تضمن ثلاثة مباحث : أسباب تخلف العرب و المسلمين في آثار الشيخ البشير الإبراهيمي و الامير شكيب ارسلان ، حيث أنه و بعد إطلاعنا على أثارهما التي تطرقت إلى هاته القضية ، توصلنا إلى أنهما قد أولياها اهتماما خاصا طيلة مسارهما الفكري و النضالي ، على اعتبار أنها القضية الجوهرية ، التي وجدت النخبة المثقفة العربية و الإسلامية ، نفسها في مواجهتها . و لكنهما اختلفا اختلافا نسبيا في بعض الرؤى و التصورات ، رغم أنهما ينتميان إلى نفس الجيل و المدرسة الفكرية ، بفعل تباين البيئتين الاجتماعية و الثقافية اللتان نشآ فيها ، و الأولويات التي وضعها كل واحد لنفسه .

و لتسليط الضوء على ذلك خصصنا هذا الفصل ، تطرقنا في المبحث الأول إلى مفهوم التخلف لغة و اصطلاحا ، ثم إلى مظاهره التي مست الجوانب العلمية و الدينية و السياسية و الثقافية و الاجتماعية . أما المبحثان الثاني و الثالث ، فاستعرضنا فيهما أسباب تخلف العرب و المسلمين ، في آثار البشير الإبراهيمي و شكيب ارسلان ، من خلال ما

([1])- محمد دراجي : جمال الدين الأفغاني : الأسس الفكرية لمشروعه الحضاري ، ط 1 ، دار غبريني للطباعة و النشر ، الجزائر : 2005 ، ص ص 146-147 .

([2])- أنور أبو طه و آخرون ، المرجع السابق ، ص 172 .

استطعنا جمعه من مادة في هذا الجانب من هذه الدراسة ، و من المؤلفات و الدراســات التــي كتبت حولهما ، و اعتنت بتناولهما لقضية التخلف . و قد ختمنا هذا الفصل ، بالمقارنة بين أفكار و أراء الرجلين ، حتى نتمكن من الوقوف على أوجه التشابه و الاختلاف في ذلك .

– **المبحث الأول** : **التخلف مفهومه و مظاهره في البلدان العربية و الإسلامية** :

01 – مفهوم التخلف لغة :

التخلف في اللغة العربية من الفعل خلف يخلف تخليفا ؛ بمعنى : أخره – جعله خلفه – جعله خليفته ([1]) . و فلان تخلف عن قومه ؛ أي تأخر عنهم و الخلف عكس قدام ([2]) . و منه فإن التخلف هو التأخر . و في اللغة الفرنسية التخلف يعني : (Sous-développement) أو (Retard) . و المتخلف : (Sous-développé) أو(Ce lui qui est en retard) ([3]) . و البلد المتخلف ؛ هو الذي يكون المستوى المعيشي لسكانه ضعيفا ([4]) .

02 – التخلف إصطلاحا :

أما اصطلاحا ؛ فثمة صعوبة في تحديد مفهومه بدقة ؛ حيث لم يحدث الإجماع أو الاتفاق حول معنى موحد له ؛ فهناك من عرف الدول المتخلفة بكونها تلك الدول التي تنتشر فيها ظاهرة الفقر و الفقراء ، و لا تمتلك صناعة قوية و موارد كافية من الطاقة المحركة و الكهرباء ، و تعاني نقصا في المستشفيات و المدارس و المؤسسات الثقافية ، و ترتفع الأمية بين سكانها . و هناك من ركز في تعريفه على متوسط الدخل و مستوى المعيشة ، حيث ينخفضان في الدول المتخلفة ، بينما – يسجلان ارتفاعا كبيرا لدى الدول المتقدمة – . و منها من استند على : ((المؤشرات الثقافية و الاجتماعية التي ينتج تواجدها في مجتمع ما وضعية يطلق عليها التخلف)) .هذا و يمكن إيعاز ذلك الاختلاف في تفسير ظاهرة التخلف ، إلى خلفيات عنصرية " عرقية " و جغرافية و اقتصادية .

فأصحاب الخلفية العنصرية ؛ يجعلون من العرق أساسا مهما يتحدد على ضوئه – مسبقا – الوضع الذي سيكون عليه المجتمع متقدم أو متخلف . فيفترضون وجود شعوب راقية ، تمتلك القدرة و الأهلية على العطاء الحضاري و التقدم ، و توجد في المقابل منها شعوب

([1])– علي بن هادية و آخرون : القاموس الجديد للطلاب ، تقديم محمود المسعدي ، ط 7 ، م و ك ، الجزائر : 1991م .

([2])– المنجد في اللغة و الأعلام .

([3])– دانيال ريغ : السبيل ، معجم عربي فرنسي – فرنسي عربي ، مكتبة لاروس ، باريس : 1983م .

([4])– Nouveau Larousse élémentaire , édition 1974 .

أدنى منها محكوم عليها بالتخلف ، لأنه صفة ملازمة لها لا يمكنها أن تتخلص منها – مهما حاولت – . و قد ذهب منظرو هذا الاتجاه إلى الإقرار بأن : ((... للغربي – الإنسان الغربي – عقل صناعي خلاق للحضارة ، بينما الشرقي ذو عقلي عاطفي عاجز عن الفكر و النظام)) ([1]) . و العلة في اعتقادهم ، أن الجماعات البشرية المهيأة بطبعها للتقدم ، ينفرد معظم أفرادها بخصائص جسمانية و خلقية معا ، يتوارثونها – عن أسلافهم – ، وهي التي تمكنها من صنع الحضارة . وفي هذا السياق ، يندرج القول : بتفوق الجنس الأبيض بفروعه الثلاثة (النوردي ، الإيبيري ، الألبيني) ، والادعاء بامتياز الجنس الجرماني والجنس الإسرائيلي . على خلاف الجنس الأسود ، الذي لم يقدم حسبهم شيئا للحضارة ، رغم أن هناك شعوبا تنتمي إلى الجنس الأبيض ، لم تكن لها أي مساهمة في الحضارة ([2]) .

أما الخلفية الثانية المحددة لدرجة التقدم والتخلف ، فهي الخلفية الجغرافية التي تشمل المناخ والبيئة ، ومفادها أن المجتمعات المتخلفة تعيش في المناطق الجغرافية الجنوبية والاستوائية ، ذات البيئة المناخية الحارة ، التي تبث فيهم الكسل والخمول والجمود . بينما تتواجد المجتمعات المتقدمة في الأقاليم الجغرافية المعتدلة ، المساعدة على النشاط والإبداع ([3]) . لكن هذه النظرية ، تصطدم بوجود حضارات سابقة ، نشأت وازدهرت في بيئات جغرافية غير معتدلة ، كالحضارة المصرية القديمة والسومرية وحضارة السند ([4]) .

أما الخلفية الاقتصادية ، فتتخذ من البعد الاقتصادي كعنصر أساسي في معادلة التخلف ، انطلاقا من مسلمة تقوم على أن تخلف أي مجتمع ؛ مرده بنيته الاقتصادية المتخلفة ، بالاعتماد على جملة من المقاييس و المؤشرات : اقتصادية (الدخل الفردي ، حجم الاستثمارات ، حجم التجارة الخارجية) ، اجتماعية (الوضع الديموغرافي ، الصحة ، التعليم ، البطالة ، الاستقرار السياسي) ، هيكلية (الارتباط بين مختلف الفروع الإنتاجية ، تركيز البنية الإنتاجية ، هيمنة

([1])– ينظر الطاهر سعود : التخلف و التنمية في فكر مالك بن نبي ، ط 1 ، دار الهادي للطباعة و النشر و التوزيع ، بيروت : 2006 ، ص 32 ، 33 ، 34 .

([2])– آمنة تشيكو : مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي و آرنولد توينبي ، د ط ، م و ك ، الجزائر : 1989م ، ص ص 31–32 .

([3])– ينظر الطاهر سعود ، المرجع نفسه ، ص ص 34–35 .

([4])– ينظر آمنة تشيكو ، المرجع نفسه ، ص 32 و ما بعدها .

أحد القطاعات على الآخر ...) . و مما يعاب على هذه النظرية ، مغالاتها في الأخذ بمتوسط الدخل الفردي ، كمعيار أو مؤشر للحكم على المجتمعات بالتقدم أو التخلف ([1]) .

و في الجهة المقابلة نجد مالك بن نبي (*) ، الذي يعد أكثر المفكرين المعاصرين انشغالا بظاهرة التخلف و أسابها ، يعطي عدة تحديدات و تعاريف للتخلف منها أنه : ((... الحالة الإجتماعية التي يكون عليها إنسان ما قبل الحضارة)) ([2]) . و أنه : ((مظهر من مظاهر مشكلة الإنسان الذي لم يتعلم طريقة إستعمال وسائله الأولية التي هي التراب و الزمن ، بصورة فعالة ...)) ([3]) ، و أنه : ((هو نقص في الوسائل على الصعيد الإقتصادي ، ينوء حمله الإقتصادي بجانب سلبي جديد من الوجهة النفسية ، هو سوء الإنتفاع بالوسائل)) ([4]) ، و أن المجتمع المتخلف لا يعني بالضرورة الذي تنقصه الوسائل المادية (الأشياء) ، و إنما الذي يفتقر إلى الأفكار و :((يتجلى ذلك بصفة خاصة في طريقة إستخدامه للوسائل المتوفرة لديه بقدر متفاوتة من الفعالية و في عجزه عن إيجاد غيرها)) ([5]) ، أما أسباب التخلف فقد أرجعها

([1])- الطاهر سعود ، المرجع السابق ، ص ص 36-37 .

(*) - مالك إبن نبي (1905م – 1973م) : مفكر جزائري من مواليد مدينة قسنطينة التي إستقرت بها عائلته القادمة من مدينة تبسة على الحدود الجزائرية التونسية ، و فيها حصل على الشهادة الثانوية ، سافر بعدها إلى باريس ، أين إلتحق بكلية الهندسة التي تخرج منها بدبلوم مهندس كهربائي . لكن الظروف الإستعمارية التي كانت تحياها الجزائر ، جعلته يتخلى عن تخصصه ، و يكرس جل جهوده لقضايا التحرر و النهضة ، مستفيدا من ثقافته التقنية و الدينية العميقتين ، و من إطلاعه و إلمامه بالأفكار و الفلسفات الغربية ، و إحتكاكه بالحياة الأوروبية . و قد إستطاع أن يحتل مكانة مميزة في الأوساط الفكرية المعاصرة ، بفضل إسهاماته الجادة ، التي تناولت بالنقاش و التحليل العلمي الدقيق ، الكثير من القضايا و المشكلات الحضارية و السياسية و الإقتصادية و الإجتماعية ، و التي تضمنتها مؤلفاته العديدة ، التي جعلها تحت عنوان " مشكلات الحضارة " . ينظر آمنة تشيكو ، مرجع سابق ، ص ص 66-67 . و كذلك غازي التوبة : الفكر الإسلامي المعاصر دراسة و تقويم ، ط 3 ، دار القلم ، بيروت : 1977م ، ص 55 و ما بعدها .

([2])- مالك بن نبي : تأملات ، ط 5 ، دار الفكر ، الجزائر : 1991م ، ص 61 .

([3])- مالك بن نبي : القضايا الكبرى ، ط 1 ، دار الفكر ، الجزائر : 1991م ، ص 70 .

([4])- مالك بن نبي : المسلم في عالم الاقتصاد ، د ط ، دار الشروق ، بيروت : 1988م ، ص 46

([5])- مالك بن نبي : مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ، ترجمة بسام بركة و أحمد شعبو ، إشراف و تقديم عمر مسقاوي ، د ط ، دار الفكر ، الجزائر : 1992 ، ص 36 .

إلى أسباب داخلية (القابلية للاستعمار) و خارجية (الاستعمار) ، و هي إن كان يخص بها الشعوب العربية و الإسلامية ، فإنها تنسحب على كل الشعوب في أي زمان و مكان .

و رغم صعوبة تحديد مفهوم دقيق للتخلف ، إلا أنه و بناءا على ما سبق ، نستطيع القول، أنه ظاهرة بشرية طبيعية تخص كل الشعوب دون استثناء للعرق أو الدين أو اللغة أو المذهب أو الموقع الجغرافي ، تتحكم فيها عوامل تاريخية و ثقافية و نفسية بالدرجة الأولى . أما العوامل الاقتصادية و البيئية التي سبقت الإشارة إليها ، فهي برأي المشتغلين بهذه القضية ، لا يمكن الأخذ بها كمقياس أو مؤشر للتخلف و التقدم ، لأنه في إمكان الإنسان التكيف معها ، مثل ما هو حاصل لدى الكثير من الدول في عالمنا المعاصر ، حيث لم يمنعها فقرها في مجال المقومات الطبيعية من أن تصبح قوة علمية و اقتصادية كبيرة ، و تحتل صدارة الدول العظمى كاليابان مثلا. و برأينا أن مفهوم " مالك بن نبي " هو الأكثر إحاطة بقضية التخلف ، دون أن نغفل أهمية ما طرحته النظريات الأخرى . و هو ما يقودنا إلى الاستنتاج بأن ، التخلف ظاهرة متعددة الأبعاد تشمل السياسة و الثقافة و الاقتصاد و غيرها ([1]) .

03 – مظاهر التخلف في البلاد العربية و الإسلامية :

ظل العرب و المسلمون لعدة قرون ، يعيشون خارج العصر ، يتغنون بأمجادهم العلمية و الحضارية ، إبان العصر الذهبي للحضارة العربية الإسلامية ، متجنبين التفكير في الوسائل التي تمكنهم ، من استعادة ذلك المجد المندثر ، متجاهلين الانقلاب الهائل ، الذي أحدثته الحضارة الغربية الحالية ، في كل الميادين وعلى كافة الأصعدة . في حين أن التغيير لا يعذر المتخلفين عن تجديد أنفسهم ، لمواكبة التقدم ([2]) .

فقد أدت علوم الكون والطبيعة ، إلى نقلة مذهلة في حياة الأمم المتقدمة ، فانتقلت من عصر البخار إلى عصر الذرة والفضاء ، وظل العرب والمسلمون متمسكون بأفكار وسياسات عقيمة مخالفة لسنن الحياة ([3]) . أدت إلى جمود العلوم والصنائع وأنظمة الحكم والحياة الدينية،

([1])– كريم جبر الحسن : عملية النهوض الحضاري ، ط 1 ، دار الهادي للطباعة و النشر و التوزيع ، بيروت : 1993م ، ص 249 .

([2])– TAHAR GAID : Réflexion sur la pensée islamique , office des publications universitaires , Alger , 1999 .

([3])– محمد الغزالي : سر تأخر العرب والمسلمين ، د ط ، دار البعث ، الجزائر : 1985م ، ص 121.

فالعلم يقتصر على كتب دينية تقرأ قراءات شكلية ، أو كتب في النحو والصرف ، تعرب جملا أو تشرح متونا (*) وحواشي (**) .أما العلوم التطبيقية ، فلا تزيد على حساب بسيط ، يفيد أصحابه في حساب المواريث ، وبعض مما خلفه الأقدمون في علم الفلك ، الذي يستدل به في أوقات الصلاة .

أما في المجال السياسي ، فقد بلغ الفساد والاستبداد في البلاد العربية والإسلامية مبلغا كبيرا ؛ نزاع وخصومات بين الحكام والأمراء ، الذين حولوا الأوطان إلى أحزاب وطوائف متصارعة ، تتربص الدوائر بعضها ببعض ، يحتكرون المناصب لأنفسهم ، ويمنعونها عن غيرهم ما أمكنهم ذلك ، يستغلونها في جمع الثروات والأموال على حساب شعوبهم . فأضحت أسماء الحكام والأمراء والولاة والجند ، لا تعني لها إلا الفزع والرعب ، مقرونين بالشعور بالظلم والتعسف ([1]) . فكانت النتيجة الحتمية لكل ذلك ، وقوع أغلب البلدان العربية والإسلامية تحت سيطرة الاستعمار الأوروبي الغربي الحديث ، في بداية منتصف القرن 19م ، فاحتلت بريطانيا الهند سنة 1857م عن طريق شركة الهند الشرقية ، و مدينة "عدن " ، التي جعلت منها منطقة عبور وارتكاز في المنطقة العربية . أما فرنسا ، فسبقتها إلى احتلال الجزائر عام 1830م ، واتخذتها قاعدة لبسط نفوذها على كامل المغرب العربي (تونس ، المغرب موريتانيا) . والأمر ذاته قامت به هولندا في أندونيسيا ، واسبانيا في شمال المغرب ، وايطاليا في ليبيا ...الخ . إلى أن تمكن الاستعمار الغربي من إحكام سيطرته التامة على المسلمين في كل مكان ؛ في وسط آسيا وشرقها ، وفي إفريقيا والشرق الأدنى ، وأضحى يطوف العالم الإسلامي من الشرق إلى الغرب . أما المجتمعات الإسلامية التي سلمت من الاحتلال ، فقد امتدت إليها يده

(*)- المتون : مفردها المتن ، متن الشيء ما ظهر منه ، متن الأرض ما ارتفع منها واستوى ، متن الطريق جادتها أو وسطها ، متن الكتاب خلاف الشرح والحواشي ، متن اللغة أصولها ومفرداتها ، متنا الظهر ما يكتنف الصلب عن يمين وشمال من لحم وعصب ، يقال سار متن النهار أي كله ، المنجد في اللغة والعلام .

(**)- الحواشي : مفردها الحاشية ، وهي الجانب من الثوب أو الكتاب وغيرها ، ما علق على حاشية الكتاب من الشروح والزيادات ، أهل الرجل وخاصته ، يقال رجل رقيق الحواشي أي لطيف الصحبة ، وكلام رقيق الحواشي أي لين ، وعيش رقيق الحواشي أي ناعم . المنجد في اللغة والأعلام .

([1])- محمد الغزالي ، المرجع السابق ، ص 121 .

عن طريق الدسائس والمؤامرات وإثارة المشاكل فيها ([1]) . وقد انتهى المطاف به إلى القضـــاء على أكبر دولة إسلامية في التاريخ الحديث وهي الإمبراطورية العثمانية ، و التي تحولت إلـــى مجرد دولة صغيرة المساحة قليلة السكان ضعيفة القوة ، بســبب إفــلاس أنظمتهــا السياســية والعسكرية والاقتصادية والثقافية ، وعجزها عن مواجهة الحضارة الغربية المتطــورة (رجــل أوربا المريض) ، فوجدت نفسها عاجزة ماديا عــن مقاومــة الاســتعمار الغربــي وإحبــاط خططه ([2]) .

أما الدين ، ففقد روحه ، وأصبح مجرد مظاهر شكلية على يد العلماء والأئمة والمتصوفة المنحرفين ، دون أن يكون لها تأثير على أرواح الناس وعقولهم . كما انتشرت الخرافات والبدع والأوهام ، وتحول التصوف إلى ألعاب بهلوانية ، وسادت عادات التمســح بــالقبور والتوســل بالأولياء ، طلبا للنجاح في العمل والسعادة في الدنيا ، وللنصرة في المعارك والحــروب ([3]) . وتعرضت الكثير من المفاهيم للتشويه ، وساد التأويل الفاسد ، وراجت الشكوك وانتشرت بــين أبناء المسلمين ، نتيجة لتعرضها لتأثير التيارات الفكرية الوافدة من منطق وفلسفة وفكر . وهيمن الاعتقاد الخاطئ لمفهوم القضاء والقدر ، الذي يعد عقيدة من عقائد الإسلام ، وركن من أركــان الإيمان ، لكن الانحراف في فهمه لدى الغالبية من المسلمين ، أدى إلى إفساد الفكــر الإســلامي وانحطاط الحضارة والمجتمع ، وفتح الباب واسعا أمام المستشرقين للطعن في عقيــدة القضــاء والقدر ، وإيعاز التأثير الحضاري الحاصل لدى العرب والمسلمين إليه ، لأنه في نظرهم مصدر لإضعاف الهمم والقوى وإقعادهم عن طلب الرقي والتقدم . رغم أنه كان العامل الحاســم فــي تثبيت المسلمين الأوائل في المعارك المصيرية التي خاضوها ، وفي انتصارهم على أمم عظيمة تتفوق عليهم في العدة والعدد ، وفي صدهم لهجومات المغول والحملات الصليبية .

ولقد ساهمت الآراء السفسطائية ، التي تنكر مظاهر الوجود وتعدها خيالات للنــاظر ولا تثبتها الحقائق ، والأفكار الباطنية التي تتعمد إثارة الشك في القلوب حتى ينفك عنها عقد الإيمان،

([1])- محمد دراجي ، ص ص 108 – 109 .

([2])- كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ، ط 10 ،دار العلم للملايين ، بيروت : 1984م، ص 47 .

([3])- ينظر المرجع نفسه ، ص 121 .

في إضعاف الجهة الداخلية للأمة الإسلامية ، فضعفت العقيدة الصحيحة في القلوب ، وفسدت الأخلاق وفي مقابل انتشار الأخلاق السيئة فتغيرت لديهم الشجاعة بالجبن ، والصلابة بالوهن ، والجرأة بالخوف والصدق بالكذب ، والأمانة بالخيانة ، والحرص على المصلحة العامة بالمصلحة الشخصية ...الخ . ولذلك اعتبرت تلك الآراء والأفكار المنحرفة ، بأهم أسباب انهيار الحضارة الإسلامية وعقم الفكر الإسلامي ، بالإضافة إلى التعصب الذي يعني : ((إساءة استعمال الدين والخروج عن سنة الأنبياء مؤسسي الأديان)) ([1]) .

أما الحالة الاجتماعية والثقافية، فقد اتسمت بالسوء والتأزم نتيجة الطغيان والاستبداد ، بشقيه المحلي (الأمراء والحكام) والأجنبي (الاستعمار) ، حيث امتد التخلف بصورة فظيعة إلى الذهنيات والأفكار والسلوكيات والاستجابات المضادة للتقدم الحضاري ، بمعنى أن التخلف لم يقتصر على العجز عن مجاراة مظاهر التقدم العلمي والحضاري الحاصلة في العالم المتقدم آنذاك ، بل تعدى إلى مقاومة التقدم في حد ذاته وإبداء الشكوك حوله ([2]) . وخاصة لدى الشعوب العثمانية التي تفشى فيها الجهل والتخلف والفقر ، و أدركت متأخرة اتساع الهوة بينها وبين العالم المتقدم ، وقد تحول ذلك الشعور إلى حركة قومية ، ترفع شعار الإصلاح واللامركزية في الحكم ، مما يسمح لها بفرص أكثر ، لإدارة شؤونهم وشغل المناصب الحكومية، التي استحوذ عليها الأتراك طيلة أربعة قرون ([3]) . أما آثار الاستعمار في هذا الجانب فهي كبيرة جدا ، لأنه لم يكن استعمارا عسكريا واقتصاديا فحسب ، بل اجتماعيا وثقافيا أيضا ، فبعد أن استولى على الأرض ، تطلع إلى العقول والأفكار، فعمل على أن تغمر موجة الحياة المادية المجتمعات الإسلامية ، مع حرص شديد على إبعاد عناصر الرقي من العلوم والمعارف والصناعات والنظم النافعة ، وقد إستخدم في غزوه الاجتماعي هذا ؛ المدارس العلمية الثقافية ، التي ضمت فقط أقلية المجتمعات من أبناء الطبقات العليا ، و : ((علمتهم كيف ينتقصون أنفسهم ويحتقرون دينهم ووطنهم وينسلخون من تقاليدهم وعقائدهم ، ويقدسون كل ما

([1])- ينظر محمد دراجي ، المرجع السابق ، ص 148 وما بعدها .

([2])- ينظر كريم جبر الحسن ، المرجع السابق ، ص ص246 – 247 .

([3])- جلال يحيى : العالم العربي الحديث و المعاصر (الفترة الواقعة ما بين الحربين العالميتين) ، ج 2 ، المكتب الجامعي الحديث ، الإسكندرية : 1998م ، ص ص 286 – 287 .

هو غربي ، ويؤمنون بأن ما يصدر عن الأوروبيين ، وحده هو المثل الأعلى في هـذه الحياة .نجح هذا الغزو الاجتماعي المنظم أعظم النجاح ، فهو غزو محبب إلـى النفـوس ، لاصـق بالقلوب ، طويل العمر ، قوي الأثر ، وهو لهذا أخطر من الغزو السياسي والعسكري بأضعاف الأضعاف)) ([1]) .

وتكمن تلك الخطورة ، في كون أن تأثيراته امتدت إلى ما بعـد خـروج الاسـتعمار، وحصول البلدان العربية والإسلامية على استقلالها وسيادتها ، وتظهر في " اللافعالية " ، التـي تعني فقدان المجتمع للدوافع والمسوغات والمبررات ، التي تدفعه إلى العمل والإبداع والعطـاء الحضاري ، فتصبح : ((قيمة الفعالية شيئا ضامرا لا معنى له لأن الدوافع التي كانـت تحـرك الجهد الإنساني ، قد فقدت سلطتها على العقل والضمير واليد ، ولأن القنوات التي كانت تضمن حركيتها قد تجمدت ...)) ، فيفقد المجتمع نظامه وتوازنه ، ويتحول إلى مجتمع مستورد لأفكار غيره ، التي تكون في العادة سلبية أو سيئة ، وفقا لقاعدة :((المغلوب دائما مولع بتقاليد الغالب)) وهو ما يعبر عنه بالاستلاب الحضاري ، الذي يواجه عادة بمن يتمسك بالموروث القديم حتـى وإن كان قد عفا عنه الزمن ([2]) ، وهو ما شهدته المجتمعات العربية والإسـلامية فـي عصـر الانحطاط والتخلف .

وعليه فإن أكبر دمار استطاع الغرب الاستعماري ، تحقيقه في البلاد العربية والإسلامية هو الدمار الثقافي ، الذي يفوق الدمار الاقتصادي والعسكري بصورة أكبر ، فآثاره ماثلة للعيان في كل تلك البلدان ، ومن مظاهره نجاحه في صياغة فئة معتبرة مـن المثقفـين والمتعلمـين ، أصبحت بعد خروجه من بلدانها ، تدافع بحماسة واستماتة عن العديد من القيم والمفاهيم التي كان يسعى إلى فرضها بالقوة والقهر ، ولم يتسنى له تحقيقها . فيكون بذلك الاستعمار الثقافي ، قـد أنجز ما لم ينجزه الاستعمار السياسي والعسكري ([3]) .

([1])- محمد عمارة : الطريق إلى اليقظة الإسلامية ، ط1 ، دار الشروق ، القاهرة : 1990م ، ص 227 ومـا بعدها .

([2])- ينظر طاهر سعود ، المرجع السابق ، ص ص 168 – 169 .

([3])- كريم جبر الحسن ، المرجع السابق ، ص 153 نقلا عن عـون الشـريف قاسـم : الإسـلام والثـورة الحضارية ، دار القلم ، بيروت : 1980م ، ص 14 .

وقد آثرنا الإشارة إلى هذه المظاهر بإيجاز ، لأنها سترد في المبحثين المواليين بكثير من التفصيل ، إذ أبرزها كل من الشيخ البشير الإبراهيمي والأمير شكيب أرسلان ، في تطرقهما إلى الأسباب التي تقف وراء تخلف الشعوب العربية والإسلامية منذ عدة قرون ، في مقابل تقدم الأمم الغربية والأمة اليابانية .

المبحث الثاني : أسباب تخلف العرب و المسلمين في آثار الإبراهيمي :

وصف الشيخ البشير الإبراهيمي ، العرب و المسلمين في عصره ، بفاقدي الشعور و الإحساس لما هم فيه من انحطاط و تقهقر ، يقفون موقف المتفرج ، لا يعرفون ماذا عليهم أن يفعلوا ، كأنهم ليس من أهل الكوكب ، أو غرباء عن هذا العالم ، حالهم كحال أهل الكهف و الرقيم (*) ، في الوقت الذي قطعت فيه الكثير من الأمم ، أشواطا كبيرة في العمران و الاقتصاد. و يضيف إلى هذا الوصف الدقيق ، لما آلت إليه أوضاع العرب و المسلمين المتأخرين ، أن الباحث المسلم الملم بشؤونهم ، يتعجب من كونهم يتقاسمون نفس الأوضاع و الذهنيات ، رغم اختلاف أعراقهم و تباعد ديارهم ، لكن هذا العجب سيزول حسبه ، بمجرد أن يبحث و يدرس بعمق الأسباب الحقيقية ، التي جعلت التخلف و كأنه صفة مقترنة بالعروبة و الإسلام ، مثلما يروج لذلك بعض الباحثين الغربيين ، الذين لا تخلوا بحوثهم و دراساتهم عن العرب و المسلمين ، من الخلفيات الإيديولوجية ([1]) .

لكن تحامل الباحثين الغربيين برأي الإبراهيمي ، لا ينبغي أن يحجب الواقع المزري ، الذي تشترك فيه الأقطار العربية و الإسلامية المستعمرة و المستقلة على حد سواء ، هاته الأخيرة و رغم حصولها على استقلالها إلا أنها لا تمتلك منه إلا الشعار ، إذ يفتقد إلى السيادة في كل الميادين ، فالقرارات السياسية تملى على حكوماتها ، من قبل أصحاب النفوذ و السطوة المحليين و الأجانب ، الذين يستخدمون شتى الوسائل و الأساليب خدمة لمصالحهم ، التي تحرس تلك الحكومات على حمايتها و ضمان إستمراريتها بدل مصالح شعوبها . و زيادة على ذلك فالعلوم تؤخد من الأعداء دون دراسة أو تمحيص ، أما الثروات و التجارة و الصناعة فمحتكرة من طرف الأجانب ، فلا تبذل أي جهد للإشراف عليها بنفسها : ((يبيعون القنطار من إنتاج أوطانهم

(*) – الرقيم : لوح من الحجارة أو الخشب ، كتب فيه أسماء أصحاب الكهف و خبرهم ، و جعل على أبواب الكهف حسب أقوال أخرى . و ملخص القصة أن ملكا جبارا إسمه " قيانوس " ، دعا الناس إلى عبادة الأوثان ، و كان يقتل كل مؤمن لا يستجيب لدعوته ، حتى عظمت المحنة على أهل الإيمان ، ففر فتية من الشباب من دينه خوفا من بطشه و جبروته ، حيث مكثوا في غار بجبل و هم نيام ثلاثمائة و تسع سنوات ، و قد أورد الله سبحانه و تعالى قصتهم بالتفصيل في سورة الكهف .

([1])– محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 1 ، مصدر سابق ، ص ص 57–111 .

رخيصا ثم يشترون الداني منه غاليا ، فإذا غلق صاحب السوق سوقه في وجوههم أفلس غنيهم و مات فقيرهم جوعا أو هلك عريا)) ([1]) .

أي أنهم يملكون وسائل الاستقلال الاقتصادي ، لكنها في أيدي الأجانب الذين تفوقوا عليهم علميا و تقنيا ، و أحكموا عليهم سيطرتهم اقتصاديا ، مستغلين في ذلك انشغال تلك الحكومات بتوافه الأمور ، و افتتانها بظواهر السلطة ، و انغماسها في الخلافات و الصراعات ، في الوقت الذي يفترض فيه أن تفكر في الإتحاد و التعاون ، حماية و تحريرا لها من استغلال الأجنبي ؛ لإمكاناتها و مواردها البشرية و المادية .

و عليه فإنه لا فرق عند الإبراهيمي ، بين البلدان العربية و الإسلامية المستقلة ، أو التي لا زالت ترزخ تحت نير الاستعمار ، تشترك في كل الأشياء ، و منها تلك الذهنيات السابقة ، التي أدت إلى إفلاس شامل في الأخلاق و الأفكار ، و الآداب و التوجهات ، و رثها الأبناء عن الأبناء و في ذلك قال : ((إنهم ورثونا هذه الصفة الخاسرة التي هي رأسمالنا اليوم من أخلاق لا تزن جناح بعوضة ، و آداب لا تستقيم عليها حياة و أفكار بدائية لا تجول في المدار الواسع من الحياة ، و عقول تقدر و تخطئ و تدبر فتبطئ و حساب مذبذبة ، و اتجاهات خاطئة مدبرة ، و غير ذلك مما تركنا غرباء عن عصرنا و أهل عصرنا)) ([2]) . و منه يتبين لنا أن البشير الإبراهيمي ، يرى أن التقهقر الحضاري ، الذي ميز العرب و المسلمين في عصره ليس وليد الصدفة ، أو أنه قدرا لا حيلة لهم أمامه ، و إنما هو نتاج لعوامل و أسباب عديدة ، تراكمت و تفاعلت عبر القرون ، تقهقر كان من أثاره ، انتشار ضباب كثيف حول الفكر العربي و الحضارة الإسلامية ، و تشويه لصورة الإسلام لدى العالم الغربي بوجه خاص ، و تنامي النظرة العدائية لتراث و تاريخ العرب و المسلمين ، فأصبح الشرق بالنسبة لأولئك الغربيين رمزا للطغيان و الجمود و السلبية و فساد الفطرة ، و انحطاط الخلق و العجز عن تحقيق التقدم ، أو إبداع أي شيء مهما كان بسيطا .

و من خلال إطلاعنا على ما كتبه الشيخ الإبراهيمي ، حول موضوع أسباب تخلف العرب و المسلمين ، تبين لنا أنه حصرها في خمسة أسباب أساسية تتساوى في الأهمية و هي : فساد

([1])– محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 4 ، مصدر سابق ، ص ص 213–214 .
([2])– المصدر نفسه ، ج 3 ، ص 273 .

علماء الدين و انحرافهم ، تعطيل العمل بالدين الإسلامي ، و شيوع التقليد و الحجر على الاجتهاد ، ضعف الأخلاق و وهن العزائم ، الركون إلى الكسل و التواكل ، سنحاول مناقشتها و تحليلها في ما يلي :

01 – فساد علماء الدين و إنحرافهم :

عرف المسلمون في العصور الأخيرة من الانحطاط – برأي الإبراهيمي – صنفا من علماء الدين منعزلين عن عصرهم ، لا همّ لهم سوى تحصيل متطلبات حياتهم الخاصة ، يفتون في مسائل جزئية كالصلاة و الصوم ، أو أحكام الزواج و الطلاق ، أو وصايا الأحياء و الأموات . يفتون في الطلاق دون أن يكلفوا أنفسهم عناء البحث في أسبابه ، و في الإيمان و لا ينهون الناس عن الحلف و لا عن الحنث فيه بعد انعقاده . يحرمون شرب الخمر و لعب القمار ، دون أن يوضحوا للناس مضارهما أو يزجرونهم عن تعاطيهما .

علماء يعيشون بعيدا عن عصرهم و زمانهم ، و إن حدث و إن احتكوا بالناس أعطوهم في أفضل الأحوال ، دروسا لا علاقة لها بواقعهم الحياتي المعاش ، ممسكين عن واجب محاربة الآفات الاجتماعية المتفشية وسط المجتمع ، و عن الدعوة إلى تطبيق تعاليم الدين الإسلامي الصحيحة ، كأنها قدر مقدر و من العبث تغييره ([1]) .

و لا شك أن ما ذهب إليه هنا صحيح ، إذ أن السواد الأعظم منهم كان عاجزا عجزا مطبقا عن فهم تقلبات العصر و الوضعيات المستجدة ، يخفقون إخفاقا تاما في معالجة المشاكل و المعضلات التي تواجه المسلمين في هذا العصر ، و التي أوجدتها الظروف الجديدة ([2]) .

أطلق الإبراهيمي ([3]) على هؤلاء العلماء اسم " علماء الخلف " ، و ذكر بأن المقصود بهم تلك الفئة من العلماء التي نشهد آثارها و نسمع أخبارها ، و في الإمكان تحديد بداية انحطاطها زمانيا بالمائة العاشرة للهجرة ، حيث بدأت الشعوب الإسلامية منذ ذلك التاريخ في التفكك و الانهيار ، دون أن يسارعوا إلى معالجة الأمر قبل إستفحاله ، فكانوا بذلك المسؤولين عنه . و يضيف بأن تحديده لتاريخ المائة عشرة بعد المائة ، كبداية لفساد علماء الدين و انحرافهم هو

([1])– محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 1 ، مصدر سابق ، ص 150 .

([2])– أبو الاعلى المودودي : نحن و الحضارة الغربية ، د ط ، دار الفكر ، بيروت : د ت، ص 49 .

([3])– محمد البشير الإبراهيمي ، المصدر نفسه ، ص 150 .

تساهل منه ، لأن جذوره تعود إلى ما قبل ذلك بقرون ، لكن دون أن يصل الوضع كما وصل إليه بعد المائة العاشرة للهجرة هذا من جهة .

و من جهة أخرى ، أقر الشيخ البشير بأن : " علماء الخلف " ، هم أدنى من أن نسميهم علماء الدين أو علماء الدنيا ، فهم ليسوا في مستوى علماء الدين ، لأنهم لم يفهموه على أنه نصوص قطعية من القرآن الكريم الذي هو كلام الله سبحانه و تعالى ، و أعمال و أقوال تشرح تلك النصوص من أحاديث و أفعال الرسول " ص " ، و مقاصد عامة تستنبط من القرآن و السنة النبوية . يرجع إليهما فيما لم تنص عليه النصوص صراحة ، أو فيما جد من أوضاع و قضايا بتجدد الزمان . و زيادة على ذلك لم يفهموه ، على أنه عقائد يحكمها العقل قبل النقل ، و عبادات اكتملت بكامل الدين لا زيادة فيها و لا نقصان ، و أحوال نفسية هي ثمار تلك العقائد و العبارات ، تضبط العلاقة بين الناس و بينهم و بين خالقهم .

و في المقابل من ذلك ، يرى أن الإبراهيمي أنهم فهموا الدين و أفهموه للأمة ، على أنه لا يعدو أن يكون مجرد صورة جامدة خالية من الحكمة ، و حكموا فيها آراء مشايخهم التي تتصف بالتضارب و التناقص في كثير من الأحيان . فأدى بهم هذا النهج غير السليم ، إلى اتخاذ كلام أولئك المشايخ بديلا لتلك النصوص القطعية و الصريحة ، و غلق أبواب الفكر بالتقليد ، و تناول الحقائق الدينية بشكل خاطئ و بعيد عن الحقيقة . فيكونون بذلك قد عطلوا الفكر ، و هو عمل في نظره لا يمكن تصنيفه إلا في خانة((الجرائم العظيمة)) التي ارتكبت في حق الفكر الإسلامي ، و قد بين ذلك بقوله [1] : ((الفكر كالعقل نعمة من نعم الله على هذا الصنف البشري ، فالذي يعطله أو يحجر عليه جان مجرم ... و لعمري إن سد باب الاجتهاد لأعظم نكبة أصابت الفكر الإسلامي ، و أشنع جريمة ارتكبها المتعصبون للنزاعات المذهبية)) .

إن وصف الشيخ البشير ، للعلماء المتأخرين الذين أغلقوا باب الاجتهاد ، و عطلوا الفكر الذي هو بمنزلة العقل بالمجرمين ، يعكس في حقيقة الأمر الجمود الرهيب الذي لازم العلوم الإسلامية عامة ، و الفقه بشكل محدد لعدة قرون . بسبب استحكام النزعات المذهبية ، التي حالت دون أن تتطور تلك العلوم بالتوازن مع التطورات الزمانية ، وضع يتحمل المسؤولية الكاملة فيه ، هذا الصنف من العلماء الجامدين و السلبيين . و من المعلوم أن الصراعات المذهبية في الإسلام ،

---

[1]- محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 4 ، مصدر سابق ، ص ص 114-115 .

قد بدأت منذ القرن الثاني للهجرة ، و تزايدت حدتها في القرون التالية ، و تزعمها علمـــاء الكـــلام و الفقه و النصوص و الزهد ([1]) .

كل تلك الصفات التي أوردها الشيخ ، هي بالنسبة إليه كافية لينزع عنهم ميزة علماء الدين ، أما لماذا اعتبرهم أيضا ليسوا علماء الدنيا بالمفهوم الحقيقي للكلمة ، فحجته في ذلك أنهم رضوا أن تكون أقواتهم و أرزاقهم بطرق غير شريفة و غير شرعية ، يحصلون عليها من موائـــد الحكـــام و المسؤولين بغير كدّ و اجتهاد ، على حساب القيم و المبادئ التي يفترض أنهم يـــدافعون عنهـــا ، و الغايات التي يسعون لأجلها ، على اعتبار أنهم الفئة القائدة لا المقودة ، يزينون صـــور أوليـــاء نعمتهم و يبررون سلوكاتهم ، مما أفقدهم احترام عامة المسلمين .

يضاف إلى ذلك ، الطمع و الجري وراء المناصب و الامتيازات ، التـــي يمنحهـــا إيـــاهم الإشراف على شؤون الأوقاف ، و كان من آثارها تمكن نزعة التقليد من نفوسهم ، و موت ملكـــة النبوغ و استقلال الفكر فيهم ، و انطباعهم بســـلوك ذمـــيم هـــو معرفـــة الحـــق مـــن الرجـــال و ليس العكس ، كما جعلت قطار الحياة يقف بهم في القرن الثاني للهجرة ، الذي توقف عنده العقل و الفكر ، و لم تعد بالنسبة إليهم ضرورة لاستمرارهما : ((فعاشوا بأبدانهم في زمن و أذهانهم في زمن ، و بين الزمنين أزمنة تحركت و هم ساكنون ، و نطقت و هم ساكتون)) ([2]) .

إن الصفات المذمومة التي اتصف بها العلماء المتأخرون ، كثيرة برأي الإبراهيمي و منها : ما أصيبوا به بآفة الغرور الكاذب و الترفع المغشوش عن طالبي العلم ، حيث يعتكفون في بيـــوتهم أو في المساجد اعتكاف التاجر في دكانه ، ينتظرون أن يأتيهم الناس ليتعلموا ، فإن لم يأتوا صـــبوا سخطهم على الزمان و الناس ، حجتهم في ذلك أن :((العلم يؤتى و لا يأتي)) ، و هي قاعـــدة إن صدقت في فترة زمنية معينة ، فإنها لا تصدق في كل الأزمنة ، فضلا عن كونها لا تصدق بالنسبة لعلماء الدين . لأن عالم الدين من وجهة نظر الشيخ البشير ، ينبغي عليه أن يرغب الناس في العلم بشتى الطرق و الأساليب ، إن هم أحجموا عن طلبه في مراكزه التقليدية الممثلة في : بيوت العلماء و المساجد و الزوايا و الكتاتيب ، و بمعنى آخر أنه لا عذر له إن زهد العامة في علمه ، في الوقت الذي يعذر أصحاب العلوم الأخرى . و تفهم من تشدد الإبراهيمي في موقفه هذا ، أنه كان يدرك

([1])- محمد المبارك ، المرجع السابق ، ص 72 .

([2])- محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 2 ، مصدر سابق ، ص ص 114-115 .

خطورة عدم إقبال الناس على تلقي العلوم الدينية ، أو التراخي في تزويدهم بها ، فقد وقف بنفسه على آثار ذلك في المجتمع الجزائري خاصة ، و المجتمعات العربية الإسلامية عامة ، أثناء الرحلات التي قام بها إلى الكثير من بلاد العرب و المسلمين . ففي الجزائر رأى تقاعس علماء الدين الحقيقيين ، عن أداء دورهم الديني و التربوي و الإصلاحي ، إلى ترك المجال مفتوحا أما رجال الطرق الصوفية المنحرفين عن الخط الذي رسمه مؤسسوها الأوائل ، فكثرت البدع و الضلالات و الخرافات ، و تقديس القبور و الطواف حولها . و سيطروا على عقول أتباعهم و مريدهم ، ونشروا بينهم التواكل و الكسل ، و ثبطوا هممهم في الاستعداد للكفاح من أجل طرد المحتل الذي اغتصب أرضهم ، بحجة أن وجود الاحتلال في الجزائر : ((هو من باب القضاء و القدر ، الذي ينبغي التسليم به ، و الصبر عليه ، و أن طاعته هي طاعة لولي الأمر)) . فكانوا سببا في إطالة عمر الاستعمار في البلاد من ناحية ، و في تفرق صفوف الأمة و انحطاطها من ناحية أخرى ([1]) .

و الأمر ذاته كان يحدث في بقية أقطار العالم العربي و الإسلامي ، حيث خيم الجمود العلمي و الفكري ، و سادت البدع و الخرافات التي استحكمت على الحياة الدينية و الفكرية ، و شغلت الأمة عن فهم الدين الصحيح ، و الأخذ بأسباب الرقي و التقدم ، و سيطر الخمول و التقليد و المحاكاة على نحو شامل ، في كل العلوم الدينية ([2]) .

و يواصل الإبراهيمي استعراضه ، للصفات السلبية التي ميزت علماء الانحطاط ، فيذكر قبولهم بإعفائهم من التجنيد العسكري مثل عامة الناس ، ظنا منهم أنه إجراء إنما يقوم به الأمراء و الحكام تشريفا لهم ، و تقديرا لمنزلتهم الدينية في الدولة و المجتمع . لكنه في تصوره يعدّ إدانة لهم و دليلا على فقدانهم لرجولتهم ، لأن الأوائل من الخلفاء و الحكام المسلمين لم يلجئوا إلى هذا الإجراء من جهة ، و لأن جميع علماء و عامة كانوا يتنافسون على الجهاد و الغزو و ليس على الإعفاء منها من جهة أخرى ((فهل يعلمون أن الخلفاء الراشدين ، و من بعدهم من الملوك

([1])- مصطفى محمد حميداتو : عبد الحميد إبن باديس و جهوده التربوية ، سلسلة كتاب الأمة ، ط 1 ، وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية ، قطر : 1997م ، ص ص 50-51 .

([2])- ينظر أبو الحسن علي الندوي : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، ط 5 ، دار الشهاب ، باتنة ، الجزائر : 1987م ، ص ص 194-215 .

الصالحين ، ما كانوا ليعفوا عالما من بعوث الجهاد و الفتوح ؟ و ما كان مسلم فضلا عن عالم يطلب الإعفاء أو يتسبب له أو يرض به لو عرض عليه ، بل كانوا يتسابقون إلى ميادين الجهاد و العالم الديني دائما في المقدمة لا في الساقة (*) و قد كانوا يعدون الاعتذار عن الخروج من سمات النفاق)) . و منه فإن المنزلة العلمية لا تعفي صاحبها من الجدية و الجهاد ، فهي واجب ديني لا مناص من القيام به على أكمل وجه ، و مجال خصب لإبراز ما ينطوي عليه الإنسان من قوة و شجاعة و إقدام .

و إذا كان الإبراهيمي ، لم يورد أسماء أو نماذج من التاريخ الإسلامي لهذا النوع من العلماء ، الذين حافظو على خاصية الجندية و القتال ، فإنهم كثيرون و حتى أنه وجد بعض منهم في عصور الانحطاط ذاتها ، ففي الأندلس على سبيل المثال ، سجل فقهائها مواقف مشرفة في هذا الإطار ، حتى في أسوأ الظروف ، فزيادة على اجتهادهم في تكريس قيم العدل و المساواة و احترام حقوق الإنسان ، و تثقيف المجتمع بالثقافة الإسلامية ، فإنهم لم يتخلفوا عن دعم روح المقاومة ضد الغزاة الإسبان ، و الحفاظ على الهوية الإسلامية ، و النصح للحكام و لعامة المسلمين . و بعد سقوط الأندلس لعبوا دورا كبيرا في الحفاظ على الهوية الإسلامية ، رغم خطورة الأوضاع نتيجة للمتابعات المتصلة بمحاكم التفتيش، التي أنشأت بغية مسح أي أثر للإسلام و المسلمين في إسبانيا .

أما في بلاد المغرب العربي ، فقد ذكرت كتب التاريخ أن خمسين عالما ، تصدوا للمحتلين الإسبان في بعض السواحل المغربية سنة 1497م ، أي خمس سنوات بعد سقوط غرناطة ، و منهم " الشيخ محمد بن يحيى البهلولي " الذي تولى مهمة الدفاع عن الثغور ، و لما عاد إلى مقر سكنه وجد زوجته قد توفيت و الناس على وشك الإنتهاء من دفنها ، فسارع إلى إعادة صلاة الجنازة عليها ، و لما أنكر عليه القوم ذلك قال لهم : ((صلاتكم فاسدة لكونها بغير إمام !)) فلما إستفسروه قال : ((إن من شروط الإمام الذكورية ، و هي مفقودة في صاحبكم ، لأن الذي لم يتقلد سيفا قط في سبيل الله و لم يضرب به و لم يعرف الحرب كما كان نبينا عليه و السلام و لم يتصف بالسيرة النبوية فكيف يعد إماما ذكرا ؟ بل إمامكم من جهلة النساء ...)) ، و لما بلغه خبر الهدنة التي عقدها السلطان المغربي مع الأعداء الإسبان ، آل " الشيخ محمد بن يحيى البهلولي " ألا يلقاه ، و لا يذهب إليه و لا يقبل منه العطاء ([1]) .

([1]) – ينظر أكرم ضياء العمري : قيم المجتمع الإسلامي من منظور تاريخي ، ج 2 ، سلسلة كتاب الأمة ،

أما في العصر الأخير ، فيمكن أن نذكر زعماء المقاومات الشعبية في الجزائر الذين كان أغلبهم علماء دين كالأمير عبد القادر (1808م – 1883م) و الشيخ الحداد (ت 1872) و الشيخ بوعمامة (1838م–1908م) و عمر المختار(1858م–1931م)... و غيرهم من العلماء الذين تزعموا الجهاد ضد الاستعمار ، مضيفين إلى زعامتهم الدينية ، الزعامة العسكرية التي أربكت المستعمر في الكثير من المعارك ، التي انتصروا فيها على ضباطه المتمرسين و جنوده المدربين أحسن تدريب ، وعلى أسلحته الفتاكة ، في مقابل أسلحتهم البسيطة و إيمانهم القوي بعدالة قضيتهم .

و بعد استعراض كل هذه الصفات السلبية ، التي اتصف بها العلماء المتأخرون ، يخلص الشيخ البشير الإبراهيمي ، إلى أن هذا الواقع السيئ الذي آلوا غليه ، قد ترتبت عنه نتائج خطيرة و منها : خروج قيادة الأمة من أيديهم ، و انتقالها إلى أيدي أخرى غير مؤهلة لتلك القيادة ، باعتبار أن العالم الديني هو الأكثر تأهيلا للقيادة من غيره . و يضيف بأن فقدان القيادة ، هو أحد الأسباب الرئيسية في انحطاط – العرب – المسلمين و تخلفهم ، و هو وضع ليس بالجديد ، و إنما يعود إلى القرون الوسطى ، إذ و منذ تلك الحقبة من الزمن ، لم يعد للعلماء تأثير في مجريات الأحداث في البلاد – العربية – الإسلامية ، عدا توليهم وظائف التدريس و الإمامة و الفتوى و القضاء ، التي كانت تمنح لهم ليس لكفاءتهم العلمية و الأخلاقية ، و إنما لمدى ولائهم ، و استعدادهم لتبرير سياسات أولئك الأمراء و الحكام مهما كانت منحرفة ، و دفع العامة للانصياع لها . فتجد الخطيب يحرص كل الحرص في خطبه ، على الثناء و الدعاء للأمير ، الذي تكرم عليه بالمنصب الذي يشغله ، و بالترحم على واقف يسترزق من وقفه ، فلا ينسى ذلك أبدا ، و هو منهج درج عليه كل علماء الشرق حتى عصرنا الحالي بحسب الإبراهيمي ([1]) .

و بالفعل ، فإن الفترة الزمنية التي كان فيها علماء الدين في البلاد العربية و الإسلامية ، ممسكين بزمام القيادة قصيرة جدا ، إذ اقتصرت على العصر الإسلامي الأول ، خاصة في المراكز و الحواضر القريبة من مقر الخلافة مثل المدينة المنورة ، التي سعى فيها خلفاء بني أمية إلى التقرب إليهم بكل الوسائل و الطرق و منها : الإغداق عليهم بالعطايا و الهبات ، و مكاتبتهم طلبا للنصيحة أو استفسار عن حكم شرعي أو طلبا صريحا للتأييد السياسي و البيعة ، فضلا عن

ط 1 ، وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية ، قطر : 1994م ، ص 125 و ما بعدها .

([1])– محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 1 ، مصدر سابق ، ص ص 150–152 .

الوقوف على احتياجاتهم و تلبية طلباتهم و حثهم على طلبها ، و تعمد الظهور أمام الرأي العام بجوار أولئك العلماء و الفقهاء ، و الثناء عليهم و الإجهار بحاجة الدولة إلى علمهم و فتاويهم . كل ذلك إدراكا منهم لأثرهم في المجتمع الإسلامي ، ولمكانتهم الدينية و الاجتماعية ، و حسن تقدير الناس إليهم ([1]) . و الفارق واضح هنا ، بين العلماء الأوائل الذين كان الخلفاء و الحكام و الأمراء ، يبذلون كل شيء في سبيل الحصول على دعمهم ، و مساندتهم لهم في سياساتهم ، و بين العلماء المتأخرين الذين كانوا هم من يستعطف الخليفة أو الحاكم أو الأمير أو ذي كل سلطة ، طمعا في منصب أو أجر أو مصلحة شخصية ، و لا يهم إن حصل عليها على حساب رسالته أو مبادئه .

و علاوة على ضياع القيادة من علماء عصر الانحطاط ، يرى الإبراهيمي أن الدارس لما خلفوه من تراث فقهي ، يقف على حقيقة مفادها أن الكثير من فتاويهم و اجتهاداتهم الفقهية ، لم يراعوا فيها أحوال الناس ، حيث بنوا الأحكام في المعاملات وفقا نظرتهم الخاصة من جانب ، و تأويل كلام من سبقهم من العلماء من جانب ثاني . مناقضين بذلك الواقع الحياتي للناس في جوانبه الاقتصادية و الاجتماعية و الدينية ، الذي يخضع في حقيقة الأمر لأمزجة و أهواء الحكام المستبدين ، وليس لتلك الأحكام والاجتهادات ، التي أجهد العلماء أنفسهم وأفنوا أعمارهم في استنباطها واستخراجها . ولذلك ، فقد أجمع الباحثون المحققون على أن تلك التفصيلات التي حفلت بها كتب الفتوى ، إنما أغلبها لا ينطبق مع مصالح الناس ، لأنها لم تبنى على مراعاة تلك المصالح ، التي هي أساس حكمة التشريع ([2]) .

إن ما أراد الإشارة إليه هنا ، هو تلك القطيعة الحاصلة بين ما يفتي به علماء الدين الإسلامي ومنهم الفقهاء ، وما يحياه الناس من ظروف حياتية واجتماعية ، تتغير بتغير الظروف والأزمنة ، لأن الفقه يختلف عن العقائد فهو متغير وهي ثابتة ، وعالم الدين أو الفقيه الحقيقي هو ذلك الذي يجعل من فتاويه وأحكامه مواكبة لواقع العامة ، ولا يحصل له ذلك إلا إذا كان على فهم صحيح للدين الإسلامي ، ومدركا تمام الإدراك لتحديات العصر الذي يعيشه ، ومن ثمة لاحتياجات الناس ومصالحهم ، التي لا شك أنها تختلف عن مصالح سبقهم وعن من سيأتي بعدهم .

([1])- ينظر اكرم ضياء العمري ، المرجع السابق ، ص 62 و ما بعدها .

([2])- محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج1 ، مصدر سابق ، ص ص 150 – 151 .

والفهم الصحيح للدين الإسلامي ، لن يأتي إلا بالمعرفة العميقة لأهداف الإسلام الكبرى و هي: تحرير العقل البشري من قيد التقليد والخرافات ، وهو ما يفسر محاربته للوثنية لأنها تمثل الانحطاط العقلي ، ودعوة القرآن العقول إلى الدليل والبرهان والتفكير العلمي الحر ، وثانيها إصلاح الفرد من النواحي النفسية والخلقية ، وثالثها إصلاح الحياة الاجتماعية للناس بشكل يسود فيه الأمن والعدل بينهم ، وتصان الحريات الخاصة بالأفراد والحقوق العامة للجماعة ([1]) .

و إذا كان هذا هو الحال الذي آل إليه الفقه الإسلامي ، فإن المصير ذاته انتهى إليه الفكر العلمي الذي تراجع أمام ((الفكر السحري)) بتعبير المفكر " فريدون هويدا " ، فقد كثرت المؤلفات في علم التنجيم الطبي بصورة خاصة ، و في علوم السحر و التنجيم بصورة عامة ، و انتشرت على نطاق واسع خواتم السحر و كتابات الطلاسم و الأحجبة : ((المكتوبة بحروف ذات مفعول خارق و بأرقام مؤثرة في حياة الناس)) . كما شاعت ممارسة التبصير و العرافة التي حاربها العلماء و الفلاسفة ، و ازدهرت مهن التنجيم و السحر ، و قد كان إيمان الناس بالتنجيم و السحر ، يتزايد بقدر ما كان التعليم ينحط و يغرق في المذهبية ([2]) .

تلك المذهبية التي كانت تعني في بادئ الأمر : ((تعدد التخصصات ضمن إطار الرسالة الواحدة)) ، لكنها سرعان ما تطورت و أفضت إلى حالة من التعصب و الجمود و ضيق الأفق ، و أنخرط أصحابها في خلافات و صراعات مذهبية ، أدت إلى تفرقة الأمة و جرها إلى صراعات مريرة و قاسية ، كل طرف فيها يدعي أنه وحده على صواب و غيره على خطأ . رغم أن العلماء الذين أسسوا تلك المذاهب ، كانوا إذا إختلفوا في الرأي لا يتخذون من ذلك سببا للخصومة و النزاع ، بل يجلّون و يحترمون بعضهم البعض ، و يتناقشون في أدب و وقار ، و لا يجد الواحد فيهم حرجا في أن يتراجع عن رأيه إلى رأي غيره ، إذ تبين أنه مخطئ ([3]) .

و بشأن الخلافات المذهبية ، فقد إنتقد الشيخ البشير الإبراهيمي ، القادة و العلماء المسلمين الذين شجعوا تعدد المذاهب في البلد الواحد ، أو تساهلوا في الأمر ربما بحسن نية ، غير مقدرين

([1])– أحمد زكي أبو شادي : ثورة الإسلام ، د ط ، مكتبة الحياة ، بيروت : د ت ، ص ص 112 – 113 .

([2])– فريدون هويدا : الإسلام المعطل ، د ط ، دار النشر مارينور ، الجزائر : 1996م ، ص 136 .

([3])– أحمد مفلح القضاة : " أحوال العالم الإسلامي منذ بدء الغزو الصليبي حتى ظهور صلاح الدين الأيوبي " ، المجلة العربية للثقافة ، المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم : العدد 26 / مارس 1994م ، ص 15 .

للعواقب الدينية و السياسية و الاجتماعية الخطيرة ، التـــي تنجـــر عـــن مثـــل تلـــك الســـلوكات و الممارسات في حياة الأمة ، و منهم القائد " صلاح الدين الأيوبي " (*)، الذي أعاب عليه إدخـــال المذاهب الأربعة في مناهج التدريس بالجامع الأزهر ، بعد أن كانـــت تقتصـــر علـــى المـــذهب الشافعي ، في الوقت الذي كان يتوجب فيه عليه أن ينقل هذا الأخير ، من وضع المذهب الفرعـــي إلى المذهب الجامع الذي يستند إلى : " أصل الأصول " و هو القـــرآن الكـــريم و الســـنة النبويـــة الشريفة ، فيجنب المسلمين آثار النزاعات المذهبية ، الناجمة عن روح التعصب و كراهية الآخـــر بمجرد الاختلاف معه في المذهب . فمصر كانت لا تزال تحت تأثير المذهب الشيعي ([1]) ، الـــذي عمل الخلفاء الفاطميون و دعاتهم في مصر و في البلاد التي كانت تحت سيطرتهم ، بشكل نشـــيط على نشره ببذل الأموال و جعله مرجعا في القضاء ، الأمر الذي أدى إلى انحصار نفوذ المـــذهب السني . و قد بلغ التعصب المذهبي فيه ، و في نفوس أمرائه و فقهائه مبلغا عظيما ، إلى أن جـــاء " صلاح الدين " الشافعي المذهب ، و قام بمحاربته و تقديم المساعدة للفقهاء السنة ([2]) .

أما بغداد و بلاد الشام ، فالأولى كانت غارقة في مشاكلها الداخلية ، في حين كانت الثانيـــة مشغولة بصد الحملات الصليبية . أما بلاد المغرب و الأندلس ، فلم يتغلغل التعصب المذهبي فيهـــا مثلما تغلغل في بلاد المشرق ، و بالتالي فإن الفرصة كانت مواتية فـــي اعتقـــاد الشـــيخ البشـــير الإبراهيمي ، أمام " صلاح الدين " ليقضي على المذهبية و التعصب و لكنه لم يفعل ([3]) .

(*) – " صلاح الدين الأيوبي " : هو صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن أيوب بن شـــاذي ، الملقـــب بالملـــك الناصر صلاح الدين ، ولد سنة 532 للهجرة الموافقة لسنة 1137 بقلعة " تكريت " على نهر " دجلـــة " التـــي كان والده واليا عليها ، أما موطنه الأصلي فهو بلدة " دوين " " بأذربيجان " التي ينحدر أهلها من أصول كردية . بعد ولادته استقر والده في مدينة " الموصل " ، التي أكرمه فيها " عماد الدين زنكي " . أقبل على طلب العلم و المعرفة منذ صباه فتعلم على يد أســـاتذة كبـــار . تـــولى الـــوزارة و عمـــره اثنتـــان و ثلاثـــون ســـنة ، ولما آل الحكم إليه عمل على تنظيم الطاقات المادية و المعنوية ، لطرد الصليبيين من القدس و البلاد العربية و الإسلامية التي احتلوها ، حيث ظل يحاربهم طيلة 17 سنة ، توفي سنة 589 ه .

([1])– محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 4 ، مصدر سابق ، ص 116 .

([2])– محمد الرحيل غرايبة : " جهود صلاح الدين الأيوبي في بعث المذهب السني فـــي مصـــر و الشـــام " ، المجلة العربية للثقافة ، مرجع سابق ، ص 187 و ما بعدها .

([3])– محمد البشير الإبراهيمي : المصدر نفسه ، ص 116 .

و منه نستخلص أن " صلاح الدين " في نظر الإبراهيمي ، استطاع أن يوحد العرب و المسلمين ضد الصليبيين ، الذين احتلوا مناطق واسعة من المشرق العربي ، منذ أواخر القرن الخامس الهجري الحادي عشر ميلادي ، و تمكن من طردهم من القدس ، لما توفر عليه من خصال القيادة و حسن التدبير .

و في المقابل من ذلك ، فشل فشلا ذريعا في جمع المسلمين حول مذهب واحد يؤول إلى الكتاب و السنة ، رغم أن الظروف كانت مواتية له على كافة الأصعدة . و في هذا حاول الإبراهيمي أن يجد له عذرا ، و هو أنه شخصية سياسية و عسكرية أكثر منها دينية ، و على هذا الأساس يقع جزء من المسلمين المقربين منه و منهم بطبيعة الحال علماء الدين ، الذين ربما لم يشيروا عليه لخطورة ما أقدم عليه ، بتشجيعه للمذهبية و لو كانت سنية .

و من مظاهر خروج قيادة الأمة في تصور الإبراهيمي ، سكوتهم عن أباطيل رجال الصوفية المنحرفين ، كتشييد القباب التي هي بمنزلة الأصنام التي أظلت فئة كبيرة من المسلمين عن دينهم و ديانتهم ، فبالغوا في تعظيمها و تقديسها حتى تحولت إلى معابد تزار و تقدم لها القرابين و النذور ، طمعا في قضاء الحاجات التي لا تطلب إلا من الله ، و يحلف بها من دون الله . فلم يتصدّوا لها بحزم في بداية الأمر ، قبل أن تستفحل و تتمكن من عقول الأمة ، بتفقيهها في دينها و إرشادها إلى سيرة الأنبياء " إبراهيم " عليه السلام و محمد " ص " ([1]) اللذان حاربا الوثنية التي كانت دين العامة و الخاصة على حدّ سواء ، فهما أفضل من يعتبر به في هذا المقام ، و في ما يواجه الأمة من حوادث و تحديات حاضرا و مستقبلا .

و من علماء الدين الذين إنتقدهم الإبراهيمي ، شيخ الإسلام في تونس الشيخ طاهر بن عاشور (*) ، الذي إنتقده نقدا لاذعا في مقال بعنوان : ((أ شيخ الإسلام أم شيخ المسلمين)) ،

([1])- محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 1 ، مصدر سابق ، ص 397 .

(*) – الطاهر بن عاشور : علم من أعلام الثقافة العربية و الإسلامية في تونس ، كاتب و خطيب تميز بالبراعة العلمية و الأدبية و السياسية ، تلقى تعليمه في المعهد الزيتوني و جامعة الزيتونة ، انتسب إلى كلية الآداب بجامعة الجزائر سنة 1931م ، عمل مدرسا سنة 1932م ثم قاضيا . بدأ الكتابة الصحفية منذ سنة 1928م ، زار بلدانا كثيرة منها : فرنسا ، مصر ، الحجاز ، الجزائر ، تركيا ، الشام ، ليبيا ، المغرب الأقصى ، النمسا ، اليونان ، يوغسلافيا ، بلغاريا . شارك في مؤتمر المستشرقين باسطنبول عام 1951م .

بسبب فتوى أصدرها ، رخص فيها قراءة القرآن على الأموات ، معتبرا ما قام به إرضاء للـذين وضعوه في هرم الفتيا في تونس ، مما يستلزم أن ينزع منه لقب " شيخ الإسـلام " . و قـد كـان الإبراهيمي قبل ذلك ، من المنوهين و المعجبين بالأستاذ " بن عاشور " ، إذ عدّه في مقال له إماما للنهضة العلمية في الشمال الإفريقي رفقة الشيخ " عبد الحميد إبن باديس " ([1]) .

و بناءا على هذا ، نستنتج أن الإبراهيمي ، لا يجد حرجا في انتقـاد أو مهاجمـة أولائـك العلماء ، الذين يخضعون لإملاءات أو ضغوط الجهات التي نصبتهم في المناصب التي يشغلونها ، بدل الخضوع لأحكام الدين و مصالح الأمة ، مهما كانت المكانة العلمية التي يتبوءونها ، و هو مـا حدث مع الشيخ " الطاهر بن عاشور " مفتي الديار التونسية آنذاك ، فقد اعترف له في بداية الأمـر بتفرده العلمي و بجهوده الإصلاحية التي باشرها في تـونس ، شـأنه فـي ذلـك شـأن الشـيخ " عبد الحميد إبن باديس " في الجزائر ، لكنه سرعان ما أنتقده بشكل عنيف و قاس ، بمجرد أن قبل المساومة في قضية دينية ، انطلاقا من اعتقاده أن هذا السلوك الذي قام به " إبن عاشور " ، يحـط من منزلة عالم الدين و يضعه في منزلة العلماء المنحرفين .

و الأمر ذاته ، كان يقوم به مع طائفة من العلماء في الجزائر ، أطلقت علـى نفسـها اسـم " علماء السنة " ، و هم أبعد ما يكونون عن السنة حسبه ، حيث اتهمهم ((بالتزوير)) و (الأمية)) و ((الاسترزاق)) عن طريق الدين ، أكثر من ذلك وصفهم بــ : ((اللصوص)) ، الذين يتميزون عن اللصوص العاديين بكونهم يتلصصون باسم الدين ([2]) . و أرجع سبب الاختلاف معهم ، كـون أن العلماء المصلحين يسعون لتحرير المسلمين ، من عبوديتهم و استغلالهم لأموالهم و أرزاقهـم ، بالتضليل و التجهيل و الإغفال ، تحت شعار مزيف ((أولياء الله)) ، حتى و إن كـان يسـتبيحون المحرمات ، و منهم من : ((يبيع الأولاد للعقيم و يبيع الراحة للسقيم – المريض – ؟)) ، و فـيهم من يتوعد المسلم بدمار ثروته و موت أولاده و زوال رزقه ، إن هو خالف عادة أو قصر في شيء اتجاههم . غير مكترثين لعواقب ما كانوا يقومون به من بدع قضت على كل ما بثه الإسـلام مـن فضائل و قيم ، و شجعت الانحلال و الانحراف الأخلاقيين ، و قتلت في الأمة روح الذكاء و القدرة

من أهم مؤلفاته : " الحركة الفكرية في تونس " .

([1])– ينظر محمد البشر الإبراهيمي : الآثار ، ج 1 ، مصدر سابق ، ص 226 .

([2])– المصدر نفسه ، ص ص 144–115 .

على العطاء و الإبداع و العمل ، حتى أضحت مضرب المثل بين الأمم في البلادة و الجمود و الكسل .

و يضيف بأن الأسوأ من كل ذلك ، هو أن أعداء الدين من الأجانب ، يرون أن ما تسوقه هاته الطائفة من العلماء هو الإسلام بعينه ، يرقصون أمامهم كما ترقص القرود ، و يلتهمون الزجاج و الحديد و الحيّات ، فينطبع لدى أولئك الأجانب المتربصين أصلا بالإسلام ، أنها تلك تعاليمه و آثاره ، رغم أن الإسلام بريء من كل تلك الأعمال . و يزيدون على ذلك ، ما يلقونه من محاضرات و خطب ، و ما ينشرونه من مطبوعات و كتب ، و ما يؤسسون من جمعيات للطعن في الدين . و خلص في الأخير إلى أن جناية علماء الدين الفاسدين على الدين ، عظيمة جدا و هي تعطيله ([1]) .

و الحق أن الإبراهيمي ، خاض صراعا شرسا و مريرا مع أعلام و شيوخ الصوفية المنحرفين في الجزائر ، الذين لما ضاقوا ذرعا بما كان يقوم به من نشاطات إصلاحية و تربوية معادية لهم ، فحاولوا النيل منه بشتى الوسائل و الطرق ، و منها القول فيه أنه من شر الناس الذين إبتلي بهم الإسلام و المسلمين في الجزائر ، و أنه داعية ظلال و أفاك أثيم ، و فيلسوف ماسوني (*) مروج الإلحاد و الكفر ، فضلا عن كتابة التقارير و الشكاوى إلى السلطات الإستعمارية العليا ، في البلاد التي كانت تتابعه و تراقبه عن قرب ([2]) .

و إذا كان الإبراهيمي ، يحمّل قسطا كبيرا من المسؤولية لعلماء الدين أنفسهم ، فيما هم عليه من تهميش و تغييب عن الحياة العامة ، فإن المجتمعات الإسلامية في نظره تتحمل جانبا منها ،

([1])- محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 1 ، مصدر سابق ، ص 117،116،121 .

(*) - الماسونية : هي حركة عالمية يكتنفها الكثير من الغموض و الأسرار ، سعت عن طريق محافلها إلى جلب أكبر عدد من المنخرطين إليها من مختلف الأجناس و الأديان تحت شعار الإخاء الإنساني ، بعيدا عن التعصب الديني و المذهبي أو القومي أو العرقي ، أي ربط الناس برباط الأخوة بعيدا عن كل الاعتبارات . لكن الكثير ممن كتبوا عنها قالوا أنها تحمل في ظاهرها دعوة إنسانية تدعو إلى الإخاء ، أمر في حقيقتها فإنها حركة أنشأها اليهود ، و هو الذين يسيطرون عليها و يوجهونها خدمة لمصالحهم القومية و الدينية . للمزيد ينظر صابر طعيمة : أخطار الغزو الفكري على العالم الإسلامي ، ط 1 ، عالم الكتب ، بيروت : 1984م ، ص 285 و ما بعدها .

([2])- ينظر بشير فايد : الشيخ البشير الإبراهيمي و دوره في القضية الوطنية ، ص 75 و ما بعدها .

بسبب العادة غير السليمة التي شاعت بينها منذ عدة قرون ، و هي المبالغة في تعظيم العلماء ، و منها المجتمع الإسلامي في الهند الذي تجاوزت فيه هذه العادة الحدود المشروعة و المعقولة . فمن جانب الإبراهيمي ، أن المبالغة في الأشياء تفسد حكمتها و تشوه صورتها ، فلا شك أن إظهار التقدير و الاحترام للعلماء ، سلوك اجتماعي محمود ينبغي الحث عليه ، لكن المبالغة فيه تنجرّ عنه نتائج سلبية في الأمة ، فيتحول إلى شعور عام بالنقص في كل المناحي ، و ينتهي إلى التأليه ، خاصة في المجتمع الهندي ، المتطبع نفسيا و ذهنيا على المبالغة و الغلو في التعظيم .

و قد وقف الإبراهيمي بنفسه على هذا الواقع ، أثناء رحلته التي قادته إلى باكستان سنة 1952 م ، إذ أنه كان كلما خطب في صلاة الجمعة ، و همّ بالانصراف بعد انتهاء الصلاة ، اعترضه المصلون يقبلون يديه و يضعونها على جباههم و أقفائهم ، و منهم من يتمسح بثيابه . و عبثا حاول إقناع الجميع بخطأ ما يفعلونه ، فقد كان الإقبال يزداد عليه من جمعة لأخرى . و بقدر ما أندهش من تصرفات العامة تلك معه ، بقدر ما استغرب من رد فعل بعض العلماء الباكستانيين المرافقين له ، الذين أنكروا عليه تمنعه ، و صدّه لتلك الجموع البشرية المتهافتة لرؤيته و التبرك به رغم انه في إحدى المحاضرات التي ألقاها ، تحدث بشيء من الحدّة ، عن تقصير العلماء و تخاذلهم في ميدان التربية الاجتماعية ، و سكوتهم عن الانحرافات الاجتماعية التي لا ينبغي التساهل معها مهما كانت بسيطة ، لأنها بالتقادم تتحول إلى معضلات اجتماعية كبرى يستعصي حلها : ((إن الصغائر في العامة تستحيل كبائر بالمبالغة فيها و بالسكوت عليها من العلماء و أهل الرأي)) .

و في نهاية المطاف ، نصل إلى أن الإبراهيمي اعتبر فساد علماء الدين و انحرافهم ، السبب الرئيس في انحطاط العرب و المسلمين ، إما بسبب الغفلة و التخاذل ، أو بالسكوت جبنا و تواطؤا ، فجاءت انتقاداته لهم لاذعة و قاسية في الكثير من الأحيان ، إدراكا منه بأهمية الدور الذي يفترض أن يؤدونه في المجتمع ، من خلال قيامهم بواجباتهم كقادة موجهين و مراقبين ، لا كتبّع و منقادين لغيرهم . دور يؤهلهم لتأديته على أكمل صورة ، رصيدهم الديني و العلمي و الأخلاقي ، و هو ما لا يتوفر في غير علماء الدين ([1]) .

([1])- محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 4 ، مصدر سابق ، ص 45-46 .

02 – تعطيل العمل بالدين الإسلامي :

يشكل الدين مقوما من مقومات الرقي و التقدم ، لما يتميز به من عناصر و قيم ، تزرع في الإنسان روح الاكتشاف و حب الخير و الأفضلية ، و الطموح الاجتماعي ، و الانطلاق في الحياة بتفاصيلها و تعقيداتها و تحدياتها . و الأمر ذاته بالنسبة للمجتمعات ، فبفضله تتوثق الأواصر الاجتماعية ، و تنتظم القوانين و المؤسسات ، و تتوحد الأهداف و الغايات ، و يتوجه نشاط المجتمع نحو الوجهة الحضارية السليمة . و به أيضا يدرك الفرد الدور ، الذي يفترض أن يقوم به في محيطه الضيق و الكبير ، على اعتبار أن الدين هو أهم مصدر للقواعد التربوية و السلوكية . كل ذلك يجعل منه عنوانا للحضارات ، و رمزا بارزا ، تنطبع بصورة إيجابية أو سلبية ، بمعنى أن المرجعية الدينية هي المحددة للمضمون الحضاري لأية حضارة إنسانية ([1]) .

و بالتالي فإن الحاجة إلى الدين في المجتمعات البشرية ضرورة ملحة ، لتأطيرها و معالجة الظواهر الاجتماعية المستجدة ، التي تفرزها الحضارة المتغيرة باستمرار ، لأن الدين هو الأكثر قدرة من غيره ، على طرح التصورات لمثل تلك الظواهر ، و هذا ما يفسر اتخاذ الإنسان عبر التاريخ الدين ملاذا له ([2]) . و على هذا الأساس قامت الحضارة العربية و الإسلامية ، التي جعلت من الدين الإسلامي منطلقها الأيديولوجي ، و مصدره القرآن الكريم الذي لغته العربية . و من خلال القرآن الكريم ، عرف عن الإسلام أن له شعبتان أساسيتان هما العقيدة و الشريعة : فالأولى في الجانب النظري أو الغيبي ، الذي يطلب من المسلم أن يؤمن به إيمانا تاما و قطعيا ، قبل أن تنتقل إلى الجوانب الأخرى ، تحكمها النصوص الواضحة و الجازمة . أما الشريعة ، فيقصد بها الأحكام التي شرعها الله ، أو شرع أصولها لتنظيم علاقة الإنسان بخالقه ، و بأخيه الإنسان و بالكون و بالحياة . و من ثمة فإن الإسلام لم يكن عقيدة فقط ، و إنما شريعة تهتم بتوجيه الإنسان إلى ما يحقق له الخير الطمأنينة و الازدهار ([3]) .

([1])– قسطنطين رزيق : في معركة الحضارة ، ط 3 ، دار العلم للملايين ، بيروت : 1977م ، ص 9 .

([2])– TAHAR GAID , OP-CII , PP.349-373 .

([3])– حسن جبر : أسس الحضارة العربية الإسلامية و معالمها ، د ط ، دار الكتاب الحديث ، القاهرة : 1999م ، ص ص 46–47 .

و منه فإن الحضارة العربية الإسلامية ، كانت ثمرة المجتمع المسلم ، الذي تكفل الإسلام بإنشائه و إعداده إعدادا اجتماعيا سليما ، و به و فيه تشكلت و نمت و ازدهرت في ظرف قصير جدا ([1]) ، حتى صارت من أعظم الحضارات التي عرفتها الإنسانية ، و أكثرها تفردا و تميزا و تأثيرا في غيرها تمدينا و أخلاقا ، بفضل حيوية الإسلام و مرونته ، و قدرته على الدفع بالفرد و المجتمع ، إلى الإبداع و الابتكار . و هي خواص افتقدتها الحضارات العظيمة ، التي سبقت المدنية العربية الإسلامية ([2]) .

و برأي الشيخ البشير الإبراهيمي ([3]) ، أنه إذا كان التاريخ يشهد ، أن الإسلام كان السبب الرئيس في رقي العرب و المسلمين الأوائل ، فكيف بالباحثين الغربيين أو ممن يحملون عصبية على المسلمين أو حقدا لدينهم ، يذهبون إلى أن الواقع المتردي و المنحط الذي بلغه العرب و المسلمون ، إنما يرجع في الأصل إلى الدين الإسلامي ، الذي يحمل حسبهم في جوهره عناصر التخلف و الإنحطاط ، و عقيدة الأوهام و الخرافات . و لذلك يتعين عليهم إن هم أرادوا الخروج من المأزق الحضاري الذي هم فيه ، أن يطرحوا هذا الدين جانبا ، و يأخذون بغيره من الديانات أو الأيديولوجيات الغربية ، الكفيلة بتغيير واقعهم . و هذا برأيه ((شعوذة)) ، لا تستطيع أن تحقق أهدافها المرجوة ، حتى و إن وجدت من – العرب – المسلمين من يتبناها أو يدافع عنها .

و لعله أراد هنا ، أن يقول بأنه من غير المعقول ، أن يكون من كان السبب في الصعود و الإزدهار ، سببا في التقهقر و الإنحطاط ، فالإسلام الذي حرر العقل من القيود ، ليقوم بمهام التفكير و التدبير ، لن يكون السبب في تقييده و الحجر عليه . و إنما السبب وفق ما ذهب إليه الإبراهيمي ، هو تعطيل العمل بالدين الإسلامي من خلال : هجر القرآن الكريم ، و الحجر على الإجتهاد و النزوع إلى النقل و التقليد .

([1]) – عبد الرحمان علي الحجّي : أضواء على الحضارة و التراث ، د ط ، شركة الشهاب للنشر و التوزيع ، الجزائر : د ت ، ص 81.

([2])– غوستاف لوبون : حضارة العرب ، ترجمة عادل زعيتر ، ط 3 ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة : 1956م ، ص 186 .

([3])– محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 4 ، مصدر سابق ، ص 226 .

- هجر المسلمين للقرآن الكريم :

عرف الشيخ البشير الإبراهيمي [1] ، القرآن الكريم بأنه : ((كتاب الكون لا تفسره حق التفسير إلا حوادث الكون ... كتاب الدعوة لا تكشف عن حقائقه إلا تصاريف الدهر ... كتاب الهداية الإلهية العامة ، لا يفهمه إلا المستعدون لها . لا يبلى جديده و لا تنقضي عجائبه)) . بمعنى أنه كتاب إلهي شامل ، يحوي حقائق كونية و علمية دقيقة و قطعية ، لا تتعارض مع العقل و المنطق ، و لا يرقى إليها الشك . و أنه كتاب جاء لهداية البشر و إسعادهم ، بشرط أن يحسنوا فهمه و تدبره ، و كتاب معجزات لا تتوقف عن الظهور ، في كل زمان و مكان .

و بين أن المسلمين ما انحدروا و انحطوا ، إلا لأنهم إبتعدوا عن هدايته و طرحوه جانبا ، و لم يحكمّوه جانبا ، و لم يحكموه فيما اختلفوا فيه من أراء ليدلهم على الأصوب و منها . و فيما يتعرضون إليه من فتن فيطفئها ، و فيما يعتريهم من انحرافات ليعالجها ، و في اضطرابهم في اختيار السبل فيوجههم إلى أحسنها . و في تضارب المصالح و المفاسد لديهم ليميزوا بينها ، و في العقائد ليفرق بين صحيحها و باطلها ، و في الأحكام المتشعبة ليفصل فيها . و كل ذلك احتوى عليه القرآن ، تصريحا أو تلميحا .

أما الأسباب ، التي دفعت المسلمين إلى هجر القرآن في نظره هي عديدة ، يمكن تصنيفها إلى صنفين : الأول ذاتية ، و الثانية خارجية :

* - الأسباب الذاتية : و تتمثل في الانشغال بآراء العامة ، و بالمصطلحات التي تتغير بتغير الزمان ، و بمرور الزمن حدثت الغفلة و هيمن التقليد ، و شاعت ظواهر تقديس الأئمة و المشايخ ، و التعصب للآباء و الأجداد و ظهرت منهم طوائف غالت في العبادة ، فنجم عنها التصوف و الاستغراق ، اللذان أخلا بالتوازن الذي أوجده الإسلام بين الجسم و الروح . و غالت أخرى في تنظيم العقل ، فتجاوز الحدود المرسومة له و طرق أبواب الغيبيات ، و أمدت به السبل إلى البحث في الخالق و وحدانيته ، فظهر علم الكلام و ما صاحبه من جدل و تأويل ، و تعطيل لأحكام الدين . و النتيجة أن كثرة الطوائف المتصارعة ، أدت إلى اضطراب العامة

[1]- محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 4 مصدر سابق ، ص 226 .

و تخبطها ، و تفرقها تفرقا شنيعا في الدين ، فوقعت في يد حكام مستبدين ، إستغلوا فرصة فقـدان العلماء المتناحرين سلطانهم عليها ، فعطلوا دينها و أفسدوا عليها دنياها .

* – الأسباب الخارجية : و تتمثل في المؤامرات و الدسائس ، التي ظلت تحاك ضد الإسلام من ظهوره و إلى الآن ، بدءا بحركات وضع الأحاديث ، و التيارات و الأيديولوجيات المعادية لــه ، إلى مساعي المبشرين و المستشرقين لبث الشكوك في نصوص القرآن ، بغرض صد المسلمين عن هدايته و هي أخطر مما يتصوره العلماء المسلمون ، و يقدره حكامهم ([1]) .

و لقد أدى كل ذلك ، إلى ضعف الدعوة الإسلامية التي تلاشت أكثر فأكثر ، بتزايـد حـدّة الفرقة و الاشتغال بالجدل الداخلي ، و التغافل عن أهمية الدعوة داخل المجتمع الإسلامي نفســه ، و في غيره من المجتمعات . و في المقابل من ذلك ، تهافتت دعايــات الــديانات الأخــرى علــى الإسلام ، و ما أنجبته من مذاهب مادية تقدس المادة و ترفعها إلى مصاف الآلهة ، و مذاهب فكرية تدفع بالمسلم إلى ترك دينه . و قد تشعبت تلك المذاهب الفكرية إلى شعبتين:

– الأولى : استخدمت كل الوسائل الممكنة ، لإخراج المسلم من حاضرة الدين الإسلامي و إدخاله في دين آخر ، بالتركيز على فئة اجتماعية محددة هي الأطفال و الأحداث . – أما الشعبة الثانيــة ، فتبذل مساعيها لجعل المسلم يترك دينه و يكفر بكل الديانات ، باســتهداف الشــباب الإســلامي ، مستغلة في ذلك خصوصية و حساسية مرحلة الشباب في حياة الإنسان ، حيــث يتميــز خلالهــا بالمشاعر القومية . و العواطف المتأججة ، و سرعة التأثر و الاندفاع الكبير . و كلتــا الشــعبتان تلتقيان في هدف واحد ، هو إبعاد المسلمين روحيا عن دينهم ، الذين يشكلون نسبة كبيرة من سكان المعمورة ، تمهيدا لتمزيق وحدتهم ، حتى يتيسر لأصحابها السيطرة على ثــرواتهم و مقــدراتهم الاقتصادية ([2]) .

إن ما أشار إليه الإبراهيمي هنا، هو الغزو الفكري الذي يقصد بــه تلــك الوســائل غيــر السليمة ، التي وظفتها الدول المسيحية عبر التاريخ الإسلامي ، لإزالة جميع مظاهر الحياة

([1])– محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 4 ، مصدر سابق ، ص ص 227–228 .

([2])– المصدر نفسه ، ص ص 284–285 .

الإسلامية ، و صرف المسلمين عن التمسك بدينهم و ما يرتبط بالعقيدة ، و ما يتصل بها من أفكار و تقاليد و أنماط سلوكية ([1]) .

و هو بذلك ، أراد أن يلفت انتباه قادة العرب و المسلمين و علمائهم ، إلى مخاطر الحضارة الغربية المادية ، القائمة أصلا على معاداة الأخلاق و العقائد ، و التي تمكنت من زرع مذاهب و نظريات و أفكار ، وسط المسلمين و خاصة منهم الشباب ، تنفر من الأخلاق تمهيدا لإلغائها ، و تحرض على الإباحية و التمرد الفكري باسم العلم كنظريات : " سيغموند فرويد " (SIGMAND FREUD) (1895م – 1939م) ، و " تشارلز داروين " (CHARLES DARWIN – (1809م – 1882م) ، و باروك سبينوزا (– BAROK SPINOZA) (163م – 1677م) ، و " جان بول سارتر " (JHON PAUL SARTRE) (1905م – 980م) ... و غيرهم ([2]) . فأصبح من المسلمين أنفسهم ، من يجهر بأن الدين رجعية و جمود و انحطاط و تخلف ، و على الأمة أن تتخلص من تلك الرجعية ، إذا أرادت أن تنهض و تتطور ([3]) .

و قد اعتبر الشيخ البشير ، هاته الحملة الفكرية الغربية ، من أخطر ما تعرض له الإسلام و المسلمون طيلة التاريخ الإسلامي ، و أنه من المؤكد ألا يغيب عن أهل الرأي و العلم من المسلمين ، إدراك كونها مخططا إستراتيجيا محكما له غايات محددة ، و يستند إلى قاعدة مادية و معنوية صلبة : ((و من ظن من عقلاء المسلمين و علمائهم أن هذه الحملة عليهم و على دينهم ليست مدبرة و ليست منظمة و ليست متعاونة و ليست مرصدة لوقتها و رامية إلى هذا الهدف ، من ظن هذا أقل درجته أنه مغفل جاهل مغرور)) ([4]) .

و لقد بلغ في رأيه ، استخفاف المسلمين بالقرآن الكريم ، أن حولوه إلى مجرد كلام تلوكه الألسن ، و تتلهى بسماعه الأذان ، يتنافس قراؤه على قراءته على الأموات أو في المقابر أو طلبا للبركات . أما عامة الناس فأنزلوه منزلة ((البصل و الكراث)) ، يطببون بآياته و سوره الأمراض

([1])– محمد قطب : واقعنا المعاصر ، د ط ، مكتبة رحاب ، الجزائر : د ت ، ص 195 .

([2])– محمد الغزالي ، المرجع السابق ، ص 14 .

([3])– محمد قطب : هل نحن مسلمون ، د ط ، دار الشروق ، بيروت : 1986م ، ص 111 .

([4])– محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 4 ، مصدر سابق ، ص ص 284–285 .

و العلل البدنية ، التي تتسبب فيها الحرارة أو البرودة . أما العلماء فيدرسونه بلغة عرفية ، و يتناوله بعقول يسيطر عليها الفكر الطائفي ، و التعصب المذهبي ، و النزوع إلى الجدال و المسائل اللغوية ، و بمؤلفات تعج بالإسرائيليات و الآثار الموضوعة و النظريات . فيكون الضحية الأولى لذلك، الطلبة الذين يتلقون علما بألسنة أبعد ما تكون عن الفصاحة و البيان العربيين، لكثرة حشوها بالمصطلحات و الألفاظ العامية و الأجنبية، ففسدت أذواقهم و أختلت تصوراتهم، و بأفكار هيمن عليها الجمود ، و أغلق عليها بإحكام منافذ التفكير . و بنفوس تمكن منها الملل و التشاؤم ، فقبلت بسماع كل غامض و تلقي كل ما لا يستسيغه العقل ، فزهدت في الحياة و أختل تقديرها للأمور ، فأصبحت لا تميز بين العلم و غير العلم ، و بين العالم و غير العالم . العوامل تلك مجتمعة ، حالت دون فهم المسلمين للقرآن الكريم ، فأزهدتهم فيه و صدتهم عن الانتفاع به ([1]) .

و في هذا الإطار التحليلي ، يظهر لنا أن الإبراهيمي ذهب في تحليله هذا ، إلى القول بأن المسلمين عامة و خاصة على حدّ سواء ، قد أساؤوا التعامل مع القرآن الكريم ، كمرجعية دينية و فكرية و اجتماعية و حضارية ، حيث أنزلوه منزلة وضيعة لا تليق بمقامه ، من خلال تحويله على وسيلة للاستشفاء من الأمراض و الأسقام ، التي تكون أسبابها في غالب الأحيان عضوية و إلى مسرح لاستعراض الحساسيات و الخلافات المذهبية و الطائفية و اللغوية ، و حتى للأيديولوجيات الوافدة . الأمر الذي أربك كل شيء في حياتهم ، و تحول هذا الكتاب من محفز إلى الانطلاق في أفاق الإبداع و الفكر الرحبة ، إلى مثبط للعزائم و دافع إلى الكسل و الخمول و التقوقع على الذات . ليس لعلة فيه ، و إنما لسوء فهمه و تقدير أهميته في الحياة الإسلامية ، على كافة المستويات و الأصعدة . و قد أزمّ الوضع أكثر ، لجوء الكثير من الأمم الإسلامية إلى استبدال القرآن الكريم ، بمنظومات قانونية غربية ، لا تتفق مع واقعهم الاجتماعي و الديني ، حتى و إن نجحت في البيئات التي ظهرت فيها .

و دليله على صحة رأيه هذا ، موجود في أرض الواقع ، إذن أن تلك الأمم – العربية – الإسلامية التي استوردت تلك القوانين الغربية ، لتضعها محل القرآن الكريم ، لم تتمكن من تغيير

([1])– محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 1 ، المصدر السابق ، ص 362 .

أوضاعها قيد أنملة ، بل أنها ساءت أكثر من ذي قبل ، لأن الذي : ((لم ينتفع بقديمه لم ينتفع بجديد الناس)) .

و قد لجأت إلى ذلك ، ليس لأن الإسلام لم يعد يواكب العصر ، و إنما لأنه لم يبقى فيها من الإسلام إلا اسمه ([1]) . فحالها حسب الإبراهيمي كحال من يداوي: ((الحمى بالطاعون)) ([2]).

و في الواقع ، تعد تركيا السباقة في هذا المجال ، فبدل أن تعمل على إحياء العقيدة الإسلامية التي تجمدت و تحجرت ، و فقدت حيويتها التي اتسمت بها في العصور السابقة ، و تحولت إلى مجموعة من التقاليد المقدسة ظاهريا ، لا تحمل في مضامينها أي قدرة على التأثير الفعال في عالم الواقع ([3]) . راحت تقتبس كل شيء من الحضارة الغربية ، بدءا من القوانين العلمانية (اللادينية) و انتهاء باللباس و العادات الأوروبية ، و تدير ظهرها لكل ما هو إسلامي و شرقي . و قد تزعم هذه الحركة " مصطفى كمال أتاتورك " ، الذي سعى على محو الصبغة الدينية للدولة التركية من خلال :

- إلغاء وزارة الأوقاف ، و إلحاقها بوزارة المعارف .
- منع جميع الطرق الصوفية بداية من بداية شهر جوان 1924م ، و إغلاق كل الزوايا .
- ممارسة القسوة و العنف ، ضد كل نقد ديني للدولة .
- تحديد عدد المساجد ، و تخفيض عدد الوعاظ .
- غلق بعض المساجد ، و تحويل بعضها إلى متاحف و مستودعات (مسجدا أيا صوفيا و الفاتح) .
- ترجمة القرآن الكريم إلى اللغة التركية في أفريل 1931م ، مع التفسير .
- فرض الآذان باللغة التركية .
- فسح المجال ، أمام دخول الأتراك إلى النصرانية .
- زرع الروح الأوروبية في الفنون و الآداب .

([1])- محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 1 ، مصدر سابق ، ص 69 .

([2])- المصدر نفسه ، ج 4 ، ص 423 .

([3])- محمد قطب : هل نحن مسلمون ، مرجع سابق ، ص 115 .

– فرض اللباس الأوروبي على عامة الناس ...و غيرها من الإجراءات ، التي تصب في خدمة القومية الطورانية (التركية) ، على حساب القومية الإسلامية ([1]) .

و لهذا السبب ، صنف الإبراهيمي "كمال أتاتورك " ، في خانة خصوم الإسلام الموجودين بكثرة في كل مكان و زمان ، و الذين يتمنون زواله و إنقراضه ، و لتحقيق ذلك يوظفون كل الوسائل المتاحة لهم ، و حتى الحقيرة منها و في ذلك قال : ((و في الأرض عدد حصاها أعداء له يتمنون بقاصمة الظهر أن ينطفئ نوره ، و يستتر ظهوره ، و يوظفون في سبيل محوه من الأرض بما كسبت الأيدي و أحتبقت الخزائن من الأموال ، و بما أخرجت بطون النساء من الرجال ، و بما أنتجت القرائح من مكر و إحتيال و كيد ومحال)) ([2]) ، ينظرون إلى كل الموروث الإسلامي ، نظرة إحتقار و إزدراء ، يعتقدون أنهم إذا إتبعوا الحياة الإسلامية و أخذوا بمبادئ و قيم الإسلام ، سيكون مصيرهم الإنحطاط و التخلف بدل الإزدهار و التقدم ، و أن اللحاق بقطار الحضارة ، لن يكون إلا بإعتناق الأفكار و المذاهب الغربية ، و إتباعها شكلا و مضمونا ([3]) .

و يضيف بأن هذه الفئة ، و إن كانت قد نجحت في إبعاد المسلمين عن كتاب دينهم ، و تعطيل العمل به في حياتهم ، فإنها فشلت فشلا تاما في النيل من القرآن الكريم نفسه ، لأن الذي تولى حفظه و إبقائه خالدا منزله الله سبحانه و تعالى ، و في إمكان المسلمين العودة إليه متى شاءوا ([4]) ، و سيجدون فيه ما كان سببا في إرتقاء أسلافهم الأوائل ، و جعلهم في مصاف الأمم المتقدمة روحيا و ماديا ([5]) .

و مما سبق ، نستنتج أن الإسلام في إعتقاد الشيخ البشير الإبراهيمي ، ليس مسؤولا بأي شكل من الأشكال عن تخلف المسلمين و إنحطاطهم ، لأنه كان و سيظل صالحا لكل الأزمنة ، بشرط أن يحسن فهمه و تدبره ، و من ثمة تطبيق تعاليمه على وجهها الصحيح ، و إنما المسؤول

([1])– محمد قطب : هل نحن مسلمون ، مرجع سابق ، ص 115 و ما بعدها .

([2])– محمد البشير الإبراهيمي: الآثار ، ج 1، مصدر سابق، ص 160.

([3])– ينظر أبو الأعلى المودودي : بين يدي الشباب ، د ط ، د م ج ، الجزائر : 1985م .

([4])– محمد البشير الإبراهيمي، المصدر نفسه، ص 160

([5])– المصدر نفسه ، ص 158 .

الحقيقي هم المسلمون أنفسهم ، الذي هجروا كتابهم و لم يربطهم بالإسلام إلا الاسم ، إذ لو أقيمت حسب الشيخ ، لجنة لامتحان إسلامهم ، لأستبعد منهم ما نسبته 99% ([1]) .

03 – الحجر على الإجتهاد و النزوع إلى النقل و التقليد :

الاجتهاد لغة هو : ((بذل الوسع و الطاقة في عمل من الأعمال ، ماديا كان العمل أو فكريا للوصول إلى الغاية المطلوبة)) . أما اصطلاحا فهو : ((بذل الوسع و الطاقة الفكرية في استخراج حكم شرعي خفي ، لم يأتي به نص من النصوص الأصلية في التشريع : الكتاب و السنة)) ([2]) ، و هو أيضا : ((عملية استنباط الأحكام الشرعية من أداتها التفصيلية في الشريعة .و معنى ذلك أن الشريعة حكما في كل حادث ممكن و فيها أدلة كافية لتهدي الباحث المجتهد إلى ذلك الحكم الشرعي)) ([3]) . و فضلا عن ذلك ، فالاجتهاد هو الركن الرابع من مصادر التشريع الإسلامي ، بعد الكتاب و السنة و الإجماع . و يعرف أيضا باسم " القياس " أو " العقل " أو " الرأي " ، انطلاقا من كون هذه الأسماء الثلاثة هي من أدوات الاجتهاد .

و على هذا الأساس ، حضت الشريعة الإسلامية بقوة على الاجتهاد ، فجعلت للمجتهد إذا أصاب أجران و إذا أخطأ له أجر واحد ، فاحتل مكانة متميزة و مرتبة رفيعة في الحياة الإسلامية ([4])، لم تمنح له في كل الشرائع القديمة و الحديثة على حدّ سواء ، فعند الرومان لم يكن معروفا لأن الشريعة كانت سرا من أسرار الكهنة و رجال الدين ، و لم يصبح مصدرا من مصادر الحقوق إلا في فترة وجيزة من الزمن ، و سرعان ما ضيق عليه القياصرة الخناق بصورة تدريجية حتى حصروه في أنفسهم . أما الشرائع الحديثة ، فقد أجمعت على أن القوانين هي المصدر الوحيد : ((للكشف على كل حكم حقوقي ضروري لحاجات الحياة الإجتماعية)) . و بذلك فإن الشرائع الحديثة و القديمة ، قد أقصت عنصر الإجتهاد ، و حرمت على المفسرين أن يتجاوزوا

([1])– محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 4 ، مصدر سابق، ص 211 .

([2])– عبد المنعم أحمد النمر : " الاجتهاد في القرن الأخير ، المنهجية المتبعة و الإنجازات عرض و تقييم " ، محاضرات ملتقى الفكر الإسلامي السابع عشر، ج 2، د ط ، مؤسسة العصر للمنشورات الإسلامية،الجزائر: 1983م، ص ص 321–322.

([3])– مصطفى أحمد الزرقاوي : " الاجتهاد و دور الفقه و الاجتهاد " ، المرجع نفسه ، ص 139 .

([4])– معروف الدواليبي : " الاجتهاد في الإسلام من خلال قواعده الأصولية العلمية و مقاصد الشريعة الإسلامية " ، المرجع نفسه ، ص ص123–125 .

بإجتهادهم حدود للتفسير في القانون ، الأمر الذي جعلها شرائعا تفتقد إلى عامل الإستقرار الديمومة ([1]) .

و لقد أعجب أيما إعجاب ، العديد من المستشرقين الغربيين بجعل الإجتهاد أصلا من أصول الشريعة الإسلامية ، و مصدرا من مصادرها ، و منهم المستشرق الألماني "كولد زيهر " (GOLD ZIHER) الذي وصفه بأنه : ((ينبوع القوة التي تجعل الإسلام يتحرك و يتقدم بسرعة)) ، و أنه : ((العقل الساهر على نمو الشريعة و إزدهارها ، و الذي يطرد العقم من قواعدها ، و تهمة الجمود في طبيعتها)) ([2]) . هكذا إذن ، كان الإجتهاد مصدر قوة و حركة ، و تطور للشريعة الإسلامية خلال القرون الأربعة الأولى من عمر الإسلام ، فسمح لها بمواكبة مستجدات الحياة ، و تعقد و تشابك متطلباتها المتزايدة بإطراد في شتى المجالات .

لكن الأمر إختلف مع بداية القرن الخامس للهجرة ، أين أغلق باب الإجتهاد تدريجيا بحجة عدم الحاجة إليه ، و آل الفقه إلى الجمود و الركود ، و حل محله النقل و التقليد في كل العلوم الإسلامية ، فالفقهاء أضحوا يأخذون الفقه من مؤلفات ترشد إلى الأحكام و لا توضح الحكم ، و كان لذلك آثار سلبية في نفوسهم ، و هم مرجع الأمة في الفتوى ، و منها إعتبارهم لتلك الأحكام بمنزلة العبادات ، يحفظ ظاهرها و لا يجوز إعمال الفكر فيها ، لتلمس عللها و طلب حكمها ، و الوقوف على مقاصد الإسلام منها ، و كشف المواطن الإيجابية و السلبية فيها ([3]) .

و من الأمثلة التي ساقها الإبراهيمي ، للدلالة على جمود الفقه و الفقهاء مسألة الطلاق ، فبعد أن عرفه أنه : ((حل عقدة ، و بتّ حبال ، و تمزيق شمل ، و زيال خليط ، و انفضاض عامر ، فيه كل ما في هذه المركبات الإضافية التي إستعملها شعراء العرب و جرت في آدابهم العاطفية مجرى الأمثال ، من إلتياع و حرارة ، و حسرة و مرارة ، و يزيد عليها جميعا بمعنى آخر ، و هو ما يصحبه من الحقد و البغض و التألم و التظلم)) .بين أن الزواج: ((عقد بين و بين و وصل بين نفسين، و مزج بين روحين، و في الأخير تقريب بين جسمين)). ثم أعقب ذلك موضحا ، أن الزواج قد تعتريه من حين لآخر يلجأ إلى أبغض الحلال عن الله سبحانه

([1])- معروف الدواليبي ، المرجع السابق ، ص ص 124-125 .

([2])- المرجع نفسه ، ص 123 نقلا عن : GOLD ZIHER : Le DAGME et La Loi de L'islam , Paris , p. 46.

([3])- محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 3 ، مصدر سابق ، ص 298 .

و تعالى ، حتى يستريح كل طرف مما يذيق به ذرعا ، مع إبقاء خيط الأمل في التئام الشمل من جديد ، فقد تزول بعض مسببات الطلاق ، فيرغب المطلقان في إعادة الوضع إلى أصله . و هو ما غفل عنه الفقهاء الجامدون ، المتمسكون بحرفية النصوص ، غير المدركين للعواقب الاجتماعية الخطيرة ، التي تنجر عن التساهل في الطلاق .

فقد تخرب بيوت و يمزق شمل أسرة و يشرد الأولاد ، بسبب يمين بالطلاق إثر نقاش تافه بين رجلين في سوق أو مقهى ، أو بين زوج و صهره ، أو بسبب خلاف مع جار أو حديث في السياسة ، دون علم من الزوجة الماكثة ببيتها ، التي تجد نفسها رفقة أبنائها ضحية لتصرفات زوج أحمق و متهور . فيزيد الفقهاء الطين بلة، بتشبثهم بقاعدة أن العصمة في يد الزوج التي يحفظونها عن ظهر قلب . و بتغافلهم عن كونه حق ثابت في الشريعة الإسلامية ، لكن لا يعطى إلا للمسلم الصحيح الإسلام لأنه عهد و أمانة ، فإذا أعطي للجهلة المتحررين من قيود الدين ، فإن العاقبة تكون أسوأ و النتيجة أخطر من إعطاء السلاح للمجانين ، لأن : ((عقدة الزواج عقدة مؤكدة حافظ عليها الأحرار ، و يتلاعب بها الفجار ، و أن العصمة إمتياز لرجالكم ما لم تطغوا ...)) .

و لعل أسوأ نتيجة تترتب عن الطلاق في تقدير الشيخ البشير ، ضياع الأبناء و شقائهم ، فإذا ربوا في أحضان أمهم المطلقة شقوا ببعدهم عن أبيهم ، و شقي بهم أبوهم بما تبثه أمهم في أنفسهم من حقد و كراهية له . و لهذا فإن الاستقرار الاجتماعي لن يتحقق ، إلا إذا ترعرع الأولاد في أحضان الآباء و الأمهات ، أين يتلقون العطف و الحنان من الطرفين لا من طرف واحد .

و نفهم من كل ذلك ، أن الإبراهيمي يذهب إلى أن المصلحة الاجتماعية ، تقتضي من الفقيه أن ينظر إلى أبعد من ظاهرة النصوص في مسألة الطلاق و في غيرها من المسائل ، لأن التساهل أو الغفلة عن علم أو جهل في الطلاق مثلا من شأنهما رهن مستقبل أمة بأكملها : ((ليت شعري هل يدري المتساهلون في الطلاق ماذا جنوا على أنفسهم و على أبنائهم و على أمتهم ؟)) ([1]) .

و في سياق آخر ، انتقد منهج علماء الإسلام في العلوم الإسلامية ، فذكر أن إطلاعه على أغلب ما خلفوه لنا من إنتاج علمي و فكري و الذي يصطلح عليه اليوم بالعلوم الإسلامية ، جعله يكتشف أن التقليد يطغى عليه في كل الأطوار الزمنية التي مر بها ، من النهضة العلمية و إلى غاية عصور الانحطاط ، حيث افتقد إلى التحقيق و النقد و الاستقلالية في الرأي ، و الشجاعة

([1])- محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 3 ، مصدر سابق ، ص 297 و ما بعدها .

في الطرح ، لتنتقل العدوى إلى العلوم الأخرى التي تحولت إلى : ((أشباح بلا أرواح)) على حدّ قوله ، مما أعاق بشكل أساسي نمو و تطور الإنتاج الفكري و العلمي على حد سواء .

و أضاف بأن العلوم الإسلامية ، موضوع تاريخي مثل بقية المواضيع التاريخية ، و الباحثون المهتمون به مجموعة من الشرق و عدد قليل من الغرب ، تضاربت وجهات نظراتهم إزاءه ، بفعل تشابكه و تعقيداته ، و هو ما يفسر قلة الباحثين الذين أجادوا البحث فيه ، و وصلوا إلى نتائج تتعارض و الحقائق التاريخية ، لكن إذا كان من الممكن إعذار الباحثين الغربيين المشتغلين بالتراث العربي و الإسلامي ، في تقصيرهم بسبب العقبات التي تعترض سبيلهم . فإنه في المقابل لا عذر للباحثين المسلمين ، الذين لا تقف في طريقهم إلا عقبة واحدة هي التقليد ، الذي يشكل أكبر عائق للإنتاج الفكري و العطاء العلمي ، بل أنه السبب الوحيد في وأد ملكة الابتكار لدى المسلمين ، و قد تفاقم أمره حتى أصبح ظاهرة ملازمة للعلوم الإسلامية و تاريخها ([1]) .

و إن كان الإبراهيمي لم يذكر العقبات ، التي تعترض الباحثين الغربيين المشتغلين في مجال العلوم الإسلامية ، فإنه لا ريب تأتي على رأسها مشكلة اللغة التي مهما أتقنها الغربيون ، تظل حاجزا أمام فهمهم للإسلام كدين بصفة عامة و للفقه الإسلامي بصفة خاصة . بسبب خصوصية اللغة العربية ، التي تجعلها أصعب ما يكون لغير العرب ، حتى و إن كانوا باحثين أكاديميين مثل المستشرقين الغربيين . دون أن نغفل إنتماءهم لديانات أخرى تختلف عن الدين الإسلامي ، إختلافا صريحا ، و ما ينجر عن ذلك من إسقاط لتلك الخصوصيات على الإسلام ، الذي يتطلب فهمه الإلمام بجوهره الذي هو ليس جوهر كل من المسيحية أو اليهودية ، أو الديانات الأخرى .

و من مظاهر إستحكام التقليد التي لفت إنتباه الشيخ البشير الإبراهيمي ، نزوع طالبي العلم المتأخرين إلى الطاعة المطلقة ، لمن يسمون مشايخ الطرق الصوفية ، و سرعان ما إنتقلت تلك الصفة السلبية إلى المعلمين و المتعلمين على حدّ سواء ، فلا يخلو مجلس من مجالسهم منها ، رغم علمهم أن العلم مقرون بالدليل ، فتراهم يقصرون الإجتهاد على طائفة محدودة من العلماء الأحياء و الأموات ، بحجة ان ما إنتهى إليه هؤلاء من إجتهادات يفي بالغرض ، و ليس هنالك حاجة إلى المزيد من الإجتهاد . يقلدونهم في أدق التفاصيل ، التي لا ينبغي أن تؤخذ إلا من

([1])- محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 1 مصدر سابق ، ص 47 .

نصوص دينية صريحة ، من آيات محكمات و أحاديث نبوية صريحة ، فلا تسمع منها إلا كلمات يروجونها دون مثل : ((سلم تسلم)) ، و ((سلم للرجال في كل حال)) .

و الأمر نفسه حسبه بالنسبة لمؤلفي السيرة النبوية ، الذين يصرفون كل جهودهم و طاقاتهم إلى الجوانب السطحية التي لا يفيد الإقتداء بها في تزكية النفس ، كطريقة لبس الرسول " ص " و أكله و شربه و نومه و إجتماعه بأهله . عوض الإهتمام بالنواحي الروحية في سيرته ، و إرتباطه بالله و خشيته له ،و حمله للأمانة العظيمة التي كلف بتأديتها ، و صبره على كل الأذى الذي لحق به ، و شجاعته وتربيته لصحابته ، و تدريبهم على جهاد أنفسهم حتى تسموا إلى الكمال و : ((على السمع و الطاعة للحق و في الحق ، و على التعاون و التناصح و التحابب و الإتحاد ...)) ، و وضعه لأسس الدولة الإسلامية . فزادت الأمة على هذا التقصير ، بإحياء مولده باللهو و اللعب ، و بإقامة الأفراح و الحفلات التقليدية الخالية من المغزى الروحي ، الذي يفترض استحضاره في مثل هذه المناسبات الخاصة ([1]) .

و تكمن أهمية ما ذكر الإبراهيمي بشأن السيرة النبوية ، و طريقة تناولها من طرف المؤلفين المسلمين ، بكونه دعا إلى إعادة النظر في كل ذلك ، و النظر إليها نظرة جديدة بعيدة عن الجوانب الإحتفالية و الطقوسية و الشخصية ، ليس لصالح المسلمين فقط ، و إنما للإنسانية جمعاء التي هي في حاجة ماسة أكثر من أي وقت مضى للقيم الإسلامية ، و إلى النماذج الإسلامية المثيرة للإقتداء ، خاصة في عصرنا الحالي ، الذي انفتح فيه العالم و أنفسح لاستقبال كل شيء و مراجعة كل شيء ([2]) .

انتقل بعدها للحديث عن المفسرين للقرآن الكريم ، الذين رأى أنهم أخضعوا عملهم لنزعاتهم الطائفية و المذهبية ، فضيعوا هديه و بلاغه ، و حرموا الأمة من حكمه و أسراره . فالمحدثون يكتفون في تفسيره بالمأثور ، فإن اختلفت الرواية فمنهم من يوردها بتناقضاتها فيترك المتلقي في حيرة من أمره ، و منهم من يجتهد برأيه فيعدل و يرجح مثلما كان يفعله " أبو جعفر الطبري " (*).

([1])- محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 4 ، مصدر سابق ، ص 146 .

([2])- يسري محمد أرشد : حقوق الإنسان في ضوء الحديث النبوي ، سلسلة كتاب الأمة ط 1 ، وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية ، قطر : 2006م ، ص 10 .

(*) - أبو جعفر الطبري : هو أبو جعفر أحمد بن جرير الطبري ، مؤرخ و مفسر و فقيه شافعي ، حاول أن يكون له مذهب خاص ، ولد في " أمل " بـ : " طبرستان " ، إستوطن بغداد و توفي بها سنة 310 ه/923 م .

في حين يفسر مقلدوا المذاهب القرآن على قواعد مذهبهم ، فإن حدث اختلاف بين نص منه و قاعدة من تلك القواعد ، أوّلوه حتى ينسجم معها . أما علماء الكلام (*) ، المهتمون بمعاني القرآن ، فقد إنصّب تركيزهم على الألفاظ المفردة و أوجه الإعراب ، على إعتبار أن أغلبهم لغويون و نحـــاة . أما الإخباريون المفتونون بالقصص ، فلا يختارون إلا الآيات المتصلة به ، دون أن يحققوا الحكمة من القصص ، فيكشفون العبرة منها ، و يستنبطون التفاصيل من سنن الله في مخلوقاته ، فتجـــدهم يسترسلون مع الرواية و تستهويهم غرابة الأخبار ، فينتهي بهم الأمر إلى الإسرائيليات التي تتصف بالتزييف و التلفيق و الكذب ، فيكونون بذلك قد ألحقوا ضررا كبيرا بالمسلمين ، و عملـــوا علـــى تحريف الحقائق و تزوير التاريخ . أما أقطاب المذاهب العقلية ، فيعاب عليهم عدم التوســـع فـــي التفسير إلا في الاستدلالات العقلية على تأكيد الصفات أو نفيها ، و على الجوانب الغيبية و النبوات و ما يرتبط بها . في حين يمتنع النحاة و الباحثون في أسرار التراكيب ، عن الإفاضة إلا فيما تعلق بالإعراب و البلاغة ، مثلما كان يقوم به " الزمخشري " (**) و أبو حيان التوحيدي (***).

و على خلاف ذلك ، كان العلماء الأوائل يفسرون المحتوى العملي من القرآن ، على أنه

له مؤلفات مشهورة منها : " جامع البيان في تفسير القرآن " الذي يعرف بتفسير الطبري ، و " تاريخ الأمـــم و الملوك " الذي يعرف بتاريخ الطبري ، و " إختلاف الفقهاء " ، و " آداب القضاة " ، و " تهـذيب الآثـــار " . المنجد في اللغة و الأعلام .

(*) – علم الكلام : علم من العلوم الشرعية المدونة ، يبحث في ذات الله سبحانه و تعالى و صفاته ، و أحوال الممكنات من المبدأ و المعاد على قانون الإسلام . المنجد في اللغة و الأعلام .

(**) – الزمخشري : هو أبو القاسم محمود الزمخشري (1075م – 114م) ، إمام عصـــره فـــي اللغـــة و النحو و البيان و التفسير ، ولد في " زمخشر " جاور بمكة زمنا طويلا ، رحل إلى عدة بلدان و عاد إلـــى " الجرجانية " و توفي بها . تأثر بالمعتزلة ، و كان شديد الإنكار على المتصوفة . من أشهر كتبه : " الكشاف " في تفسير القرآن ، " أساس البلاغة " ، " المفضل " ، " الفائق " في غريب الحديث ، و " أطـــواق الـــذهب " ، و " نوابغ الكلام " . المنجد في اللغة و الأعلام .

(***)– أبو حيان التوحيدي : حكيم و فيلسوف صوفي ، كان صاحب طراز فريد في الكتابـــة و الأســـلوب ، عاش في بغداد و " الري " ، و عمل عند " إبن العميد " و " الصاحب إبن عباد " . من مؤلفاته : " الصـــداقة و الصديق " ، " المقابسات " ، " الإمتاع و المؤانسة " ، " مثالب الوزيرين " ، " الإشارت الإلهية " .توفي بعـــد سنة 400 ه /1010 م . المنجد في اللغة و الأعلام .

هداية عامة لكل الناس ، على اختلاف ألوانهم و ألسنتهم و أماكن و أزمنة تواجدهم ، تتطلب من كل مؤمن أن يستوعبها و يعمل بها . كما كانوا يتجنبون الخوض في النواحي الغيبية منه ، لأنها تتجاوز المستوى العقلي للمؤمن الذي لم يكلف باستيعابها ، و بالتالي فهو لا يحاسب على التقصير فيها . كما أنهم كانوا ينظرون إلى النواحي الكونية فيه نظرات صائبة، ووجدت من يبحث فيها بحثا علميا من العلماء المتأخرين ([1]).

و بالتالي فإن هذا المسلك الخاطئ ، الذي سلكه علماء المسلمين على اختلاف تخصصاتهم ، هو الذي أدى في نظر الإبراهيمي ، و في نظر الكثيرين ممن كتبوا أو بحثوا في واقع العرب و المسلمين ، سواء كانوا شرقيين أو غربيين ، إلى جمود الفقه الإسلامي و استسلامه للواقع لعدة قرون ([2]) ، و الذي ترتب عنه تعطيل الأخذ بالأسباب . حيث وقف العرب و المسلمون في مرحلة الانحطاط موقف المستسلم عديم الحركة ، أمام مستجدات الحياة و متطلباتها لسوء فهمهم للعقيدة الإسلامية ([3]) ، و أداروا ظهرهم للتجديد متمسكين بكل ما هو قديم و تقليدي ([4]) .

إن تعطيل العقل في مفهوم البشير الإبراهيمي ، هو من أكبر الجنايات التي ارتكبها المسلمون عامة و علماء الفقه خاصة ، و حجته في ذلك أن العقل إذا تعطل و تجمد ، تعطلت و تجمدت معه ثماره و فوائده ، و أنزل الناس منزلة المجانين ، و استحكمت على أذهانهم الأوهام و الخرافات ، و انحرفت و زاغت نظرتهم للحقائق ، و النتيجة أنهم يرفعون أشياء منحطة و وضيعة ، و يستصغرون و يحتقرون أمورا على درجة كبيرة من الأهمية و العظمة ([5]) .

و هو مفهوم دقيق و صائب برأينا ، لأن الفقه هو المعبر الدائم عن نمو المجتمع الإسلامي ، فإن تجمد معه ([6]) . و في هذا الصدد يعتبر المفكر الإيراني " فريدون هويدا "([7])أن حرق مؤلفات "

([1])- محمد البشير الإبراهيمي: الآثار ، ج 2 ، مصدر سابق ، ص ص 250 – 251 .

([2]) – محمد الغزالي ، المرجع السابق ، ص 54 .

([3])- محمد المبارك ، المرجع السابق ، ص 57 .

([4])- فريدون هويدا ، المرجع السابق ، ص 71 .

([5])- محمد البشير الإبراهيمي ، المصدر نفسه ، ج 4 ، ص 364 .

([6])- محمد قطب : هل نحن مسلمون ، مرجع سابق ، ص 107 .

([7]) – فريدون هويدا ، المرجع نفسه ، ص ص81–80 .

ابن سينا " (*) و " الفارابي " (**) في إيران و العراق ، و " إبن رشد " (***) في الأندلس ، و قتل الفيلسوف السهروردي (****) بأمر من " صلاح الدين الأيوبي " ، بالإضافة إلى حرق المخطوطات المحفوظة في المكتبة الكبرى المنشأة من قبل الأمويين ، كل ذلك من أكبر المظاهر الدالة على الإنغلاق و رفض الإنفتاح على العقل .

و في حقيقة الأمر ، إن الفقه الإسلامي قد واصل بعد ذلك إنحداره ، و أضحى يقبل بالإنحرافات الثقافية و الإجتماعية و بإغتصاب السلطة ، و صار يعطي للحكام المسؤولين عليها

(*)- إبن سينا : هو إبن سينا ابو علي (980 م- 1037م) ، فيلسوف و طبيب و عالم من كبار فلاسفة الإسلام و أطبائهم ، عرف بالشيخ الرئيس ، ولد في " أفشنة " قرب " بخارى " ، تعمق في دراسة فلسفة أرسطو و تأثر بالأفلاطونية المستحدثة . قال بفيض العالم عن الله كما فعل " أفلوطين " ، كانت له ميول صوفية برزت في" الحكمة الشرقية " و هي عبارة عن فلسفته الشخصية . من أشهر مؤلفاته المطبوعة : " القانون في الطب " ، " الشفاء " ، " النحاة " ، " الإشارات " ، " التنبيهات " ، " الحدود " في " الفلسفة و المنطق " زيادة على ذلك كانت له بعض الأشعار بعضها في النفس ، توفي بـ : " همذان " . المنجد في اللغة و الأعلام .

(**) – الفارابي : هو أبو نصر محمد الفارابي ، من أكبر فلاسفة العرب ، ولد في " فاراب " التي تتواجد حاليا في حدود " كازاخستان " ، درس في بغداد و " حران " و أقام في بلاط سيف الدولة في حلب ، عرف بتضلعه في المنطق و الرياضيات و الموسيقى ، لقب " بالمعلم الثاني " بعد " أرسطو " . خلف عدة مؤلفات منها : " إحصاء العلوم و التعريف بأغراضها " ، " كتاب الموسيقى الكبير " ، " كتاب الحروف " . توفي سنة 950 بدمشق . المنجد في اللغة و العلوم .

(***) – إبن رشد : هو ابو الوليد محمد إبن الرشد ، فيلسوف عربي ولد بقرطبة ، درس علم الكلام و الفقه و الشعر و الطب و الرياضيات و الفلك و الفلسفة ، قدمه " إبن طفيل " لـ : " أبي يعقوب يوسف " خليفة الموحدين سنة 1182م ، الذي عينه طبيبا خاصا له ثم قاضيا في " قرطبة " . حاول إيجاد توفيق بين الشريعة و الفلسفة في كتابه " تهافت التهافت " ، دافع عن " الغزالي " . له شروح كثيرة على " أرسطو " ، أطلق عليه فلاسفة الغرب إسم " الشارح " ، توفي سنة 1198م في مراكش . المنجد في اللغة و الأعلام .

(****) – السهروردي : هو شهاب الدين السهروردي ، فيلسوف تنويري كبير كان شافعي المذهب ، ولد في " سهرورد " و نشأ بـ: " مراغة " ، رحل إلى " حلب " التي قتل فيها بتهمة الإلحاد . من مؤلفاته : " حكمة الإشراق " ، " هياكل النور " ، " رسالة في إعتقاد الحكماء " . توفي سنة 1191م . المنجد في اللغة و الأعلام .

بالقوة صفة الشرعية ([1]) . فخلال عهد المماليك، أفتى فقهاء الجمود فتويان كان لهما دور سياسي خطير إلى غاية اليوم ، فالفتوى الأولى تضمنت التحريم المطلق للثورة مهما كانت الأسباب ، إستنادا على حديث نبوي شريف يفيد أن الصبر على الحاكم الظالم ستون سنة ، أفضل من فتنه ساعة . أما الفتوى الثانية، فقد أجازت إمارة الغالب، و معناها إجازة أخذ البيعة لأي رجل مسلم، يتغلب بالقوة و يتسلم السلطة. و جاء بعد المماليك الأتراك ، الذين عرفت حقبتهم إنجازات كبيرة على المستوى العسكري ، و في مقابل ذلك إنحسارا كبيرا على مستوى المفاهيم و الأفكار ، التي شهدت تقهقرا و تجمدا منقطع النظير ([2]) ، فمنعوا كل إجتهاد يناقض هذين الفتويين ، و هو ما ثار عليه "عبد الرحمان الكواكبي" و قتل بسببه بالسم سنة 1902م ([3]) .

إن العلماء المقلدين غير المجتهدين عند الإبراهيمي ([4]) ، هم الذين يقرؤون و يحفظون و ينقلون ، دون فقه أو تمحيص و زيادة ، و على العكس من ذلك لا يعتبر العالم عالما في البلاد الأوروبية المتقدمة ، إلا إذا أضاف للعلم جديدا أو كشف عن بعض خفاياه ، أو أماط اللثام عن جانب من غوامضه ، و أصبغ عليه شيئا من روح عصره : ((فالعلم عندهم ياقوتة في منجم ، و عندنا لفظة في معجم و الأولى تستخرج بالبحث و الإلحاح و الثانية تستخرج بمعرفة الإصطلاح ، و الأولى حظ المجتهد العامل و الثانية حظ المقلد الخامل)) . فإذا أسقطنا هذا الوصف على العلماء المسلمين المتأخرين ، وجدناهم مقلدين و نقلة غير مجتهدين ، و نزعنا عنهم صفة العلماء .

و عليه فإن فقه عصور الإنحطاط ، قد إنفصل عن العقيدة الإسلامية ، و رؤية الإسلام الحضارية الشاملة ، فلم يعد للعقائد و علم العقائد ، دور مهم في توجيه الحياة الإجتماعية ، و تحول في جوهره إلى علم للتناقضات و الغموض و الجدليات ، التي ليست من شأنه ، و لا في طاقة نظره و إدراكه ، و التي تؤدي في الكثير من الأحوال إلى شلّة و صرفه عن غاياته ، و جدية آداء مهمته في الحياة ، المتمثلة في العمل و الإستخلاف . في حين نجم عن التقليد ، عجز الأمة عن الإستمرار

([1])- محمد الغزالي ، المرجع السابق ، ص 54 .

([2])- محمد قطب : هل نحن مسلمون ، مرجع سابق ، ص 106 .

([3])- محي الدين صبحي : " المشروع الحضاري و العبث بالمصير العربي " ، مجلة العربي ، الكويت : عدد 463 / جوان 1997م . ص 30 ،31 ، 32 .

([4])- محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 3 ، مصدر سابق ، ص 565 .

في إنتاج المعارف ، و تطوير الأفكار ، لبلوغ أفــاق حضــارية متنامية ، تستجيب للظــروف و الحاجات المتغيرة باستمرار .

و على ضوء ما تقدم ، نستخلص أن تعطيل العمل بالدين الإسلامي ، من خلال هجر القران الكريم ، و الحجر على الاجتهاد ، و الميل إلى النقل و التقليد ، يمثل سببا أساسيا من أسباب انحطاط العرب و المسلمين في نظر الشيخ البشير الإبراهيمي ، فالإشكالية لا تكمن عنده في الإسلام نفسه كدين ، و إنما في خطأ التصورات إزاءه ، و عجزهم الفادح عن فهم إبعاده الحضارية ، و قدرته الفريدة على التجديد و مواكبة تحديات العصر ، و متطلبات الحياة التي لا تتوقف عن التزايد و التشعب ، إن أحسن فهمه و استيعاب عناصر القوة فيه ، التي مكنت العرب و المسلمين الأوائل ، من تحقيق نهضة حضارية متميزة ، لم يصلوا إليها إلا بعد مجيء الإسلام ، و سمحت لهم بتبوء مكانة رفيعة بين الأمم .

04 – فساد الأخلاق و العادات و وهن العزائم :

يعتقد الشيخ البشير الإبراهيمي ، أن فساد الأخلاق له عواقب و نتائج خطيرة على حياة الأمم و المجتمعات ، لأنه بالأخلاق الفاضلة التي تترسخ في نفوس أفرادها ، تتمكن من حفظ وجودها و استمرار قوتها و تطورها ، و هي حقيقة اقرها الإسلام و أجمع عليها الحكماء و المفكرون ، و لهذا فالإسلام حرص حرصا شديدا ، على وجوب إتصاف المسلمين بالأمر بالمعروف و النهي عن المنكر ، ضاربا الأمثال بالأقوام و الأمم التي سبقت ظهوره ، بهدف الاعتبار منها([1]) . أي أن الأخلاق السوية ، مطلب أساسي لجميع الأمم ، مهما اختلفت في الجنسية أو في المكان أو في الزمان ، إذا أولتها العناية الخاصة ، تقوم و تسمو وتزدهر ، و العكس إذا أهملتها أو تساهلت إزاءها .

و يرى بأن الإسلام ، لم يكتسح العالم و يجمع الملايين من البشر ، المتباينة أجناسهم و أعراقهم و أوطانهم ، حول عقيدته و مبادئه السمحة ، بالجيوش الجرارة و الأسلحة الفتاكة ، و إنما بفضل الأخلاق العالية و الآداب الرفيعة ، التي تميز و تحلى بها الدعاة و الفاتحون و القادة و الجنود ، الذين استمالوا قلوب و عقول تلك الأمم و الأقوام ([2]) ، ليس كوسيلة أو حيلة لبسط

([1])– محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 1 ، مصدر سابق ، ص 134 .

([2])– المصدر نفسه ، ص 34 .

سلطانهم و سيطرتهم على خيراتها و ثرواتها ، و لكن لأن الآداب و الأخلاق التي أبانوا عنها تمثل جوهر الدين الإسلامي ([1]) .

على خلاف ، ما يذهب إليه الكثير من الدارسين للتاريخ الإسلامي ، عربا و مسلمين و غربيين على حدّ سواء ، من أن سرعة انتشاره المدهشة ، إنما ترجع إلى طبيعة العرب الحربية ، متغافلين عن كونهم فتحوا تلك الأقطار و الأصقاع ، لتشبعهم بروح التسامح ، التي منحتهم ملك آسيا و إفريقيا و نصف إسبانيا ([2]) . تلك الروح ، هي التي جعلت المسلم في المجتمع الإسلامي الجديد الذي أقيم على أنقاض المجتمع الوثني القديم ، يعرض على أخيه المسلم أن يزوجه من يختار من زوجاته بعد أن يطلقها له ، كي يبني لنفسه أسرة على حدّ قول المفكر " مالك بن نبي " ([3]).

و في المقابل من ذلك ، يذهب الإبراهيمي إلى أنه من الأسباب الرئيسية ، التي مكنت أوروبا الاستعمارية من بسط سيطرتها على الشرق ، الذي يشكل العرب و المسلمون الجزء الأكبر فيه جغرافيا و سكانيا ، إنتهاجها أسلوب إفساد أخلاق أهله ، و إضعاف الجوانب الروحية فيه ([4]) ، رغم إدعائها بأن غايتها تحضير و تمدين المجتمعات الشرقية ، التي ينبغي عليها أن تنعم بفضائل الحضارة الغربية . و غيرها من تلك الشعارات ، التي يقر الشيخ البشير بأنها زائفة ، تفضحها جرائم التقتيل الجماعي و التعذيب ، التي كان الجنود الفرنسيون يرتكبونها بأشكال و حشية يستقذرها الشيطان نفسه ، في حق الضعفاء و العزل من الشعب الجزائري ، ثارا من المجاهدين كلما عجزوا عن ملاحقتهم بهدف القضاء عليهم ، رغم أعدادهم الكبيرة و أسلحتهم الفتاكة . و يضيف قائلا بأن تلك الجرائم ، كانت ترتكب من قبل جنود كان يفترض فيهم ، أن يتحلوا بالتربية الفاضلة و الأخلاق الحميدة ، لأنهم سفراء لحضارة ينبغي لها ، أن تهذب الأخلاق و تلطف من

([1])- محمد البشير الإبراهيمي : الآثار، ج 2 ، مصدر سابق ، ص 195 .

([2])- أنور الجندي : آفاق جديدة للدعوة الإسلامية في عالم الغرب ، ط 3 ، مؤسسة للرسالة ، بيروت : 1987م ، ص 325 .

([3])- مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ترجمة عبد الصبور شاهين، ط 4، دار الفكر، سوريا: 1984م، ص 81 .

([4])- محمد البشير الإبراهيمي ، المصدر نفسه ، ج 4 ، ص 171 .

النزاعات الحيوانية ، فتقربها إلى الرحمة و الرأفة ، و تنشر الفضائل في النفوس ([1]) .

و ينتهي إلى التساؤل ، عن محل تلك الأعمال القذرة و الحقيرة من الحضارة الإسلامية في عهدها الأول ؟ ، التي لا يتوقفون عن نقدها و التهجم عليها ، و عن الفارق بين آداب القتال التي سنها الإسلام ، و عن نظيرتها خلال عصر الحضارة و التقدم و الرقي الغربي ؟ ، و عمّا إذا كان هنالك مجال للمقارنة بين ما كان يقوم به الجيش الفرنسي ، و بين رحمة الإسلام التي تجسدت في وصية الخليفة "عمر إبن الخطاب" رضي الله عنه ، لأحد الجيوش الإسلامية المتأهب للغزو ، بقتال من يقاتله فقط ، و تجنب قتل المستضعفين من الأطفال و النساء و الشيوخ ؟ ([2]) .

و بناءا عليه ، يتبين لنا أن الإبراهيمي قد شكك بشكل صريح ، في مصداقية أخلاق الحضارة الغربية ، بضربه العديد من الأمثلة من أرض الواقع ، و منها بشكل خاص أعمال الجيش الفرنسي غير الإنسانية في الجزائر ، نقلها كما هي بصفته شاهد عيان عليها ، فأعتبرها تفوق حدود التصور في وحشيتها و فظاعتها ، رغم محاولات القادة الفرنسيين التغطية عليها بكل الوسائل الممكنة . و على العكس من ذلك ، إتصف العرب و المسلمون بالمثالية و الرحمة ، بشهادة الكثير من الباحثين الغربيين المنصفين و منهم : " غوستاف لوبون" (GUSTANV LE BON) ، الذي قال بأن العالم لم يرى أرحم من العرب ([3]) .

و بعد ذلك ، ينتقل الإبراهيمي للحديث عن أخلاق العرب و المسلمين المتأخرين ، فيذكر أنها إختلت إختلالا كبيرا خاصة في الفترة الأخيرة ، التي شهدت إنتشارا مذهلا للمذاهب و التيارات و الأيديولوجيات ، الساعية إلى تهديم الأخلاق الخيرة و القيم النبيلة ، و عرفت تكاثرا ملفتا للنزعات المتطرفة ، التي تستمرىء الرذيلة و تقبح الفضيلة ([4]) . أما سبب إختلالها ، فيرجعه إلى خلو العلم عندهم من التربية الهادفة و المفيدة ، فكثيرون هم الذين تلقوا تعليما غير مقرون بالتربية ، فكانوا وبالا على أنفسهم و على أمتهم ، لأن العلم وحده لا يمكنه على الإطلاق ، أن

([1])- محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 5 مصدر سابق، ص ص 190 – 191 .

([2])- المصدر نفسه، ص 191 .

([3])- ينظر غوستاف لوبون ، المرجع السابق .

([4])- محمد البشير الإبراهيمي ، المصدر نفسه ، ج 1 ، ص ص52– 53 .

يحقق السعادة لصاحبه و للمجتمع الذي يحيا فيه و للأمة التي ينتمي إليها ، إذا لم يطعم بالتربيـــة ، فهو ارتباط وثيق من صميم الرسالة التي كلف بها الله تعالى الرسول محمد (ص) ، و فـــي ذلـــك قال ([1]) :((و ما أصيب المسلمون في عزهم إلا يوم فارقت التربية الصالحة العلم ، و كـــم شـــقي أصحاب العلم المجرد بالعلم ما أشقوا أممهم ، و السعادة غاية لا يسلك لها طريق العلم وحده مـــن غير أن تصاحبه التربية ، و إن الجمع بين التربية و التعلـــيم هـــو وظيفـــة النبـــوة التـــي بينهـــا الوحي ...)) . و يستدل على ما ذهب إليه في هذا السياق ، بما أفضت إليه مـــن نتـــائج العلـــوم الغربية المادية المجردة من التربية ، التي اتخذت كما هو معلوم من مبدأ العلم للعلم منهجا ، فكادت بذلك أن تقضي على إنسانية الإنسان ([2]) .

و في موقف آخر ، قال ([3]) مخاطبا معلمي جمعية العلماء المســـلمين الجزائـــريين ، بـــأن ضعف مستواهم العلمي الذي له مبرراته الموضوعية ، لا يشكل عائقا أمام أدائهم لواجـــب إنقـــاذ الأجيال الجزائرية الناشئة ، من براثن الأمية التي شلت مواهب آبائهم ، و تحبب اللغة العربية إليهم و طبعهم على التآخي و التعاون على الأعمال الخيرة ، و تـــربيتهم علـــى الفضـــائل الإســـلامية و الشرف و الكرامة و الكمال ، و تعويدهم على ممارسة الشعائر الدينية و هـــم صـــغارا ، حتـــى نضمن عدم تضييعهم لها و هم كبارا ، و غرس حب الله و رسوله و الإسلام و العلـــم و العلمـــاء و الوالدين و المجتمع الذي يعيشون فيه . لأن الأمة في حاجة إلى الفضائل ، أشد من حاجتها إلـــى العلم ، و أنها ما تخلفت و تقهقرت في كل المجالات و على كافة الأصعدة ، ليس بســـبب تخلفهـــا العلمي ، و إنما لإنحطاط أخلاق أفرادها .

و إن كان الأمر هنا ، يتعلق بالمجتمع الجزائري الذي شهد في عصر الإبراهيمي إخـــتلالا أخلاقيا كبيرا ، بسبب السياسة الإستعمارية الفرنسية التي حاربت الفضائل ، و شجعت على الرذائل بشتى الطرق و الوسائل ، فإن الواقع ذاته كان في كل البلاد العربية و الإسلامية ، لكن بـــدرجات متفاوتة تبعا لظروف كل بلد .

([1])– محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 4 ، ص ص 173 – 429 .

([2])– محمد الغزالي : المرجع السابق ، ص 80 .

([3])– محمد البشير الإبراهيمي ، المصدر نفسه ، ج 3 ، ص 268 .

بعد ذلك ، خلص إلى أن الفساد الأخلاقي في الأوساط الشبانية خاصة ، هو أكبر معضلة و تحدي تواجههما الأمم العربية و الإسلامية : ((إن علتكم التي أعيت الأطباء و استعصت على حكمة الحكماء هي من ضعف أخلاقكم)) . و يشبه تلك الوضعية بما كان عليه الحال قبل مجيء الإسلام ، الذي تمكن بفضل عقائده السمحة و مبادئه النبيلة من تغيير المعادلة ، فصنع من البدو قادة و من الأمية علماء و " حكماء " : ((و إن أول أمتكم شبيه بآخرها عزوف عن الفضائل ، و انغماس في الرذائل فلم يزل بهذا القرآن حتى أخرج من رعاة النعم (الأنعام) ، رعاة الأمم و أخرج من خمول الأمية أعلام العلم و الحكمة)) ([1]) .

نستكشف من هذا التشبيه ، بأن انقلابا هائلا قد حدث في المجتمعات العربية و الإسلامية ، حيث اختفت تدريجيا الفضائل ، التي من خصائصها العمل على تماسك الهيئة الإجتماعية و صهرها في قالب واحد ، دون تجاوز الخصوصية الفردية التي أودعها الخالق في الفرد ، فتتوحد الأفكار و الرؤى رغم كثرة الأفراد فيه ، تماما مثل أعضاء الجسم تختلف في الوظائف و الأشكال ، و تتحد في الغاية و هي تأدية دورها المحدد لحمايته و إبقائه قويا ، و الأمر نفسه بالنسبة لحياة الأمم : ((تصون أجسامها عن تداخل العناصر الغريبة ، و تحفظها من الإنحلال المؤدي إلى الزوال)) . و حلت محلها الرذائل ، التي إن فشت في أمة من الأمم ، نقضت بناءها و مزقت وحدة أفرادها ، و بددت طاقاتها الكامنة ([2]) . و منها شرب الخمر و تعاطي الربا و ممارسة الزنا ... ، و غيرها من الآفات الإجتماعية التي كانت متأصلة في حياة الناس ، قبل أن يتولاها الإسلام بالعلاج و المداواة ([3]) .

و من ناحية أخرى ، رد الشيخ البشير على الذين يستبيحون المحرمات من الشرقيين المقلدين للحضارة الغربية باسم الحرية ، بأن مسلكهم هذا لن يغير في طبيعة الأشياء ، فالخير يبقى خيرا و الشر يظل شرا ، و الفضيلة فضيلة و الرذيلة رذيلة ، فالسارق يسرق و هو موقن بأنه يعتدي على مال غيره ، و المتبع لخطوات الشيطان بارتكاب المعاصي و الفواحش ، لا يقول

([1])- محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 1 مصدر سابق، ص 163 .

([2])- جمال الدين الأفغاني ، محمد عبده : العروة الوثقى ، ط 1 ، دار الكتاب العربي ، بيروت : 1977م ، ص 99 و ما بعدها .

([3])- أبو الحسن علي الندوي : ماذا خسر العالم بإنحطاط المسلمين ، مرجع سابق ، ص 82 و ما بعدها .

رضي الله عن إبليس و إنما يلعنه . و هي إحدى أسرار الفطرة الإلهية في الخلق ، التي اقتضت أن مرتكب الجرم أو المعصية ، لا يقر في ذاته أن ما قام به فعل خير ، فيشهد بذلك على نفسه إلا من فقد الشعور و الإحساس و مات في نفسه الضمير .

و الأمر ذاته ، بالنسبة للحكام الغربيين الذين أغرتهم قوتهم ، فبطشوا بالشعوب الضعيفة و سلبوا أوطانها ، و سموا ذلك استعمارا ظلما و افتراءا . و أنهى كلامه باعتبار الحضارة الغربية هي المسؤولة عن هذا المسلك و المشجعة عليه ، و الذي ترتب عنه إفساد للفطرة و للضمير ([1]) .

و هو حكم له ما يبرره في الواقع ، إذ أن الحضارة الغربية كانت فعلا وبالا على القيم الدينية و الأخلاقية و الاجتماعية ، في المجتمعات المحافظة و منها العربية و الإسلامية ، مستغلة في ذلك انحطاطها الشامل في كل المجالات ، و وجود فئات اجتماعية محلية تبنت تلك القيم و الأفكار ، و تحولت إلى مروج لها و مدافع عنها ، بعد رحيل الاستعمار عن أوطانها . الأمر الذي خلق صراعا اجتماعيا مريرا، بينها و بين الفئات المحافظة في تلك الدول الناشئة.

و بعد حثه على الأخلاق و فسادها لدى العرب و المسلمين المتأخرين ، تطرق إلى العادات ، فعرف العادة بأنها تلك الظواهر المتقلبة ، التي تجتمع و تؤلف ما يصطلح عليه بالعادة ، التي ترتبط بواقع الأمة ارتباطا وثيقا رقيا و انحطاطا . فالأمة المتقدة حضاريا، تكون عادات أفرادها راقية لأنها تستلهمها من مقوماتها ، و العكس صحيح بالنسبة للأمة المنحطة و المتخلفة .

انطلاقا من هذا التعريف ، يظهر لنا بأن انحطاط عادات العرب و المسلمين الحاليين ، هو نتيجة منطقية لانحطاطهم الشامل ، حيث نشأت حسب الشيخ من استشراء الجهل و الأمية و الفقر و آفة الذلة و الهوان ، و موت الشعور بالكرامة و الشرف ، و من استيقاظ الشعور بالمهانة و النقص في النفس و في الجنس ، و النفور من القريب و الخضوع لسلطة الأجنبي . و قد انتقل تأثيرها السلبي إلى شعائر و الصوم و الأعياد .

فشعيرة الحج برأيه ، لم يعد يسعى لها أغلب المسلمين لدوافع دينية ، و لا يدفعهم لأدائها و تحمل مشاقها ، تلك الغاية السامية التي شرع الحج لتحقيقها ، و إنما الرغبة في اكتساب لقب الحاج ليس إلا ، و كأنهم ملّوا أسماءهم العادية من كثرة استخدامها ، شأنهم في ذلك كشأن الفاشلين الذين يصارعون لنيل الألقاب الحكومية الزائفة ، و يسعون للحصول عليها عن طريق الرشاوى .

([1])– محمد البشير الإبراهيمي ، الآثار ، ج 4 ، مصدر سابق ، ص 358 .

أما شعيرة الصوم ، فيذهب إلى أنها قد فقدت روحها التي تزكي النفس و تجلب لها السكينة و الاطمئنان ، و أصبحت عملا عاديا يقوم به الصائمون استجابة للعادة و ليس تطبيقا لأحكام الدين . في حين تركها المنتهكون لحرمات الله ، فتحول تركهم إلى ظاهرة عامة ، ثم إلى عادة يقتدي بها الجميع يكون فيها الصوم عملا شاذا . و تشترك في ذلك كل الأقطار الإسلامية ، التي تحافظ على الصوم و تشدد على المفطرين إتباعا للعادة ، و تتساهل بشكل كبير مع تاركي الصلاة ، و يعقب على هذه النقطة الأخيرة بقوله : ((فلو كان للشعائر سلطانها الديني على النفوس لما أفطر في رمضان أحد ، و ما ترك الصلاة أحد ، و لما كان للعادة دخل في هذا المجال ، و لو كان المتشددون مدفوعين بدافع ديني لكان تشددهم مع تاركي الصلاة أقوى و أشدوا وأولى و أوكد)) . فالصلاة ركن يقدم على ركن الصيام ، ينبغي التشدد فيه برأي الإبراهيمي قبل الصيام ، لكن العكس هو الذي حصل في أرض الواقع ، و النتيجة ترك الاثنين معا على نطاق واسع .

و يواصل حديثه ، فيقول أن الأمر ذاته بالنسبة للأعياد الدينية ، التي جردت من لباسها الديني ، و عطلت من المعاني الروحية التي تضفي على النفوس البهجة و المرح و السرور حتى في الظروف الصعبة ، فأصبح المسلمون يستقبلونها بهمم فاترة و أحاسيس بليدة و مشاعر باردة و بأسارير عابسة ، و لو لا إقبال الصغار عليها بفطرتهم و براءتهم ، اللتان تتجلى فيهما بعض معاني العيد ، لكانت المآتم أعمر منها بالحركة ، و أدل منها على الحياة و النشاط .

و من الطبيعي في إعتقاد الإبراهيمي ، أن يؤدي تحكيم العادات السخيفة التي تكاثرت في عصور الإنحطاط ، إلى أثار سيئة على الدين ، الذي أصبحت موازينه و أحكامه تخضع لإعتبارات العادة و تتكيف معها ، و هي حقيقة دعا علماء الإسلام و مفكريه و قادته إلى وعيها جيدا ، على أساسها يبادرون بعلاج هذا الخلل الكبير ، و حذر من العناد و المكابرة ، في التعامل معه بالجدية و السرعة الضروريين ، حتى لا يتعاظم و يتفاقم أمره ([1]) .

و مما سبق التطرق إليه بشأن العادات ، نرى أن الإبراهيمي من المصلحين الذين شددوا على ضرورة التصدي لهيمنة العادات السلبية على حياة المسلمين بشكل عام ، و إمتدادها إلى الحقل الديني بشكل خاص لكنه أقر مع ذلك بوجود عادات ثابتة و صالحة ، يسعى دائما فلاسفة الإجتماع و فقهاء التشريع ، إلى إدراجها بحيث يكون لها دور في تكييف أحكام المعاملات و قوانين الإجتماع

([1])– محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 4 ، مصدر سابق ، ص 294 .

البشري ، لتأخذ حظها من القوة و الديمومة ، لتصير مرجعا لرجال القضاء في أحكامهم إزاء المنازعات الإجتماعية ، و مرجعا أساسيا للباحثين الذين يهتمون بدراسة الظواهر الإجتماعية لدى الشعوب .

أما الفقهاء فيربطون إجازتهم لها ، بأن تحقق مصلحة ما أو تدفع مفسدة ما ، و بأن لا تخالف نصا شرعيا ، و لا تعارض حكما صدر عن إجتماع ، فإن لم تتوفر فيها هاته الشروط كانت باطلة و كان الواجب تركها . و بالإعتماد حسبه على هذه القاعدة الفقهية ، فإن العادات السائدة في المجتمعات العربية و الإسلامية باطلة ، رغم أنها تحولت إلى مرجع عقلي و فكري و ديني للجميع.

و يستدرك فيقول : أن المسلمين لو أوتوا الرشد ، لجعلوا من الأعياد الدينية محطات لتصحيح مسارهم الديني و الإيماني ، فيعيدون النظر في كل ما من شأنه أن يكون مخالفا لأحكام دينهم ، أي تخليهم عن كل العادات و السلوكات الدخيلة ، التي نبتت في حياتهم على نحو مذهل في القرون الأخيرة ، فأفسدت عليهم دينهم و دنياهم ([1]) .

و هو في هذا ، لا ينكر أن كثيرا من عامة المسلمين و إن صحت عقائدهم ، لا ينهجون في بعض أعمالهم منهاج الشريعة الإسلامية السمحاء . كما أنه يأمل في إصلاح الوضع على اعتبار أن المسلمين ، لا يزالون رغم كل شيء على بعض الفضائل الإسلامية التي ورثوها عن أسلافهم ، بإمكانها أن تكون أداة فعالة لتصحيح هذا الوضع الخاطئ ، لأنه طارئ أحدث ضعفا في قوتهم ، بسبب غفلتهم و تهاونهم و إهمالهم ([2]) .

و يزيد الإبراهيمي على فساد الأخلاق و العادات ، أسباب أخرى يرى أنها ساهمت في شلل الأمة ، و منها ضعف الإرادة و وهن العزائم ، فبيّن أولا أن للإرادة و العزيمة ، أهمية عظيمة في حياة الإنسان ، دونهما لا يستطيع أن يحقق الغايات التي يسعى لأجلها في هذا الوجود ، فإذا صلحت إرادته صلحت عزيمته ، فإذا أراد شيئا و بذل جهدا للوصول إليه ، فإن إرادته ستمكنه منه لا محالة. أما إذا فقد الإرادة ، فإنه سيصبح مسيرا مثلما هو عليه حال المسلمين في العصور المتأخرة ، الذين ضعفت إراداتهم و وهنت عزائمهم ، فركنوا إلى الراحة و الكسل و الخمول المميت

([1])– محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 4 ، مصدر سابق ، ص ص 294 – 295 .

([2])– جمال الدين الأفغاني ، محمد عبده ، المرجع السابق ، ص ص 105 – 106 .

و الجبن ، و طلب العلم النظري و التقليدي و السطحيات ، و أكتفوا بالعيش على أمجاد الماضـــي الذي اندثر ، كما استسلموا لعقيدة القناعة و الكفاف و القدرية ([1]) .

و بطبيعة الحال ، فإن السبب في ذلك و إن لم يذكره الشيخ البشير ، فإنه يتمثل في علمـــاء العقيدة الذين روجوا لفكرة أن الأخذ بالأسباب ، يناقض الاعتقاد بأن الله سبحانه و تعالى هو الخالق الوحيد للحوادث . و فريق من المتصوفة الذين رأوا في ذلك منافيا للتوكل علـــى الله ، فالإنســـان الكامل و المثالي عندهم ، هو المستسلم الفاقد للحركة و الإرادة ، رغم أن الإسلام حث على العمل و الكسب و الارتزاق ، واعتبر توكلهم تقصيرا و خطيئة و ربما إثما كبيرا ([2]) .

ذكر بعد ذلك ، بأن هذا الوضع أدى إلى موت الإحساس و الشعور لدى العرب و المسلمين ، تمر بهم الحوادث متسلسلة و متتابعة ، دون أن يعتبروا أو يزدجروا ، و يتجه العالم نحـــو الرقـــي و التقدم ، من غير أن يتبينوا موقع أقدامهم فيه ، كأنهم يعيشون في أرض جامدة لا تتحرك ، أو أن كل الأمم ورثت عن الأرض الحركة إلا هم . و النتيجة أنهم ليسوا من هذا العالم ، و الـــذي هـــو بدوره ليس منهم . لقد أصبح فقدان الإحساس خاصية ملازمة لهم ، عدا بعض ردود الأفعال التـــي تصدر عنهم عقب بعض الأحداث ، و التي سرعان ما تخبوا بعد زمن قصير . كما قطعت الأمـــم أشواطا كبيرة في البناء و التشييد ، و الإزدهار في كل الميادين و على كافة الأصعدة ، و بقوا هـــم في نومة أصحاب الكهف و الرقيم ، غافلين عن المبادرة و السعي و الأخذ بالأسباب ، حتى ســـدت عليهم منافذ الحياة ، لأن هاته الأخيرة تفرق جيدا بين الكسول المتخاذل و بين العامل المجتهد .

و لا أدل على ذلك – حسبه – ، أن يدعوا الداعي في الأمم الحية التي تدرك قيمة الحيـــاة ، قومه إلى عمل يمنحهم عزة و قوة لهم ، و يدفع عنهم خطرا محدقا ، فإذا هم مســـتمعون لقولـــه ، ممتثلون لأمره ، ساعون لهدفه ، عاملون له ، متعاونون عليه ، و أخيرا منجزون لـــه . و يـــدعوا الداعي من أبناء العرب و المسلمين إلى الأمر ذاته ، فيردون عليه بالسخرية و الإحتقار ([3]) .

و لا شك أن ما قصده هنا هو اللامبالاة ، هاته الصفة التي إنطبع بها العـــرب و المســـلمون المتأخرون ، و أصبحت جزءا لا يتجزأ من تركيبتهم الشخصية ، منذ أن فقدوا زمام الريادة

([1])– محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 4 ، مصدر سابق ، ص 210 .

([2])– محمد المبارك : المجتمع الإسلامي المعاصر ، مرجع سابق ، ص 97 .

([3])– محمد البشير الإبراهيمي ، المصدر نفسه ، ج 1 ، ص 57 .

الحضارية ، التي انتقلت منهم إلى الأمم الغربية ، التي وصفها الشيخ البشير فيما سبق ، بالأمم الحية و العارفة بقيمة الحياة . و هو السر في تمكنها من الوصول إلى ما وصلت إليه ، و في بقائها قوية مرهوبة الجانب ، إلى غاية الآن .

و الواقع أن موت الشعور و الإحساس ، قد صاحبه تشبع الكثير من أبناء العرب و المسلمين ببعض القيم المزيفة ، التي حاولوا من خلالها تبرير حالة التخلف التي يعيشونها ، كقولهم أنه يستحيل الجمع بين الدنيا و الآخرة ، و أنه على الأمم الأوروبية أن تنعم بالدنيا و متاعها ، في حين ينعمون هم بالآخرة . مما يمثل انحرافا خطيرا عن روح الإسلام الحقيقية، التي كانت سببا في نشوء و صعود الحضارة العربية الإسلامية. و من تلك القيم المزيفة أيضا ، فهمهم الخاطئ لعقيدة القضاء و القدر ، تبرئة لأنفسهم من المسؤولية ، و قطعا لكل أمل في العمل لأجل الإصلاح و التغيير ، مخالفين لقيم الإسلام التي تدعوا إلى اتخاذ أسباب القوة ([1]) .

و في المحصلة ، لقد أدى التقاعس و التواكل ، و وهن العزائم و الانصراف عن العمل و عمارة الأرض ، و الرضا بالفقر على أنه قدر مقدر من الله ، لا ينبغي السعي إلى تغييره ، خوفا من الوقوع في خطيئة التمرد على قدر الله ، إلى تخلف اقتصادي شامل و مذهل ، بالمقارنة مع الأمم الغربية الحديثة ، التي حققت إنجازات هائلة في هذا المجال ، مما يجعل المقارنة بين الفريقين ضربا من السخرية و العبث ([2]) .

و في الأخير ، ننتهي إلى الإستنتاج ، أن كل تلك الصفات السلبية التي ، إتصفت بها المجتمعات العربية و الإسلامية في عصور الإنحطاط ، و هيمنت على حياتها ، قد أفسدت عليها عقيدتها و شعائرها الدينية و نظرتها للحياة ، لأن الإستقامة فيهما شرط أساسي ، ينبغي توفره لديها أو لدى غيرها من المجتمعات ، إن أرادت المحافظة على مركزها المتقدم ، و إستمراريتها في العطاء الحضاري . لهذا فمن غير المقبول بإعتقاد الشيخ البشير الإبراهيمي ، التساهل في هذا الجانب من قبل قادة الأمة و علمائها ، الذين غفلوا عن التصدي له و تقاعسوا عن معالجته ، حتى إستفحل و عظم . كما أقرّ بأن مسؤوليتهم تتعدى إلى الجوانب النفسية ، بما روجوه و لازالوا ،

([1])- محمود قاسم : " مناهج الإصلاح في الشرق منذ أواخر القرن التاسع عشر حتى عصر النهضة المعاصرة " ، مجلة الثقافة ، الجزائر : العدد 95 ، سبتمبر/ أكتوبر 1986م ، ص ص 131 – 132 .

([2])- محمد قطب : هل نحن مسلمون ، مرجع سابق ، ص 181 .

من مثبطات للإرادة و للعزائم ، فتحول العربي و المسلم إلى إنسان فاقد للحركة و الطموح ، اللذان كانا لأسلافه الأوائل .

05 – الاستعمار الروحي :

لم يكتف الاستعمار الغربي الحديث ، بعد أن بسط سيطرته العسكرية على البلاد العربية و الإسلامية المترامية الأطراف ، بوضع يده على إمكاناتها و مقدراتها الاقتصادية الهائلة ، فاغتنى هو و افتقرت شعوبها ، بل سعى إلى أبعد من ذلك ، فراح يعمل على تحطيم كل بذور الحياة فيها ، من خلال تطبيق إستراتيجية في غاية الخطورة ، تستهدف تلويث الأخلاق وزرع الأفكار و العادات الفاسدة و المنحطة ، حتى تنحط قيمة الفرد الشخصية ، و كفاءته و عطاءه الاجتماعي ، فيظل في حالة تبعية و قصور ، حتى بعد أن يحصل على الحرية و الاستقلال ، و هو ما حدث فعلا . و في مقابل من ذلك ، تتعرض الفضائل و القيم الاجتماعية و الإنسانية النبيلة ، إلى التضييق و المطاردة ، ففي كنف السلطة الاستعمارية ، من اليسير أن يفتح مقهى ، بشرط أن يلتزم صاحبه بإعداده ليكون مكانا لممارسة كل الرذائل ، في حين يعد ضربا من المستحيل الحصول على رخصة لفتح مدرسة ([1]) .

و هو ما يدفعنا على القول ، بأن الاستعمار ليس مجرد جيوش تغزوا و تحتل ، و إنما هو نظام متكامل ، يهدف إلى فرض هيمنته الكلية داخل البنيات الإجتماعية ، و نعني بالنظام المتكامل ، الهيمنة الإقتصادية و السياسية و الإجتماعية و الثقافية ([2]) .

و لهذا وجدنا الشيخ البشير الإبراهيمي ، يصف الإستعمار بصفة عامة بأنه : ((كله رجس من عمل الشيطان يلتقي القائمون به على سجايا خبيثة ، و غرائز شرهة ، و نظرات عميقة إلى وسائل الإفتراس ، و إخضاع الفرائس ، و أهم تلك الوسائل قتل المعنويات و تخذير الإحساسات الروحية)) ([3]) ، أي أنه لا فرق بين إستعمار و آخر في هذا الميدان ، مهما اختلفت جنسيته أو تباعدت أمكنته ، رغم الفروقات التي تبدو لنا من الناحية الظاهرية ، فكل الدول الاستعمارية

([1])– مالك بن نبي : في مهب المعركة ، ط 1 ، دار الفكر ، الجزائر : 1991م ، ص ص 50 – 51 .

([2])– كمال عبد اللطيف : سلامة موسى و إشكالية النهضة ، ط 1 ، دار الفارابي : بيروت ، المركز الثقافي العربي : المغرب : 1952م ، ص 42 .

([3])– محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 3 ، مصدر سابق ، ص 105 .

جربت سياسة إخضاع الأرواح و التحكم في العقول ، جنبا إلى جنب مع سياسة القمع و الإبادة و الإستيطان .

و بعد هذا الوصف العام للاستعمار و دسائسه ، ينتقل الإبراهيمي إلى تبيان الوسائل التي يستخدمها الإستعمار الروحي الذي يطلق عليه أيضا إسم " الإستعمار العقلي "، الذي يعتبره من أخطر أنواع الإستعمار ، و تتمثل في :

– ضرب صفوف المجتمع ، حتى أصبح أفراده أعداء لبعضهم البعض .

– تخريب الضمائر ، الأمر الذي أدى إلى اعتبار خيانة الدين و الوطن ، سلوكا حميدا ، يستحق المدح و الإطراء .

– ضرب وحدة العرب و المسلمين ، الذين تحولوا إلى أمم متنازعة و متصارعة ، تجتهد في إرضاء الإستعمار ، و في الإنجرار خلف مخططاته و سياساته .

– إضعاف القوى المعنوية للأمة ، فغدت كالتماثيل الخشبية لا ترهب ولا تخيف .

– جعل الأمة في حالة تبعية دائمة ، من خلال السيطرة على جميع مواردها الإقتصادية .

– تعقيم العقول و الأفكار ، الذي ترتب عنه ، تقدير كلما ما كان مصدره غربيا و لو كان تافها ، و إحتقار كل ما هو ذاتي و لو كان رفيعا .

– تلقيح الفضائل بالرذائل ، فانحطت القيم المعنوية ، و أختلت موازين الفضيلة .

– الترويض على الشعور بالضعف و النقص ، فأصبح الماضي محل هزء و إزدراء ، و قادة الأمة الذين كانوا نموذجا في حسن القيادة و العدل محل سخرية ، و الأمر ذاته بالنسبة للتاريخ و اللغة . و في المقابل يكون الإعجاب بقوة المستعمر و برجاله و بزعمائه ، و بتاريخه الذي يدرس و يحفظ ، و بلغته التي تنال كل الإحترام و التقدير ([1]) .

أما أكثر الفئات الإجتماعية إستهدافا في تقديره ، من قبل الإستعمار الروحي هي فئة الشباب ، الذين أصبحت تتنازعهم الأفكار المتناقضة و المناهج المظللة ، و الدعايات المتخلفة ، التي تصل إليهم عن طريق الجرائد و الكتب التي يقرؤونها ، أو من خلال ما يسمعونه في الشارع و في المؤسسات التربوية ، و في البيوت و الشوارع . حيث فتح المجال أمام كل الإنحرافات الفكرية و الدينية التي تسربت إلى أوساط المجتمع عامة و الشباب خاصة ، دون أن تجد من

([1])– محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 4 ، مصدر سابق ، ص 101 .

يتصدى لها ، و يحمي هاته الفئة الاجتماعية الحساسة ، التي تتصف عادة بالانـدفاع و الغـرور ، و الجري وراء كل ما هو جديد . و في هذا السياق تساءل بإستغراب ، عن سكوت الجميع أمام هاته الوضعية الخطيرة ، و كأن الأمر لا يعنيهم بأي شكل من الأشكال ، أو أن هؤلاء الشباب من مجتمع آخر ، غير المجتمع الذي ننتمي إليه .

و في نفس الإطار ، أكّد على أن تلك الأفكار و المناهج و الدعايات ، تؤطرها تيارات فكرية منحرفة تتصارع فيما بينها، من أجل إستقطاب الشباب المسلم ، و منها دعاة الشيوعية و الإلحـاد ، و الوطنيات الضيقة و أصحاب العنصريات ، مستفيدة من صمت أو تخاذل أهل الرأي و القـرار إزاءها ، ظنا منهم ربما أن لا خطر يترتب من تلك الدعاوي ، رغم أن الحقائق بينت دون إلتبـاس أنها أدوات إستعمارية موجهة إلى شباب الأمة ، الذين يمثلون القوة الحية فيها . و لهذا يجب التنبيه إلى المخاطر المحدقة بسببها و التعجيل بمعالجتها ، من خلالها تحصينهم بفضائل الإسلام و أخلاقه و روحانيته ، فهو البديل الحقيقي الذي يغني عن تلك التيارات الأجنبية الفاسدة .

لأن الشباب المسلم ، إذا لم يفهم دينه في أسرته ، و في المسجد و في المدرسة و في محيطه الإجتماعي ، فإنه سيفهمه فهما خاطئا ، بعيد كل البعد عن طهارته و سموه و حقائقه العليـا ، ممـا يولد فيه القابلية للإنجرار ، خلف التيارات و المذاهب الفكرية المظللة ، التي تشترك في هدف واحد رغم إختلاف مسمياتها و مبادئها، و هو النيل من الإسلام ، بغزو و تلويث أفكـار أبنائـه الـذين يتحولون فيما بعد إلى محاربين له ([1]) .

و يبدو لنا من ذلك ، أن الإبراهيمي قد وضع كل التيارات و المذاهب الفكرية الأجنبية فـي خانة واحدة ، مهما بدت لنا أنها متباينة أو مختلفة في ظاهرها ، لأنه لا هم لها في حقيقـة الأمـر ، سوى تقويض الإسلام كدين و كرصيد حضاري حيوي و متجدد ، بنشر الأفكار و القيم المخالفـة صراحة لعقائده السمحة و قيمه النبيلة . كما أنه أسقط المسؤولية عن الشباب ، فيما هم فيـه مـن إستيلاب روحي و فكري ، و حملها لأطراف أربعة هي : البيت و المدرسة و المسجد و المجتمع .

و من جانب آخر ، فإن ما ذهب إليه صحيح فيما يخص فساد التيارات و المذاهب الفكريـة الوافدة من الخارج ، لأنها في أغلبها تنهل من الحضارة الغربية الحديثة ، التـي إرتقـت بالآلـة و بمختلف النواحي المادية للحياة إرتقاء مذهلا ، أما العقل فيها فهو ليس سوى أداة للإكتشافات

([1])- محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 2 ، مصدر سابق ، ص ص 222- 223 .

المادية ، تم للإنتاج الصناعي و الازدهار المادي . فصارت غاية الحياة تحصيل اللـذة الماديـة ، و العيش في ظل الرفاهية . أما الإنسان في جوانبه الإنسانية و الروحية و الأخلاقية ، فهـو لـيس موضوع اهتمام أو عناية ، و هو ما يفسر تدني و انحطاط العواطف الإنسانية ، و الضمير الخلقـي في المجتمعات الغربية ، و إغراقها في التنافس و الصراع و الاقتتال من جهة ؛ و انغماسـها فـي الإباحية و الانحلال الخلقي ، و الأثرة و الأنانية الفردية و الجشـع المـادي ، و تسـخير العلـم و المؤسسات العلمية ، لخدمة هاته الغايات من جهة ثانية ([1]) .

و من المعلوم ،أن الحملة الفرنسية على مصر بقيادة " نابليون بونابرت "(*) عام 1798م ، مثلت بداية للانبهار بالحضارة الغربية الحديثة ، انبهار بقوة السلاح أولا ، و بالعلم الغربي الـذي أتى به أعضاء البعثة الذين رافقوا الحملة ثانيـا ، و بالمطبعـة (**) التـي جـيء بهـا ثالثـا ، و بالتنظيمات التي أحدثها" نابليون "رابعا، و بكل ما هو غربي و مختلف عـن الإسـلام و تـراث الشرق خامسا ([2]) .

فمهد هذا الانبهار حسب البعض ، الطريق أمام انفتاح البلاد العربية ممثلة في مصر ، على دنيا المعرفة و التقدم ، بعد أن ظلت تعيش في عزلة تامة ، عن الحضـارة الحديثـة و منتجاتهـا المذهلة ، منقطعة عن الحركة العلمية و الأدبية المصاحبتين لهـا ، و عـن التنظيمـات المدنيـة و قوانينها المستحدثة ، التي ساهمت في توفير الاستقرار و الرفاهية في المجتمعات التي عرفتها . كما تحركت بفضلها العقول ، و تعبئة النفوس و المشاعر اتجاه الاحتلال ، و كل مظاهر التخلف

([1])- محمد المبارك : المجتمع الإسلامي المعاصر ، مرجع سابق ، ص 39 .

(*) – نابليون بونابرت : ولد في مدينة " أجاكسيو " سنة 1769م ، ينتمي إلى أسرة " آل بونـابرت " ، حكـم فرنسا بصفة إمبراطور بين سنتي 1804م – 1815م ، بدأت شهرته إثر حملته الأولـى علـى إيطاليـا سـنة 1794م و الثانية سنة 1796م ، قاد بنفسه الحملة الفرنسية على مصر سنة 1798م ، عين قنصـلا أولا سـنة 1799م ثم قنصلا مدى الحياة سنة 1800م . ربط الكنيسة الكاثوليكية الفرنسية بالدولة ، نشر القانون المـدني سنة 1814م ، حيث إنعزل في جزيرة " ألبا " لفترة عاد بعدها الى باريس ، فتحالفت ضده الأمم الأوروبيـة ، التي هزمته في معركة " واترلو " الشهيرة سنة 1815م ، فنفي إلى جزيرة " سانت هيلانة " ، حيث توفي بهـا سنة 1821م . المنجد في اللغة و الأعلام .

(**)- هي مطبعة " بولاق " .

([2])- محمد قطب : هل نحن مسلمون ، مرجع سابق ، ص 118 .

و الفساد ([1]) . و فتحت المجال واسعا ، أمام الغزو الثقافي الفكري الغربي ، الذي خرب حياة العرب و المسلمين ، و عقيدتهم و تصوراتهم و أنماط تفكيرهم ، و شكل سلوكاتهم ، حسب البعض الآخر ([2]) .

و بعض النظر عن الحجج المقدمة من الفريقين ، فإن الحملة الفرنسية على مصر ، قد شكلت منعرجا حاسما، فيما يتصل بموقف و نظرة العرب و المسلمين للغرب المسيحي ، الذي جاء بالجيوش الغازية المدججة بأعتى ما وصلت إليه الصناعة الحربية ، و بالحضارة الغربية التي تتضمن منظومة فكرية و ثقافية ، تختلف كل الإختلاف عن ما هو سائد في المجتمعات العربية و الإسلامية . ومعناه أن توظيف الإستعمار الأوروبي الحديث ، للقوة العسكرية التي تقتل و تبيد الأفراد و المجتمعات ، لا يمثل شيئا يذكر أمام ما حمله من حضارة و علوم ، أخفى من خلالها الروح الصليبية القديمة المتجددة ، و هو ما عبر عنه الإبراهيمي بقوله ([3]) : ((إن أضعف سلاح رمانا به الإستعمار هو سلاح الحديد و النار ، إن سلاح الحديد يقتل الأجسام فينقل الأرواح إلى مقام الشهادة ، أما السلاح الفتاك الذي رمانا به فهو يقتل الأرواح و يجردها من أسباب السعادة ، هذا السلاح هو حضارته و علومه التي إتخذها رمادا يغطي به الصليبية الحقيقية التي لم تنطفئ في هذه القرون الأخيرة منها)) .

و منه يمكن أن نصنف الإبراهيمي ، ضمن الفريق الأول الذي رفض التسليم بوجود إيجابيات للحضارة الغربية ، على مجتمعات البلاد المستعمرة بصفة عامة ، و المجتمعات العربية و الإسلامية بصورة خاصة ، و لهذا السبب قلّما تخلو مقالاته و أحاديثه و خطبه ، من التنبيه إلى المخاطر الحقيقية المترتبة عن الغفلة أو التغافل ، إزاء هذه القضية المصيرية .

و في هذا ساق أمثلة كثيرة ، منها قيام الاستعمار الفرنسي بغلق المدارس العربية الحرة في الجزائر ، و محاكمة معلميها جنبا إلى جنب مع المجرمين و اللصوص ، بتهمة مباشرة التعليم دون

([1])- ألبرت حوراني : الفكر العربي في عصر النهضة ، د ط ، دار النهضة، بيروت : 1977م ، ص 70 .

([2])- محمد قطب : هل نحن مسلمون، مرجع سابق ، ص 118 .

([3])- محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 4 ، مصدر سابق ، ص 105 .

الحصول على رخصة بذلك ، و التي لن تمنح لهم مهما تعهدوا بالالتزام بالقوانين المسيرة للعملية ، فتصدر في حقهم أحكام تتراوح بين التغريم و السجن ([1]) .

و بالتالي فإن الذي جاء حاملا شعار التمدين ، و مبشرا بنشر الحضارة و التقدم ، يفترض فيه أن لا يقوم بغلق المدارس و يحاكم المعلمين ، فإن فعل عكس ذلك – و هو ما حدث – فإنه أثبت أن المدرسة و المعلم خصمان له ، و من ثمة نستطيع أن نحكم على شعاراته و إدعاءاته بالكذب و الزيف .

ولكن هذا لا يعني أن الشيخ الإبراهيمي ، يتغاضى عن الواقع المؤلم الذي آل إليه أبناء العرب والمسلمين خلال مرحلة الإنحطاط ، ويتمثل في إقبالهم طوعا على كل ما يتصل بالغرب ، يتحدثون لغته ويلبسون ألبسته ، وينتحلون أساليبه في الأكل والشرب ، حتى إعتقدوا أنهم غربيين ، إنسلخوا في ظاهرهم وباطنهم عن قيمهم الذاتية وخصائصهم الموروثة ، فخسروها ولم يجنوا شيئا من تقليدهم لقيم وخصائص الغير ، اذ غاب عنهم ان المظاهر التي قلدوا فيها الأوروبي ، هي أمور شكلية تمظهر بها ، بعد أن تمكن من عناصر القوة و السيادة ، فهي لن تنفع أصحابها أو تغير من أمرهم شيئا ، إلا إذا سلكوا نفس السبل التي إنتهجها ، للوصول إلى ما وصل إليه من إزدهار و تقدم ([2]) .

من هنا فإن مسلك هؤلاء الشباب ، هو استيعاب نتائج الحضارة الغربية بذهنية المغلوب ، دون أن يكلفوا أنفسهم عناء النقد ، و التمييز بين ما هو جوهري يؤخذ به ، و بين ما هو ثانوي يترك لأنه غير مفيد ، مبدأهم في ذلك أن ما يستوعبونه مهما كان ، يمثل معيارا للجودة و الصواب ([3]) .

و بالإضافة إلى ذلك ، فإنهم يعتقدون عن خطاء ، أن مصدر الحضارة الغرب الذي يحتكرها لوحده ، رغم أن الحضارة ليست من اختصاص جنس من الأجناس ، أو أمة من الأمم شرقية أو غربية ، فهي في حقيقة الأمر تراث إنساني تتداوله الأمم و تتعاقب عليه ، البعض منها يضيف

([1])– للمزيد ينظر رابح تركي : التعليم القومي و الشخصية الوطنية ، مرجع سابق .

([2])– محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 4 ، مصدر سابق ، ص 311 .

([3])– شايف عكاشة : الصراع الحضاري في العالم الإسلامي (مدخل تحليلي في فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي) ، د ط ، د م ج ، الجزائر : 1993م ، ص 35 .

إليه أو يعدل فيه ، و البعض الآخر قد يحقق اكتشافات في بعض المسائل ، فينسبها إليه أو يصبغها بصبغته ، فتقترن به أو يتجاوزها الزمن .

و في هذا الصدد ، يعد الشباب الذي درس في المدارس و الجامعات الغربية ، أكثر المدافعين و المتحمسين لهاته الأفكار ، فحالهم حسب الشيخ البشير الإبراهيمي ، أنهم خالفوا بصنيعهم هذا قصة فرعون مع النبي موسى عليه السلام ، فإذا كان فرعون الذي حرم من نعمة الأبناء ، قد تبنى موسى و أحسن تربيته و رعايته ، ليكون له ولدا صالحا يخلفه على عرش مصر ، لكن العكس هو الذي حدث ، حيث انقلب موسى عدوا و نقمة على فرعون . في حين أن أبناء المسلمين الذين تلقوا تربيتهم و تعليمهم في البلاد الأوروبية ، كانوا أعداء لدينهم و مجتمعهم و لأمتهم ، إلا فئة قليلة منهم تمكنت من النجاة ، بالتمسك بقيمها الدينية و الحضارية ([1]) .

تكمن أهمية هذا الإسقاط ، في كونه يعكس فعلا الانقلاب الذهني و النفسي ، الذي يصيب أبناء العرب و المسلمين ، الذين يربون و يتعلمون في بيئات حضارية و اجتماعية ، تختلف اختلافا أساسيا مع البيئات التي ينتمون إليها ، فبدل أن تنتفع بلدانهم و مجتمعاتهم ، بما اكتسبوه من علوم و معارف ، فإنهم يتحولون إلى مصدر للتشكيك في مرجعيتها الحضارية .

فتراهم يدعون إلى التغريب و التحديث ، و تبني القيم الحضارية الغربية التي إنبهروا بها أيما انبهار ، و منهم من كفر بالشرق و آمن إيمانا يكاد أن يكون تأليها بالغرب ، فقال صراحة أنه من مصلحة العرب و المسلمين ، أن يكونوا أوروبيين عرقا و ثقافة و حضارة ، و ينبذوا كل ما يتصل بالحياة الشرقية ، إن هم أرادوا اللحاق بتلك الأمم الراقية ، و منهم على سبيل المثال المفكر المصري " سلامة موسى " (*) ، الذي عبر عن ذلك بقوله : ((هذا هو مذهبي الذي أعمل له طول

([1])- محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 4 ، مصدر سابق ، ص 312 .

(*) - " سلامة موسى " : ولد في 04 جوان سنة 887 م بالزقازيق بمصر، في سن العشرين سافر إلى باريس متأثرا برواد النهضة الأوروبية و إنتاجهم الفكري ، و منها إنتقل إلى بريطانيا ، و فيها إنظم إلى الجمعية الإشتراكية التي تسعى : " الفابية " و تعرف على زعمائها و منهم : " برنارد شو " ، " ولز " .... و غيرهما . كما إنظم في نفس الفترة إلى "جمعية العقلايين" ، و قد دفع به وجوده في بريطانيا إلى التنكر إلى كل ما درسه و تعلمه في مصر ، بحجة أن الذهنية الصحراوية هي السائدة في بلاده التي تفتقر حسبه إلى التفكير الخصب . من كتبه : " مقدمة السيبرمان " ، الإشتراكية " ، كما أصدر مجلة " المستقبل " ، و أشتغل في جرائد : " المحروسة " الهلال " ، " كل شييء " ، " المجلة الجديدة " . وصف بداعية الإستعمار ، و بأداة

حياتي سرا و جهرا ، فأنا كافر بالشرق مؤمن بالغرب ، و في كل ما أكتب أحاول أن أغرس في ذهن القارئ تلك النزعات التي اتسمت بها أوروبا في العصر الحديث ، و أن أجعل قرائي يولون وجوههم نحو الغرب و يتنصلون من الشرق ، لأني أعتقد أن لا رجاء لنا بالنجاح في العالم ، بل لا رجاء لنا بأن نعيشه إلا إذا تملصنا مما إكتسبناه من العادات الشرقية في نظام العائلة ، و نظام الحكومة ، و النظر للمرأة ، و النظر للأدب ، و النظر للصناعات و المعايش ([1]) . كما قال في موضع آخر ، تأكيدا لما سبق : ((نحن على يقين بأنه إذا كانت الشمس تشرق من الشرق فإن النور يأتي إلينا من الغرب)) ([2]) .

مثل هذا الكلام ، يدفعنا إلى القول بأن المنهج الأيديولوجي لسلامة موسى يقوم على الدعوة إلى الخروج عن كل ما هو شرقي ، و الأخذ بكل ما أوروبي ، و حتى اللغة العربية دعا إلى وضعها في المتحف إلى جانب الآثار البابلية و الأشورية ، لأنها في وطنه لغة ((بدوية ميتة)) أعجز من أن تصف أثاث غرفته ، على العكس بالنسبة للغة الانجليزية ([3]) .

علاوة على ذلك ، يضيف الشيخ البشير أن الإستعمار الغربي ، يعمد على إطلاق جملة من الإفتراءات إزاء العرب و المسلمين ، و منها أنهم خياليون ، و أنهم بإعتزازهم بأسلافهم يعيشون في الخيال ، و يعتمدون على الماضي الذي ولّى بلا رجعة ، و يتكلون على قادة و زعماء هم في عالم الأموات . يقولون ذلك على سبيل الإستهزاء أو إسداء النصح ، لكنهم في الواقع يهدفون إلى جعلهم يعيشون ماضيهم فيعشون بدونه ، فإذا إستيقظوا من نومهم أو تنويمهم ، إكتشفوا أنهم يفتقدون إلى ماض يبنون عليه حاضرهم ، فيندمجون في حاضر المستعمر ، و هو هدفه المنشود وراء العملية .

تحطيم اللغة العربية ، و بغيرها من الأوصاف ، بسبب تفكيره المغاير و المعارض للمناهج الفكرية السائدة . للمزيد ينظر سلامة موسى : ما هي النهضة و مختارات أخرى ، د ط ، موفم للنشر ، الجزائر : 1990م .

([1])- سلامة موسى ، المرجع نفسه ، ص ص 6 – 7 .

([2])- كمال عبد اللطيف : سلامة موسى و إشكالية النهضة ، ط 1 ، دار الفارابي : بيروت ، المركز الثقافي العربي : الدار البيضاء : 1982 م، ص 148 .

([3])- محمد عمارة : الإسلام بين التنوير و التزوير ، ط 1 ، دار الشروق ، بيروت : 1995م ، ص 11 ، 126 ، 127 .

ويضيف أنه في المقابل من ذلك ، نجد الأمم الاستعمارية ، أشد حرصا على صيانة تاريخها ، الذي تستمد منه قوتها و عزتها ، تعتز بمآثر أسلافها مهما صغرت ، و تخلد عظمائها الذين نبغوا في ميادين ، الفكر و الأدب و الفلسفة و الحروب و الفنون ، و خير دليل على ذلك عند الإبراهيمي ، هو تلك التماثيل التي تقام لهم ، و المتاحف التي تبنى لتحفظ تراثهم ، فتتطلع إليه الأجيال ليكون لها مرجعية ، تستلهم منه تصوراتها و تطلعاتها ([1]) .

و النتيجة ظهور أجيال من أبناء المسلمين ، يعرفون كل شيء عن العرب ، تاريخه و علومه و صناعاته و قادته و أبطاله ، في حين يجهلون ماضي أمتهم وسير رموزها و زعمائها ، فتجد الواحد منهم يعرف الكثير عن سيرة " نابليون " و يجهل كل الجهل سيرة " عمر ابن الخطاب " و يحفظ الكثير عن " جان دارك " (JEAN DARK) (*) ، ولا يعرف شيئا عن أمهات المؤمنين " خديجة " و " عائشة " رضي الله عنهما . ويزيد الأوربيون الأوائل على ذلك ، قيامهم عن قصد بتحريف الحضارة العربية الإسلامية ، لما كانوا ينقلون علومها وفنونها و آدابها ، إلى البلاد الأوربية الغارقة في الجهل والأمية ، وكأنهم تنبئوا بزوال مجد حضارة العرب والمسلمين ، وانتقاله إليهم ، فيتحولون إلى نقلة عنهم هذه المرة . والسر في تحريفها في اعتقاد الإبراهيمي ، هو لكي تتشابه على الأجيال اللاحقة ، فلا تدرك أن " أفيروس " هو " ابن رشد "(1126م – 1198م) ، وأن " جبريل طار " هو " جبل طارق " (**) ، أسماء يتلفظون بها ويتحدثون عنها ، دون أن يعرفوا أصولها .

وقد فسر الإبراهيمي ، هذه الازدواجية المتبعة من قبل الاستعمار ، فيما يتصل بتاريخ العرب والمسلمين ، الذي يشكك فيه وينقص من قيمته ، وبتاريخه الذي يجتهد في الحفاظ عليه

([1])– محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 2 ، مصدر سابق ، ص ص 467 – 468 .

(*)– " جان دارك " (JEAN DARK) (1412م – 1431م) : بطلة فرنسية قديسة ، قدمت المساعدة للملك " شارك السابع " ، وردت الانجليز عن حصار " أورليان " سنة 1429م ، ألقي عليها القبض وأحرقت في "روان" . المنجد في اللغة والإعلام .

(**)– " جبل طارق " : مضيق بحري يفصل بين إسبانيا في قارة أوروبا والمغرب الأقصى في قارة إفريقيا ، ويصل البحر المتوسط بالمحيط الأطلسي ، عرضه 14 كلم وطوله 50 كلم ، أطلق عليه العرب إسم " طارق بن زياد " فاتح الأندلس الذي إجتازه سنة 692 / 711م ، أما القدماء فسموه أعمدة " هرقل " و " بحر الزقاق " . المنجد في اللغة والإعلام .

والاستلهام منه ، أنه احتقار لواقع المسلمين المزري الذي تسبب فيه ، ظنا أو محاولة منه لإيهام الجميع ، أنهم لم يبلغوا الرشد بعد .

و في الصدد ذاته ، نعلم أن العملية لم تتوقف عند احتقار الجنس العربي الإسلامي ، والحكم على تاريخه بـ : " العقم الفكري " ([1]) ، بل تعدت إلى لجوء الباحثين والكتاب الغربيين ، إلى كل الوسائل المتاحة لهم ، لمحو الحضارة العربية الإسلامية من التاريخ ، عن طريق التزوير بإيهام المطلع على أبحاثهم وكتاباتهم ، بأن التاريخ البشري ليس تلك الحلقات التي تتصل فيها إنجازات عدة أمم وحضارات ، و إنما هو مسافة زمنية مختزلة تبدأ بـ " أثينا " القديمة وتنتهي بـ : "باريس" الحديثة ، أي بين حضارة " أرسطو " ARISTOTE - (*) وحضارة " ديكارت " DESCARTE – (**) ، دون المرور على قرون الحضارة العربية الإسلامية التي تحذف عن عمد وقصد ، وهي خرافة علمية ، انطلت على الكثيرين من الغربيين ، ومن أبناء العرب والمسلمين أنفسهم ([2]) .

([1])– محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج2 ، مصدر سابق ، ص 468 .

(*) – " أرسطو طاليس " (ARISTOTELES) (384م – 322 ق م) ، فيلسوف يوناني ، يعد من كبار مفكري البشرية ، مربي الإسكندر ، تأثر بفكره المفكرون العرب والمسلمون الأوائل ، عن طريق مؤلفاته التي نقلها إليهم النقلة السريانيون ومنهم : " إسحاق بن حنين " ، مؤسس مذهب " فلسفة المشائين " من أهم مؤلفاته : " المقولات " ، " الجدل " ، " الخطابة " ، " كتاب ما بعد الطبيعة " ، " السياسة " ، " النفس " . المنجد في اللغة والأعلام .

(**)– " رونييه ديكارت " RENIE DESCARTE (1596م – 1650م) : فيلسوف وفيزيائي ورياضي فرنسي ، نسق رموز الجبر ، ووضع القواعد الأساسية للمعادلات ، واخترع الهندسة التحليلية مع " فرما " ، له العديد من الإكتشافات الرياضية والفيزيائية الهامة . تقوم فلسفته على التحرر من الفلسفة التقليدية المدرسية ، واعتماد طريقة الشك المنهجي ، وتحديد طريقة المنطق الواضح الصريح المبني على الحدس والاستنتاج . صاحب المبدأ القائل : " أنا أفكر إذا أنا موجود " ، من أشهر مؤلفاته : " مقالة الطريقة " ، " تأملات فيما وراء الطبيعة " ، " مبادئ الفلسفة " ، " أهواء النفس " . المنجد في اللغة والأعلام .

([2])– مالك بن نبي : شروط النهضة ، ترجمة عبد الصبور شاهين ، د ط ، دار الفكر : دمشق ، ص ص 148 – 149 .

هذا بالنسبة لوسائل وأدوات الاستعمار في مجالات الفكر والثقافة ، أما في المجال الأخلاقي فقد ذهب الإبراهيمي إلى أن منظري الاستعمار يستخدمون وسائل ، لا تقل خطورة عن الأسلحة المادية المعروفة ، فحددها في خمسة عشرة وسيلة نوردها فيما يلي على الترتيب :

– نشر التعليم الذي يفسد الفكر ، بالاعتماد المعد سلفا لأداء هذه المهمة .
– التركيز على العلوم والمعارف ، التي تبث الشكوك وتزعزع اليقينيات .
– وسائل الإعلام ، التي تروج للإباحية ، والانحلال والتفسخ .
– البضاعة السينمائية ، التي تزين الفواحش ، وتحرض على ممارستها .
– تشجيع الدعارة ، التي يترتب عنها القضاء على التماسك الأسري ، والاستقرار الاجتماعي .
– ترويج المخدرات ، التي تهدم الصحة العامة .
– الممثلات اللائي يمثلن الفجور والمجون .
– الراقصات اللائي يغرين الشباب بالتخنث .
– الهزل الذي يقتل الجد والشهامة .
– تشجيع تعاطي الخمر ، ضربا للدين والصحة ، وللعقول والأموال .
– الحث على الشهوات ، التي تفسد الرجولة .
– الإستهلاك الواسع النطاق للكماليات التي تثقل كاهل الأفراد والأسر ، وتجعل الحياة أكثر صعوبة وتعقيدا .
– غرس العادات المخالفة لفطرة الله .
– الآراء والنظريات الكافرة والملحدة ، التي تحارب الإيمان لتنتزعه من القلوب ([1]) .

وبشأن الكماليات ، فقد عدها من أهم الوسائل ، التي تمكن من خلالها الغرب من السيطرة على الشعوب العربية والإسلامية ، وجعلها في حالة من التبعية المزمنة له ، فعمد إلى إغراق أسواقها التجارية ، بغرض إضعافها اقتصاديا وامتصاص ثرواتها ، مستفيدا من انصراف الحكومات إلى الأعمال التافهة والصناعات غير المجدية . والنتيجة إنفاق أموال طائلة ، تدفع لاستيراد تلك الكماليات ، فتساهم في ازدهار الإقتصادات الغربية المنتجة لها ، خاصة وأن الطلب

([1])– محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج4 ، مصدر سابق ، ص 211 .

عليها هو بنفس الطلب على الضروريات وبشكل مرضي : ((وأصبح كثير مما نستورده من الكماليات كالضروريات لا نطيق العيش بدونه ، فصرنا نأكل الحلوى ونحن في البلوى)) .

وهكذا يتبين لنا وفقا لذلك ، أن الذهنية السائدة في البلاد العربية والإسلامية ، هي ذهنية الإستهلاك من أجل الإستهلاك ، سواء على المستوى الرسمي والحكومي ، أو على المستوى الشعبي ، فالحكومات تشجع تلك السلوكات بتقاعسها عن تبني سياسات إقتصادية حكيمة ، تأخذ في عين الاعتبار تلبية حاجات المجتمع الأساسية والكمالية ، بإرساء قاعدة صناعية وطنية قوية . أما الشعوب فإنها ساهمت في تفشي الظاهرة ، بتهافتها المفرط على المنتوجات الكمالية الأجنبية ، على نحو يجعل الاستغناء عنها ضربا من المستحيل ، وهو ما كانت تسعى إليه تلك الدول منذ البداية .

وعليه فإن الدول الغربية ، لم تتمكن في اعتقاده من فرض التبعية على المجتمعات العربية والإسلامية بتلك الحدة ، إلا بعد أن وجدت لديها الاستعداد النفسي التام ، لبعدها عن قيم العزة والكرامة ، ولموت الكثير من الخلال الحميدة فيها ، كالإحساس بالواجب الذي أدى فقدانه إلى إيقاظ الشهوات البدنية ، هو الذي دفع ببعض الخلفاء المسلمين الأوائل في مرحلة الإزدهار ، إلى إعتزال الناس كلما عزموا على الحرب ، والأمر ذاته كان بالنسبة للقضاة الذي كانوا نموذجا حيا ، في محاسبة النفس قبل أن يخوضوا في قضايا المتخاصمين . بالإضافة إلى موت النخوة في الأنفس ، والذي يترتب عنه الإنقياد السريع إلى تقليد الغالب ، والخضوع له والتحلل والذوبان في شخصه .

فالواقع يؤكد حسب الإبراهيمي ، أن الدول الغربية لا تعطي إلا اليسير مما تأخذه من العرب والمسلمين ، وأن ما تعطيه سلبياته أكثر من إيجابياته . ومن العوامل التي يرى أنها ساعدتها على النجاح في إستراتيجيتها تلك ، طلبة العلم من أبناء العرب والمسلمين ، الذين يزاولون دراساتهم بمؤسساتها العلمية ، الذين يتخلون عن قيمهم وثقافتهم ، بمجرد أن تطأ أقدامهم أراضي تلك الدول ، وكأنها كانت تشكل عبئا ثقيلا عليهم ، وحين يستكملون تعليمهم ، يعودون إلى مواطنهم الأصلية بعقول وأفكار جديدة ، تختلف إختلافا جذريا عن سابقتها ، ومنهم من يزيد على ذلك فيأتي ومعه زوجة غربية ، يمثل وجودها إلى جانبه ضمانا لعدم عودته إلى سالف عهده ([1]) .

ومنه نلاحظ أن الإبراهيمي ، قد أشار إلى قضية في غاية الحساسية ، وهي الزواج بالأجنبيات ، اللاتي تختلف ديانتهن وبيئاتهن الثقافية والاجتماعية ، عن نظيراتها في البلدان العربية

([1])– محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 4 ، مصدر سابق ، ص ص 211 –312 .

والإسلامية ، الأمر الذي يخلق مشاكل جوهرية كالإندماج وتربية الأبناء ، تكون نتائجها وخيمة على الإنسجام الأسري والاستقرار الاجتماعي ، حيث أنه في غالب الأحيان ما ينتهي هذا النوع من الزواج ، بتغريب الأبناء الذين يتبعون عادة أمهاتهم ، أو يتحولون إلى حلبة صراع ، إذا تمسك كل طرف بحقه في تربيتهم على النحو الذي يريده هو ، والواقع حافل بالأمثلة الكثيرة في هذا المضمار.

وفي نهاية المطاف ، نستنتج أن الإستعمار الروحي ، الذي يعني بلغة العصر الغزو الثقافي والفكري ، قد كانت له نتائج خطيرة على المجتمعات العربية والإسلامية ، على المديين القريب والبعيد ، وظف كأداة أساسية للسيطرة ، وإبقاء النفوذ من قبل الدول الإستعمارية الغربية الكبرى ، أثناء وبعد خروجها من مستعمراتها ، التي تشكل البلاد العربية والإسلامية الجزء الهام فيها . فصار جنبا إلى جنب مع الإستعمار الإستيطاني ، الذي سيطر على الأراضي والمقدرات الإقتصادية ، وأخضع الشعوب بالقمع والتشريد والإذلال والإبادة . ومما يؤكد خطورته ، هو عجز البلدان المستقلة ، عن التخلص من آثاره الثقافية والفكرية ، رغم نجاحها الباهر في طرد الاستعمار العسكري الإستيطاني ، بالكفاح والثورات المسلحة . و في المبحث القادم ، سنستعرض اسباب تخلف العرب و المسلمين في اثار مترجمنا الثاني الامير شكيب ارسلان ، لكي نتمكن من الوقوف على نقاط التوافق و الاختلاف بينه و بين الشيخ البشير الابراهيمي ، في هذه القضية .

المبحث الثالث : أسباب تخلف العرب و المسلمين في آثار أرسلان :

يرى الأمير شكيب أرسلان ، أن الانحطاط و الضعف هما ظاهرتان عامتان ، تشترك فيهما كل الشعوب في الشرق و الغرب ، لكن بدرجات متفاوتة ، فهناك أقوام إسلامية ، بلغت مبلغا عظيما من التخلف و الانحطاط ، و منها ما هو تخلفها متوسط ، و البعض الآخر بدرجة أقل . و لكن بغض النظر عن هذا التقسيم ، فإن حالة العرب و المسلمين في تلك الفترة (القرن 14 هـ /20م) ، هي من السوء في نظره ، بحيث أنها تضعف حتى أشد المتحمسين للإسلام ، فكيف يكون الحال بالنسبة للذين يئسوا من رؤية انبعاث جديد لقوة العرب و المسلمين. و يضيف بأن هذه الحالة غير مبررة ، لا من الجانب الشرعي (الدين) ، ولا من الجوانب الأخرى (المادية و المعنوية) ، لأن هناك شعوبا ربما هي دون العرب و المسلمين فيما يخص إمتلاكه لمقومات الرقي و التطور ، لكنها سبقتهم في ذلك ([1]) .

و على هذا النحو ، كان الأمير شكيب من المفكرين العرب و المسلمين ، الذين نظروا إلى قضية التخلف في العالم العربي و الإسلامي ، نظرة موضوعية بإعتبارها ظاهرة طبيعية ، تمر بها كل الأقوام و الأمم و المجتمعات ، مهما كان جنسها أو دينها أو ثقافتها . على خلاف بعض المفكرين و منهم بعض العرب و المسلمين و الغربيين على حد سواء ، الذين جانبوا الموضوعية و الحقيقة العلمية ، في توصيفهم و دراستهم لظاهرة التخلف العربي و الإسلامي ، بما وصلوا إليه من نتائج إعتبروها حقائق علمية ، و منها أن التخلف صفة ملازمة للأمم الشرقية عامة و العربية و الإسلامية خاصة ، و لا سبيل لها إلا أن تصبح غربية إذا أرادت أن تصل إلى الرقي و التقدم ، اللذان كانت الدول الغربية الكبرى تحياهما خلال القرن 20م .

فقد حاول الأمير شكيب أرسلان ، بإعتباره مفكرا عربيا و مسلما من ناحية ، و لكونه كان مطلعا على كل ثقافات و أفكار العصر ، أن يشخص الأسباب الحقيقية التي جعلت العرب و المسلمين يفقدون الريادة الحضارية ، و ينحدرون بشكل متسارع نحو الإنحطاط و التخلف . مشيرا في كتاباته إلى أن المشكلة لا تكمن في التخلف كحالة جد طبيعية في حياة الأمم والمجتمعات ، وانما في المدة الزمنية الطويلة التي استغرقتها ، والتي تدفع كما قال إلى يأس حتى الباحثين المشتغلين بالمشكلات الحضارية العرب والمسلمين أنفسهم ، قبل نظرائهم

([1])– شكيب أرسلان : لماذا تأخر المسلمون و تقدم غيرهم ؟ ، مصدر سابق ، ص 34 .

الغربيين ، الذي يصادفون الكثير من المعوقات ، أمام فهم الواقع العربي والإسلامي ، ومن ثمة عجزهم عن تشخيص الأسباب ، واقتراح الحلول المناسبة للعلاج .

وإذا كان الشيخ البشير الإبراهيمي ، قد أرجع تخلف العرب والمسلمين كما سيظهر في المبحث الموالي من هذا الفصل ، إلى خمسة أسباب أساسية هي : فساد علماء الدين وانحرافهم ، تعطيل العمل بالدين الإسلامي ، الحجر على الاجتهاد والنزوع إلى النقل والتقليد ، فساد الأخلاق والعادات ووهن العزائم ، وأخيرا الاستعمار الروحي الذي قصد به الغزو الثقافي والفكري . فإن الأمير شكيب أرسلان في المقابل ، قد حصرها في خمسة أسباب أيضا وهي : العلماء المعطلون للرقي العلمي ، الجمود والجحود ، فساد الحكام والقضاة ، الركون على الكسل والخمول والتخاذل والتواكل ، وأخيرا الجبن وعدم الثقة في النفس . كلها أسباب سنستعرضها ونناقشها فيما يلي على الترتيب :

1- <u>العلماء والفقهاء المعطلون للرقي</u> :

أطلق الأمير شكيب أرسلان ، على هذا الصنف من العلماء اسم " الحشوية " ، وعرفهم أنهم يرون في الفلاسفة مجرد ملحدين ومعطلين ، ومنه جاء قولهم العامي : ((من تمنطق تزندق)) ، فأظلوا العوام بمثل هذه المبادئ السخيفة ، وجعلوا عقائدهم في خصام دائم مع الحقائق العلمية ، وجنوا على الإسلام جناية عظيمة ، تجلى أثرها في الإنحطاط السياسي والاجتماعي الذي يحياه .

ويضيف بأنه إذا قام من المسلمين مصلح أو مجدد ، يتحدث بإسم الحكمة والعلوم الراقية ، ويحث على البحث وينكر على التقليد ، ويوضح مساوئ الجمود ، كان أول ما يسارع إليه أولئك العلماء ، بإتهامه بالزندقة وضعف العقيدة ، وقد يجد ذلك قبولا في نفوس من يميلون إلى التعطيل ، فيلفقون الإتهامات دون تحر أو روية ، ويسارعون إلى إذاعته بين الناس :((لأن من أحب شيئا أحب أن يرى كبار الرجال شركاء فيه)) ([1]) .

وإذا كان لفظ " الحشوية " الذي مفرده " الحشوي " ، وهو في اللغة الشخص الذي يكثر الحشو في الكلام ([2]) ، فإن الأمير بذلك يكون قد ألصق بهؤلاء العلماء صفة التكلف في الكلام

([1]) – لوثروب ستودارد ، المصدر السابق ، م 2 ، ج 2 ، ص 290 .

([2])– <u>المنجد في اللغة والأعلام</u> .

الذي لا جدوى منه ، والاشتغال بابتكار الأقوال والعبارات ، وإطلاقها على خصومهم الذين يخالفونهم في المنهج والمذهب والرأي ، حتى وإن أفحموهم بالحجج الدامغة ، على أنهم علماء معطلون للرقي العلمي ، متسببون فيما تحياه مجتمعاتهم من انحطاط وتقهقر في كل المجالات ، ومن ثمة استوجب الأمر أن تنتزع عنهم صفة العلماء ، كما هو رأي الأمير شكيب أرسلان .

ومن المعلوم ، أن السبب في ظهور هذا النوع من العلماء ، الذين يناصبون العداء للعلم الحقيقي ، هو الضعف الفكري الذي أصاب المجتمعات – العربية – الإسلامية ، وجعلها تغرق في مستنقع الخرافات والأساطير ، والذي أدى بدوره إلى التفكك الاجتماعي ، حيث انتشرت الطوائف المتعددة والمتناحرة ، والمذهبية المتعصبة ، وكثرت السلطنات والدويلات ، التي قامت على أساس شعوبي أو مذهبي هنا أو هنالك ([1]) .

وحين أصيبت المجتمعات – العربية – الإسلامية بالضعف الفكري والتفكك الاجتماعي ، انشغلت بتوافه الأمور ، فقادتها إلى التخلف عن ركب العلم والتقدم والحضارة ، ومعناه أنها انصرفت عن تعاليم الإسلام ، التي تدعوا صراحة إلى العلم والمعرفة ، واستخدام العقل والفكر ، في كل ما من شأنه أن يقود المجتمع نحو النهج السليم ([2]) . وبما أن كل ذلك يدخل في صميم واجب العلماء ، فإن المتأخرين منهم الذين وصفهم الأمير شكيب " بالحشوية " ، كانوا بمسلكهم السابق السبب في تعطيل الرقي العلمي ، وتجميد الحياة في مجتمعاتهم .

وقد أكد الأمير هذه الحقيقة ، بقوله أنهم أكبر المسؤولين عن انحطاط الإسلام واستثنى القلة القليلة منهم ، مبررا ذلك بكونهم اتخذوا من الدين وسيلة للتكسب الدنيوي ، وللتزلف للأمراء بتبرير أعمالهم وأخطائهم بالأدلة الشرعية ، والإفتاء إزاءها بالدين ، فكلما أتى ملك من الملوك أو أمير من الأمراء ، يعمل منكرا إلا وأتوا له بآيات وأحاديث ، يثبتون خلالها مشروعية ما قام به ، بتأويل معنى تلك الآيات وتحريف مضمونها ، ورواية الأحاديث الضعيفة ...وغير ذلك من الشواهد التي يبتغون من ورائها التزلف والعطاء .

([1])– أحمد عبد الرحيم السايح : في الغزو الفكري ، ط 1 ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، قطر : 1414 هـ ، ص 75 .

([2])– المرجع نفسه ، ص 58 .

وبالنسبة إليه ، فإن هؤلاء العلماء قد تمادوا في انحرافهم ، مستفيدين من سكوت المسلمين عن ممارساتهم واستهتارهم ، فأخذوا يتقربون بمثل تلك الأساليب ، إلى الحكومات غير المسلمة في القضايا التي تؤدي إلى الإضرار بالإسلام ، فكلما سقط بلد مسلم في يد دولة أجنبية محتلة ، أو قامت أمة إسلامية لتحارب دولة أجنبية معادية لها ، وجدت تلك الدول المعتدية من هؤلاء العلماء المسارعة إلى خدمة مصالحها ، منهم من يفتي بذلك من الكتاب والسنة . والأمثلة كثيرة على ذلك عند الأمير شكيب ، ومنها ما حدث في سورية أثناء الحرب العالمية الأولى ، التي أفتى عدد من علمائها ضد " الشريف حسين " أمير مكة ، توددا لـ : " جمال باشا " قائد سوريا في تلك الأثناء . ولما انتصرت دول الحلفاء في الحرب واحتلت سوريا ، قامت تلك الفئة ذاتها بمبايعة " الشريف حسين " ، الذي كانت ترى فيه قبل ذلك باغيا وخارجا عن الخليفة ، ولما احتلت فرنسا الشام بعد ذلك ، تنصلت منه وأصبحت تفتي لصالح فرنسا ، معتبرة الملك " شريف حسين " أجنبيا . والأسوأ من ذلك في رأي الأمير شكيب ، أنك تجدهم يبررون مواقفهم تلك كلما عوتبوا عليها ، بقولهم إنما يفعلون ذلك وقاية ونجاة من الظلم والاعتداء . وهو عذر غير مقبول في تقدير شكيب ، مهما جاؤوا به من حجج ومبررات ، لأن دافعهم الحقيقي في ذلك هو الجري وراء الوظائف والمناصب والعطايا ليس إلا : ((... والصحيح أن عذرهم غير مقبول ، وأن عملهم هذا مخالف للشرع مناف للكتاب والسنة ، وأن دعواهم ...باطلة ، بل هم باعة ضمائر ، ورواد سفاسف (*) وطلاب وظائف ، هذا يريد أن يكون قاضيا وذاك مفتيا وذاك رئيس علماء ، ومنهم من يقبض أجرة إمضائه نقدا دراهم معدودة ...)) ([1]) .

ويبدو أن الأمير شكيب ، قد فضل إعطاء مثال عن العلماء المنحرفين المعطلين للرقي من التاريخ العربي والإسلامي المعاصر ، حيث امتحن العلماء العرب والمسلمون في العديد من المناسبات المصيرية للأمة ، وقد فضل الكثير منهم المصلحة الشخصية على المصلحة العامة ، والقلة القليلة منهم هي التي أخضعت مواقفها للمبدأ والمصلحة العامة ، ومنهم مترجمانا الشيخ

(*) – السفاسف : مفردها سفساف : الرديء من كل شيء . يقال فلان سفساف الكلام ، ليس لكلامه معنى . المنجد في اللغة والأعلام .

([1])– لوثروب ستودارد ، المصدر السابق ، م 2 ، ج4 ، ص 44 .

البشير الإبراهيمي والأمير شكيب ، فالأول رفض الدعاية والعمل لصالح الملك " فيصل " أثناء إقامته في الشام احتجاجا على سياسة أبيه "الشريف حسين" في المنطقة ، وقد أشرنا إلى ذلك بشيء من التفصيل في المبحث الثاني من هذا الفصل ، والثاني أيد الأتراك خلال الحرب العالمية الأولى ورفض مساندة الثورة العربية المتحالفة مع دول الوفاق ، إدراكا منه للأهداف البعيدة التي كانت ترمي إلى تحقيقها تلك الدول بعد أن تنتصر في الحرب .

وفي حقيقة الأمر ، لقد حفل التاريخ العربي والإسلامي في كل الأوقات والأزمنة ، بعلماء كانوا بمثابة شعاع النور والهداية وصوت الحق والعدل ، مدركين لحقيقة دورهم ، يقحمون أنفسهم في كل معركة خاضتها شعوبهم من أجل حريتها واستقلالها ، فإن لم يشاركوا كمحاربين ومقاتلين ، فهم يشاركون بكلمة الحق التي يرفعونها دون خوف أو وجل ، في وجه السلطان المستبد ، ويدعمون جبهات القتال بما لديهم من علم نافع ، وبتحفيز النفوس وتقوية الهمم . يدعمون سلطة الحكام إذا أحسنوا ، ويثورون ضدهم إذا جنحوا إلى الظلم ([1]) .

ولم يستثن الأمير علماء الفقه بالانتقاد ، حيث وصفهم بالجامدين وبشدة التعصب لكل ما قد سبق العمل به ، ونفورهم من كل شيء جديد ولو لم يتضمن مخالفة للشرع الإسلامي ، وعدم إجازتهم العمل إلا بما علموه ، ولو كانت المصلحة المتعينة تستوجب خلافه . وبتسابقهم إلى الجزم بحرمة ، ما لم تثبت حرمته ، بالرغم مما جاء من تشديد ووعيد ، ضد كل من يفتي بالحلال والحرام بغير علم ([2]) . فلا احد منهم اهتم بحل المشكلات الواقعية لمجتمعاتهم ، كما كان يفعل أئمة الفقه الإسلامي في العصور الأولى ، بل أن جل اهتمامهم كان منصبا على مشكلات وهمية (خيالية) ، معرضين عن مواكبة المشكلات والقضايا المستجدة ، منشغلين بقضايا خيالية صرفة ، كالبحث في جنس الملائكة ، أو التوضؤ من وطأ البهيمة ([3]) .

ولهذا السبب ، كان الأمير قاسيا في حملاته على هذا الصنف من العلماء المنتسبين إلى العلم زورا ، واصفا إياهم بشتى الأسماء والنعوت ومنها " المعمّمون " ، ومما قاله في هذا الشأن

([1])- ينظر اسماعيل ابراهيم : مشايخ ضد السلطة والسلطان ، ط 1 ، دار الكتب ، القاهرة : 2004م .

([2])- لوثروب ستودارد ، المصدر السابق ، م 2 ، ج 3 ، ص 368 .

([3])- مالك بن نبي : ميلاد مجتمع ، مرجع سابق ، ص 47 .

بأنهم أصحاب : ((عمائم مكورة ، وطيالس مجررة ، ورقاب غليظة ، وبطـون عظيمـة)) . وفضلا عن كل ذلك ، كان يستمطرهم باللعنات ([1]) .

ومما سبق ، نستنتج أن الأمير شكيب أرسلان ، قد حمل العلماء بما فيهم الفقهاء قسطا كبيرا من المسؤولية ، في الانحطاط الحضاري الذي أصاب العرب والمسلمين في العصور الأخيرة ، وأصبح صفة ملازمة لهم . بوقوفهم حاجزا أمام الرقي العلمي والفكري والاجتماعي لمجتمعاتهم ، في الوقت الذي يفترض فيه منهم أن يكونوا هم المحركين لعجلته ، القائدين لمسيرته . ولذلك فقد وجه انتقادات لاذعة ، أكثر من غيرهم من الفئات الاجتماعية الأخرى ، لحساسية دورهم في حياة الأمة . كما أنه لم يتردد في أن ينتزع عنهم صفة العلماء ، معتبرا إياهم منتسبين إلى العلم والدين زورا . لأن العالم في تقديره لا يكون عالما حقيقيا ، إلا إذا اضطلع بواجباته نحو أمته ، ومنها الدفاع عن مصالحها العليا ، وقيادتها نحو التقدم والازدهار ، فلا يخضع في ذلك للضغوط أو للإغراءات أو المساومة على مبادئه ، فإن فعل ذلك فقد صفة العالم .

2- <u>الجمود والجحود :</u>

عرف الأمير شكيب ، المسلم الجامد بأنه ، هو الذي مهد الطريق لأعداء المدنية الإسلامية لمحاربتها ، مبررين ذلك بأن التخلف الذي أصاب العرب والمسلمين ، وإنما هو ثمرة لتعاليم الدين الإسلامي .كما أنه هو سبب الفقر الذي ابتلي به قومه ، لأنه جعل من الإسلام دين آخرة فحسب ، رغم أنه دين دنيا وآخرة ، وهي خاصة تميزه عن سائر الأديان الأخرى ، فلا هو حصر الحياة في الكسب كما هو الحال في ديانات شعوب الصين والهند ، ولا هو في زهد الدنيا وملكها ومجدها كما جاء في تعاليم الإنجيل ، ولا حصر همه في المعيشة الدنيوية ، كما هو الحال في المدنية الأوروبية المعاصرة . وعرفه أيضا – المسلم الجامد – ، بأنه ذلك الذي أعلن الحرب على العلوم الطبيعية و الفلسفية وفنونها وصناعتها ، بحجة أنها علوم من إنتاج الكفار والنتيجة أنه حرم الإسلام من ثمراتها ، وأورث أبناءه الفقر الذي يحيونه ، وقضى على الحياة لديهم . لأن العلوم الطبيعية ، هي العلوم التي تبحث في الأرض ، التي لا تعطي مكنوناتها

([1])– أحمد الشرباصي : <u>أمير البيان شكيب ارسلان</u> ، مرجع سابق ، ص 191 .

وكنوزها ، إلا لمن يبحث فيها ، فإذا استهلكنا كل أعمارنا في الحديث عن الآخرة ، قالت لنا الأرض : ((اذهبوا توا إلى الآخرة فليس لكم نصيب مني)) .

وعلى ضوء هذا التعريف ، نلاحظ أن الأمير قد ميز بين نوعين من الجمود ، الأول أوجد البيئة الخصبة لأعداء الإسلام وخصومه ، لكي يحققوا أهدافهم المتمثلة في إلغائه كمرجعية فكرية و ثقافية و سياسية ، و بدرجة اقل تحييده ، بحجة أنه علة التخلف لدى العرب و المسلمين ، و في نهاية المطاف يتم بتعويضه ببديل آخر و هو البديل الغربي ، الذي يعتبره الكثيرون من أقطاب الفكر و الإصلاح العرب و المسلمين و منهم الأمير ، بأنه عديم الجدوى و مآله الفشل مسبقا ، لأسباب ثقافية و اجتماعية و فكرية . أما النوع الثاني من الجمود الذي أشار إليه ، هو العيش على الغيبيات و الإمتناع عن طرق أسباب الرقي و التقدم ، المتمثلة في العمل و البحث و التنقيب ، و السعي إلى خوض غمار الصناعة باستغلال الثروات و الكنوز التي تختزنها بواطن البلاد العربية و الإسلامية ، تماما مثلما قامت به الدول الأوروبية ، التي وظفت كل الوسائل من أجل الحصول على تلك الثروات الحيوية و منها الاستعمار .

و بعد ذلك تناول الأمير بالشرح و التحليل ، النتائج التي ترتبت عن حصر العرب و المسلمين لكل جهودهم في العلوم الدينية و المحاضرات الأخروية ، فذكر بأن ذلك قد جعلهم في مرتبة ضعيفة بالموازاة مع الأمم الأخرى ، التي توجهت نحو الأرض تبحث و تنقب فيها ، فكانت لها السيادة و الريادة في العالم ، في حين ظلوا هم يتراجعون و يتقهقرون ، حتى أصبحت عناصر القوة و السيطرة في أيدي أعدائهم الذين أصبحت لهم القدرة على إبعادهم عن دينهم ، فضلا عن التحكم في مصير دنياهم ، و من : ((ليست له دنيا فليس له دين)) ([1]) .

أما النتيجة الأخطر التي يراها ، هي أن المسلم الجامد لا يعرف أنه بمسلكه الخاطئ ذاك ، يعمل على تحطيم أمته و إنزالها دون منزلة الأمم الأخرى ، و لا ينتبه إلى النتائج الوخيمة التي جرها على قومه ، بإهمالهم للعلوم الكونية ، حتى أصبحوا في ما هم عليه من فقر ، و صاروا عالة على أعدائهم ، الذين لا يسعون إلا لإفقارهم و إخضاعهم . و رغم كل

([1])– شكيب أرسلان : لماذا تأخر المسلمون و تقدم غيرهم ؟ ، مصدر سابق ، ص 105، 106 ، 107 .

ذلك ، تراه يبرر ذلك الوضع بالقضاء و القدر ، شأنه في ذلك كشأن سائر الكسالى في الدنيا ، الذين يخفون عجزهم بالكسل و بالأقدار .

ثم خلص إلى أن هذا الصنف من الناس ، هو الذي حبب الكسل إلى الكثير من المسلمين ، فظهرت فيهم فئة تلقب بـ : " الدراويش " ، لا شغل و لا عمل لها ، و هي في الواقع ليست إلا ((أعضاء مشلولة في المجتمع الإسلامي)) ، و هذا الصنف أيضا هو الذي جعل الأوروبيين يقولون بأن الإسلام دين جبري ، لا يأمر أتباعه بالعمل ، فما هو موجود موجود سواء عمل الإنسان أم لم يعمل ([1]) .

و الأمير في كل ذلك ، لا شك أنه أراد أن يحفز العرب و المسلمين المتأخرين و الجامدين ، على ترك جمودهم جانبا ، و الانطلاق في العمل و البحث في كل الميادين و المجالات ، لأن الإسلام دين و مدنية ، و ليس كما يروج عنه خصومه أنه ، مجرد دين روحي ، ينظم العلاقة بين الله و الإنسان ، لا علاقة له بالحياة و المجتمع ، أي أنه لا يتضمن أسلوبا للحياة و قيما تستلهم منه ، و غير ذلك من المبررات التي تنزع عنه صفة العطاء ، و التأثير في مجريات حياة الإنسان و المجتمعات ([2]) .

و بالتالي فإنه يقر ، بأن الدين الإسلامي لا يشكل عائقا مهما كان نوعه ، أمام إستعادة العرب و المسلمين للريادة الحضارية التي فقدوها منذ قرون ، و انتقلت إلى الدول الغربية التي إستطاعت أن تنجز حضارة ، قامت على أنقاض الحضارة العربية الإسلامية ، و تمكنت من أن تغمر العالم بأسره ، بمخترعاتها و منتوجاتها في مجالات العلوم و التقنية ، و المؤسسات و النظم ، إلى حد الإبهار ، الأمر الذي شكل تحديا عظيما زاد في تعميق الفجوة الحضارية بين الغرب و العرب و المسلمين ، الذين إستسلموا للجمود و الخمول و الكسل ، و اكتفوا بعملية المشاهدة لكل ما يحدث لدى الطرف الآخر ([3]) .

([1])- شكيب ارسلان : لماذا تأخر المسلمون و تقدم غيرهم ؟ ، مصدر سابق ، ص 107 .

([2])- أنور الجندي : أفاق جديدة للدعوة الإسلامية في عالم الغرب ، ط 3 ، مؤسسة الرسالة ، بيروت : 1987م ، ص ص 189 – 190 .

([3])- محمود محمد سفر : دراسة في البناء الحضاري (محنة المسلم مع عصره) ، سلسلة كتاب الأمة ، ط 1 ، وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية ، قطر : 1409 ه ، ص ص 48-49 .

و مثلما أقر الأمير شكيب ، بوجود فئة من العرب و المسلمين ، لا ترغب في أن تغير شيئا ، و لا توافق على ابسط التعديلات في الواقع ، فإنه أقر أيضا بوجود فئة أخرى و صفها بالجحود . و الجاحد في مفهومه : هو الذي يريد " فرنجة " (من الإفرنج) المسلمين و بقية الأمم الشرقية ، وينتزع منها جميع مقوماتها الشخصية ، و يجعلهم ينكرون ماضيهم ، فيكون حالهم كحال العنصر الكيمياوي ، الذي يضاف إلى تركيبة جسم آخر غريبا عنه ، فيذوب فيه و يفقد هويته الأصلية .و قد اعتبر الأمير هذه النزعة النفسية ، التي تميل إلى إنكار الماضي و احتقار الآباء ، فعلا لا يصدر إلا من شخص خسيس ووضيع ، و عن من يشعر وسط قومه ، أنه ينحدر من أصل دنيء ، فيسعى للتعويض عن ذلك بإنكار أصل أمته بأسرها ، لأنه يدرك بأن لا نصيب له في تلك الأصالة . و هو أمر مخالف لسنن الكون الطبيعية ، التي أوجدت في كل الأمم ميلا طبيعيا ، إلى الاحتفاظ بمقوماتها و خصائصها ، المتمثلة في اللغة و العقيدة و العادات و ألوان الطعام و الشراب و السكن ([1]) .

و منه يتضح لنا أن الأمير قصد بالجاحدين دعاة التغريب ، و هم أولئك المثقفون المعجبون بالغرب المنبهرون بحضارته و قيمه أعظم انبهار ، الذين يعتقدون بأن وسيلة العرب و المسلمين الوحيدة ، للخروج من مأزق التخلف و الانحطاط ، هي هدم كل ما هو موجود و إزالته ، و إحلال النموذج الغربي محله . و الواقع أن هذا التيار شديد الاغتراب عن أمته و هويته ، قد افتتن بالغرب ، و أخطأ فهمه و تفسيره و الاسترشاد بمنهجه في الإصلاح . فالغرب حينما يسعى للإصلاح ، فمن أجل أن يحافظ على ما هو موجود ، بينما يعمل الفريق المستغرب لدى العرب و المسلمين ، على التجرد من كل ما يتصل بالهوية و الذات تجردا تاما ([2]) .

و من المعروف أن " التغريب " (Oxidentalisation) الذي يعني نشر حضارة الاستعمار الغربي في الماضي ، و الحضارة الغربية حاليا ، وهو سياسة حاولت خدمة مصالح الاستعمار ، بتقليص الهوة التي تفصل بينه و بين شعوب مستعمراته في البلاد العربية

([1])- شكيب أرسلان : لماذا تأخر المسلمون و تقدم غيرهم ؟ ، مصدر سابق ، ص ص 88-89 .
([2])- سعيد حليم باشا : لماذا تأخر المسلمون ؟ ، نقله عن التركية و قدم له عبد الرزاق بركات ، ط 1 ، عين للدراسات و البحوث الإنسانية و الاجتماعية ، القاهرة : 2006م ، ص 19 .

و الإسلامية ، نتيجة للاختلاف في القيم ، و للظلم الذي كان تشعر به تلك الشعوب إزاء المحتل لبلادها ، مما يفرض عليها مقاومته و محاربته ، طبقا لما نصت عليه عقيدتها التي تستوجب الجهاد ضد المحتل هذا من جهة . و من جهة ثانية ، فقد عملت سياسة التغريب ، على إضعاف الرابطة الدينية التي تجمع المسلمين ، و تفرق اجتماعهم على قيم فكرية و حضارية مشتركة ، حتى يتمكن الاستعمار في النهاية من أن ينفرد بتلك البلاد كل على حدا . و لتحقيق ذلك وظف الاستعمار كل الوسائل ، و تغلغل في كل الميادين ، و امتد إلى سلوك الأفراد و الآداب الاجتماعية و الفنون ، و استعان بالبرامج الدراسية ، و الصحافة و الإستشراق ... و غيرها ([1]) .

و قد وجدت هذه السياسة التغريبية ، البيئة الخصبة في البلاد العربية و الإسلامية ، بوجود فئة من مجتمعاتها لها الاستعداد للعمل في هذا الاتجاه ، و قد عدها الأمير بالمريضة نفسيا ، فجعلها مرضها تحتقر ذاتها و أمتها و تراثها و تاريخها و قيمها الحضارية ، و وجودها بطبيعة الحال لا يقتصر على العرب والمسلمين ، وإنما في كل البلاد وفي كل الأزمنة .

وجملة القول أن الأمير شكيب ، قد حاول من خلال ما سبق لفت انتباه العرب والمسلمين ، إلى النتائج السلبية التي انجرت عن الجمود والجحود على مجتمعاتهم ، فإذا كان الأول يدفع إلى الانغلاق الشديد وإنكار التجديد وسنن التطور الطبيعي ، فإن الثاني يؤمن بأن البعد عن المقومات الذاتية ومحاكاة الغرب ، هو السبيل إلى الخروج من دوامة الانحطاط والتقهقر . وكلاهما أوجد حالة من التشتت والضياع ، والغربة الروحية والأدبية والفكرية ([2]) .

ومن خلال ذلك ، فقد دعا إلي إعادة استلهام القيم المعنوية والمادية التي قامت عليها الحضارة العربية والإسلامية الأولى ، التي ارتادت مجاهيل الأرض وبحثت في كنوزها ، ونشرت العدل والرقي ، دون أن تفقد الصلة بذاتها وبمقوماتها ، أو تعتبر بأن الاشتغال بذلك نقص في الدين ، وابتعاد عن توجيهاته . بل أنها اتخذت المنهج التجريبي في البحث ، والذي

([1])- ينظر محمد محمد حسين : أزمة العصر ، د ط ، دار عكاظ للطباعة و النشر ، جدة ، السعودية : 1979م ، ص 105 و ما بعدها .

([2])- سعيد حليم باشا ، المرجع السابق ، ص 19 .

صار بدوره أساسا لكل التقدم الذي تشهره الدول الغربية في ميدان العلوم في عصرنا الحالي ([1]) .

03 – فساد الحكام :

شدد الأمير شكيب على أنه ، من أكبر المصائب التي أصيب بها العرب و المسلمون المتأخرون ، تأتيهم من حكامهم الذين يبيعون حقوق الأمة ، بلقب أمير أو ملك كاذب ، و بتبوء كرسي أو سرير ، و برفع علم زائف و لذة تافهة ، أو بإعطاء أوسمة و مراتب ([2]) . و راح يصف حالهم ، بأنهم استولوا على أموال مجتمعاتهم ، أما أوقاتهم فيكرسونها في إشباع شهواتهم ، و في الجري وراء مصالحهم الخاصة التافهة . مشتغلون بتوافه الأمور عن السامية منها ، لا هم لهم سوى إنفاق الأموال في الشهوات و الملذات ، يتصرفون فيها كيف ما شاءوا ، و كأنها تركة ورثوها عن أبائهم و أجدادهم ([3]) .

و هو في هذا يقر ، بفساد أغلب الحكام العرب و المسلمين إلا النادر منهم ، حيث تنصلوا من واجباتهم إزاء محكوميهم ، المتمثلة في صيانة حقوقهم و حماية وحدتهم و الدفاع عنهم ضد أي خطر خارجي يهددهم ، و سلكوا سياسات خاطئة جوهرها الاستبداد و عدم المسؤولية . و بذل كل شيء من أجل الإبقاء على مناصبهم و عروشهم ، فضلا عن انغماسهم في الترف و دواعي الشهوات ([4]) ، التي يقبلون عليها بسخاء غير آبهين بحال شعوبهم ، التي تزداد فقرا و تخلفا و انحطاطا بفعل ذلك .

و علاوة على ذلك ، يرى الأمير شكيب بأنه من بين أولئك الحكام ، من دعا صراحة إلى التفرنج و الإقتداء بالأوروبيين ، و يعطي مثالا بـ :" مصطفى كمال أتاتورك " الذي اشتهر بسياسته المعادية لكل ما هو إسلامي و شرقي ، و الساعية لجعل تركيا بلدا أوروبيا مظهرا

([1])– محمد قطب : قضية التنوير في العالم الإسلامي ، ط 2 ، دار الشروق ، القاهرة : 2002م ، ص ص 23–24 .

([2])– لوثروب ستودارد ، المصدر السابق ، م 1 ، ج 2، ص 100.

([3])– شكيب ارسلان : الإرتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف ، مصدر سابق، ص ص 50 –51 .

([4])– علي المحافظة : الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة (1797م – 1914م) ، ط2 ، الأهلية للنشر والتوزيع ، بيروت : 1978م ، ص 165 .

و مخبرا ، بل أن سياسته تلك قد تحولت إلى حجة يطلقها أنصاره ، في وجه كل من يخالفهم الرأي خاصة في مسألة العادات الإسلامية القديمة و منها الحجاب ، حيث كان " أتاتورك " يدعي كما يدعي خلفاءه في عصر شكيب و الإبراهيمي ، من أن التمسك بتلك العادات هو السبب الذي أدى بالإسلام إلى ما هو عليه من ضعف ، و أن السبيل الوحيد لخلاص – العرب – المسلمين منه ، هو الإقتداء بالأوروبيين في لباسهم و طعامهم و في كل شيء يتصل بهم . على أساس أن كل ما يراه الأوروبيون حسن فهو حسن ، فلو لم يكونوا أقدر على الحسن من غيره ، لما حققوا ذلك النجاح الباهر في كل المجالات ... إلى غير من ذلك من المبررات التي يسميها الأمير شكيب بـ ((التعليلات الأنقرية الواهية)) – نسبة إلى العاصمة أنقرة التي أصبحت عاصمة لتركيا في عهد أتاتورك – ، المردودة بالبداهة باعتراف العلماء الأوروبيين أنفسهم ، الذين أقروا بأن رقي الأمم ماديا لا يتم إلا في إطار المقومات الروحية و المشخصات الإجتماعية ، و الدليل في ذلك أن أوروبا رغم ما أحرزته من تقدم في شتى العلوم و المعارف و الصناعات ، إلا أنها ظلت متمسكة تمسكا شديدا بتعاليمها المسيحية ، لا تحيد عنها قيد أنملة ، و قد تكون أشد اعتصاما بها من اعتصام المسلمين بتقاليدهم .

و من الأمثلة أيضا ، التي تجعل " أتاتورك " بسياسته تلك في رأي الأمير شكيب ، نموذجا سيئا للحكام المسلمين في ذلك الإطار ، تشجيعه على عادة السفور بين الرجال و النساء ... و غيرها من الأمور التي فرضها على الأتراك و حمل عليها المسلمين دون غيرهم ، و منها طلبه من سفير مصر بـ : "أنقرة " "عبد المالك بك حمزة " ، أن ينزع طربوشه خلال حفلة رسمية ، مما أدى إلى نشوب نزاع بين مصر و تركيا ، تحول إلى قضية دولية بينهما ([1]) .

و بالفعل فإن " كمال أتاتورك " ، يعد من أبرز الحكام المسلمين في التاريخ المعاصر ، الذين إعتقدوا بأن الخصائص الشرقية تشكل عائقا للرقي و التقدم أمام البلاد الإسلامية و العربية ، و في ذلك قال : ((يجب علينا أن نلبس ملابس الشعوب المتحضرة الراقية ، و علينا أن نبرهن للعالم أننا أمة كبيرة راقية ، و لا نسمح لمن يجهلنا في الشعوب الأخرى بالضحك علينا

([1])– لوثروب ستودارد ، المصدر السابق ، م 1 ، ج 2، ص 215 .

و على موضتنا القديمة البالية ، نريد أن نسير مع التيار و الزمن ([1]) . و من ذلك فقد بذل كل ما في وسعه ، لفصل تركيا عن ماضيها الذي كان يراه فاسدا و متعفنا .

و من الطبيعي بالنسبة للأمير شكيب أرسلان ، أن تجد أفكار " أتاتورك " التغريبية صدى لها في البلاد العربية و الإسلامية ، حيث تحول إلى مثل أعلى للكثير من القادة و السياسيين و المفكرين فيها على إختلاف أجناسهم و بيئاتهم ([2]) ، و منهم " أمان الله خان " في أفغانستان ، الذي كان الأمير معجبا به في بداية الأمر ، و كانت له علاقات مع سفرائه و رجاله يوم كان رئيسا ل: " النادي الشرقي " في برلين بين 1920م و 1923م ، لكنه غير موقفه منه ، بعد ظهوره أثناء زيارته لمصر و للعديد من الدول الأوروبية و خاصة إيطاليا ، بمظهر التفرنج ، رغم نصائح الكثير من الشخصيات العربية و الإسلامية له ، بالعدول عن ذلك . و لهذا رفض الأمير الذهاب لإستقباله أثناء مجيئه إلى سويسرة ، حيث كان مستقرا بـ :" لوزان " ([3]) . و هو موقف ليس بالغريب عن الأمير شكيب أرسلان ، الذي عرف بجرأته الشديدة في التعبير عما يعتقده أنه الحق أو الصواب ، و بإعتزازه العظيم بنفسه و بأمته و بدينه .

و تجدر الإشارة في هذا الصدد ، أنه قد كانت للأمير مواقف عديدة إنتقد فيها أصحابها رغم سمو مكانتهم العلمية و الإجتماعية ، و منهم الأديب " طه حسين " ، الذي أصدر كتاب " في الشعر الجاهلي " ، و أظهر فيه إنبهارا زائدا بكل ما يصدر عن الأوروبيين قولا و فعلا ، و لو كان سيئا يتعلق باللغة العربية و آدابها ، فقال فيه أنه كان في ذلك مدفوعا : ((بعقيدة سخيفة فاشية – و يا للأسف – في الشرق ، و هي أن الأوروبي لا يخطئ أبدا ! و أنه من حيث أنه إخترع الأوروبي سكة الحديد و الغواصة و الطيارة و السيارة و التلغراف و اللاسلكي و ما

([1])– أبو الحسن علي الندوي : الصراع الفكري بين الفكرة الإسلامية و الفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية ، مرجع سابق ، ص 47 نقلا عن IRFANOGRA MARGARETE : ATATURK , MICHAEL JOSETH LTD , LONDON , 1962 P.244

([2]) – للمزيد ينظر المرجع نفسه ، ص 49 و ما بعدها .

([3])– لوثروب ستودارد ، المصدر السابق ، م 2 ، ج 3 ، ص ص 217–218 .

أشبه ذلك ، فلا شك أنه صار يفهم جيمية " الشماخ " و لامية الشنفرى (*) أحسن ما يفهمهما سيبويه (**) و الخليل إبن أحمد (***) ... إلخ)) ([1]) .

و يعتقد الأمير شكيب أن مسؤولية فساد الحكام و الأمراء ، يتحملها العلماء ، لأنهم يجارونهم في معاصيهم ، و يتزلفون إليهم بالباطل و بالإفتاء لهم بتأويل النصوص الشرعية ، جريا وراء مطامع دنيوية زائلة . فكانت النتيجة وخيمة على الأمة العربية و الإسلامية ، التي فقدت قوتها و هيبتها و سيادتها ، و أضحت ضعيفة و منحطة لا قيمة لها بين الأمم : ((و هكذا تحول أمر هذه الأمة من العظمة إلى الصغار ، و من التمكن في الأرض إلى البوار ، و من المآثر و المباني إلى الدمار ، و من أحاديث المعالي إلى أقاصيص العار و الشنار) . و خلص على أن أخطر نتيجة ترتبت عن كل ذلك ، تزايد الأطماع الاستعمارية الغربية على الأقطار العربية و الإسلامية ، طمعا في السيطرة عليها ([2]) .

فالأمير شكيب بناءا على ذلك ، قد ربط فساد الحكام و الأمراء في بلاد العرب و المسلمين أيضا بفساد و انحراف العلماء ، الذين بدلا من أن يكونوا سلطة فوق سلطتهم ، أصبحوا أداة في أيديهم يلجئون إليهم كلما احتاجوا إلى دعاية ، أو تبرير لسياساتهم و ممارساتهم التي لم تجلب لبلدانهم التخلف الحضاري و الاجتماعي فحسب ، بل جلبت لها الاستعمار الأوروبي . فإذا كان الأمير قد ضرب مثلا بتركيا تلك الدويلة الصغيرة التي تمخضت عن

(*) – الشنفرى (أوائل القرن السادس الميلادي) : هو ثابت أوس الأزدي ، يمني الأصل ، من شعراء الجاهلية الصعاليك ، له " لامية العرب " و مطلعها :

أقيموا بني أميا صدور مطيكم فإني إلى قومي سواكم لأميل . المنجد في اللغة و الأعلام .

(**) – سيبويه : هو سيبويه أبو بشر عمرو بن عثمان ، نحوي ولد في " البيضاء " قرب " شيراز " ، و نشأ في البصرة ، تعلم على الخليل . إمام مذهب البصريين ، و كتابه في النحو هو " الكتاب " شرحه " إبن الشراج "و " المبرمان " و " السيرافي " و " الروماني " ، توفي نحو سنة 796 . المنجد في اللغة و الأعلام .

(***) – الخليل ابن أحمد : من أشهر علماء اللغة ، واضع علم العروض ، من أهل البصرة ، معلم " سيبويه " و " الأصمعي " . له كتاب " العين " و هو أول معجم عربي على الحروف ، توفي نحو سنة 786م . المنجد في اللغة و الأعلام .

([1])– جلال أمين : التنوير الزائف ، سلسلة إقرأ ، دار المعارف ، القاهرة : 1990م ، ص ص 110 – 112.

([2])– شكيب أرسلان : الإرتسامات اللطاف ، مصدر سابق ، ص ص 50 – 51 .

انهيار الدولة العثمانية ، فإن هاته الأخيرة لم تنتهي إلى تلك الحال ، إلا بسبب حكامها الذين عملوا على تمزيق أواصر السلطة فيها ، بزرع الشقاق و إدخال الانقسام حتى في صفوف الجيش ، و قد شبه الأمير شكيب حالهم ذلك بحال من يخرب بيته بيده ([1]) . غير آبهين بمخططات الدول الاستعمارية الأوروبية التي كانت تتربص بدولتهم ، طمعا في اقتسام أملاكها و تركتها ([2]).

و بالنظر إلى كل ما سبق ، يمكننا أن نستنتج السبب الذي دفع بالأمير شكيب ، على اعتبار أن كل ما تعرض له العرب و المسلمون من انحطاط و تخلف ، إنما مصدره حكامهم و أمراءهم ، الذين كانوا يحرصون في اعتقاده على إدامة ذلك الوضع ، حفاظا على سلطتهم التي انتزعوها بالقوة والترهيب والمؤامرات والدسائس هذا من ناحية ، ولأنهم أوصلوا بلدانهم إلى الإفلاس التام الذي مهد الطريق أمام التدخل الأجنبي ، ثم الاحتلال من ناحية ثانية .

04- <u>ضعف الروح القومية و الخيانة</u> :

يعد ضعف الروح القومية ، عاملا أساسيا في تخلف و انحطاط العرب و المسلمين في نظر الأمير شكيب أرسلان ، و لهذا فقد بدأ مناقشته لهذا الموضوع ، بالحديث عن الروح القومية العالية التي يتصف بها الشعب الإنجليزي ، الذي لم يصل حسبه إلى ذلك المبلغ من القوة و السلطان ، إلا بفضل ذلك ، و للتأكيد على ذلك ساق الحادثة التالية قائلا : ((حدثني رجل ثقة أنه يعرف إنجليزيا ذا منصب في الشرق كان يأمر خادمه أن يشتري له الحوائج اللازمة لبيته يوميا من دكان رجل إنجليزي في البلدة التي هم فيها . فجاءه الخادم مرة بجدول حساب وفر عليه 20 جنيها في شهر . فسأله الإنجليزي كيف أمكنك هذا التوفير ؟ فقال الخادم : تركنا دكان الإنجليزي الذي كنا نشتري منه و صرنا نشتري من دكان أحد الأهالي العرب . فقال له الإنجليزي : ارجع إلى دكان الإنجليزي الذي كنا نشتري منه . فقال الخادم : أو لو كان ذلك يستلزم إنفاق 20 جنيها زيادة ؟ فقال الإنجليزي : و لو كان ذلك يستلزم إنفاق 20 جنيها زيادة ؟)) .

([1])- نجيب البعيني ، المصدر السابق ، ص 206 .

([2])- شكيب أرسلان : <u>سيرة ذاتية</u> ، مصدر سابق ، ص 58 .

و أضاف في السياق ذاته ، أنه سمع عن الكثير من الإنجليز ، أنهم يفضلون شراء حوائجهم ذات القيمة المرتفعة من بلادهم ، بل يوصون إرسالها لهم من " لندن " ، حتى لا تذهب أموالهم إلى غيرهم ([1]) .

و يظهر من روايته لتلك الحادثة ، أن الأمير شكيب كان معجبا كثيرا بسلوك الفرد الإنجليزي ، الذي يخضع لتأثير النزعة القومية ، التي تجعله يرتبط بكل ما له صلة بأمته حتى و هو خارج بلاده ، و ينزع إلى عمل كل ما يستطيع عمله ، للدفاع عن كيانها و كرامتها ، و لتكون دائما قوية و ناهضة و مزدهرة ([2]) . وهي الخصائص الاجتماعية ذاتها التي عرف بها المجتمع الياباني ، التي استلهمها من الثقافة اليابانية ، التي تقدم نموذجا عاليا للولاء القوي ، يصل إلى حد التعصب ، و الذي يرتبط بمشاعر التميز ، و الرغبة في إثبات التفوق ([3]) .

و بعد تلك الأمثلة الرائعة في وطنية الإنجليز ، يعود الأمير ليتحدث عن الجهة المقابلة ، و هم العرب و المسلمون الذين يقفون في تقديره على طرفي النقيض من ذلك ، فيذكر أنهم لا يراعون أولوية الشراء من عند العربي على الأجنبي ، فأدى سلوكهم هذا إلى إحباط عملية المقاطعة العربية لليهود ، التي تمثل سلاحا في غاية الأهمية و الفعالية ، باعتبارهم قوة مستهلكة للسلع اليهودية و الإنجليزية ، و هذا جريا وراء تخفيضات زهيدة ، يوفرونها عند الشراء من اليهودي و الإنجليزي ، غير مقدرين للعواقب الخطيرة التي تنجر عن سلوكهم هذا و في ذلك قال : ((أفنقيس هذا بأعمال المسلمين الذين مهما أوصيتهم بالشراء من أبناء جلدتهم أو أوطانهم و علموا أنهم يقدرون أن يوفروا في السلعة الواحدة نصف قرش إذا أخذوها من الإفرنجي تركوا ابن جلدتهم أو ملتهم و رجحوا الإفرنجي ؟ . أفلم يكن سبب حبوط (احباط) مقاطعة العرب لليهود في فلسطين أشياء كهذه ؟ حرموا أنفسهم أمضى سلاح في يدهم و هو المقاطعة في الأخذ

([1])- شكيب أرسلان : لماذا تأخر المسلمون و تقدم غيرهم ؟ ، مصدر سابق ، ص 48 .

([2])- أبو خلدون ساطع الحصري : أراء وأحاديث في الوطنية و القومية ، ط 2 ، م د و ع ، بيروت : 1985م ، ص 13 .

([3])- عبد الغفار رشاد : التقليدية و الحداثة في التجربة اليابانية ، ط 1 ، مؤسسة الأبحاث العربية ، بيروت : 1984م ، ص 82 .

و العطاء مع اليهود من أجل فروق تافهة مؤقتة ونسوا أن الضرر الذي يصيبهم في الأخذ و العطاء مع اليهود هو أعظم ألف مرة من ضرر هاتيك الفروق الزهيدة)) ([1]) .

فالأمر إذا مختلف لدى العرب و المسلمين المتأخرين ، بالمقارنة مع الإنجليز في مسألة الروح القومية ، فوفق الحادثة السابقة التي أوردها الأمير في بداية هذا المبحث ، كان تصرف الإنجليزي في موضوع شراء الحاجيات الخاصة به ، قضية قومية تسمو عنده فوق كل الاعتبارات حتى الربح الشخصي ، بينما قدم العربي المسلم في فلسطين مصلحته الذاتية ، المتمثلة في توفير بعض النقود على حساب المصالح المصيرية و العليا لأمته ، بالشراء من التاجر اليهودي و الإنجليزي ، اللذان يحتلان بلده و يعملان للبقاء فيه بشكل نهائي .

و في نفس الصدد ، يضرب الأمير مثالا آخر لكي يبرهن على ما قاله ، بشأن ضعف الروحية القومية بين العرب و المسلمين في عصره ، و هو " ثورة الريف " المغربي التي قادها القائد " عبد الكريم الخطابي " (*) ، فيقول أنه و بالرغم من عدد سكان الريف القليل (800 ألف نسمة) و أسلحتهم البسيطة ، إلا أنهم تمكنوا في معركة واحدة فقط من قتل 26 ألف إسباني و غنم 170 مدفعا ، لكن هذا الانتصار تحول إلى هزيمة ، بسبب سخاء المسلمين الذين تكرموا على أهل الريف بألف و خمسمائة جنيه (1500 جنيه) (**) ، في حين هبت فرنسا المسيحية لنجدة إسبانيا ، فحشدت رفقتها مئات الجنود ، و حاصرتا المنطقة برا و بحرا و جوا ، و حتى الأمريكان سارعوا إلى نجدة الفرنسيين و الإسبان ، كل هذا رغم الخلافات الكبيرة التي

([1])– شكيب أرسلان : لماذا تأخر المسلمون و تقدم غيرهم ؟ ، مصدر سابق ، ص 48 .

(*) – عبد الكريم الخطابي : من مواليد منطقة الريف في شمال المغرب الأقصى (1882م – 1963م) ، تمكن من الانتصار على المحتلين الأسبان بقيادة الجنرال " سلفستر " في معركة " أنوال " الشهيرة سنة 1921م ، و قد عدت تلك الهزيمة التي لحقت بإسبانيا بالساحقة التي لم يتلقاها أي جيش أوروبي فيما وراء البحار على أيدي الوطنيين منذ سنة 1896م ، واصل بعدها الأمير عبد الكريم مقاومته للإسبان في شمال و الفرنسيين في الوسط و الجنوب ، لكنه اضطر إلى الاستسلام سنة 1926م أمام قوة التحالف المزدوج الفرنسي الإسباني . توفي بالقاهرة . للمزيد ينظر جلال يحيى : المغرب الكبير (الفترة المعاصرة و حركات التحرر والاستقلال) ، ج 4 ، د ط ، دار النهضة العربية للطباعة و النشر ، بيروت : 1981م ، ص 125 و ما بعدها .

(**) – تبرع الأمير شكيب أرسلان في هذه الحرب ، بأربعة (04) جنيهات على أن تبعث الحمية في المسلمين . شكيب أرسلان ، المصدر نفسه ، ص 54 .

كانت بين هذه الدول العظمى ، لأن الذي يجمعها برأي الأمير شكيب ، هو العداء المستحكم ضد الإسلام و المسلمين ([1]).

و على ضوء ذلك ، يتضح لنا أن الأمير شكيبا ، قد أرجع سبب انتصار الإسبان و الفرنسيين على " ثورة الريف " في المغرب الأقصى ، ليست إلى قوة جيوش الاحتلال ، و إنما إلى ضعف الروح القومية من جانب العرب و المسلمين ، التي جعلتهم يتقاعسون عن تقديم المساعدة المادية و المعنوية لأشقائهم في المغرب الأقصى ، في مقابل الدعم الكبير التي تلقته إسبانيا من فرنسا و الولايات المتحدة الأمريكية ، و قد سخر من ذلك المبلغ الزهيد ، الذي تم جمعه كإعانة مالية للشعب المغربي ، و الذي لا يمثل شيئا ، أمام الإمدادات الحربية الكبيرة التي أرسلتها فرنسا إلى المغرب الأقصى فقط في أوائل شهر جويلية 1925م ، التي تمثلت في 11 كتيبة عسكرية ، و قوة كبيرة من وحدات المدفعية و الوحدات المساعدة ، فضلا على قوات المجندين من مختلف الجنسيات ، الذين قامت فرنسا بتجنيدهم ضمن قواتها الإستعمارية ، دون أن ننسى القوات المدرعة و الجوية و كتائب المشاة ، التي كانت متمركزة في المنطقة قبل ذلك ([2]) .

و قد تأسف الأمير شكيب لهذه المواقف السلبية ، التي جعلت العرب في فلسطين و المغرب الأقصى ، و حتى في ليبيا التي سقطت في يد الإحتلال الإيطالي ، يواجهون مصيرهم لوحدهم دون التفافة جدية من الإخوة العرب و المسلمين ، حيث لم تفلح النداءات التي أطلقها في هذا الإطار ، و حث من خلالها البلدان العربية و الإسلامية بصفة عامة ، و الحكومة المصرية الحديثة بلادها بالاستقلال بصفة خاصة ، في تحريك المشاعر و التعبئة العامة بهدف الوقوف في وجه الإستعمار الغربي ، الذي دفعته المصلحة المشتركة إلى تبادل التنسيق و التعاون بين دوله ، مثل ما حدث في المغرب الأقصى و في غيره من الأقطار العربية و الإسلامية .

و قد إعترف الأمير شكيب ، بوجود فئة من العرب و المسلمين لم تكتف بعدم تقديم المعونة لإخوانها في العرق و الدين ، و إنما راحت تعين المستعمر على ملتها و دينها ووطنها ، تزلفا و طلبا للحضوة و لمصالح شخصية ، مخالفة بذلك تعاليم الدين و الشرف و المروءة

([1])–شكيب أرسلان : لماذا تأخر المسلمون و تقدم غيرهم ؟ ، مصدر سابق ، ص ص 53 – 54.

([2])– جلال يحي : المغرب الكبير (الفترة المعاصرة) ، مرجع سابق ، ص ص 179–180 .

و المصلحة العامة . و يفترض الأمير شكيب أنه ، لولا تلك الخدمات العظيمة التي قدمها أولئك الخونة – حسب تعبيره – للمحتل ، لما تسنى له أن يحصل على ما حصل عليه ، من سطوة وهيبة على الأرواح و الأبدان .

و لتأكيد ذلك ، يضرب الأمير شكيب أمثلة حية ، عن خيانات العرب و المسلمين لبعضهم البعض ، و منها إنضمام بعض الريفيين (الريف) للقتال إلى صف الفرنسيين و الإسبان ، ضد مقاومة " عبد الكريم الخطابي "، و بعض عرب شرق الأردن ، الذين تعاونوا مع الإنجليز ضد عرب فلسطين .

و يرى أن هذه الخيانات " المجانية " ، لو أنها إقتصرت على الجهلة و عامة الناس ، لكانت أقل شأنا و خطرا ، لكنها إمتدت في واقع الأمر ، لتشمل بعض أقطاب الأمة و أعلامها ، ممن يفترض فيهم أن يكونوا القدوة ، و الذين فضلوا ركوب قطار المحتل ، جريا وراء إغراءاته التي عجزوا عن مقاومتها ، و هم كثيرون عند الأمير شكيب ، و قد ذكر منهم الوزير " المقرّي " و " البغدادي " باشا " فاس " ، اللذان كان من مؤيدي الظهير البربري الذي أصدرته فرنسا في المغرب الأقصى ، و قد كان يجهران بعدائها الإسلام و لشريعته جهارا نهارا .

و بالنظر إلى ذلك ، يصل الى القول بأن ذلك إن دلّ على شيء ، فإنما يدل على أن الخيانة كانت ظاهرة مستفحلة بين العرب و المسلمين ، حتى أضحى : ((أكبر أعداء الإسلام هم المسلمون ، و أن المسلم إذا أراد أن يخدم ملته أو وطنه و قد يخشى أن يبوح بالسر من ذلك لأخيه إذ يحتمل أن يذهب هذا إلى الأجانب المحتلين فيقدم لهم بحق أخيه الوشاية التي يرجو بها بعض الزلفى)) ([1]) .

و قد إستشهد الأمير شكيب على ذلك ، بما قاله له الملك " إبن سعود " حينما طالبه أحد الحجاج المصريين الأزهريين ، بأن يقوم بمحاربة الإنجليز و الفرنسيين أشدّ أعداء المسلمين ، فرد عليه قائلا : ((الإنجليز والفرنسيين معذورون إذا عادونا لأنه لا يجمعنا بهم جنس و لا دين و لا لغة و لا مصلحة ، و لكن المصيبة التي لا عذر لأحد فيها أن المسلمين أصبحوا أعداء

([1]) – شكيب أرسلان : لماذا تأخر المسلمون و تقدم غيرهم ؟ ، مصدر سابق ، ص 63 .

أنفسهم ، و أنا و الله لا أخاف الأجانب و إنما أخاف من المسلمين ، فلو حاربت الإنجليز لما حاربوني إلا بجيش من المسلمين)) ([1]) .

و الواضح أنه ما قاله هنا " ابن سعود " للأمير شكيب ، يشير إلى تلك الانقسامات التي حصلت في الموقف العربي أثناء و بعد الحرب العالمية الأولى ، و قد سعت كل من بريطانيا و فرنسا بشكل خاص الاستثمار في ذلك ، بتأليب العرب ضد تركيا التي كانت طرفا في الحرب ، مستغلتان في ذلك السخط و التذمر العربي منها ، فقد تحالف أمراء الجزيرة العربية و هم " الإدريسي " في " عسير" ، و " ابن سعود " مع بريطانيا ، في حين أبقى " آل الرشيد " في " شمر " الذين كانوا على عداء شديد مع " آل سعود " و شيوخ قبائل العراق على ولائهم للأتراك ، و الانقسام ذاته كان حاصلا في الشام ([2]) . و بغض النظر عن المبررات التي قدمها الطرفان الأول و الثاني تبريرا لمواقفهما، فإن الجميع في النهاية قد وقع في القبضة الاستعمارية الإنجليزية و الفرنسية . بعد أن وظفوا كأداة لطرد الحكم التركي الفاسد في المنطقة ، ثم في السيطرة على أجزائها الواحدة تلوى الأخرى .

و قد أشار الأمير شكيب إلى ذلك التوظيف ، يقوله أنه ما من بلد مسلم تمكن الإستعمار من الاستيلاء عليه ، إلا و كان الجزء الأكبر من العملية بمساعدة المسلمين أنفسهم ، فمنهم من تولى مهمة التجسس و نقل الأخبار و المعلومات عن قومه لصالح الغزاة ، و من منهم تحول إلى داعية لهم بين قومه ، و منهم من رفع لهم السلاح ضد أمته و أراق دماء بني جلدته .

و ينهي حديثه بشأن أولئك الخونة متسائلا ، إن كانوا هم الذين سيتحقق على أيديهم العز و النصر، و التمكين في أرض الذي وعدنا إياه الله سبحانه و تعالى ، و هم الذين سعوا لخدمة الأجانب على حساب ملتهم و وطنهم و قومهم ؟ . ثم يستطرد فيقول أن هذا الفريق من العرب و المسلمين ، كلما تعرض للعتاب على خيانته ، تحجج بعدم القدرة على المقاومة ، أو بإتقاء ظلم المستعمر ، أو بأنهم لجأوا إلى أخف الضررين ؟ . و هي مبررات إعتبرها الأمير شكيب لا أساس لها من الصحة ، فلقد كانوا حسبه قادرين على خدمة دينهم و أمتهم بالقتال ، فإن لم

([1])- شكيب أرسلان : لماذا تأخر المسلمون و تقدم غيرهم ؟ ، مصدر سابق ، ص 63 .

([2])- ينظر محمود صالح منسي : حركة اليقظة العربية في الشرق الأسيوي ، د ط ، دار الفكر العربي ، القاهرة : 1975م ، ص 235 و ما بعدها .

يستطيعوا فبأقلامهم و ألسنتهم ، فإن لم يستطيعوا فبعواطفهم ومشاعرهم ، لكنهم فضلوا أن يكونوا أداة للأجانب على قومهم ، و قبلوا أن يؤدوا دور الدليل المساعد لهم للسيطرة على أوطانهم . قاموا بكل ذلك بأريحية و طيب خاطر ، غير مقدرين لحقيقة الجرم الذي إرتكبوه : ((و تراهم مع ذلك وافرين ناعمي البال ، متمتعين بالهناء و صفاء العيش ، و هم يأكلون مما باعوا من تراث المسلمين ، و ينامون مستريحين)) ([1]) .

إن الذي دفع في حقيقة الأمر ، هؤلاء إلى خيانة أوطانهم ليست تلك المبررات التي ساقها الأمير شكيب على ألسنتهم ، و إنما بسبب تشبعهم بروح : ((العمالة الإستعمارية)) على حد تعبير الأستاذ " كريم جبر الحسن " ، تلك العمالة التي تربوا عليها حتى أصبحت جزءا أساسيا من كيانهم ، و جعلت كل همهم و تفكيرهم و مواقفهم و سلوكياتهم ، تتجه لخدمة المستعمر ، و لو بتشجيعه على أبناء قومهم الذين يكافحونه من أجل حريتهم و إستقلال أمتهم . و لذلك تراهم يصابون بالهلع و الفزع إذا ما أحسوا بالخطر على علاقتهم بالإستعمار ، حيث يسارعون إلى الدفاع عنها بكل قواهم ، لكونهم لا يستطيعون العيش خارج ذلك الإطار ([2]) .

و مجمل القول ، أن ما ذهب إليه الأمير شكيب فيما يخص ضعف الروح القومية بين العرب و المسلمين ، و إستفحال الخيانات بينهم سواء على مستوى الحكام و الملوك و الأمراء ، أو بين العامة ، يجد له الكثير من السند في الواقع ، إذ أن الإستعمار الغربي الحديث ، ما كان له أن يحقق أهدافه المتمثلة في الاحتلال و بسط السيطرة العسكرية ، و الهيمنة الاقتصادية و الثقافية ، بتلك السهولة و الفعالية ، إلا لأنه أحسن الإستثمار جيدا في ذلك المجال ، بالإضافة إلى قوته العسكرية . بل أن سبب بقائه طويلا في البلاد العربية و الإسلامية ، رغم عدم إنقطاع الثورات و المقاومات ضده ، يرجع في جانب كبير إلى تلك الفئة التي اختارت العمل معه لأسباب نفسية و مصلحية .

و قد لاحظنا أن الأمير شكيب ، تساءل بإستغراب كيف أن تلك الفئة كانت تؤدي خدماتها لأسيادها المستعمرين بكل ثقة و عن طيب خاطر ، و تنعم بالهدوء و الراحة النفسية و كأن ما كانت تقوم به هو خدمة للأمة و ليس خيانة ، و العلة في ذلك هو أن الإستعمار قد تمكن من

([1])- شكيب أرسلان : لماذا تأخر المسلمون و تقدم غيرهم ؟ ، مصدر سابق ، ص ص 64-65 .

([2])- كريم جبر الحسن ، المرجع السابق ، ص 255 – 256 .

أنفسهم ، فأظهروا الاستعداد لخدمته من حيث يشعرون أو لا يشعرون . و لذلك قيل أن خــروج المستعمر من الأرض ، مقرون بالخروج من الأنفس ([1]) .

05 – عدم الثقة بالنفس و التقاعس و التواكل و التخاذل :

إذا كان التفوق في أي ميدان من ميادين الحيــاة ، مرتبطــا بالهمــة العاليــة و بالثقــة بالنفس ([2]) ، فإن ذلك لن يتحقق إلا إذا تمتع المجتمع بالاستقلال التام في مواقفــه ، و الحريــة الكاملة في تصرفاته ([3]) . و هي لا شك المزايــا التــي تــوفرت لــدى العــرب و المســلمين الأوائل ، الذين تمكنوا من بناء مجتمع قوي واثق بنفسه ، متفتح على كافة الثقافات و الحضارات كان الركيزة التي إستندت عليها الحضارة العربية الإسلامية ، التي أسهمت إسهاما متميزا فــي كل نواحي الفكر و الفن و الحياة ([4]) .

لكن الأمر إختلف عند الأمير شكيب ، بالنسبة للعرب و المسلمين المتــأخرين ، إذ أنهــم فقدوا الثقة بأنفسهم ، و عدّ ذلك من أشد الأمراض الإجتماعية ، و من أخبث الآفات الروحيــة ، التي إن أصيب بها إنسان إلا و أودت بحياته ، أو أمة إلا و ساقتها إلى الهلاك . فلا رجاء فــي الشفاء منها للمريض بها ، لأنه يعتقد حقا أو خطأ أن مرضه سيقتله ، فقد أجمع الأطبــاء فــي الأمراض الجسمانية ، أن القوة المعنوية هي أساس الأدوية ، و أن من أعظم العوامل التي تؤدي إلى الشفاء هي إرادة الشفاء .

و بناءا على هذه القاعدة الطبية المنطقية ، يتساءل الأمير شكيب أنه كيف يتسنى للمجتمع العربي و الإسلامي أن يكون صالحا ، و أغلب أفراده يظنون أنهــم لا يصــلحون لشــيء ؟ . يعتقدون بأن أي صراع بينهم و بين هؤلاء الآخرين ، ســينتهي بهــزيمتهم لا محالــة ، مهمــا إستماتوا في كفاحهم ، و يعترف بأن هذا الإعتقاد قد وقر في نفوسهم و إستحكم فــي إذهــانهم ، و خاصة في الطبقة التي تدعى أنها المفكرة و العاقلة ، المولعة بالحقائق الصادقة البعيدة عن

([1])– كريم جبر الحسن ، المرجع السابق ، ص 256 .

([2])– حليمة بوكروشة : معالم تجديد المنهج الفقهي (أنموذج الشوكاني) ، د ط ، سلسلة كتاب الأمــة ، وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية ، قطر : 2002م ، ص 81 .

([3])– كريم جبر الحسن ، المرجع نفسه ، ص 257 .

([4])– ينظر محمد عبد السلام كفافي : الحضارة العربية طابعها و مقوماتها العامة ، د ط ، دار النهضة العربية ، بيروت : 1970م .

الخيالات ، بما تروجه لتلك الأفكار المتشائمة في كل الأندية و المجالس التي تغشاها ، تحسب أن اليأس من شأنه إصلاح الوضع المتردي ، الذي تعيشه مجتمعاتها في شتى المجالات و خاصة العلمية و المعرفية ، و مازالت تثبط و تبث في عامة الأمة دعاية العجز ، حتى صار الإستخذاء صفة ملازمة للمجتمع ، إلا القلة القليلة التي حافظت على أصالتها بفضل فطرتها القوية .

و في تقدير الأمير شكيب ، أن الدور السلبي لهذه الفئة ، لم يقتصر على القول بأن حالة العرب و المسلمين المعاصرة هي من التردي و التدني ، بحيث لا تقاس بحالة الأوروبيين في أي شيء ، بل راحت تزعم أنه من العبث مجاراتهم للغربيين في كل المجالات : العلم و الصناعة و التجارة و الزراعة ، و شؤون الحرب و السلم ، و في أي ميدان من ميادين العمران ، و كأن العرب و المسلمين ليسوا من طينة الأوروبيين ، و أن الانحطاط و التخلف أمر مقدر عليهم ، و لا مجال لهم إلا العمل لديهم كطبقة منحطة .

و كثيرا ما وقعت للأمير ، مجادلات مع هذه الفئة من العرب و المسلمين ، الذين وصفهم بصغار النفوس المفلسفين بالفارغ ، و بالبعيدة عقولهم عن المنطق ، و بعدم إتعاضهم بالتاريخ ، و ممن لا ينفع في إقناعهم علم الطبيعة و لا التشريع و لا استنتاج و لا قياس ، لما أصيبوا به من : ((آفة الذل و مرض الاستخذاء)) . فقد إستشعر الأوروبيون وحدة هذه الحالة الروحية فيهم ، و التي تتوافق و مصالحهم الاستعمارية ، فأخذوا يروجونها بينهم ، و يعملون على تقويتها عن طريق دعاتهم و سعاتهم . و هم في ذلك غير ملومين من وجهة نظر الأمير شكيب ، لأنها تيسر و تمهد الطريق أمام الاستعمار ، و تجنبهم مشاق القتال و الصراع ، و تعفيهم و التنافس و التزاحم ، فيتفوقون بلا نزاع و تسلط و دون جدال .

و لكن الذي يثير عجب الأمير ، في أمر تلك الفئة من أبناء العروبة و الإسلام ، هي انقيادها لتلك الأضاليل ، التي تترتب عنها العبودية للأجانب ، و هم الذين حثهم دينهم الإسلام ، على الاتصاف بالعزة و الاتسام بالأنفة ؟ ([1]) .

فالأمير إذن يقر بأن عدم الثقة بالنفس ، و الشعور بالدونية و النقص إزاء الغربيين ، مرض من أكبر الأمراض الاجتماعية التي أصيب بها العرب و المسلمون المتأخرون ، و قد تفاقم إلى الحد الذي جعلهم لا يستطيعون معه التفاعل مع العصر ، و مواكبة الإبداعات

([1])– شكيب أرسلان : لماذا تأخر المسلمون و تقدم غيرهم ؟ ، مصدر سابق ، ص 151 .

والتطورات المذهلة و المطردة ، التي ما انفكت الحضارة الغربية تحققها في كل الميادين ، فيكتفون بالمشاهدة ، و بسوق المبررات لما هم عليه من عجز و فشل ، عن مجاراة ما يحدث حولهم . و هي مبررات رأى الأمير شكيب أنها غير مقبولة و غير منطقية ، لأن أصحابها من ذوي النفوس الضعيفة و الإرادات الميتة ، التي لا تريد أن تعمل و تبدع ، و في نفس الوقت ترمي إلى إبقاء الوضع كما هو عليه ، لأنه يخدمها ويخدم الأطراف الاستعمارية المستفيدة الأكبر من استمرار ذلك المناخ ، الذي يعني ضمان الأمان والحماية لمصالحها ونفوذها ، وقد استطاعت أن تحقق نجاحا كبيرا في ذلك .

وقد لعب المستشرقون الذين وصفهم الأمير شكيب بدعاة الاستعمار وسعاته ، دورا محوريا في العملية ، بتعمدهم الدس والتشويه ، والتركيز على الجوانب السلبية في حياة المجتمعات العربية والإسلامية وتضخيمها ، بغية إضعاف مواطن القوة ، واغتنام أماكن الضعف فيها . للوصول بتلك المجتمعات ، إلى التبعية التامة للغرب ، وخلق نوازع الاستسلام لقيمه المادية الحديثة الاجتماعية والخلقية على حد سواء ، وإظهاره على انه المخلص لها من كل ما تعانيه من انحطاط وتقهقر ، وخاصة بين أوساط الناشئة ، التي تعد من أكثر الفئات الاجتماعية تقبلا لأفكار التشكيك والاستسلام ، والرضا والخضوع للمدنية الغربية المادية ، على حساب مقوماتها التاريخية والحضارية ([1]) .

ولقد ساعدت القوة العسكرية والسياسية الغربية ، المؤيدة بالتفوق العلمي ([2])، في مقابل الجمود العربي والإسلامي ، الذي جعل من العربي والمسلم متسولا فكريا وماديا ([3]) ، على تكريس ذلك الواقع السلبي الذي يجمد الحياة ، ويقضي على أي حركة في إتجاه التحفيز على المبادرة وتفعيل القدرات بهدف الانتقال من وضع المستهلك لمنتوجات الآخرين ثقافية أو مادية ، إلى المنتج لها مع صبغها بالصبغة الخاصة .

ويؤكد الأمير شكيب ، أن روح الانهزام والخنوع لدى العرب والمسلمين الأواخر ، قد بلغت مبلغا عظيما ، جعلهم يحجمون عن الجهاد والدفاع عن كرامتهم ومقدساتهم بحجة ضعفهم

([1])- ينظر منذر معاليقي ، المرجع السابق ، ص 252 وما بعدها .
([2])- طارق البشرى : ماهية المعاصرة ، ط2 ، دار الشروق ، القاهرة : 2005 ، ص 07 .
([3])- زكي نجيب محمود ، المرجع السابق ، ص ص 97 – 98 .

أمام أعدائهم . على عكس أسلافهم الأوائل ، الذين كانوا يقبلون على الجهاد بحماس كبير ، ويتهافتون ويتسابقون على نيل الشهادة .. ويضرب أمثلة حية عن الأمم المسيحية الأوروبية ، التي قدمت الكثير من أبنائها خلال الحرب العالمية الأولى 1914م – 1918م ، وأنفقت الكثير من ثرواتها الوطنية ، كل ذلك في سبيل الدفاع عن أوطانها والانتصار لشعوبها .

وفي المقابل يتساءل الأمير إن كانت هناك أمة مسلمة في عصره ، تقوم بما قامت به تلك الأمم المسيحية ، من التضحية بالأنفس و بالأموال ، إلى حد يجعلنا نتعجب نحن المسلمون بما فيهم العرب ، لماذا أتاها الله تلك النعم العظيمة والثروات وأعطانا القليل منها ؟ . ويضيف متسائلا ، إن كانت الأمم الإسلامية ستفعل ذلك بنفس سخاء الأمم الأوروبية ، التي وجد منها من أنفقت نصف ثروتها خلال الحرب العالمية الأولى ([1]) .

ولاشك أن ما حققته الدول الغربية حاليا ، من رقي وتقدم في كل المجالات ، إنما يعود إلى التضحيات الكبيرة التي قدمتها خلال تاريخها الطويل بصفة عامة ، وخلال الحربين العالميتين الأولى والثانية 1939م – 1945م ، اللتان شهدهما الأمير . ففي الأخيرة على سبيل المثال ، خسرت بولونيا 22% من السكان ، ويوغسلافيا والإتحاد السوفياتي 10% ، وألمانيا 8% ، وبريطانيا العظمى 5% ، وفرنسا 1,5% . أما على المستوى الاقتصادي فقد كانت الخسائر كبيرة ، حيث تدمرت البنية الاقتصادية ، وهبط الإنتاج الصناعي إلى النصف ، والزراعي إلى الثلث بالقياس عما كان عليه عشية الحرب . وبالإضافة إلى ذلك ، فقد طالت الخسائر المجال الفكري ، بمقتل عدد معتبر من المفكرين والعلماء والفنانين ، وهو ما انعكس سلبا على وتيرة التطور العلمي والتقني ([2]) .

وبالرغم من كل تلك الخسائر البشرية والمادية التي تكبدتها الأمم الأوروبية ، في فترة زمنية قصيرة ، إلا أنها استطاعت أن تبني ما تهدم بسرعة ، وتسترجع مكانتها الاقتصادية والعلمية والعسكرية والسياسية بسرعة ، معتمدة في ذلك بالدرجة الأولى على شعوبها ، التي لم

([1])– شكيب ارسلان : لماذا تاخر المسلمون وتقدم غيرهم ؟ ، مصدر سابق ، ص ص 38 – 40.

([2])– فرانسوا جورج دريفوس ، وآخرون : موسوعة تاريخ أوروبا العام ، ج 3 (أوروبا من عام 1789م حتى أيامنا) ، ترجمة حسين حيدر ، ط1، منشورات عويدات ، بيروت ، باريس : 1995م ، ص ص 443 – 444 .

تستسلم للأمر الواقع ، بل جعلتها الحرب ومخلفاتها قوية أكثر من ذي قبل . على العكس تماما من الشعوب العربية والإسلامية ، التي فقدت روح المبادرة وإرادة تغيير واقعها الحضاري والسياسي والاقتصادي المزري ، معتبرة إياه أمرا مقدرا ، لا مجال لمعالجته ، وهي التي لم تضحي إلا بالقليل مقارنة بما ضحت به نظيراتها الأوروبية .

ويتابع الأمير حديثه في الصدد نفسه ، فيقول أن العرب والمسلمين المتأخرين ، يعتقدون أن انتسابهم إلى الإسلام ، يغنيهم عن التضحية والجهاد ، وأنه يمكنهم من القوة والاستمرار ، غير مدركين أنهم بذلك يخالفون الحكمة الإلهية القائلة: ((أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)) ، لأن السنن الكونية ، تقتضي الانخراط في العمل والاجتهاد ، من أجل الرقي و الازدهار و ليس العكس : ((لقد ظن الكثير من المسلمين أنهم مسلمون بمجرد الصلاة و الصيام و كل ما لا يكلفهم بذل دم و لا مال ، و انتظروا على ذلك النصر من الله . و ليس الأمر كذلك فإن عزائم الإسلام لا تنحصر على الصلاة و الصيام و لا في الدعاء و الإستغفار ، و كيف يقبل الله الدعاء ممن قعدوا و تخلفوا ، و قد كان في وسعهم أن ينهضوا و يبذلوا)) ([1]) .

و يضيف إلى ذلك ، قائلا بأنهم يبررون إحجامهم عن بذل المال و الجهد لصالح الأعمال الخيرية و المشاريع العامة ، بحجة أنهم لا يملكون الثروة التي هي عند الأوروبيين . و هي حجة يراها الأمير شكيب باطلة من الأساس ، لكون العرب و المسلمين أنفسهم قضوا على أهم مصدر للإنفاق العام ، و هو الأوقاف و المؤسسات الخيرية ، التي ورثوها عن من سبقهم ، إضافة إلى إمتناعهم عن التبرع بأموالهم الخاصة في المصالح العامة ، و في نفس الوقت ، يريدون أن يكون لهم نفس السلطان و القوة اللذان لدى الأوروبيين دون عناء ؟ .

و للتدليل على ذلك ، يورد الأمير شكيب مثالا يعتبره دليلا قاطعا على تقاعس العرب و المسلمين ، و هو إحجامهم عن تقديم يد العون و المساعدة لأشقائهم الفلسطينيين ، مقارنا كل ذلك بالمساعدات التي حصل عليها اليهود في فلسطين ، إذ أنه خلال الاشتباكات الدموية ، التي حدثت بفلسطين سنة 1929م بين اليهود و المسلمين ، هب اليهود و غيرهم في مختلف أنحاء العالم ، لنجدة نظرائهم في فلسطين ، حتى بلغت قيمة التبرعات مليون جنيه ، بينما قدرت

([1])- شكيب ارسلان : لماذا تأخر المسلمون و تقدم غيرهم ؟ ، مصدر سابق ، ص ص 42-43 .

تبرعات العرب و المسلمين في مجملها بثلاثة عشر ألف جنيه ، أي ما يمثل 1% من تبرعـات اليهود ؟ ([1]) .

و الواقع أن الدولة الإسرائيلية ، قد قامت ككل على مساهمات و تبرعات اليهود المشتتين في كل أنحاء العالم بصورة عامة ، و في أوروبا و الولايات المتحدة الأمريكية بصورة خاصة ، إذ لم تتوقف تلك المساعدات في أي مرحلة من المراحل ، التي مر بها مشروع تأسيس الوطني القومي في أرض فلسطين . فقد أدرك القادة الصهاينة منذ البداية ، أهمية المال في تحقيق حلمهم و لذلك شجعوا بني قومهم من اليهود ، على بذله باستمرار ، معتمدين على تحريك وتر الشعور القومي ، و لم يكتفوا بذلك ، بل أنشأوا مؤسسات مالية خاصة بهم تؤطر العملية و هما " البنـك القومي اليهودي " و " المؤسسة القومية اليهودية " . مستفدين من الدعم الكبير الذي وجدوه مـن الحكومات الإستعمارية الغربية ، و في مقدمتها بريطانيا و فرنسا و الولايات المتحدة الأمريكية . بفعل النفوذ الإقتصادي و المالي الهائل ، الذي كانوا يتمتعون به في هاته الدول ، و الذي سمح لهم بالتحكم في القرار السياسي بها .

و على العكس من ذلك كان الوضع بالنسبة للعرب و المسلمين ، الذين قضوا مثلما أشار إليه الأمير شكيب على أهم من مصدر من مصادر الأعمال الخيرية و هو الأوقاف ، حيث لم يكن بلـد عربي أو مسلم يخلو منها لعدة قرون ، بل أنها كانت تمثل عصب الإقتصاد و الحياة فيها ، إلـى أن جاءت مرحلة الإنحطاط ، فأهملت تدريجيا ، حتى تلاشى دورها في مختلف المجالات ، و منهـا نصرة الأشقاء العرب و المسلمين في رد العدوان ، مثلما هو حال الشعب الفلسطيني ، أو للمساعدة أثناء الكوارث الطبيعية .

و هو ما يفسر على سبيل المثال ، لجوء الإدارة الإستعمارية الفرنسية منذ الأيـام الأولـى لإحتلالها للجزائر ، إلى بسط سيطرتها على الأملاك الوقفية ، التي كانت تدر مـداخيل عظيمـة ، لمصادرتها و جعل ريعها لصالح الإدارة دون تعويض أصحابها ، فتكون بذلك قد وضـعت يـدها على هذا المصدر المالي الهام ، الذي كان يمول التعليم و الترقية الاجتماعية (*).

([1])– شكيب ارسلان : لماذا تاخر المسلمون و تقدم غيرهم ؟ ، مصدر سابق ، ص ص 44–45 .

(*)– كانت تشمل ثمانية أنواع هي : أوقاف مكة و المدينة ، أوقاف المسـاجد ، أوقـاف الزوايـا و القبـاب (الأضرحة) ، أوقاف الأندلس ، أوقاف الأشراف ، أوقاف الإنكشارية ، أوقاف الطرق العامة ، أوقاف عيون

ويواصل الأمير شكيب ، مناقشته لقضية إحجام العرب والمسلمين عن بذل المال ، فيقول أنه لا شيء يقوم أو يتحقق بدون المال ، في حين أنهم يريدون الحصول على الاستقلال والحرية والحفاظ على حقوقهم ، ورفع الاعتداء عليهم وعلى دينهم ، دون أن يبذلوا شيئا فقط بالاتكال على أمرين : الأول هو أن الله وعدهم في القرآن الكريم بالنصر ، فإذا كان القرآن حقا فيتوجب عليه أن ينصرهم . أما الأمر الثاني ، فهو أن الأمم الراقية تدعي الحرية والمساواة فلماذا لا تعدل معهم ؟ .

ويرد على الفرضية الأولى ، فيذكر أنه في حقيقة الأمر ، أن الله سبحانه و تعالى ، لم يعد المسلمين بالنصر ، إلا بتحقيقهم لشروط محددة أوردها مرارا في كتابه ، منها القتال في سبيله فيقتلون و يقتلون ، و منها أنهم يحبونه و رسوله أكثر من حبهم لأبنائهم و أبائهم و أزواجهم و بيوتهم و تجارتهم ... و غير ذلك من العزائم . و لكنهم في الواقع لا يقومون إلا بالنزر الضئيل جدا من كل ذلك ، فكيف لهم يطالبون الله بالنصر يتساءل الأمير شكيب ؟ .

أما الفرضية الثانية ، فيذكر بشأنها أن الأمم المتقدمة ، ليس صحيحا أنها – بيئة – للعدالة و المساواة ، فإن وجدتا فإنها تكون فيما بينها ، ليس من تلقاء نفسها ، و إنما بفعل السيف المسلط الذي تخيف به كل من يتجرأ على هضم الحقوق ([1]) .

إن ما أراد الأمير أن يصل إليه هنا ، هو أن العرب و المسلمين المتأخرين قد سرت بينهم روح التقاعس و التواكل و التخاذل ، إلى حد جعلوا فيه حياتهم تتحكم فيها أوهام تتعارض مع سنن الحياة المتمثلة في العمل و المبادرة و الإجتهاد ، يمنون على أنفسهم بالنصر الإلهي ، رغم إدراكهم أنه لن يأتي إليهم إلا إذا وفروا شروطه . و ينتظرون من غيرهم أن يعاملهم على أساس من العدالة و المساواة ، دون أن يسعوا إلى فرض ذلك بأنفسهم .

و عليه فإن الإسلام ، لم يدعوا إلى الركون و الكسل و التواكل ، بل حث على التدبر و التفكير و البحث ، و هو ما أحسن إدراكه المسلمون الأوائل ، و كان من أثاره الإيجابية ، ارتقاؤهم العلمي و الفكري ، إذ لم يكن ثمة تعارض : ((بين الإيمان الديني والبحث العلمي ، بل كانا يسيران جنبا إلى جنب متعاونين متوازيين ، ولم يكن ثمة تعارض في العقلية الإسلامية بين

الماء . ينظر أبو القاسم سعد الله : الحركة الوطنية الجزائرية ، ج 1 ، القسم الأول ، د ط ، م و ك ، الجزائر : 1992م ، ص 66 و ما بعدها .

([1])– نجيب البعيني ، المصدر سابق ، ص 244 .

الإيمان بالله خالق الكون وخالق الحوادث و أسبابها ، و بين ارتباط الأسباب بنتائجها ، لأن كل ذلك من خلق الله)) ([1]) . و هو الأمر الذي أدركته الأمم الراقية في العصور الأخيرة ، و منها الغربية فضلا عن الأمة اليابانية التي تمكنت من الخروج من دائرة العزلة و التخلف ، إلى دائرة الازدهار و العالمية ، ليس بالتقاعس و التواكل ، و إنما عن طريق إيمانها بأن : ((العمل هو مفتاح الرقي و السيادة)) على حد قول الأمير شكيب ([2]) . و في هذا تتدرج الإصلاحات الجذرية التي قام بها الإمبراطور " ميجي " 1868م – 1912م في اليابان ، التي إستهدفت تحديث الجيش و الإنتاج الصناعي من جهة ، و درء المخاطر الخارجية المتمثلة في الأطماع الإستعمارية الغربية من جهة ثانية ([3]) .

و مما تقدم ، يتضح لنا أن الأمير شكيب إعتبر عدم الثقة بالنفس و التقاعس و التواكل و التخاذل ، من أكبر الأسباب في إنحطاط و تخلف العرب و المسلمين في القرون الأخيرة ، إذ جعلت منهم جسدا بلا روح ، جامد لا يستطيع الحركة ، و هي من أخطر الأوضاع التي إن وصل إليها مجتمع من المجتمعات فإنه يصبح عالة على غيره من المجتمعات الاخرى ، مثلما هو الحال بالنسبة للمجتمعات العربية و الإسلامية التي لا تنتج شيئا مما تستهلكه ، و أكثر من ذلك ، أنها إستسلمت للأمر الواقع ، و كأنه قدر مقدر عليها ، فترى الكثير من أفرادها و خاصة المثقفين منهم ، يبررون ذلك بالعجز و عدم القدرة على مجاراة الأمم الراقية ، فيما تحققه و تقطعه من أشواط في الإنتاج و الإبداع . و لا ينفكون يروجون لهاته الأفكار ، التي وجدت صدى واسعا لدى فئات عريضة من مجتمعاتها . و قد حاول الأمير شكيب أن ينبه إلى خطورة هذا النوع من الأفكار ، على حاضر العرب و المسلمين و مستقبلهم ، فلا شيء أصعب من مداواة الأمراض النفسية التي تصيب الأفراد ، فكيف الحال إذا أصابت المجتمع بأسره ؟

و من المنطقي لدى الأمير شكيب أرسلان ، أن يؤدي فقدان الثقة بالنفس إلى تفشي أمراض نفسية خطيرة بين العرب و المسلمين ، لا تقل خطورة عن الأمراض التي ذكرها سالفا ، و منها

([1])- محمد المبارك : المجتمع الإسلامي المعاصر ، مرجع سابق ، ص 49 .

([2])- شكيب أرسلان : لماذا تأخر المسلمون و تقدم غيرهم ؟ ، مصدر سابق ص 40 .

([3])- ينظر مسعود ظاهر : النهضة العربية و النهضة اليبانية (تشابه المقدمات و اختلاف النتائج) ، د ط ، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب ، الكويت : 1999م .

الجبن و الهلع ، فإذا كانوا في السابق ، يضرب بهم المثل في الشجاعة و إحتقار المـوت ، حيـث يواجه الواحد فيهم عشرة أشخاص و ربما مائة ، فإنهم أصبحوا فـي العصـر الأخيـر إلا فئـة قليلة منهم ، يهابون الموت الذي لا ينبغي أن يجتمع خوفه مع الإسلام في قلب واحد . و يسترسـل فيقول أنه منى غرائب الأمور ، أن الإفرنج الذين إعتدوا عليهم ، لا يهابون الموت و هم يعتـدون عليهم ، على خلاف العرب و المسلمين المتأخرين ، الذين يخافون الموت و هم يدافعون عن أنفسهم و بلادهم ، رغم ما يرونه من إحتقار أعدائهم الإفرنج للحياة و تنافسهم ، على التضحية في سـبيل أممهم و أوطانهم ، فلا يعتبرون منهم ، و لا يقولون أنهم أولى بهذه الصفات و الشيم من أولئك ؟

و قد زاد من تفاقم هذه الوضعية بحسب الأمير ، استشـراء آفـة اليـأس و القنـوط مـن رحمة الله ، لدى بعض الفئات الإجتماعية ، التي وقر في نفوسها أن الأوروبيين هم الأعلى درجة ، و في كل الأحوال لا مجال للتفوق عليهم ، و أن كل مقاومة هي عمل عبثي ، و أن كل مناهضة لهم خطأ في الرأي . و قد تعاظم أمر هذا الشعور إزاء الأوروبيين ، حتى صار هـؤلاء الأخيـرين ، يتجرؤون على مواجهة أكثرية العرب و المسلمين ، على العكس مما كان يحدث ، فـي العصـر الأول للدولة العربية الإسلامية ([1]) .

و منه يتبن لنا ، أن الأمير شكيب أراد أن يبرز لنا مفارقة مؤداها ، أن الشجاعة و الإقـدام على التضحية ، هما في الأصل من خصال العرب و المسلمين ، و قد عرفوا بهما خلال تـاريخهم الطويل ، حتى اقترنتا بهم و اقترنوا بهما ، لا يستطيع خصومهم و أعداءهم مجاراتهم فيها . لكـن الأمر تغير أثناء عصور الإنحطاط ، حيث أضحوا وفقا لما ذكره الأمير شكيب ، ينزعـون علـى الجبن و الهلع و الخوف ، على نحو مرضي .

([1])- شكيب أرسلان : لماذا تأخر المسلمون و تقدم غيرهم ؟ ، مصدر سابق ، ص ص 75-76 .

وهكذا شخص و حلل كل من الشيخ البشير الإبراهيمي و الأمير شكيب أرسلان ، أسباب ظاهرة التخلف في البلاد العربية والإسلامية خلال القرون الأخيرة ، حيث بدأ الإبراهيمي بوصف حال العرب والمسلمين ، إنطلاقا مما كان يشاهده ويعيشه ، مبديا تعجبه من تشابه أوضاعهم حتى بالنسبة للدول المستقلة ، التي قال بشأنها ألا شيء يوحي بأنها تتمتع بحريتها وإستقلالها . مؤكدا على أن كل ذلك ،هو تحصيل حاصل ونتيجة منطقية ، لعوامل شتى تراكمت طيلة التاريخ العربي الإسلامي ، فأوصلت تلكم البلدان إلى حد أعطى الفرصة إلى أعداء الإسلام لكي يطعنوا فيه ، رغم براءته من ذلك .

وقد وضع فساد علماء الدين وإنحرافهم على رأس أسباب التخلف ، حيث إلى أنهم يعيشون خارج العصر ، غير مدركين لواجباتهم نحو أمتهم ، وحدد المائة العاشرة بعد الهجرة تاريخا لبداية فسادهم وإنحرافهم ، وأقر بأنهم ليسوا أهلا لتسميتهم بعلماء الدين ، بسبب فهمهم الخاطئ له وتفهيمه خاطئا للأمة ، فعطلوا بذلك الفكر والنقد والإجتهاد . وليسوا علماء دنيا في نظره ، لأن همهم الجري وراء الحظوة والعطايا والامتيازات ، التي يمنحها لهم الحكام والسلاطين والأمراء، ثمنا لتخليهم عن واجباتهم كعلماء دينيين ، وفي المقابل كانوا يتكبرون على العامة ، التي ضعف إقبالها على العلم والتعلم بفعل ذلك ، كما تميزوا بالجبن والتقاعس على الجندية والجهاد . فكان من الطبيعي أن تترتب نتائج خطيرة بحسب الإبراهيمي جراء هذا الوضع ، ولعل أكبرها خروج القيادة من أيديهم ، وانتقالها إلى غيرهم . ولقد بلغ هجوم الإبراهيمي عليهم ، حد وصفهم بالمجرمين .

أما السبب الثاني فحدده في تعطيل العمل بالدين الإسلامي ، واستهل تحليله بالتساؤل عن الخلفيات الحقيقية لمنهج الباحثين الغربيين ، في تحميل مسؤولية الوضع الذي آل إليه العرب والمسلمون المتأخرون إلى الإسلام ، الذي كان يوما ما السبب الرئيس في رقيهم وازدهارهم ، ناصحين إياهم بتركه إن هم أرادوا هزم التخلف .

هذا وقد بين أن الدين الإسلامي ، قد تم تعطيل العمل به ، عن طريق هجر القرآن الكريم وطرحه جانبا ، وعدم الاهتداء به لأسباب ذاتية وخارجية شرحها بالتفصيل . وكشف بأن الأمر لم يتوقف عند هذه النقطة ، بل استبدل القرآن الكريم بقوانين أجنبية . ثم إنتهى إلى الحديث عن خصوم القرآن الكريم ، وخص منهم " مصطفى كما آتاتورك " بالذات .

أما السبب الثالث في رأيه ، فهو الحجر على الإجتهاد والنزوع إلى النقل والتقليد ، وفيه ساق أمثلة على جمود الفقه الإسلامي ، ومنها مسألة الطلاق التي تعامل معها الفقهاء المتأخرون بسلبية كبيرة ، بتمسكهم بحرفية النصوص ، وعدم إدراكهم للعواقب الاجتماعية الخطيرة ، المنجرة عن التساهل في هاته المسألة الحساسة جدا . إنتقل بعدها ، إلى الحديث عن طغيان التقليد على العلوم الإسلامية ، الذي تطور حتى أصبح ظاهرة ملازمة للفكر الإسلامي ، وكان من نتائجه إعاقة تطور الإنتاج الفكري والعلمي ، ووأد ملكة الإبداع والابتكار . ثم أوضح أن من أهم مظاهره ؛ الخضوع لإرادة شيوخ الطرق الصوفية المنحرفين ، الذين حصرت فيهم العامة العلم والاجتهاد ، بينما عمد مؤلفو السيرة النبوية على التركيز في مؤلفاتهم على الجوانب السطحية في حياة الرسول " ص " دون الروحية ، أما مفسروا القرآن الكريم فقد احتكموا في تفاسيرهم للنزعات الطائفية والمذهبية . وتبعا لكل ذلك ، قام باستنتاج تعريف للعلماء المقلدين غير المجتهدين .

ويأتي فساد الأخلاق والعادات ووهن العزائم ؛ كسبب رابع في منظور الإبراهيمي ، ومن خلاله بين أن فساد الأخلاق ، ينجم عنه آثار خطيرة على حياة الأمم والمجتمعات ، وأن الإسلام لم يحقق ما حققه من نجاح وإنتشار منقطعي النظير ، إلا بفضل أخلاق الفاتحين الرفيعة . ثم عرّج على إستراتيجية الإستعمار الغربي في إفساد الأخلاق وإضعاف الجوانب الروحية ، معتمدا على التجربة الفرنسية في الجزائر ، التي حفلت حسبه بكل الجرائم الأخلاقية وغير الأخلاقية ، التي تدين مصداقية الحضارة الغربية في الصميم . وفي نفس الوقت ، إعترف باهتزاز وهبوط أخلاق العرب والمسلمين ، لأسباب تتعلق بالتعليم الخالي من التربية الهادفة والمفيدة ، وتقليد الحضارة الغربية التي أفسدت الفطرة والضمير . والمصير ذاته آلت إليه العادات ، التي كان من إفرازاتها الإنزواء إلى الكسل والخمول والراحة ، والجبن والقدرية واللامبالاة ، وغيرها من العادات السيئة ، مع إقراره بصمود بعض العادات الإيجابية ، التي مثلت بالنسبة إليه الأمل في الإصلاح .

أما السبب الأخير ، فحدده في الإستعمار الروحي (العقلي) ، وفيه أدرج وصفا عاما للإستعمار ودسائسه ، ثم وسائل الإستعمار الروحي ، وبين بعد ذلك أكثر الفئات الإجتماعية إستهدافا من قبله وهي فئة الشباب ، التي ظلت عرضة للدعايات المظللة في كل مكان ، بتأطير من

تيارات فكرية منحرفة ، مستفيدة من ضعف الحصانة لدى الشباب . ونبه إلى المخــاطر الحقيقيــة المحدقة بالمجتمع ، إذا مااستمر ذلك التساهل معه .

وقد إعتبر أن اللوم لا يقع على الإستعمار، وإنما على الشباب العرب والمســلمين ،الــذين يقبلون على منتوجاته وسلوكاته وقيمه ... طواعية وخص مــنهم الــذين تعلمــوا فــي مدارســه وجامعاته.وحاول تفنيد بعض ما سماه : الإفتراءات الغربية ، ومنها كون أن العــرب والمســلمين خيالون ويعيشون على الماضي . ثم إنتهى إلى تحديد مفصل لوسائل تهديم الأخلاق ، وحصرها في عشرة وسائل أبرز مجالاتها الإعلام والتعليم والكماليات .

وفي الجهة المقابلة ، أكد أرسلان على أن وضع العرب والمسلمين، هو من السوء بحيــث يدعو إلى اليأس ، وأنه لا يجد مبررا له من النواحي الشرعية والماديــة ، واعتــرف بصــعوبة الخوض فيه . أما الأسباب التي نجم عنها التخلف فقد حصرها في خمسة أسباب :

ولعل أهمها العلماء والفقهاء المعطلون للرقي ، الذين وصفهم بالحشوية ، واعتبر جنــايتهم على الإسلام والمسلمين عظيمة جدا ، وبعد أن سرد أسباب حكمه هذا نزع عنهم صفة العلمــاء ، فالعلم عندهم وسيلة لتجميد الحياة وكسب الأموال والحصول على الوظائف لا غير . وبين ان أسوأ ما وصل إليه حالهم ، هو تعاونهم مع الإستعمار وإنخراطهم في سياساته ، بمبررات واهية . وفي هذا إستثنى الأمير قلة قليلة منهم ، إحتكمت حسبه للمبدأ والمصلحة العامة . أما الفقهاء فقد شــكلوا في نظره حجر عثرة أمام التغيير والتجديد ، ولذلك نالوا منه نقدا قاسيا ولاذعا .

أما السبب الثاني عند الأمير ، فهو الجمود والجحود ، ، فقد عرف الاول وبين انه هو الذي مهد الطريق لأعداء الحضارة العربية الإسلامية ، لكي يحاربونها ويطعنون في الإسلام ، وأدى إلى إفقار المجتمعات العربية والإسلامية ، بسبب الإيغال في الغيبيات على حساب الواقع . كما عــرف الفئة الجاحدة التي تتنكر لكل ما هو شرقي وتحض على التفرنج ، كنتيجة لسياسة التغريــب التــي أضعفت الرابطة الدينية والاجتماعية والحضارية بين المسلمين . وخلص إلى الدعوة إلى إســتلهام القيم المعنوية والمادية ، التي قامت عليها الحضارة العربية الإسلامية الأولى .

وأرجع السبب الثالث للتخلف إلى فساد الحكام ، الذين حملهم مسؤولية كل ما لحق بــالعرب والمسلمين ، وأقر بفساد غالبيتهم مستشهدا ب : " مصطفى كمال آتاتورك " ، الذي أخذ حيزا كبيرا

من نقده ، وبدرجة أقل " آمان الله خان " في أفغانستان ، لكن المسؤولية الأكبر حسبه تقع على العلماء الذين تخاذلوا في التصدي لهم ، بالسكوت أو المجاراة أو التزلف إليهم .وكشف في الأخير أن أخطر نتيجة لكل ذلك ، هو فتح الباب واسعا أمام الأطماع الخارجية .

وفي تقدير أرسلان ، أن ضعف الروح القومية والخيانة هما كذلك من أهم أسباب التخلف العربي الإسلامي ، حيث أشاد أولا بالإنجليز الذين رأى أنهم يتمتعون بروح قومية عالية ، على خلاف العرب والمسلمين المتأخرين ، الذين عدهم أسوأ مثال في هذا الصدد ، في الكثير من القضايا ومنها بالخصوص القضية الفلسطينية ، التي لم تكشف فقط عن ضعف الروح القومية بل إلى إستفحال ظاهرة الخيانة ، ليس بين العامة فحسب ، وإنما بين آراء الأمة وأقطابها . وفضلا عن ذلك ، حاول الأمير شكيب تفنيد الحجج المقدمة تبريرا لهذا المسلك .

أما السبب الخامس في تصوره ؛ فكان عدم الثقة بالنفس والتقاعس والتواكل والتخاذل ، التي إعتبرها من أخطر الأمراض والآفات الاجتماعية ، ومصدرها في رأيه إنتشار عقيدة اليأس والإستخذاء والتبثيط ، وفي ذلك ابدى إستغرابه لمثل هاته الوضعية ، رغم كون أن الإسلام يدعو في جوهره إلى العزة والأنفة ومحاربة العبودية . وقد شرح وحلل العوامل المختلفة التي أدت إلى هذه الحالة ، والنتائج الوخيمة المنجرة عنها ، ومنها الإحجام عن الجهاد والتضحية والركون إلى الجبن و الاستسلام للخوف والهلع من كل شيء . وناقش الحجج التي ساقها أصحابها، لتبرير التقاعس والتواكل والتخاذل ، التي لا تجد لها مكانا في الدين الإسلامي دين الحركة والعمل والإنطلاق .

وبعقد المقارنة بين ما ذهب اليه الإبراهيمي و ارسلان ، في موضوع اسباب التخلف العربي الإسلامي ، نستخلص أنهما تمكنا من التوصيف الدقيق للأوضاع الإجتماعية والثقافية والإقتصادية والسياسية والحضارية المتردية ؛ التي كان عليها العرب والمسلمون في عصرهما ، وإتفقا أنها من السوء والتعقيد ، بحيث يصعب حتى على الباحثين والدارسين من أبناء العروبة والإسلام ، الوقوف عليها وفهم أسبابها فها جيدا ، بينما يعد ذلك غاية بعيدة المنال على الدارسين الغربيين ، لكونهم يفتقدون الى الأدوات الضرورية لذلك ، ومنها اللغة وعدم الإلمام بالخصوصيات الشرقية وعلى رأسها الدين والطبائع والنفسيات ... وغيرها .

كما اتفقا على أن ظاهرة التخلف العام والانحطاط الشامل ، ليست حدثا طارئا ، ليس للعرب والمسلمين أي دور فيه ، وإنما نتيجة منطقية وتحصيل حاصل ، لتراكمات قرون من الفساد والإستبداد السياسي ، والإنحراف الديني والإجتماعي ، والفكري والأخلاقي والسلوكي ، حيث تكاثف كل ذلك ، وجعل من المجتمعات العربية والإسلامية ، مضرب المثل في التقهقر والإنحطاط ، وهم الذين سبق لهم وأن بنوا حضارة راقية ، إستفادت من إنجازاتها الفكرية والمادية والإنسانية قاطبة . وتبعا لذلك خلصا إلى أن العرب والمسلمين في قرون التخلف ، أعطوا فرصة ذهبية لأعداء وخصوم الإسلام من الغربيين ؛ لكي يطعنوا فيه بالقول أنه يعيق التقدم بطبيعته التي تكرس الجبرية والإستبداد ، وتحارب الإنفتاح والحرية والبحث في آفاق العلوم والمعارف .

وهي تهم حاول الإبراهيمي وأرسلان ، تبيان خطئها في أكثر من مناسبة ، عن طريق إستظهار النموذج الحضاري العربي الإسلامي الأول ، والإستشهاد بشهادات المفكرين الغربيين المنصفين ، الذين عبروا عن انبهارهم بذلك النموذج المتميز ، واعتبروه من أعظم ما وصلت إليه الحضارة الإنسانية في مسارها التاريخي الطويل .

كما إشتركا في نقدهما اللاذع لعلماء الدين والفقهاء ، وإعتبار ممارساتهم جناية كبيرة إقترفوها في حق دينهم ومجتمعاتهم ، فقد تخلوا تماما عن واجباتهم المفترضة، ووجهوا كل جهودهم ، في سبيل الوصول إلى المناصب السامية ، والتقرب إلى الحكام والأمراء والسلاطين، طمعا في الثروات والأموال ، وحتى ببيع ذممهم للمحتل ،الذي وجد فيهم خير وسيلة لتنفيذ مخططاته، وإدامة سيطرته وتبرير سياساته . وأضاف الإبراهيمي إلى ذلك خاصيتان أخريان هما: إحتقارهم لعامة المسلمين ، وإحجامهم عن الجندية والجهاد خوفا وجبنا منهما . وهي أسباب كانت كافية بالنسبة للإبراهيمي وأرسلان ، لكي يسقطا عنهم ليس صفة علماء الدين فحسب، بل علماء التي لا يستحقونها في نظرهما . وإذا كان أرسلان قد إستثنى البعض منهم ، فإن الإبراهيمي وضعهم كلهم في نفس الإطار ، ولعله كان أكثر قساوة من ارسلان ، حينما نعتهم بالمجرمين ، ولا شك أنه إنطلق من الواقع المر الذي كان يشاهده ويعيشه في الجزائر ، أين تحول شيوخ الطرق الصوفية المنحرفين ، إلى وباء على الأمة ، بما كانوا ينشرونه من بدع وخرافات وظلالات ، تحولت مع مرور الزمن إلى دين للجزائريين ، نظرا لإستحكام الجهل والأمية بين صفوفهم ،

كنتيجة للسياسة الإستعمارية التجهيلية ، التي طبقت في هذا الصدد كما سبق وأن أشرنا في مناسبات عدة في هذه الدراسة . ولم يكتفوا بذلك ، بل راحوا يعرضون خدماتهم وتعاونهم مع المستعمر لبلادهم ، الذي إستخدمهم ليضرب بهم الدين الإسلامي ، وحركة العلماء المصلحين من أمثال الإبراهيمي و" إبن باديس " ، وغيرهما من أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين . والحق أن الإبراهيمي كان أكبر خصم لأولئك العلماء ، الذين كانوا هم بدورهم ينعتونه بالشيطان والجاهل والزنديق والفاجر ، وغيرها من النعوت والأوصاف .

ولم يستثن الإبراهيمي وأرسلان في ذلك علماء الفقه ، الذين إرتكبوا حسب الأول اكبر جناية وهي تعطيل العقل عن العمل ، وإنغمسوا في الألوهيات والمثاليات التي لا تغير من الواقع شيئا حسب الثاني . فجمدوا الحياة العربية والإسلامية لعدة قرون ، يرفضون رفضا مطلقا التغيير أو التجديد مهما كان بسيطا ، وحتى إن كان لا يتعارض مع روح الدين الإسلامي . يكتفون بترديد ما قاله الاسلاف من شيوخهم دون إعمال للعقل أو النقد ، بحجة أن كل شيء حسم فيه ، ولا مجال لمناقشته من جديد . ويكمن الإختلاف بين الإبراهيمي وأرسلان في هذه النقطة ، كونه أرجع زمنيا بداية جمود الفقه والفقهاء ، إلى أيام إزدهار الدولة العربية والإسلامية ، حيث ظهر خلفاء وإن كانوا قد تميزوا بالقوة والإستنارة ، ولكنهم سعوا بالإغراء والضغط والترهيب ، إلى إحتواء علماء الدين بصفة عامة والفقهاء بصفة خاصة . بينما أرسلان إكتفى بنقد حالهم ، دون أن يحدد تاريخا لإنحدارهم نحو الجمود والتقليد، كما فعل الشيخ البشير .

والواقع أن الشيخ البشير ، قد عمل على تصنيف علماء الدين ، فإضافة إلى الفقهاء ، ذكر مفسري القرآن الكريم ومؤلفي السيرة النبوية ، وحدد منهج كل فئة ، بينما إقتصر شكيب على ذكر العلماء والفقهاء إجمالا ، في حين أن الحيز الأكبر من حديثه وتحليله كان حول الفقهاء .ومن الفروق الجوهرية بينهما في قضية جمود الفقه الإسلامي ، أن أرسلان ركز بشكل عام على تصوير حال الفقهاء المتأخرين ، والأسباب التي جعلتهم ينحرفون عن دورهم الحقيقي إزاء المجتمع والأمة ، وركز أيضا على نتائج ذلك دينيا وإجتماعيا وإقتصاديا . بينما قام الشيخ البشير وإضافة إلى كل ذلك ، إلى إستعراض قضية فقهية تفصيلية معقدة جدا وهي الطلاق ، محاولا من خلالها إبراز الحالة التي آل إليه الفقه الإسلامي في عصور الإنحطاط ، وخطورة مسلك الفقهاء الجامدين الذين

كانوا يتساهلون في كل شيء إلا في العطايا والامتيازات ، التي جعلت الكثير منهم أغنيـاء علـى حساب المجتمع ، الذي تركوه يغرق في الجهل والفوضى والتخلف . وحقا أن الإبراهيمي ، ظهـر في مناقشته لمسألة الطلاق فقيها رصينا ، متحكما في ناصية الفقه ، مدركا لمكامن الخلل والقصور في منهج فقهاء الجمود والتخلف ، وهو ما ميزه عن أرسلان في هذه القضية .

لقد مثل " مصطفى كمال آتاتورك " ، أكبر خصوم وأعداء الإسلام في نظـر الإبراهيمـي وأرسلان ، ولذلك لم يتوقفا عن الإستشهاد به ، في كل القضايا التي تناولاهـا بالنقـاش والشـرح والتحليل ، مع فارق في كون أن الإبراهيمي إعتبره ألد أعداء القرآن الكريم بالذات ، ومبرره فـي ذلك كان أنه منع تلاوته وتدريسه باللغة العربية ، وحاول محو آثاره في الحياة العامـة والخاصـة لتركيا، بإستبداله بقوانين أجنبية غريبة عن المجتمع التركي المسلم ، ذات محتوى أوروبي مسيحي أو معادي للدين . وعليه فإن" آتاتورك " بحسبه يعد زعيما للتيار المناهض للإسلام بصورة عامـة والقرآن بصفة خاصة . أما أرسلان فصنفه ضمن كبار دعاة التفرنج أي التغريب ، خاصـة وأنـه حارب بلا هوادة قيم الإحتشام وشجع على السفور والإباحية ، مقتديا بمثله الأعلى أوروبا .

ولا جدال في أن منهج " آتاتورك " قد أحدث إنقلابا هائلا في تركيا المسـلمة ، فـي كـل المجالات ، فهو الذي وضع أسس العلمانية بها ، وقطع أواصر الإرتباط بينها وبين إمتدادها الثقافي والديني والحضاري الشرقي . دون أن يغير ذلك شيئا من حالهـا ، حيـث لا زالـت لغايـة الآن متخلفة ، وترفض الدول الأوروبية الإنضمام إليها ، بسبب بقاء الدين الإسلامي حيا فيها ، رغم كل الجهود التي بذلت للقضاء عليه . وغني عن التأكيد أن وصول " مصطفى كمال " إلى سدة الحكم في تركيا، يؤشر إلى النجاح الباهر الذي حققته الدول الغربية ، في إختراق البلدان الإسلامية ، وقيادتها عن طريق شخصيات سياسية ، تزدري وتحتقر ماضيها وقيمها، أيما إزدراء وإحتقـار ، وتنشـد الحياة الغربية في أدق تفاصيلها ، وحتى في جوانبها التافهة وعديمة الفائدة .

ما عدا نقده لآتاتورك من حين لآخر ، ظهر الإبراهيمي وكأنه غير مهتم بالحكـام والقـادة العرب والمسلمين ، الذين أعرب أكثر من مرة عن عدم ثقته فيهم ، وهي إحدى نقاط الإختلاف بينه وبين أرسلان ، الذي وإن كان قد حملهم مسؤولية كل ما لحق بمجتمعاتهم وأمتهم ، وأقر بفساد

غالبيتهم ، فإنه من ناحية أخرى أبدى تفاؤله بإمكانية إصلاحهم ، كاشفا أنهم لم ينحرفوا ويغرقوا في الفساد ، إلا بسبب علماء الدين ، الذين تعاملوا معهم بالسكوت أو التزلف أو المجاراة ، من أجل مصالحهم الشخصية لا غير . ولقد أثبتت الأيام ، صحة نظرة الإبراهيمي الذي راهن على إصلاح الشعوب وليس الحكام ، أي إصلاح القاعدة للوصول إلى القمة .

أظهر أرسلان جرأة كبيرة ، في طرحه لقضية ضعف الروح القومية والخيانة ، حيث إعترف صراحة بوجود فئة واسعة من أبناء العروبة والإسلام ماتت فيها ، مشاعر الإنتماء القومي والديني ، فراحت تحبط كل ما من شأنه أن يحفظ للأمة كرامتها ووحدتها ، بل آخر الأسلحة التي بقيت في يدها ، وهي سلاح المقاطعة التجارية للإنجليز واليهود ، الذي عول عليه ارسلان كثيرا لكي يفشل المخططات الإستعمارية والصهيونية في فلسطين . لكن أمله خاب ، لما رأى وجود الكثيرين ممن لا تعنيهم مصالحهم القومية العليا ، يعملون على إبطال مفعول هذا السلاح المهم وخدمة المحتل ، مبررين ذلك بحجج سخيفة ، ومنها أنهم فعلوا ذلك ضعفا وإتقاء لظلم العدو . والحق أن أرسلان قد أظهر من خلال ذلك ، إحاطة كبيرة بحقيقة الصراع اليومي الذي كان دائرا بين عرب فلسطين من جهة ، والصهاينة و حلفائهم الإنجليز من جهة ثانية . فالمعركة لم تكن بالنسبة إليه عسكرية فحسب ، بل كانت معركة إقتصادية وسياسية أيضا ، ينبغي الإلتفات إلى أهميتها ودورها الأساسي ، في التصدي للأطماع الإستعمارية في المنطقة العربية والإسلامية . ولهذا فقد حرصت الدول الإستعمارية الكبرى ، على منع البلدان العربية والإسلامية ، في إتخاذ زمام المبادرة في هذا الإتجاه ، بكل الوسائل والطرق ، ولم يحدث أن وظف إلا سنة 1976م في ما يسمى بالأزمة النفطية ، التي إندلعت لما رفضت الدول العربية والإسلامية المنتجة للبترول ، بيع منتوجاتها للدول الكبرى ، حيث أحدثت تلكم المقاطعة لأول مرة ، إرتباكا إقتصاديا وسياسيا كبيرين على مستوى تلك الدول ، لم يستغل بشكل جيد في دفعها إلى مراجعة سياساتها مع المجموعة العربية والإسلامية ، عامة وفيما يخص القضية الفلسطينية خاصة .و مهما يكن فإن هذا السلاح ، لا يزال صالحا لغاية الآن ، إذا وجد من يثق في نجاحه من القادة السياسيين ، مثلما تمنى الأمير شكيب .

كانت الشريحة الشبانية ، أكثر الشرائح الإجتماعية في البلدان العربية والإسلامية، إستهدافا من قبل الإستعمار الغربي ، بإفساد أخلاقها وعاداتها ، وفي ذلك إستطاع الإبراهيمي أن يكشف النقاب عن الإستراتيجية التي انتهجت في ذلك ، وأن ينبه إلى المخاطر الكبيرة المحدقة بالأمة ، إذا ما استمرت في تقاعسها أو تهاونها في التعامل معها حاضرا ومستقبلا . وهو في ذلك قد تفرد عن أرسلان ، إذ يعد من أبرز رواد الإصلاح ، الذين تناولوا قضية الشباب بمنهج علمي وتربوي متميز ، ولا غرابة في ذلك ، لأنه قضى اغلب حياته في الإحتكاك بالناشئة ، من خلال النشاطات التعليمية والتربوية والتوعوية، التي كانت من صميم برنامج جمعية العلماء المسلمين الجزائريين . فالإبراهيمي كان معلما وإماما وخطيبا ،وواعظا ومصلحا وموجها ومؤطرا إجتماعيا ، وهي المهام التي لم يحدث أن قام بإحداها الأمير شكيب ، الذي طغت الإهتمامات السياسية والدبلوماسية على مساره الشخصي .

كان للعوامل النفسية نصيب وافر في الإنحطاط ، وفق ما ذهب إليه أرسلان ، الذي تمكن بإقتدار من ، تصوير الأمراض والعلل النفسية الخطيرة ، التي أصابت الأمة وجعلت حالها كحال المريض نفسيا ، الذي يفقد الثقة بنفسه ، فيعجز عن العمل والنشاط والحركة والإبداع ، وهو ما حدث للأمة العربية الإسلامية ، التي أصبحت مشلولة الجسد ، مستسلمة لحالها ، لا تستطيع أن تبادر إلى الإصلاح أو التغيير أو الدفاع عن أوطانها ، لأن روح الهزيمة قد تمكنت منها .

وضع عبر عنه الإبراهيمي ، بضعف الإرادة ووهن العزائم ، وبين أن نتيجته كانت الركون إلى الكسل والخمول والراحة والجبن والقدرية . ولعل أرسلان أصاب ،حين أشار إلى نقطة هامة في هذا السياق ، وهي الإعتقاد خطاء بأن الإنتساب إلى الإسلام ، يغنيهم عن العمل والحركة والتضحية والجهاد ، لأن الحقيقة هي أن معتنق الإسلام إعتناقا حقيقيا ، هو الذي يملأ حياته بالعمل والجد والتدبير والنشاط والحيوية ، وليس العكس ، فقد حث الإسلام من كانت في يده فسيلة أن يغرسها لو إستطاع حتى ولو قامت القيامة .

تميز تحليل البشير الإبراهيمي ، لإستراتيجية الإستعمار في غزو البلاد العربية والإسلامية ثقافيا وفكريا ، بالعمق والدقة ، ولعله في ذلك برأينا يتفوق على الأمير شكيب ، الذي يكتفي في كل مرة بالتنبيه إلى خطورة الأمر وضرورة التصدي له ، دون أن يتعمق في الموضوع ، بالشكل الذي

يسمح باستيعابه ، وإدراك أبعاده الحضارية والسياسية . فلقد تمكن الشيخ البشير من رصد أدق التفاصيل في الحياة العربية الإسلامية ، التي تعرضت للاختراق الثقافي ، الذي عده سلاحا روحيا أشد خطورة من السلاح الناري ، حيث خلص إلى أنه تمكن من كل شيء : المدرسة ، البيت، الشارع ، الملبس ، المأكل والمشرب ، الأحزاب والجمعيات والنوادي ...إلخ .وخطورته تكمن في سهولة تسربه إلى أذهان وعقول الشباب المتعلمين تعليما غربيا خالصا أولا ، ثم إنسيابه إلى بقية الفئات الإجتماعية الأخرى غير المحصنة دينيا وثقافيا ثانيا ، وفي ظهور مفعوله تدريجيا فيصيب أجيالا كاملة حتى بعد رحيل المستعمر ثالثا .

وحري بنا هنا ، أن نشير إلى أن الشيخ في هذا السياق ؛ قد عارض بشدة إختيار قادة الجزائر بعد الإستقلال للاشتراكية ، كمذهب سياسي وإقتصادي وإجتماعي للبلاد ، إذ إعتبر ذلك إنحرافا عقائديا وسياسيا خطيرا ، محذرا إياهم من العواقب الخطيرة ، التي ستنجم عن تبني أفكار ونظريات أجنبية غريبة ، لم تستلهم من مقومات هوية الشعب الجزائري، وهي العروبة والإسلام . ولأنه إستمات في الدفاع عن موقفه هذا ، فقد تعرض إلى السجن ، ثم الإقامة الجبرية والحرمان من الزيارات ، كما أوقف عنه مرتبه الضئيل الذي كان يصرف له ، إلى أن توفي ([1]) . فلقد مثل الخيار الإشتراكي بالنسبة إليه ، قمة الغزو الثقافي والعقلي ، ولذلك لم يتردد في معارضته وانتقاده ، غير عابئ بالعقوبات التي أنزلت به . ومبدأه في ذلك أن الثورة التي حررت الوطن تصبح لا معنى لها ، إذا هي لم ترجع له سيادته الثقافية واللغوية والدينية، التي حاربها الإستعمار طيلة 132 سنة، بهدف القضاء عليها .

الملاحظ أن الإبراهيمي وأرسلان ، قد دأبا في كل مرة ، على إبراز ما يمكن تسميته بالدعاية الإستعمارية المغرضة ، التي تحاول تشكيك الشرقيين، في كل موروثهم الديني والثقافي والحضاري والإنساني ، عبر الخطاب الرسمي أو الآراء والنظريات العلمية والأكاديمية، التي تعمل المدرسة الإستشراقية ، على إنتاجها إستجابة للمتطلبات الإستعمارية ، لكي تبرر لها الغزو والإحتلال ، والسياسات المنتهجة في شتى المجالات وخاصة الدينية والثقافية . فقد وجد من

([1])– للمزيد ينظر رسالتنا : الشيخ البشير الإبراهيمي ودوره في القضية الوطنية 1920م – 1965م ، مرجع سابق ، ص ص 153 – 154 .

المستشرقين في الجزائر مثلا ، من يدافع بحماسة ، عن فكرة أن الاحتلال الفرنسي هو إعادة الأمور إلى طبيعتها ، وأن العرب الفاتحين هم غزاة محتلون ،على عكس الرومان الذين جاؤوا للتمدين ونشر الحضارة الأوروبية السامية ، وأن فرنسا مكلفة بإعادة المجتمع الجزائري المسلم إلى المسيحية ديانته الأولى ...إلى غير ذلك من الأفكار التي تبناها الفكر الإستشراقي ، وحولها إلى سلاح إضافي في يد الاحتلال . ولم يختلف الوضع عنه في بقية الأقطار العربية الإسلامية ، التي تعرضت لمحاولات مركزة في هذا الاتجاه ، ولعل خطورتها لا تكمن حسب الإبراهيمي وارسلان في مضامينها الفكرية والسياسية والأخلاقية، أو في القوة التي تسندها وتدعمها ، وإنما في نجاح الدول الغربية، في تكوين نخبة مثقفة تدافع عنها بحماسة وتروج لها دون عقدة ، ولا تتحرج في الجهر برفضها الصريح للقيم الشرقية بما فيها الدين الإسلامي ، الذي رأت فيه معوقا أساسيا في طريق الاندماج التام في الحضارة الغربية ، المتكاملة حسبهم من كل النواحي .

وبالنسبة للإبراهيمي ،أن جرائم الاحتلال الفرنسي في الجزائر ، سواء تلك التي ارتكبها الجيش ضد الأبرياء العزل ، أو تلك التي تجسدت في تجهيل المجتمع أو إفساد أخلاقه ، هي الامتحان الحقيقي الذي كشف زيف تلك الحضارة ، وتجردها من الخاصية الإنسانية . وجلي أن الشيخ البشير ، قد أوفى هذا الموضوع حقه من الشرح والتحليل ، مع تضمين أحكامه ومواقفه، بأدلة ملموسة من الواقع الجزائري ، الذي مثل لديه أحسن مثال لمحاكمة الضمير الاستعماري، ومصداقية الشعارات التي ترفعها الحضارة الغربية باستمرار . بخلاف أرسلان ،الذي يبدو وأنه يفضل التركيز على التجاوب العربي والإسلامي مع قيم تلك الحضارة ، على يد فئات مستغربة أنتجها الاستعمار ذاته، لكي تنوب عنه في عملية مسخ مجتمعاتها .

خاتمة الفصل :

وعلى ضوء ما قمنا بعرضه ومناقشته و تحليله في هذا الفصل ، نخلــص إلــى أن الشــيخ البشير الإبراهيمي والأمير شكيب أرسلان ، قد توصلا إلى أن التخلف العربــي الإســلامي هــو ظاهرة : ذات أبعاد دينية وثقافية وسياسية وإجتماعية ، وحضارية وأخلاقية متشــابكة ، لا يمكــن فصلها عن بعضها البعض ، منها ما يرجع إلى قرون عدة ، ومنها هو وليد مرحلة النصف الثــاني من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين . يستوجب لفهمها ، تمتع الدارس لهــا بجملة من الخصائص منها : سعة الإطلاع ، والإدراك الجيد لعناصر القوة والضعف في التــاريخ العربي الإسلامي ، والوعي الكبير بالتحديات الحقيقية، التي كانت فــي طريــق الأمــة العربيــة والإسلامية في تلك المرحلة من حياتها، بالإضافة إلى الرغبة والإخلاص الصادقين فــي خــدمتها ومعالجة قضاياها الأساسية، بعيدا عن التفكير السطحي من ناحية ، والنظريات والأفكار الغربيــة، التي لا تهدف إلى تحسين الأوضاع، بقدر سعيها إلي تأزيمها وإبقائها بدون حل، في إطار التصور الغربي من ناحية أخرى .

وفي كل ذلك بدا الإبراهيمي ، أكثر حرصا من الأمير شكيب ، على ضرورة توفر كل تلك الشروط جملة واحدة . ولا جدال في أن إيجاد الحلول المناسبة لظاهرة بحجم التخلف ، يتطلب أولا الوقوف على كل أسبابها، من خلال نظرة علمية وواقعية، ترمي إلى كشف مواطن الخلل وليس إلى التغطية عليها ، لأن أي قصور في هذا الجانب ، سيؤدي حتما إلى المزيد من التعقيد والإستعصــاء في المستقبل . ولعل الحسم بالقول أن الدارس ، يشترط أن يكون عربيا مسلما غير خاضع لتــأثير ثقافة التغريب ، رأي صائب ، فحتى وإن وجد من الباحثين والدارسين من غير العرب والمسلمين ، ممن يتصفون بالحيادية والنزاهة العلمية ، فإنهم سيظلون عاجزين وفق رأي الإبراهيمي، عن فهــم قضية التخلف فحسب ، بل كل القضايا المطروحة للنقاش والدراسة، على مستوى النخب الفكريــة والسياسية .

اختلف الشيخ البشير، إختلافا نسبيا في تحليله لأسباب تخلف العرب والمسلمين ؛ بالمقارنــة مع الأمير شكيب ، فقد لاحظنا أن معظم الأسباب التي ساقها فــي عمومياتهــا وتفاصــيلها، ذات محتوى ديني وإجتماعي بالدرجة الأولى ، فالمسألتان الدينية والإجتماعية أساسيتان عنده .ولذلك

بدت الأسباب الأخرى ثانوية نجمت عنها ، ومنه فإن الجمود والتقليد وفساد الحكام هو نتيجة لفساد وإنحراف علماء الدين ، كما أن تمكن المنظومة الثقافية والفكرية الغربية من إختراق، أو إحتواء نظيرتها في البلاد العربية والإسلامية، سببه ضعف التشبع بالقيم الدينية . والأمر ذاته بالنسبة للجانب الأخلاقي، الذي شهد تراجعا خطيرا، بفعل ضعف التحصين والوازع الديني . وهكذا يمكن القول أن الإبراهيمي ، كان ينطلق فيما سبق من تصور شخصي، وهو أن مؤشر التخلف والتقدم ، تتحكم فيه وضعية الدين الإسلامي للمجتمع والأمة، على كافة المستويات والأصعدة . وفي الجانب الآخر يبرز الأمير شكيب، وكأنه لا يجعل من الإنحطاط الديني ، السبب في كل مظاهر التخلف السائدة ، فهو جزء من كل مركب : يشمل الجوانب السياسية والثقافية والإجتماعية والإقتصادية والسلوكية .

وبطبيعة الحال ، لا يمكن التقليل من أهمية العامل الديني، في حياة المجتمعات العربية والإسلامية ، لكن في نفس الوقت لا يمكن التقليل أيضا من أهمية العناصر الأخرى ، التي يعطيها الشيخ البشير أهمية كبيرة . وفي حقيقة الأمر،ان هذا الإختلاف في التصور لم يكن بينه وبين شكيب فقط ، بل كان بين عدد معتبر من أقطاب الحركة الإصلاحية والنهضة ، فمنهم من نشد نهضة دينية خالصة فإذا تحققت إنتقل إلى الميادين الأخرى ، ومنهم من حاول التوفيق بين جميع العناصر كأرسلان . في حين فضل البعض الآخر، إقصاء العنصر الديني نهائيا وعدم إيلائه أية أهمية له ، بل وتحميله المسؤولية كسبب رئيس في التخلف .

تكمن نقطة الضعف في منهج الشيخ البشير إذا ، في كونه كان يسقط مثاليات المجتمع العربي الإسلامي الأول ، الذي اصطلح على حقبته تلك بالمرحلة الإيمانية، التي تميزت بخصوصيات مكانية وزمانية، ليست نفسها السائدة في عصر الإبراهيمي وأرسلان ، لكن دون أن يعني ذلك، أننا نقلل من حجم الإنحطاط الديني المريع ، الذي كان الشيخ البشير شاهدا عليه ، أو نؤيد تحليل شكيب الذي بدا وكأنه إلى حد ما يغلب النظرة السياسية والعلمية ، في تناوله لظاهرة التخلف العربي الإسلامي . ومنه نقول أن قضية بحجم التخلف ، ينبغي أن ينظر إليها من زوايا متعددة ، دون ترجيح لزاوية على حساب أخرى ، وربما هذا هو السبب في كون ان كل المحاولات

التي جرت في هذا الإطار، لم تستطع الإقتراب بشكل كاف من فهم كل أبعادها ، لذلك تعثرت كل محاولات النهوض ولا زالت إلى غاية الآن .

أما نقاط القوة في المنهجين ، فتتمثل في كونهما حاولا الوقوف على العوامل المسببة للتخلف، خارج التصور الغربي الأكاديمي أو الرسمي من جهة ، وخلافا للطرح التقليدي أي المحلي المنغلق الذي يرفض جملة وتفصيلا ، أي قراءة نقدية واعية للواقع العربي والإسلامي ، تأخذ في عين الإعتبار تثمين الجوانب الإيجابية، التي يمكن إستثمارها في عملية النهوض من جهة ثانية . وحري بنا في ذلك أن نقول، بأن تصور الأمير شكيب، وإن لم يكن متشبعا بالفكر الغربي في نظرته السلبية للمشرق ، إلا أنه لم يخلو من الإسقاطات التي إستلهمها من تاريخ أوروبا خاصة الحديث منه، ومن الأحداث التي عاصر جانبا مهما منها . وقد شكل ذلك له تميزا واضحا عن الإبراهيمي ، الذي ظل نقده وتحليله لا يبرح التاريخ العربي الإسلامي، الذي قسمه إلى مرحلتين أساسيتين : مرحلة التقدم والإزدهار التي مثلت بالنسبة إليه أرقى النماذج الحضارية في تاريخ الإنسانية ، ومرحلة الركود والتقهقر والإنحطاط التي أعقبت أفول المرحلة الأولى .

ثمة إشكالية أساسية، وقفنا عليها في تناول الإبراهيمي وأرسلان لقضية التخلف العربي الإسلامي على حد سواء ، فكلاهما بحثا في أسباب الظاهرة، إنطلاقا من الواقع العربي وليس الإسلامي الواسع ، أي على أساس أن الأوضاع متشابهة لدى العرب المسلمين والمسلمين العرب ، وقد أشارا إلى ذلك منذ البداية ، ونفس الشيء بالنسبة لشروط النهوض التي سنتطرق عليها في الفصل الموالي . ولكن الامر يبدو لنا في حاجة إلى إعادة نظر ، فصحيح أن المجتمعات العربية والإسلامية في مرحلة الإنحطاط، جميعها تشترك في التخلف الشامل ، حيث لا يمكن إستثناء أي منها في هذا الجانب ، لكن ربما ما لم يأخذه الرجلان في عين الإعتبار، هو الخصوصيات التي تميزها عن بعضها البعض ؛ فمشكلات مسلمي الهند وإيران، ليست هي ذاتها مشكلات أقطار المغرب العربي وهكذا ...هذا دون أن نغفل المذهبية التي تقسم العالم الإسلامي، إلى عالمين سني وشيعي ، فضلا عن وجود أقليات دينية مسيحية داخله، تتمتع بنفوذ سياسي وثقافي وإقتصادي قوي ، فهذه حقائق ميدانية من الخطأ تجاوزها . فعلى سبيل المثال ، ووفقا لما ذهب إليه الإبراهيمي، نتساءل كيف يمكن الحديث عن نهضة دينية إسلامية، في لبنان بصفة عامة والشام بصفة خاصة ،

في ظل التعددية الطائفية والمذهبية المتجذرة في المنطقة ؟ . ومنه نعتقد، أن المدرسة الفكرية التي إنتمى إليها الشيخ البشير والأمير شكيب ، قد تجنبت الخوض في مثل هذه المسائل الجوهرية . بعكس أصحاب النزعات الوطنية في مصر والشام ، الذين جعلوا من الإنتماء العرقي أساسا للدولة والنهضة ، وفسروا التخلف بغياب الحقوق القومية والوطنية في ظل السيادة العثمانية ، وهي وإن إفتقدت إلى الصدى الشعبي ، إلا أنها كانت أكثر عملية وواقعية من النظرة الشاملة ،التي كان أرسلان والإبراهيمي أحدا روادها .

تميز الشيخ البشير عن الأمير شكيب ، بانتقاده الجريء واللاذع للمجتمع الصوفي المنحرف ، وإعتبار مسلك شيوخه وبالا على الأمة دينيا وعلميا وإجتماعيا ، والحقيقة أننا لم نعثر عبر إطلاعنا الواسع في هذه القضية، على شخصية فكرية أو إصلاحية ، تصدت لذلك مثل الإبراهيمي ، إذ لا يكاد يخلو حديث من أحاديثه أو محاضرة من محاضراته، من الإشارة إليهم من قريب أو من بعيد. وهو وإن كان يخص الصوفيين في الجزائر ، إلا انه كان يرمي من خلاله، إلى بيان مفاسد العقائد الصوفية المنحرفة، التي كانت تهيمن على الحياة الدينية في كامل البلاد العربية والإسلامية بدون إستثناء ، لكن بدرجات متفاوتة .

أما الأمير شكيب ، فلم نجد له رأيا أو موقفا، في مسألة التصوف أو المتصوفة في لبنان أو خارجه ، كما أننا لم نجد تفسيرا مقنعا لذلك ، خاصة وأن رجال الصوفية لم يقتصر تأثيرهم السلبي على الميدان الديني فحسب ، بل جلبوا لأنفسهم نقمة كافة قادة النهضة والإصلاح ؛ بتحالفهم مع الحكام والخلفاء، والأمراء والإقطاعيين والبرجوازيين، والمحتلين الأوروبيين ، وتبريرهم لسياساتهم ، على نحو دفع أمثال الإبراهيمي إلى الدخول معهم في مواجهة جدلية وإعلامية وخطابية وفقهية شرسة، كانت تنتهي في بعض الأحيان إلى معارك جسدية، مثلما حصل له مع اعلام الطرقية في تلمسان العاصمة العلمية و الثقافية للغرب الجزائري، في بداية الثلاثينيات من القرن العشرين، حيث كانت مسرحا لذلك ، إحدى الجنائز التي كان يشرف عليها الطرقيون الذين كان نفوذهم عظيما في المنطقة ، بدعم من سلطات الإحتلال . لكن دورهم إنحسر في نهاية المطاف ، فاسحا المجال أمام الفكر الإصلاحي، الذي أرست دعائمه جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في تلمسان بقيادة الشيخ البشير .

ولسنا ندري في المقابل، إن كان إحجام أرسلان عن التعرض للصوفية ، له علاقة بالتحالف القائم بينهم وبين السلطات العثمانية ، التي عملت على تقوية شوكتهم وتوطيد نفوذهم الإجتماعي والسياسي ، على حساب المرجعيات الدينية الأخرى ، إنطلاقا من كون الأمير شكيب، ظل لمدة طويلة من الزمن من اكبر قادة النهضة والإصلاح ، المؤيدين للباب العالي خاصة في سياسته الخارجية ؟ .

لا شك أن غياب إستراتيجية علمية وصناعية ، يعد من أهم أسباب التخلف الإقتصادي ، وهو ما نبه إليه الأمير شكيب القادة العرب والمسلمين ، ودعاهم من خلاله إلى الإستعجال في وضع أسس متينة لذلك ، لأن الفجوة الحاصلة بين بلدانهم وبين البلدان المصنعة ، لم تعد تحتمل الإستمرار أكثر في ذلك الوضع . كاشفا عن نظرة إستشرافية مستقبلية ، مفادها أن تلك البلدان إذا لم تبادر بما سبق ، ستجد نفسها تحت نوع آخر من الإستعمار بعد حصولها على إستقلالها السياسي ؛ وهو الهيمنة الإقتصادية والتكنولوجية .

وقد أشار الإبراهيمي ، إلى هذه القضية و لكن بدرجة أقل، من خلال إنتقاده لثقافة إستهلاك المنتوجات الأجنبية عامة والغربية خاصة ، والإقبال عليها من غير عقلانية ، ودون تفكير في عواقبها الإقتصادية ، فغيرهم يبدع وينتج ويصنع ، وهم يستهلكون فقط . ولعل إهتمام أرسلان بمجالات الطاقة الكهربائية ، وإستخراج المواد المعدنية والنفطية ، يؤشر على انه كان يدرك أن أكبر تحد ستواجهه تلك الدول الفتية في المستقبل ، هو مدى تحكمها في إنتاج وتصنيع تلك العناصر الحيوية، التي لا يمكن الإستغناء عنها في النهضة الإقتصادية . وقد صحت مخاوف الأمير شكيب تلك ، لأن ما حذر من وقوعه قد وقع فخسرت تلك الدول الرهان ، وبدلا من أن تكون الثروات الطبيعية التي تملكها، قوة تساعدها في تحقيق التقدم والتفوق الإقتصادي ، أصبحت عاملا سلبيا تجلى في تبعيتها الإقتصادية التامة ، للدول التي إستعمرتها سابقا ، تكتفي فقط بقبض جزء من العائدات، من الشركات المتعددة الجنسيات التي تحولت إلى دولة داخلها ، بفضل قوتها المالية والتكنولوجية، والرعاية الخاصة التي تتوفر عليها من دولها الأم .

ولا ريب أن شكيب أرسلان ، كان مثل البشير الإبراهيمي، مدركا تمام الإدراك ، بأن التخلف العربي الإسلامي ، إضافة إلى الأسباب والعوامل السابقة ، له جانب نفسي لا يمكن تجاهله

فإذا كان التخلف ظاهرة طبيعية في الأمم تصيبها في مراحل ما من حياتها ، وفقا للسنن التي تتحكم في حركة التاريخ ، فإنه من غير الطبيعي في القضية بالنسبة إليهما ، هو الشعور الذي تكرس لدى أبناء العروبة والإسلام في عصور الإنحطاط ، أن هذا الأخير هو صفة ملازمة وقدرا محتوما لا يمكن تفاديه . ومن ثمة فالحل عندهم هو التسليم بذلك ،على أساس أنه يقين لا يقبل النقاش أو الجدال من ناحية ، والاعتراف لغيرهم بالتفوق والريادة ، من خلال الإعتقاد بأن محاولة محاكاتهم أو مجاراتهم ضرب من العبث من ناحية ثانية . وهي قمة الهزيمة النفسية في نظر أرسلان والإبراهيمي ، التي إنتهت بالجميع إلى تبعية شاملة ،حتى فيما لا ينبغي أن يتبع فيه الغير كمظاهر الحياة اليومية ، من لباس وطرق أكل وعادات داخل الأسرة ...وغيرها من القيم الاجتماعية الغربية، التي تفشت في المجتمعات العربية والإسلامية بشكل مرضي .

تمهيد :

بالرغم من أن الشيخ البشير الإبراهيمي و الأمير شكيب أرسلان ؛ قد اعترفا في أكثر من مناسبة، بأن الوضع الذي أصبح عليه العرب والمسلمون في عصرهما ، يدعو إلى اليأس والقنوط وحتى إلى الكفر كما عبر عنه الإبراهيمي ، بسبب التخلف التام والانحطاط الشامل ، اللذان خيما على الحياة العربية والإسلامية ، التي تجمد بها كل شيء ولم تعد قابلة للحركة ، وكأن العرب والمسلمين كانوا في زمان غير زمانهم ؛ أبدانهم حاضرة وأرواحهم غائبة . وما زاد الأمر بحسبهما سوءا الاستعمار الغربي ، الذي تمكن في ظرف وجيز من بسط سيطرته على أغلب أقطار العالم العربي و الإسلامي ، فحولها إلى مستعمرات يحكمها بالقمع والتسلط والتجهيل ، والإفقار والإستبداد ، في مقابل ما كانت تدره عليه من ثورات وموارد إقتصادية هائلة ، يوظفهما في تنمية إقتصادياته ، وتنمية مداخيله وترقية شعوبه .

بالرغم من كل ذلك ، أبقى الإبراهيمي وأرسلان ،على الأمل في إمكانية تحقيق النهوض ، وإنتشال العرب والمسلمين من هامش التاريخ، وجعلهم يستعيدون المكانة الحضارية الريادية ، التي فقدوها منذ زمن طويل ، لأنهم في تقديرهما ؛ أمة تتوفر على كل مقومات الإزدهار والتقدم المادية والمعنوية ، التي قد يتفوقون فيها ، حتى على الأمم التي قطعت أشواطا كبيرة في الرقي والتقدم مثل أوروبا واليابان . فليس مستحيلا في نظرهما ، على الأمة التي إستطاعت أثناء القرون الأولى للإسلام ، أن تنجز مدنية عدت نموذجية في جمعهما بين القيم الأخلاقية والإنسانية من جهة ، وبين الإنجازات العلمية والتقنية من جهة ثانية ، أن تعيد الكرة مرة أخرى ، وتتبوأ الدرجة ذاتها ، خاصة أن المدنية الغربية المعاصرة ، قد كشفت أنها لا تول أهمية ، للقيم والمثل العليا ، بقدر اهتمامها باستغلال الشعوب الضعيفة ، ونهب ثرواتها ومقدراتها الاقتصادية والبشرية ، وهو سبب كاف ليدفع بالإبراهيمي وأرسلان ، إلى التنبؤ بسقوطها وزوالها ، لأنها تسير على قدم واحدة أو تطير بجناح واحد . فالحضارة التي تعمر طويلا وفق تصورهما ؛ هي التي تتمكن من إستعاب أهمية التوازن بين المادة والروح ، ذلك التوازن الذي يمثل جوهر الدين الإسلامي ، الذي يدين به العرب والمسلمون .

وعليه لم يكتف الإبراهيمي و أرسلان ، بسرد وتحديد الأسباب التي جعلت من المجتمعات العربية والإسلامية، متخلفة في كل الميادين والأصعدة ، كما تطرقنا إليه في الفصل السابق ، بل

إجتهدا في إبداء تصورهما لما ينبغي القيام به ، حتى تتحقق النهضة الشاملة ، التي ظلت هدفا لكل قادة ومفكري النصف الثاني من القرن التاسع والنصف الأول من القرن العشرين من العرب والمسلمين ، وهي تصورات وإن لم تتجسد في زمن الرجلين ، إلا أنها برأينا لا تزال عملية وفعالة في الحاضر والمستقبل ، لأنها جاءت في صورة عامة لا ترتبط بزمان أو مكان محددين ،و نعني أنها غير مرتبطة بمكان ما، أنها قد تكون مفيدة حتى لغير العرب والمسلمين في بعض جوانبهما .

وبالنظر إلى ما إجتهد كل واحد منهما في طرحه ، يتبين لنا وللوهلة الأولى، أن المشروع النهضوي عند الإبراهيمي يكتسي الصبغة الدينية المحضة ، بسبب تكوينه الديني الذي جعله يرى أن الدين الإسلامي هو المحرك الأساسي لكل مناحي الحياة العربية والإسلامية، مثلما كان عليه الحال في العصور الإسلامية الأولى ، فما تحقق به التقدم في تلك الأثناء لا يمكن أن يتحقق بغيره في المستقبل . أما شكيب أرسلان ، فرغم أنه أكد على الدور الرئيسي للدين الإسلامي في العملية النهضوية ، إلا أنه حاول لفت الإنتباه إلى أهمية عناصر أخرى، مثل تطوير البحث العلمي والتحكم في التكنولوجية الحديثة ، لنقل قطاعات كالصناعة والزراعة من حالتها البدائية ، الى المستوى الرفيع الذي وصلت إليه في الأمم المتقدمة .

ومنه فقد أدرجنا في هذا الفصل ثلاثة مباحث ، خصصنا الأول لمفهوم النهضة من الناحيتين اللغوية والإصطلاحية ، مع الإشارة إلى الصعوبات التي وجدناها فيما يتعلق بالشق الإصطلاحي ، بسبب تناقض المفهومين العربي والغربي اللذان لا يؤديان المعنى ذاته ، ومع ذلك حاولنا قدر الإمكان ضبط تلك المفاهيم ، لكي تتناسب مع المقصود منها في هذه الدراسة الفكرية المقارنة . ثم إنتقلنا بعد ذلك ، إلى إبراز أهم المضامين السياسية والفكرية والإجتماعية والعلمية، التي تطرق إليها مفكرو النهضة العربية والإسلامية عامة ، ولعل من الأهمية بمكان ، الإشارة إليها ولو بإيجاز ، حتى نستوعب القضايا الجزئية، التي كانت محل نقاش وجدل ومعالجة في تلك المرحلة المفصلية من تاريخ الشعوب العربية والإسلامية .

أما المبحثان الثاني والثالث ، فقد تضمنا الشروط التي حددها الرجلان ، لمعالجة مشكلة التخلف وتحقيق النهضة العربية الإسلامية الشاملة ، التي تعيد الأمور إلى نصابها ، لأن العرب

والمسلمين وفق ما ذهبا إليه، أهل لأن يكونوا في مقدمة الأمم الراقية القائدة لقطار التقدم ، وليس في المؤخرة كما كان حاصلا في عصرهما .لنعمد في الأخير إلى المقارنة ، بين كل ما ذهبا إليه ، لاستخلاص النتائج .

المبحث الأول : مفهوم النهضة لغة واصطلاحاو مضامينها في الفكر العربي الإسلامي الحديث والمعاصر .

1 – مفهوم النهضة لغة :

النهضة في اللغة العربية من نهض نهضا ونهوضا ، ومعناه قام من مكانه ، ونهض إلى عدوه أي أسرع إليه ، ونهض النبت أي إستوى ، ونهض للأمر يفيد بأنه قام واستعد ... إلخ . وأنهضه حركه للنهوض وأقامه ، وإنتهض القوم : إستعد للقتال ، وإستنهضه أمره بالنهوض . أما النهضة وجمعها نهاض : الطاقة والقوة ، والنهاض : الكثير النهضة أي الحركة ([1]) واليقظة والنشاط ([2]) . وعليه فإن النهضة في اللغة العربية ؛ تعني القيام والتحفز واليقظة والحركة والنشاط ، وهو ما أشارت إليه كل المعاجم والقواميس العربية القديمة والحديثة التي إطلعناعليها .

أما في اللغة الفرنسية ، فيقابل كلمة نهضة عدة ألفاظ منها : AVANCEMENT , REVEIL , RENOUVEAU , ESSOR , REDIESSEMENT , RELEVEMENT ... إلخ وهي تفيد على الترتيب : التقدم واليقظة ، التجديد والتكييف ، والنهوض ([3]) .

2 – مفهوم النهضة إصطلاحا :

أما من الناحية الإصطلاحية ، فنجد الصعوبة ذاتها التي صادفناها في تحديد مفهوم التخلف ، لسببين أساسيين هما : كون أن كلمة " النهضة " العربية لا تفيد نفس المعنى الذي يتضمنه مقابلها في اللغات الأوروبية ، ولأن أوروبا كانت السباقة بعدة قرون في استخدام هذه الكلمة . حيث جاءت كلمة (RENAISSANCE) في خطاب الحداثة الأوروبية ، للدلالة على عهد النهضة الذي عرفته أوروبا خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، وهو عهد تميز بحركة تجديد أدبي وفني وعلمي ، ظهرت في إيطاليا أولا، ثم إنتقلت إلى فرنسا وبقية الدول الأوروبية برمتها ، بفضل نشاط وجهود رجال الأدب والفن البيزنطيين (*) ، الذي وفدوا إليها ، بعد أن تمكن الخليفة

([1])– المنجد في اللغة والأعلام .

([2])– القاموس الجديد للطلاب .

([3])– ينظر قاموس: LA ROUSSE ELEMENTAIRE ، وقاموس : كنز الطالب .

(*) – من أشهر رجال الأدب والفن في عصر النهضة : " فرانشيسكو بتراركو " (1302م – 1374م) "لورين قالا" (1405م – 1457م) و " كولوشيو سالوتالي " و " بوجيو براشيوليني " ، " كريزولوراي "

العثماني " محمد الثاني "(1429م-1481م)، من الاستيلاء على القسطنطينية عام 1453م .
و قد ساعد على نجاحها اكتشاف الطابعة (*) و التشجيع الكبير الذي وجدته لدى الأمـراء و البابوات و خاصة منهم " يوليوس " (**) و " لاون 10 " (***) . و جدير بالإشـارة ، أن تلـك الإنطلاقة الفكرية ، لم تتنكر للماضي ، بل سعت إلى إحيائه بالرجوع إلى الفن و الأفكار اليونانيـة الرومانية . و مجمل القول أن كلمة " النهضة " (RENAISSANCE)هي تسمية أطلقهـا خطـاب الحداثة الأوروبية في أوائل القرن 19م ، لتعني جملـة الظـواهر الفكريـة و الفنيـة و العلميـة و الإقتصادية ، التي تمثل ميلادا جديدا لأوروبا بعد العصر الوسيط(عصر الظلمات) .
و هكذا إذا كان المفهوم الأوروبي للنهضة، يشير إلى العودة إلى الأصـول بـالعودة إلـى الماضي و إكتشاف كنوزه ، فإن الأمر مختلف بالنسبة لمقابلها لدى الأمم العربيـة و الإسـلامية ، حيث وظفها رواد ما سمي بالنهضة ، توصيفا لتلك الحركة الفكرية والثقافية والسياسية، التي

و " مارك بساريون " ، " ليوناردو بروني " (1370م – 1444م) ، " مارسال فيسـين " (1433م – 1499م) ، "نقولا ذوكويز" (1400م – 1463م) ، " ألكسندر هجيـولين " (1435م – 1498م) ، " جـاك ويمفلنـغ دوسلسـا " (1450م – 1528م) ، " جـان روشـلار " (1455م / 1522م) ، " أولريـك دوهـاوتن " (1488م – 1523م) ... إلخ . ينظر جان بيرنجيه وآخرون : موسوعة تاريخ أوروبـا العـام ، ج2 ، ط1 ، منشورات عويدات ، بيروت : 1995م ، ص 173 وما بعدها .
(*)– اكتشفت الطباعة في وادي الراين ، ومنها عرفتها سائر أنحاء أوروبا ، ومن أشهر المواقع التي انتشرت فيها محترفات الطباعة والنشر : (نوررمبورغ ، أوغسبورغ ، ليون ، باريس ، البندقيـة) . وقـد سـاهمت مساهمة عظيمة في تغيير ظروف العمل الفكري ، ففي نهاية القرن 15م فقط ظهرت ما بـين 15 إلـى 120 مليون نسخة على الأقل . وتجدر الإشارة هنا إلى أن الطباعة في ذلك العهد ، كان في صلب عملهـا إعـلاء شأن الأمراء وتمجيدهم . جان بيرنجيه وآخرون ، المرجع نفسه ، ص 185 .
(**)– بوليوس 2 (1443م – 1513م) : شغل منصب البابويـة بـين 1503م – 1513م ، وطـد سـلطة البابوات الزمنية وشرع في بناء كنيسة القديس بطرس ، أظهر تعاطفا مع الفنانين ومن أشهرهم : " برامانته " ، " مايكل أنجلو " ، " رافاييل " . عقد المجمع اللاتراني الخامس عام 1912م . المنجد في اللغة والأعلام .
(***) – لاون العاشر (1513م – 1521م) : يعد من ابرز باباوات عصر النهضة ، فـي عصـره نشـأت البروتستانية على يد لوثر ، قام بتزيين روما بآيات التصوير والبناء ، أكرم العلماء والفنانين ، حتـى عـرف عصره بعصر لاون العاشر . المنجد في اللغة والأعلام .

شهدتها المنطقة العربية والإسلامية ، للوقوف في وجه الهجمة الإقتصادية التي إستهدفتها من ناحية وللخروج من التخلف الحضاري الشامل الذي كانت تحياه . وبتعبير آخر أنها كانت ذات شقين ؛ النهوض لمقاومة التهديد الخارجي المتمثل في الإحتلال الأوروبي ، وفي نفس الوقت محاولة الأخذ بأسباب التقدم التي أوصلت الأمم الأورروبية ، إلى ما وصلت إليه من رقي في كل المجالات ([1]) .

ويرجع بعض الدارسين، بداية تشكل الفكر النهضوي في البلاد العربية خاصة والإسلامية عامة ، إلى الحملة الفرنسية على مصر عام 1798م ، مبررين موقفهم هذا بكون أن الإحتكاك والإصطدام بين الحضارتين الإسلامية والمسيحية، الذي جسدته تلك الحملة ، ترتب عنه بروز عدة معطيات ، ومفاهيم فكرية وإجتماعية وفلسفية وسياسية جديدة ، لم يعرفها العالم العربي والإسلامي ، منذ أن أصبح تحت السيادة العثمانية . ووفقا لذلك ، فإن أصحاب هذا الرأي يجعلون من الحملة الفرنسية، الإطار الذي أدى الى تحول جذري في الوعي العربي والإسلامي ، الذي سمح بإدراك ما كان يحدث في الجانب الآخر من العالم ، من تغيرات وتطورات حضارية . فتبع ذلك محاولات لتكسير العزلة والتقوقع اللذان فرضهما الحكم العثماني ، سعيا للحاق بالركب الحضاري .

والحق أن الحملة الفرنسية على مصر قد شكلت فعلا ، عاملا أساسيا في تنبيه المجتمعات العربية والإسلامية ، إلى حالة التخلف والإنحطاط والجمود التي كانت تشهدها، في تلك المرحلة الحساسة جدا من تاريخها ، بل أنها دفعت حتى ببعض السلاطين العثمانيين إلى المبادرة والإسراع في تطبيق سلسلة من الإصلاحات والتنظيمات ؛ في المجالات السياسية والثقافية والإقتصادية ، بهدف تدارك الوضع ، وقطع الطريق أمام الغزو الأوروبي ، الذي أضحى يهدد أملاكها في آسيا وإفريقيا وأوروبا، أكثر من أي وقت مضى ([2]) .

وقد أكد هذه الفرضية " مارسيل بوازار " ([3]) في كتابه " إنسانية الإعلام " ، بالقول أن الهجمة الفرنسية على مصر التي تمثل قلب العالم العربي والإسلامي ،قد دفعت بالمسلمين إلى البحث عن ذاتهم إتجاه الغرب المنتصر ، وولدت ((شعورا بالعزة الجريحة)) تحول إلى حركة دينية وثقافية وسياسية ، نماها منذ البداية الإصطدام بالمصالح الإمبريالية الأوروبية ، والشعور

([1])- محمد عابد الجابري : المشروع النهضوي العربي مراجعة نقدية ، مرجع سابق ، ص 60 ،63 ، 64 .

([2])- ينظر الغالي غربي ، المرجع السابق ، ص 213 وما بعدها .

([3])- ينظر مارسيل بوازار ، المرجع السابق ، ص 205 وما بعدها .

بالخزي من السيطرة الاستعمارية ، والتخلف الاقتصادي . وتقاطع التطلع إلى العزة القومية والإصلاح الديني والنضال السياسي تقاطعا عميقا . وقد تزعمها إتجاهان رئيسيان : الأول محافظ مدافع ، سعى إلى حماية القيم الإسلامية من زحف الحضارة المادية الأجنبية . أما الثاني فمعاكس له ، ونادى بتجسيم جلي للفكر الحديث، من خلال إسلام يتصف بالتحرر والعقلانية، ويستوحي بقوة أفكار أوروبا الغربية .

وبالنظر إلى ذلك، يمكن القول أن النهضة العربية الإسلامية: ((هي تنبيه في كل أنحاء العالم الإسلامي والعربي منذ أواخر القرن الثامن عشر إلى وجوده في حالة خمول وتخلف وتبعية لا تنسجم مع ماضيه العربي الإسلامي وحضارته الأصلية وسيادته السابقة ، وبالتالي لا تتلاءم مع الإيقاع الحضاري الذي كانت تعيشه أوروبا)) ([1]) .

ومن ثمة، فإن أوجه الإختلاف بين النهضة الأوروبية والنهضة العربية الإسلامية ، يكمن في كون أن الأولى كان قوامها:((إحياء التراث اليوناني الروماني الفلسفي والعلمي والفني والأدبي ، والإنتظام فيه ، الشيء الذي يعني العمل على الإفلات من هيمنة فكر الكنيسة ووصايتها على العقل والوجدان)) . بينما الثانية، إلتجأت إلى توظيف التراث العربي والإسلامي ،بوصفه وسيلة تعبئة وتجنيد ، لصد الهجوم الأوروبي في مظاهره العسكرية والسياسية والإقتصادية والثقافية ، فلعب هذا التوظيف دورا مهما في تحريك المخيال الإجتماعي ، وبعث الثقة في النفس والأمل في المستقبل . مع التأكيد على أن مشروع الحداثة العربية والإسلامية ، قد إستقى أغلب مفاهيمه وطموحاته وشعاراته ، من الأدبيات والشعارات التي تضمنتها الحداثة الأوروبية في هذا الإطار ([2]) .

ومجمل القول، أن النهضة العربية الإسلامية الحديثة ، قد إصطبغت بمظهرين متناقضين ؛ مظهر تجلى في القوة الخارجية المهددة، ونعني بها قوة الغرب وتوسعه الرأسمالي . ومظهر : ((يمثل الحداثة والتقدم بكل قيمهما العصرية المادية والمعنوية كالتقنية والعلم والديمقراطية والحرية ...)) . وانطلاقا من ذلك شكل الغرب دائما بالنسبة للعرب والمسلمين ، عدوا يتوجب

([1]) – الغالي غربي، المرجع السابق ، نقلا عن ليلى الصباغ : " الوجود المغربي في المشرق المتوسطي في العصر الحديث " ، المجلة التاريخية المغربية ، فاس : العدد 7 و 8 / 1977م ، ص 221 .

([2])– محمد عابد الجابري : المشروع النهضوي العربي مراجعة نقدية ، مرجع سابق ، ص 57 وما بعدها .

الاحتراز منه وقطع الطريق أمام أطماعه وسيطرته من ناحية ، والمثال الذي يغريهم لكي يقتدوا به وينتهجوا منهجه من ناحية ثانية [1] .

3- <u>مضامين النهضة في الفكر العربي الإسلامي الحديث و المعاصر</u>:

كما سبقت الإشارة إليه ، أن النهضة العربية الإسلامية الحديثة، كان الباعث إليها قضيتان أساسيتان : قضية مقاومة الغزو الأوروبي الذي دشنته الحملة الفرنسية على مصر سنة 1798م ، وقضية الانحطاط الحضاري الشامل الذي كان مخيما على كل نواحي الحياة في العالم العربي والإسلامي . فقد وجد رواد النهضة أنفسهم، في مواجهة مباشرة مع هاتين القضيتين المعقدتين في آن واحد . فكان من الطبيعي أن تثار العديد من الإشكالات على هذا المستوى ، وأن تتباين الآراء والأفكار والمواقف إزاءها ، سواء من حيث أهمية وأولوية هذه على تلك ، أو فيما يتعلق بمضامينها السياسية والفكرية والاجتماعية والعلمية ، التي تباينت هي الأخرى من فريق لآخر ، بحسب مرجعية أصحابها . وفي هذا السياق تعد قضايا : التراث ، الحرية والمساواة ، الأصالة والمعاصرة ، التجديد والإحياء ، الحداثة (التنوير) ، الوطنية والقومية ،الأكثر طرحا ومناقشة وسجالا لدى مفكري وقادة النهضة العربية الإسلامية ، الأوائل منهم والمتأخرين مع بعض الاختلاف بحكم عامل الزمن . وفي هذا العنصر سنبرز هذه القضايا بإيجاز ، حتى نستطيع أن نأخذ نظرة شاملة عن مجمل الأسئلة النهضوية ، التي طرحت في تلك الفترة الدقيقة من تاريخ البلاد العربية والإسلامية .

1- <u>قضية التراث</u> :

أثير جدل كبير حول الكلمة المناسبة للتعبير عن التراث، هل هو تراث عربي أم تراث إسلامي ، رغم أنه في حقيقة الأمر هو تراث عربي وإسلامي معا ، حيث لا يمكن الفصل بينهما ، فهو يشمل فترة ما قبل الإسلام وما بعده ، ويشترك فيه المسلمون وغير المسلمين ، لأنه لا يعني الدين الإسلامي ، وإن كان من أهم مقوماته ، وإنما القيم والمبادئ الإنسانية الكبرى ، التي تعد نتاجا للدين الإسلامي بشكل خاص وتفاعله مع الأحداث ، فضلا عن كون أن جانبا معتبرا منه مصدره

---

[1]- محمد عابد الجابري ، <u>إشكاليات الفكر العربي المعاصر</u> ، مرجع سابق ، ص ص 26 – 27 .

قيم عربية كانت سائدة قبل مجيء الإسلام (*)، الذي أتمها وأكد عليها ، كالمسؤولية الفردية ، التضامن الاجتماعي ونبذ الأنانية ، الحرية ، الشورى ، العدالة والمساواة ، تقديس العلم والعمل ...وغيرها من القيم والمبادئ الإنسانية التي يتضمنها التراث العربي الإسلامي، ويمكن أن تكون في صلب النهضة العربية الإسلامية ([1]) .

وغني عن التنويه، أن التراث العربي الإسلامي بمفهومه السابق، كان له وسط قادة النهضة أنصار وخصوم ؛ فأنصاره أرجعوا سبب التخلف في العالم العربي والإسلامي إلى عدم الالتزام به، وابتعاد حاضرهم عنه ، وأن السبيل الحقيقي إلى التقدم هو العودة إليه بطريق أو بآخر ([2]) .فرغم تقادمه ، إلا أنه بنظرهم لا يزال يحتفظ بأوجه مشرقة وعصور زاهرة ، ممكن استلهامها واستعادتها ([3]) . وضمن هذا الفريق أيضا ، يوجد من ذهب إلى أبعد من ذلك ، فدعا إلى استعادة التراث بكل تفاصيله ، حتى في جزئيات الحياة اليومية كالملبس وأسلوب المعاملات التجارية مثلا ، ومنه فإن الخلاص في نظر أولئك ، لن يكون إلا ببعث ذلك الماضي بأكمله من جديد ([4]) . ورغم التباين الواضح في نظرة الفريقين إلى التراث ، إلا أن الكثير من المفكرين خاصة المعاصرين جعلوهما في خانة واحدة ، فهناك من شكك في مصداقيتهم وإخلاصهم ، لشعار العودة إلى التراث الذي كانوا يرفعونه ، وأرجع العلة في ذلك إلى كونهم كانوا فقط يهدفون إلى طلب السند و الدعم لقضية ظرفية معاصرة فقط ، وليس : ((بهدف تأسيس الوعي بالنهضة بوصفها ميلادا جديدا وبناء مرجعيات ثقافية لقضاياها وطموحاتها)) ([5]) .

ومنهم من اعتبر تلك الدعوة ، بالنظرة :((اللاتاريخية للتراث)) ، التي تعد عندهم من أبرز مظاهر التخلف الفكري في البلاد العربية والإسلامية ، لأنها ترفض النظر إلى العصر بمنطقه

(*)– أهم تلك القيم التي كانت سائدة قبل مجيء الإسلام : الكرم ، الإباء والشمم ، الوفاء ، الحلم ، إغناء الحياة بالعمل الصالح ، الشرف ... الخ . ينظر عبد الله عبد الدائم ، المرجع السابق ، ص 183 وما بعدها .

([1])– ينظر عبد الله عبد الدائم ، المرجع نفسه ، ص 114 وما بعدها .

([2])– فؤاد زكريا : " التخلف الفكري وأبعاده الحضارية " ، مجلة الأصالة ، وزارة الشؤون الدينية والتعليم الأصلي ، الجزائر : عدد 1976م ، ص 79 .

([3])– محمد عابد الجابري : المشروع النهضوي العربي مراجعة نقدية ، مرجع سابق ، ص 67 .

([4])– عبد الله عبد الدائم ، المرجع نفسه، ص ص 79 – 80 .

([5]) – محمد عابد الجابري ، المرجع نفسه ، ص 67 .

الخاص و : ((تحاول أن تفكر فيه بمنطق أصبح في ذمة التاريخ ، مهما كان المجد الذي كان يتصف به عندئذ)) ، وهي بذلك ترتكب أخطاء فادحة في حق التراث ذاته . وعليه يضيف أصحاب هذا الرأي أن :((الخطأ لا يكمن في مجرد تمجيد التراث ، وإنما يكمن في طريقة التمجيد ذاتها ، فهو يقارن دائما بما أنجزه الغرب ، وكأن الشكل الوحيد الممكن للتقدم الثقافي هو ذلك الذي يوجد في الحضارة الغربية . كما أن التراث يصور كما لو كان قوة حية قادرة على حل جميع مشكلات العصر الحاضر بل أن المتحمسين يذهبون إلى حد القول أن أية هزيمة عسكرية تلحق بنا ، حتى في الميدان العسكري ، لابد أن تكون مرتبطة ، بصورة أو بأخرى بموقفنا من التراث))([1]) .

والحق أن منتقدي دعاة الرجوع إلى التراث وتوظيفه في النهضة ، يمكن أن نؤاخذهم برأينا كونهم لم يفرقوا بين أنصار التجديد في التراث من ناحية ، وأنصار الانغلاق من ناحية ثانية ، فلا شك أن نظرة الفئة الأولى كانت جد إيجابية للقضية ، فقد اتسمت آراء وأفكار الكثيرين منهم في ذلك ، بالموضوعية والعقلانية ، فمثلما لا يمكن أن يكون صالحا كله له ، لا يمكن أن يكون غير صالح في مجمله ، فحتى أوروبا ذاتها ، بنت نهضتها الأولى على التراث المتمثل في : الآداب والفنون والقيم الإغريقية واليونانية القديمة . وبالتالي فإن توظيف التراث، قد تكون له انعكاسات سلبية أو إيجابية، إذ يتوقف ذلك على الفهم الصحيح له لا غير.

2- قضية الحرية والمساواة :

تعد الحرية من بين أهم القضايا، التي حظيت باهتمام رواد النهضة ومفكريها ، فقد سمح الانفتاح على الدول المتحضرة ، والتقدم المطرد الذي حصل في وسائل الإنتاج، وكذا العلاقات الاجتماعية الجديدة ، إلى التعرف على الحريات باختلاف أنواعها ؛ الفردية التي تعنى بالشؤون الذاتية والشخصية ، والمدنية التي تهتم بتقدم الإنسان وتطوره ، والسياسية التي تنشغل بتوفير القوانين التي تحمي الحقوق العامة . ولا ريب أن كل ذلك كان مفقودا لدى الشعوب العربية والإسلامية ، التي كانت تحي خاصة في كنف الدولة العثمانية ، التي دأب حكامها على نعت كل حركة داعية إليها أو منادية بها، بالهرطقة أو غيرها من النعوت ، بتأييد من كبار رجال الإقطاع والرأسمال والدين . لكن دون أن يحد ذلك منها أو يمنعها من التطور ، فقد تزايدت أصوات المدافعين عنها بشكل خاص بعد نجاح الثورة الفرنسية ، منددة بالقوانين الجائرة

([1])- ينظر فؤاد زكريا ، المرجع السابق ، ص 76 وما بعدها .

والقيود المصطنعة ، وداعية إلى حق الإنسان بغض النظر عن مستواه، في التعبير عن حرية الرأي والاجتماع والسياسة .

وقد لعبت كتابات مفكري النهضة دورا كبيرا في : ((تعريف العقول على كيفية مواجهة استبداد الأنظمة الجائرة وتقليص القوانين التي تحد من حرية الإنسان وسعادته ، وبات المثقفون ... الذين تذوقوا طعم الحرية من خلال إطلاعهم على مختلف الدراسات القديمة والحديثة ، يؤكدون أن الحياة في دولة الظلم والاستعباد ، المفتقرة لبنود حقوق الإنسان ، هي موت وهلاك ، وأن الحرية التي يحميها قانون عادل تحقق العزة والكرامة)) . كما أشاروا : ((إلى أهمية التأمل بمعاني الحرية فألمحوا إلى مكانتها في العالم المتمدن ، مشيدين بالحرية التي كلما ازدادت دراسة وتفهما لواقع الحياة ، ازدهر الوطن وتحسن حال المواطن)) ([1]) .

اقتضت الدعوة إلى الحرية ، محاربة الاستبداد بكل أشكاله ، وإظهار مساوئه وشروره ([2]) ، وفي هذا الجانب يعد " عبد الرحمن الكواكبي " أبرز قادة النهضة ، الذين حللوا بدقة ظاهرة الفساد في كتابه " طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد " . فبين طبيعته ، ودوره في إفساد الدين والتربية والإدارة والاجتماع ، ووضع أسسا للمجتمع الحر الصالح ([3]) .

وفي هذا المقام أيضا، رد مفكرو النهضة على اتهامات المستشرقين في كتاباتهم ودراساتهم للإسلام ، بكونه دينا يقيد حرية الإنسان واختياره ، بالتأكيد على أن الإسلام يكفل حرية الاعتقاد وحق اختيار المذهب الذي يرغب فيه ، وحق نشر الدعوة من خلال الإقناع والمجادلة الحسنة ، وكل ذلك حسبهم كاف لنفي الجبرية والإكراه على الإيمان عنه ، على خلاف ما ذهبت إليه تلك الآراء والأفكار الإستشراقية ([4]) . وعلى ضوء ذلك يتجلى لنا، أن مطلب الحرية والمساواة في الفكر الإصلاحي العربي الإسلامي الحديث ، كان الغرض منه تمكين الأفراد والمجتمعات من حقوقها السياسية والثقافية والدينية والوطنية والقومية ، في مقابل القضاء على كل أنواع ومظاهر الاستبداد والتعسف اللذان أصبحا لا يتماشيان مع روح العصر .

([1])- ينظر منذر معاليقي ، المرجع السابق ، ص 195 وما بعدها .

([2])- على المحافظة ، المرجع السابق ، ص 171 وما بعدها .

([3])- ينظرعبد الرحمن الكواكبي : طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد ، مرجع سابق . وينظر أيضا علي المحافظة ، المرجع نفسه ، ص 171 وما بعدها .

([4])- ينظر منذر معاليقي ، المرجع نفسه، ص 195 وما بعدها .

3- الأصالة والمعاصرة :

ارتبط التاريخ العربي الإسلامي خلال القرنين الأخيرين، بالمواجهة التاريخية بين أصـــول الحضارة العربية والإسلامية التي استمرت حتى أوائل القرن 19م ، وبين الحضارة الغربية ، التي وفدت إلى المنطقة مع مطلع القرن نفسه مع التغلغل الغربي السياسي والاقتصـــادي والعســـكري . فحفزت تلك المواجهة السياسية والعسكرية المفكرين والقادة السياسيين العرب والمسلمين ، علـــى البحث عن مكامن القوة لدى الغرب بهدف نقلها ، وعن مواطن الضعف فيهم ، لأجل التخلي عنها .

لعب البون الشاسع في القوة العسكرية والسياسية الغربيـــة ، المدعمـــة بـــالتفوق العلمـــي والتنظيمي ، وواقع البلاد العربية والإسلامية المزري ، دورا في جعل ميزان التقدير يختل في أيدي أولئك المفكرين والقادة ، الذين وجدوا أنفسهم في حال من الاضطراب والتخبط الشديد ، في تحديد ما يتوجب أخذه عن الغرب ، وفي الحفاظ على ما يدافعون عنه من نظم وأفكار وأصول حضـــارية وعقائد . وقد تشاكل عليهم الأمر أكثر ، بعد الاحتلال العسكري لبلدانهم ، حيث اضطربت تمامـــا لديهم : ((معايير الانتقاء لما يفيد العرب والمسلمين من منجزات الغرب ، وشـــلت القـــدرة علـــى التمييز بين النافع وغير النافع ، وانطمست الفروق بين التجديد والتقليد ، وبين النهوض والتغيير ، وبين الإصلاح والاستبدال)) ، فكان السؤال الكبير الذي حير الأذهان، هو بماذا نأخذ وما ندع من الموروث الوافد ؟ ([1]) .

وبالرغم من التباين الذي ساد بينهم ، في قضية الأصالة والمعاصرة ، إلا أنهم ظلوا علـــى توافق بضرورة إعادة مجد الإسلام ، إما بالنهل من التراث الديني الإسلامي ، المتميز بقوته الخلاقة وبخصبه الثقافي ، أو عبر تقدم اجتماعي ومادي، يأخذ من الغرب أفضل ما وصل إليه من تقنيـــات ونماذج ثقافية ، فتستعيد الأمة ما فاتها وتنظم بأقل التكاليف إلى ركب الحضارة الحديثة ([2]) ، التـــي قطعت فيها الأمم الغربية أشواطا كبيرة ، شكلت تحديا كبيرا بالنسبة للعرب والمســـلمين ، بفعـــل شساعة الهوة الحضارية ، التي يمكن قياسها زمنيا بعدة قرون .

([1])- ينظر طارق البشرى ، المرجع السابق ، ص 7 وما بعدها .

([2])- علي مراد : الإسلام المعاصر ، مرجع سابق ، ص 32 وما بعدها .

4- قضية التجديد أو الإحياء :

تناول خطاب التجديد مسألة إصلاح التعليم الديني ، الذي يشكل قاعدة أساسية في الإصلاح الديني ؛ فالمؤسسة الدينية هي الوعاء الذي احتضن التقليد، الذي شمل بدوره جميع العلوم الشرعية ، مما أدى إلى استنفاذ قدراتها الإبداعية ، ومع مرور الزمن ، فقدت دورها الريادي وتحولت إلى منظومة هامشية ، وكأنها تعمل ضد روح العصر، حتى أضحت تمثل عائقا أمام مشروع التجديد . وانطلاقا من ذلك، سعى المجددون طيلة التاريخ الإسلامي، إلى إحياء الدين أو تطهيره مما علق به من عوالق ليست منه، وتقديمه في شكله الأصيل النقي الناصع.

ولكن المعنى الأقرب إلى التجديد هو الإحياء ؛ إحياء الدين معناه تجديده في النفوس ، حتى يتسنى لها العمل به ، مثلما فهمه وطبقه الأسلاف ، ولقد أدرك المجددون حساسية الموضوع منذ البداية ، فمن ناحية سيصطدمون مع أنصار التقليد من المسلمين ، الذين سينكرون عليهم جرأتهم في طلب التجديد والدعوة إليه ، ومن ناحية أخرى سيجدون أنفسهم يسايرون طروحات بعض المستشرقين، التي ما انفكت تؤكد على جمود الإسلام وعدم قابليته للتجديد والتطور ،- إن هم خسروا الرهان الأول- .

وبالرغم من هذه الوضعية الحساسة و المعقدة ، دافع قادة التجديد عن موقفهم من القضية ، مؤكدين أن : ((التجديد ممكن في الإسلام بل ومطلوب وضروري في بعض أصوله)) . ولم يكتف بعضهم بذلك ، بل طرح : ((فلسفة للتجديد تحتاجها الإنسانية بمجملها))، لكي تستطيع التخلص من الأزمة الروحية العميقة التي تحياها، على حد ما ذهب إليه أولئك المجددون ([1]) .

وكان من الطبيعي، أن يتعرض الخطاب التجديدي ، إلى التشكيك فيه، والخشية من نتائجه واتهام متزعميه ، فاحتاج إلى مدة معتبرة من الزمن ، ليصبح مقبولا ومألوفا ، ثم مطلبا ضروريا لا غنى عنه . خاصة بعد أن ظهر من المجددين ،من اتكأ على التراث بكل ثقله، ليمنح الشرعية لخطابه ، ثم ينقل تلك الشرعية إلى الواقع المعاش وما يقتضيه ، فتكون بذلك الحاجة له مثلما كانت الحاجة إليه ، مع الاختلاف فقط في الزمن ([2]) .

([1])- ينظر أنور أبوطة وآخرون ، المرجع السابق ، ص 10 وما بعدها .

([2])- المرجع نفسه ، ص 33 وما بعدها .

5- الحداثة (التنوير) :

كما سبق وأن أشرنا إليه ، أن المشروع النهضوي في البلاد العربية والإسلامية ، لم يتبلور إلا بعد الحملة النابوليونية(نابوليون بونابرت) على مصر ، التي حملت معها شعار الحداثة الأوروبية، التي قامت أصلا على ثلاثة دعائم هي : القوة ، المنافسة ، المعرفة . وهي الدعائم التي مثلت بالنسبة للعرب والمسلمين خلال القرن التاسع وأوائل القرن العشرين ؛ التوسع الإستعماري والتنافس الأوروبي والفكر التحديثي، ومن هذا المنظور شكلت الحداثة الأوروبية لديهم ، مشروعا للهيمنة والتقدم في آن واحد . فقد كشفت الأحداث، أن تلك الدول التي بشرت بالحرية والتقدم والسلام والرخاء لأوروبا والعالم بأسره ، كانت تخفي وراء كل ذلك شيئا آخر هو الاستعمار ، الذي ضربت من خلاله بجميع القيم الإنسانية ، فأخضعت لسيطرتها شعوبا بالحديد والنار ، وقامت بسلب ونهب مقدراتها الاقتصادية والبشرية والثقافية، ونقلتها إلى أوطانها . وقد تحول التنافس بين تلك الدول حول السيطرة والهيمنة والنفوذ ، إلى نشوب حربين عالميتين مدمرتين ، تلتها حرب باردة بين الشرق والغرب ([1]) .وغني في هذا المقام ، أن نذكر التجربة التحديثية المصرية التي قادها " محمد علي باشا "(1769م-1849م) ، حيث أن الدول الغربية آنذاك هي التي أجهضتها ، لما رأت أن نجاح المشروع يمثل تهديدا حقيقيا لمصالحها الإستعمارية في المنطقة ، وانتهى الأمر بمصر إلى وقوعها سنة 1882م، في قبضة الاحتلال البريطاني ، حدث كل ذلك رغم تجذر ونضج الفكر الحداثي بين أوساط النخبة المصرية ([2]) .

ولقد وجدت أفكار الحداثة الأوروبية ، قبولا كبيرا لدى الفئة المثقفة، التي بالغت في الدعوة إلى تقليد أوروبا ، لقناعتها:((أن الغرب على صواب))، ولضعف قدرتها على التفريق بين ما هو إنساني في إنجازات الحضارة الغربية، وما هو خاص وطارئ . وبرأي الدكتور " جلال أمين " ([3]) أنها لا تمثل الحداثة وإنما البوابة التي دخلت عبرها إلى الفكر التغريبي إلى المنطقة ، والتي كادت

([1])- ينظر محمد عابد الجابري : المشروع النهضوي العربي مراجعة نقدية ، مرجع سابق ، ص ص 8 – 20.

([2])- ينظر علي المحجوبي ، المرجع السابق ، ص 28 .

([3])- ينظر جلال أمين ، المرجع السابق ، ص 21 وما بعدها .

أن تقتلع كل شيء على حد تعبيره ؛ فبات في اعتقاد الجميع أنه لا سبيل لنهضة الأدب والفنون والتعليم ، والاقتصاد والمرأة والمجتمع والعمران ...إلخ ، إلا باقتفاء أثر الغرب في كل ذلك .

واستنادا على ذلك ، فقد فشل الفكر الحداثي، في تحقيق أهدافه النهضوية ، ومني بالانتكاسة بسبب مبالغة أصحابه في الثقة إزاء شعارات الحداثة الأوروبية ، التي لم تكن في حقيقة الأمر ، سوى قناعا لمنع قيام النهضة المنشودة ، وفرض الهيمنة السياسية والعسكرية والاقتصادية والثقافية والحضارية ، وهو ما حدث في أرض الواقع .

6- <u>الوطنية والقومية</u> :

شكلت مصر النواة الأولى لظهور الأفكار الوطنية والقومية ، ومنها انتقلت إلى أدبيات كتاب ومفكري النهضة العربية والإسلامية الحديثة ، الذين يمكن تقسيمهم إلى اتجاهين رئيسين في هذا الصدد : الاتجاه الأول جمع بين التيار الوطني والرابطة الدينية، حيث جعل منهما قضية واحدة مع الجامعة العثمانية . ويمكن أن ندرج ضمنه " مصطفى كامل " ، الذي رأى ان الدين لا ينافي الوطنية بل يحث عليها ، فكلاهما ملازم للآخر برأيه ، كما أبدى رفضه ومعارضته للتعصب والتصورات الضيقة ، سواء كان تعصبا دينيا أو مذهبيا ، معتبرا إياهما عملا صنعته دول استعمارية تسعى إلى زرع الخصومات والبغضاء ، بين أبناء الطوائف والمذاهب . والحل الذي اقترحه لمعالجة ذلك، هو وحدة دينية تنصهر في وطنية حقيقية ([1]) .

أما الاتجاه الثاني؛ فهو الاتجاه الوطني غير الديني ، الذي تأثر قادته بالفكر الأوروبي ، فرأوا أن أوروبا لم تتمكن من بلوغ أعلى درجات التقدم التي بلغتها ، إلا بفضل إعراضها عن الرابطة الدينية وتمسكها بالرابطة الدينية ، وأن الدولة العثمانية وظفت الرابطة الدينية التي تجمعها مع بقية الشعوب المنضوية تحت مظلتها ، لضرب الحركات الوطنية وتكريس سياستها العنصرية المتحيزة. ويعد "رفاعة رافع الطهطاوي" (1801م – 1873م) أبرز دعاة هذا الاتجاه ، فقد دعا إلى إدخال العلوم العصرية في مصر ، وإلى الوطنية الخالصة المجردة من التعصب الديني والمذهبي ، ورفض استخدام الدين كوسيلة لتحقيق المصالح الشخصية والسياسية الضيقة . لكن كلا

([1])- ينظر منذر معاليقي ، المرجع السابق ، ص ص 160 -165 .

الاتجاهين سرعان ما ، تدحرجا في أفكارهما نحو النزعة الإقليمية الضيقة والمتعصبة ([1]) ، فظهرت الدعوة الفرعونية والقبطية (*) في مصر ، والبربرية في المغرب العربي .

هذا وقد أفردنا هذا المبحث ، حتى نحيط بمفهوم النهضة العربية والإسلامية ، ونستوعب مضامينها الفكرية والسياسية والثقافية والحضارية العديدة ، التي ركزنا على أهمها فقط ، ولا شك أن الشيخ البشير الإبراهيمي و الأمير شكيب ارسلان ، اللذان يعدان من أبرز قادتها ؛ قد تميزا برؤيتهما الخاصة ، لما ينبغي للعرب والمسلمين: قادة وحكامها مثقفين ومفكرين علماء ومصلحين وشعوبا ، أن يقوموا به ، لكي يخرجوا من دائرة التخلف والانحطاط الشامل ، الذي كانوا يعيشونه منذ عدة قرون ، دون أن تظهر حركات أو مبادرات جدية ، في سبيل ذلك . ونسري ما إذا كانت تصوراتهما وأفكارهما ، متقاربة مع تصورات وأفكار قادة النهضة الأوائل من أمثال " الأفغاني" و"عبده" و"رشيد رضا" و"الكواكبي" ، ولذلك جاء المبحثان المواليان بعنوان : " شروط نهضة العرب والمسلمين في عند الإبراهيمي و ارسلان " .

([1])- ينظر منذر معاليقي ، المرجع السابق ، ص 165 وما بعدها .

(*)- بدأت النزعة القبطية في مصر ، بتأسيس " جمعية الإصلاح القبطية " بالقاهرة سنة 1908م ، بغرض توطيد أواصر المحبة بين مختلف العناصر التي تتكون منها الأمة المصرية ، فضلا عن الدفاع عن حقوق الطائفة القبطية ، وتنمية المشاعر الدينية لدى أفرادها ، وإزالة الفوارق بينها وبين المسلمين ، ومن أشهر قادتها " آخنوخ فانوس " . ينظر علي المحافظة ، المرجع السابق ، ص 182 .

المبحث الثاني : شروط نهضة العرب والمسلمين عند الإبراهيمي

رأينا في الفصل السابق ، أن أسباب تخلف الشعوب العربية و الإسلامية في تحليل الشيخ البشير الإبراهيمي عديدة و متشعبة ؛ صنفها إلى خمسة أسباب أساسية هي : فساد علماء الدين و انحرافهم ، تعطيل العمل بالدين الإسلامي ، الحجر على الإجتهاد و النزوع إلى النقل و التقليد ، فساد الأخلاق و وهن العزائم ، و أخيرا الإستعمار الروحي أو العقلي الذي يعني الغزو الثقافي الفكري . و قد إنضوت تحتها أسباب أخرى ثانوية أو فرعية ، إستعرضناها ضمنيا بالشرح و التحليل و التقييم . و هي لا شك تمثل مسحا شاملا ؛ للأوضاع الدينية و العلمية و الأخلاقية، و النفسية و الذهنية و الثقافية و الفكرية ، التي وقف عليها الشيخ البشير و الأمير شكيب بنفسيهما .

ية و الأخلاقية، و النفسية و الذهنية و الثقافية و الفكرية ، التي وقف عليها الشيخ البشير و الأمير شكيب بنفسيهما .

و كما سبقت الإشارة إليه في بداية هذا الفصل ، أن الإبراهيمي بمعية أرسلان بطبيعة الحال ، لم يفقدا الأمل في الإصلاح و لتحقيق النهوض الحضاري ، ليس لأنه ممن يتفاءلون لمجرد التفاؤل ، و إن لكونه كان يرى أن الأمة بالرغم من كل شيء، ما زالت تحتفظ ببعض عناصر القوة التي لم يقضي عليها ذلك الواقع المزري الذي كانت تحياه ، و يجب تثمينها و تفعيلها بوعي و تدبر، تماما مثلما فعل العرب الأوائل الذين إستطاعوا بفضل إندماجهم السريع في الدين الجديد ، أن يتحولوا من قبائل تعيش على هامش التاريخ في مجاهل الصحراء العربية الكبرى، إلى أمة تبدع و تنتج و تساهم بفعالية في الفعل الحضاري و العلاقات الدولية . أو إقتداء بالنماذج الحديثة ، و على رأسها النموذجان الأوروبي و الياباني .

و منه فقد حصر الإبراهيمي، تحقيق النهضة و الإقلاع الحضاري لدى العرب و المسلمين، في أربعة شروط رئيسية هي : إصلاح علماء الدين بإعتبارهم القادة الروحيين للأمة و الورثة الطبيعيين لمقام النبوة ، إحياء الدين الإسلامي الذي كان سببا في نقل العرب الأوائل من طور البداوة إلى طور التمدن و التقدم ، تفعيل دور المثقفين الذين لا يمكن للأمة أن تستغني عنهم لكونهم القادة و الحراس المؤتمنون على كل شيء في حياتها ، و أخيرا التصدي

للتبشير المسيحي الغربي الذي إستفحل و تعاظم أمره في غفلة أو تخاذل من الجميع . كل هاتـــه النقاط سنتناولها بالتفصيل فيما يلي :

01 – إصلاح علماء الدين :

العالم الديني في مفهوم الشيخ البشير الإبراهيمي ؛ هو قائد مجال عمله الأنفس ، و وسيلته في ذلك الكتاب و السنة ، و تفسيرهما العملي مما كان يصدر عن الرسول " ص " و أصحابه من أفعال . و يضيف إلى ذلك أنه لا توجد في الإسلام وظيفة أشرف قدرا ، و أسمى منزلة و أثقل تبعة ، و أوثق عهدا و أعظم أجرا عند الله ، من وظيفة العالم الديني . و السبب في ذلك كون ان العالم الديني ، هو وارث مقام النبوة ، الذي من أهم تكاليفه ، الدعوة إلى الله و توجيه الناس إليه ، و تربيتهم و تعليمهم و تعويدهم ، على فهم الحق و تقبله ليعملون به ولـه أما العامل الأساسي ، الذي يجعله يحقق النجاح في مهمته السامية هاته ، هو أن يترفع عن مطامحه الشخصية ، و يوجه جل إهتماماته و إنشغالاته إلى خدمة الدين ، و بما أنه وارث النبوة ، فينبغي عليه أن يعلم الناس حقائق دينهم ، و يقول الحق بلسانه و بجوارحه ، و أن يدافع عنه بكل قوة إذا جانبه الناس ، و أن يجاهد في سبيله بلك بما أوتي من قوة ([1]) .

من هذا التعريف يظهر لنا بوضوح ، أن الشيخ البشير الإبراهيمي ، يعتبر علماء الدين قادة روحيين للأمة و ورثة طبيعيين للأنبياء ، و يجعل من دورهم في المجتمع، الأكثر أهمية من دور أي فئة إجتماعية أخرى ، حيث يتولون مهمة الدعوة و التوجيه و التعليم و التربية، و الدفاع عن الحقوق ، و نجاحهم في ذلك ربطه الإبراهيمي بجملة من الصفات الشخصية التي ينبغي لهم أن يتصفوا بها ، حصرها في نبذ الذات ، و التفرغ الكامل للمهمة المنوطة بهم ، بالإضافة إلى الشجاعة و الجرأة اللازمين ، حتى يتسنى لهم توصيل الحقائق الدينية و الذود ، عنها مهما صادفوا في سبيل ذلك من صعاب و عقبات ، و هي صفات لا شك أنها ، إذا توفرت في عالم ديني ، ستؤهله لأن يكون قائدا روحيا لأمته و مجتمعه . و يبدوا جليا أنه يقدم القائد الروحي على القائد السياسي ، بل يجعل هذا الأخير تحت سلطة الأول .

و هو بذلك ، يثير قضية شكلت و لا تزال جدلا و تجاذبا كبيرين في البلدان العربية و الإسلامية ، و هي مسالة السلطة السياسية و السلطة الدينية ، و مفادها وجود تيار يدعوا إلى الفصل بينهما ، عملا بالمنهج الغربي في هذا الاتجاه ، و حجته في ذلك أن زعامة الرسول "ص" كانت موقوتة بالرسالة ، يعني انتقاء السلطة أو الزعامة الدينية بوفاته . أما التيار المضاد ،

([1])– محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 4 ، مصدر سابق ، ص ص 109 – 110 .

فيرى العكس ، على أساس أن الإسلام بحسبه ليس دينا موجها للفرد فقط و إنما للجماعة ، و بالتالي لا يمكن فصله عن الدولة ([1]) .

و بعد تحديده لمفهوم العالم الديني ، ينتقل إلى الحديث إلى الوسائل التي تمكنه من النجاح في قيادة الأمة ، فيذكر أن أهم وسيلة ، هي أن يبدأ بنفسه فيما يتعلق بالأمر بالمعروف و النهي عن المنكر ، إذ لا يجوز له أن يأمر أفراد المجتمع ، بشيء مما جاء في الكتاب و السنة ، إلا إذا كان هو من يفعله أولا . كما لا ينهى عن شيء ، إلا إذا كان هو أول تارك له ، حتى يجعل لنفسه قدوة لغيره ، يأخذون عنه أكثر مما يأخذون عنهم ، من خلال الأقوال المجردة و النصوص الجوفاء ، فهي تذكر الناسي و تنبه الخال و توقظه ، و تعلم الجاهل و تحرك الجامد و تدل الضال . في حين أن هداية الناس بشكل يشبه الإلزام ، فيكمن في التفسيرات العملية ، التي كان الرسول " ص " يوظفها في تربية أصحابه ، حيث كان يعلمهم بأعماله ، أكثر مما يعلمهم بأقواله ، إدراكا منه للتأثير الكبير و للتربية العملية في النفوس ، و للانجذاب الفطري للناس نحو الإقتداء ، على حساب الأقوال و الموعظة . و في هذا الإطار ، يعتبر الشيخ الإبراهيمي صلح الحديبية (*) أحسن مثال على ذلك ، فقد أمرهم الرسول " ص "

([1])- ينظر طارق البشري ، المرجع لسابق ، ص 26 و ما بعدها . و ينظر أيضا محمد الحسين ، المرجع السابق ، ص 18 و ما بعدها . و ينظر أيضا محمد عروة : <u>الإسلام في مفترق الطرق</u> ، ترجمة عثمان أمين ، د ط ، ش و ن ت ، الجزائر : 1981م ، ص 108 و ما بعدها .

(*) – الحديبية : واد قريب من مكة ، إشتهر بالبيعة التي حدثت فيه ، و بالصلح الذي أبرم بين الرسول " ص " و قريش في 06 هجرية سنة 627م . و أصل القضية أن محمد " ص " ، أعلن عزمه على دخول مكة لأداء مناسك الحج ، فقصدها رفقة سبعمائة صحابي من المهاجرين الأنصار مجردين من أسلحتهم ، و لما سمعت قريش بالأمر ، أعلنت أنها لن تسمح بذلك ، و خرجت لقتال المسلمين و الفتك بهم ، و لما كان الرسول " ص " لا يرغب في القتال ، فقد آثر الصلح و قبل بشروط قريش ، رغم تذمر أصحابه ، و من أهم بنود الإتفاقية :

- وقف الحرب و النشاطات العدوانية بين المسلمين و قريش طيلة عشر سنوات .
- من جاء المسلمين من قريش دون إذن سيده أو ولي أمره يرده المسلمون إلى مكة ، أما من جاء قريشا من المسلمين فلا نرده أبدا .
- من أراد أن يدخل في تحالف مع المسلمين أو قريش ، من قبائل العرب فله الخيار .
- أن يرجع المسلمون من غير عمرة ذلك العام ، ثم يأتون في العام القادم ، فيدخلون مكة بعد أن تخرج منها

في البداية فترددوا ، رغم عملهم أنه رسول الله و أنه لا ينطق عن الهوى ، لكنهم سارعوا على إتباعه ، بمجرد أنه بادر إلى العمل ([1]) .

و بالطبع فإن ما قام به الرسول " ص " في الحديبية ، يعد سلوكا تربويا على قدر كبير من الأهمية ، و هو ليس الوحيد ، إذ أن الرسول " ص " كان شديد الحرص على تعليم أصحابه وعامة المسلمين دينهم، من خلال أفعاله و سلوكاته و سيرته ، فيستجيبون لذلك بسرعة بالمقارنة مع الأقوال و هو ما أصبحت تعتمد عليه المناهج التربوية الحديثة ، التي توصلت إلى أن المتلقي أو المتعلم ، يستجيب أكثر للمعلم أو الأستاذ الذي يعمل، أكثر مما يقول و يطبق أكثر مما ينظر ([2]) .

و تبعا لما سبق فإن المنهج التربوي النبوي ، هو الكفيل بنجاح العالم الديني في وظيفته المتمثلة في : ((الدعوة إلى الله و الإيمان بالرسل و الإقتداء بهم ، و إقتداء نهجهم في إقامة الدين الحق ، وإتباع أوامر الخالق و إجتناب نواهيه ، و تربية الخلق و تنظيم حياة المجتمعات ، و توطيد التعامل الإيجابي مع مقتضيات الأحوال المتغيرة التي تطرأ على الحياة الإجتماعية في مستوياتها المختلفة)) . أما الهدف المتوخى من إقتفاء أثر الرسل و السير على نهجهم هو : ((الإرتقاء بالوجود الإنساني و تحقيق الكمال الخلقي في المجتمع الذي هو غاية الدين ، و جوهر الإيمان ، وهو المقصد الأسمى من التربية التي هي وظيفة الرسل ، و محتوى الرسالات السماوية التي جاءت لهداية البشر عن طريق إذكاء وعيهم ، و لتحريرهم من ضعفهم و جهلهم ،و أوهامهم و سيطرة غرائزهم ، و تخليصهم من النوازع التي تميل بهم عن الحق و الخير و العدل ، و تدفعهم إلى ما يضاد إنسانيتهم ، و يحط من كرامتهم)) ([3]) .

قريش ، و يقيمون بها ثلاثة أيام ليس معهم سلاح إلا السيف في القراب و القوس . سيد أمير علي : روح الإسلام ، ترجمة عمر الديراوي ، ط 6 ، دار العلم للملايين ، بيروت : 1980م ، ص ص 103 – 104 .

([1])- محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 4 ، مصدر سابق ، ص ص 109 – 110 .

([2])- ينظر محمد بن سمينة : " المشروع التربوي الباديس مرام و مرتكزات " ، مجلة الشهاب الجديد ، مؤسسة الشيخ عبد الحميد بن باديس ، الجزائر : العدد 3 / أفريل 2004م ، ص 50 و ما بعدها . و ينظر أيضا عبد الرحمان طالب : " حسن استغلال الأحداث البشرية و الكونية لفائدة التربية " ، مجلة الدراسات الإسلامية ، المجلس الإسلامي الأعلى ، الجزائر : العدد 01 / جوان 2002م ، ص 17 و ما بعدها

([3])- عبد الرحمان طالب ، المرجع نفسه ، ص 36 .

إن العالم الديني بحسب الشيخ البشير الإبراهيمي ، هو الشخص الوحيد المؤهل لقيادة الأمة الإسلامية ، و المكلف دون غيره بخدمتها ، في كل ما يتصل بحياتها و مصيرها و مستقبلها ، و هي وظيفته الأصلية ، فرضها عليه الدين الإسلامي ، و ارتضاها له العقل و أوجبتها عليه مصلحة المسلمين ([1]) . و إذا كان العلماء المتأخرون برأي الإبراهيمي ، قد أضاعوا قيادتهم للأمة كما مر بنا في السابق ، فإن العلماء الأوائل كانوا على النقيض من ذلك ، حيث كان سلطتهم نافذة على الخلفاء ، و كانوا المرجع الأول و الأخير في الشؤون الدينية و الدنيوية للأمة ، يتصدون بألسنتهم نقدا و تجريحا ، لكل من انحرف عن جادة الصواب ، مهما كانت المكانة الاجتماعية و السياسية التي يتبوأها ، والسر في ذلك يكمن في كونهم ، يستمدون ذلك السلطان ، من روحانية الدين الإسلامي و سهولة مدخله على النفوس ، تخضع له مختلف الفئات الإجتماعية بشكل طوعي و تلقائي ، خصوصا فطريا صادقا لا تكلف فيه ، لإحساسها بأنهم المرجع في التعريف بالدين ، و بأنهم المعتبر عن حقائقه و الموضع لشرائعه ، و بأنهم الحراس الذين اؤتمنوا على بقائه ، و بأنهم الورثة الحقيقيون للرسالة النبوية ، فكانوا بذلك يجمعون ، بين وظيفة التبيين في الجوانب التعبدية و بين وظيفة التقنيين في المعاملات ، في حين كان الخلفاء يكتفون فقط ، بتنفيذ ما يراه العلماء من مصلحة ، فيما يتصل بالمعاملات في شقها الفردي أو الإجتماعي .

و ذهب الشيخ الإبراهيمي ، إلى أن هذا السلطان الذي كان لعلماء الدين الأوائل ، هو الذي كان يرهب حتى الخلفاء الذين إشتهروا بالقوة و السطوة و الإستبداد بالرأي ، بدءا "بمعاوية بن أبي سفيان" (*) و غيره ، حيث لم يمنعهم ذلك من إدراك قيمة علماء الدين و قوة سلطانهم ، فلم يديروا ظهرهم لهم و لم يقطعوا الصلة بهم ، بل سعوا إلى التقرب منهم كسبا لودهم . لأنهم رأوا فيهم سلطانا أقوى من سلطانهم ، فعملوا على إضعافهم بإظهار احترامهم المتصنع وودهم

([1])- محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 2 ، مصدر سابق ، ص 308 .

(*) - " معاوية بن أبي سفيان ": مؤسس السلالة الأموية ، عمل واليا على سورية خلال خلافة " عمر ابن الخطاب " و " عثمان بن عفان " ، عارض الخليفة " علي بن أبي طالب " و قاتله في موقعه " صفين " سنة 37 هـ /657 م . أصبح خليفة سنة 41 هجرية / 661م ، نقل عاصمة الدولة الإسلامية إلى دمشق ، إشتهر بدهائه السياسي توفي سنة 60 هـ / 680م. ينظرعلي بن الحسين المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر

المزيف تارة ، و بالنبذ و التهجم و التجني تارة أخرى . فمـا فمعاويـة لمـا بـايع لابنـه " يزيد " (*) ، و حمل الأمة على البيعة له بالترهيب و الترغيب ، و قد كان لـه ذلـك ، كـان يشعر أنها بيعة لا معنى لها ، إذا لم يبايع كبار الصحابة ، لمنزلتهم الدينية و العلمية ، و منهم " الحسن بن علي " (**) ، فسعى على تحقيقها بالحيلة الممزوجة بالقوة و الشدة ، و الأمر ذاتـه كان يلجأ إليه بنو مروان ، كلما تخلف " سعيد بن المسيب (***) أحد فقهاء المدينة السبعة عن مبايعتهم ، و قد سار على هذا النهج الخلفاء الذين جاؤوا من بعدهم في قضية البيعة ، كلما اشتد سلطان العلماء و نفوذهم لدى العامة ، إلى أن انتقل أمرها إلى طور آخر ، فخرجت من أيـدي العلماء ، و الخلفاء معا و أضحت في أيدي الأمراء والقواد والجنود .

، ج 3 ، مرجع سابق .

(*) – " يزيد بن معاوية بن أبي سفيان " : ولد سنة 25 هجرية / 654م ، هو الخليفة الأموي الثاني بعد أبيـه " معاوية " ، أمه " ميسون " ، في عهده قتل الحسين بن علي في كربلاء 61 هجرية680 م ، ثار عليه عبد الله بن الزبير في الحجاز ، و قد ذكر المسعودي بأنه إشتهر بإقباله على اللهو و الطرب و المنادمة على الخمـر ، و بالجور و الظلم و الفسق و الفجور و سفك الدماء ، كمـا أنـه قـام بتهـديم الكعبـة و إحراقهـا ، تـوفي سنة 64 هجرية / 683م . ينظر المسعودي ، المرجع نفسه ، ص 77 و ما بعدها .

(**) – " الحسن بن علي " : (3 – 5 هجرية / 624م – 670م) : بكر إبنا علي بن أبي طالـب و فاطمـة الزهراء بن الرسول "ص " ، بويع له بالخلافة بعد مقتل أبيه ، فاختار عدم القتال و تلرك الخلافة ، مات فـي المدينة . المنجد في اللغة و الأعلام .

(***) – " سعيد بن المسيب " (09 هجرية / 712 م) : كان من كبار التابعين من الطراز الأول ، قرشـي من بني مخزوم ، جمع إلى شرف نسبه علم الحديث و الفقه و الزهد و العبادة ، حتى قال فيه عبد الله بن عمر : لو رأى الرسول "ص " هذا لسره . لما أراد عبد المالك بن مروان ، أن يبايع لإبنه الوليد سنة 85 هجريـة ، خطب له إبنة سعيد إبن المسيب ، لما كان له من المنزلة بين الناس ، فيكون هذا الزواج وسيلة لترغيبهم فـي إبنه ، لكن سعيدا رفض الأمر ، و آثر عليه صديقه الفقير التقي " أبو وداعة " ، الأمر الذي اغضب عبد الملك و عزم على الإنتقام ، فخيره بين مبايعة ابنه الوليد أو قطع راسه ، و لما رفض ضربه ضربا مبرحا يوم بارد ، و صب عليه الماء البارد ، و أطاف به و هو شبه عار ثم سحبه . و لما أطلق سراحه ، منـع النـاس مـن مجالسته ، و بقي مصرا على موقفه ذاك غير مبال بتهديدات عبد المالك ، مغاضـبا لبنـي مـروان رافضـا لعطاياهم حتى وفاته قائلا : ((لا حاجة لي فيها و لا في بني مروان حتى القى الله فيحكم بيني و بيـنهم)) .

و مع ذلك بقي العلماء منحازين إلى الحق ، متولين زمام القيادة الحقيقية للأمة ، متجنبين الإغراءات المادية الزائدة ، يقظين متأهبين للتعامل مع كل الأحداث التي تطرأ على الدين ، فكانوا كلما رأوا شبح بدعة يلوح في الأفق ، سارعوا إلى التصدي له بإزالتها . و كلما شعروا بضلالة و منكر دخلا إلى الدين ، بادروا إلى تغييرهما فعلا و قولا ، ينزلون الصغائر منزلة الكبائر احتياطا ، لا يتساهلون و لا يفرطون في الترخيص سدا لباب الفتنة و الظلال ، مرجعهم الكتاب و السنة في كل أعمالهم ، فلا يصدرون إلا على الدليل الذي لا يخطئ ، و لا يعتمدون إلا على الحجة التي لا غبار عليها ، ترجع إليهم الأمة في كل شؤونها ، فتجد فيهم وحدة دينية متماسكة ، لا تتفرق بها السبل و لا تتشعب فيها الآراء ([1]) .

و بما أن الشيخ الإبراهيمي ، قد ركز بشكل خاص على العهد الأموي، في حديثه عن العلاقة التي كانت بين علماء الدين و السلطة السياسية آنذاك ، و التي قال فيها أن أولئك العلماء كانوا هم القادة الحقيقيين للأمة، سلطتهم تعلو فوق سلطة الخلفاء ، ليس لأن هؤلاء الأخيرين يقدرون العلم و العلماء ، و إنما خوفا من تأثيرهم على العامة التي تنقاد لهم بكل سهولة، تقديرا لمنزلتهم العلمية و الدينية الرفيعة . فإنه يجدر بنا التذكير بأن الخلفاء الأمويين ، ظلوا ينتهجون هاته السياسة منذ تأسيس دولتهم و إلى غاية سقوطها ، حيث مزجوا بين السعي لإسترضاء العلماء و تقريبهم و إكرامهم ،و بين الضغط عليهم و تهديدهم و محاصرتهم، و تضييق الخناق عليهم، مثلما مر بنا مع " إبن المسيب " ([2]) .

و بالرغم من كل ذلك ، فإن العهد الأموي يعد أفضل العهود في هذا الإطار ، إذ لم يمنع التهديد و التخويف العلماء و منهم على نحو خاص الفقهاء ، من ممارسة دورهم القيادي في الأمة . و قد استمر هذا الوضع في العصور التالية و لكن بصورة أقل ، إلى أن جاءت عصور الانحطاط التي لم يعد فيها لهاته الفئة المكانة السالفة الذكر .

و قد أدوا ذلك الدور على أكمل وجه ، رغم الأخطار الحقيقية التي كانت تحيط بهم ،

عبد المتعال الصعيدي : القضايا الكبرى في الإسلام ، د ط ، دار شريفة للنشر و التوزيع ، الجزائر : د ت ، ص 214 و ما بعدها .

([1])- محمد البشير الإبراهيمي : الاثار ، ج 3 ، مصدر سابق ، ص ص 308 – 309 .

([2])- ينظر أكرم ضياء العمري ، المرجع السابق .

جراء مراقبتهم الشديدة للحكام ، فظلوا يتصدون بدون تساهل أو تقاعس، لكل ما يرتكبونه من أخطاء ، أو يمارسونه من ظلم و تعسف و استبداد ، و لا يترددون في معارضتهم ، إذا خالفوا صراحة تعاليم الدين ، أو في حق من حقوق الله ، التي تستوجب غضبه و سخطه على المعتدي عليه ، و قد بين الإبراهيمي هذه الحقيقة بقوله : ((و كانوا ملوكا على الملوك ، واقفين لهم بالمرصاد ، لا يقرونهم على باطل و لا منكر و لا يسكتون لهم على مخالفة صريحة للدين ، و لا يتساهلون معهم في حق الله ، و لا يرتضونهم فيما يسخط الله)) .

و من جانب آخر ، ذكر الإبراهيمي أن حضورهم كان قويا في مجالس الرأي ، يجهرون فيها بآرائهم و مواقفهم ، شهودا على كل ما يدور فيها و ما يصدر عنها ، لا يتأخرون عن تلبية نداء الجهاد ، فتجدهم في الصفوف الأولى للجيوش الإسلامية ، لما يتمتعون به من شجاعة طبعها الإسلام في نفوسهم ؛ سواء تعلق الأمر بالشجاعة ، التي تدفعهم إلى الإفصاح عن آرائهم بدون وجل أو خوف من أحد ، فيفحمون الآراء الأخرى التي لا تستند الى دليل قوي أو حجة دامعة . أو الشجاعة في خوض القتال ضد الأعداء فيقهرونهم ، و هنا إعتبر الشيخ الإبراهيمي مناقشة الآراء إقتتالا ، لا يفوز فيه إلا الشجاع المتمكن ذو القوة و السطوة ، و الأمر ذاته بالنسبة للحروب ؛ لأن العالم الذي يجبن عن الإفصاح عن رأيه الصائب، و فرضه على الآراء الأخرى بالإقتناع ، أو يخشى القتال و يفر منه ، هو بمثابة عضو مشلول في جسد الأمة في تقديره ([1]) .

و بناءا عليه نستخلص أن الإبراهيمي ، يضع جملة من الشروط الواجب توفرها لإصلاح علماء الدين المتأخرين ، حتى يتمكنوا من إستعادة مهمتهم في إستخلاف مقام النبوة ، و الإبقاء على زمام قيادة المجتمع في أيديهم ، كما فعل أسلافهم الأوائل . فقد تحولوا إلى علماء منقادين راضين بالدور الهزيل ، الذي يمليه عليهم الحكام المستبدون ، و تفرضه عليهم مصالحهم الشخصية ، و النتيجة أنهم فقدوا احترام و تقدير العامة ، التي لم تعد تجد فيهم المرجعية الدينية المفقودة ، و هذه الشروط هي :

01 – إدراكهم لحقيقة الرسالة ، التي أوكلت لهم مهمة تأديتها دون غيرهم من العلماء ، و التي تتمثل في خلافة النبوة و قيادة المجتمع .

([1])– محمد البشير الإبراهيمي : الآثار، ج 3 ، مصدر سابق ، ص ص 308 – 309 .

02 – الترفع عن المصالح و الطموحات الشخصية الضيقة ، التي تتعارض مع خدمة الـدين ، بسبب إستحالة التوفيق بينهما ، لأنه في وجود الأولى إضعاف للثانية .

03 – أن يستفرغوا كل طاقاتهم و جهودهم ، للدفاع عن الحق مهما واجهوا من صعاب و عقبات في طريقهم .

04 – أن يكونوا مثالا جيدا في الإستقامة ، و الإتزان و الإلتزام بكل التعاليم الدينية ، حتى تقتدي بهم العامة ، التي تنظر إلى أفعالهم لا إلى أقوالهم .

05– أن يتميزوا بكل ما يتصل بوظيفة العالم الديني ؛ من غزارة في العلم و رجاحة في العقل ، و حكمة في التصرف ، و إلمام بالعصر و مقتضياته و بتفكير الناس و حاجاتهم و طبائعهم .

06 – ان يتحلوا بالذكاء و الفطنة ، إزاء أساليب الحكام و أصحاب السطوة و النفوذ و حيلهم ، لإحتوائهم أو الإيقاع بهم .

07 – أن يكون العلماء الأوائل مثلهم الأعلى ، في تأدية رسالتهم .

08 – الحرص الشديد ، على التصدي لكل أمر دخيل على الدين ، مهما كان تافها ، حتى لا يستعظم أمره و يصبح جزءا من الدين .

09 – أن يكون الكتاب و السنة مرجعهم الأول ، و أن يستندوا في أحكامهم على الدليل القاطع و الحجة الداحضة .

و إذا كان الإبراهيمي قد دعا صراحة علماء الدين المتأخرين ، إلى الإقتداء بنظرائهم الأوائل في العصور الأولى للحضارة العربية الإسلامية ، فإنه أظهر إعجابا شديدا ببعض العلماء المتأخرين و منهم الشيخ " عبد الحميد إبن باديس " ، الذي قال عنه [1] أنه باني النهضة الجزائرية و إمامها و مدرب جيوشها ، وهو في ذلك يختلف عن علماء الدين الذين شهدهم التاريخ الإسلامي في قرونه الأخيرة ، حيث تميز بما جعله يتفوق على غيره من علماء الدين في عصره ، ومنها تمكنه من البيان و اللسان العربي ، ذكاءه الخارق ، فكره الولود ، عقله اللماح ، فهمه الذي يغوص به في دقائق القرآن الكريم و أسرار التشريع الإسلامي ، و إطلاعه الواسع على أوضاع المسلمين ، و أسباب ما يعانونه من مشاكل و أزمات و طرق معالجتها . فضلا عن اتصافه بالرأي السديد في الجوانب العلمية و العملية في الإسلام و أدواره التاريخية ،

---

[1]– محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 5 ، مصدر سابق ، ص 138 .

و إلمامه الكافي بمعارف العصر ، مع التمييز بين جوانبها الإيجابية و السلبية ، رغم أنه لا يحسن لغة أخرى غير اللغة العربية . كما أنه كان ضالعا في العلوم الإجتماعية ، تماما مثل العلوم الدينية .

و من أولئك العلماء الذين أعجب بهم أيضا الشيخ " محمد عبده " ، الذي ذكر فيه أنه عرف بشجاعة الرأي و الفكرة، و قوة العلم و العقل ، و بجرأة لسانه و قلبه ، فتمكن من هز النفوس الجامدة ، و تحريك العقول الرائدة ، فخلف صدى قويا في كل مكان ([1]) .

و بلا شك أن " إبن باديس " و " محمد عبده "، كانا من أبرز علماء الدين العرب و المسلمين في القرون الأخيرة . فلقد تصدى الأول، لسياسة التجهيل و الفرنسة و الإدماج التي انتهجتها فرنسا في الجزائر ، بغية قطع صلتها بجذورها العربية و الإسلامية، و إلحاقها بالأمة الفرنسية . بما قام به من جهود تربوية و تعليمية و دعوية ، ساهمت في تثبيت المقومات الشخصية الجزائرية المتمثلة في الدين الإسلامي و اللغة العربية ، و من ثمة المحافظة على الأمة من الإندماج و الذوبان ([2]) . أما الشيخ " محمد عبده "، فقد كان من علماء الدين الذين إنصبت جهودهم حول معالجة التخلف الحضاري، الذي كانت تحياه البلاد العربية و الإسلامية منذ عودة قرون (*) ، في مقابل التقدم الحاصل في أوروبا و أمريكا و اليابان ، حيث كان جيله شاهدا على التحولات الكبرى التي عرفها العالم في نهاية القرن التاسع عشر و أوائل العشرين ، في المجالات السياسية و العلمية و الإجتماعية و الحضارية ([3]) .

([1])– محمد البشير الإبراهيمي : الاثار، ج 4 ، مصدر سابق ، ص 113 .

([2])– ينظر مصطفى حميداتو ، المرجع السابق . و ينظر أيضا عبد الكريم بوصفصاف : الفكر العربي المعاصر ، ج 1 ، مرجع سابق . و ينظر أيضا إسماعيل إبراهيم ، المرجع السابق ، ص 169 و ما بعدها .

(*) – حصر أسباب الإنحطاط و الجمود الذي أصاب المسلمين في عيوب علماء الدين – إنتشار الجهل و الخرافات وسط العامة – أمية النساء و عدم تمكينهن من الحق في التعليم – إهمال علوم الطبيعة – النظام العثماني الذي إستخدم الدين لخدمة السلطة السياسية ، و لم يشجع نشر العلم و المعرفة ، و قيد الحريات العامة . أنور أبوطة ، و آخرون ، المرجع السابق ، ص 170 .

([3])– انور ابوطه ، و اخرون ، المرجع نفسه ، ص 169 و ما بعدها .

02 – إحياء الدين الإسلامي :

أرجع الشيخ البشير الإبراهيمي ، السبب الذي مكن العرب و المسلمين الأوائل من القوة و الرقي إلى الإسلام ، الذي بفضل هديته أصبحوا أساتذة العالم ، و امتدت دولتهم امتدادا كبيرا في الشرق و الغرب . أما السر في ذلك ، فيكمن في رأيه في تميز الإسلام على سائر الأديان الأخرى ، إذ أنه دين فطري و روحي ، يحمل في مضمونه أقصى الكمال الإنساني ، كما أن أصوله بنيت على الحكمة الإلهية ، حيث نجد عقائده غذاء للعقل ، و في عباداته تزكية للنفس ، و في أحكامه إعتبارا للمصلحة ، و في آدابه منفعة للمجتمع ، أي أنه جمع بين مطالب الروح و الجسم ، اللذان لا تكتمل إلا بهما سعادة الإنسان ([1]) .

فهو الدين الذي حرر العقل، و كل القوى التابعة له في النفس البشرية ، و العقل هو القوة التي تميز بها بين المتضادات و المتنافرات التي بنيت عليها الحياة ، مثل الصلاح و الفساد ، و الشر و الخير ، و النفع و الضرر ، و لذلك جعل شرطا للتكاليف الدينية و الدنيوية . و قد وضع الإسلام العقل و الفكر في مرتبة عالية ، و قرر أن الوعي بالحقائق العليا الدينية و الكونية ، إنما هو من شأن أصحاب العقول الراجحة و الأفكار السديدة .

و هو الدين الذي حرر العقل من الوثنية، إذ أنه أعلن حربا لا هوادة فيها من أول ظهوره على الوثنية بجميع أنواعها، بعد أن تمكنت من النفوس تمكنا شديدا ، و تغلغلت فيها أيما تغلغل . فاجتثها و أزال آثارها نهائيا، و أحل محلها التوحيد . و بذلك إستعاد العقل منها نفوذه و سلطانه ، و تهيأ لأداء وظيفته التي وجد لأجلها .

كما حرر الحيوان من الإنسان، فحرم على هذا الأخير، أن يحمل عليه أكثر ما يطيق من الأحمال و الأعباء ، أو أن يعمد إلى تجويعه أو تعطيشه ، فإن قام بشيء من ذلك انتزع منه عنوة و بيع بسلطة الحاكم . و قد وردت في السيرة النبوية ، الكثير من الوصايا بالرفق بالحيوان ، و النهي بشدة عن الإساءة إليه و تعذيبه (*) .

([1])– محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 1 ، مصدر سابق ، ص 108 .

(*) – أورد الإبراهيمي في ذلك : قصتين جاءتا في الحديث النبوي ، الأولى لامرأة دخلت النار بسبب هرة، حبستها فلم تطعمها أو تتركها تأكل حشائش الأرض . و الثانية لإمرأة عاصية لله ، دخلت الجنة بسبب كلب و جدته عطشا على حافة بئر فأدخلت نعلها و سقته . و هو ما يؤكد حسبه أن الإسلام ، كان سباقا إلى سن حقوق الحيوان، من جمعيات الرفق بالحيوان الغريبة .

و حرر الإسلام أيضا المرأة ، من ظلم الرجال و تعسفهم ، فقد كانت المرأة في العالم بأسره ، تعامل معاملة هي الأقرب إلى الحيوانية منها إلى الإنسانية ، يتصرف فيها الرجال كبضاعة أو متاع ، لتفريغ الشهوات و الحصول على النسل ، إلى أن جاء الإسلام ، فأعطاها المكانة اللائقة بها ، التي تتناسب مع خصائصها العقلية و البدنية ، و سوى بينها و بين الرجل في التكاليف الدينية ، و ضبط علاقتها به ضبطا لا ظلم فيه . و راعى ضعفها الجسماني بالنسبة للرجل ، فأعفاها من التكاليف المادية ، المتمثلة في الإنفاق ([1]) .

و الحقيقة أن هذه الميزات التي تميز بها الإسلام ، هي التي جعلت من الحضارة العربية الإسلامية : ((إنسانية الخطاب ، ميدانها العقل البشري و عطاؤها الفعل الإنساني ، دافعها تحصيل الحكمة ، أنى كان وعاؤها ، لذلك جاء نسيجها و إنجازها إنسانيا من الناحية التاريخية ، و بعدها عالميا من الناحية الجغرافية ، و محلها الإنسان من الناحية الفكرية)) . مما يجعلها قادرة على التجدد، و إستئناف دورها في أي زمان، و هو ما أراد الشيخ البشير الإبراهيمي بيانه ، فيما ذهب إليه آنفا .

و في ذلك أيضا، إشارة إلى أن الركود و الجمود و التقوقع الحضاري ، الذي ميز العرب و المسلمين المتأخرين ، كان يسبب إختلال المعادلة بين الوعي و العقل ، و عجز وسائل التربية و التشكيل الثقافي عن تحقيق التفاعل بين الإنسان و الإسلام ، و عجز العقل المسلم : ((عن رد الأمور المستجدة إلى قيم الكتاب و السنة ، و إمتلاك القدرة على إستنباط القانون ، و إكتشاف الوسيلة ، التي تسهم بالحل ، و تحقق الهدي المقصدي للكتاب و السنة ، حسب ظروف الزمان والمكان))([2]) .

و على هذا الأساس ، إعتبر بأن القول أن النهضة العربية و الإسلامية ، لا يمكن أن تحقق بالإسلام ، إفتراءات يروجها أعداء الدين الإسلامي بأشكال شتى ؛ تارة تحت غطاء العلم ، و تارة أخرى بإسم الأعمال الخيرية و الإحسان، و يبرر صحة ذلك باليهود الذين إحتلوا بلاد العرب و المسلمين ، و تمكنوا من هزيمتهم عسكريا في فلسطين ، و تشريد أهلها رغم قلتهم ،

([1])- محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 4 ، مصدر سابق ، ص 358 و ما بعدها .

([2])- مقدمة عمر عبيد حسنة لكتاب محمد الفاضل بن عاشور : روح الحضارة الإسلامية ، ط 4 ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، فيرجينيا ، الولايات المتحدة الأمريكية : 2005م ، ص 6 ، 7 ، 8 .

و أقاموا دولتهم في تلك الأرض، التي إنتزعوها من أصحابها الشرعيين بالقوة على الديانة اليهودية.

فبفضل الدين، تمكنوا من كسب عواطف كل اليهود في العالم ، و من لفت الإنتباه إلى دولتهم ، زاعمين بأنها حق لهم بشواهد جاؤوا بها من الدين ، و أطلقوا عليها تسمية دينية ، إمعانا منهم في التبجح و الإفتخار ، فنسبوها إلى إسرائيل ، عن عقيدة و تحدي و إصرار ، فكان لهم ما أرادوا .

و الأمر ذاته بالنسبة للحكومة الهندية ، التي لم تقم على التنكر للبرهمية (*) ، و لا على التنصل من دين الهنود ، بل أقامت دولة جمعت الملايين ، على دين قوامه الوثنية و عبادة البقر . و رغم ذلك ، فقد أضحت دولة مرهوبة و قوية ، لها وزن كبير في الساحة الدولية ، تسعى الدول الكبرى في العالم ، التي لها باع كبير في القوة العسكرية و العلوم ، إلى التقرب منها و التودد إليها .

و في المقابل من ذلك ، يقر بأن المسلمين سكتوا عن كلمة دولة محمد " ص " ، جبنا و تنكرا و عقوقا ، فانهزموا و تقهقروا . و في هذا يتساءل ، إن كان يوجد من المسلمين ، من يستطيع أن يقولها ؟ و يجيب بأن أكثرهم يخجل من ذكرها ، و يتأفف من سماعها ، و لولا الشعوب الإسلامية المستضعفة ، و لولا بعض الخشية منهم ، لطمسوا تاريخ الإسلام ، و معالمه المتبقية ، طمسا نهائيا ([1]) .

لقد حاول الإبراهيمي ، من خلال إيراده للتجربتين اليهودية و الهندية ، اللتان إتخذتا من الدين أساسا لبناء الدولة و السعي للتدرج في سلم الرقي و التقدم ، أن يثبت على نحو منطقي

(*) – البرهمية : جاءت من " براهمان " (BRAHMAN) ، وهي كلمة سنسكريتية ، إنتقلت إلى اللغة الإنجليزية في وقت مبكر ، يرجع الى 1481م ، و يعني هذا الإسم الذي أطلقه معلمو و حكماء " الأوبانيشاد " (UPANISHAD) ، أوبا UPA : قريب، من ونيشاد NISHAD بمعنى يجلس ، و المقصود يجلس قرب المعلم . و يقصد بها في الأدبيات السنسكريتية : محاورات تأملية ميتا فيزيقية ، تضم مائة و ثمانين محاورة بين معلمين و حكماء كبار و تلاميذهم، صيغت فيما بين 800 و 500م) ، على الموجود الأسمى ، الذي يتجسد في الإله الخالق براهما ، و يضعونه طرفا في ثالوث مقدس ، يتألف من براهما(الخالق) و فشنو (الحافظ) و شيفا (المدمر) . جون كولر ، المرجع السابق ، ص 35 .

([1])– محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 4 ، مصدر سابق ، ص ص 321 – 322 .

أن ما تحقق لليهود و الهنود ، رغم الاختلاف الجوهري بين العقيدتين من جهة و بين الإسلام من جهة ثانية ، و خاصة في مسألة الفكر و العقل، سيتحقق بداهة للعرب و المسلمين المتأخرين ، تماما مثلما تحقق لأسلافهم ، إن هم تمسكوا بالإسلام ، الذي وضع منهجا : ((لحياة بشرية متجددة و ترك للبشرية أن تستنبط الأحكام الجزئية التي تحتاج إليها إرتباطات حياتها النامية المتجددة و إستنباط وسائل تنفيذها كذلك بحسب ظروف الحياة و ملابساتها ، دون إصطدام بمنهج الأصول الدائم)) ([1]) .

إن إحياء الدين الإسلامي عند الإبراهيمي ، يعني الإهتداء بإرشاد القرآن الكريم ، إلى الأسرار الكونية ، التي كشفتها العلوم التجريبية في عصرنا الحالي ، في غفلة من المسلمين ، الأمر الذي سمح لغيرهم بإكتشافها و إستثمارها . و في ذلك يفترض أن الوقت لم يفت بعد ، فبالإمكان تدارك الموقف ، بشرط التحلي بالجد و القوة و الحزم ، و ستكون النتائج سريعة و إيجابية ، تماما مثلما كان الأمر بالنسبة للمسلمين الأوائل . فلا سلاح للنهوض ، بعد أن وصلوا إلى درجة كبيرة من الإنحطاط و التخلف ، إلا ما يقومون بإقتباسه من القرآن ، فيما يتصل بأسباب القوة الروحية و القوة المادية ([2]) .

أما كيف يتحقق الإحياء، فيربطه بإقامة الدعوة إلى الله و إلى الدين الإسلامي الذي هو دينه، على أساس متين ، عن طريق العالم الديني و الخطيب ، الذي يتحدث بقلبه و ليس بلسانه ،و الكاتب الذي يكتب بقلمه ما يصدر عن عقله ، و الغني الذي يستهين بكل ما لديه من مال في سبيل دينه . ثم بتوجيه هذه الدعوة ، إلى المسلمين أنفسهم قبل الأجانب ، فإذا أحدثت الدعوة مفعولها في النفوس و أعادتها إلى دينها ، و كان من أثار ذلك تمسك المسلمين بكتابهم و هدي نبيهم ، و تمجيد لتاريخهم و أمجادهم و فضائلهم و لسانهم . و نكون بذلك قد زودناهم بسلاح لا يهزم ، و حصناهم حصانة روحية أمام الدعايات المضللة ، و حصانة مادية لا تهزم أمامها ، مهما كانت الجموع التي تواجهها ([3]) .

([1])– ينظر سفيان بن الشيخ الحسين : ماذا قدمت أمريكا و الغرب أين الطريق .؟! ، د ط ، د م ج ، الجزائر : د ت ، ص 91 و ما بعدها .

([2])– محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 4 ، مصدر سابق ، ص ص 20 – 213 .

([3])– المصدر نفسه ، ص ص 286 – 287 .

و تبعا لذلك ، يظهر أن الإبراهيمي يحمل مسؤولية إحياء الدين الإسلامي ، إلى فئات محددة في المجتمع ، فحصرها في علماء الدين و الخطباء و الكتاب و الأغنياء ، مشترطا لنجاحهم في مهمتهم الإحيائية تلك ؛ التحلي بالإخلاص و الغريمة الكافيين ، مستبعدا الحكام و السياسيين، الذين سبق و أن أشرنا بشأنهم في قضية إصلاح علماء الدين ،الى أنه جعل منهم طرفا تابعا للسلطة الدينية و منفذا لتوجيهاتها، مثلما كان عليه الحال في الدولة العربية الإسلامية الأولى كما مر بنا. و يبدوا في السياق ذاته ، أنه أولى إهتماما بالغا بما سماه الدعايات المضللة ، التي تعني الغزو الثقافي و الفكري ، الذي يعمل على تضليل المجتمعات الإنسانية ، و التمويه عليها ، و تزييف الحقائق . و لقد واجه الإسلام في هذا الإطار ، تحديات كبيرة منذ القرون الأولى لظهوره . أما أسبابه فهي عدة ، حصرها الدكتور " أحمد عبد الرحمان السايح " [1] ، في كتابه " الغزو الفكري " في ستة أسباب هي :

أولا : العداء الصليبي للإسلام و المسلمين : الذي إستمر حتى بعد نهاية الحروب الصليبية ، بإعتماد أساليب أخرى غير الحروب و منها ؛ البحث عن الثغرات التي يدخلون منها لإثارة الشبهات ، عن طريق ترجمة القرآن الكريم و السنة و علوم المسلمين . و قد أعلنوا بشكل صريح أن الإسلام هو عدوهم الأول ، و أن غايتهم الأولى هي ضرب الإسلام و هدم قواعده .

ثانيا : الإستعمار الغربي للمجتمعات العربية و الإسلامية : حيث حمل معه إيديولوجيته ، و أساليبه في الحكم و التوجيه و التشريع ، و الإقتصاد و الإستهلاك ، فضلا عن قيمه الثقافية و الإجتماعية ، التي وجدت أمامها مجتمعات متخلفة لا تتمتع بالمناعة الكافية، لمقاومتها أو رفضها .

ثالثا : تقدم الغرب العلمي المذهل : الذي أبهر العقول ، التي أضحت تتطلع إلى مكتشفاته و مخترعاته المادية المتجددة ، و شكلت تحديا غير مسبوق للمجتمعات العربية و الإسلامية ، التي وقفت مذهولة أمامها ، الأمر الذي جعلها تنظر نظرة تقدير و إحترام للحضارة الغربية ككل ؛ في جوانبها الفكرية و الفلسفية ، و الإقتصادية و العمرانية و الإجتماعية و الخلقية .

رابعا : الضعف الفكري و التفكك الإجتماعي : اللذان أديا الى الإستغراق في الطائفية المتناحرة

---

(1)- أحمد عبد الرحيم السايح ، المرجع السابق ، ص 44 و ما بعدها .

و المذهبية المتعصبة ، و إلى تعدد السلطات و الدويلات التي قامت على أساس شعوبي أو منهجي .

خامسا : التخلف عن ركب الحضارة : بفعل الانشغال بالتوافه ، و الانصراف عن تعاليم الإسلام ، التي تحث على العلم و المعرفة، و إستخدام العقل و الفكر ، في كل ما من شأنه أن يؤدي بالمجتمع الى الرقي و التقدم . فتوقفت عجلة التقدم بها، و أصبحت تعتمد على غيرها في جميع مناحي الحياة .

سادسا : الفراغ العقدي : الذي أنتج سلوكات إجتماعية، تتنافى و روح العقيدة الإسلامية ، التي جاءت بمفاهيم تناولت الكثير من معضلات الحياة .

و لا ينكر في مقابل ذلك ، وجود فئة منصفة من الباحثين الغربيين ، الذين تحروا في كتاباتهم الحقائق ، و إتسموا بسمات العلماء من الإنصاف و التمحيص، و خدمة العلم لذات العلم و قد إنتهى بهم البحث إلى الإعتراف بمحاسن الإسلام الدينية و الإجتماعية ، و بمعجزات القرآن و العلوم الكونية . و لكن عددهم قليل ، بالمقارنة مع نظرائهم الذين يطعنون في تراث و تاريخ و عقيدة الإسلام . و لأن الفريقان موجودان في كل مكان و زمان ، فإنه من الواجب على المسلمين، أن يردوا على كل فرية تصدر من الفريق الأول ، و يقبلوا بكل إنتقاد منصف ينبههم إلى عيوبهم من الفريق الثاني ([1]) .

و إذا كان الإبراهيمي ، قد عبر في الكثير من كتاباته عن حزنه و عميق أسفه ، على تخلي المسلمين بما فيهم العرب ، عن الإسلام كمنهج و أسلوب في الحياة ، فإنه أبدى بعض التفاؤل بقوله : أن الكثير من المؤشرات توحي بعودة ما سماه دولة القرآن و منها ؛ أن الدعوة إليه قد تجددت في هذا العصر على نحو غير مسبوق ، كما أن أصوات الدعاة المصلحين ، قد تزايدت و اتفقت و سارت في هذا المسلك ، بدعوتها إلى دراسة و إستخراج ذخائره ، و إحياء دعوته إلى الفضيلة و الخير و المحبة ، و إستنباط العقائد و العبادات و أحكام المعاملات منه . مع الإستعانة بفهم السلف الصالح و تطبيقاتهم ، و لجوئهم إلى تحكيمه ، في كل ما يعترضهم من خلاف في الأمور الدينية و الدنيوية .

([1]) – محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 4 ، مصدر سابق ، ص 356 .

و قد كان من آثار هذا التحول ؛ أن العلماء الذين أبدوا إستعدادهم ، للعمل بالقرآن الكريم ، و العامة الذين أظهروا إستعدادهم لذلك ، أنهم يتساءلون عن السبب في هجر القرآن الكريم ، الذي يعد دستورا ربانيا لا يقبل الخطأ أو التبدل و التغيير ، و إستبداله بالدساتير و القوانين الغربية القاصرة ، لأن مصدرها بشري . هذا من جهة ، و لأنها موجهة لجنس بذاته هو الشعوب الغربية التي تشترك فيما بينها ، في الطبيعة الواحدة و المصلحة الواحدة .

و وفقا لذلك ، يصل إلى أن الغليان الفكري ، الذي شهدته الساحة الإسلامية آنذاك ، و كثرة الحديث المسلمين عنه ، و إقباله على دعاة القرآن الكريم و مدارسه ، و تجاوبهم مع أساليبه في الوعظ و الكتابة ، كلها تباشير بعودة الإسلام إلى حياة المسلمين من جديد ، و إلى دوره في إصلاح البشرية ، و إتخاذه مرجعا للأمم الأجنبية، التي عجزت دساتيرها عن تدبير أمورها ، فكان أن إضطربت أوضاعها ، فتطلعت نفوسها إلى قانون سماوي ، يحفظ حقوقها و حقوق الفرد والجماعة . و هي كلها تطلعات ، مضمنة في القرآن الكريم ، لوجد وجد من المسلمين ، من يوليه الإهتمام اللائق ، و يقوم بالدعوة إليه و ينشر هدايته ([1]) .

لقد عد الإبراهيمي إذن ، ظهور ثلة من رجال الإصلاح في البلاد العربية و الإسلامية، خلال النصف الأول من القرن العشرين ، و إعتمادهم الإسلام مرجعية أولى و أساسية في إنهاض الأمة ، مثلما كان عليه الأمر في النهضة العربية و الإسلامية الأولى ([2]) ، بداية لإحياء الدين الإسلامي ، الذي لا غنى لهم عنه ، فمنه يقتبسون كل ما يتصل بأسباب القوة الروحية و القوة المادية ([3]) . أما الذي زاد من تفاؤله ، فهو الإستجابة الشعبية الواسعة لمثل تلك الأفكار الإصلاحية ، بعد قرون من القطيعة و الجفاء ، ظلت خلالها العلاقة بين علماء الدين الإسلامي ومجتمعاتهم مضطربة ، حيث فقدوا احترام و تقدير العامة لهم ، و من ثمة التأثير فيهم ، بفعل تخليهم عن أداء دورهم الأصلي و الطبيعي في الأمة ، و هو القيادة و التوجيه ، و مراقبة الحكام و محاسبتهم .

([1])- محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 4 ، مصدر سابق ، ص ص 229 – 230 .

([2])- محمد عمارة : الإسلام بين التنوير و التزوير ، مرجع سابق ، ص 241 .

([3])- محمد البشير الإبراهيمي : المصدر نفسه ، ص 213 .

كما لفت إنتباهنا ، إلى أنه ممن يرون بأن الحاجة إلى إحياء العمل بالـدين الإسـلامي ، ليست للعرب و المسلمين فحسب ، و إنما للبشرية جمعاء بما فيها الأمم الغربية ، فبالرغم مما حققته من تطور و رقي مادي ، غير واقعها الإقتصادي و الإجتماعي تغييرا جـذريا ، إلا أنهـا صادفت في طريقها عقبات كبيرة ، جعلت نظامها السياسي و الإجتماعي يختل ، و السبب عنده هو إفتقادها لمنظومة فكرية و قانونية شاملة ، كتلك التي يتضمنها الإسلام ، و التي من شأنها أن تعالج ذلك الخلل الحاصل . و المسؤولية في ذلك تقع على المسلمين ، الذين يتوجب عليهم إحياء الإسلام في حياتهم هم ، و بعد ذلك يطرحونه كبديل حضاري لقضايا و مشاكل غيـرهم، مـن الأمم المجتمعات غير المسلمة .

03 – <u>تفعيل دور المثقفين :</u>

إذا كانت الثقافة ؛ هي مجموع السمات و الملامح الخاصة ، التي تميز مجتمعا معينـا ، أو زمرة اجتماعية معينة ، أو أمة عن أمة أخرى ، سواء كانـت روحيـة أم ماديـة ، فكريـة أو عاطفية ([1]) . فإن المثقف عند الشيخ البشير الإبراهيمي هو: ((ذلك الرجل المهذب المستنير الفكر المجهور العقل المستقل الفكر في الحكم على الأشياء ، الجاري في تفكيره علـى قواعـد المنطق على أسس التخريف ، المطلع على ما يمكن من شؤون العالم و تاريخه ، الملم بجانـب من معارف عصره)).

و قياسا مع ما ورد في هذا التعريف ، يتجلى لنا أن المثقف فـي تصـوره ، ينبغـي أن تصف بجملة من الصفات هي و : التربية الحسنة ، الاستقامة فـي السـلوك و الأخـلاق أولا و العلم ثانيا ، الإدراك الصحيح ، صحة تقديم الأمور ، التفكير السـليم ، الاسـتنتاج العقلـي ، الإلمام الشامل بالمستجدات العلمية و المعرفية التي تستجد في عصره . و هي بحسبه الأسـس التي تقوم عليها الثقافة ، في النظر الشرقي أو العربي الإسلامي .

و يفترض في الصدد ذاته ، بأن مكانة المثقفين في الأمم التي وصفها بالحية عالية ، فهم أفضل أفرادها ، و السادة و القادة فيها ، و الحراس المؤتمنون على عزها و مجدها . يتوجب

([1])– ينظر عبد الله عبد الدائم ، المرجع السابق ص 25 و ما بعدها . و ينظر أيضا رضوان السـيد ، أحمـد برقاوي ، المرجع السابق ، ص 27 و ما بعدها . و ينظر أيضا مالك بن نبي : <u>مشكلة الثقافة</u> ، مرجع سابق ، ص 19 و ما بعدها .

عليها أن تحيطهم بالاحترام و التقدير ، في مقابل أن يضطلع هم نحوها بواجب القيادة والتدبير، فالأمم من يوم ظهورها ، و طيلة تاريخها ، هي في أمس الحاجة إلى مثقفيها المتمثلين في العلماء و أهل الرأي و البصرة ، تحتاج إليهم في أوقات السلم ، لكي يرسموا لها النهج السليم لكي تترقى و تتقدم ، و يزودونها بعلومهم و أرائهم و أفكارهم ، التي توجهها إلى الاستقامة و الاعتدال . و تلجأ إليهم في أيام الحرب و عدم الاستقرار ، لكي يحلون لها المشكلات المعقدة و يخرجونها من الأزمات و الضوائق ، محفوظة الشرف و المصلحة .

و فضلا عن ذلك يضيف الإبراهيمي ، بأن المثقفين هم الفئة التي تتولى الحفاظ على التوازن في أممهم ، و القيام على الحدود حتى لا تهدم ، و على الحرمات لكي لا تنتهك ، وعلى الأخلاق أن تزيغ . كما أنهم بمثابة الميزان ؛ يعرف من خلاله كل فرد في المجتمع قيمة نفسه حيث : ((يراهم العامي المقصر فوقه فيتقاصر عن التسامي لما فوق منزلته ، و يراهم الطاغي المتجبر عيونا حارسة فيتراجع عن العبث و الاستبداد)) . فإذا كانوا متبوعين فالأجدر بغيرهم أن يكون تابعا ، و إذا كانوا في المرتبة الأولى فإنه يفترض في غيرهم أن يكون في المرتبة الثانية ، فلا شيء يضر الأمم مثل الفوضى في الأخلاق، و الفوضى في مراتب الأفراد ([1]) .

بهذا الشكل، حدد الإبراهيمي مكانة المثقفين في أممهم ، و الدور المنوط بهم ، الذي يقومون به في كل وقت ، و لا ينبغي لهم أن يتركوه لغيرهم ، فإن حدث ذلك اختلت المعادلة ، فقاد غير المثقفين الأمة أو المجتمع . و النتيجة معروفة بعد ذلك ؛ تخبط في المنهج و اضطراب في السير ، و فوضى اجتماعية . و في المحصلة تأخر حضاري شامل، كذلك الذي انخرطت فيه المجتمعات العربية و الإسلامية منذ عدة قرون ، و لم تجد له مخرجا إلى غاية الآن ، رغم محاولات النهوض العديدة التي جرت هنا و هناك، في أواخر القرنين التاسع عشر و أوائل القرن العشرين ، حيث كان مآلها الفشل لأسباب مختلفة منها ؛ كون أن أغلبيتها كانت سياسية ، و لم تول الاهتمام اللازم لعنصر الثقافة .

و منه فقد انتقد الإبراهيمي بشدة المثقفين المتأخرين ، محملا إياهم المسؤولية في كل ما أصابها من أمراض، و ما تعانيه من انحطاط و تقهقر ، لأنهم تخلوا أو تقاعسوا عن واجباتهم

([1])- محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 2 ، مصدر سابق ، ص 126 .

نحوها ، و ركنوا إلى الخمول و الكسل ، و الانكماش و الانطواء على الذات ، و الأسوأ من ذلك أنهم أظهروا جهلا كبيرا بحقائق الحياة . فبرر انتقاده الشديد بقوله : ((... نحن مرضى و من بلاء المريض رفق الطبيب به ، إن رفق الطبيب خيانة لفنه و قدح في أمانته و زيادة في البلاء على مريضه ، و ما خير رفق ساعة يتجرع المريض بسببه آلام السنين)) .

و صنفهم على صنفين لكل منهما عيوبه ؛ المثقفون بالثقافة الإسلامية ، و يتصفون بالجهل المطبق بأحوال العصر و لوازمه ، و المثقفون بالثقافة الأوروبية لهم عيوب كثيرة و منها : جهلهم الفاضح بحقائق الإسلام و أخلاقه و آدابه، و بتاريخ أمتهم الذي يمثل مصباحها الذي ينير لها الطريق ، و بلسانها الذي يعد ترجمانها الصادق . و قد أدى الاختلاف في الثقافة بين الفريقين ، إلى نتائج سلبية و خطيرة ، جعلت الثقافة لدى مجتمعاتهم عديمة الفائدة ، أما أخطر النتائج فهي أن الاختلاف في وجهات النظر يترتب عنه اختلاف الآراء، و تناقضها في المصلحة الواحدة، و في المفسدة الواحدة أيضا . فتهتز الحقيقة ، و يتحول المثقفون إلى بلاء على الأمة و داء لها بعد أن كانوا دواءها ، و أعباء بعد أن كانوا قادتها . و الحل الذي يقترحه هو؛ الجمع بين الثقافتين الإسلامية و الأوروبية، لتحقيق التوازن و إزالة الخلل ([1]) .

ثمة هنا إشكالية أساسية طرحها و هي ؛ ثنائية الأصالة(التراث) و المعاصرة (الحداثة)، التي هيمنت على الخطاب النهضوي العربي الإسلامي في القرنيين الماضيين ، و لا زالت إلى غاية الآن . فالأولى دعا أصحابها إلى اعتماد " الأصول " الإسلامية، في مواجهة الانحراف الديني المتمثل في الطرق الصوفية و الشعوذة ، ثم ما لبثت أن دخلت في صراع مع تيار المعاصرة المعروف حاليا باسم " التيار الليبيرالي " ، لكونه كان يدعوا إلى اعتماد " الأصول الأوروبية "، التي تعني القيم الفكرية و الخلقية و السلوكية، التي اعتمدتها النهضة الأوروبية . و سرعان ما تطور السجال بين الطرفين إلى تبادل الاتهامات ؛ فاتهم التيار الثاني الأول بالرجعية و الماضوية ، و بالمقابل إنهم الأول الثاني بالعمالة للاستعمار، و السعي إلى التغريب و التنكر للقيم الوطنية ... إلى ، و بما أن قادة التيار الأول كانوا من المصلحين المسلمين ، بينما كان كثير من زعماء التيار الثاني من المسيحيين العلمانيين ، فلقد أخذت القضية أبعادا أخرى ، بحيث أضحت تتغذى بصورة أو بأخرى بالنزعة الطائفية ،عن وعي أو دون وعي .

([1])– محمد البشير الإبراهيمي: الآثار، ج 2 ، مصدر سابق ، ص ص 125 – 127 .

و تجدر الإشارة ، إلى أن هذا الإشكال لم يكن مطروحا في كل البلاد العربيــة خاصــة و الإسلامية عامة ، و منها بلاد المغرب العربي؛ التي لم تشهد تضادا بين التيارين ، بل علــى العكس من ذلك كان هناك تداخل و تكامل بينهما ، إذ كان مضمون الأصالة يعني:(التحديث) ، و كان التحرر من فكر و سلوكات و عادات عصر الانحطاط من طرقية و شعوذة ... إلخ ، يعد شرطا أساسيا للنهضة . أما العودة إلى(سيرة السلف الصالح) ، فلم يكن المقصود منه العــودة بالتاريخ إلى الوراء ، و لا استلهام التجارب من الماضي ، بل كان المقصود منــه فــي بعــض الأحيان ، إستلهام معنويات الفترات الزاهرة في التاريخ الماضي العربي و الإسلامي .مع الأخذ بعين الاعتبار ، الفوارق الزمنية و اختلاف العصور، و ما يترتب عن ذلك من اخــتلاف فــي طبيعة المشاكل و طبيعة الحلول ([1]) .

يرى الإبراهيمي، أن المثقفين لا يكونون مثقفين حقيقيين، إلا إذا تمتعوا بثقافــة إســلامية حقيقية ذات مستوى عال ، و كانوا على دراية كبيرة بمقتضيات الحياة في كل عصر ، و لهــم القدرة على تطبيق الدين مع الاجتماع مع الحضارة ، عارفين بمكانة الرجال و قيمهم المعرفية ، مطلعين على الأسباب المؤدية إلى التقدم و التخلف في آن واحد ، مساهمين في إنتاج معــارف العصر . و قد اشترط فيهم لكي يؤدوا واجبهم نحو الأمة على أكمل وجه ، و المتمثل في جلــب المنفعة و الخير لها ، و القضاء على الجهل و الأمية بها ، و حث أفرادها على العمل و تنفيرهم من البطالة و الكسل ، و تقويمهم فهمهم للحياة ، و تنظيف عقولهم و أفكارهم من الخرافــات ، و تنظيم التعاون فيما بينهم ، و توطيد الصلة و الثقة بين العامة و الخاصة مــنهم ، و تعلــيمهم معاني الخير و الرحمة و الإحسان لجميع البشر . اشترط فيهم القيام بما يلي :

01 – إصلاح أنفسهم أولا ، لأن الذي لا يستطيع أن يصلح نفسه لا يتسنى له أن يصلح غيره .

02 – استكمال نقائصهم العلمية و مؤهلاتهم التثقيفية ، حتى يتمكنون من تثقيف غيرهم ، فلــيس كل مثقف أهلا ليقوم بدور المثقفين .

03 – القيام بالإصلاح الاجتماعي، بين كل الطوائف التي يتألف منها المجتمــع ، مــن خــلال التعارف و التقريب بين الأفكار ، و بالتفاهم في إدراك الحياة و تصحيح أوجه النظــر إليهــا ، و بالاتفاق على تصحيح المقياس الذي يوزن به المستوى الثقافي .

([1])– محمد عابد الجابري : إشكاليات الفكر العربي المعاصر ، مرجع سابق ، ص ص 105 – 106 .

04 – السعي لكسب ثقة الأمة ، بالامتزاج بهـا و الاخـتلاط بطبقاتهـا، و التقـرب إليهـا ، و مشاركتها في كل شؤونها الدينية و الحياتية، من عبادة و عوائد صالحة ([1]) .

الملاحظ على هذه الشروط الأربعة ، التي اشترط الإبراهيمي توفرها في المثقفين العرب و المسلمين ، لكي يتمكنوا من القيام بدورهم المفترض إزاء الأمة . على نحو إيجابي و فعـال ، أنها تستهدف بناء شخصيتهم من النواحي السلوكية و النفسية، و العلمية و الثقافية ، إذ لا شك في أن لهذه العناصر الأخيرة أهمية بالغة في ذلك ، و الإبراهيمي حينما ركز عليها ، إنما يدل ذلـك على أنه لمس ضعفا بينا فيها لدى المثقفين المتأخرين ، الذين فشلوا في أداء واجـبهم ، بسـبب وجود خلل في تكوينهم . و هو بذلك قد وضع منهجا تربويا ، في غاية الأهمية ، من شـأنه أن ينشئ أجيالا من المثقفين، الذين يتمتعون بمؤهلات عالية ، تسمح لهم بقيـادة مجتمعـاتهم نحـو الرقي و التقدم ، دون التخلي عن مقومات الثقافة العربية الإسلامية الإيجابية، قديمها و حديثها .

إن حاجة الأمة إلى هؤلاء المثقفين، كبيرة في اعتبار الإبراهيمي ، لكي يجددوا لها ثقافتها التي كان ماضيها مشرقا، أما حاضرها فهو مظلم بحسب الإبراهيمي . و الحل الذي يقترحه هو أن لا تقتصر جهود المثقفين و أبحاثهم، على ذلك الماضي الزاهر ، بل يتوجب عليهم أن يولـوا العناية الكبيرة للمستقبل ، بوضع معالم جديدة يهتدي بها الجيل الجديـد مـن أبنـاء العروبـة و الإسلام . فلقد وجد ذلك الجيل نفسه في مفترق طرق ، لا يدري أيها يسلك ، كما فتح عيونـه على الثقافة الغربية بكل خصوصياتها ، و التي أصبحت أقرب إلى ذهنيـه و ذوقـه ؛ بفضـل الأساليب و الطرق الفعالة، التي يتبعها أصحابها في الترويج لهـا ، فـي أوسـاطهم و بسـبب المغريات الجسدية و الشهوانية و اللاأخلاقية، التي تعرضها عليهم .

في مقابل الثقافة الإسلامية التي أدبر عنها ، بسبب ما أصابها من جمود و ركود ، مـا جعل منها بعيدة عن عقله ، غريبة عن ذوقه ، نافرة من شعوره . كل ذلك بفعـل تخلـي عـن الأسرة عن دورها التربوي و التثقيفي ، و تأثير الكتاب و المدرسة و المجتمع ، حتـى أصـبح الناشئة يحتقرون أولياؤهم ، و يستحون من جنسهم ، و يسخرون من دينهم ، يقبلون بكل حماسة و شغف، على كل ما هو من آداب الغرب و مجتمعاته.

([1])– محمد البشير الإبراهيمي : الآثار، ج 2 ، مصدر سابق ، ص 129 .

و يواصل الإبراهيمي، حديثه في هذه النقطة، ملخصا حال الثقافة الإسلامية في القرون الخمسة و نصف الأخيرة ، فيقول أنه بالنظر إلى عشرات الآلاف من المؤلفات التي الفت، اكتشف بأننا ضيعنا تلك المدة في الأقوال دون أن ننجز شيئا يذكر . حيث أنها تعج بالآثار القولية، الممعنة في الشروح و الحواشي، و التعاليق المملوءة بالجدل اللفظي العقيم . أما الآثار العلمية التي تتناول ، الانحطاط المريع في الأخلاق ، و الزيغ و الإلحاد في العقائد ، و الوهن في العزائم ، و الاستسلام الذي قاد الأئمة نحو الاستعباد ، فلا وجود لها ([1]).

و بذلك يكون، قد دعا صراحة إلى تجديد الثقافة العربية الإسلامية ؛ و التجديد في مفهومه لا ينطلق من نبذ الرصيد الثقافي الماضي ، و إنما من معرفة مقومات الثقافة العربية الإسلامية قديمها و حديثها، معرفة علمية دقيقة كما مر بنا ، ثم الشروع بعد ذلك في إحياء التراث القابل للإحياء، بزرع الحياة و القوة فيه، بتجديده و ربطه بحاجات العصر . و أهم حاجات العصر ؛ تحقيق التقدم العلمي و التكنولوجي ، الذي لا بد أن تسعى إليه أية أمة معاصرة . فكل تراث ثقافي مهما يعظم شأنه ، هو في حاجة إلى تجديد و تطوير جذري ، حتى يستمر و لا ينتهي به الأمر إلى النسيان و الإهمال و من ثمة إلى الاندثار . و هو ما لا يريده الشيخ للتراث الثقافي العربي الإسلامي. و بناءا عليه أيضا ، يتضح لنا أيضا ، أنه يقر بصلاحية جانب كبير من التراث العربي الإسلامي ([2]) ، و قدرته على التجدد و التطور ، إن هو وجد المثقفين المؤهلين لتلك العملية .

لقد حان الوقت لإحياء الثقافة العربية الإسلامية ، التي أغفلت و أهملت لقرون عدة يقول الإبراهيمي ، فرغم أن التاريخ العربي الإسلامي، يحفل بالكثير من الأمجاد الزاهرة و العظيمة ، إلا أن عصور الانحطاط اختصرته في بعض المحطات دون سواها ، فإذا تطلب الأمر الحديث عن الجودة ، جيء من العصر الجاهلي بـ : " حاتم الطائي " (*) ، و بدرجة أقل"

([1])- محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 2 ، مصدر سابق ، ص ص 308 – 309 .

([2])- عبد الله عبد الدائم ، المرجع السابق ، ص ص 42 – 43 .

(*)- حاتم الطائي : يكنى أبا سفانة ، و هي إبنته المشهورة بالسخاء ، مثل جدتها عنبة بنت عفيف أم حاتم ، و اسمه حاتم بن عبد الله ، من قبيلة طيء القحطانية التي كان سيدها و زعيمها . اجتمعت في شخصيه الشاعرية و الشجاعة و الكرم العربي ، و به يضرب المثل في السخاء : " أجود من حاتم " . و له في وصف كرمه اللامحدود أشعار كثيرة ، توفي نحو سنة 605م و لم يدرك الإسلام . له ديوان شعر طبع في أماكن عدة

عنترة " (*) و السموأل (**) . و إذا زدنا شيئا من ذلك ، تحدثنا عن العصر الإسـلامي الأول دون غيره من العصور الإسلامية الموالية ، و كأنها خلت من المثل العليا و المكارم و المفـاخر الخالدة .

و هكذا انقطع حبل الوصال بين الأجيال المتعاقبة ، و انقطع معها الإقتـداء و التأسـي ، فصارت المجتمعات العربية و الإسلامية، تعيش فقرا وخواء فضيعين في هذا الجانب . زاد من حدته المتفقون و منهم الفقهاء المتأخرون، أو :((فقهاء العصور الجـرداء)) مثلمـا وصـفهم الإبراهيمي ، الذين يعتبرون التاريخ علما لا طائل من ورائه ، مجاراة للغربيين الذين يعتبـرون أن الأمة بأنها تعيش في الماضي ، لتجد هاته ((الفكرة السفيهة)) من أبنائها من يلوكها بألسنتهم ، تزهيدا في الماضي الذي زهدت فيه الأمة أصلا، و أصبحت تعيش بـلا حاضـر . و هـدف أولئك جميعا هو الخشية ، من أن تلتمس طريقها نحو الحاضر و المستقبل ، من بعض المحطات الزاهرة التي يحفل بها الماضي .

في العالم ، أما أخباره فقد وردت في الشعر و الشعراء ، و المؤتلف و المختلف ، و الأغاني ، و تاريخ دمشق لإبن عساكر، و آمالي القالي، و خزانه الأدب . زبير دراقي ، المرجع السابق ، ص ص 163 – 164 .

(*) – عنترة : هو عنترة بن شداد العبد الأسود ، ولد في نجد حوالي سنة 525 م ، من أب شـريف ينتسـب إلى قبيلة عبس بن بغيض القيسية ، و أم أمة حبشية إسمها زبيبة سباها عمرو – و قيل معاوية – بـن قـرادى في إحدى غاراته . عاش طفولته مستعبدا ، و لما قوي عوده و أشتد ساعده و أظهر ما جعلـه فارسـا مـن فرسان العرب المعدودين ، لقب بـ : " عنترة الفوارس " . و شجاعته هي التي أتاحت لـه فرصـة الإنتعـاق حين أغارت جماعة من طيء على عبس و إستاقت إبلهم ، فأبلى البلاء الحسن ، و قاتل الأعداء ، و قهرهم و أسترجع إبل قومه فأعترف به أبوه و ألحقه بنسبه . شارك بعدها في الكثير من الحروب و الغـزوات . تـوفي نحو سنة 516 م ، عن عمر تسعين سنة ، و قيل مات مقتولا في إحدى غاراته ، له ديوان فـي نحـو 1500 بيت . زبير دراقي ، المرجع نفسه ، ص 150 و ما بعدها

(**) – السموأل : هو السموءل بن العريض بن عادياء ، ضربت به العرب المثل في الوفـاء حـين قالـت : ((أوفى من السموأل ، حيث تزعم الأسطورة أن امرئ القيس الكندي ، إستودع لديه دروعه ، لما أراد الخروج إلى الشام لملاقاة قيصر الروم ، و بعد أن هلك جاء الحارث بن ظالم المري يطلبها ، فتحصل السـموال فـي حصنه ، و قد تصادف أن بقي إبنه خارج الحصن ، فأخذه الحارث رهينة و هدده بقتله إن لم يسلم له الوديعة، لكنه فضل موت إبنه ذبحا أمام عينه على التفريط في الأمانة ، و وفى بالعهد خلافا لعـادة اليهـود ، و أعـاد الدروع إلى ورثة أمريء القيس . ينظر زبير دراقي ، المرجع نفسه ، ص ص 208 – 209 .

و لأجل ذلك دافع بشدة ، عن ثقافة عربية إسلامية، يكون جوهرها التاريخ العربي الإسلامي المشرف ، الذي لا يستطيع أي مضلل أو منكر، أن يغطي عليه أو يمحوه ، و الذي هو موضع حسد من قبل الأمم في كل العصور ، بتعريفه للأجيال الصاعدة حتى تتشبع به، فتقتدي بمثله و إنجازاته العظيمة : ((و ما لنا و للغاش و الناصح ! إنا لنا ماضيا عبقريا حسدتنا عليه الأمم التوالي، بعد أن جرضت به الأمم الخوالي . فمن مصلحتنا وحدنا أن نحي ذكرياته في نفوسنا و أن نستمد منه قوة لأرواحنا و أن نربي ناشئتنا على احتذائه مثله و عبقرياته .و إن إقامة الاحتفالات لتلك البواعث لطريق قاصد إلى ما نريد من ذلك))([1]).

و بهذا يكون الشيخ البشير الإبراهيمي، من الدعاة و المفكرين و الكتاب، الذين طرحوا قضية إحياء و تجديد الثقافة العربية و الإسلامية،بوصفها مشروعا ممكنا داخل التراث الإسلامي، الذي و رغم كل شيء ما يزال قابلا للحياة، ففيه الكثير من الوجوه الايجابية التي يمكن استثمارها و تنميتها ، لتوظيفها في الواقع المعاصر . مناقضا لخطاب التجديد ، الذي قاده المستشرقون ، الذين تبنوا وجهة النظر الغربية ([2]) ، التي روجت بكل الطرق و الأساليب ، لفكرة طرح التراث العربي الإسلامي جانبا ، و إحداث القطيعة معه ، لكونه لم يعد برأيها صالحا لهذا العصر ، و أن التفكير في بعثه من جديد و لو بدراسته و تمحيصه تمحيصا علميا ، عملية عبثية ومضيعة للجهود و للوقت . لكنها لا تستطيع أن تبرر ، نجاح التجربة في الكثير من الأمم المتقدمة و منها الغربية نفسها ، رغم الفارق الشاسع بينها و بين الأمة العربية و الإسلامية في هذا الجانب ، حيث يعد تراث هذه الأخيرة أكثر ثراء بشهادة المفكرين و المستشرقين الغربيين أنفسهم .

و نافلة القول ، أنه لا مناص للأمة من أن تعيد لمثقفيها الاعتبار ، و تمكنهم من زمام القيادة ، على حد ما ذهب إليه الإبراهيمي ، إن هي أرادت فعلا أن تنهج النهج السليم نحو التطور و التقدم ، تماما مثلما كان عليه الحال في العصور الإسلامية الزاهرة ، أين كان بيت

([1])- محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 1 ، مصدر سابق ، ص 330 .

([2])- أنور أبو طه، و آخرون ، المرجع السابق ، ص 23 .

واحد من الشعر كافيا ليطفئ فتنة أو يثير حربا ، و سببا في انتصار جيش و هزيمة آخر ([1]) .
و في المقابل من ذلك يتعين على المثقفين، أن يثبتوا جدارتهم باللقب الذي يحملونه، من كل الجوانب ؛ العلمية و الفكرية و الثقافية و الأخلاقية . و عليه فإن استعادة مكانتهم الريادية ، ينبغي أن تكون عن طريق الكفاءة و الأهلية ، و ليس التزلف و الاستجداء و المكافأة ، مثلما أصبح عليه الأمر في قرون التخلف و الانحطاط .

04- التصدي للتبشير المسيحي الغربي :

ارتبط التبشير المسيحي الغربي ، في البلاد العربية و الإسلامية في القرون الأخيرة بالحركة الاستعمارية ، و قد استهدف المنطقة من ثلاثة محاور : فأما المحور الأول ، فهو الجانب الفكري بغرض السيطرة عليه ، عن طريق زرع القيم السلبية ، و تجريده من القيم الإيجابية، التي تمثل خطرا على المصالح الغربية . في حين يتمثل المحور الثاني؛ في الجانب الطبي العلاجي و التعليمي و الإنشائي ، بسبب حاجة المسلمين الماسة إليه ، فوفروا إطارات ذات تكوين و كفاءة عاليين في هذا المجال ، و بوأوهم الصدارة في المجتمع . أما المحور الثالث؛ فيتمثل في الجانب الاجتماعي في مجالات عدة ، خاصة و أن المسلمين حديثي العهد بهذا الميدان في ظل المتغيرات التي حدثت في بعض بلدانهم . و عليه فقد ركز الاستعماري الغربي على هاته المحاور الثلاثة ، موظفا كل الإمكانات المادية و الطاقات البشرية، في سبيل إنجاح مخططاته التنصرية ، حتى تحقق الأهداف الاستعمارية المرجوة ([2]) .

و لقد أكد الشيخ البشير الإبراهيمي هاته الحقيقة ، بقوله أن التبشير بصورته الحالية ، إنما هو نتيجة من نتائج التعصب المسيحي ، الذي يستند إلى قوة السلاح ، و أنه ثمرة من ثمرات تلكم القوة الطاغية ، التي تبرر أعمالها السلبية بالحرية الدينية، أو الفكرية أو الاقتصادية (التجارية) ، و أنه وسيلة من الوسائل السياسية ، يلبس لباس الدين و يتمظهر بمظاهر كهنوتية ، منحته السياسة مرتبة طلائعية ، ليمهد لها طريق الاحتلال ، مستفيدا من كل أنواع الدعم و المساعدة و الحماية و الرعاية . و كانت النتيجة أنه تمكن من الانتشار في كل البلدان

([1])- أورد الإبراهيمي عددا من الأمثلة، عن قيادة المثقفين للأمة في العصور الإسلامية الأولى . ينظر : الآثار ، ج 2 ، مصدر سابق ، ص ص 379 – 380 .

([2])- صابر طعيمة ، المرجع السابق ، ص 179 – 180

والأقطار، التي أضحت أوطانه بتأطير من الجهات السياسية الرسمية ، باسم الحرية و إنقاذ الإنسانية ([1]) .

حيث لعب التبشير دورا هاما في التوسع الأوروبي ، خاصة بعد الاكتشافات الجغرافية، بمساهمة عدد كبير من الجهات الدينية التبشيرية الأوروبية . و عمل على تثبيت النفوذ الديني و الاقتصادي و السياسي خارج قارة أوروبا ، و قد وجدت تلك الجمعيات الدينية، المجال فسيحا أمامها ، بفضل تلك المساعدات السخية، التي كانت تحصل عليها من الحكومات الغربية ، هاته الأخيرة كانت في الغالب تعتمد على رجال الدين، لما يتوفرون عليه من قدرات و مؤهلات خاصة ، تسمح لهم ببث النفوذ السياسي([2]) .

و يجدر التذكير هنا ، أن المبشرين المسيحيين أنفسهم ، لما رأوا أن الجهود الفردية في نشر مذاهبهم الدينية المسيحية بين المسلمين قليلة الجدوى ، التفتوا إلى طرق أحسن و أكثر تأثيرا ، فتوجهوا إلى حكوماتهم جاعلين أنفسهم و الدين، أداة طيعة في يد دولهم الاستعمارية . و بطبيعة الحال انتهزت تلك الدول الفرصة ، و قدمت لهم المساعدة – ليس لأن لها الغيرة على الديانة المسيحية – ،و إنما لأنها كانت ترغب في أن تستغل المبشرين و الدين – على حد سواء – ، لتحقيق أهدافها السياسية و الاقتصادية ([3]).

و يظهر لنا أن الإبراهيمي ، من خلال قوله أن التبشير هو نتيجة من نتائج التعصب المسيحي ، أنه يشير إلى العلاقات الإسلامية المسيحية ، التي سبقت الحركة التبشيرية في العصور الحديثة ، و نعني بها ما عرف بالحروب الصليبية التي جرت في العصور الوسطى، تلك الحروب كان سببها في الظاهر ، تخليص بيت المقدس من يد المسلمين ، بينما كانت في جوهرها سبيلا للسيطرة على الشرق الإسلامي ، بما يحوز عليه من مقدرات اقتصادية و مواقع إستراتيجية ، هذا باعتراف عدد معتبر من الكتاب الغربيين ، الذين أجمعوا على أنها لم تكن حروبا لإنقاذ المدينة المقدسة ، بقدر ما كانت لتدمير الإسلام ، و لما خاب مسعاها ، لجأت إلى

([1])- محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 1 مصدر سابق ، ص 196

([2])- خديجة بقطاش ، المرجع السابق ، ص 11 .

([3])- مصطفى خالدي ، عمر فروخ : التبشير والاستعمار في البلاد العربية (عرض لجهود المبشرين التي ترمي إلى إخضاع الشرق للاستعمار الغربي) ، ط 5 ، المكتبة العصرية ، بيروت – صيدا : 1973م ، ص 113 .

حرب صليبية جديدة عن طريق التبشير، مستخدمة الكنائس و المدارس و المستشفيات، و المبشرين الذين نشرتهم في كل مكان ([1]).

و زيادة على ذلك ، فقد أسقط الإبراهيمي عن التبشير المسيحي الغربي ، صفة "الإنساني " بمعناه الحقيقي ، و أقر بأنه أداة موجهة لخدمة مصالح الاستعمار لا غير . و في هذا الصدد أعطى مثالا بالجزائر ، فاعتبر أن الكاردينال " شارل لا فيجري" (CHARLES LA VIGERIE)(*)، هو الواضع الأول لأساس التبشير المسيحي بها ، ممهدا الطريق للجمعيات التبشيرية التي جاءت بعده ، و التي استفادت من أموال ضخمة كانت تضخها إليها الحكومات الفرنسية، التي تدعي أنها لائكية (لا دينية) ، بالإضافة إلى تبرعات الأغنياء المسيحيين ، و الخدمات الخيرية التي كان يقوم بها رجال الدين . و قد راعت تلك الجمعيات الجوانب الاجتماعية و النفسية، في اختيارها لمواقع المراكز التبشيرية ، و من أهمها مركز " ورقلة " في الجنوب ، و مركز " بني اسماعيل " و مركز " إيغيل علي " قرب بجاية، و مراكز أخرى في بلاد القبائل (زواوة) ([2]) .

([1])– ينظر مصطفى خالدي، عمر فروخ ، المرجع السابق، ص 114 وما بعدها .

(*) – شارل لافيجري (CHARLES LAVIGERIE) : خلف الأسقف " بافي " على رأس الأسقفية بالجزائر في أواخر سنة 1866م ، باقتراح من الجنرال " ماكماهون " (MAKMAHON) على " نابليون الثالث " (NAPOLEON III) . يعد أبرز الوجوه التبشيرية المسيحية في الجزائر وفي إفريقيا ، اعتبر الجزائر بوابة التبشير في إفريقيا ، كان يرى أن التنصير يتم بوسيلتين أساسيتين هما : الأعمال الخيرية التبشيرية ، وإنشاء المدارس الفرنسية في كل مكان . استغل مجاعة 1867م – 1868م أحسن استغلال لتنفيذ مشروعه في أرض الواقع ، فأنقذ الكثير من المرضى والجياع من الهلاك باسم الصليب ، وقد وجد نشاطه صدى لدى بعض العسكريين . أسس عديد الفرق الدينية من الرهبان والراهبات ، لمعالجة الأطفال المصابين بوباء " الكوليرا والتيفوس " و " الجدري " ، ركز جهوده على الأيتام الصغار . مما قاله أن تمسك العرب بالديانة الإسلامية يعد تعصبا أعمى ، وهو السبب في شقائهم . للمزيد ينظر خديجة بقطاش ، المرجع السابق ، ص 105 وما بعدها .

([2])– محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 1 ، مصدر سابق ، ص ص 196 – 197 .

فمن المعلوم أن الكثير من الجمعيات التبشيرية، قد توافدت على الجزائر بعد الاحتلال ، أغلبها كاثوليكية و البقية بروتستانية ، منها النسائية و الرجالية ، أهمها: جمعية " الأباء اليسوعيين " (les jesuites) (*) ، و أخوات " القديس جوزيف دي لبارسيون " (sœurs de st-joseph de l'apparittions) (**)، " الراهبات الثالوثيات " (Les religieuses trinitaires) (***)، " أخوات العقيدة المسيحية " (Les sœurs de la doctrine chretienne)(****) .

(*)- جمعية " الآباء اليسوعيين " (Les jesuites) : عمل البعض منهم كمرشدين في الجيش الفرنسي ، أوكلت لهم مهمة الإشراف على ملجأ اليتامى الأوروبيين " بن عكنون " سنة 1842م ، في حين كان البعض الآخر منهم يتجول في المراكز الريفية لتأدية الشعائر الدينية ، وإلقاء الدروس التبشيرية ، كما استقر فريق منهم في قسنطينة، بغرض القيام بالتطبيب والإرشاد في المستشفى الإسلامي ، أسسوا عدة مدارس في وهران والجزائر من 1830م إلى 1904م .محمد الطاهر وعلي: التعليم التبشيري في الجزائر (دراسة تاريخية تحليلية) ، د ط ، منشورات دحلب ، الجزائر : 1997م ، ص 35

(**)- " أخوات القديس جوزيف دي لبارسيون " Sœurs de st-josrph de l'apparitions : جمعية تبشيرية نسائية وفدت إلى الجزائر سنة 1835 ، تركز نشاطها في كل من الجزائر العاصمة و عنابة ، حيث إهتم أعضاؤها بتربية اليتيمات الأوروبيات ، و بسبب خلاف بين رئيسة الجمعية و المطران " دبش " ، اضطررن إلى مغادرة الجزائر ، و الاستقرار بتونس بصورة نهائية . محمد الطاهر وعلى، المرجع نفسه ، ص 35 . نقلا عن TURIN YVONNE ,REVUE HISTORIQUE , N 496 PARIS ,PUF , OCT – NOV 1970 P. 329 .

(***)- " الراهبات الثالوثيات " (Les religieuses trinitaires) : جئن إلى الجزائر يوم 26 نوفمبر 1840م ، حيث كان إستقرارهن في وهران ، و اشتغلن بمهمة التعليم، إذ تكفلن إبتداء من سنة 1849م بالإشراف على إدارة المدارس البلدية ، إلى أن صدر قانون أكتوبر 1880م الذي حضر على أعضاء الجمعيات التبشيرية ممارسة التعليم في المدارس الرسمية الفرنسية بالجزائر . محمد الطاهر وعلى، المرجع نفسه ، ص 35 . نقلا عن: MGR REPETCCI : L'ALGERIE CHRETIENNE (1830 – 1930 ESQUISSE HISTORIQUE , ALGER ,LIB ANOSTRE DAME . SD . P 52 – 98 .

(****)- " أخوات العقيدة المسيحية " (Les sœurs de la doctrine chretienne) : جئن إلى الجزائر في شهر ماي 1848م، استجابة لدعوة تلقينها من المطران " دبش " ، في البداية اشتغلن بالتعليم في الجهة الشرقية من البلاد (قسنطينة ، عنابة ، سكيكدة) ، ثم في الجهتين الوسطى و الغربية ، حيث تمكن من إقامة 18 مؤسسة تعليمية تبشيرية بين مدرسة و ملجأ للأيتام في كل أنحاء البلاد . محمد الطاهر وعلى، المرجع

" أخوات القديس فانسان دي بول " (les soers de st vincent de paul)(*)، " راهبات الباستور الطيب " (les religieuses du bon pasteur) (**) ،" راهبات القلب المقدس " (les religieuses de sacre cœur) (***) ، "جمعية الترابست"(les trappistes de staoueli) (****)، "اخوان القديس جوزيف دي مانس" (les freres de st-joseph du mans)(*****) ، ... و غيرها من الجمعيات التبشيرية ([1]) .

السابق ،ص ص 35 – 36 . نقلا عن : . MGR REPETCCI , IBID , P P 77 – 78

(*) – " أخوات القديس فانسان دي بول " (Les sœurs de st vincent de paul) : أشرفن على إدارة شؤون التعليم الحكومي في العديد من مناطق البلاد ، و لقد إستقر فوج منهن في بسكرة إبتداء من سنة 1868 م . محمد الطاهر وعلي ، المرجع السابق ، ص 36 . نقلا عن : MGR REPETCCI, IBID, P 86

(**) – "راهبات الباستور الطيب " (Les religieuses du bon pasteur) : قمن بتأسيس ملجأ الباستور الطيب في مدينة الجزائر سنة 843 م ، و معبدين الأول في مسرغين بوهران سنة 1850 م ، و الثاني في قسنطينة سنة 1855 م . محمد الطاهر وعلي ، المرجع نفسه ، ص 36 . نقلا عن MGR REPETCCI , op-cit , p .94 .

(***) – " راهبات القلب المقدس " (Les religieuses de sacre cœur) : قمن بإنشاء مدرسة للتكفل ببنات ضباط الإحتلال في العاصمة ، و أخرى للبنات الفقيرات . محمد الطاهر وعلي ، المرجع نفسه ، ص 36 ، نقلا عن MGR REPETCCI op – cit p 98

(****) – " جمعية الترابست " (Les trappistes de staoueli) : وفد أعضاؤها إلى الجزائر سنة 1843 ، وقد تم منحهم ديرا في اسطوالي بضواحي مدينة الجزائر ، كما إشتغلوا بالزراعة و تربية الحيوانات ، و قد بلغ عدد رهبانها 108 راهبا . محمد الطاهر وعلي ، المرجع نفسه ، ص 36 . نقلا BAUDIVOUR LOUIS: DE COLONISATION SES ELEMENTS , PARIS , LIB DU CENTRE ALGERIEN , 1956 , PP.424 . 425 . 234 .

(*****) – " أخوان القديس جوزيف دي مانس " (Les freres de st joseph du mans) : استقر أخوان القديس جوزيف دي مانس في كل من عنابة و سكيكدة و وهران في 843 م و 1844م ، حيث تولوا إدارة المدارس البلدية بها . عبد الحميد زوزو : نصوص و وثائق في تاريخ الجزائر المعاصر ، م و ك ، الجزائر : 1984م ، ص 233 .

([1]) – ينظر محمد الطاهر وعلى ، المرجع نفسه ، ص 34 و ما بعدها .

و في حقيقة الأمر، أن الكاردينال " شارل لا فيجري " (charles la vigerie) قبل أن يبدأ نشاطاته التنصرية في الجزائر ، كانت له اتصالات بنصارى الشرق سنة 1860 م لما زار بلاد الشام ، حاملا لهم معه إعانات جمعت لهم في أوروبا، لمساعدتهم في الحرب الطائفية التي نشبت بينهم و بين الدروز، و أثناء عودته مر بالفاتيكان و عمل على تحريض البابا لكي يقدم الدعم للتبشير في العالم الإسلامي ([1]) .

أما في الجزائر فقد قاد التنصير ، من أجل تعزيز المكاسب الاستعمارية ، معتبرا البلاد بوابة إفريقيا في التبشير ، مصرحا أن القرآن – الذي وصفه بشريعة الكذب و اللأخلاق – و الإسلام أشد عدوا للديانة المسيحية ، و منه فإن الواجب يفرض عليه محاربتهما عن طريق الأعمال التبشيرية، و بكافة الطرق و الوسائل ، و قد وصل به الأمر حد استغلال المجاعات و الكوارث العديدة التي عرفتها الجزائر ، و منها مجاعة 1867 م – 1868 م (*) ، أين استغل الأوضاع المأساوية للمرضى و الجياع ، و سارع إلى إنقاذهم باسم فرنسا و الصليب ، و جمع حوله ما يناهز ألف و ثمانمائة طفل بين مشرد و مريض ، و قام بتوزيعهم على مختلف

([1]) – خديجة بقطاش ، المرجع السابق ، ص 110 .

(*) – مجاعة 1867 م – 1868 م : كانت من أكثر المجاعات خطورة ، من حيث نتائجها الديموغرافية ، و تداعياتها السلبية على واقع و مستقبل المجتمع الجزائري ، فقد اعتبرها البعض بأنها : ((الكارثة الأكبر ضخامة في تاريخ الجزائر)) ، بدأت سنة 1866 م ، بلغت ذروتها سنة 1867 م ، استمرت إلى غاية 1870م . أما أسبابها فتتمثل توالي موسم الجفاف منذ مطلع سنة 1864 م ، و زحف أسراب الجراد نحو المناطق الشمالية الخصبة ، بالإضافة إلى السياسة الاستعمارية الفرنسية القائمة على مصادرة أراضي الجزائريين الخصبة على نطاق واسع ، و تنويع الضرائب و رفع معدلاتها، الأمر الذي أثقل كاهل المجتمع الجزائري ، حيث هلكت الثروة الحيوانية، و انتشرت الأوبئة و الأمراض الفتاكة (الكوليرا ، التيفوس) ، و هلك آلاف الأشخاص، لدرجة كانت فيها الجثث متناثرة في كل مكان و لا تجد من يدفنها . أما الذين سلموا من الموت، فقد نزحوا إلى كل مكان فرارا من العدوى و بحثا عن الطعام ، و منهم من اضطرته الظروف إلى أكل الحشائش و الأوراق و حتى لحوم الكلاب . ينظر رمضان بورغدة : " أضواء جديدة على المجاعة و تداعياتها على المجتمع الجزائري في أواخر الستينات من القرن التاسع عشر " ، مجلة الحوار الفكري ، مخبر الدراسات التاريخية و الفلسفية ، جامعة منتوري قسنطينة ، الجزائر : العدد 05 / أوت 2003 م ، ص 135 و ما بعدها .

المراكز و الملاجئ، التي أنشأها بغرض المعالجة و التنصير ([1]) .

إن أغلب تلك المراكز التبشيرية ، التي ذكرها الشيخ الإبراهيمي فيما سبق، تقع في بلاد القبائل ، هاته الأخيرة عبارة عن مناطق جبلية شرق الجزائر العاصمة ، انصب اهتمام المبشرين عليها دون غيرها من مناطق البلاد ، نظرا لخصوصيتها البشرية و الجغرافية ، التي تؤهلها لأن تلعب دورا مؤثرا و مباشرا في – مجريات الأحداث – و تطورات الأوضاع و التوجهات المستقبلية للجزائر ، خدمة للمخطط الاستعماري الفرنسي الذي يرمي إلى : ((محاصرة التوجهات الوطنية الجزائرية ، و نسف إطارها الحضاري العربي الإسلامي و إضعاف الحس الوطني الرافض لكل تبعية أو تجزئة ، تنعكس آثاره على الواقع الجزائري)) .

إذ تم فتح العديد من مدارس الإرساليات التبشيرية ، و شيدت الكنائس و وجه نشاطها للأعمال الخيرية و تقديم الخدمات الاجتماعية، لربطها بالواقع السكاني هنالك ، و قد قارب عددها ثلاثين كنيسة ، فتح القائمون عليها بها سبعة عشرة مدرسة بها عشرات الأقسام ، تحت إشراف عدد معتبر من الرهبان و الراهبات ([2]) ، إضافة إلى مئات المدارس الحكومية الفرنسية ، التي كانت تنتشر في كل نواحي المنطقة ، تعلم اللغة الفرنسية، و تغرس القيم الغربية .

و الواقع أن الاستعمار الفرنسي ، لم يكتف بهذا الجانب فقط في بلاد القبائل ، بل عمد إلى إلغاء العمل بأحكام الشريعة الإسلامية ، و عوضها بالأعراف و العادات المحلية، بعد تمكنه من القضاء على ثورة الطريقة الرحمانية التي اندلعت في المنطقة سنة 1871 م (*) ، فتحولت المعاملات اليومية التي كانت من اختصاص القاضي المسلم، إلى سلطة قاضي الصلح الفرنسي ، في حين تم إلغاء مجالس الجماعة التقليدية سنة 1882م ، و تعويضها بالموثقين و قاضي الصلح الفرنسي سنة 1889م ([3]) .

([1])– خديجة بقطاش المرجع السابق ، ص 112 . نقلا عن J.TIQUET : UNE PETITE COLONISATION EN ALGERIE (LES COLONS ARABES CHRETIENS DU CARDINAL LAVIGERIE, ,ALGER, 1936, P23.

([2])– ناصر الدين سعيدوني ، المرجع السابق ، ص 89 .

(*) – ينظر يحي بوعزيز : ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر و العشرين ، مرجع سابق .

([3])– محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 2 ، مصدر سابق ، ص 269 .

و قد وصفها الإبراهيمي بـ : ((قوانين زواوة الغربية)) ، معتبرا تلك الخطوة بأنها تدخل في إطار المخططات الاستعمارية الفرنسية في الجزائر ، بدأ بتجريبها أولا في بلاد القبائل، حيث وفر لها كل عوامل النجاح ، و منها تقوية جانب المراكز التبشيرية، و إطلاق يد مبشريها في المنطقة ، إلى حد اعتقد فيه الاستعمار أنها أضحت قوية، و لها القدرة على التأثير و التوجيه هنالك ، و أن الناس اطمأنوا إليها .

أما الغاية، التي يرمي إليها من وراء ذلك من وجهة نظر الشيخ ، هي إبعاد مجموع المسلمين عن الدين الإسلامي بصورة تدريجية ، إلى أن تضعف فيهم الحمية الدينية و عاطفة الأخوة الإسلامية ، و يتفرق شمل الأمة الواحدة و تصبح أمتين أو أكثر ([1]) .

و هو التوجه، الذي سارت عليه فرنسا الاستعمارية في منطقة القبائل ، رافعة شعارات تمجد سكانها ، و تعتبرهم أفضل من بقية الفئات البشرية في الجزائر ، مدعية أنهم الأجدر على استيعاب الحضارة الغربية و العادات الفرنسية ، بغية التفرقة بين أبناء الشعب الواحد ([2]) ، و قد انضم إلى العملية كتاب و مفكرون فرنسيون كثر ، قال أحدهم في كتاب خصصه لما اصطلح عليه المسائل القبائلية : ((بأنه يوجد في الجزائر عنصران متميزان من حيث اللغة و العادات و حتى الدين و هما العنصر القبائلي و العنصر العربي ، و يجب علينا أن نبقي على هذا التمايز و الانقسام)) (*) .

و من زاوية أخرى يرى الإبراهيمي ، أن التبشير في الجزائر وجد جملة من الشروط الملائمة (عددها خمسة) ، التي كان من شأنها أن تجعل منه أكثر فعالية و نجاحا فيها، دون غيرها من الأقطار العربية و الإسلامية ، و هي :

([1])ناصر الدين سعيدوني ، المرجع السابق ، ص ص 89 – 90 .

([2]) ناصر الدين سعيدوني : <u>الجزائر منطلقات و آفاق (مقاربات و آفاق للواقع الجزائري من خلال قضايا و مفاهيم تاريخية)</u> ، ط 1 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت : 2000 م ، ص 88 . نقلا عن مقران يسلي : <u>الحركة الدينية الإصلاحية</u> ، أطروحة جامعية ، الجزائر : 1983 م ، ص ص 299 – 300 .

(*) – صاحب هذه المقولة هو الكاتب " إميل شارفينيا " (E. CHARVENIAT) ، أما عنوان الكتاب فهو : " عبر بلاد القبائل و في المسائل القبائلية " A TRAVERS LA KABYLIE ET LES QUESTIONS KABYLES) . نقلا عن سعيدوني : <u>الجزائر منطلقات و آفاق</u> ، المرجع نفسه ، ص90 .

1 – تقادم عهده .
2 – القوة الاستعمارية التي ترعاه (فرنسا) .
3 – انتشار الجهل و الأمية و الفقر (البيئة المفضلة للجهل) .
4 – الطرق الصوفية و مسلكها المعادي لتعليم الإسلام الصحيحة .
5 – تقاعس العلماء قبل ظهور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، عن مقاومة التبشير ([1]).

و يضيف إلى هذا التحليل قائلا ، بأن هذا المسلك الذي سلكته الحكومات الاستعمارية الفرنسية في الجزائر ليس غريبا عن فرنسا ، و هي التي دأبت منذ مدة طويلة جدا ،على معاداة الإسلام و الكيد لأهله ، كما أنه لم يسجل أنها انتهجت سياسة ، أو اتخذت في يوم ما موقفا منصفا أو عادلا إزاءهما ([2]) . و لعله يشير هنا ، إلى – كون فرنسا تعد النموذج الأكثر تعصبا- لكل ما هو إسلامي ، و قد ساهم المبشرون و رجال الدين بقسط وافر، في تغذية تلك الروح ([3]) .

و على ذكر الطرق الصوفية المنحرفة ، فإن الشيخ الإبراهيمي، لم يحملها فقط مسؤولية التمكين للتبشير التنصيري في الجزائر ، بل اعتبرها المسؤولة أيضا ،عن انتشار آفة أخرى لا تقل خطورة عن التنصير و هي آفة الإلحاد ، بفعل تفشي الخرافات و الأضاليل، التي كانت تنشرها في أوساط المجتمع الجزائري ، خاصة لدى الشباب الذين تلقوا تعليما أوروبيا ، و يجهلون حقائق الدين الإسلامي . و العلة في ذلك أنهم يحملون مبكرا فكرة خاطئة؛ هي أن تلك الانحرافات الطرقية هي الدين ، و أن أصحابها هم رجال الدين ، فإذا بلغوا مرتبة أعلى في العلم و العقل لم يستسيغوها فينكرونها ، و الحق معهم، ثم ينتقلون بعد ذلك إلى إنكار الدين جهلا و ظلما ، و هي واحدة من جنايات تلك الطرق الصوفية على الدين الإسلامي .

و يضيف إلى ذلك أسباب أخرى ، لا تختلف عن أسباب شيوع التنصير ، و منها المدارس اللائكية، التي تزيد من نفور النشء مما تعلموه من أهلهم ، فيتطور ذلك إلى احتقار

([1])–محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 1 ، مصدر سابق ، ص ص 196 – 197 .
([2])– المصدر نفسه ، ج 2 ، ص 339 .
([3])– أحمد عبد الرحيم السايح: في الغزو الفكري ، سلسلة كتاب الأمة ، ط 1 ، وزارة الشؤون الدينية و الأوقاف ، قطر : 1414 هـ ، ص 149 .

لكل ما هو مخالف لتلك الحقائق التي يتعلمونها، وفق برامج و مناهج دراسية دقيقة ، و ينتهي الأمر بما هو أخطر من ذلك ، و هو احتقار الدين ، و من ثم الولوج إلى عالم الإلحاد .

و منها أيضا، ضعف معرفة الآباء و الأقارب لتعاليم الدين الإسلامي الصحيحة ، فأغلب ما يعرفونه عبارة عن خرافات و بدع ،تعلموها عن الطرق الصوفية الفاسدة ، زيادة على كونهم يغفلون أو يتقاعسون عن تربية أولادهم تربية دينية صحيحة ، و عن تنشئتهم تنشئة تقوم على احترام الدين، و المواظبة على إقامة شعائره من الصبا ، لأن ذلك من شأنه أن يكون سدا منيعا أمام المؤثرات الوافدة ([1]) .

و بناءا عليه، فإننا نلاحظ بأن الشيخ البشير الإبراهيمي ، أراد أن يؤكد بأن الاستعمار الفرنسي، وظف التنصير و الإلحاد لصالح أهدافه السياسية و الاقتصادية ، مستغلا في ذلك الجهل و الأمية ، و الانحرافات الدينية الناجمة عن الفهم الخاطئ للدين الإسلامي ، بالإضافة إلى الأوضاع الاقتصادية و الاجتماعية المزرية ، التي بلغت من الخطورة حد تهديد المجتمع الجزائري في حياته و وجوده ، مثلما حدث في مجاعة أواخر الستينات من القرن التاسع عشر التي سبق الحديث عنها .

كل ذلك بتزكية و تغطية من المسيحية، التي تقف وراء التنصير و الإلحاد ، و تعمل على التمكين لهما في البلاد الإسلامية و منها الجزائر ، و تحارب الإسلام بكافة الطرق و الوسائل ، و لذا فإن الشيخ يعد المسيحية و الاستعمار؛ جسما واحدا لا يمكن التفريق بينهما ، و يتنبأ بنهاية الديانة المسيحية على يد الاستعمار : ((من أراد الحقيقة في كلمة واحدة فهي ، أن المسيحية هي الاستعمار ، و سيأكلها يوم لا يجد ما يأكله)) ([2]) .

إذ أن كل الباباوات الذي تعاقبوا على كرسي البابوية في الفاتيكان ، كانوا يرون في عودة المسيحية إلى الجزائر أمرا ضروريا ، فهي؛ من ناحية تعد القاعدة التي ينطلق منها المبشرون نحو بلدان إفريقيا السوداء ، و من ناحية أخرى تمثل المنفذ الذي يتسرب من خلاله المبشرون لإنجاز هدفهم ، المتمثل في محاربة الدين الإسلامي في تلك الأصقاع ([3]) .

([1])- محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 1 ، مصدر سابق ، ص 195 ، 192 ، 194 .
([2])- المصدر نفسه ، ج 3 ، ص 128 .
([3])- محمد الطاهر وعلي ، المرجع السابق ، ص 200 .

و الأمثلة على ذلك كثيرة ، و منها البابا " بيوس التاسع " (PIE IX)(*) ، الذي أظهر حماسا شديدا للمخططات التبشيرية، التي عرضت عليه عن الجزائر و إفريقيا ، معتبرا التبشير عملا يستهدف إحياء الحروب الصليبية ، و لهذا قدم كل التشجيعات للكاردينال " شارل لافيجري " (CARDINAL CHARLES LA VIGERIES) ، و لم يكتف بمباركة أعماله فحسب ، بل شجع الأوروبيين في كل من فرنسا و بلجيكا، على تقديم العون للكاردينال ، عن طريق تبني أطفال جزائريين ، كما منحه مساعدة مالية لصرفها على مشاريعه التبشيرية في الجزائر ([1]) .

و يلخص لنا محمد الطاهر وعلي ([2]) ، موقف الفاتيكان من التبشير في الجزائر في النقاط التالية :

1 – مباركة كل ما يمكن أن يقوم به المبشرون في ميدان التنصير ، ما يخدم ذلك يخدم الكاثوليكية و المصالح الأوروبية عموما .

2– أن الفاتيكان أعطى بعدا أوسع للتبشير في الجزائر ، و ذلك بنقل هذا التبشير إلى إفريقيا ، عن طريق المتحمس الأول لهذه الأمة – الكاردينال لافيجري – و تشجيعه إلى إيفاد البعثات التبشيرية إليها، و تنصيب مراكز للتبشير في أقطارها .

3 – أن سلطات الفاتيكان، لم تتوان في دعوة الأوروبيين، إلى مساعدة المبشرين في خدماتهم التنصيرية ، مثيرين بذلك فيهم الروح الصليبية التي يرغبون في إحياءها ، بغية محاربة الدين الإسلامي .

4 – إباحة كل الوسائل للتبشير في الجزائر و في إفريقيا ، بما فيها السلاح إذا اقتضت الضرورة ، كما كان بالنسبة لإخوان الصحراء الذين تم تسليحهم .

و هكذا يتضح لنا الدعم المعنوي و المادي الكبير ، الذي كان يحضا به التبشير و المبشرون المسيحيون، من الفاتيكان أعلى سلطة دينية في الديانة المسيحية بشكل خاص ، و من الحكومات والشعوب الأوروبية بشكل عام ، لذا نجد الشيخ البشير الإبراهيمي يستغرب

(*) – البابا " بيوس التاسع " (PIE IX) : تراس الفاتيكان من 1846 م و إلى غاية 1878 م .

([1])– ينظر محمد الطاهر وعلي ، المرجع السابق ، ص 199 و ما بعدها .

([2])– محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 1 ، مصدر سابق ، ص 197 .

كيف أن المسلمين يقابلون التبشير بالأقوال الحماسية البليغة ذات الحجة القوية ، و التي لا تتعدى في أحسن الأحوال التحذير من دسائس المبشرين و مكائدهم ، متناسين أن المال هو السلاح الفاصل في هاته القضية .

و يسترسل في هذا الصدد ؛ فيتساءل كيف يستطيعون مقاومة الجمعيات التبشيرية المنظمة، التي تقف خلفها أمم غنية تغدق عليها بالأموال ، مجهزة بجيوش كبيرة من الرهبان و الراهبات و الأطباء و الممرضين ، المسلحين بالأخلاق العالية و الصبر و الثبات ، و الإيمان القوي بسمو و نبل ما يقومون به .

و إذا كان هذا هو حال أغنياء أوروبا؛ بذل و عطاء في سبيل إنجاح التبشير ، فإن العكس بالنسبة لأغنياء المسلمين في اعتقاد الشيخ الإبراهيمي ، حيث يفترض أنهم لو كانوا يتصفون بجزء يسير مما يتصف به نظراؤهم الأوروبيون ، لقضوا نهائيا على ظاهرة التنصير الكاذب و لعم الإسلام كل العالم ، مع العلم أن الإسلام يحثهم على ذلك ، لكن أين هم منه ينهي كلامه متسائلا ؟ : ((و لو أن عند أغنياء المسلمين بعض ما عند هؤلاء من سماحة اليد في سبيل الدين ، لطووا هذا التبشير الزائغ و لنشروا الإسلام في أقطار الأرض كلها، و أن دينهم يأمرهم بهذا ، لكن أين هم من دينهم ؟)) ([1]) .

الملاحظ أن الإبراهيمي ينتقد بسخرية ، تحمس المسلمين للوقوف في وجه المد التنصيري و هم ممسكون عن التبرع بالمال ، الذي يعد الركيزة الأساسية التي تقوم عليها الخدمات التبشيرية ، فبواسطته تنشأ المراكز التبشيرية ، و تبنى المدارس التنصيرية ، و تبتاع الأراضي ، و يعال الأطفال اليتامى الذين يتم إيواؤهم في تلك المراكز أو الملاجئ ، و يغرون للمجيء إلى تلك المؤسسات (*) ([2]) .

([1])- محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 1 ، مصدر سابق ، ص 197 .

(*) – قسم " محمد الطاهر وعلي " في كتابه " التعليم التبشيري في الجزائر 1830 م – 1904 م " ، ص 148 و ما بعدها ، مصادر تمويل التعليم التبشيري في الجزائر ، أثناء الاحتلال إلى ثلاثة مصادر و هي :

1– المساعدات الرسمية (من طرف الدولة الفرنسية) .

2– التبرعات (من قبل شخصيات و منظمات و دول) .

3– مداخيل الزراعة (العائد من الأراضي التي يزرعها المبشرون) .

([2])- محمد الطاهر وعلي ، المرجع نفسه ، ص 148 و ما بعدها .

و إذا بدا لنا الإبراهيمي، خائفا من استمرار المسلمين ، في تقاعسهم عن التصدي للمخططات التبشيرية الغربية في بلادهم ، كما مر بنا ، فإننا نجده في المقابل من ذلك متفائلا بفشل تلك المخططات ، مرجعا ذلك إلى قوة الإسلام كدين يدعو إلى نفسه بنفسه ، لروحه السامية ، و حقيقته التي تجعله باستمرار محل قبول على مستوى العقول و الأنفس ، و هي العوامل التي مكنته من الوصول إلى الأقطار البعيدة دون دليل ، في كل من وسط و جنوب إفريقيا ، و في وسط و شرق آسيا ، و من الدخول إلى شرق أوروبا مع الفتوحات العثمانية ، كما دخل جزءها الغربي قبل ذلك مع الفتوحات التي قامت بها الدولة الأموية ، و كما دخل جنوبها خلال الفتوحات القيروانية .

اقتحم أذهان شعوب تلك البلدان، في يسر و سهولة ، فانغرس فيها ؛ ليس لقوة الفتوحات ، لأن الفتح في الإسلام لم يقم في يوم من الأيام على الإكراه على الدين ، و إنما لـ : ((طبيعته و يسره و لطف مدخله على النفوس و ملاءمته للفطرة و الأذواق و العقول)) . و في هذا يذهب الشيخ البشير الإبراهيمي ، إلى أن الإسلام لو بقي على تلك الروحانية القوية والنورانية، و لو لم يتعرض إلى ما تعرض إليه من فساد و انحراف من قبل أهله ، بما أدخلوا عليه من بدع و ضلالات ، لجعل منهم القوة الأولى على الساحة العالمية ، لكن الواقع غير ذلك و قد عبر عنه بقوله : ((... و لكنهم أفسدوه و اختلفوا فيه ، و فرقوه شيعا و مذاهب ، فضعف تأثرهم به ، فضعف تأثيره فيهم ، فصاروا إلى ما نرى و نسمع)) ([1]) .

ومن المؤكد أن الإبراهيمي ، حاول من هنا أن يلفت نظرنا إلى قضية في غاية الأهمية ، و هي أن ازدهار التبشير في البلاد العربية و الإسلامية ، ليس بفعل ضعف الإسلام كعقيدة و عدم قدرته على الاستمرار في الإقناع ، و إنما بسبب الضعف العام الذي أصاب العرب و المسلمين .

و من هذا المنطلق، فإن الأساليب التبشيرية قد أضرت بالدرجة الأولى بالمجتمعات العربية و الإسلامية ، و أصبحت عاملا معوقا لتقدمهم ، من خلال المراهنة على اقتلاع الإسلام من النفوس أولا ، فإن تعذر ذلك، إبعاد المسلمين عن الإسلام كحل ثان دون الحاجة إلى إدخالهم في المسيحية ، هذه الإستراتيجية عبر عنها صراحة المبشر المسيحي القس الأمريكي " صمويل

([1])- محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 2 ، مصدر سابق ، ص 385 .

زويمر " بقوله : ((لا ينبغي للمبشر المسيحي أن يفشل أو ييأس أو يقنط ، عندما يرى أن مساعيه لم تثمر في جلب كثير من المسلمين إلى المسيحية ، لكن يكفي جعل الإسلام يخسر مسلمين بذبذبة بعضهم .. عندما تذبذب مسلما ، و تجعل الإسلام يخسره ، تعتبر ناجحا أيها المبشر المسيحي ، يكفي أن تذبذبه و لو لم يصبح هذا المسلم مسيحيا)) ([1]) .

وبالنظر إلى ما تم عرضه، بشان التبشير المسيحي في البلاد العربية و الإسلامية ، نصل إلى أن الشيخ البشير الإبراهيمي، حاول التصدي للظاهرة ؛ من خلال تبيان حقيقتها و الوسائل التي تستند إليها ، و أيضا بتحذير المجتمعات العربية الإسلامية من خطورة التساهل معها أو استصغارها ، و بدعوتهم إلى إحياء العقيدة الإسلامية في نفوسهم ، التي اعتبرها العامل الوحيد لبلوغ القوة و السيادة و الازدهار .

تلكم العقيدة التي عمل المبشرون المسيحيون، على استهدافها بكل الوسائل ، و بشتى الطرق و الأساليب ، لأنها مصدر القوة و الوحدة بالنسبة للمسلمين ، و الخطر على المصالح الاستعمارية الغربية على حد قول المبشر " لورانس براون " : ((إذا اتحد المسلمون في إمبراطورية عربية ، أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم و خطرا ، أو أمكن أن يصبحوا نقمة له ، أما إذا بقوا متفرقين فإنهم يظلون حينئذ بلا وزن و لا تأثير)) ([2]) .

([1])– أحمد عبد الرحيم السايح ، المرجع السابق ، ص 145 و ما بعدها .

([2])– المرجع نفسه ، ص 146 .

المبحث الثالث : شروط نهضة العرب والمسلمين عند أرسلان .

إذا كانت أسباب تخلف العرب و المسلمين، في تقدير الأمير شكيب خمسة أيضـا مثلمـا ذهب إليه الإبراهيمي وهي: العلماء المعطلون للرقي العلمي ، الجمود و الجحود ، فساد الحكام ، ضعف الروح القومية و الخيانة ، عدم الثقة بالنفس و التقاعس و التواكل و التخاذل . فإنه يرى أن المشروع النهضوي، و إن كان الطريق إليه ليس سهلا ، فإنه ممكن التحقيـق ، إذا تـوفرت جملة من شروط حددها في أربعة و هي : أخذ العبرة من الماضي الذي قصد به العصر الذهبي للحضارة العربية الإسلامية ، ثم إقتحام غمار العلوم و الإقتصاد اللذان يعدان حسـبه السـبيلان الوحيدان لبلوغ النهضة الصناعية و الزراعية ، التحلي بالإرادة و روح التضحية الصفتان اللتان إفتقد إليهما العرب و المسلمون المتأخرون الذين سرت في أنفسهم روح الهزيمة و الضـعف ، و في الأخير تأتي الموازنة بين العقيدة و العلم تأسيا بالتجربة العربية الإسلامية أثنـاء عصـور الإزدهار الأولى، و بالتجارب الحديثة و المعاصرة و على رأسها التجربة اليابانية .

و بالتمعن في هاته الشروط ، يتضح لنا انه كان ينشد نهضة شاملة ذات أبعاد متعـددة : دينية و علمية و إقتصادية و نفسية ، تحقق في نفس الوقت بالموازاة مع بعضها البعض .علـى عكس الإبراهيمي الذي تبين لنا من المبحث السابق ، أنـه وضـع النهضـة الدينيـة كأولويـة الأولويات ، لتأتي بعدها المجالات الأخرى ، و هو جوهر الإختلاف في الرؤى الفكريـة بـين الرجلين ،و مرده أسباب عدة سيأتي التطرق إليها في المقارنة .

و لا ريب أن هذا التباين في وجهات النظر ، إزاء مسألة هامة مثل النهضـة ، يشـكل عامل إثراء و إضافة نوعية للكم الهائل من الأفكار و التصورات ، التي تراكمت منـذ نصـف الثاني من القرن 19م و إلى غاية الآن ، و التي و إن تقادم عليها الزمن ،إلا أنها ستبقى بحسبنا تمثل قاعدة فكرية صلبة ، لا يمكن للباحثين و المهتمين بقضية النهضة في عصـرنا الحـالي، تجاوزها بحجج تتعلق بعضها بعامل الزمن .

و تجدر الإشارة ، إلى أننا بعد أن ننهي شرح و مناقشة مضمون هذا المبحـث و الـذي يليه ، سنعقبهما بمقارنة شاملة لما جاء به الإبراهيمي و أرسلان، فيما يتعلق بشروط النهضـة ، و بخاتمة تكون حوصلة للنتائج التي توصلنا إليها .

1- أخذ العبرة من الماضي :

يرى الأمير شكيب، أن الخروج من دائرة التخلف والانحطاط ممكن ، من خلال أخذ العبرة من الماضي ، ويقصد به ذلك العصر الذهبي للحضارة العربية الإسلامية ، التي جعلت من العرب والمسلمين في مركز قوة في جميع المجالات ، بين صفوف الأمم الشرقية والغربية على حد سواء، هاته الأخيرة كانت تنظر إلى القوة المادية والمعنوية التي يتمتع بها العرب والمسلمون في تلك الأثناء ، بنظرة تمتزج بين الإعجاب والخوف والرهبة . وأخذ العبرة يكون وفق تصوره ، عن طريق الوقوف على أسباب الإرتقاء .

وهو يوضح تلك الأسباب ، ويؤكد أن مصدرها هو الإسلام ، ذلك الدين الجديد الذي ظهر في الجزيرة العربية ، واعتنقته القبائل العربية ، محدثا تغييرا جذريا في حياتها ، بعد أن كانت تحي حياة هي أقرب إلى البدائية منها إلى الحديثة ، ويجمل معالم ذلك التحول الحضاري الكبير في النقاط التالية :

- توحيد تلك القبائل العربية ، لا على أساس العرق أو القوة ، وإنما على أساس الإنتماء إلى رابطة الإسلام ، وهي رابطة تسمو على كافة العصبيات .
- إخراج العرب من الحياة البدائية (التخلف المادي) ، إلى المدنية القائمة على الاستقرار والإنتاج .
- إزالة كل مظاهر الشرك وعبادة الأوثان، التي جمدت العقل العربي قبل مجيء الإسلام، وجعلته عاجزا عن إنتاج مدنية إنسانية،رغم أن أرض العرب قد عرفت حضارات راقية كالفينيقية والفرعونية ... إلا أن تأثيرها بقي محليا ، باستثناء بعض الانجازات الإنسانية المحدودة : كاختراع الكتابة مثلا ([1]) .

وبذلك يكون الإسلام بحسب الأمير شكيب ، قد أحدث تحولا هائلا في حياة القبائل العربية ، ومكن العرب والمسلمين من الريادة ، وبه استطاعوا أن يصلوا بفتوحاتهم إلى نصف الكرة الأرضية ؛ في ظرف زمني وجيز لا يتعدى نصف قرن ، وهو أمر لم يكن في مقدرتهم تحقيقه قبل مجيء الإسلام ، وقد أدهشت تلك الانجازات، الدارسين من غير المسلمين ، لتلك المرحلة من التاريخ العربي الإسلامي،وحتى بعض القادة المسيحيين من أمثال "نابليون بونابرت"

([1])- شكيب أرسلان : لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم ؟ ، مصدر سابق ، ص ص 36 -65.

الذي يروى عنه أنه كان معجبا أيما إعجاب بشخصية الرسول محمد " ص " ، و الخليفة الراشد " عمر بن الخطاب " ، و بحسب الأمير شكيب أيضا ، أنه بإعتناق العرب للإسلام ، إستطاعوا أن يطردوا الغزاة من أراضيهم ، الذين كانوا يغيرون و يهيمنون عليهم قبل ظهور الإسلام كالفرس و الأحباش و الروم ... و غيرهم ، بل أكثر من ذلك أنهم توسعوا عليهم في إطار الفتوحات الإسلامية ([1]) .

و مما لا شك فيه أن مجيء الإسلام ، قد شكل إنقلابا حقيقيا في الجزيرة العربية مثلما ذهب إليه الأمير شكيب ، التي كانت تغلب عليها حياة البداوة ، تعيش القبائل الكثيرة فيها على الرعي ، و التنتقل في الصحراء بحثا عن الماء و الكلأ . و يخرج بعضها للتجارة قاصدين ما جاورهم من بلاد العالم المتمدن آنذاك . أما عقائديا ، فقد كانت أكثرية تلك القبائل ، تدين بمعتقدات وثنية ، فضلا عن الإيمان بالأساطير و الأوثان . و منه فقد كانوا في حالة عقلية بدائية ، إذ لم تكن لهم فلسفة كتلك التي عرفها قدماء اليونان ، و لم تظهر لديهم علوم كما ظهر عند غيرهم من الشعوب ، عدا بعض الخبرات في الطب ، و المعرفة ببعض الظواهر الفلكية التي قامت على الملاحظة الدقيقة . أما البحث العلمي ، فلم يكن قد عرف لديهم .

أما إجتماعيا ، فقد كانت العصبية القبلية هي التي كانت تتحكم في حياة الأفراد ؛ فالفرد مرتبط إرتباطا شديدا بقبيلته ، و الحروب الكثيرة التي كانت تقوم بين تلك القبائل ، كان الدافع إليها صون الكرامة ، أو الصراع على الماء و المرعى . و كثيرا ما كانت تطول تلك الحروب ، و تدوم سنينا لأسباب تافهة . أما الصلات الإجتماعية ، فكانت تتسم بالإنحلال ، حيث لم يكن هناك وازع خلقي محدد ، و لهذا كانت الآفات الإجتماعية منتشرة على نطاق واسع .

أما العمارة فكانت بدائية قبل الإسلام ، فقد كان أكثر السكان من البدو الرحل يعيشون في الخيام ، أما سكان المدن فكانوا يقطنون بيوتا متواضعة ، لا يوجد فيها شيء من النهضة المعمارية ، التي شهدتها المناطق المجاورة في تلك الأزمنة . و هو ما يفسر تلك الحقيقة التي مؤداها ، أن العرب كانوا حين يغزون بلادا ، يختارون الإقامة في معسكرات تقع خارج تلك البلاد .

([1])– شكيب أرسلان : لماذا تأخر المسلمون و تقدم غيرهم ؟ ، مصدر سابق ، ص 36 .

و بظهور الإسلام ، دخلت المنطقة في مرحلة تاريخية جديدة ، واستطاعت أن تضع أسس حضارة إنسانية شاملة ، و هي التي ظلت بعيدة عن مسرح التاريخ العالمي لقرون عديدة ، و كان الإسلام هو العامل الأساسي و الفعال ، الذي تمكن من توحيد عرب الجزيرة لكونه دينا و حضارة . فخرجوا من إقليمهم الجغرافي إلى أقاليم بعيدة ، و استطاعوا إخضاعها في سنوات قليلة ، و في غضون مائة عام ، أصبحت لهم دولة تمتد من حدود الصين شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا ، منها أجزاء من أوروبا مثل إسبانيا و صقلية . و قد اعتبرت تلك الدولة الأولى من نوعها ، من حيث ذلك الإتساع و التنوع ([1]) .

و مثلما أشار إليه الأمير شكيب ، فقد إعترف بذلك الإنقلاب الذي أحدثه الإسلام، الكثير من الزعماء و القادة و الساسة الغربيون و الكتاب بشكل خاص على مر العصور ، و منهم " جاك بيرك " (JACK BERCK) ، و " غوستاف لوبون " (GUSTAVE LE BON) ، و " آدم ميتز " (ADAM METZ) ، و " زغريد هونكة " (ZIGHRID HONCKA) ، و " منتغمري وات " (MANTAGHAMRIE WATE) ... و غيرهم من الغربيين الذين أظهروا إعجابهم الشديد بالإسلام كدين و فكر و نظام حياة ، بالرغم من كونهم ليسوا مسلمين أو عرب ، و خلص أغلبهم إلى أن : ((الحضارة العربية الإسلامية كانت هي النموذج الذي يحتذى مثاله في أي مكان من العالم ، سواء إذا نظرنا إلى هذه الحضارة من جانبها الخارجي الذي يتجلى في الفنون و الصناعات أو جانبها الأخلاقي و الديني)) . كل ذلك حصل بفضل خمس ميزات ميزتها عن الحضارات الأخرى و هي : إحترام الإنسان ، و التمسك بالمثل العليا ، حرية الفكر و العقيدة ، إتباع العقل و تمجيده ، الإيمان بالتقدم ([2]) .

تلك الحضارة التي كان لها دور كبير ، في تكوين الفكر الأوروبي خاصة في العلم بمختلف فروعه : (الطبيعة ، الكيمياء ، الفلك ، الرياضيات ، التاريخ الطبيعي ، الفلاحة ... إلخ) ، و في الفلسفة ، و المعارف العملية التي دخلت إلى أوروبا بفضل العرب

([1])– للمزيد ينظر محمد عبد السلام كفافي ، المرجع السابق ، ص 15 و ما بعدها .

([2])– ينظر عبد التواب يوسف : الحضارة الإسلامية بأقلام غربية و عربية ، د ط ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة : 1994م .

و المسلمين ، مثل صناعة الصابون و السكر المصنوع من القصب و الورق و شرب القهـوة ، و الكثير من أمور الزراعة و الصناعة مما لم تكن أوروبا تعرفه في تلك الأثناء ([1]) .

و بالرغم من أن الإسلام ، كان هو القوة المحركة و الدافعة لكل ما أنتجتـه الحضـارة العربية الإسلامية، في شتى المجالات الفكرية و العلمية و المادية . إلا أن هناك من أدعى أنـه دين يعيق التطور ، و هو ما اعتبره الأمير شكيب مفتريات ضد الإسلام ، مؤداها أنه ديـن مـا أعتنقه شعب إلا كان مصيره التقهقر و التأخر ، و أنه مانع من الرقي الاجتماعي بسبب قوانينـه الدينية . و رد الأمير على هؤلاء المدّعين ، أن الإسلام ليس فيه شيء يمنع الرقي ، و أنـه لا توجد شريعة في العالم ، تقدس العلم و تعلّي من المعرفة ، و تضع العلماء بعد منزلـة الأنبيـاء كالشريعة الإسلامية . فإذا كانت الأمم الإسلامية في القرون الأخيـرة ، قـد أصـابها التخلـف و الانحطاط لجملة من الأسباب أهمها : تكالب أوروبا عليها ، و سعيها للقضاء على قوتها ، فإن الإسلام لم يكن هو الباعث على التقهقر الحاصل ، بل هناك بواعث أخرى لا تخل أمة من الأمم منها في تقديره .

و يستشهد الأمير شكيب على رأيه هذا بأوروبا ، التي ظلت منحطـة و متخلفـة تخلفـا شديدا ، من بعد إعتناقها للمسيحية بألف سنة ، و قد بلغت من الانحطاط مبلغا عظيما ، إلى الحد الذي تمكن فيه مائة عربي من إفتتاح جزء من إيطاليا و جزء من سويسرا فـي أوائـل القـرن العاشر الميلادي ، و الاستيلاء على معظم الجبال و المضايق ، و بنـاء القـلاع و الأبـراج ، فخضع لهم ملوك و شعوب تلك البلاد ، خضوعا تاما نحو قرن بأكمله ([2]) .

فكما أن همجية أوروبا في تلك الحقبة ، ليس المتسبب فيها الدين المسيحي ، فإنحطـاط العرب و المسلمين في القرون الأخيرة ، لم يتسبب فيه الدين الإسلامي : (و إنمـا هـي أدوار تتعاقب ، وتارات تتناوب ، و كل مملكة مدنية تطرأ عليها أحوال من داخلهـا و مـن خارجهـا فتشقى و تسعد ، ثم تعود فتشقى ثانية ، ثم تعود و تسعد ثانية و هلم جرّا . و لقد سعدت قرطاجة ثم شقيت و كان دينها واحدا ، و لقد علت روما في أيام الوثنية ثم سقطت في أيام النصرانية فهل كان الدين هو السبب في سقوطها ؟) . و عليه فمن العبث لدى الأمير شكيب، القول بان الدين

([1])– عبد التواب يوسف ، المرجع السابق ، ص 54 و ما بعدها .

([2])– لوثروب ستودارد ، م 1 ، ج 2 ، مصدر سابق ، ص 342 .

المسيحي أو الإسلامي هما سبب تقدم أو تأخر الأمتين المسيحية أو الإسلامية ، و إنمـــا التـــأخر و التقدم ، هما محصلة لمقدمات و أسباب تتراكم مع الزمن .

و يدعم رأيه في القضية ذاتها ، بالمثال الياباني ، حيث أن اليابان عملت على أخذ ما عند الأوروبيين من علوم و معارف و فنون ، و أبقت على شرقيتها في كل شيء ، بل أنهـــا أبقـــت على دينها مذهب " سيفتوا " مع مذهب " بوذا " فلم تتخلى عنهما . و بالتـــالي فمـــن الخطـــأ ، الاعتقاد بأن اليابان استخفت بالدين ، بعد أن قطعت أشواطا كبيرة في التقدم و الرقي ، فإذا كان بها فئة من الدهريين (المعادون للدين كدين) أو الطبيعيين ، فهم موجودون في كل الأمم ([1]) .

و في المحصلة ، أن الدين لم يكن سببا في تقهقر المسلمين و الأوروبيين على حدّ سواء ، مهما حاول معادوه تبرير ذلك بنظر الأمير شكيب ، و إنما أسباب أخرى لا تتصل بالدين ذكـــر بعضها فيما سبق ، و لمح إلى أن الدين قد يكون عاملا مهما و فعالا في عملية الرقي و التقدم ، إذا استخدم على وجهه الصحيح مثلما ما حدث في التاريخ العربي الإسلامي ، أثنـــاء عصـــوره الأولى . و بعبارة أخرى أن الدين في حد ذاته ، ليس هو المشكلة ، و إنما كيفية توظيفه ، فقـــد يكون تأثيره سلبيا مثلما يكون إيجابيا . و بالتالي فإن المسؤولية لا تقع على الدين ذاته ، و إنمـــا على من يوظفه و يطبقه في أرض الواقع .

و في هذا الإطار التحليلي ، يذكر الأمير شكيب أن ، خصوم الـــدين مـــن الغـــربيين ، يزيدون على إدعاءاتهم السابقة ، بقولهم أن الشريعة الإسلامية هي الأخـــرى معيقـــة للتطـــور و الرقي ، لكونها أحاطت بأمور المعاد و المعاش ، و جاءت بأحكام سرمدية لا تقبـــل التغيـــر أو التبدل ، و فرضت تطبيقها في كـــل زمـــان و مكـــان ، دون مراعـــاة لإخـــتلاف الأزمنـــة و الأمثلة ... إلخ ، إلى غير ذلك من الأقوال ، التي تقال و تروج دون روية أو تبصر ، و مـــن أصحابها من يدرك حقيقة الأمر ، لكنه يتجاهل ذلك متعمدا ، بفعل كراهيته للإسلام ، فيعمل على هدمه ، و منهم من يرويها على سبيل الحكاية ، ظنا منه أن لها بعض التأثير على الواقع الـــذي آل إليه العرب و المسلمون ([2]) .

([1])– لوثروب ستودارد ، م 1 ، ج 2 ، مصدر سابق ، ص ص 109 – 343 .
([2])– المصدر نفسه ، م 2 ، ج 3 ، ص 343 .

لكن إدعاءات هؤلاء ليست أمرا غريبا بالنسبة للأمير شكيب ، لكن الأغرب عنده ، هو تأثر بعض أبناء العرب و المسلمين بتلك الأقاويل و الأفكار ، و قد نعتهم بالمسلمين " الجغرافيين " و وضع في مقدمتهم الأتراك " الأنقريين " (نسبة إلى العاصمة التركية انقرة) من شيعة " مصطفى كمال أتاتورك " الذين أيدوا الأوروبيين في تلك المزاعم ، وذهبوا إلى أن تأخر البلدان العربية والإسلامية بما فيها تركيا ، ناتج عن اختلاط أمور الدنيا بالدين ، وعملها بشريعة سماوية ، أرادت فرضها لوحدها وجعلها سرمدية ورد كل شيء إليها . ولهذا ترى هذه الفئة ، أن لا حل للعرب والمسلمين ، لكي يتدرجوا في مدارج الرقي والتقدم ، من ترك الشريعة القديمة البالية ، التي أضحت لا تتجاوب مع عصرنا الحالي ، وأن تأخذ بشرائع وقوانين هذا العصر ، التي صلحت لكونها وضعت بهذا العصر : ((نحن لا نريد شرعا فيه قال وقالوا ولكن شرعا فيه قلنا ونقول)) .

وفي رده على ما اعتبره مزاعم الكماليين ومن تبعهم ، نفى الأمير شكيب وجود قانون أو شرع في العالم يخلو من (قال) و (قالوا) ، ولا يعود في منابعه إلى قواعد وأوضاع وأقوال تعود إلى مئات أو ربما آلاف السنين . أما زعم " الأنقريين " بأنهم عملوا بمقتضى (قلنا) و (نقول) ، وأرادوا مواكبة عصرهم فهو غير صحيح ، لأنهم في حقيقة الأمر أرادوا التفرنج فقط بحسبه . أما عملهم بمجلة الأحكام العدلية في المعاملات المدنية ، فلم يكن عين الحكمة والصواب ، وقد برر ذلك بقوله أن :((القاعدة في القوانين هي أنها لا تفيد إلا إذا كانت مطابقة لأذواق الأقوام التي تطبق في محاكمهم وموافقة لمشاربهم وعاداتهم وأخلاقهم)) ([1]) .

ويواصل فيقول ، أن الأتراك حينما أخذوا بقانون سويسرا المدني ، وبقانون الجزاء الإيطالي ، قد أخذوا بقوانين لا تتناسب إطلاقا ، مع عقليتهم وذوقهم ومنازعهم ومشاربهم . وأنه لا يتصور أنهم حققوا أي استفادة منها ، إلا الحيرة في القضاء والصعوبة في التطبيق . وقد بلغه أنهم لجأوا فيما بعد ، إلى إدخال تعديلات كثيرة عليها ، بعد أن كانوا قد أخذوها كما هي . ومنه فقد اعتبر الأمير ذلك كله سفسطة ، واستشهد بالكاتب الفرنسي " موريس برنو "(MAURICE PERNOT) ، الذي كان من أشد المبتهجين بإدارة تركيا ظهرها للتقاليد والقواعد الإسلامية ، حيث نفى أن تكون القوانين السويسرية والإيطالية مقطوعة الجذور و جاء ذلك في

([1])- لوثروب ستودارد ، م2 ، ج3، مصدر سابق ، ص ص 343 -344 .

قوله : ((وأن هذا القانون المدني السويسري الذي اتخذته تركيا لنفسها يتضمن أصولا وقواعد ترجع إلى التشريع الروماني القديم فهي أقدم عهدا من الفقه الإسلامي الذي يزعم مصطفى كمال أنه ألغاه بسبب توغله في القدم . وأما قانون العقوبات الإيطالي الذي اتخذته تركيا لنفسها أيضا فهو قانون روماني مسيحي وإيطالي كاثوليكي وفيه من الأوضاع اللاتينية القديمة والأعراف المسيحية الموروثة ما ينكره إلا مكابر)) .

وبعد ذلك يتساءل الأمير ، كيف يكون كمال أتاتورك يقود أمته على نهج عصري بحت ، لا وجود فيه (لقال) و (لقالوا) ولا لرأي قديم ؟ . ثم يجيب بأن " أتاتورك " نسي ، أن القوانين لا يجب فقط أن تسن وفقا للزمان فقط، بل وفق المكان أيضا ، وأن بين المكانين تركيا وسويسرا من جهة وتركيا وإيطاليا من جهة ثانية ، فرقا شاسعا في المشارب والمذهب والأعراف والعادات . ويضيف بأنه فضلا عن ذلك ، بأن سويسرا بلاد متصلة بعضها ببعض ، وسكانها لا يصل عددهم إلى أربعة ملايين نسمة ، وهم لا يزالون غير متفقين على قانون واحد ، حيث تجد في المقاطعة الواحدة قانونا يختلف عن قانون المقاطعة الثانية ، بفعل اختلاف الأعراف والعادات بينهما . فإذا كان هذا هو الحال ، بين مقاطعتين في سويسرا ، فكيف تكون درجته بين هذه الأخيرة في تركيا . وإذا كان القانون المطبق في " جنيف " (*) ، لا يلاءم أهل " لوسرن " (**) على سبيل المثال ، رغم أن المسافة بينهما بضع ساعات فقط، فكيف يلاءم قانون سويسرا سكان " ديار بكر " (***) و" سيواس " (****) و" قرة حصار " ، مع

(*)- " جنيف " (GENEVE) : عاصمة دولة سويسرا ، تقع على بحيرة " ليمان " ، كانت مقرا لعصبة الأمم 1919م-1939م ، تحتضن عدة منظمات دولية منها : الصليب الأحمر الدولي ، مكتب العمل الدولي ، منظمة الصحة العالمية ،إتحاد المواصلات الدولية . تشتهر بجامعاتها ومتاحفها ، وبصناعة الساعات والمجوهرات . المنجد في اللغة والأعلام .

(**) - " لوسرن " (LUCERNE) أو " لوتسرن " (LUZERN) : مدينة سويسرية تقع على نهر " دوس " وبحيرة " كاتركانتون " ، تشتهر بمنتجعاتها الصيفية وبالموسيقى وبالأبراج والأسوار القديمة والحدائق الرائعة والمصنوعات الحرفية . المنجد في اللغة والأعلام .

(***)- " ديار بكر " : مدينة في تركيا ، تقع على نهر دجلة شرقي " الأناضول " ، كانت تسمى قديما " أمد " بها أسوار بيزنطية وجامع من القرن 9 م ، وتعرف أيضا بضاعتها الحرفية . المنجد في اللغة والأعلام .

(****)- " سيواس " (SIVAS) : مدينة تركية في شرقي الأناضول عند سفح " كيزيل أرماق " 1347م ،

الاختلاف الشديد بينهما ي كل شيء ، يتساءل الأمير شكيب ؟ ([1]) .

وبناء على هذا الرد المستفيض من قبل الأمير شكيب،على النهج الذي اعتمده " كمال أتاتورك " وأتباعه، لتحقيق الرقي والتقدم لتركيا ، بالتنصل لكل ما هو إسلامي وشرقي ، وتبنى المذاهب والنظريات والقوانين الغربية جملة وتفصيلا ، ولو كانت تتعارض صراحة مع خصوصية الأمة التركية، التي تدين بالدين الإسلامي، وتمتد جذورها التاريخية والاجتماعية في الشرق وليس في الغرب ، تتضح لدينا الأهمية الكبرى التي يوليها الأمير شكيب أرسلان للدين الإسلامي ، في حركة تستهدف معالجة التقهقر والتأخر الحضاريين، اللذان كانت تحياهما الأمم العربية والإسلامية في عصره .

وقد لاحظنا،أنه حاول أن يناقش أفكار ومزاعم من سماهم بالأنقريين " و" الكماليين " ، نقاشا يقوم على الحجة والمنطق لا على العاطفة والحماسة ، وهو بذلك يطرح مسألة الأصالة والاغتراب . فالأصالة تعني في جانب منها؛ مضاهاة الأسلاف، والتميز عن الغربيين الذين يمثلون السيادة الحضارية والسياسية في العالم . في حين يعني الاغتراب؛ الانبعاث الحضاري عن طريق تقليد الغرب جملة وتفصيلا ، حيث يتقمص العرب والمسلمون دور التلميذ أمام الغرب، الذي يتمتع بدرجة الأستاذية ([2]) .

وهما من أكبر القضايا الحضارية، التي طرحت في عصر الأمير شكيب ، وقد خص تركيا دون غيرها من البلاد العربية والإسلامية ، لكونها كانت السباقة إلى رفع شعار العصرنة والتحضر بداية من عهد حكم " مصطفى كمال أتاتورك " ، بالتجرد من موروثها الديني المتمثل في الإسلام، الذي كانت تستند إليه الحكومات والدول التي قامت قبل مجيء أتاتورك إلى السلطة ، فهو القائل بكل صراحة وجرأة : ((إن الإمبراطورية العثمانية قامت على أسس الإسلام ، إن الإسلام بطبيعته ووضعه عربي وتصوراته عربية ، وهو ينظم الحياة من ولادة الإنسان إلى

هي " سبطية " في القديم . المنجد في اللغة والأعلام .

([1])– لوثروب ستودارد ، المصدر السابق ، م2، ج3، ص ص 345 – 46 .

([2])– ينظر عبد الله العروي : " قضية التراث والانبعاث الحضاري " ، مجلة الفكر العربي المعاصر ، مركز الإنماء القومي ، بيروت : العدد 12 / مارس 1981 ، ص 18 وما بعدها .

وفاته ويصوغها صياغة خاصة ، ويخنق الطموح في نفوس أتباعه ، ويقيد فيهم روح المغـــامرة والاقتحام ، والدولة لا تزال في خطر مادام الإسلام دينها الرسمي)) ([1]) .

والأمير شكيب في رده على الحجج المقدمة من طرف الكماليين ، اســتبعد صـــحة أيّــا منها ، معتبرا إياها غطاءً ، تختفي وراءه تلك الفئة المستعمرة من طرف الإفرنج ، التي تريد أن يلبث الأوروبيون متسلطين على بلادهم ، بشتى الطرق والوسائل ، ومنها قولهم أن الإسلام دين جمود ومصدر للفوضى والاضطراب. متناسية أن بعض علماء الغرب ، الذين يشــكلون مــثلا أعلى لها كانوا متمسكين بالدين ، رغم نبوغهم العلمي الكبيــر ، ومــنهم " لــويس باســتور " (LOUIS PASTEUR) (*) ، الذي احتل منزلة رفيعة في العلم والاكتشــافات الكيماويــة والتي لم يسبقه إليها أحد ، و" غلاد سطون " (GLADSTON) ، الذي بلــغ شــهرة كبيــرة وعرف بتوقد ذهنه ، كان من أشد الناس تمسكا بالدين ومن المؤمنين ، بأن السيد المســيح إلــه وإنسان . وهو ما يعني أن الإلحاد التام ، أو رفض الاعتقاد بكل ما هو خارج المــادة ، لــيس بشرط في سمو العقل ، ولا بحجة على التبحر في العلم ([2]) .

فالرقي والتقدم في فلسفته ، لا يعني البتة الانسلاخ من المقومات الشخصية والقيم الذاتية ، سواء تعلق الأمر بالعرب والمسلمين، أم بغيرهم من الأمم والأقوام ، فبإمكانهم أن يحققوا ذلــك دون الحاجة إلى استبدال ثوابتهم بثوابت غيرهم . أما القول بغير ذلك ، فلــيس لــه ســند فــي التاريخ ، فأوروبا نفسها لم تستطع أن تتخلص من العنصر الديني حتى فــي عصــر النهضــة والتنوير ، رغم الحساسية الكبيرة التي ظهرت إزاء الدين، فــي هــذه الحقبــة مــن التــاريخ الأوروبي ([3]) .

([1])– أبو الحسن علي الندوي : الصراع الفكري بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الاسلامية ، مرجع سابق ، ص 50 .

(*)– " لــويس باســتور " – LOUIS PASTEUR – : (1822م – 1895م) عــالم فرنســي ، عــرف بدراساته حول الجراثيم ، واكتشافه لقاحا ضد الكلب .

([2])– لوثروب ستودارد ، المصدر السابق ، م1 ، ج2 ، مصدر سابق ، ص 165 .

([3])– هشام جعيط : " جدلية الماضي والحاضر من سؤال الماضي إلى سؤال المســتقبل. التــاريخ العربــي : امتداد على فضاء زمني شاسع " ، مجلة الفكر العربي المعاصر ، مرجع سابق ، ص 91.

2- اقتحام غمار العلوم والاقتصاد :

أكد الأمير شكيب على أنه بإمكان العرب والمسلمين ، أن يصلوا إلى ما وصل إليه غيرهم من التقدم والتمدن ، شريطة أن يتعلموا العلوم العصرية ، التي تفتح لهم مجال الإنشاء والعمران التي بلغها الأوروبيون ، فلا يوجد فرق في القابلية البشرية، إذا نفضوا عن أنفسهم غبار الخمول ، وأبطلوا القاعدة التي كانت سببا في انحطاطهم ، وهي أن كل عمل عمراني في الشرق ، لا بد أن تقوم به شركة أوروبية،وإلا انتهى إلى الفشل الذريع . فلقد أثبتت التجارب فساد هذه النظرية ، إذ تمكن مسلمون من تأسيس شركات صناعية وتجارية ومصانع ومناسج، حققت نجاحا مذهلا ، كذّب ادعاءات تلك الفئة المثبطة ، وجعلها موضوعا للسخرية ([1]) .

وبطبيعة الحال ، لا يمكن تحقيق النهضة العلمية تلك، إلا في وجود علماء ، اشترط فيهم الأمير شكيب، أن يكونوا مثالا لما كان عليه العلماء الأوائل ، الذين فضلا عن نبوغهم العلمي ، فإنهم كانوا يتولون تقويم سياسة الأمراء ، وكانوا بمثابة المجالس النيابية في عصرنا الحالي ، يسددون خطوات الحكام ، ويرفعون أصواتهم كلما صدر ظلم من الدولة ، ويحضون الخليفة للعودة إلى جادة الصواب . فبهذا استقامت الأمور في بلدانهم ، لأن غالبيتهم كانوا يتحلون بالزهد والورع ونبذ الشهوات ، لا يهمهم إن غضب الملك عليهم أم رضي عنهم ، فالكل يهابهم حاكما أو محكومون ، يخشون مخالفتهم ، لأنهم يعلمون أن العامة تنقاد لهم ، وأن الأمة تعتقد إمامتهم ([2]) .

ومن الواضح أنه ، يشير إلى أن التخلف العلمي لدى العرب والمسلمين ، ليس مرده عدم قدرتهم وأهليتهم على خوض غماره ، فهو في متناول كل الشعوب والأمم على حد سواء ، وإنما العلة في ذلك، تكمن في العوائق الفكرية الناجمة عن الشعور بالضعف والعجز ، الذي جعلهم يسلمون بأن عقولهم إنما وجدت لتعطيلها عن الإنتاج ، رغم أن الإسلام دعا إلى السير في

([1])- شكيب أرسلان : لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم ؟ ، مصدر سابق ، ص 152 .

([2])- المصدر نفسه ، ص ص 74 – 75 .

الأرض وحث على العمل والاجتهاد والبحث ، وهو ما أدركه جيل القرون الأولى . ونافلة القول أن الانحسار الحضاري أو الأزمة الحضارية المعاشة ، هي بالدرجة الأولى أزمة فكرية ([1]) .

كما أنه ربط بين تحقيق النهضة العلمية، التي لا غنى عنها للرقي العمراني والاقتصادي ، وبين إصلاح حال العلماء الذين رأى أنه يتوجب عليهم ،أن يؤدوا دورهم كعلماء حقيقيين ، لهم السلطة المعنوية الكاملة على حكامهم ومجتمعاتهم ، تلكم السلطة التي فقدوها منذ عدة قرون ، وتحولوا إلى تبع لدى أصحاب القرار ، يوجهونهم ويسيرونهم، وفق ما يخدم أمزجتهم ومصالحهم السياسية والمادية ، على حساب مصالح المجتمع أو الأمة ، عن طريق الترهيب والترغيب . والحل عنده لمعالجة هذا الوضع الخاطئ ، هو الإقتداء بالعلماء الأوائل ، الذين أمسكوا بزمام القيادة والريادة ، بنكران الذات والترفع عن كل ما يسيء إلى مكانتهم ومنزلتهم العلمية والاجتماعية ، فنالوا الاحترام والمهابة من الحكام والمحكومين . وقد حفل التاريخ العربي والإسلامي ، بنماذج كثيرة من أولئك العلماء .

ومنه ندرك أن الأمير شكيب ، أولى أهمية كبرى لواجب العلماء نحو الأمة ، انطلاقا من كونهم الصفوة التي لا تتحقق بدونها النهضة بصفة عامة والعلمية بصفة خاصة، فهي التي تفكر وتبدع وتنتج وتوجه ([2]) وتراقب، فإذا تخلت عن هذه الوظيفة ، تكون قد تخلت عن واجبها ، وهو ما حصل لدى العلماء العرب والمسلمين في قرون الانحطاط .

إن حاجة العرب والمسلمين إلى العلم ملحة جدا، ولهذا وجدنا الأمير شكيبا ينصحهم باقتباس العلوم الأوروبية ، مع محافظتهم على معتقداتهم ومقوماتهم الشخصية ([3]) ، وهو في ذلك يوافق صديقه المغربي " أحمد بلافريج " ، الذي نصح المغاربة ، أن يقتبسوا العلوم الأوروبية مع التمسك بخصوصياتهم الدينية والثقافية والاجتماعية ، انطلاقا من اعتقاده بعدم وجود علم أوروبي وآخر شرقي ، فالعلم مشترك بين كل البشر ، واليابانيون اقتبسوا من الغرب

([1])- أحمد محمد كنعان : أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق ، ط1، مركز البحوث والمعلومات ، قطر : 1990م ، ص 9 وما بعدها .

([2])- كريم جبر الحسن ، المرجع السابق ، ص 118 .

([3])- أحمد الشرباصي : شكيب أرسلان من رواد الوحدة العربية ، مرجع سابق ، ص 7 .

ما رأوا أنه نافع لهم ، وحافظوا على شخصيتهم ودينهم ، فالتفرنج في نظره من أسوأ الأشياء ، والأمم مهما كانت من الواجب عليها أن تصون كيانها ، فكيف بأمة عظيمة مثل الأمة الإسلامية التي لها تاريخ عريق ؟ ([1]) .

فالطريقة الأنجع والأسرع ، لتقدم الأمم المتخلفة حضاريا وثقافيا ، هي أن لا تتبع خطوات من سبقها من الأمم ، بل أن تأخذ بكل المستحدثات العلمية والصناعية،الموجودة لدى الأمم المتقدمة في العصر الحالي ، فهذه الطريقة لا تؤدي إلى تحقيق المساواة مع تلك الأمم الراقية فحسب ، بل قد تؤدي إلى التفوق عليها ، والمثال الياباني خير دليل على ذلك . وفي هذا المضمار ، ليس أمام الأمم العربية والإسلامية أي عائق ، فبإمكانها أن تصل إلى أحدث وأجود وسائل التمدن ، بواسطة البحث العلمي ، فتوفر بذلك الملايين من الأموال ([2]) .

وعلى هذا الأساس ، يظهر لنا أن الأمير شكيب ، قد حدد وسيلتين للعرب والمسلمين ، لكي يحصلوا على التفوق العلمي ، وهما الاقتباس والبحث العلمي ، فأما الأول فقد شجع عليه لكن ربطه بالتمسك بالمقومات الشخصية وعدم الانزلاق إلى التقليد والتغريب ، ومعناه أنه من أنصار أخذ الجانب العلمي المحض وترك غير ذلك . أما الثاني وهو المهم بالنسبة إليه ، إذ قدمه على الأول ، وطالب بإيلائه الأهمية الكبيرة ، ولذلك وجدناه يوصي أثناء رحلته إلى الحجاز بتكوين هيئة جيولوجية لدراسة البحر الأحمر ([3]) .

إن التفوق في العلم الحديث، أمر ميسر بالنسبة للبلدان العربية والإسلامية يقول الأمير شكيب ، إذا تحلت بالعزيمة وصبت اهتمامها على الجانب الفكري ، فإذا حصل ذلك فإن المتوقع هو التمكن من الصناعات الحديثة ، وفي ذلك يرى بأن المثال الياباني خير دليل على صحة نظريته ، فإلى غاية سنة 1868م ، كانت اليابان أمة كباقي الأمم الشرقية التي تعيش على القديم ، فلما أرادت اللحاق بالأمم المتقدمة ، تعلمت علوم الأوروبيين وصنعت صناعاتهم ، وكان لها ما أرادت خلال خمسين سنة ، ومع ذلك ظلت متمسكة بمقوماتها الشخصية .

([1])- شكيب أرسلان : آخر بني سراج ، مصدر سابق ، ص 171 .

([2])- نجيب البعيني ، المصدر السابق ، ص 426 .

([3])- شكيب أرسلان : الإرتسامات اللطاف ، مصدر سابق ، ص 09 .

والأمم العربية والإسلامية ، بإمكانها أن تنهج نهج اليابـان ، فتـنهض وتلحـق بـالأمم الراقية ، دون أن تتخلى على إسلامها ، فمثلما تعلم اليابانيون كل علوم الأوروبيين ، وأصـبحوا ينافسونهم فيها ، وبقوا محافظين على دينهم وأوضاعهم ، فالأمر ذاتـه ينطبـق علـى العـرب والمسلمين فلا فرق بينهما في هذا الجانب ([1]) .

لقد كان شعار الحداثة اليابانية : ((إلحقوا بالغرب واسبقوه)) ، وكانت فلسفتها تقوم على أخذ كل ما هو جيد من الأجنبي ، حتى إتقانه إتقانا تاما ، وإدخال الطابع الغربي فـي مجـالات متعددة ، دون أن يعني ذلك ، الاصطباغ تماما باللون الغربي . فالحداثة مسألة طبيعية مطلوبة ، ويمكن تحقيقها من غير اللجوء إلى استيعاب الجانب الروحي للآخر ، الذي نقتبسه مـن العلـوم والمعارف والتقنيات.

وتجدر الإشارة هنا، أن محافظة اليابان على أصالتها وتقاليدها، كانت قضية فـي غايـة الجدية ، ففي الوقت الذي تفتحت فيه على العلوم والثقافات الأوروبية ، فإنها بالمقابل لـم تكـن متسامحة مع أية محاولة لاستغلال الفرصة، من طرف الدول الأوروبية لاختراقها دينيا وثقافيا ، فبمجرد أن تزايد نشاط المبشرين المسيحيين القادمين من أوروبا ، والذي كانوا قد بـدؤوه منـذ منتصف القرن السادس عشر ، وأثمر اعتناق بعض اليابانيين للدين المسيحي ، سارعت الحكومة اليابانية على الفور، إلى إغلاق حدود البلاد أمام الأوروبيين ،عدا التجار الهولنديين الذين لم يكن هدفهم تغيير الثقافة والدين والمبادئ اليابانية . وبذلك حصنت نفسها من الغزو الثقافي الخارجي ، وضمنت دخول العلوم والتنمية والطباعة الغربية ([2]) .

لكن ذلك لم يكن ليتحقق ، لولا وجود نخبة سياسية، مدركة بأن أي مشروع يهدف إلـى تغيير المجتمع والنهوض به ، لابد أن يعتمد على جهاز دولة يعمل على تمريره، ووجود قاعـدة اجتماعية قادرة على دعمه والذود عنه ، وبأنه لا : ((سبيل للنهوض بالمجتمع اليابـاني وبنـاء دولة مستقلة ومهابة دون تحديث البلاد علـى جميـع المسـتويات وذلـك إقتـداء بالتجـارب الغربية)) ([3]) .

([1])- شكيب أرسلان : لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم ؟ ، مصدر سابق ، ص 78 .

([2])- ينظر علي المحجوبي ، المرجع السابق ، ص 162 وما بعدها .

([3])- ينظر المرجع نفسه ، ص ص 168 – 169 .

فإذا كان الأمير شكيب ، قد أظهر إعجابه الشديد بالتجربة اليابانية الرائدة ، التي نقلت اليابان من حياة العصور البدائية إلى قمة العمران والتحضر ، فإنه بالمقابل تأسف للأفكار السخيفة التي تروجها، فئة من ضعاف النفوس والعزائم من أبناء العروبة والإسلام ، الذين لم يجدوا حجة يبررون بها عجزهم وتخلفهم، سوى القول بأن الغرب متفوق عليهم ماديا ومعنويا ، ولا سبيل لمجاراته والوقوف في وجهه ([1]) .

فسنن الحياة تقر بعكس ذلك ، ومنه لا مكان لتلك السفاهات التي ينبغي التوقف عنها ، والإسراع في النهضة الصناعية والزراعية ، لأن إمكانات نجاحهما متوفرة على نحو كبير . وفي هذا الإطار وجه رسالة إلى صديقه الأستاذ " عبد السلام بنونة " في المغرب، قال له فيها أنه جد مسرور لخبر إنشائه لمعمل بمدينة " تطوان " المغربية، لتطوير الإنتاج المحلي للثياب ، وأن السلاح الوحيد الذي بقي لنا في أيدينا في وقتنا الحاضر ، هو الاجتهاد في إصلاح شؤوننا الاقتصادية ، حتى نقارع بها الاستعمار فنحقق هدفان أساسيان : الأول يتمثل في التخلص من الفقر الذي نحياه ، والثاني أن الاستعمار لما يرى بضاعته قد كسدت ، يزهد في الاستعمار فيتراجع تكالبه على استنزاق جميع ثرواتنا وقوانا . وختم الرسالة بحث صديقه على الاستماتة ، لأنها حرب اقتصادية شرسة ، ينبغي فيها التشجيع على الإنتاج الصناعي الوطني ، وهو السلاح الذي راهنت عليه الدولة الهندية ونجحت فيه . كما دعا العرب والمسلمين ، إلى المزيد من العمل والمواظبة ، حتى وإن كانت النتائج في البداية ضعيفة ، فإنها ستتحسن مع مرور الوقت ([2]) .

وفي المضمار ذاته ، أرسل سنة 1922 إلى بعض أصدقائه في شرق الأردن ، يستفسرهم إن كانت توجد هنالك معادن من فضة أو فحم أو فوسفات أو بترول ... أو غير ذلك ، فيرسلون له مقدارا من تراب كل معدن منها 3 أو 4 كلغ ، ليسلمها لمن يقوم بتحليلها ، تحقيقا للمصلحة العامة ([3]) . كما عاتب حكومة شرقي الأردن ، على تقصيرها بعدم ترويج الآلات الزراعية الحديثة ، رغم أنها من مهامها الأساسية، مذكرا إياها بأنها محط أنظار الجميع ، فإذا نهضت

([1])- شكيب أرسلان : لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم ؟ ، مصدر سابق ، ص 22 .

([2])- عبد السلام بنونة ، المصدر السابق ، ص 128 ، 215 ، 216 .

([3])- نجيب البعيني ، المصدر السابق ، ص 103 .

ببلدها ، حذا حذوها الجميع والعكس صحيح . وحاول أن يلفت نظر العرب والمسلمين، إلى ما يقوم به اليهود في مزارع فلسطين ، وبين لهم أن شرق الأردن بلاد زراعية حقيقية ، ومصلحته تكمن في الزراعة . وأوضح أنه يتعين عليهم ، أن يضاعفوا ثرواتهم ووارداتهم ، ويحفظوا استقلالهم وأوطانهم ، باستخدام الأدوات الزراعية الحديثة ، وتشجيع الفلاحين على استخدامها وترك الأدوات التقليدية ([1]) .

وفي سنة 1925م ، أرسل رسالة من تركيا إلى " نبيه العظمة " (1886م – 1927م) في القاهرة ، يخبره فيها بأنه أبلغ ، أن الألمان اكتشفوا آلة لاستكشاف ما يحويه باطن الأرض من معادن وزيوت ، ولأن الاختراع يشكل انقلابا هائلا في المجال الاقتصادي ، فبإمكان العرب الاستفادة منه باستئجارها من الشركة ، شريطة أن تتولى الاستثمار إذا كان الاستكشاف ايجابيا ([2]) .

ومن خلال التمعن في مضمون هذه الرسائل ، يتجلى لنا أن الأمير شكيبا، كان يشجع أية مبادرة في البلاد العربية والإسلامية ، تهدف إلى تحقيق النهضة الصناعية والزراعية ، مهما كانت بسيطة ، لأن التقدم الاقتصادي في تقديره ، يبدأ بالمبادرات الصغيرة ، التي لا شك أنها ستنمو وتتطور إن هي وجدت الدعم والعناية اللازمين . وبالتالي فإنه ممن يدعون إلى الاعتماد على الإمكانات الذاتية في تمويل المشاريع الاقتصادية ، وهو ما لجأ إليه رجال الإصلاح في اليابان ، الذين كانوا يرون أن النهضة ، لا يمكن أن تقوم على الموارد الخارجية ، وأن المديونية تتعارض مع التنمية الحقيقية ومع الاستقلال والسيادة ، إذ أنها تمهد الطريق للتدخل الخارجي في البلاد والهيمنة عليها ([3]) .

وفي المقابل، سعت إلى الاستفادة من الخبراء والفنيين الأجانب ، لنقل العلوم والتقنيات الغربية الحديثة إلى اليابان ، والسير بها على خطى الدول المتقدمة ، لكنها كانت حذرة في الاعتماد على هؤلاء الأجانب ، حيث كانت تعمد على التعاقد معهم بعقود قصيرة المدى ، وتحرص على تعويضهم تدريجيا بإطارات وطنية، جرى تكوينهم في الجامعات والمعهد الغربية

([1])– نجيب البعيني ، المصدر السابق ، ص ص 102 – 103 .

([2])– المصدر نفسه ، ص ص 147 – 148 .

([3])– علي المحجوبي ، المرجع السابق ، ص 179 .

ثم في اليابان ، والغاية من ذلك تحقيق الاكتفاء الذاتي ، في هذا المجال الذي يتميز بالحساسية ، لوضع حد للتبعية ، وتوفير أسباب الاستقلال والسيادة ([1]) .

وقد لاحظنا أن الأمير شكيب، قد كان حذرا هو الآخر في هذا الجانب ، حتى وإن دعا إلى الاستعانة بالخبرة الغربية، ومنها الألمانية في مجال استكشاف واستخراج المعادن والطاقة ، إذ قال في ذلك ، أنه من الأحسن أن نظل فقراء مستقلين ، من أن يبتلعنا الاستعمار الأجنبي بواسطة معادن ، نبتغي من استثمارها تيسير أحوالنا ، فينتهي بنا الأمر إلى الخسارة .

وفي رده على من يقول بأن استغلال تلك الثروات ، هو مفتاح للتدخل الأجنبي ، قال أنه ليس من الحكمة ، أن نضيع على أنفسنا ثروة نحن في أمس الحاجة إليها ، بحجج واهية ، فالأجدر بنا أن نغتنم هذه الفرصة ، ونقوم باستغلال ما أمكن منها لتقوية جيوشنا ، وإصلاح إدارتنا ، وتعمير بلادنا بدون تسويف أو تأخير ، حتى لا يحدث لنا ما حدث لتركيا ، التي تخاذلت في استخراج الثروات التي كانت تحت سيطرتها ، حتى جاء الأجانب واستولوا عليها . فقد كانت قادرة على الاستفادة من بترول " الموصل " (العراق) منذ زمن طويل ، ولم تفعل بشأنه شيئا ، ولا زالت تتماطل حتى ضيعت ثروة تقدر بالمليارات من الجنيهات . والأمر نفسه فعلته مع ثروات " البحر الميت " ، إلى أن جاء الإنجليز بعد الحرب العالمية الأولى ، وبادروا بتحليل مياهه ، وقدروا ما يمكن أن يستخرج منه ([2]) .

ولذلك أيضا ، اعتبر البترول مصدر قوة للعرب خاصة ، ليس بسبب الأموال التي يمكن الحصول عليها من عائداته ، وإنما بتحويله إلى الطاقة الكهربائية ، التي من شأنها أن تدفع بهم إلى مصاف الأمم الراقية ، لأن المال ليس بالقوة ، بل هو وسيلة خيالية للوصول إلى القوة . إقتداء بالولايات المتحدة الأمريكية ، التي كهربت مزارعها وطرقها الحديدية ، ومصانعها ومعامل البحث والاستكشاف لديها ، وهي مصدر للابتكارات العلمية والصناعية ، وحاملة لواء التقدم البشري ، حققت ما حققته من تقدم علمي وصناعي بفضل القوة الكهربائية .

ويخلص إلى القول ، بأنه من مصلحتنا أن نأخذ المقابل من الشركات الأجنبية التي تستخرج البترول ، بترولا بدل المال ، ونحوله إلى طاقة كهربائية ، نستصلح بها المستنقعات

([1])- علي المحجوبي، المرجع السابق ، ص 178.

([2])- شكيب أرسلان : الارتسامات اللطاف ، مصدر سابق ، ص ص 332 – 333 .

الشاسعة إلى مزارع خصبة ، يشتغل بها الآلاف من الناس ، وتنتج فائضا إنتاجيا ، يلبي حاجات مئات الدول ، وتجعل الأمم الغربية لا تقف أمام إرادتنا ، في صنع الطائرات والمناطيد وغيرها ، وننشأ معاهد البحث والابتكار العلمي ، التي قد نتمكن بفضلها من تحويل الصحراء العربية إلى بلاد معمورة آهلة بالسكان ([1]) .

3- التحلي بالإرادة وروح التضحية :

أكد الأمير شكيب أن الأمم لن تتقدم ، إلا إذا شعرت بأهمية الإرادة والجرأة والتضحية ، إذ لابد للناس أن يبذلوا الأنفس والأموال ، فحب الدنيا لا يتناسب مع حياة الفرد ، والجرأة هي التي تسمح للإنسان بأن يدرك حقوقه ، ولا يأتي له ذلك إلا بالعلم ([2]) . ورد على المثبطين من بعض العرب والمسلمين ، ممن يقولون أنه من المستحيل مجاراة الغرب ، الذي قطع أشواطا عظيمة في الرقي والازدهار ؛ بأن الرقي الأوروبي ، لم يكن سببه البخار وتموجات الهواء والبترول، وإنما النهوض والإرادة . فالأصل في الرقي هو إرادة الرقي ، والطريق ممهد لمن أراده ، فلا يشترط في المرء أن يكون عالما بالفن ، حتى ينشره ويرغب الناس فيه ، " فمحمد علي باشا " كان أميا تقريبا ، لكنه رجل عظيم تمكن من تشييد مدنية مصر الحديثة . و" ابن سعود البدوي " كما يصفه أعداؤه ، لم تمنعه بداوته من استخدام السيارة الكهربائية ، والمواصلات اللاسلكية وغيرها من منتوجات المدينة العصرية ، وقد تم له ذلك في ظرف زمني وجيز ، فحقق انقلابا ماديا مدنيا كبيرا في الجزيرة العربية ، ولو كانت لمملكته مداخيل الحكومة المصرية المقدرة بـ : 42 مليون جنيه في السنة ، لحقق المعجزة في انجاز المشاريع العمرانية في الحجاز بحسب شكيب([3]) .

والأمير شكيب هنا ، يحيل العرب والمسلمين ، الذين سرت في أنفسهم روح الهزيمة والضعف ، إلى تجربتين عربيتين حاولتا استدراك التأخر الحضاري الحاصل في المنطقة العربية ، الأولى قادها " محمد علي باشا " في مصر ، الذي ورغم أميته كما أشار إلى ذلك الأمير ، إلا أنه كان صاحب عزيمة قوية وطموح كبير ، قاداه إلى التأسيس للنهضة المصرية

([1]) نجيب البعيني ، المصدر السابق ، ص ص 426 – 427 .

([2]) – أحمد الشرباصي : شكيب أرسلان من رواد الوحدة العربية ، مرجع سابق ، ص 07 .

(3) – شكيب أرسلان : الارتسامات اللطاف ، مصدر سابق ، ص 70.

الحديثة ، من خلال الإصلاحات الشاملة التي باشرها في فترة حكمه . بدءا بالإصلاحات العسكرية ، التي قصد منها تكوين جيش عصري على غرار الجيوش الأوروبية ، باستطاعته حماية استقلال البلاد ، وضمان سيادتها وتجسيد طموحات " محمد علي باشا " وأهدافه التوسعية (*) . ثم الإصلاحات الاقتصادية ، بهدف تحقيق الاكتفاء الذاتي في الميدانين الغذائي والصناعي، لضمان استقلال البلاد ، وزيادة الإنتاج ، لتنشيط الصادرات، وتوفير رأس المال اللازم للنهوض الاقتصادي (**) . وأخيرا إصلاح التعليم ، بغرض تلبية حاجات البلاد من

(*)- إصلاحات " محمد علي باشا " العسكرية :

1- إقرار مبدأ التجنيد الاجباري للفلاحين ، فكان الجيش المصري جيشا وطنيا ، ضم العنصر الألباني والمصري والسوداني .

2 – العمل على عصرنة الجيش ، من خلال إنتداب الفنيين الأوروبيين لتدريبه وتنظيمه وفقا للمناهج الحديثة في البداية ، ثم السعي إلى تكوين إطارات مصرية كفؤة لتعويضهم ، بإنشاء العديد من المدارس الحربية ، زيادة على إرسال عدة بعثات مصرية إلى أوروبا للتخصص في شتى الميادين العسكرية .

3 – الإهتمام بالأسطول البحري لمواجهة الخطر الخارجي ، بتجهيزه بالقطع الحربية الحديثة المستوردة من أوروبا والمصنعة محليا .

4 – إنشاء العديد من المصانع الحربية ، لتوفير السلاح كالمدافع و البارود والمتفجرات ، وغيرها من الأسلحة الضرورية للجيش . ينظر على المحجوبي ، المرجع السابق ، ص ص 19 – 20 .

(**)- إصلاحات " محمد علي باشا " الإقتصادية :

1 – إنتهاج نمط إقتصادي ، قريب من الرأسمالية الأوروبية .

2 – إقامة السدود ، والتحكم في المياه .

3 – الزيادة في المساحات المزروعة .

4 – تنويع المزروعات ، وفقا لمقتضيات المناخ المصري .

5 – تنمية الصادرات الزراعية ، وتحويل الزراعة المصرية من الإقتصاد المعاشي إلى إقتصاد السوق .

6 – الإهتمام بالصناعات العسكرية والمدنية على حد سواء .

7 – نقل التقنيات الأوروبية الى الصناعة المصرية .

8 – فرض هيمنة الدولة ، على قطاعات الزراعة والصناعة والضرائب.

9 – إرساء هياكل إدارية خاصة بكل الصناعات . ينظر علي المحجوبي ، المرجع نفسه ، ص 20 وما بعدها .

الإطارات الوطنية العصرية، في مختلف المجالات العسكرية والمدنية (*) .

أما التجربة الثانية ، فتلك التي قام بها " عبد العزيز آل سعود " في الحجاز ، فبالإضافة إلى توحيده لعدد كبير من القبائل الحجازية في إطار المملكة العربية السعودية ، فقد تمكن من إدخال التطور إلى المنطقة ، بفضل مداخيل البترول التي أنفقت الحكومة قسما منها في بناء المواصلات ، وإنشاء المدارس والمزارع التجريبية ، وقامت بإسكان بعض قبائل البدو والرحل في مساكن حديثة ، ويسرت لهم سبل العيش . كما حاولت استغلال مصادر المياه ، وتحسين مشاريع الري ، وإقامة سدود المياه ، وتعمير العيون ، وإنشاء بعض المحطات للتجارب الزراعية ، وأولت عناية كبيرة للصناعة التعدينية ... وغيرها من المشاريع التنموية، التي حسنت كثيرا من حياة الحجازيين، ونقلتهم تدريجيا من البداوة إلى الحضارة ([1]).

ومهما يكن ، فإن تحمس الأمير شكيب لتجربتي " محمد علي باشا " في مصر " وآل سعود " في الحجاز ، لا يعني أنهما في نظرنا نموذجين متميزين ، حيث تجنب الحديث عن تبعاتهما السياسية خاصة ، فقد أدى اعتماد " محمد علي باشا " كثيرا على الدول الأوروبية في سبيل تحقيق النهضة المصرية ، إلى فتح أبواب البلاد أمام التدخل الأجنبي ، الذي استفحل فيما بعد في النصف الثاني من القرن 19م ، وأسفر عن فرض الحماية البريطانية على مصر سنة 1882م كما هو معروف ([2]) .

(*)- إصلاحات " محمد علي باشا " التعليمية :

1- إرساء تعليم ، يعتمد برامج ومناهج حديثة على غرار البلدان الأوروبية .

2- الإبقاء على التعليم التقليدي (الدراسات المتعلقة بالدين الإسلامي واللغة العربية) ، الذي يستند إلى التقليد والنقل وتلقين الحقائق المسلمة ، دون إعمال الفكر بينها ، محاباة لرجال الدين .

3- فأنشأ لذلك ، المدارس الابتدائية والثانوية والمعاهد العليا ، على منوال الدول الأوروبية المتقدمة .

4- تشجيع التلاميذ والطلبة وتحفيزهم على العلم ، بتوفير كل المستلزمات التعليمية . ينظر علي المحجوبي ، المرجع السابق ، ص 23 ، 24 ، 25 .

([1])- زاهية قدورة ، المرجع السابق ، ص 24 ، 25 ، 26 .

([2])- ينظر علي المحجوبي ، المرجع نفسه ، ص 28 .

أما تجربة آل سعود ، التي قامت على استغلال الموارد الطبيعية ، المتمثلة في البترول بشكل خاص ، عن طريق الشركات البترولية الأجنبية البريطانية والفرنسية والأمريكية (*) . التي تحصلت على امتيازات التنقيب والاستغلال البترولي في المملكة ([1]) ، فقد مهدت الطريق لهيمنة تلك الشركات على الاقتصاد السعودي ، الذي يمثل فيه البترول مركز الثقل الاقتصادي ([2]) .

ولأن الأمير شكيب ، كان مؤمنا بأن العرب والمسلمين ليسوا أسوأ من الغربيين ، وبإمكانهم أن يحققوا ما حققوه من رقي عمراني واقتصادي ، فإنه راح يحفزهم على المبادرة مع التحلي بالثقة بالنفس وبالإرادة ، فلما عزم السلطان العثماني عبد المجيد الثاني (**) ، على إنجاز مشروع خط السكة الحديدية بين دمشق والمدينة (الشام والحجاز) ، والذي قوبل بالرفض والسخرية ، أي باستحالة إنجازه عمليا لأسباب علمية وطبيعية ، كان الأمير من المدافعين عن ذلك المشروع ، فنظم قصيدة شعرية ، حث فيها الجميع على التبرع بالمال لإنجاحه ، مبينا فوائده الاجتماعية والاقتصادية والفكرية ، بالإضافة إلى تسهيل السفر بالنسبة للحجيج ، كما تبرع بنفسه بخمسة عشر جنيه ، وقد تم إنجاز المشروع وبلغ طوله ألفا وأربعمائة كلم ، وبفضله تم اختصار المسافة على الحجيج من أربعين يوما إلى أربعة أيام ([3]) .

وقد اعتبر نجاح المشروع حجة قاطعة ، على بطلان اعتقاد بعض العرب والمسلمين ، بأنهم لا يحسنون شيئا من المشاريع العمرانية ، وأنه لابد لهم من الأوروبيين لكي يعمروا بلدانهم

(*)– من الشركات البترولية الأمريكية : " ستاندار أويل أوف كاليفورنيا " STANDARD OIL OF) CALIFORNIA) ، وشركة " إيسترن غولف أويل : (ESTERN GULF OIL) التي أصبحت سنة 1936م ، تملك سنة 1936م نصف أسهم إمتياز بترول المملكة ، بعد أن أتحدت مع شركة " ستاندار أويل " لتصبح " أربيان أميركان . أويل كامباني " (ARABIAN AMERICAN OIL CAMPANY) . كارل بروكلمان ، المرجع السابق ، ص 164 ، 165 ، 168 .

([1])– كارل بروكلمان ، المرجع نفسه ، ص ص 162 – 163 .

([2])– زاهية قدورة ، المرجع السابق ، ص 26 .

(**)– عبد المجيد الثاني : هو آخر الخلفاء العثمانيين ، تولى الخلافة سنة 1922م ، خلفا لمحمد السادس ، اضطر إلى مغادرة البلاد عقب إعلان الجمهورية سنة 1923م ، توفي سنة 1944م في باريس .

([3])– شكيب أرسلان : لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم ؟ ، مصدر سابق ، ص 154 .

وأنهم من دونهم لا يستطيعون ، إنجاز أية عمارة أو مرفق ذي أهمية . وعلى خطأ ما ذهبوا إليه، من أنه لا حظ لهم إطلاقا في الأعمال الاقتصادية، وأن كل مشروع يقومون به ، مآله الفشل إذا لم تكن يد أوروبية فيه . وقد طال تمسكهم بهذا الاعتقاد الفاسد ، حتى لم يبقى شيء في بلدانهم ، اسمه اقتصاد ، إلا إذا كانت إدارته تحت إشراف الأوروبي أو اليهودي ، حتى أنه لو أن أحدهم ، أراد إنشاء شركة تجارية أو صناعية أو زراعية، فإنه لا يسمح بدخول رأسمال إسلامي إليها، إلا إذا كانت إدارتها في يد أوروبي أو يهودي :((وكلمة الجميع عندهم : نحن لا يخرج من أيدينا عمل و لا نصلح لشيء)) .

والنتيجة التي تأسف لها الأمير شكيب ، هو أن مثل هذا الاعتقاد السخيف ، هو الذي جعل الأوروبيين واليهود، يتمتعون في البلاد العربية والإسلامية ، قرونا وحقبا طويلة من الزمن ، دون أن يجدوا في طريقهم من يزاحمهم أو ينافسهم ، يحتكرون أسرار الصنائع والحرف إلا ما كان منها تافها ، ولو تم إحصاء ما ضاع من العرب والمسلمين بسبب هذا الوهم ، لوجدنا أن المبلغ يعد بعشرات المليارات ، وكأنهم وجدوا في هذه الدنيا ، ليشتغلوا عمالا وأجراء بأيديهم لا بعقولهم . فهذا هو السبب ، الذي سمح بخلو البلاد ، لأصناف من الأجانب ، يصولون ويجولون فيها بكل حرية، يجمعون الثروات على حساب أهلها المتقاعسين ، محققين مكاسب طائلة كانوا هم أولى بها ، ولو أنهم أخذتهم الغيرة ، فجربوا استغلالها بأنفسهم ، متخلين عن نمط تفكيرهم البليد ، الذي جعلهم جبناء في الأعمال الاقتصادية ([1]) .

وهكذا حاول الأمير شكيب، أن يثبت للعرب والمسلمين، بأنه لا مبرر للحكم بالفشل على المبادرات والمشاريع، التي يقومون بها بأنفسهم ، لأنه لا فرق بينهم وبين الغربيين إلا في الإدارة والتضحية ، اللتان إذا توفرتا تحقق النجاح ، مثلما كان عليه الحال في مشروع سكة حديد دمشق المدينة ، فلا وجود لأقوام أو أمم متقدمة وأخرى متخلفة بالفطرة . فالجد والعمل والمثابرة والتحدي، والمقدرة على البذل والعطاء ، هي الصفات التي تحدد مكانة أي أمة أو قومية أو طائفة دينية .

وفي هذا الصدد، أورد الأمير شكيب ، الكثير من الآيات القرآنية ، التي يرى فيها دليلا على أن الإسلام هو دين عمل، وليس دين كسل واتكال على القدر الذي هو في حكم المجهول ،

([1])– شكيب أرسلان : لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم ؟ ، مصدر سابق ، ص ص 157 – 171 .

مهاجما بذلك دعاة الكسل والخمول الذين سماهم : ((الدراويش البطالون)) ، الـذين يرفعـون شعار: ((رزقنا الله عملنا أم لم نعمل)) . فلقد أراد الإسلام من الإنسان ، أن يعقل ويتوكـل ، وأن يدبر لنفسه بهداية عقله الذي جعله الله مرشدا له ، على أن لا يفرط في الاعتداد بنفسه ، إن هو نجح والحسرة والجزع إذا فشل ([1]) .

وختم حديثه، بدعوة العرب والمسلمين إلى الانتفاضة من اليـأس ، فبإمكـانهم إذا أرادوا بعث العزائم ، وعملوا بما حثهم عليه كتابهم ، أن يصلوا إلى مـا وصـل إليـه الأوروبيـون والأمريكيون واليابانيون، من العلم والرقي . ولا حاجة لهم أن يتخلوا عن إسلامهم ، كمـا لـم يتخلى أولئك الغربيون على أديانهم، بل هم أولى وأجدر . وان أولئك الغربيين رجال والعـرب والمسلمون رجال ، وإنما الذين يعوزهم هو الأعمال ، وإن الذي أضرهم هو التشاؤم والاستخذاء وانقطاع الآمال . فلينفضوا عنهم غبار اليأس، وليتقدموا نحو الأمام ، وليعلموا أنهم سيبلغون كل أمنية بالعمل والدأب والإقدام ، وتحقيق شروط الإيمان التي جاءت في القرآن الكريم ([2]) .

4- <u>الموازنة بين العقيدة والعلوم</u> :

انتقد الأمير شكيب، الآراء القائلة بأن السبيل إلى الرقي والتقدم ، يبـدأ بتـرك العقائـد والأديان ، متسائلا عن سبب التقدم السريع والمذهل الذي تشهده اليابان ، وكيف أصبحت أمـة عصرية ، يضرب بها المثل في الرقي ، رغم أنها تضرب في جذورها إلـى عقائـد وعـادات ومنازع تعود إلى ألف سنة ، ويكون فيها الإمبراطور هو كاهنها الأعظـم ، فـلا يقـال أنهـا (رجعية) أو (مرتجعة) أو (ارتجاعية) ، ومتأخرة ومتقهقرة : ((فإذا كانت اليابان رجعيـة فمرحبا بالرجعية)) .

وتساءل أيضا ، عن كون أن ملك إنجلترا وإمبراطور الهند ورئيس الكنيسة الانجليكانيـة ومجالسه ، يبحثون في جلسات طويلة في قضية الخنزير والخمر ، هل يتحولـون إلـى جسـد المسيح ودمه فعلا ، أم أن ذلك على سبيل الرمز والتمثيل ؟ بمجرد تقديس القسيس ؟، فلا يقـال عنه أنه رجعي ، ولا عن بريطانيا العظمى أنها متأخرة أو متقهقرة . وختم تساؤله قائلا : ((فإذا كانت إنجلترا متقهقرة فيا حبذا للتقهقر)) .

([1])– ينظر شكيب أرسلان : <u>لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم ؟</u> ، مصدر سابق ، ص ص 113 – 114 .

([2])– المصدر نفسه ، ص 177 .

وتساءل أيضا ، لماذا لا نقول عن القارة الأوروبية المسيحية (رجعية) و(ارتجاعية) ، وهي التي تفتخر بمسيحيتها ، وتتباهى بذلك في كل مناسبة ، وهي التي تقدر عمر الديانة المسيحية فيها بـ 19 قرنا ، متحدة مع بعضها البعض رغم ما بينها من منافسات وعداوات . وأضاف بأن الأمر كذلك ينطبق على اليهود ، الذي لا نستطيع أن ننفي عنهم المقدرة والذكاء والحس العلمي والجد الهائل ، لا يزالون رغم كذلك يفتخرون بالتوراة التي وجدت منذ آلاف السنين ، ويشاركهم في الشعور ذاته المسيحيون . ويجتهد شبابهم في إحياء لغتهم العبرية ، التي لا يجهل مبدأ تاريخها ، لإيغالها في القدم ، رغم أنهم بلغوا أشواطا عظيمة في الرقي العصري ، فلا يتهمون بكونهم (رجعيون) و (متأخرون) و (قهقريون) ([1]) .

وبالتالي فإن اتهام العرب والمسلمين بالرجعية ، حكم لا يستند إلى أي دليل منطقي أو علمي بالنسبة للأمير شكيب ، فالتمسك بالخصوصيات ومنها العقيدة أو الديانة ، لن يشكل بأي حال من الأحوال عائقا أمام التدرج في سلم الرقي والتقدم ، وقد ضرب أمثلة حية بالأمة اليابانية التي حافظت على دياناتها القديمة المتمثلة في البوذية (*) والكونفوشيوسية (**)

([1])- شكيب أرسلان : لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم ؟ ، مصدر سابق ، ص 97 ، 98 ، 101 .

(*)- البوذية : وهي الطريق إلى الحكمة ، تنسب إلى " بوذا " (جوتاما سد هارتا) المولود في حوالي العام 563 ق.م ، في " كابيلا فاستو " (KAPILAVASTU) فيما يعرف اليوم باسم " نيبال" -NIPAL – . وقد توصل بعد سنوات من الزهد والانضباط والتقشف ، إلى أنه لا الطرف الأقصى للانغماس في الملذات ، ولا الطرف الأقصى في التقشف الشديد ، يمكن أن يؤدي إلى اكتشاف أسباب المعاناة . وتقوم رسالة الاستنارة عند " بوذا " على أربعة حقائق هي : (هناك معاناة – للمعاناة أسبابها – المعاناة يمكن القضاء عليها من خلال التخلص من أسبابها – السبيل للقضاء على أسباب المعاناة هو إتباع الطريق الوسيط ، الذي يشكله الطريق ذو الشعاب الثماني) . للمزيد ينظر جون كولر : الفكر الشرقي القديم ، ترجمة كامل يوسف حسين ، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت : 1995م ، ص 185 وما بعدها .

(**)- الكونفوشيوسية : نسبة إلى " كونفوشيوس ولاوتسو" ، الذي ولد في عام 551 ق.م ، واستمد تعاليمه من الكتب الكلاسيكية الخمسة وهي :

1- كتاب الشعر (شيه تشينج SHIH CHING) : وهو مجموعة من الشعار تعود إلى عهد " تشو" .

2- كتاب لتاريخ (شو تشينج SHU CHING): وهو مجموعة من السجلات والخطب والوثائق الرسمية من 2000 إلى 700 ق.م .

والطاوية(***) .وبالأمم الأوروبية المسيحية التي لا تزال تتمسك بالعقيدة المسيحية، رغم إتباعها للعلمانية التي تقوم على فصل الدين عن الدولة واعتبار التدين مسألة شخصية . أما الدولة العبرية فقد قامت على العقيدة اليهودية ، وسمت اسمها باسم إسرائيل أحد الأنبياء اليهود ، فالعقيدة جزء لا يتجزأ منها، ولا يمكن فصلها عن كل أوجه الحياة فيها . لكن الذي تساءل بشأنه الأمير هو ليس هذا ، وإنما رمي البلاد العربية والإسلامية بالرجعية، كلما حاولت أن توازن بين

3- كتاب التغيرات(آي- تشينج I- CHING) : وهو مجموعة من الصياغات لتفسير الطبيعة ، تستخدم على نطاق واسع في أغراض العرافة (ويعزى هذا العمل تقليديا إلى وينج وانج WENG WANG 1100 ق. م) .

4- كتاب الطقس (لي تشي LI CHI) : وهو مجموعة من القواعد ، التي تنظم السلوك الاجتماعي ، وقد تم تأليف هذا الكتاب بعد كونفوشيوس ، ولكنه قد يمثل بصورة جيدة القواعد والعادات التي تعود إلى عصور سابقة .

5- حوليات الربيع والخريف (تشون تشو CHUN CHIU): وهو تأريخ للأحداث في الفترة من 722 إلى 464 ق.م .

- أما فكر " كونفوشيوس " ، فقد تضمنته الكتب الأربعة التالية :

1- مختارات كونفوشيوس (لون يو LUN YU) : وهي أقوال كونفوشيوس لتلاميذه ، وقد قاموا بجمعها وتنسيقها .

2- عقيدة الوسط (تشونج يونج CHUNG YUNG) يضم تعاليم تنسب إلى كونفوشيوس حول تعاليم الحياة

3- العلم العظيم (تاهسو TAHSUEH) : وهو يضم تعاليم كونفوشيوس التي تحتوي اقتراحاته الخاصة بنظام الحكام .

4 - كتاب منشيوس (منج تسو MENG TZU) : وهو شروح على متن مبادئ كونفشيوس ، كتبها " منشيوس " الذي يعد من الشراح الأوائل لكونفوشيوس . ينظر جون كولر ، المرجع السابق ، ص 333 وما بعدها .

(***)- الطاوية : تنسب إلى " لاوتسو " ، الذي ولد في أواخر القرن السادس قبل الميلاد ، وقد دعا إلى حياة طبيعية ومتناسقة ، يتم فيها التخلي عن دافع الربح ، وإزالة الحذق جانبا ، بالإضافة إلى التخلص من الأنانية ، والتقليل من الرغبات . حيث كانت الصين تعج بسلوكات الطمع والرغبة ، الأمر الذي أوجد لها مشاكل وصعوبات ومعاناة كبيرة . وعليه فإن فلسفته تؤكد على الحاجة إلى العودة إلى نهج الطبيعة الأول . وقد عبر عن ذلك أحد التاويين بقوله : أنه مادام الطمع وحب اكتساب المال ، يشكلان دوافعا للأفعال الإنسانية ، فلا أمل هنالك في تحقيق السلام والرضا . جون كولر ، المرجع نفسه ، ص ص 335 – 336 .

العقيدة الإسلامية والنهضة العلمية ، في حين لا توجه التهمة ذاتها إلى تلك الأمم السالفة الــذكر، رغم تعصب بعضها كاليهودية على سبيل المثال . والسبب واضح في نظره ، وهو إبعاد العرب والمسلمين عن الدين الإسلامي ، الذي يشكل القاعدة الأساسية التي تبنى عليها أية نهضة علمية أو اجتماعية ينشدونها.

ومن أغرب الغرائب التي استوقفت الأمير شكيب ، وجود فئة من الأوروبيين لا تتــوانى في نعت الإسلام بالجبرية ،ونسب انحطاط المجتمعات العربية والإسلامية إلى العقيدة الإسلامية ، متناسية ما هو وارد في الإنجيل من آيات القضاء والقدر ، التي تماثل ما فــي القــرآن الكــريم أو تزيد عليه ، مثل قوله : ((لا تسقط شعرة من رؤوسكم إلا بــإذن أبــيكم الســماوي)) ... وغيرها . فلا نجد في الأوروبيين، الذين يجتهدون في العمل ويجرون وراء الكسب ، ويفكرون في القضاء والقدر إنكارا تاما ، إلا من يقرأ الإنجيل ويقدس ويعجب بمبادئه السامية ، كما يعجب المسلمون بالقرآن الكريم ؟ . فما بالهم لا يصفون أقوال المسيح عليه السلام بالجبريــة يتســاءل الأمير شكيب ؟ . ويخلص إلى القول ، أن آيات القضاء والقدر في كل مــن القــرآن الكــريم والإنجيل ، إنما القصد منها ، هو تأكيد سبق علم الله بكل ما يحدث ولــيس:((نفــي الاختيــار والتزهيد في الكسب)) ([1]) .

وبهذا يكون الأمير شكيب ، قد نفى نفيا تاما اتصاف العقيدة الإسلامية بالجبريــة، مثلمــا ذهب إليه منتقدوها من الأوروبيين ، فلا مجال للشك عنده بأن الإسلام باعتباره ينظر للوجود كله نظرة تكاملية ، قد حث على التأمل في الكون والنفس والتاريخ الإنساني ، فجاء الحــديث عــن الكثير من الظواهر الكونية والاجتماعية في القرآن الكريم ، لكي يتمكن الإنسان من أن يكشــف القوانين العلمية ، التي يسري بها الكون ويتطور من خلالها المجتمع . ومنه فإن الــدعوة للعلــم والبحث العلمي ، أصلية في الإسلام ([2]) .

ومن المفيد هنا، الإشارة إلى أن الموقف الغربي من قضية المزاوجة من عــدمها، بــين العقيدة الإسلامية والنهضة العلمية ، نابع من المؤثرات التاريخية والحضارية البعيدة الجــذور ، التي شكلت الفكر الغربي وفلسفاته ، حيث انتقل الغرب من الإيمان بآلهة اليونان والرومان

([1])- شكيب أرسلان : لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم ؟ ، مصدر سابق ، ص ص 114 – 115 .

([2])- عبد التواب يوسف، المرجع السابق، ص 123 .

الوثنية ، إلى الإيمان النصراني في إطار المفاهيم الكنسية والنظام الكنسي (الإكليروس) ، ثم أخيرا إلى الإلحاد والمبالغة في الاتجاه العقلي أثناء القرن التاسع عشر ، الأمر الذي أدى إلى التملص من الكنيسة ومعتقداتها الدينية ، حيث تم اعتبارها حليفة للإقطاع والرجعية ، ومخدرة للشعوب ، ومجانبة للعلم . والنتيجة أن منهج البحث الغربي، جانب النظر إلى الإنسان ، كونه روح ونفس وعقل ([1]). وعليه فإن الحل الأوروبي للقضية ، لا ينطبق بالضرورة على المسلمين ، بسبب الاختلاف العميق في الظروف والديانتين المسيحية والإسلام ([2]) .

ومن جانب آخر ، رد الأمير شكيب على بعض العرب والمسلمين ، الذين ينشدون النهضة القومية دون النهضة الدينية ، فيذكر أنهم يقولون ما جدوى العودة إلى القرآن الكريم ، في إستنهاض الهمم إلى التعليم ، بحجة أن النهضة لا ينبغي أن تكون دينية بل وطنية قومية ، كما حصل في النهضة الأوروبية . ويجيب على هؤلاء ، بأن النهضة سواء كانت أم دينية ، يخشى عليها إن جردت من دعوة القرآن ، فتفضي بنا إلى الإلحاد والإباحية وعبادة الأبدان ، والانغماس في الشهوات . ولهذا فمن الضروري – حسبه – ، أن تكون هنالك تربية علمية ، تسير جنبا إلى جنب مع التربية الدينية .

أما القول ، بأن النهضة الأوروبية ، جرت دون تربية دينية فيعتبره خطأ ، ويضرب على ذلك مثالا بأحد رؤساء النظار في " الرايستاغ " (مجلس الشعب الألماني)، الذي قال بأن الثقافة الألمانية مبنية على الدين المسيحي ، مع العلم أن ألمانيا تمثل النموذج المتميز في العلم والصناعة ، وجودة الآلات والأدوات ، بشكل لا ينازعها في ذلك منازع . ويستفسر الأمير ، إن كانت توجد جامعة في ألمانيا أو إنجلترا ، أو في غيرها في الدول الأوروبية المتقدمة ، لا يدرس فيها علم اللاهوت المسيحي .

أما التسميات التي تطلق في أوروبا ، من قبيل :(نهضة وطنية) أو: (نهضة قومية) أو:(جامعة وطنية وقومية) ، فيرى أن المقصود بها ليس الوطن بمفهومه الضيق: ((التراب والماء والشجر والحجر)) ، ولا بالقوم السلالة ، التي يشترك أفرادها ، في كونهم ينحدرون من دم واحد ، و :((إنما الوطن والقوم عندهم لفظتان تدلان على وطن وأمة بما فيهما من

([1])– أكرم ضياء العمري ، المرجع السابق ، ص 66 .

([2])– محمد قطب : قضية التنوير في العالم الإسلامي ، مرجع سابق ، ص 69 .

جغرافية وتاريخ وثقافة وحرث وعقيدة وخلق وعادة مجموعا ذلك معا ، وهذا الـذي يناضـلون عنه ويستبسلون كل هذا الإستبسال من أجله)) ([1]) .

وفي واقع الأمر ، لم تستطع أوروبا الحديثة، التخلص من حضور الفكر الديني فيها حتى وهي التي ثارت على كل قيم الكنيسة ، التي حكمتها طيلة العصور الوسطى ، وعملت بكل حزم وإصرار على تثبيت الواقع الإجتماعي المتـردي للإنسـان الأوروبـي . وتكـريس الإنقسـام والتشرذم ، وقتلت في أكبر شرائح المجتمع كل تطلع للرقي والتقدم في هـذا العـالم . مغذيـة الإنسان الأوروبي ، بتعاليمها التي تقوم على أن الإنسان في هذه الحياة يمثل خطيئة آدم وحـواء المتحركة على الأرض ، وأن العالم بكامله لا يستحق من النصـراني الحقيقـي إلا الإزدراء ، وصولا به إلى الحياة الأبدية التي ستعوضه عما فقده في الحياة الأولى، من متع وملـذات ومـا أصابه من بلاء . وحافظت بقوة على التخلف الإجتماعي ، وأضحى كل مصـلح فـي نظرهـا هرطيقا زنديقا ، يعاقب بالحرمان وينتهي أمره بالقتل ، وفي الغالب يحرق أو يمثل بجثته ([2]) .

في حين كان الإسلام ، عاملا دافعا للفكر والعقل والإبداع والحرية ، لكونـه : ((جـاء وافيا بحاجة الناس أفرادا وجماعات عادلا سهلا من غير إفراط و لا تفريط ، ولم يفصل ... بين الدين والدنيا ، وجمع بين الروحانيات والماديات ، ومزج العقيدة بالحياة ... واعتبر كل عمل من أعمال الخير عبادة ، وأمتاز التشريع الإسلامي بعمومه وشموله .. أنه يخاطب العقل ، وينـزع نزعة جماعية لصالح الفرد والمجتمع)) ([3]) .

ومنه فقد دافع الأمير شكيب بقوة ، عن فكرة الموازنة بين العقيـدة والعلـوم، لتحقيـق النهضة ليس لدى العرب والمسلمين وحسب، بل لجميع الأمم والأقوام التي ترغب فـإن تكـون نهضتها المنشودة، مبينة على أسس متينة تراعي الجوانب الروحية والمادية مجتمعة ، وفي ذلك قال بأنه يكن كل الاحترام ، للأمم التي توازن بين العقيدة والعلوم ، وأنه لا يرى فـي ذلـك أي ضرر بالرقي المادي ، بل العكس أنه نافع وضروري ، فالمجتمع يحتاج لتكامله إلى الموازنة

([1])- شكيب أرسلان : لماذا تأخر المسلمون وتأخر غيرهم ؟ ، مصدر سابق ، ص ص 147 – 148 .

([2])- للمزيد ينظر عبد العزيز عبد الغني إبراهيم : محاضرات في تاريخ أوروبا الحديث (عصر النهضة) ، منشور ELGA ، مالطا : 1999م ، ص 13 وما بعدها .

([3])- عبد التواب يوسف ، المرجع السابق ، ص 118 .

بين المادة والروح . ولن ينجح المسلمون إلا إذا ساروا في هذا النهج ، وهو بناء ثقافتهم على الجمع بين العقيدة الإسلامية والعلوم الطبيعية ، وكما تيسر هذا الجمع لغيرهم ، تيسر لهم ([1]) .

وهو رأي أيده " غوستان لوبون"(GUSTAV LE BON) ([2])، الذي اعتبر المبادئ الدينية أهم المبادئ التي تسير عليها الأمم ، وأنها منار التاريخ وعماد الحضارة ، وقد كانت على الدوام أهم عنصر في حياة الأمم ، وهي بسبب ذلك أهم عنصر في تاريخها . وقيام الديانات وسقوطها ، كان أكبر حوادث التاريخ التي أنتجت أعظم الآثار . كما أن كل الأنظمة السياسية والإجتماعية : ((قامت منذ بداية التاريخ على معتقدات دينية ، وأن الآلهة هي التي تلعب أكبر دور في الحياة الإنسانية)) .

وهكذا يتبين لنا أن الإبراهيمي ، قد جعل من إصلاح علماء الدين أولوية الأولويات ، للوصول إلى النهضة الشاملة في العالم العربي الإسلامي ، كما أنه وضعهم في المرتبة الأولى قبل غيرهم من العلماء في المجالات العلمية الأخرى ، دون أن يقلل من شأن أو أهمية هذه الأخيرة ، فهو إذن تقديم في المنزلة وليس إقصاء ، انطلاقا من كون أن الإسلام أولى منذ ظهوره أهمية بالغة لطلب العلم والمعرفة بكل أنواعها ، وعد ذلك فريضة وجهادا ، والنصوص المعبرة عن تلك القيمة الرفيعة كثيرة في القرآن والسنة .

وبقدر ما أظهر امتعاضه وأسفه ، لما آل إليه حال علماء الدين المسلمين ، بالمقارنة مع أسلافهم ، فإنه أبدى تفاؤلا في معالجة الأمر ، من خلال النصائح الدقيقة التي قدمها لهم ، والتي كشفت عن ثقافته التربوية والدينية العالية من ناحية ، وعن اعتقاده الراسخ بأن النهضة العربية والإسلامية المنشودة ، لا يمكن أن يقودها إلا علماء الدين ، للأسباب التي ذكرها وأوردناها .

ولذلك وجدناه، يتمنى أثناء رحلته التي قادته إلى الكثير من بلدان العالم الإسلامي سنة 1952م ،لقاء من يمكن لقاؤه من إخوانه وزملائه العلماء ، وأن يتبادل معهم الرأي بأمانة الإسلام وإخلاص المسلم ، في إيجاد العلاج للعلل التي أصابت المسلمين بمن فيهم العرب ، حتى

([1]) – أحمد الشرباصي : الأمير شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام ، مرجع سابق ، ص 126 .

([2])– ينظر عوستاف لوبون : سر تطور الأمم ، ترجمة احمد فتحي زغلول باشا ، ط 1 ،دار النفائس ، بيروت : د ت ، ص 129 و ما بعدها .

أضحوا فيها مضرب المثل في هذا العصر ، الذي أصبحت فيه القوة دينا يعتنق ، وتنافست فيه الشعوب ، على اختلاف دياناتها وثنية أم كتابية ، على سيادة العالم . في حين أن المسلم الذي لديه القرآن الكريم ، مستسلم للضعف والعبودية ، مشتت القوى والصفوف ، حتى في أكثر الأمور بديهية، عقله جامد وقواه راكدة ، غافل عن عواقب كل ذلك ، يضيع وقته في الكلام غير المجدي والأعمال التافهة ، وقد بلغ الأمر حسبه حدا لا يطاق ([1]) . مع إقرار بعض النماذج الممتازة من علماء الدين في عصره ، وقد ذكر منهم الشيخ "عبد الحميد ابن باديس" رفيقه في الإصلاح، وفي جمعية العلماء المسلمين الجزائريين .

أما الشرط الثاني للنهضة ، فقد حدده في إحياء الدين الإسلامي ، الذي أرجع الأمر إليه فيما وصل إليه المسلمون الأوائل من رقي وازدهار؛ بتحريره للعقل البشري والمرأة والحيوان، من العبودية والاستغلال والظلم . وضمنه، فند المزاعم التي تذهب إلى أن النهضة العربية والإسلامية ، لا تتم بالإسلام ، معطيا أمثلة باليهود الذين أقاموا دولتهم على معتقداتهم اليهودية ، والهنود الذين بنو حاضرهم ومستقبلهم على ديانة البقر ، مستغربا وجود فئة من المسلمين ، تستحي من مجرد الحديث عن الدولة الإسلامية جبنا أو خوفا . ليخلص إلى أن الوقت لم يفت بعد ، لإحياء الدين الإسلامي ، الذي لا سلاح غيره في نظره لكي ينهض العرب والمسلمون ، حيث يمثل المرجع الوحيد، الذي يستلهمون منه أسباب القوة الروحية والمادية ، وهي المهمة التي حملها لجميع الفئات الاجتماعية بدون استثناء . خاتما حديثه بإبداء تفاؤله بعودة سلطان الدين الإسلامي ، وداعيا إلى إحيائه بين المسلمين أولا، ثم طرحه كبديل حضاري لغيرهم ثانيا . لأنه بحسب يحمل عناصر الصلاح ، لكل المجتمعات حتى غير العربية والإسلامية .

أما الشرط الثالث للنهضة في تقدير الإبراهيمي ، هو تفعيل دور المثقفين العرب والمسلمين ، وقد بدأ حديثه عن ذلك ، بتحديد مفهومه للمثقفين الحقيقيين ، والصفات المفروض أن يتصفوا بها ، ثم عرج إلى مكانتهم العالية في الأمم الحية ، مبينا نتائج تخليهم عن دورهم القيادي في الأمة . وبعد إن انتقد مسلكهم الخاطئ بحسبه ، حملهم مسؤولية الوضع الذي آلت إليه الأمة ، وحثهم على بناء أنفسهم وشخصيتهم من كل النواحي، إن هم فعلا أرادوا خدمة الأمة ، وعلى توجيه جهودهم وعنايتهم للمستقبل وليس للماضي كما كانوا يفعلون ، فيجددوا

([1])–محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 4 ، مصدر سابق ، ص 61.

الثقافة العربية الإسلامية التي زهد الشباب فيها ، لأنها لم تعد تستجيب لتطلعاتهم ولواقعهم الحياتي . وفي الأخير دافع عن ثقافة عربية إسلامية ، جوهرها التاريخ العربي الإسلامي .

وفي الشرط الرابع ، الذي تضمن التصدي للتبشير المسيحي الغربي، فقد أكد الإبراهيمي على أن التبشير هو نتاج للتعصب المسيحي، الذي يستند إلى القوة العسكرية، وعلى أنه مجرد وسيلة في يد القادة السياسيين ، وأنه استمرار للحروب الصليبية التي لم تتوقف حسبه، وإنما تتكيف فقط مع ظروف كل عصر . واعتبره أيضا أداة في يد الدول الاستعمارية الكبرى ، التي توظفه لإنجاح مشاريعها وسياساتها لا غير ، أما مسألة الإخلاص له فهي مستبعدة جدا في نظر الإبراهيمي ، مستشهدا بما حدث في الجزائر في هذا الصدد ، حيث سعى الاستعمار الفرنسي إلى إبعادها عن دينها ، ليس بسبب عواطف قادته المسيحية ، وإنما لكي يمزق وحدتها ويبقيها دائما تحت سيطرته . منبها إلى أنه وجد من الجزائريين من أعانه على ذلك ، وهم شيوخ الطرق الصوفية ومؤطروها المنحرفون ، الذين لم يمهدوا الطريق للتنصير فحسب ، بل ساهموا في فشو الإلحاد ومعاداة الدين .

وختم حديثه بالاستنتاج؛ أن الاستعمار والتبشير شيء واحد ، والتنبؤ بنهاية المسيحية على يد الاستعمار الذي تحالفت معه ، وبتنبيه وتحذير المسلمين إلى أن مقاومة التبشير ومخططاته قادته ، لا تتم بالخطابة والحماسة كما هو حاصل ، وإنما ببذل الأموال ، ساخرا من أغنياء المسلمين، الذين لم يقدروا بعد، أنه من واجبهم الإنفاق بسخاء في سبيل إفشال المشاريع التنصيرية، التي تهدف إلى إخراج أمتهم من دينها ، وإدخالها في ديانة المستعمر .

و في المقابل ، جعل أرسلان أخذ العبرة من الماضي، الذي يعني بالنسبة إليه العصر الذهبي للحضارة العربية الإسلامية ، شرطا أولا للنهوض ، فوضح أن جوهر تلك الحضارة كان الإسلام الذي حرر العقل من العصبية والقبلية والوثنية ، فأدى ذلك إلى تحولات كبيرة في كل المجالات ، اعترف بها الكثير من الكتاب الغربيين المنصفين على مر العصور . وفند الإدعاءات، التي كانت تفيد بأن الإسلام دين يعيق التطور والتقدم ، واعتبرها مفتريات ليس إلا ، مؤكدا قطعيا بعدم وجود ، دين آخر غير الإسلام يقدر العلم والعلماء مثله . ثم بين أنه ليس المسؤول، عن ما حصل للعرب والمسلمين من تخلف وانحطاط ، مثلما لا يمكن تحميل تخلف

العصور الوسطى في أوروبا للمسيحية على سبيل المثال ، فالمشكلة حسبه ليست في الدين، وإنما في كيفية استخدامه . وانتهى إلى إبداء استغرابه بوجود فريق من المسلمين يتبنى تلك الطروحات؛ ومنهم حكام تركيا الجدد (الأنقريون) ، الذين استبدلوا الشريعة الإسلامية، بالقانون المدني السويسري وقانون الجزاء الإيطالي ، وقد بلغ الحد بقائدهم "مصطفى كمال أتاتورك"، أن اعتبر الدين الإسلامي خطرا على الدولة .

كما اشترط أرسلان ؛ ضرورة اقتحام غمار العلوم و الاقتصاد ، فكشف أنه ليست ثمة فروق في القابلية البشرية للتعلم ، لأن كل الأقوام سواسية في هذا الإطار بقوة الفطرة . وأرجع علة التخلف العلمي في البلاد العربية والإسلامية ، إلى الشعور بالضعف والعجز، وعدم المبادرة والاجتهاد والبحث ،أو ما اصطلح عليه بالأزمة الفكرية . فدعا إلى إصلاح حال العلماء ،واقتدائهم بالعلماء الأوائل ، الذين تميزوا بكونهم قادة وحراسا ومترفعين عن كل الشبهات . وإلى الاقتباس من الغرب مع التمسك بالخصوصيات ، مستشهدا بالمثال الياباني للوصول إلى الرقي والتحكم في الصناعات الحديثة . ودعا أيضا إلى الإسراع في النهضة الصناعية والزراعية ، وربح المعركة الاقتصادية بتشجيع المنتوجات المحلية وإدخال التقنيات والآلات الحديثة في الزراعة. وتوجيه الثروة البترولية ليس إلى الأسواق الخارجية، وإنما لتحويلها إلى طاقة كهربائية ، تستخدم في استصلاح الأراضي البور والمستنقعات ، مع الحذر الشديد في الاعتماد على الشركات الأجنبية، التي ينبغي تقنين دورها .

وإضافة إلى ذلك ، حث أرسلان على ضرورة التحلي بالإرادة وروح التضحية ، فأكد على أن النهضة لا تتم إلا بالإرادة وبذل الأنفس والأموال ، وكذب المزاعم التثبيطية الرائجة في ذلك الوقت ، التي تضمنت عدم القدرة على مجاراة الغرب ، فاعتبرها تعبيرا عن روح الهزيمة والضعف، التي تمكنت من نفوس أجيال عديدة من أبناء العرب والمسلمين . ودليله في ذلك: هو التجربتان اللتان خاضهما "محمد علي باشا" في مصر و"عبد العزيز ابن سعود" في الحجاز، اللتان كشفتا حسبه عن إمكانية النهوض، إذا توفرت العزيمة والإرادة . وفي هذا الصدد شجع الأمير شكيب كل المبادرات العربية والإسلامية، التي كانت محل سخرية من الجميع، كمشروع سكة حديد دمشق الحجاز ... إلخ، بقلمه ولسانه وماله . وخلص إلى أن احتقار المسلمين لأنفسهم

وشعورهم بعدم الجدوى ، هو الذي فسح الطريق أمام الأوروبيين واليهود، لكي يتحكموا في مصائرهم الاقتصادية .

أما الشرط الرابع، فيما ذهب إليه أرسلان ، فهو الموازنة بين العقيدة والعلوم ، فبدأ بانتقاد الرأي القائل بأن الطريق الوحيد يبدأ بترك العقائد والأديان ، مبديا استغرابه من كون أن أصحابه خصوا المسلمين فقط دون غيرهم من الأمم المتمسكة بعقائدها مثل : اليابان والهند واليهود وكل أوروبا المسيحية ، الذين لا يقال لهم رجعيون بالرغم من ذلك ، والسبب في رأيه هو إبعاد العرب والمسلمين عن النهضة . ورد على بعض العرب والمسلمين ، الذين نشدوا النهضة القومية بدون الدينية ، بتأكيد ضرورة وجود تربية علمية، تسير بالموازاة مع التربية الدينية، لأن كل المجتمعات برأيه، في حاجة إلى الموازنة بين المادة والروح ، وإلا ما جدوى أن تفرض كل الجامعات الألمانية والأوروبية، تدريس علم اللاهوت المسيحي لطلبتها .

وبالمقارنة ، نصل إلى أن الإبراهيمي وأرسلان ؛ قد تقاطعا في بعض النقاط واختلفا في أخرى ، فمن الأولى نذكر دفاعهما عن فكرة أن الإسلام ، الذي استطاع أن يوجد للعرب حضارة متميزة ، عجزوا عن إتيانها قبل مجيئه ، سيظل قادرا على إعادة ذلك المجد الحضاري الضائع ، شرط أن يستعيدوا التدبر فيه ، والعمل بما جاء من معان وخلق عليا وشريعة وقيم . وأنه لا مجال لأية حركة أو نهضة، أو انبعاث حضاري ، لا تنظر إلى الدين الإسلامي ؛ على أنه العنصر الأساسي الفعال ، الذي لا ينبغي بأي حال من الأحوال، إقصاءه من العملية في كل مراحلها ، أو التقليل من أهميته فيها . فالدولة التركية، لم تتمكن من تحقيق التقدم الذي سعت إليه بكافة الطرق والوسائل ؛ ومنها طرح الإسلام جانبا بل ومحاربته ، بقيت رغم ذلك متخلفة ، لا هي وصلت إلى ما وصلت إليه الدول الغربية، من تفوق علمي وازدهار اقتصادي ، ولا هي حافظت على خصوصياتها الإسلامية والشرقية . وهو دليل كاف حسب الإبراهيمي وأرسلان ، على أن الإشكالية لا تكمن في الدين كدين ، وإنما في فهمه والتعامل معه . ومن ثمة فقد حاولا تفنيد وإبطال صحة كل الآراء والأفكار والنظريات ، التي سبقت في هذا الإطار ، التي كشفا أنها مجرد أكاذيب وافتراءات ، لا أساس لها من الصحة ، يخفي وراءها أصحابها حقدهم الدفين وكرههم الشديد للإسلام ،حيث يدركون جيدا أنه أكثر الديانات، التي قامت على تحرير العقل

والفكر والحريات ، فجعل من ذلك شرطا للتمكين في الأرض وعمارتها . مستغلين في ذلك الوضع السيئ، الذي كان عليه العرب والمسلمون المتأخرون ، لكي يلصقوا عمدا تهمة التخلف والانحطاط بالإسلام كدين، وليس بالمسلمين الذين أساؤوا استخدامه، أو ابتعدوا عن روحه وقيمه ومثله الإنسانية والحضارية .

ولقد لاحظنا أن الإبراهيمي وأرسلان على حد سواء قد استفاضا في مناقشة هذه القضية ، والإتيان بالحجج والمبررات، التي تدحض تلك الآراء والأفكار والنظريات المعادية للإسلام ، وهو ما يكشف أنها كانت في عصرهما تشغل، حيزا كبيرا من المساجلات والمجادلات، بين أصحابها من الكتاب والمفكرين الغربيين وتلامذتهم الشرقيين من جهة ، وبين قادة النهضة والإصلاح من جهة ثانية . وفي هذه النقطة لفت انتباهنا أن الرجلان ، لم يستغربا كثيرا استماتته أولئك الغربيين في ما ذهبوا إليه ، لأن الأمر طبيعي بالنسبة لهما ، يمكن تبريره بمنطق الصراع الديني والفكري والحضاري الذي ، دفعهم إلى تنويع وسائل ضرب الإسلام ومهاجمته . لكن الذي كان يثير دهشتهما باستمرار ،هو تنامي تلك الفئة المتعلمة أو المثقفة من أبناء العروبة والإسلامية ، التي سلمت بتلك المضامين الفكرية ولم تكتف بذلك ، بل راحت تروج لها ما أمكن لها ذلك . وقد أرجعا ذلك إلى آفة التغريب والاستلاب الفكري ، التي تمكنت من عقولهم الهشة وأنفسهم الضعيفة .

واتفقا أيضا على أهمية ، الأخذ بأسباب التفوق المادي الغربي ، مع التمسك التام بالخصوصية الدينية والثقافية، والحضارية العربية الإسلامية ، المختلفة كلية عن نظيرتها لدى الأمم الأوروبية . وفي هذا الصدد عد كل منهما التجربة اليابانية، أفضل ما يمكن إتباعه ، حيث انفرد اليابانيون بكونهم قاموا باقتباس كل ما استطاعوا الحصول عليه، من علوم ومعارف وصنائع الغرب ، التي حولوها في وقت قصير إلى بلدهم ، وتركوا ما دون ذلك من قيم وأخلاق وسلوكات وعادات ، لأنها تتعارض ومنظومتهم القومية . بل أنهم لم يكونوا البتة متساهلين في هذا الجانب ، إذ منعوا التعامل مع أي بلد غربي ، يشتبه فيه محاولة اختراقهم، وخاصة في مجال التبشير الديني المسيحي، الذين انتبهوا إليه منذ الوهلة الأولى ، إلى أنه ليس عملا دينيا صرفا ، وإنما ممرا للتمهيد للسيطرة الاستعمارية في المستقبل . فكانت الإجراءات المتخذة ،

بمثابة تحصين لليابان من الذوبان أمام المد التغريبي ، الذي وجد سهولة كبيرة في البلاد العربية والإسلامية ، لكونه لم يجد الحصانة والحيطة والحذر الذين وجدهما مع اليابانيين . وعليه فقد نبه الإبراهيمي و أرسلان ، إلى أن الأخذ بأسباب تقدم ورقي الآخر ، لا يعني إطلاقا ، نقل كل شيء عنه حتى وإن كان تافها ، لأن العرب والمسلمون- حسبهما يملكون مرجعية دينية وثقافية، أقوى من نظيرتها لدى الأمم الغربية ، تستند على الإسلام والمثل والقيم الشرقية الرفيعة ، ومنه فلا حاجة لهم لأن يتحولوا إلى أوروبيين أو غربيين .

وأجمعا أيضا ، على الأهمية القصوى لإصلاح العلماء ، لكن مع اختلاف بين في كون أن أرسلان؛ اكتفى بالإشارة إلى ذلك، والقول بأن الإصلاح يكون عن طريق الإقتداء بالعلماء الأوائل ، الذين رأى فيهم ، متميزين بكونهم قادة وحراسا، ومترفعين عن كل الشبهات ، دون أن يذكر على وجه التحديد: هل يقصد العلماء بصفة عامة، أو علماء الدين بصفة خاصة .

في حين كان الإبراهيمي واضحا ، حيث خص علماء الدين على غيرهم من العلماء ، وأسهب في توصيف حالهم في عصر التخلف والانحطاط ، معرجا على ما اعتبره النماذج السامية والراقية لعلماء الدين ، في عصور الازدهار الأولى للإسلام . وذهب بعيدا في تحليله ونصائحه ، التي أظهرت أنه كان يمتلك ثقافية دينية عالية ، جعلته يقف على حقيقة الخلل الذي أصاب هذه الفئة من العلماء ، الذين أضحوا تابعين بعد أن كانوا متبوعين، ومنقادين بعد أن كانوا قادة . وتبعا لذلك فقد ربط عودة القوة والتمكن للعرب والمسلمين ، بعودة الإسلام إلى جميع مناحي الحياة ، والذي لن يكون حسبه إلا بإصلاح علماء الدين الأواخر، ومساهمتهم الفعالة والعملية في قيادة مجتمعاتهم، وتوجيهها الوجهة الصحيحة ، وهي المهمة التي شدد الإبراهيمي، على أن لا تترك لغيرهم وخاصة القادة والحكام ، الذين لا يراعون مصلحة الدين ،بقدر مراعاتهم لمصالحهم الشخصية وانقياد العامة لهم .

كما لم يختلف الإبراهيمي وأرسلان ، في كون أنه لا سبيل أمام العرب والمسلمين ، لمغادرة دائرة الانحطاط والتخلف ، إلا باقتحام غمار العلوم والاقتصاد ، سيرا على نهج الدول الأوروبية ، التي لم تحقق ثورتها الصناعية ، إلا بفضل العلوم التجريبية ، وقبل ذلك لأنها وقفت من الحضارة العربية الإسلامية موقف التلميذ ، تعلمت وترجمت واستوعبت ، ثم أبدعت تقدما

وحضارة . و الأمر ذاته بالنسبة للتجربة اليابانية ، التي لم تحقق النجاح الذي حققته ، إلا لكونها نظرت إلى الحضارة الغربية نظرة التلميذ ، فاستوعبت منها الأفكار بوجه خاص . وفي المقابل ما ذلك ، وقف العرب والمسلمون المتأخرون ، من تلك الحضارة موقف الزبون ، فاستوردوا منها الأشياء بدل الأفكار ([1]) .

هذا بالنسبة لنقاط التوافق بين الرجلين ، أما فيما يخص نقاط الاختلاف فهي عديدة ، ومنها أن الإبراهيمي قد أثار مسألة الدور الأساسي، الذي يمكن أن تؤديه الشريحة المثقفة في النهضة ، وهنا ينبغي التنبيه إلى أن المثقف ،وفق ما أورده الإبراهيمي يشمل العالم والفقيه والشاعر والأديب والمعلم والمتعلم ، حيث طلب منهم أن يكونوا البوصلة التي تنير للأمة طريقها في الحاضر والمستقبل . وفي هذه النقطة حري بنا أن نبين أن الشيخ البشير، قد انتقد المثقفين بالثقافة العربية الإسلامية والغربية على حد سواء ، بسبب عيوبهما التي حددها في الجهل المطبق بأحوال العصر بالنسبة للصنف الأول ، والجهل الفظيع للصنف الثاني بكل ما هو شرقي لغة ودينا وحضارة وقيما ، وهو الحال الذي كان مكرسا في أغلب الأقطار العربية والإسلامية.

والإبراهيمي لما ذكر أن المثقفين، هم الأولى بقيادة الأمة عن السياسيين ، لسنا ندري إن كان ذلك يناقض ما أشرنا إليه سابقا، حينما حسم أمر القيادة لعلماء الدين ، الذين وإن بين أنه يضعهم ضمن دائرة الفئة المثقفة . ونرمي بتساؤلنا هذا؛ إن كان علماء الدين وفقا لذلك، هم المركز الموجه لكل المثقفين على اختلاف مجالات تخصصهم ونوعية ثقافتهم ، وهو ما لم يوضحه الشيخ البشير الإبراهيمي، في حدود ما استطعنا الإطلاع عليه من أثاره المنشورة ؟ .

كما تفرد الأمير شكيب ، بإيلاء الأهمية الكبيرة للعوامل النفسية ، لإخراج العرب والمسلمين من الانحطاط الحضاري ، الذي تعذر عليهم معالجته ، رغم المحاولات التي حدثت هنا وهناك في أوقات متباعدة . وهم الذين يملكون كل إمكانيات الرقي والتقدم ، والتي تفوق حتى تلك المتاحة لليابان والدول الغربية المتقدمة ، وقد ذكر البعض منها كالبترول والمعادن . فالقضية وفق ما ذهب إليه نفسية بالدرجة الأولى ، و إلا فبماذا يفسر نجاح التجربة التحديثية اليابانية ، رغم أن الكثير من الملاحظين من خارج اليابان ، لم يتوقعوا نجاحها لأسباب عدة :

([1])– ينظر محمود محمد سفر ، المرجع السابق ، ص 85 وما بعدها .

فالبعض منهم أنكر على اليابانيين ، القدرة على إدارة الأعمال بناءا على أسس عصرية ، بفعل إغراقهم في التمسك بالتقاليد الموروثة في كل المستويات . والبعض الآخر ، رأى أن : ((الياباني لا يمتلك أي ذكاء في مجال الأعمال))([1]) .وعلاوة على ذلك ، فإن اليابان تعد من أفقر البيئات الجغرافية في العالم ، في مجال الثروات الطبيعية ، حيث انطلقت النهضة التحديثية بها من العدم ، لكن الإرادة والتضحية ، أزالتا تلك العقبة الكبيرة ، وجعلت من اليابان بلدا لم يمنعه ، اعتماده على استيراد كل ما تحتاجه آلته الاقتصادية ، من أن يكون في مركز الريادة الاقتصادية العالمية .

وبالموازاة مع ذلك ، فشلت التجربة التحديثية المصرية ، التي أشاد بها الأمير شكيب أرسلان ، بالرغم من أن مصر كانت في حوزتها كل عوامل القوة المادية والمعنوية الضرورية لذلك ، ولا مجال للمقارنة بينها وبين اليابان ؟. وقد حدث أن قامت الحكومة اليابانية ، بإرسال بعثة من طلبتها للاستفادة من التجربة المصرية ، و الأمر ذاته حصل في تونس ، التي عرفت تقريبا في نفس الفترة ؛محاولة للتحديث والإصلاح ، على يد "خير الدين باشا " (*) ، الذي تأثر بالنهضة التي كانت أوروبا مسرحا لها ، أثناء القرن التاسع عشر ، و انبهر بها أشد الانبهار . والملفت للانتباه ،أن كلا التجربتين انتهتا بوقوع مصر وتونس ، تحت الاحتلال الأجنبي .

([1])- ينظر مسعود ظاهر ، المرجع السابق ، ص 288 وما بعدها .

(*)- خير الدين باشا(1822م-1890م) :نشا في اسطنبول التي تعلم فيها اللغتين التركية والفرنسية،مما ساعده على الاطلاع على شؤون مصر و الإمبراطورية العثمانية،حيث ظهرت التأثيرات الأوروبية في النصف الأول من القرن التاسع عشر، و كذلك على شؤون دول أوروبا الغربية، أصبح احد مماليك "احمد باي" الذي استقدمه سنة 1839م إلى تونس،و هنالك تلقى بالقصر الملكي، دروسا في اللغة العربية و العلوم الدينية و التقنيات العسكرية، زار رفقة احمد باي فرنسا في أواخر سنة1857م، أقام في باريس أربع سنوات(1853م-1857م)، عينه الباي على رأس وزارة البحرية سنة1857م، ساهم في إعداد دستور1861 م. قام بين 1863م و 1867م برحلات كثيرة إلى أوروبا في مهمات دبلوماسية (ألمانيا،فرنسا،بريطانيا،ايطاليا، النمسا، هولاندا،الدانمارك، السويد، بلجيكا)،مكنته من نهاية النهضة في تلك البلدان. كل جعله يعتقد ، أن لا مناص للخروج من التخلف، و اللحاق بركب التقدم ، دون الانفتاح على الحضارة الغربية الأوروبية ، و الأخذ بأسباب نهضتها . ينظر علي المحجوبي ، المرجع السابق ، ص112 و ما بعدها .

وإذا كان الإبراهيمي، لم يشر إلى العوامل النفسية التي أكدها أرسلان ، فإنه حاول لفت الانتباه، إلى خطورة التبشير المسيحي الغربي ،الذي سبق الاحتلال العسكري كما هو معلوم ، وازدهر بعده مستفيدا من الدعم السياسي والمالي الكبيرين ، اللذان كانا يتلقاهما من الحكومات والمنظمات والجمعيات، وأغنياء القارة الأوروبية ، ومن الانحطاط الذهني العام الذي كانت عليه الأقطار العربية والإسلامية ، بسبب استشراء الجهل والأمية وتعاظم أمر الطرق الصوفية المنحرفة ، التي أفسدت على الناس دينهم ودنياهم كما عبر عنه الإبراهيمي ، من خلال ما كانت تنشره من بدع وخرافات وأباطيل ،الدين الإسلامي بريء منها ، وأعلنت تعاونها مع الاستعمار حفاظا على المكتسبات والامتيازات، التي كانت تتمتع بها .

و الحق أن الإبراهيمي، قد دأب على التحذير باستمرار من المخططات التمسيحية ، التي كانت تطبق في العالم العربي الإسلامي عامة، والجزائر خاصة ، حيث كان يرى بنفسه تلك الهجمة الدينية الشرسة التي كانت تتعرض لها البلاد ، تستهدف تشييع جنازة الإسلام ، كما أفصح عن ذلك علانية قادة الاحتلال ، بمناسبة الذكرى المئوية لاحتلال فرنسا للجزائر . وبحكم نظرته العميقة لتبعات القضية ، فإنه رأى أن خطورتها لا تكمن آنيا وإنما في المستقبل، بعد أن يطرد الاستعمار ، حيث يستمر في توظيفها كأداة فعالة ، لضرب الوحدة الداخلية لكل قطر ، والارتباط القومي بين العرب والمسلمين ،ولإفشال أية محاولة للنهوض . ويبدو أن أرسلان لم يبرز قضية التبشير كقضية أساسية ، ربما لكونه ولد وعاش في البيئة الشامية، التي كانت غنية بالعقائد والمذاهب والطوائف ، على عكس البيئة الجزائرية والمغاربية، التي كانت ولا تزال موحدة العقيدة والمذهب .

وفيما حرص الإبراهيمي، على ضرورة اعتماد العرب والمسلمين كلية على أنفسهم ، في استغلال ثرواتهم الطبيعية الكثيرة التي تزخر بها أوطانهم ، وفي النهوض باقتصادياتهم ، لعدم ثقته الكاملة في الدول المتقدمة لكونها مستعمرة في الوقت نفسه ، غايتها الوحيدة الحصول على تلك القدرات الطبيعية بالقوة أو بأثمان رخيصة ، وليس مساعدة تلكم الدول على استغلالها واستثمارها فيما يعود عليها بالفائدة الاقتصادية والاجتماعية . كان موقف أرسلان لينا بعض الشيء ، فقد دعا إلى الاعتماد على المساعدات والاستثمارات الأجنبية لكن بحذر شديد ،

فهو لم يرى سببا في ترك الثروات الطبيعية الهائلة ، التي تكتنزها بواطن الأرض ، في الأقطار العربية والإسلامية، ومنها البترول على وجه الخصوص ، دون استخراج واستغلال ، و إنما حث على الإسراع في ذلك محذرا أيضا من عواقب التأخير ، الذي لا يترتب عنه إلا المزيد من التخلف والتقهقر ، ضاربا المثال بتركيا التي ضيعت –حسبه– على نفسها ، فرصة الرقي و التقدم ، بتقاعسها عن الاستفادة ؛ من الإمكانيات التي كانت في متناولها ، حتى جاء الاستعمار واستولى عليها .

والملفت للانتباه أيضا ، أنه نصح باستثمار عائدات البترول في إنتاج الطاقة الكهربائية ، وليس في أغراض استهلاكية عديمة الفائدة ، لما للكهرباء من فائدة عظيمة في قطاعات الزراعة والصناعة والبحث العلمي ،و قد بلغ اهتمامه بهذا العنصر الاقتصادي الحيوي ، حد أنه شرح في إحدى رسائله حتى طرق صنع محرك كهربائي ، كما أنه تحدث عن تحويل أشعة الشمس إلى طاقة كهربائية ([1]) .

وفي ذلك دعوة صريحة ، إلى نقل التقنية الغربية إلى البلدان العربية والإسلامية والتحكم فيها ، والاستثمار في إنتاج الثروة وليس في استهلاكها ، تماما مثلما فعلت اليابان ، التي كانت تعمد في البداية إلى استيراد البضائع الكاملة التصنيع ، ثم تقوم فيما بعد بإعادة إنتاجها واستنساخها ، من خلال صرف الجهود إلى تعلم طرق التشغيل والإصلاح، والصيانة لتلك الآلات المستوردة ، حتى أصبحت تقوم بإنتاج آلات شبيهة بها ، وبلغ الأمر في بعض الأحيان إلى تفكيك قطار كامل ، تم إنتاجه في الولايات المتحدة الأمريكية ، بعد الحصول عليه مباشرة ، وصناعة آخر شبيه له ([2]) .

([1])– نجيب البعيني ، المصدر السابق ، ص 427 .

([2])– ينظر محمود محمد سفر ، المرجع السابق ، ص 91 .

خاتمة الفصل :

بناء على كل ما سبق ، نستنتج أن إشكالية النهضة ، قد كانت من الإشكاليات الأساسية ، التي حاول أقطاب الفكر العربي الحديث والمعاصر ، ومنهم الأمير شكيب أرسلان و الشيخ البشير الإبراهيمي ، الخوض في جوانبها الفكرية و السياسية والثقافية و الحضارية ، من خلال تحديد إطارها المفاهيمي ، وضبط السبل العملية لتحقيقها ، مع الإجابة على بعض التساؤلات الموضوعية والملحة ، التي ظلت بدون إجابة ، ومحل خلاف بفعل تعدد المرجعيات حتى داخل المدرسة الفكرية الواحدة .

و الحق أن حركة النهضة و التحديث في العالم العربي و الإسلامي ، قد تميزت بتيارات عدة اختلفت في المنهج، واشتركت في الهدف وهو إحداث القطعية مع التخلف و الانحطاط ، للحاق بركب التقدم والرقي . فهناك من ربط الوصول إلى ذلك الهدف ، بالانغلاق على الذات، ورفض كل ما هو خارج التراث الذي لم يعد بعد صالحا في الكثير من جوانبه . في حين وجد من جعل التنكر لشرقيته وقيمه الدينية والثقافية والحضارية ، واستبدالها بالغربية أسمى غاياته . وبين الفريقين تموقع فريق وسطي(في الوسط) ، نادى بالتوفيق بين الموروث الحضاري العربي الإسلامي، القابل للإحياء والتجدد ، وبين متطلبات الحياة العصرية ، و قد كان من أبرز ممثليه الإبراهيمي وأرسلان ، اللذان قدما تصورات وآراء لمعالجة آفة التخلف ، وهي اجتهادات شكلت بنظرنا إضافات، استندت في بعض جوانبها على من سبقهما من قادة ومفكري النهضة، بينما اصطبغت في جوانب أخرى بالنظرة الشخصية لكل منهما ، حيث تتدخل البيئات السياسية والاجتماعية والثقافية التي عاشا فيها .

والحق أننا اكتشفنا ، من خلال ما طرحه الإبراهيمي وأرسلان ، أنهما كانا يتمتعان بثقافة عالية جدا سمحت لهما بالخوض في مثل هذه القضايا الدقيقة والمعقدة دون إشكال ، والتي تتطلب مستوى فكريا وثقافيا متميزا ، والماما كبيرا بواقع مجتمعاتها، وبالتحديات الكبرى التي كانت تواجهها ، في ظل بيئة متخلفة وعلاقات دولية تتحكم فيها الدول الاستعمارية الكبرى ، التي جعلت من بلاد العرب والمسلمين هدفا لها .

لقد دافع الإبراهيمي و أرسلان ، عن الخصوصية العربية والإسلامية ، التي لا مبرر برأيهما لاستبعادها من العملية النهضوية ، والواقع أنهما في ذلك كانا يقاومان تيار التغريب ،

الذي استطاع أن يقنع فئات عدة؛ بأن الطريق إلى النهضة والتمدن، هو التجرد من كل خاصية شرقية، والتحول إلى مجتمعات غربية في أدق تفاصيلها الحياتية . وراهن على فداحة الواقع ، ليقوم بما يشبه المساومة بين ولوج عالم العصرنة ، وترك المقومات الحضارية وعلى رأسها الدين الإسلامي . وفي حقيقة الأمر ، وجدنا الإبراهيمي ، أكثر هجوما وانتقادا ، وبأسلوب لاذع في أغلب كتاباته . لا يخلو من السخرية والتهكم على دعاة الاندماج في الغرب ، فوصفهم بأشباه المثقفين وبضعاف النفوس والفكر ، وإن كان هذا الصنف من المثقفين قد ظهر في كل البلدان العربية والإسلامية ، فإنه في الجزائر ولبنان كان أكثر نشاطا وتأثيرا ، ففي الجزائر تزعمته أقلية اجتماعية من أبناء الجزائريين ، خريجي المدارس الفرنسية ، الذين أظهروا تحمسا كبيرا لخدمة الاحتلال، وللعيش في كنف الدولة الفرنسية، كمواطنين فرنسيين يتمتعون بكل الحقوق والواجبات المتاحة للفرنسيين الأصليين ، وقد بلغت الحماسة بهؤلاء إلى نفي وجود الأمة الجزائرية عبر التاريخ ، واعتبار الوجود الفرنسي بالجزائر أمرا طبيعيا، وتصحيحا لوضعية خاطئة ، التي قصدوا بها الارتباط بالمشرق العربي .

أما في لبنان ، فتجسد التيار التغريبي في أبناء الطائفة المسيحية ، الذين تشبعوا بالثقافة الغربية عامة والفرنسية خاصة ، وأظهروا ولاءهم السياسي وانتماءهم الثقافي والحضاري إلى الغرب، حتى ولو كان مستعمرا وكانوا هم عربا رغم مسيحيتهم . وعليه فقد عمل الإبراهيمي وأرسلان ، من خلال ما سبق ، على إبطال فكرة ان النهوض يعني التغريب ، الذي يطيل مدة التخلف ويؤزمه، أكثر مما يعالجه في نظرهما .

أظهر الإبراهيمي تحكما كبيرا، في المادة التاريخية الإسلامية (التاريخ الإسلامي) ، بفضل إطلاعه الواسع وهو في سن مبكرة – كما مر بنا في الفصل الثاني – ، على كتب السيرة النبوية والغزوات وحياة الصحابة والتابعين ، الأمر الذي مكنه من الوقوف على تراجم الرجال وقواعد الاجتهاد ، وحركة التأليف ، والصراع السياسي والفكري ، الذي احتدم بعد وفاة الرسول (ص) وعهد الخلفاء الراشدين ، تم قيام الدولة العربية بمختلف العصور التي مرت بها ، وفي هذا اعتبر الدكتور أبو القاسم سعد الله [1] : أن الشيخ البشير الإبراهيمي يمثل : ((ظاهرة فريدة

([1]) – ينظر أعمال الملتقى الدولي : الإمام محمد البشير الإبراهيمي ، مرجع سابق .

بين جيله في تفسيره العقلاني للحوادث التاريخية سواء منها القديمة أو الحديثة أو المعاصرة في وقت لم يدرس فيه التاريخ في مدرسة ولا جامعة)) .

أما الأمير شكيب ، فقد كشف أنه كان يحوز على ثقافة علمية وتكنولوجية دقيقة، في مجالات الطاقة الكهربائية والبترول والمعادن والصناعات النسيجية ... وغيرها . وهي خاصة قلما نشاهدها ، في مصلح وشاعر وفقيه ورجل سياسي . فضلا عن كون أن تلك المعارف ، كانت محتكرة من طرف الدول الغربية، و لا تسمح بأن يطلع عليها غير الغربيين ، وهنا تكمن أهمية إجادة اللغات الأجنبية ، التي كان أرسلان يتحكم في الكثير منها، كتابة وقراءة وترجمة .

بالرغم من انتماء الإبراهيمي وأرسلان ، إلى المدرسة الفكرية ذاتها ، إلا أن رؤيتيهما لكيفية نهوض الأمة العربية والإسلامية، تميزت ببعض الاختلافات ; فقد لاحظنا أن الأول كان ينشد نهضة شاملة يكون جوهرها نهضة دينية بالدرجة الأولى ، وهو ما يفسر اهتمامه الكبير بإصلاح علماء الدين وبمسالة إحياء الدين الإسلامي ، فذهب في هذا المضمار، إلى الدعوة إلى إعادة التجربة الإسلامية الأولى ، التي مثلت بالنسبة إليه نموذجا مثاليا ، لا خيار إلا بالإقتداء به. ومنح كل ثقته في العلماء والفقهاء دون غيرهم ، لكي يصلحوا تراكمات قرون من الفساد والانحراف على كافة الأصعدة ،و بطبيعة الحال بعد أن يبدؤوا بإصلاح أنفسهم أولا . ومنطلقه في ذلك، أن المجتمعات العربية والإسلامية ، تتميز عن غيرهما من المجتمعات ، بكونها لا تنقاد إلا لسلطة الدين ، الذي يقوم سيرها ويفتح أمامها آفاق النماء والإبداع ، وهو لاشك رأي سليم .

لكن في المقابل، لا يمكن إغفال الظروف الزمانية ومستجداتها ، فالعصر الذي كان يعيشه الإبراهيمي ليس عصر الدولة الإسلامية الأولى ، فحينما نمنح القيادة لعلماء الدين، الذين لا جدال في أهمية دورهم الاجتماعي والسياسي ، فمعناه أننا نقصي المكونات الاجتماعية الأخرى من سياسيين وفلاسفته ومفكرين، وعلماء غير مشتغلين في حقول لا ترتبط بالدين ... إلخ، من عملية الإصلاح والتجديد .

أما أرسلان ، فقد ظهر وكأنه يحاول التوفيق بين ما ذهب إليه الإبراهيمي ، وبين يقينه بأن عالم نهاية القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين ، لا يمكن الصمود فيه ،

إلا بربح معركة العلوم العصرية والتقنية ، التي أحدثت الفارق بين الأوروبيين من جهة والعرب والمسلمين من جهة ثانية ، وهو ما لم ينفه الإبراهيمي، وإنما جعله أولوية ثانية بعد الأولوية الأولى وهي النهضة الدينية ، التي تؤدي في نظره على نحو منطقي ،إلى نهضة علمية واجتماعية ومن ثمة حضارية .

حظيت التجربة التحديثية في اليابان ، باهتمام وإعجاب الإبراهيمي وبدرجة أكبر أرسلان، ولعل ما جذبهما إليها ، هو النضج الكبير الذي أظهره اليابانيون المتعاقبون على السلطة ، في التعامل مع الغرب ؛ سعي حثيث لنقل كل ما وصل إليه من إنجازات مادية وتقنية، مهما كانت معقدة أو مكلفة ، وبأية وسيلة حتى بالجوسسة العلمية ، وإعادة تشكيلها وتصنيعها في البلاد بسرعة قياسية، مع إضفاء الصبغة اليابانية عليها .والتزام بأقصى مستويات الحيطة والحذر ، فيما يتعلق بالقيم الثقافية والأخلاقية الغربية ، التي رأوا أنها ذات نتائج سلبية على المجتمع الياباني ، قد تؤدي به إلى فقدان هويته وشخصيته المتميزة ، فتعرضه إلى السيطرة الاستعمارية. وهو ما يبرر الصرامة الشديدة، التي أظهروها في اتخاذ الخطوات العملية ، التي تشجع على الاعتزاز بالموروث الحضاري الياباني، الضاربة أعماقه في التاريخ ، وتجسيمه في الحياة اليومية للمجتمع ، وهو ما مثل أكبر حصانة له، أمام الاختراق الثقافي عامة والغربي خاصة .

في حديثه عن دور المثقفين في النهضة ، أثار الإبراهيمي مسألة وجود نخبتين مثقفتين في البلدان العربية والإسلامية، بدل نخبة واحدة ؛ الأولى مثقفة ثقافية عربية إسلامية والثانية غربية ، كل واحدة منغلقة على نفسها، ترى في الأخرى خصما أو عدوا ينبغي استبعاده . وحاول لفت الانتباه إلى النتائج السلبية لذلك، على المديين القصير والبعيد ، رغم أنه رحب بالتعددية الثقافية والفكرية ، التي شكلت إحدى العقبات الكبرى، أمام قيام نهضة حقيقية . وهو حينما طرح فكرة التكامل بين الطرفين ، بحيث أن كل واحدة تعمل على الاستفادة من نظيرتها ، عن طريق التواصل والتقارب ، حتى تستكمل النقائص وتتوحد الجهود، وتوجه نحو الدفع بعجلة المجتمع نحو الرقي والتقدم . كان من الذين يدركون أهمية التعامل، مع الواقع الثقافي كما هو لا كما يجب أن يكون ، إذ لا يمكن في كل الأحوال تجاوز تراكمات عشرات السنين من الاستعمار الذي راهن على تعميق الفجوة بين النخب المثقفة ، لكي يمنعها من الاضطلاع بدورها الأساسي

في النهضة، الذي وضحه الإبراهيمي فيما سبق. و لربما لم تسترع هذه المسألة اهتمام الأمير شكيب ، لكونه لم يرها من أولويات النهضة،أو لأنه قدر أن إيجابياتها أكثر من سلبياتها .

يمكن القول أن نقطة الاختلاف الأساسية بين منهج الإبراهيمي وأرسلان ، هي تركيز الإبراهيمي على المسألتين الدينية والثقافية وإيلائه لهما أهمية كبيرة ، مع عدم تحمسه للدور الذي يفترض أن يضطلع به القادة والأمراء والحكام ، لأسباب عدة ذكرنا منها عدم ثقته فيهم ،ولاعتقاده أنهم يشكلون إحدى العقبات أمام نهوض الأمة، من كبوتها وتقهقرها ، فكل مشروع يتبنونه إلا وكان مصيره الفشل . ومعناه أنه من المفكرين والمصلحين ،الذين يراهنون على القاعدة الشعبية والجماهيرية، التي تفرض ذاتها على حكامها وقادتها أولا ، فيكونون في مستوى تطلعاتها في الحاضر والمستقبل .

والحق أن مسلك الحكام والأمراء العرب، في عصر الإبراهيمي وأرسلان ، يؤيد هذا الموقف ، فقد كان غالبيتهم يفتقدون إلى النضج والوعي السياسي الكافيين ، لإدراك طبيعة التحديات الكبرى، والمرحلة الحساسة التي كانت تمر بها الأمة العربية الإسلامية في تلك الأثناء ، بل أن منهم كان يتصف بالسذاجة والغفلة ، فينقاد بسهولة لوعود الدول الأوروبية ، التي كانت تتصرف وفق مخطط استعماري محكم، لفرض هيمنتها على كامل المنطقة العربية والإسلامية . ومنهم من كان فقط، مخلصا لمصالحه الشخصية ، التي يسعى إليها بكافة الوسائل والسبل، ولو على حساب المصالح العليا لمجتمعه أو أمته ، ومن جاء موقف الإبراهيمي السلبي منهم .

أما أرسلان، فلم يكن يضع ثقته المطلقة فيهم ، ولكنه في الوقت نفسه راهن عليهم ، لأن السياسة هي عصب كل شيء، فهي التي تعطي لمثل تلك القضايا الدفعة اللازمة ، ولذلك كان يسارع إلى تأييد أية مبادرة سياسية في هذا الاتجاه ، رغم العيوب التي تظهر عليها منذ البداية . وفي هذا يبدو الطرح الأرسلاني، أكثر واقعية من الطرح الإبراهيمي ، مع تأكيدنا على أهمية العمل التربوي والتثقيفي ، ليس في سبيل النهضة وإنما في كل القضايا .

تمهيد :

في هذا الفصل الذي جاء تحت عنوان : " الجامعة الإسلامية في آراء الإبراهيمي و أرسلان " ؛ تناولنا في مبحثه الأول، تطور حركة الجامعة الإسلامية ، التي شكلت الحركة الوهابية، التي انطلقت من قلب الجزيرة العربية نواتها الأولى، ولكن الدعوة إليها نشطت أكثر أثناء النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، تزامنا مع اشتداد الهجمة الاستعمارية الغربية على البلاد العربية والإسلامية ، بغية إخضاعها عسكريا واستغلالها بشريا واقتصاديا . فطرحت فكرة الجامعة الإسلامية كأداة أساسية ، لإفشال المخططات الاستعمارية . وإضافة إلى ذلك ، استعرضنا بإيجاز أبرز دعاة الجامعة الإسلامية في هذا الصدد، منذ بداياتها الأولى وإلى غاية عصر الإبراهيمي و أرسلان وهم : السيد "جمال الدين الأفغاني" بشكل خاص ، تلميذه الشيخ "محمد عبده" ، الشيخ "محمد رشيد رضا" ، و"عبد الرحمان الكواكبي" (1854م – 1902م) ومصطفى كامل (1874م – 1908م) . ثم بينا في الختام تأثير فكر هؤلاء الأقطاب، في دعاة الجامعة المتأخرين، ومنهم بالخصوص الشيخ البشير الإبراهيمي و الأمير شكيب أرسلان .

وعالجنا في المبحث الثاني ؛ مفهوم الجامعة الإسلامية، ومزاياها لدى كل من الإبراهيمي و أرسلان ، حيث تبين لنا عدم اتفاق الرجلين على مفهوم واحد للجامعة، لاعتبارات عدة وضحناها في حينها ، أما فيما يخص الفوائد التي افترضا، أنها سترتب عن نجاح المشروع ، فقد اتفقا على أن أكبر فائدة هي التصدي للاستعمار الأوروبي جماعيا وكسر شوكته، فضلا عن بلوغ النهضة الاقتصادية والحضارية .

وتحدثنا في المبحث الثالث ؛ عن كيفية بناء الجامعة الإسلامية في آثار الإبراهيمي و أرسلان، حيث أبدى كل منهما تفاؤلا بإمكانية انجازها ، شريطة أن يتحلى الجميع بالإرادة والاقتناع بجدوى المشروع ، فجاءت اقتراحاتهما وأفكارهما في هذا الاتجاه، متقاطعة في بعض الجوانب، ومختلفة في جوانب أخرى .

وفي تقييمنا لما أورده المفكران، في قضية الجامعة الإسلامية، تبين لنا أنهما كررا بعض المفاهيم والتصورات، التي كانت شائعة في الأوساط الإصلاحية ، وفي المقابل جاءا باجتهادات خاصة، يمكن الحكم عليها بأنها جديدة ومبتكرة، وقد أبرزنا كل ذلك أثناء المقارنات التي عقدناها

في نهاية كل مبحث ، وفي خاتمة الفصل التي خصصناها للنتائج، التي تمكنا من الوصول إليها .

والحق أنه من خلال ما ضمناه في هذا الفصل ، قد اكتشفنا أن الإبراهيمي و أرسلان ، قد راهنا كثيرا على إنجاح فكرة الجامعة الإسلامية ، حتى وإن اختلفت نظرتهما للخطوات الواجب سلوكها لذلك ، بل أنهما جعلاها المفتاح لكل المشاكل والقضايا والتحديات والعقبات ، التي كانت تقف في طريق تحرر الشعوب العربية والإسلامية ، وانضمامها إلى صف الأمم القوية المهابة ، المنتجة للتكنولوجيا والثروة ، المساهمة بفعالية في قيادة العالم وتوجيهه، وفق قيم العدل والمساواة والتسامح ، التي تمثل جوهر الدين الإسلامي .

ولا جدال في أن التكتل في إطار الجامعة الإسلامية ، سواء مثلما ذهب إليه قادة النهضة ومنهم أرسلان والإبراهيمي ، أو بأشكال أخرى ، يعتبر نهجا سليما لتغيير الواقع العربي الإسلامي نحو الأفضل ، خاصة وأننا نرى القوى الكبرى في عالمنا الحالي، تتجه شيئا فشيئا نحو التكتل والاندماج، في جميع القطاعات والمجالات . وهو ما شدد عليه أرسلان والإبراهيمي منذ منتصف القرن العشرين ، كما سيتضح عبر مباحث هذا الفصل .

المبحث الأول : حركة الجامعة الإسلامية وأبرز دعاتها

1- جذور الجامعة الإسلامية :

مثلت الحركة الوهابية ، التي ظهرت في الجزيرة العربية ، النواة الأولى لفكرة الجامعة الإسلامية ([1]) ، وقد قامت على جملة من مبادئ هي : العودة بالإسلام إلى صفائه الأول توحيد الخالق وحده ، إنكار تأويل القرآن الكريم وتكفير كل من يقول بذلك ، فتح باب الاجتهاد بعد أن ظل مغلقا منذ القرن الرابع الهجري ، التقشف في العيش وإعادة بناء المجتمع الإسلامي من خلال القيام بكل أركان الإسلام ([2]) . وهي بذلك لم تولي الاهتمام الكافي بالجانب السياسي للفكرة الإسلامية ، بقدر اهتمامها بالجانب الحضاري، وخصوصا الناحية الدينية منه . فقد سعت إلى إصلاح حال المجتمع الإسلامي وتقويته ، دون أن تحتك بأي مؤثر خارجي. على عكس الحركة المهدية (**) في السودان ، التي ظهرت بغرض إصلاح المجتمع الإسلامي ، وفي ذات الوقت للدفاع عن الحضارة الإسلامية والكيان الإسلامي ، في مواجهة الاستعمار الأوروبي – المتربص بالمسلمين – ، و الحضارة الأوروبية – التي تحمل قيما مغايرة للحضارة العربية الإسلامية. أما الحركة السنوسية (***) ، التي تعد حركة إصلاحية سلفية وطرقية وصوفية ،

([1])- محمد محمود بوعياد، وآخرون ، المرجع السابق ، ص 349 .

([2])- ينظر علي المحافظة ، المرجع السابق ، ص 39 وما بعدها .

(**) – الحركة المهدية : نسبة إلى محمد أحمد السيد عبد الله، المولود سنة 1844م ، الذي انظم إلى حركته العديد من الزعماء وشيوخ القبائل من مختلف أنحاء السودان ، وقد أعلن الثورة على السلطات المصرية البريطانية . تتلخص تعاليم حركته في : إعادة الإسلام إلى سابق عهده ،واعتماد الكتاب والسنة فقط ، التوحيد بين المذاهب الأربعة السنية، والاكتفاء بمذهب اجتهادي خاص ، حصر الطريق الموصلة إلى الله بستة أمور هي : (صلاة الجماعة والجهاد في سبيل الله ، الامتثال لأوامره ونواهيه ، الإكثار من كلمة التوحيد ، تلاوة القرآن الكريم ، تلاوة الراتب) ، تحريم زيارة قبور الأولياء والرقص والغناء ، منع البكاء وراء الميت وإبطال السحر ، وكتابة الحجب وشرب الدخان ومضغه وشرب الحشيش والخمر ، البساطة في الملبس والمأكل واحتفالات الزواج والجنازة ، القضاء على الفساد السياسي في السودان وبقية الأقطار الإسلامية . توفي المهدي سنة 1885 م ، للمزيد ينظر علي المحافظة ، المرجع نفسه ، ص 65 وما بعدها .

(***)- الحركة السنوسية : مؤسسها هو محمد بن علي السنوسي، المولود في إحدى القرى بالجزائر 1787م الذي أسس أول زاوية سنوسية في شمال إفريقيا بليبيا، وهي الزاوية البيضاء بالجبل الأخضر عام 1843م ،

بين الرؤية الوهابية للإصلاح الديني ، وايجابيات الطرق الصوفية ([1]) ، فقد تلاقت معهما في ضرورة تنقية الإسلام ، مما علق به من بدع وخرافات ، والعودة به إلى طبيعته الأولى النقية ، ولكنها تميزت عنهما بدعوتها الصريحة إلى نظام حكم إسلامي ، ومطالبتها بجامعة إسلامية تكون الزعامة فيها للعرب وليس للعثمانيين، الذين لا تحق لهم القيادة في هذا الجانب . ولكن الحركات الثلاث ؛ اشتركت في كونها رفضت استعارة أي نظام أوروبي ، ورأت أن في الإسلام من العناصر الحضارية، ما يلبي حاجة المجتمع . ولعل ذلك يعود إلى البيئات التي ظهرت فيها حيث كانت تتميز بالحياة البسيطة، وبانعدام الاتصال بالفكر والثقافة الأوروبيين ([2]) . وبذلك تكون تلك الحركات الإصلاحية السلفية ، قد ظهرت كنتاج للانحلال الاجتماعي ، وانتشار البدع والضلالات في الدين الإسلامي ، والابتعاد عن أصول العقيدة الإسلامية ([3]) . أي كرد فعل على واقع اجتماعي وديني متخلف ، استوجب الأمر معالجته وإصلاحه .

نشطت الدعوة إلى الجامعة الإسلامية ، خلال النصف الثاني من القرن 19م ، حيث تزايدت مخاوف العثمانيين والمسلمين ، بمختلف أجناسهم ومعتقداتهم من الاستعمار الغربي ، الذي كان يكيد الدسائس والفتن ، وينتهز الفرص للاستيلاء على الإمبراطورية العثمانية ، خاصة بعد أن انكشفت مخططاته التقسيمية ، لما قامت الدول الأوروبية الكبرى بالاتفاق على ذلك في

، حيث قرر الإقامة هنالك نهائيا ، بعد مدة طويلة قضاها في السفر و الترحال . وتقوم السنوسية على المبادئ التالية : العودة بالإسلام إلى نقائه الأول ، اعتبار الكتاب والسنة مصدري الشريعة الإسلامية ، فتح باب الاجتهاد في الإسلام، واعتبار إغلاق هذا الباب سببا في تحجر الفكر الإسلامي ودخول البدع إليه ، تنقية الدين مما علق به من بدع وضلالات ، الإيمان بما تدعيه الصوفية من الرؤيا والاتصال والكشف ، حصر الإمامة في قريش . أما التنظيم الحركي للحركة السنوسية فهو كالتالي : شيخ الطريقة أو شيخ النظام هو الرئيس الأعلى لها ، مجلس الخواص وكان يتكون في البداية من أشخاص لا ينتمون إلى الأسرة السنوسية ومهمته مساعدة شيخ الطريقة في تعيين شيوخ الزوايا ، الإخوة ومهمتهم استقطاب الأعضاء العاديين إلى الحركة أو الطريقة . توفي السنوسي عام 1859م في "الجغبوب"، بعد أن انتشرت دعوته في برقة وطرابلس ، وخلفه ابنه المهدي (1859م – 1902م) . للمزيد ينظر علي المحافظة ، المرجع نفسه ، ص 55 وما بعدها .

([1])- علي المحافظة ، المرجع نفسه ، ص 57.

([2])- محمد محمود بوعياد وآخرون ، المرجع السابق ، ص 350 .

([3])- علي المحافظة ، المرجع نفسه ، ص 70.

مؤتمر برلين 1878م ، اثر انهزام الدولة أمام روسيا ، وتزايد التدخل الأجنبي في أراضيها على المستويين العسكري والثقافي . كل ذلك كان باعثا هاما، لظهور فكرة الجامعة الإسلامية ، التي استشعر دعاتها الأبعاد الاستعمارية للسياسة الأوروبية في المنطقة ، خاصة بعد فشل الحملة الفرنسية على مصر ، ورغبة تلك الدول في التغلغل عن طريق الغزو الاقتصادي والثقافي ، بممارسة المزيد من الضغوط ، وتفعيل دور الجمعيات والمؤسسات الدينية المسيحية . وهي الإستراتيجية التي لم ينخدع لها قادة النهضة والجامعة الإسلامية ، الذين أدركوا بشكل جيد تلك المساعي ، فكشفوها وأماطوا اللثام عن أهدافها السياسية والثقافية ، مع تأكيد رفضهم التقليد الأعمى للغرب ، والانسلاخ عن أصالتهم؛ المتمثلة في رصيدهم التراثي والحضاري المكتسب .

ذهب أعلام النهضة ، إلى أن الجامعة الإسلامية هي الوسيلة المثلى ، للوقوف في وجه محاولات التوسع الغربي ، وتدخله في شمال إفريقيا، بعد أن استولى على أهم قاعدة فيه وهي الجزائر ، وسعيه للقضاء على مقوماتها الشخصية، ممثلة في الدين الإسلامي واللغة العربية . كما أيقن أولئك الأعلام ، أن المقاومة الإقليمية والمحلية ، لا جدوى منها ، بالنظر إلى القدرات العسكرية والقتالية الهائلة ، التي كانت تحوز الدول الاستعمارية الغربية عليها . حيث أثبتت التجارب ، أن ميزان القوى الذي يميل إلى تلك الدول ، يشكل إحدى العوامل للتخلي عن النضال الفردي ، والتطلع إلى وسيلة أكثر فاعلية وهي العمل الجماعي .

ولذلك دافعوا عن موقفهم ، المتضمن أنه من مصلحة الشعوب الإسلامية مهما كانت أجناسها وألوانها وطوائفها ، أن تتبنى فكرة الجامعة الإسلامية ، بتعزيز الروابط فيما بينها وحمايتها ، فإن فشلت في ذلك ، فإن النتائج ستكون وخيمة على جميع الأقطار دون استثناء . الأمر الذي يستدعي ، مناصرة الدولة العثمانية والوقوف إلى جانبها ، وغض الطرف عن كل ما صدر من حكامها ؟ من أعمال تعسفية وسياسات ظالمة ، في حق الشعوب الإسلامية عامة والعربية خاصة . وفي هذا كان السيد "جمال الدين الأفغاني" أحد أبرز دعاة الجامعة الإسلامية ، الذين شددوا على ضرورة الالتفاف حول شعار الجامعة الإسلامية،الممثلة بالسلطان والدولة العثمانية ([1]) . مستفيدا من ثقافته الإسلامية والعربية ، ومن التجربة السياسية التي اكتسبها ،بفضل إقامته في الكثير من الأقطار الإسلامية ، فجاءت آراؤه في التجديد الديني والإصلاح

([1])– منذر معاليقي ، المرجع السابق ، ص ص 214 – 215 .

السياسي والاجتماعي غنية في هذا الإطار ، ونلمس ذلك التأثير في تحليلـه لأسـباب تـدهور الحضارة الإسلامية ، والتخلف الاجتماعي والضعف السياسي، اللذان كانا يعيشانهما المسـلمون في القرون الأخيرة ، وفي الحلول التي اقترحها والتي جمعت بين آراء الإصلاحيين السلفيين من أمثال " محمد بن الوهاب " و " ابن علي السنونسي " و " محمد المهـدي " ، وأراء المصـلحين الاجتماعيين المعاصرين ، وقد تمحورت آراؤه الإصلاحية والتجديدية حول ما يلي :

1 – عودة المسلمين إلى دينهم النقي، هو السبيل استرجاع مجدهم .

2 – وحدة الشعوب الإسلامية ، وإزالة الفوارق بين الفرق الإسلامية .

3 – تحرير الفكر الديني ، من قيود التقليد وفتح الاجتهاد .

4 – التوفيق بين العلم والإيمان ، وتحرير العقل من الخرافات والأوهام ، وإسناد العقائد الدينيـة بالأدلة والبراهين، وتهذيب الأفراد وتربيتهم تربية حسنة .

5 – اعتماد القرآن الكريم ، وعلى الحديث المتواتر ، وإجماع المسلمين في صدر الإسلام ، في دراسة النصوص الدينية، بغية استخلاص الصحيح منها .

6 – رفض الانجرار وراء الغرب، في تقليد كل شيء ، دون الحاجة إلى ذلـك ، ومـن غيـر تمحيص وتدقيق .

7 – ضرورة إصلاح العلماء المسلمين ، على ما يشهده العصر من تيارات فكرية حديثة ، مـع أخذهم بما يوافق الشريعة الإسلامية، ويعود على المسلمين بالفائدة ، وطرح ما ينافي عقيـدتهم بالحجج العقلية وبالبراهين المنطقية .

8 – السبيل الحقيقي ، الذي يؤدي بالمسلمين إلى التقدم والرقي، ويخرجهم مما هم فيه من تخلف شديد ، هو الإصلاح الديني ، فحتى النهضة الأوروبية الحديثة ، لم تخلو مـن هـذا الجانـب . والذي يقوم على بث العقائد الدينية الصحيحة بين العامة ، وشرحها لها على الشكل الصـحيح ، وتوجيهها الوجهة الصحيحة من حيث ممارستها وتطبيقها في حياتها ([1]) .

9 – واجب توحيد الفرق الإسلامية ، المتصارعة فيما بينها لأسباب واهية ، وفي هذا اسـتنكر انقسام المسلمين إلى سنة وشيعة ، ودعا إلى إزالة الخلاف بين الفريقين ، موجها التهمة لملوك

([1]) –للمزيد ينظر علي المحافظة ، المرجع السابق ، ص 73 وما بعدها .

السنة بتضخيم أمر الشيعة سعيا وراء مصالح شخصية ؟، تتمثل في محاولة كسب العامة . كما رأى أنه لا مبرر لاستمرار الانقسامات بين المسلمين ، بسبب خلافات إسلامية تجاوزها الزمن .
10 – ضرورة الدفاع عن الإسلام والحضارة الإسلامية ، وفي هذا عمل الأفغاني بكد من أجل إبراز دور الإسلام، في الحث على طلب العلم وتنمية الفكر الإنساني . فضلا عن محاججة المفكرين الغربيين ، الذين كانوا يروجون لفكرة أن تخلف البلدان الإسلامية ، يرجع إلى تدينها بالإسلام الذي يدفع إلى الانغلاق الفكري، والجمود الذهني والتخلف العلمي ([1]) .

وانطلاقا من ذلك ، يتجلى لنا أن فلسفة "جمال الدين الأفغاني" ، في إصلاح الواقع السياسي المتردي، والحضاري المتخلف للمسلمين في عصره ، ترتكز على : الإصلاح الديني من منطلق العقلانية الإسلامية ، اعتقادا منه بأن الشرق لن يحقق النصر في صراعه مع الغرب الاستعماري ، إلا إذا تمكن من سلاح العقل ، الذي سمح للغرب بالتفوق عليه في هذا الصراع . ويرتكز على تفعيل الصلات الحضارية مع الغرب ، مع أخذ المناسب منها فقط ، إقتداء بالعرب في العصر العباسي ، وهو شرط أساسي لاستعادة القدرة على التأثير والعطاء الحضاري . أما المرتكز الثالث ، فيتمثل عند "الأفغاني" في المحافظة على وجود الدولة العثمانية ، وتنمية العناصر الإيجابية فيها ، ليس من منطلق أنها تمثل الخلافة الإسلامية، وإنما من باب الضرورة التي يفرضها التحدي للعدو الرئيسي، وهو الاستعمار الغربي الأوروبي ، الذي يتربص بكل البلاد الإسلامية، سعيا من بسط سيطرته الكاملة عليها ، ومن ثمة يرى أنه ينبغي المحافظة عليها سياسيا ، والاجتهاد في تنمية قدراتها ، وفي المقابل من ذلك ، انتقاد سياستها الرجعية المتخلفة ، بغرض تطويرها وإعادة الشباب إليها ([2]) .

من أجل نشر أفكاره الإصلاحية، ودعوته إلى الجامعة الإسلامية ، زار الهند وإيران والحجاز وتركيا و العراق و مصر، حيث استقر بهاته الأخيرة سنة 1871م، مدة ثمان سنوات : ((يبصر العقول ، ويفتح الأذهان ، ويشحذ الهمم ، ويصقل العزائم)) ، الأمر الذي أثار حفيظة وخشية السلطات المصرية ، فقامت بطرده عنوة ، بإيعاز من القنصل البريطاني ، الذي ضاق ذرعا بنشاطه المعادي للاستعمار . انتقل بعدها إلى لندن وباريس ، وهنالك وجد الجو مناسبا

([1])– للمزيد ينظر علي المحافظة ، المرجع السابق ، ص 73 وما بعدها .
([2])– محمد عمارة : الجامعة الإسلامية والفكرة القومية نموذج مصطفى كامل ، مرجع سابق ، ص 53 .

لنشر أفكاره السياسية ، التي تنتقد تدخل بعض الدول الغربية في شؤون البلدان الإسلامية ، خاصة الهند ومصر ، عبر مقالات تناقلتها الجرائد الكبرى ، مما مكن الجهات السياسية المشتغلة بشؤون الشرق من الإطلاع عليها . ليقوم بعد ذلك بإنشاء جريدة خاصة به ، بمعية تلميذه الشيخ "محمد عبده" هي " العروة الوثقى " ، التي ذاع صيتها بين الشرقيين عموما والمسلمين خصوصا ، بغية إيقاظ الأقطار الإسلامية من ضعفها ، وتنبيهها لكي تتولى أمورها بنفسها، وتطرد الاستعمار من أراضيها ([1]) .

وقد لقيت دعوته ، تأييدا من قبل السلطان العثماني " عبد الحميد الثاني " الذي أرسل مبعوثيه إلى البلاد الإسلامية ، لحض قادتها على تبنيها والانخراط فيها ، لأنه كان في حاجة ماسة إليها ، لكي يحتمي بالتعاطف الإسلامي ، من التكالب الأوروبي المطبق عليه من كل الجهات . فأعطى انضمامه لها دفعا قويا ، مكنه من تقوية مركزه السياسي أمام خصومه السياسيين في الداخل ، ومن تدعيم السلطنة واعتبارها دولة الخلافة التي تدافع عن الإسلام والمسلمين ، كما تحصل على التأييد الديني الواسع كخليفة للمسلمين . خاصة بعد أن فاز بتأييد " شريف مكة " ، والأفغاني الذي نزل ضيفا عليه سنة 1892م ،وتمكن من إقناعه بأن يكون رسوله في الدعوة إلى الجامعة الإسلامية .

لكن هذا التحالف ، لم يستمر طويلا ، إذ سرعان ما حدثت القطيعة بين الرجلين ، بعد أن أخذ "الأفغاني" في مهاجمة سياسة "عبد الحميد" ، والمجاهرة بعدائه له وكشف ادعاءاته ، ورفض حتى مقابلته ، بحجة أنه لم يكن صادقا وكان يخدعه ([2]) . وكان يستغل جهوده في هذا الاتجاه لمصلحته ، إذ لم يتبنى أفكاره البتة ، وكل ما في الأمر ، أن "عبد الحميد" حاول التقرب من "الأفغاني" ، من أجل كسب التأييد لسلطته السياسية على الدولة العثمانية ، بإعلان حقوقه وامتيازاته كخليفة للمسلمين ، وفي هذا المضمار ذكر " أنور الجندي " ([3]) ؛ أن العلاقة بين "الأفغاني" و"عبد الحميد" ، استغلت من بعض خصوم وأعداء السلطان للتشهير به .

([1])-جمال الدين الأفغاني ، محمد عبده ، المرجع السابق ، ص 26 .

([2])- منذر معاليقي ، المرجع السابق ، ص ص 216 – 217 .

([3])- ينظر أنور الجندي : اليقظة الإسلامية في مواجهة الاستعمار ، مرجع سابق ، ص 144 وما بعدها .

وقد برر رأيه هذا بالقول ؛ أنه لا خلاف بأن اختلافا كبيرا، كان حاصلا بين دعوة "الأفغاني" التي كانت تقوم على الربط بين الإسلام والدولة الحديثة ، وبين مفهوم الإسلام وبين الحضارة . على أن تنشأ الوحدة على أساس وضع دستور شوري ، قوامه وحدات لا مركزية ، تتجمع في مجلس أعلى ، يرأسه أكبر تلك الوحدات . وبطبيعة الحال أن "الأفغاني" ، لما عرض هذا المشروع على السلطان "عبد الحميد" ، رفضه لأنه خشي أن يقضي على نفوذه .

كما أن الاختلاف في مفهوم الوحدة الإسلامية ، كان جوهريا بينهما ، بحكم الاختلاف في الثقافة ، والعقلية والمزاج والهدف وموقع كل منهما . بالرغم من أنهما يجتمعان في الإخلاص والإسلام ، والسعي للإصلاح والتكتل لمقاومة الغزو الاستعماري الغربي ، بمعنى أنهما اشتركا في الهدف ، وتفرقا في النهج . وبالتالي فإن الذي مثل حسب " أنور الجندي " عامل تهديد وتقويض لفكرة الجامعة الإسلامية ، ليس الخلاف بين "الأفغاني" والسلطان "عبد الحميد" ، وإنما الحركة القومية التركية التي عرفت بالطورانية (*) ، التي كانت نتاجا للمدرسة التركية ، التي اعتنقت الحضارة الغربية والفكر الغربي، اعتناقا كاملا ، بإيعاز من الاستعمار الغربي ، بهدف تقويض بنيان الوحدة الإسلامية العثمانية ، واقتسام إرث الرجل المريض ، وإثارة المزيد من الخلافات بين المسلمين والأقوام الأخرى، داخل الدولة العثمانية ، لخلق دعوة مضادة لدعوة الجامعة الإسلامية .

وفي القضية ذاتها، أورد الدكتور "إسماعيل إبراهيم" ،([1]) رأيا مغايرا ، إذ قال بأن السلطان "عبد الحميد الثاني"(1842م-1918م) ، كان حريصا على استضافة "الأفغاني" وإبقائه بالقرب منه ، حتى يتسنى له مراقبته ، وأنه تخوف منه أكثر، لما شاهده مسرورا بخبر اغتيال "الشاه" في إيران ، فأمر بتشديد الرقابة عليه . كما أنه لا يستبعد فكرة ،المساعدة على تصفيته بالسم (**) .

(*)- اتخذت تسميتها من جبال طوران الشهيرة بتركيا .

([1])- إسماعيل إبراهيم ، المرجع السابق ، ص 118 .

(**)- وفاة الأفغاني كانت صبيحة يوم 09 مارس 1897م ، بمرض السرطان الذي أصاب فكه ، حيث أكد البعض أن وفاته لم تكن طبيعية ،ورجحوا أنه لقح في شفته بمادة سامة .وذكر في هذا الصدد أنه عقب موته مباشرة ، أرسل السلطان عبد الحميد ، بعض موظفيه ليستولوا على أوراقه ومؤلفاته . كما أنه أمر بدفنه بعد ساعتين من وفاته ، تحت حراسة مشددة ، مخافة من رد فعل أنصاره ، الذين ارتابوا في أسباب الوفاة ، إسماعيل إبراهيم ، المرجع نفسه ، ص 118 ، وكذلك الأفغاني ، عبده ، المرجع السابق ، ص ص27-28.

ومجمل القول أن السيد "جمال الدين الأفغاني" ، أراد أن تكون الجامعة الإسلامية ؛ إطارا سياسيا : ((يضم جميع الدول والإمارات الإسلامية تحت لواء الخلافة العثمانية حتى يتأتى – لها – ... أن تقف في وجه الزحف الاستعماري ، وحتى تتمكن من المحافظة على خيرات العالم الإسلامي الاقتصادية ، وتمكين الشعوب الإسلامية من التمتع بتلك الخيرات ، دون الغرب الاستعماري)) . كما علق آمالا كبيرة على الخلافة العثمانية ، فتقوم بواجبها الذي يفرضه عليها الدين الإسلامي ، تجاه المسلمين في كل مكان ، فتتولى أمر حمايتهم وشد أزرهم أمام الاستعمار الغربي المتربص بهم ([1]) . لكن تلك الآمال لم تتحقق ، بسبب الضعف الشديد الذي آلت إليه الإمبراطورية في تلك الأثناء ، واستسلامها للدول الاستعمارية الكبرى ، التي قامت بتفكيكها بالتدرج ، إلى أن ألغتها نهائيا من الوجود .

أما تلميذه الشيخ "محمد عبده" ، فقد كان منطلقه الفكري هو الانحلال الداخلي والحاجة إلى تجديد الإسلام ، حيث كانت تتراءى له صورتان متناقضتان للمجتمع الإسلامي ؛ صورة مشرقة تعود إلى العهد الأول للإسلام ، وصورة مهزوزة كان عليها المجتمع الذي عاصره ، فكان عليه أن يعمل على التوفيق ، بين المجتمع الإسلامي النموذجي الذي كان هدفه ، وبين المجتمع – المتخلف – الذي كان يعيش فيه . إنه مجتمع السعادة والفضيلة ، الذي يسوده العقل لا القانون ؛ يكون فيه المسلم معتمدا على العقل في شؤونه الدينية والدنيوية على حد سواء ، ومتقبلا لأوامر الله متمثلا ومفسرا لها تفسيرا عقليا ، وهو جوهر ما حث عليه الإسلام . ومنه فإن دعوة الشيخ "عبده" ، قد قامت على الأسس التالية :

1– تطهير الإسلام من البدع والضلالات ، والعودة به إلى صفائه الأول ؛ من خلال تحرير الفكر من قيد التقليد ، وفهم الدين كما فهمه السلف الصالح قبل أن يظهر الخلاف ، والرجوع إلى ينابيعه الأولى ، والحيلولة دون طغيان الفكر الغربي الحديث . وفي هذا اقتفى عبده خطى الدعوات الإصلاحية السلفية ، فأخذ بآراء كبار قادتها مثل الشيخ " ابن تيمية "

([1])– ينظر محمد دراجي ، المرجع السابق ، ص 186 وما بعدها .

(1263م – 1328م) وتلميذه " ابن القيم الجوزية " (*) و"محمد ابن عبد الوهاب" ([1]) .

2- إعادة النظر في عرض المذاهب الإسلامية بناءا على الفكر الحديث ، بمعنى التوقيف بين الدين والعلم ؛ إذ لا يمكن أن يمثل الدين حاجزا أمام البحث في الأسرار الكونية، وطلب المعرفة عن طريق البرهان . ولهذا لجأ إلى توظيف العلوم الحديثة في تفسير القرآن الكريم ، وحث على إقامة التوازن بين العلم والإيمان .

3- الدفاع عن الإسلام ضد كل ما يستهدفه من مؤثرات غربية ، وحملات تبشيرية ومعتقدات ونظم أخلاقية . وتقديمه كدين يحمل أفكارا وقيما متحررة ، صالحة لكل الأزمنة ([2]) .

4- إصلاح التعليم الديني ، وعدم الاكتفاء بدراسة المؤلفات العربية التقليدية في الشرع الإسلامي ؛ والانفتاح على العلوم الحديثة وتاريخ الديانات في أوروبا ، لكي يتسنى للمسلمين فهم أسباب التقدم الغربي .

5- التمسك بالإسلام ؛ لإخراج المسلمين مما هم عليه من ضعف و شلل ، وتكالب استعماري .

6- الإصلاح بواسطة التربية والتعليم ، لتحرير العقل من جموده ، وإعادة هداية الدين .

وبناء عليه ، يمكن القول أن الشيخ "محمد عبده"، قد اختار الإصلاح عن طريق التربية ؛ التي عدها أساسا لكل حركة إصلاحية ، انطلاقا من كون أن بناء الأجيال الجديدة هو الذي يحقق النهضة العامة ؛ التي تكون نتاجا لتغيير تدريجي في عادات وأخلاق وسمو التفكير . وليس عن طريق استبدال قادة الحكومات أو طريقة الحكم ، أو تحسين أشكاله الإدارية ([3]) .

أما الجامعة الإسلامية عنده ؛ فهي نزعة بعيدة عن التعصب ، على عكس مما روج له بعض المسيحيين لسوء فهمهم للشرق ، والساسة الغربيين بفعل نواياهم السيئة – اتجاه الإسلام والمسلمين – ، قادها رجال من مختلف الأقطار الإسلامية ، ممن حز في أنفسهم ما وصل إليه قومهم، من تخلف وانحطاط في كل المجالات ؛ كان من مظاهره ؛ انتشار البدع والخرافات

(*)- ابن القيم الجوزية : هو محمد ابن القيم الجوزية (ت 751هـ / 1350م) ، فقيه حنبلي دمشقي ، تلميذ ابن تيمية وقد سجن معه ، قاوم الفلاسفة . كتب الكثير من المصنفات منها : " مدارج السالكين " ، " إعلام الموقعين " ، " شفاء العليل " ، " روضة المحبين " ، " القواعد " . المنجد في اللغة والأعلام .

([1]) – علي المحافظة ، المرجع السابق ، ص ص 82 –83 .

([2])- ينظر أنور الجندي : اليقظة الاسلامية في مواجهة الاستعمار، مرجع سابق ، ص 140 وما بعدها .

([3])- ينظر علي المحافظة ، المرجع نفسه ، ص 82 وما بعدها .

وهيمنتها على العقائد الدينية والحياة اليومية للأفراد ، الذين أهملوا أمورهم الدينية والدنيوية ؛ وغرقوا في التواكل واليأس من أنفسهم ، وانقادوا لحكام مستبدين ومتسلطين ؛ لا هم لهم سوى استغلال شعوبهم وخدمة مصالحهم الشخصية ، وجمع الثروات لإنفاقهم على شهواتهم . فجاء أولئك العقلاء من رجال الإصلاح ؛ لإصلاح الوضع وإعادة ثقة المسلمين بدينهم ، واعتماد هذا الأخير، لتقويم ما فسد وأختل في حياتهم .

وهكذا فإن العودة إلى الدين في البلاد الإسلامية ؛ لا يعد من وجهة نظره ، محاولة لإثارة الفتن ضد الأمم المجاورة للمسلمين ، التي تحضى بالاحترام والتقدير، حتى ولو كانت غير مسلمة ، لأن الغرض الوحيد من الدعوة إلى جامعة الدين ، هو تمكين المسلمين من الاستعانة ببعضهم البعض ؛ لإصلاح ما تعرضت له عقائدهم من فساد ، وما شاب شؤونهم من اختلال ، وللدفاع عن أنفسهم من كل اعتداء . ثم أنه لا ريب في أن المسلمين ، إذا تهذبت أخلاقهم عن طريق الدين ، وانصرفت جهودهم إلى اكتساب العلوم والمعارف ، فإنهم سيلحقون بركب التقدم الأوروبي، وينافسون أصحابه فيه ، مما يؤدي إلى إمكانية الاتفاق في المصالح وسهولة التفاهم . ومعناه أن الجامعة الإسلامية في مفهومه ، تهدف إلى إحداث التوازن في العلاقات بين المسلمين والأوروبيين ، يحكمها منطق التكافؤ في القوى ، وليس منطق القوي والضعيف . وهو هدف لن يتحقق ؛ إلا بتنوير العقول وتكوين الأجيال ([1]) .

أما موقفه من الدولة العثمانية ، فقد تطابق مع موقف الأفغاني ؛ إذ أيد بقاءها ودعا إلى حمايتها من القوى الدولية ، التي كانت لا تتوقف عن تدبير المؤامرات والفتن ضدها ، ليس لأنه كان من المتحمسين لحكم الأتراك ، وإنما لأنه كان يعي جيدا أن إضعافها وتفكيكها ، يعني تمهيد الطريق أمام أوروبا الاستعمارية، للسيطرة عليها واحتلال كل أقاليمها وأملاكها . والحل باعتقاده يكمن في إصلاحها – من الداخل – ، بعد أن أظهرت عجزها التام في القيام بدورها المفترض إزاء الإسلام والمسلمين على حد سواء ، فتعالج الانحرافات التي أصابت سياستها من ظلم واستبداد ، وينقى الدين من الشوائب والطقوس التي التصقت به ، ويستفيد المجتمع الإسلامي من

([1])– للمزيد ينظر محمد طهاري : <u>الحركة الإصلاحية في الفكر الإسلامي المعاصر</u> ، ج 1 ، مرجع سابق ص 84 وما بعدها .

العلوم العصرية والتربية الحديثة ([1]) . وجدير بالإشارة في هذا المضمار ، أن الشيخ "محمد عبده"، قد استمر في موقفه هذا من الدولة العثمانية ، على عكس أستاذه "الأفغاني" الذي جاهر بعدائه للسلطان العثماني ، بعد أن اكتشف أن هذا الأخير، لم يكن صادقا في تبنيه لفكرة الجامعة الإسلامية ، وكل ما كان يريد منه هو إضفاء الشرعية لنظام حكمه، وتحصينه داخليا وخارجيا ، وهو ما لم يرضى به الشيخ "محمد عبده" كما مر بنا سالفا .

ولقد اجتهد في الدفاع عن سلمية، وإنسانية فكرة الجامعة الإسلامية ، التي حاولت بعض الأقلام الفكرية وأغلب المنابر السياسية الغربية ، تشويهها برميها بالعصبية والعنصرية ومعاداة الآخرين . متناسية أن دولها ، هي التي أنتجت قوميات عرقية متعصبة خلال القرون الأخيرة ؛ كالنازية في ألمانيا والفاشية في ايطاليا ، فحولت القارة الأوروبية وخارجها ، إلى ساحات لحروب دموية ، كانت نتائجها كارثية على الجميع، بشريا واقتصاديا واجتماعيا وسياسيا .

لأن فكرة الجامعة الإسلامية، في اعتقاده تستند إلى الإسلام كمرجعية ؛ فهو وإن حث على وحدة المسلمين وتكتلهم وتعاونهم ، على أساس الرابطة الدينية ؛ فإنه في المقابل من ذلك ؛ لم يدع إلى سيطرة قومية أخرى أو ابتلاعها ؛ بل قرر أن الهدف في كل ذلك هو ؛ تحقيق المساواة والعدل والأخوة والسلام ، خدمة للإنسانية كلها ، بغض النظر عن الأجناس والألوان و الأحساب والأنساب . وبذلك يكون من الديانات التي تسعى دائما ؛ إلى القضاء على عوامل التعصب وأسباب الحروب القومية ، لتنعم البشرية بحياة الأمن والحرية والرخاء والسلام ([2]) .

ومن أنصار الجامعة الإسلامية أيضا الشيخ "محمد رشيد رضا" ، الذي اقتفى طريق أستاذه الشيخ "محمد عبده" ؛ في إصلاح المجتمع الإسلامي، عن طريق التربية والتعليم ، حيث قامت آراؤه الإصلاحية التي تضمنتها جريدة " المنار " التي أسسها سنة 1898م ؛ وكذلك عشرات الكتب (*) التي ألفها ، على الأسس التالية :

([1])- منذر معاليقي ، المرجع السابق ، ص 222 .

([2])- لأكثر تفاصيل حول هذه النقطة ينظر محمود حمدي زقزوق : الوحدة العربية ما لها وما عليها ، ط1 ، دار التقريب بين المذاهب الإسلامية ، بيروت : 1994م ، ص 59 وما بعدها .

(*)- وهي : تفسير القرآن الكريم المشهور بتفسير المنار وهو في اثني عشر مجلدا ، التفسير المختصر المفيد ، تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده (ثلاثة أجزاء) ، نداء للجنس اللطيف (حقوق النساء في

1- استقلال الفكر وحرية العقل في العلم ونبذ التقليد : ذلك أن العقل باسمه وأفعاله ورد في القرآن الكريم حوالي خمسين مرة ، أما أولي الألباب أي العقول فذكرت أكثر من عشر مرات . في حين أن التقليد ، حجر على حرية التفكير واستقلال العقل ، وهو ما يتعارض وجوهر الإسلام دين العلم والحكمة .

2- القضاء على البدع والخرافات والتقاليد والعادات ؛ التي أفسدت على المسلمين عقائدهم وأخلاقهم وشؤونهم ، ودفعت بهم إلى- مستنقع – الدجل والخرافات ؛ كالاحتفال بالموالد وعبادة القبور والمشاهد ،؛ التي تعد حسبه من عبادة الوثنيين المنتشرة بشكل خاص في الهند .

3- تصحيح العقائد ، وتزكية النفوس وتهذيب الأخلاق ، باعتماد القرآن الكريم والحديث النبوي والاقتداء بالسلف الصالح ، وهو ما يتطلب إحياء علوم التفسير والسنة وآثار السلف .

4- وجوب إصلاح نظام التربية والتعليم، بتطوير وتحسين أساليب التعليم ، وتدريس العلوم العصرية التي تمثل دون غيرها مصدرا للثروة والقوة والعزة ، وذلك موازاة مع التعليم الديني الذي لا غنى عنه .

5- التصدي لأعداء الإسلام ؛ بالرد على الملاحدة وإبطال مزاعمهم وحججهم ، عبر تنقيح السنة النبوية من الأحاديث الموضوعة ؛ تفسير الآيات القرآنية ، وإصدار الفتاوى بشأن القضايا المطروحة ، ونشر المقالات في شتى المواضيع .

6- العمل على القضاء على التخلف والضعف والانحلال بين أوساط المسلمين ، ونقله إلى الحياة العصرية المتسمة بالقوة والتقدم أو التماسك الاجتماعي والقيم الأخلاقية ؛ بإزالة كل الأوهام والضلالات والبدع التي استحكمت على عقول الجميع ، وهو ما يقتضي الاهتمام بالوعظ والإرشاد الموجه لكافة الفئات الاجتماعية ، وبالتأليف في العقائد والعبادات والأخلاق والآداب الدينية .

7- الاهتمام بالدعوة الإسلامية في العالم ؛ بإنتاج جيل من المثقفين ثقافة دينية صحيحة ،

الإسلام) ، الوحي المحمدي ، المنار والأزهر ، ترجمة القرآن وما فيها من المفاسد ، ذكرى المولد النبوي ، الوحدة الإسلامية (محاورات المصلح والمقلد) ، يسر الإسلام وأصول التشريع العام ، الخلافة أو الإمامة العظمى ، الوهابيون والحجاز ، مناسك الحج وأحكامه وحكمه ، المسلمون والقبط ، رسالة في الصلب والفداء.

والملمين باللغات الأجنبية وبعلوم العصر ، حتى يتسنى لهم القيام بذلك على أحسن وجه ([1]) .

هذا بالنسبة لأفكاره وتصوراته الدينية والفكرية والعلمية والتربوية التي طرحها ، لإصلاح المجتمعات الإسلامية من الداخل ، والتي لا تختلف كثيرا عن نظيرتها لدى أستاذه الشيخ "محمد عبده" . أما بالنسبة للشق السياسي ، فقد كان "رشيد رضا " من أشد المدافعين عن الخلافة الإسلامية التي تعني عنده ((الإمامة العظمى)) وإمارة المؤمنين أو : ((رئاسة الحكومة الإسلامية الجامعة لمصالح الدين والدنيا)) . وانطلاقا من ذلك فقد حدد مهام الخليفة أو الإمام في : ((نشر دعوة الحق ، وإقامة ميزان العدل ، وحماية الدين من الاعتداء والبدع ، والمشاورة في كل ما ليس فيه نهى–نواهي– ، وهو مسؤول عن عمله يراجعه كل أحد من الأمة فيما يراه أخطأ فيه يحاسبه عليه أهل الحل والعقد ...)) ([2]) . وكما بين أن حكومة الخلافة الإسلامية مدنية، تقوم على أساس العدل والمساواة ، ويكون فيها لغير المسلمين، جميع الحقوق الشرعية والعرفية والقانونية ([3]) .

ولأن الخلافة الإسلامية، تعني لديه الجامعة الإسلامية ، فإن "رشيد رضا" قد حرص على الدعوة إلى نبذ العصبية الجنسية ، التي قضى عليها الإسلام ، وتأييد بقاء الدولة الإسلامية المتمثلة في الخلافة العثمانية، بدل إلغائها، رغم الضعف والانحطاط الشديدين اللذان كانت عليهما ، بمحاولة إعادة الحياة إليها ؛ عن طريق تبني سياسة الشورى في الحكم ، ومحاربة الحكم الاستبدادي الذي كان يقوده السلطان "عبد الحميد" ؛ أو جمعية "الإتحاد والترقي" (*) ، والعمل على مزج كل العناصر العثمانية (ترك ، عرب ، روم ، أرمن ...) في وحدة متكاملة، تنهض بالبلاد على قواعد المحبة والمساواة ([4]) .

والسبب في موقفه هذا المؤيد للدولة العثمانية ، هو كونه كان مدركا للنتائج الخطيرة التي يمكن أن تنجر عن انهيارها ، والمتمثلة في المخططات الاستعمارية التي كانت تدفع في هذا الاتجاه . وقد خص هنا بالتحديد بريطانيا ، التي اعتبرها :((الخصم الأكبر الأشد الأقوى))

([1])– ينظر علي المحافظة ، المرجع السابق ، ص 90 وما بعدها .

([2])– ينظر رشيد رضا ، المصدر السابق ، ص 16 وما بعدها .

([3])– ينظر المصدر نفسه ، ص 180 وما بعدها .

([4])– منذر معاليقي ، المرجع السابق ، ص 223 .

من خصوم الخلافة الإسلامية ، والعلة في ذلك أنها((تخشى أن تتجدد بها حياة الإسلام وتتحقق فكرة الجامعة الإسلامية فيحول ذلك دون استعبادها للشرق كله)) . وبين أنه نشر الكثير من أقوال وتقارير الأوروبية في هذه القضية ; ومنها تقرير " كرومر " السنوي عن مصر و السودان سنة 1906 م ؛ الذي ذكر فيه أن المقصود من الجامعة الإسلامية بصورة عامة ، هو توحيد المسلمين في كل أنحاء العالم ، للوقوف في وجه القوات المسيحية ومقاومتها . وأضاف بأنها تعني أيضا، تهييج الأحقاد الجنسية والدينية ، فضلا عن السعي إلى إصلاح أمر الإسلام على النهج الإسلامي ، مما يعني إعادة مبادئ وضعت منذ ألف سنة، إلى حياة القرن العشرين، وختم بتحذير الأوروبيين من الجامعة الوطنية ، حتى لا تلبس لباس الجامعة الإسلامية ، وتوجيه النصح إلى الأمم الأوروبية التي لها مصالح سياسية بالشرق، بضرورة مراقبة تلك الحركة مراقبة دقيقة ، لأنها قد تؤدي حسبه إلى إضرام التعصب الديني، في جهات مختلفة من العالم .

وإذا كان الشيخ "رشيد رضا" ، لا يستغرب أن يطعن الاستعمار في الخلافة الإسلامية ، اعتقادا منهم أنها قد تؤدي إلى ثورة أهل البلاد الإسلامية عليهم ، وأن يعملوا على تنفير المسلمين منها مخافة أن تكون سببا في تحقيق الجامعة الإسلامية ، فإنه من زاوية أخرى ، أعرب عن اندهاشه من إحجام الأتراك عن إقامة الخلافة الإسلامية ، رعبا وخوفا من معارضة الدول الأوروبية الاستعمارية ؟ . وفي المقابل نصح رجال الدولة التركية ، الذين كانوا ضد تحريك أوتار الجامعة الإسلامية ، بأنه نهج يضر الدولة أكثر مما ينفعها ، وهو السبب الرئيس في اشتداد الهجمة الأوروبية عليها ، والبديل الذي اقترحه في هذا الصدد هو :

1- تأسيس حكومة إسلامية ، خالية من التقاليد والقوانين الغربية ، إلا ما اتفق مع الشريعة ولم يختلف اختلاف الأقوام ، وتمنح مقام الخلافة حقه المتمثل في : إحياء دعوة الإسلام ، وإقامة الحدود وحرية أهل الأديان .

2- أن تترك أمور الدين إلى جمعيات دينية حرة ، المستعد أفرادها للقيام بهذه المهمة ، مع بقائها بمعزل عن السياسة ، حيث لا تخصص لها إعانة من الدولة ، فتعتمد بالأساس على ما تجمعه هي من إعانات ومن ما يعطي لها من أوقاف المسلمين الخيرية ([1]) .

([1])- ينظر رشيد رضا ، المصدر السابق ، ص 190 وما بعدها .

واستنادا على ذلك ، يتضح لنا أن الشيخ "رشيد رضا" ، كان من أنصار إعادة الحياة إلى الخلافة الإسلامية التي تأخذ على عاتقها ، مهمة التأسيس لفكرة الجامعة الإسلامية علـــى أرض الواقع ، بمعنى أنه كان يرى أنها كلاهما مرتبط بالآخر ، فلا يمكن أن تتحقق الثانية إلا بوجـــود الأولى على شكلها الصحيح . ولذلك حاربت الدول الاستعمارية الغربية وعلى رأسها بريطانيـــا قيام خلافة حقيقية ، حتى تمنع الجامعة الإسلامية من التبلور في شكل اتحاد إسلامي ، منـــاهض للاستعمار في أي بلد إسلامي ، بغض النظر عن لون أو عرق أو ثقافة شعبه . وهو الهـــاجس الذي كان يدفعها للتجند من أجل أن يبقى العالم الإسلامي ، منحطا ومتخلفا ، ومقطع الأوصال وفي المقابل من ذلك ، شجعت بقاء خلافة عثمانية شكلية ، لأنها لا تشكل أي تهديد ، طالما لـــم تكن على الصورة التي كان يريدها الشيخ " رشيد رضا " ؛ وغيـــره مـــن أقطـــاب الإصـــلاح والجامعة الإسلامية .

وإذا كان كل من "الأفغاني" و"محمد عبده" و"رشيد رضا" ؛ قـــد حملـــت دعـــوتهم إلـــى الإصلاح والتجمع طابع الإسلام ، فإن "عبد الرحمان الكواكبي" (1854م – 1902م) قد خالفهم في ذلك ، إذ اختار الإصلاح والتجديد في إطار العروبة ، وهو التوجه الـــذي ســـار فيـــه كـــل المصلحين المجددين ، الذين عاشوا في البيئة الشامية في تلك الفترة من الزمن ، حيـــث انطلـــق مفهومهم للإصلاح من العروبة لغة وعرقا . فقد كرس الكواكبي جهوده ، لإصـــلاح المجتمـــع والبحث في أسباب تأخر العالم الإسلامي ، ومحاربة الاستعمار ، وإصلاح الحكم ودعم مبـــادئ الحرية ، بالإضافة إلى تطهير الإسلام من البدع والخرافات ، والعمل علـــى يســـتعيد العـــرب مركزهم الطبيعي في قيادة الإسلام . وفيما يتعلق بهاته النقطة الأخيرة ، رأى أن الرابطة العربية ، قد تعد الحل الأمثل خاصة بعد فشل دعوة الأفغاني في الوحدة الإسلامية لعوامل كثيرة منها :

1- كون أن العرب هم الأجدر في تلك الفترة من غيرهم ، في بعث النهضة الحقيقية .

2- الآثار الايجابية التي أوجدتها رابطة اللغة والثقافة ، حيث أوجدت بينهم تقاربا يمكن أن يكون أرضية صلبة للفكرة ([1]).

([1]) – أنور الجندي : اليقظة الإسلامية في مواجهة الاستعمار ، مرجع سابق ، ص 166 .

3- رؤيته للقوميات على أنها قد تمثل عاملا مهما في توحيد الأمم ، وفي التأثير الفعال إزاء فكرة الوحدة الإسلامية ، التي تجتمع حولها عدة قوميات .

4 - اعتقاده بأن العمل في المجال العربي ، هو بداية لعمل أكبر ، حيث يتوحد العرب أولا قبل أن يوحدوا العالم الإسلامي.

ومنه فإن "الكواكبي" (1849م-1902م) قد تميز عن غيره ، بدعوته إلى الوحدة العربية على أساس الفكر الإسلامي العربي ، مع اعتماد اللغة والتراث والتاريخ ،قاعدة للعمل السياسي والاجتماعي والاقتصادي العربي . وزيادة على ذلك، كان يرى في الرابطة العربية القدرة على مواجهة النفوذ الأجنبي الزاحف ومقاومته ، ولا شك عنده أن العرب هم أحق الأمم بقيادة الإسلام وتجديده ، وبتزعم الخلافة الإسلامية ، وهو ما لا يتعارض حسبه مع الوحدة الإسلامية ([1]) .

أما أسباب تخلف المسلمين التي توصل إليها، ونشرها في كتابيه الشهيرين " طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد " و " أم القرى " ، فقد صنفها إلى ثلاثة أصناف : دينية وسياسية وأخلاقية ومنها نذكر :

1- هيمنة عقيدة الجبر على أفكار الأمة ، وتأثير مذهب الزهد الذي زرع الكسل والخمول والتواكل .

2- الاعتقاد الخاطئ ، بكون أن العلوم الطبيعية والفلسفة تتعارض مع الدين الإسلامي .

3- الاستبداد والحكم المطلق .

4- انقسام الأمة إلى عصابات وأحزاب سياسية ؛ متنازعة ومتصارعة .

5- الاستغراق في الجهل والركون إليه .

6- عدم الاهتمام بالتربية الدينية والخلقية ، وعدم صلاحية التعليم والوعظ والخطابة والإرشاد .

7- غياب العدل الاجتماعي والمساواة ، بين مختلف الفئات الاجتماعية للأمة .

8- عدم العناية بتعليم النساء ، وضعف الرأي العام بفعل القيود المفروضة عليه وبث التفرقة فيه ([2]) .

([1])- ينظر أنور الجندي : اليقظة الإسلامية في مواجهة الاستعمار ، مرجع سابق ، ص 166 وما بعدها .

([2])- المرجع نفسه ، ص 169 .

وهكذا يمكن القول أن ؛ "الكواكبي" يعد من المفكرين العرب والمسلمين، الذين عملوا على تجديد الحياة في العالم الإسلامي ، بقيادة العنصر العربي ، فقد رأى في الجامعة الإسلامية حركة مناهضة للأتراك العثمانيين ([1]) . المسؤولين المباشرين عن الانحطاط والتخلف الشاملين ، اللذان كانا يحياهما المسلمون بشكل عام، والعرب بصورة خاصة ، بفعل الاستبداد الذي كان السياسة العامة لحكامهم ، والتي كانت نتائجها سلبية وسيئة على كافة الجوانب والأصعدة . ولذلك هاجمهم بشدة ونقدهم نقدا لاذعا، على نحو لم يسبقه إليه أحد من المناهضين للحكم العثماني ، وهو ما كان ربما السبب في وفاته، التي حامت حولها الكثير من الشكوك .

أما مصطفى كامل (1874م – 1908م) ، فقد حرص على سياسة حسن التقارب مع الدولة العثمانية ، وتوطيد العلاقات الحسنة معها ، مبررا ذلك بكونها السبب في منع إعلان الحماية البريطانية على مصر ، بفضل رفضها التنازل عن سيادتها عليها ، رغم الضغوط التي تلقتها من انجلترا في هذا الاتجاه . علاوة على إدراكه أن الصراع بين السلطة في مصر وبين السلطان العثماني ، قد استغلته انجلترا في تكريس احتلالها للبلاد سنة 1882م .

وشعار الجامعة الإسلامية عنده ، لا ينبغي أن يتعدى حدود روابط التضامن والتعاطف ، ولا يرقى إلى مستوى الدولة أو العصبية الدينية ، ومن ثمة فإنه لا يشكل عقبة أمام استقلال مصر الكامل ، باعتبار أنها أمة تمتلك جل مقومات الأمم . وهو مفهوم يرمي ليس إلى جامعة على أساس العقيدة فحسب ، وإنما يتعدى ذلك إلى – وحدة الواقع – ، ووحدة المعركة التي كانت تخوضها الشعوب الإسلامية ضد الاستعمار الأوروبي ، الزاحف على أوطانها ، مستخدما كل الوسائل المتاحة له . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ان التضامن والتعاطف في إطار الجامعة الإسلامية أمر طبيعي لديه ؛ ولا يعني بأي حال من الأحوال، التعصب أو الحرب الدينية على أوروبا ، لأنه من حق المسلم أن يبدي تعاطفه وتضامنه مع أخيه المسلم في أي مكان ،بفعل وحدة الشعور الديني التي تجمعهما ، وبالتالي لا مجال للقول بأن الغرض من الجامعة الإسلامية هو تأليف عصبة إسلامية ضد المسيحية . لأن الحقيقة غير ذلك إطلاقا ، وهي محاولة النهوض من التأخر الحضاري بإحياء الإسلام على صورته الحقيقية ، باعتباره ليس عقيدة فحسب بل

([1])– محمد عمارة : الجامعة الإسلامية والفكرة القومية ، مرجع سابق ، ص 59 .

قانونا اجتماعيا يحث على نشر العلوم والمعارف .

ومنه نستطيع القول أن "مصطفى كامل" ، قد تميز عن غيره من دعاة الجامعة الإسلامية، بكونه رفع شعارها وناضل تحت رايتها ، ولكن من منطلق قومي ، فهو لم يراها رباطا يؤلف دولة واحدة للعالم الإسلامي ؛ سواء كانت عثمانية أم غير عثمانية ، لأنه لا ينفي الدائرة القومية كما نفاها زملائه ، كما أنه أدرك قيمتها السياسية في مواجهة الاستعمار ، كما رأى فيها أغلبهم أنها مجرد حركة روحية . وعلاوة على كل ذلك، فإنه سعى للمزج قدر الإمكان بين التراث الإسلامي وتقاليده الشرقية ، وبين ما كانت تقدمه الحضارة الغربية والمدنية الأوروبية، من عطاء علمي ومعرفي ومادي ، في الوقت الذي أراد فيه الكثيرون أن تكون – الجامعة الإسلامية – جدارا حصينا يحمي الشعوب الإسلامية، من المؤثرات الحضارية، القادمة إليها من الغرب وأوروبا ([1]) .

وقد تأثر بدعوة هؤلاء الأقطاب ، عدد معتبر من قادة الفكر والرأي والإصلاح في المشرق والمغرب ؛ كمحمد فريد و"قاسم أمين" (1863م–1908م) و"أحمد لطفي السيد" (*) ، و"عبد العزيز جاويش" في مصر ، والشيخ "طاهر الجزائري" (**) في سوريا ، والشيخ "خير الدين التونسي" (1822م – 1890م) (***) في تونس ، والشيخ البشير الإبراهيمي في الجزائر ، والأمير شكيب أرسلان في لبنان . وفي المبحثين الثاني والثالث من هذا الفصل ؛ سنستعرض مفهوم وفوائد الجامعة الإسلامية لدى الشيخ البشير الإبراهيمي و الأمير شكيب أرسلان ، بالإضافة إلى أفكارهما وتصوراتهما،للكيفية التي يمكن من خلالها للمسلمين حكومات وشعوب ، أن يبنوا الجامعة الإسلامية . وختمنا كل ذلك بإجراء مقارنة بين وجهات نظرهما ، للوقوف على نقاط الالتقاء والاختلاف بينهما في هاته القضية .

([1])– ينظر محمد عمارة : الجامعة الإسلامية والفكر القومية ، مرجع سابق ، ص 124 وما بعدها .

(*)– أحمد لطفي السيد (1872م – 1963م) : أديب وصحفي مصري ، أصدر سنة 1907 جريدة " الجريدة " التي كانت لسان حزب الأمة ، شغل منصب وزير ورئيس مجمع اللغة العربية ، ترك العديد من المؤلفات في الفلسفة والمقالات المشهورة ، من أهم آثاره " قصة حياتي " . المنجد في اللغة والأعلام .

(**)– الشيخ طاهر الجزائري (1852م – 1920م) : أديب دمشقي من علماء اللغة ، له الكثير من المؤلفات في الأدب والحساب . المنجد في اللغة والأعلام .

(***)– للتعريف بالشيخ خير الدين التونسي، ينظر الصفحة 379 من هذه الأطروحة .

المبحث الثاني : مفهوم الجامعة الإسلامية ومزاياها لدى الإبراهيمي وأرسلان .

2- مفهوم الجامعة الإسلامية ومزاياها لدى الإبراهيمي :

لقد ملكت وحدة المسلمين ، مشاعر الشيخ البشير الإبراهيمي ، وشغلت فكره ، وأخذت حيزا كبيرا من كتاباته، ومحاضراته وأحاديثه في المنتديات والأندية ، ونصائحه للحكام ولقادة الأحزاب في البلاد الإسلامية . وقد بنى نظرته إليها من زاويتين ؛ فأما الأولى فهي الزاوية الدينية : انطلاقا من كون أن المؤمنين إخوة وأمة واحدة وفقا للنص القرآني ، وجسد واحد كما جاء في الحديث النبوي الشريف . أما الزاوية الثانية فهي سياسية ؛ بغرض التصدي للأخطار المحدقة بهم من كل جانب ، ومنها خطر الدول الغربية الاستعمارية التي يفرقها كل شيء ، ويوحدها الكيد للمسلمين ، الذي أضحى مثل الرحم يرعاها الغربي للغربي ، وهو السر في كون أن الأقلية الغربية، قد تمكنت من استعباد الأكثرية المسلمة .

وفي هذا الإطار ، جاءت رحلته إلى العالم الإسلامي سنة 1952م ، إحياء لفكرة الجامعة الإسلامية : ((التي كان الغرب يرتعد لمجرد ذكرها ، لأن معناها بروز كتلة سياسية على المسرح العالمي ، تهتدي بالإسلام وتتخذه شرعة ومنهاجا ، ويتعاون أجزاؤها للتخلص من السيطرة الأجنبية سياسيا واقتصاديا وثقافيا ، وتقدم للبشرية مشروعا حضاريا قويما يحررها من إرهاب الشيوعية ... وينقذها من استغلال الرأسمالية ...)) ([1]) .

والجامعة الإسلامية في مفهومه ، هي تلك الجامعة الواسعة التي لا تضيق بأحد ، لأنها تتسع لكل منتسب إلى روحانية الإسلام الخالصة ، ولا تقبل تلك الأقاليم الضيقة والوطنيات المحدودة ، منبع شقاء المسلمين ومبعث بلائهم ([2]) . الذين يشكلون في مجموعهم ما أطلق عليه الشيخ اسم :(الوطن الإسلامي) ، الذي يشمل كل مكان تقام فيه شعائر الإسلام ، مهما كان بعيدا أو قل عدد أهله ([3]) .

وبالنظر إلى ذلك ، نجد أن الإبراهيمي، قد جعل من الإسلام العامل الأساسي في وحدة المسلمين، رغم عمق الفرقة بينهم ، فأكد ذلك بقوله أن الدين الإسلامي لا يزال رغم ضعف

([1])- من مقدمة الأستاذ الهادي الحسني . محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج4 ، مصدر سابق ، ص 13 .

([2])- المصدر نفسه ، ج3 ، ص 422 .

([3])- المصدر نفسه ، ج3 ، ص 420 .

آثاره في نفوس أهله وعجز عقولهم عن فهم حقائقه ، قادرا على الإشعاع من جديد بروحانياته التي تهزم المادة وتتفوق على سلطانها ، حتى في أوج قوتها وعظمتها – مثلما كان عليه الحال في عصر الإبراهيمي وبعده –،وقادرا على جمع قلوب أبنائه على نوع من الأخوة الفريدة . – والسر الذي لا يخفى على عاقل – ، هو تلك القوة الروحانية التي يتميز بها الإسلام ، وتتغلب على كل عوامل الكيد للمسلمين، والتشتيت لصفوفهم والتبعيد بين قلوبهم ، بتشجيع الخلافات المذهبية والدينية والدنيوية بينهم ، وباصطناع الحواجز والحدود الجغرافية، التي جزأتهم إلى أقاليم ودويلات ، والحواجز اللغوية من خلال الإكثار من اللغات والرطانات (اللغات الهجينة الركيكة) ([1]) .

والإبراهيمي ، حينما اعتبر الإسلام هو :(الوطنية الكبرى) ، التي تجمع كل المسلمين، مهما كانت أجناسهم وثقافاتهم وأماكن تواجدهم ، فإنه ينطلق في ذلك من كون أن :(الوطنيات الضيقة) ، هي السبب الرئيسي في إضعاف الحمية الإسلامية، حتى قضت عليها في النفوس ، وفي سقوط الأقطار الإسلامية بما فيها العربية، في يد الاستعمار الأوروبي الحديث ، الذي اقتسمها فيما بين دوله ، تماما مثلما تقتسم الخبزة الواحدة إلى لقم سائغة ، يسهل مضغها وازدرادها ثم هضمها في النهاية . وجعلت من الاتصال بين الأجزاء الإسلامية أمرا مستحيلا ، لموت ملكة التعاطف والتعارف بين أهلها منذ قرون . والنتيجة كانت تحول هذا الجسم الواحد إلى أشلاء ممزقة ، تعيش خارج الأحداث ، وتتخبط في دوامة من الانحطاط لا مخرج لها ([2]) . ومنه يصل إلى أن الوطنيات الضيقة ، صنيعة الاستعمار لا الإسلام ، يتوجب محاربتها قدر الإمكان ، لجمع تلك الأوصال الممزقة على كلمة الإسلام، وإعادتها إلى حظيرته الواحدة كما هي غايته دائما ([3]) .

من هذا المنظور ، نستطيع القول أن الإبراهيمي ، كان ينشد تحقيق وحدة سياسية بين المسلمين ، بحيث لا تتصرف بلدانهم وأقطارهم بشكل منفرد خاصة في علاقاتهم الخارجية ، لأن ذلك قد يؤدي الاختلاف في المواقف – إزاء القضايا الكبرى والمصيرية كقضية الاستعمار

([1])– محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، مصدر سابق ، ج2 ، ص 375 .
([2])– المصدر نفسه ، ج4 ، ص 102 .
([3])– المصدر نفسه ، ص 89 .

مثلا - ، فيحدث أن يوالي بلد إسلامي دولة أجنبية قد تكون معادية - أو مستعمرة أو معتدية على بلد إسلامي آخر وهكذا - . وبمعنى آخر، أنه كان يحبذ أن تكون تلك البلدان على ولاء واحد ، وأن تتعامل مع غيرها مجتمعة كقوة دولية موحدة ، فلا تشد واحدة منها مع الأخرى . مع احتفاظها باستقلالها التام في سياستها الداخلية، لأن ذلك يخضع لظروف كل بلد ([1]) .

لكن المحرك في تلك الوحدة السياسية ، هو روح الإسلام الذي ينبذ الوطنية الضيقة التي يضعها في الاعتبار ولا يلغيها ، لأن ايجابيات وآثار الوطنية الإسلامية تفوقها بكثير، ولا مجال للمقارنة بينهما في هذا الجانب : ((وأن الوطنية مكرمة ، ولكن وطنية الإسلام أكرم وميدانها أوسع ، وصاحبها أعز نفرا ، وأقوى ناصرا ، وأكثر عديدا)) ([2]) .

ولتوضيح مفهومه أكثر للجامعة الإسلامية ، يحيلنا الإبراهيمي إلى "السيد قطب" (*) ،الذي عده أكثر من إكتنه الفكرة، وآمن بها إيمانا لا تشوبه أية شائبة ، وظل يدعو المسلمين في الشرق والغرب ، بكتاباته القيمة ، إلى استلهامها والسير عليها في حركاتهم

([1])- محمد أبو زهرة ، المرجع السابق ، ص ص 314 - 315 .

([2]) - محمد البشير الإبراهيمي : الاثار ، مصدر سابق ، ج4 ، ص 428 .

(*)- سيد قطب : هو سيد بن الحاج قطب إبراهيم حسن شاذلي ، ولد سنة 1906م في قرية " موشا " بالصعيد المصري ، إحدى قرى المحافظة أسيوط ، نشأ في أسرة ميسورة الحال ، تحظى بمركز مرموق في القرية ، تخرج من دار العلوم سنة 1933م ، بشهادة الليسانس في الآداب ، مع دبلوم في التربية وبتخصص في اللغة العربية . عمل بعد ذلك في مدارس وزارة المعارف بين 1933م و 1939م ، ثم ترك بعدها التدريس واشتغل موظفا في الوزارة ذاتها في مراقبة الثقافة العامة ، لمدة ثماني سنوات (1940م - 1948م) ، حيث شارك في تأليف بعض المناهج التي كانت تعتمدها الوزارة في مدارسها . كان في الوقت نفسه ، يكتب مقالات صحفية سياسية عنيفة ، انتقد فيها الأوضاع الداخلية ، وهاجم من خلالها سياسية الدولة بصراحة كبيرة ودون خوف ، مما سبب له الكثير من المضايقات والغضب من رؤسائه ، وفعل الشيء نفسه مع الأحزاب المصرية ، التي أعلن عدم ثقته فيها. سافر إلى أمريكا في أواخر 1948م ، حيث قضى فيها سنتين متجولا في جامعاتها ومعاهدها ، ولما عاد إلى مصر ، أواخر سنة 1950 ،انظم إلى جماعة الإخوان المسلمين ، التي قتنع بفكرها بعد اغتيال مؤسسها حسن البنا سنة 1949م ، سجن سنة 1954م وحكم عليه لمدة خمسة عشر عاما مع الأشغال الشاقة ، ثم بالإعدام الذي نفذ فيه في 29 أوت 1966م . تعددت مؤلفاته وشملت مجالات ؛ الحديث والتفسير ، الفكر الإسلامي ، ومن أشهرها: " معالم في الطريق " . للمزيد ينظر عبد الله عوض الخباص : سيد قطب الأديب الناقد ، د ط، دار الشهاب، الجزائر : د ت .

التحررية وكفاحهم بصورة عامة ، وإلى ضرورة التمسك بالأخوة الإسلامية ، التي تمثل السبيل الوحيد والمضمون ، لتحقيق كل ما يبتغونه من الأماني والآمال، في هذه الحياة . فهم كمسلمين لهم من التعاليم الإسلامية، والرصيد التاريخي الكافي، ما ينير لهم الطريق كلما واجهتهم العقبات، وحلت بها الأزمات والنوائب ([1]) .

وفي المضمار ذاته ، يرى الأستاذ "محمد الهادي الحسني" ([2]) ، أن فكرة الجامعة الإسلامية ، التي آمن بها الإبراهيمي ودعا إليها ، وابتغى لتحقيقها ، وحث على إحيائها قد تجسدت فيما بعد في منظمة المؤتمر الإسلامي (**) ، حتى وإن كانت ذات تأثير ضعيف وفعالية قليلة ، بسبب عدم جدية القائمين عليها، والمروجين لها في العالم الإسلامي ؛ من حكام ومسؤولين وقادة . أما الإبراهيمي، فقد قام من جانبه بواجب العلماء من أمثاله ، بالبحث عن الفكرة وبيان مزاياها على الأمة .تلك الروحانية التي تجعل ، كل الأوطان الإسلامية وطنا مسلما بحكم الدين الإسلامي ([3]) .

لقد أولى الإبراهيمي، أهمية كبرى لفكرة الجامعة الإسلامية ، بل أنه جعلها مفتاحا لأغلب القضايا والتحديات، التي كانت تواجه المسلمين في عصره ، وهو السبب في رأيه الذي جعل الاستعمار الغربي، يحاربها بكل الوسائل والطرق ، حتى تمكن من التفرقة بين المسلمين والشرقيين ، ومنها إفساد دينهم ، الذي يحثهم على نصرة الأخ لأخيه ، وحماية الجار لجاره ، فهو دين يوجب حقوق الأخوة، ويدعو إلى إيثار الجار والإحسان إليه ، فيحدث التعاون والتناصر ، فهناك؛ جوار الدار، وجوار القرية للقرية، وجوار المدينة للمدينة، وجوار الوطن للوطن . فإذا اكتمل كل ذلك عم التعاون والتناصر ، وأغلقت المنافذ على العاملين لإحداث الفرقة والقطيعة . لكن الاستعمار بدسائسه كان يدعو إلى العكس : ((فهو يقول لك : أقصر اهتمامك

([1])– محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، مصدر سابق، ج 4 ، ص 152 .

([2])– المصدر نفسه ، ص 14 .

(*)– ينظر بن عمر عادل : منظمة المؤتمر الإسلامي الواقع و الآفاق ، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في العلوم السياسية و العلاقات الدولية، غير منشورة ، قسم العلوم السياسية و العلاقات الدولية ، جامعة بن يوسف بن خدة ، الجزائر : السنة الجامعية 2006م–2007م .

([3])– محمد البشير الإبراهيمي ، المصدر نفسه ، ص 184 .

على دارك ، ولا تلتفت إلى دار جارك ، ويوسوس للجار بمثل ذلك ، حتى إذا أطاعه خرب الدارين ، واستعبد الدارين)) .

ويمضي الإبراهيمي، في تحليله لهاته الإستراتيجية الاستعمارية ، فيقول أن الاستعمار لا يزال يحث المسلمين والشرقيين ، إلى قبول هذه الدسيسة ثم على استحسانها ، ثم على الأخذ بها في نهاية المطاف ، حتى أصبحوا أمما متقطعة ليس فيها أي أمة قوية ، فتنقسم تلك الامم بدورها إلى جماعات ، فإذا لمح منها الاستعمار أية بارقة أمل في النهوض ، سارع إلى تحريك دسائسه وإغراءاته لها ، كما أغرى الشيطان آدم وحواء بشجرة الخلد وملك لا يبلى ، أو كما يغرى الصبيان ؛ بألفاظ فارغة وأسماء وألقاب وعروش وهمية ، حتى تسنى له أن يضع يده على أوطانهم ويستعبد شعوبها، وينهب ثرواتها ومقدراتها الثمينة . في غفلة وتخاذل وتهاون واستهزاء من المسلمين ، الذين أعانوه على أكل العنقود حبة حبة ، وهي غاية ما كان يبتغيه . فوصل الأمر إلى الحد الذي يعتدي فيه على الجزء ، فلا تحرك الأجزاء الأخرى ساكنا ، وكأن الأمر لا يعنيها ، وتطور إلى أخطر من ذلك ، حيث أصبح الأخ يقتل أخاه لصالح قاتلهما معا ، يفعل ذلك دون اتعاظ أو إدراك، أن الاستعمار هو العدو المشترك ولا غيره ([1]) . ويلخص الإبراهيمي وسائل الاستعمار ، في سبيل منع قيام أية جامعة أو رابطة بين المسلمين ، مهما كان شكلها أو نوعها فيما يلي :

01- التفريق بين صفوفهم ، حتى أصبحوا أعداء لبعضهم البعض .

02- التخريب لضمائرهم ، حتى أضحت خيانة الوطن والدين لديهم ، عملا محمودا يتمادحون به.

03- التمزيق لجامعاتهم ، حتى صاروا أمما متنابذة ، تتعادى سعيا لإرضائه ، وتتمادى في ذلك طمعا في التقرب منه .

04- التوهين لقواهم المعنوية ، إلى حد أصبح فيه حالهم كحال التماثيل الخشبية ، التي لا ترهب ولا تخيف .

05- الهيمنة التامة على ثرواتهم ومقدراتهم الاقتصادية ، مما جعلهم أمة تعيش عالة على مستعمرها ، فهي لا تنتج شيئا مما تستهلكه ، رغم أنها تمتلك كل مقومات ذلك .

([1])- محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج3 ، مصدر سابق ، ص ص 422 – 423 .

06- التعقيم لعقولهم وأفكارهم ، الذي ترتب عنه التخلي عن كل ما هو ذاتي في مجالات العقل والفكر ، واستبدالهما بما هو لدى المستعمر ، حتى ولو كان تافها أو دون المستوى . والفكـــر ، واستبدالهما بما هو لدى المستعمر ، حتى ولو كان تافها أو دون المستوى .

07- ترويضهم على احتقار الذات ؛ فتجد منهم من يستهزأ بماضيه افتتانـــا بحاضـــر غيـــره ، ويسخر من قادته العظام الذين حكموا العالم بالعدل مقابل إعجابه بقادة الاستعمار ، والرفع مـــن شأنهم ، ومنهم من ينسى تاريخ أمته المجيد ، ويمجد التاريخ الاستعماري ، ويحتقر لغته احتراما للغة المستعمر ...الخ .

وينتهي الإبراهيمي إلى القول ، بأن هذه الإستراتيجية، هي أخطر أنواع الاســـتراتيجيات الاستعمارية ، لأنها تستهدف استعمار العقول والأفكار ، وقد حالفها النجاح ، لأنها وجدت مـــن المسلمين القابلية الكبيرة للتجاوب معها ، وهي التي مهدت الطريق لتجذر الوطنيـــات الضـــيقة المحدودة ، التي زينها للمسلمين ، كما يزين الشيطان للإنسان سوء عمله ، وحببها إلـــيهم كمـــا يحبب الطيب المزيف للمريض، تناول السم باسم الدواء . وهو الذي- المستعمر- يحرص على محاربة تلك الوطنيات في بلدانه ، لأنه يدرك جيدا أنها عامل يضعف قوته ، وهو ما كان يرمي إليه من خلال التشجيع عليها في البلاد الإسلامية ([1]) .

وعلى ضوء هذا التحليل ، نلاحظ أن الإبراهيمي، قد نبه إلى خطورة الغزو الفكري على المجتمعات الإسلامية ، وعده من أهم الوسائل التي يوظفها الاستعمار، بهدف إبقائهـــا خاضـــعة لنفوذه ، وتابعة له تبعية تامة؛ سياسيا واقتصاديا وثقافيا وفكريا وحضاريا . وبغرض إضـــعاف روح الإخاء الإسلامي بين المسلمين ، في شتى بلدانهم ، بواسطة إحياء القوميات التي كانت لهم قبل مجيء الإسلام ، وإيقاظ الخلافات والنعرات بين شعوبهم . علاوة على إضعاف مثل الإسلام وقيمه العليا من ناحية ، وتأكيد تفوق المثل الغربية وعظمتها من ناحية أخرى ، وإظهـــار أيـــة محاولة للتمسك بالإسلام، عقيدة وتراثا ولغة وحضارة وقيمـــا وفكـــرا ، علـــى أنهـــا رجعيـــة وتأخر ([2]) .

([1])- محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 4 ،مصدر السابق ، ص 101.

([2])- ينظر أحمد عبد الرحيم السايح ، المرجع السابق ، ص 75 وما بعدها .

ويمضي الشيخ البشير الإبراهيمي ، في حديثه عن دور الاستعمار في التفرقة بين المسلمين ، والتضريب بين صفوفهم ، فيذكر أنه من مظاهر نجاح تلك السياسة ؛ كثرة الطوائف والمذاهب المفرقة ؛ وهو ما أنكره خلال زيارته لباكستان التي سبق وأن أشرنا إليها ، حيث وجد ذلك البلد الإسلامي يعج بالصراع الطائفي والمذهبي ، الذي وصل إلى حد امتلاك كل طائفة لمساجدها الخاصة ، التي يحق لأتباعها فقط دون غيرهم الصلاة فيها ، مما يزيد في تفرقة المسلمين ، وجاء ذلك في قوله : ((وقد أنكرت عليهم هذا في بعض محاضراتي إنكارا عنيفا ، وقلت لهم أن المساجد لله ، وأنها جامعة لا مفرقة ، وأنه لا يحسن تعددها إلا تعدد المحلات وتباعدها ، لا تعدد العلماء واختلاف نزعاتهم ، وأنه ما شتت شمل المسلمين إلا ملوك الطوائف ومساجد الطوائف)) . وزيادة عن ذلك قال : بأن هذه القضية هي من أكبر أسباب تشتيت صفوف المسلمين ، ومما يزيدها خطورة ، وقوعها في بلد إسلامي ناشئ كباكستان ، مقبل على حياة جديدة ، تتطلب جمع الكلمة وليس تفرقتها . ومن ثمة يرى بأن سكوت العلماء هو جريمة ثابتة، فضلا عن تشجيعها لهم، لأن هذا الوضع يخالف ويناقض الحكمة من بناء المساجد في الإسلام ، والقاعدة المطلقة في كونها لله وليس لغيره ([1]) .

ولقد حمل علماء الدين، المسؤولية الكبرى في هذا المأزق الخطير ، خاصة علماء الإسلام خاصة منهم علماء الكلام و الفقهاء ، الذين فرقوا شمل المسلمين ، باختلافاتهم وصراعاتهم المذهبية ، فبلغ الأمر حد أن أصبح كل رأي في علم الكلام أو الفقه : ((يتحزب له جماعة ، فيصبح مذهبا فقهيا أو كلاميا يلتف حوله جماعة ويجادلون فيه ، فضعف سلطان القرآن على النفوس ، وأصبح العلماء لا يلتزمون في الاستدلال بآياته ، ولا ينتزعون الأحكام منها إلا قليلا : فعلماء الكلام صاروا يستدلون بالعقل ، والفقهاء أصبحوا يستدلون بكلام أئمتهم أو قدماء أتباعهم)) ([2]) .

لا جدال في أن الطائفية والمذهبية ، هي من أكبر المنافذ التي وظفها الاستعمار أحسن توظيف في البلاد الإسلامية ، وتمكن من خلالها من تحقيق الكثير مما خطط له ، أكثر مما حققه بالوسائل الأخرى . الأمر الذي يفسر استمراره في المراهنة عليها، حتى بعد حصول البلدان

([1])– محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج4 ، مصدر سابق ، ص 45 .
([2])– المصدر نفسه ، ج5 ، 315 .

الإسلامية على سيادتها السياسية ، كما كان عليه الحال في باكستان ، التي كان يؤمل منها أن تكون النموذج الذي يحتذى به ، في بناء الوحدة الإسلامية الشاملة .

ولذلك حث مثل غيره من العلماء المسلمين في تلك الأثناء ، الحكومة الباكستانية ، على ضرورة التصدي لكل المحاولات الرامية ، إلى إيقاظ وإذكاء ، الصراعات القائمة على أسس مذهبية أو طائفية أو لغوية، أو ثقافية أو حضارية . لأنها تؤدي إلى تشتيت شمل البلاد ، وتمزيق مجتمعها الهادئ ، وتضريب القوى بعضها ببعض ، وتحريك العصبيات الكثيرة التي كانت نائمة ، ودعوتها إلى المراهنة على الوحدة الإيمانية للمسلمين الباكستانيين ، وعلى الجامعة الإسلامية التي تمثل فيها باكستان قطعة أساسية ([1]) .

وفي المحصلة ، أن النجاح في تجاوز أو احتواء ، تلكم الصراعات المتجذرة لدى الشعوب الإسلامية المتخلفة ، يعني نجاح الجامعة الإسلامية ، التي لا يمكنها أن تكون كذلك ؛ إذا كان صوت الألوان والأجناس واللغات والأوطان ، – يعلو فوق صوتها – لكن لا ينبغي أن يفهم من ذلك ، أن رابطة الإسلام ، يجب أن تلغي الروابط السابقة ، لأنها ستظل موجودة ، مثلما ذهب إليه بعض المشتغلين العرب المسلمين بهذه القضية ، الذين قالوا بأنه لا بقاء للرابطة الإسلامية، مع وجود الشعور بالقومية العرقية ، ومن المغالطة الزعم بأن إحداهما تساير الأخرى ولا تناقضها ([2]) .

إن الحيثيات السالفة الذكر ، كافية بالنسبة للشيخ البشير الإبراهيمي ، لكي يدعو المسلمين إلى معاداة الاستعمار ، على كافة مستوياتهم ؛ الشعبية والرسمية ، وعدم موالاته لأنها خروج عن الإسلام ، أو تسليم أمرهم له في أي شأن من شؤونهم ، أو الثقة فيه وائتمان جانبه ، أو إقامة حلف معه لأن طبيعته تأبى عن ذلك ، كما أنهم بذلك يعينوه على أنفسهم وهو الذي أفلس من كل النواحي ، وسينتهي به الأمر إلى الزوال وقد بين ذلك بقوله : ((أيها المسلمون أفرادا وهيئات وحكومات : لا توالوا الاستعمار فإن موالاته عداوة لله وخروج عن دينه ، ولا تتولوه في سلم

([1])–أبو الحسن علي الندوي : الطريق إلى السعادة والقيادة للدول والمجتمعات الإسلامية الحرة ، ط 4 ، مؤسسة الإسراء ، الجزائر : د ت ، ص 53 وما بعدها .

([2])– علي محمد جريشة ، محمد شريف الزيبق : أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي ، ط 3 ، دار الوفاء ، المنصورة ، مصر : 1979م ، ص 80 وما بعدها .

ولا حرب فإن مصلحته في السلم قبل مصالحكم ، وغنيمته في الحرب هي أوطانكم ولا تعاهدوه فإنه لا عهد له . ولا تأتمنوه فإنه لا أمن له ولا إيمان . إن الاستعمار يلفظ أنفاسه الأخيرة فــلا يكتب عليكم التاريخ أنكم زدتم في عمره يوما بموالاتكم له . ولا تحالفوه فإن من طبعه الحيواني أن يأكل حليفه قبل عدوه)) ([1]) .

([1])– محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 5 ، مصدر سابق ، ص 70 .

02- مفهوم الجامعة الإسلامية ومزاياها لدى أرسلان :

أعطى الأمير شكيب عدة تعريفات للجامعة الإسلامية ، فذكر أنها بمعناها ومفهومها العام ، تعني الشعور بالوحدة العامة والعروة الوثقى التي لا انفصام لها ، بين جميع المؤمنين في كل البلاد الإسلامية ، وهي تعود في أصولها ومنشئها إلى العهد النبوي ، أي منذ أن شرع الرسول " ص " في الجهاد ، والتفاف المهاجرين والأنصار حوله، متعصبين معه بعصبة الإسلام ، لقتال المشركين الذين كانوا يحاولون القضاء على الرسالة الإسلامية في مهدها ([1]) . وقال عنها في مناسبة ثانية أنها : ((رابطة وجدانية في وجهها الديني ... ورابطة سياسية واقتصادية في وجهها السياسي)) ([2]) .

وزاد على ذلك، في رده على بعض القوميين السوريين ، بأنها لا تعني أن يقوم المسلمون في الشرق والغرب ، ويؤلفون كتلة واحدة ، ليقاتلون كل من ليس مسلما ، وإنما المراد منها أن : ((المسلمين يستفيد بعضهم من بعض في المأزق ، بسبب ما يجمعهم من رابطة الإسلام ، فإذا حصل لهم خطب أو نزلت بهم نازلة – كما هي في فلسطين اليوم – أمكنهم أن يتخذوا من سائر مسلمي الأرض أعوانا يمدونهم بالوسائل المادية والأدبية)) . فالجامعة أو الرابطة الإسلامية، هي التي تجعل مسلمي البوسنة وبلغاريا والهرسك ، يسألون عن حالة فلسطين ، فهل كان هؤلاء قحطانيين أو عدنانيين – يتساءل الأمير – ؟ ، فمنهم صقالبة أقداح مثل الروس وبلغار وترك يحنون إلى فلسطين ، يدفعهم في ذلك إسلامهم ، والأمر ذاته بالنسبة لمسلمي الهند ، فهل هم عرب لينتصروا لعرب فلسطين ؟ والإجابة طبعا بلا ، فلا يجمعهم بعرب فلسطين إلا كلمة (الإسلامي) ([3]) .

وبناءا على ما تضمنته هذه التعريفات ، تبدو الجامعة أو الرابطة الإسلامية عند الأمير شكيب ؛ جملة من المشاعر الدينية،التي يتبادلها المسلمون مع بعضهم البعض، في أي مكان كانوا فيه ، فلا يحول بينهم وبين ذلك، البعد الجغرافي أو الحواجز السياسية أو الاختلافات

([1])- لوثروب ستودارد ، المصدر السابق ، ج 1 ، م 1، ص 288 .
([2])- محمد شيا ، المرجع السابق ، ص 208 .
([3])- نجيب البعيني ، المصدر السابق ، ص ص 383 – 384 .

العرقية والطائفية والتباينات الثقافية ، ولا حتى الظروف والأوضاع المحيطة بها . وهي مشاعر ظهرت بظهور الدين الإسلامي ، الذي حملها معه إلى كل الأقاليم والجهات والأوطان التي فتحها ، أو وصلت رسالته إليها ، وستستمر مادام هذا الدين موجودا .

كما أن افتراق المسلمين وتشتتهم ، وتصارعهم وتنازعهم في الكثير من الأحيان ، لا يلغي الوحدة الشعورية بينهم ، حتى ولو كانوا يقومون بما يناقضها في واقع الأمر ، لأن الوحدة الإسلامية حقيقة ثابتة، بمقتضى النصوص الدينية في الإسلام ، الذي لا يعرف الفرقة بالألوان أو العناصر والأجناس ، أو باللغات والثقافات . وظهور العصبية الإقليمية أو الشعورية، كما عرفت في التاريخ الإسلامي ، وتعاظمها في بعض فتراته ، لا ينفي الوحدة الإسلامية التي تبقى حقيقة لا جدال فيها، وإن ضعفت بفعل تبدل الظروف والأحوال ([1]) .

وإذا كان الأمير شكيب ، قد جعل من الدين الإسلامي ، عصب الجامعة الإسلامية ، فإنه نبه إلى أن ذلك لا يمثل تهميشا أو إقصاء " لغير المسلمين منها ، ويقصد العناصر المسيحية في الشرق ، الذين تربطهم بالمسلمين روابط كثيرة منها ؛ الرابطة الدموية واللغوية والمصالح المادية المشتركة . وعليه اعتبر مناوأة فئة كبيرة من المسيحيين للسياسة العربية ، سلوكا عقيما وسقيما ، يخالف العقل والكرامة والمصلحة ، فالعرب سواء كانوا مسلمين أم نصارى ، فهم في نهاية المطاف عرب ، لا يستطيعون التبرؤ من أصلهم ، ولا الانسلاخ عن أرومتهم العربية ، ولا خلاف عنده أن الرابطة الدموية ، كانت وستبقى من أقوى الروابط الجامعة بين الشعوب . ولا خلاف أيضا أن رابطة العقيدة الدينية ، لها تأثير بالغ في اجتماع الشعوب وانقسامها ، ولكنها لا تعارض رابطة الدم ، ولا تسعى للقضاء عليها ، خاصة إذا تعززت رابطة الدم برابطة الجوار ، ومقتضيات المصلحة المادية المشتركة .

وواصل دفاعه عن رأيه بالقول، أن التجربة أكدت أن الرابطة الدينية على أهميتها ، أنها ليست هي كل شيء ، وأن رابطة اللغة والدم لهما مكانة لا تقل عنها ، وفي بعض الأحيان كانت رابطة الجوار مع رابطة المصالح المادية ، أقوى من الرابطة الدينية ، أو ربما تفوقتا عليها وكان أثرهما أعمق في المجتمع .و بالنسبة إليه، توجد بين المسلمين والمسيحيين في الشرق ، جامعات كثيرة لا جامعة واحدة وهي كالآتي :

([1])- محمد أبو زهرة ، المرجع السابق ، ص 09 .

– وحدة الأصل : أهميتها ليست هينة ، ومثال ذلك ما قام به "أدولف هتلر " زعيم ألمانيا ، الذي وضع الرابطة الدموية الجرمانية فوق كل اعتبار .

– وحدة المصلحة الراهنة المشتركة : لا تقل أهمية عن الرابطتين السابقتين (الدينية والدموية) ، فلا يمكن أن تشمل المصلحة المادية ، المسلم دون المسيحي . كما أن الضرر الذي يقع على الوطن ، لا يمكن أن يصيب أحدهم ، ويستثني الآخر .

وبالاعتماد على ذلك، يتساءل شكيب كيف يرجع أحدهما إلى الأجنبي ، بسبب كونه يشترك معه في العقيدة ، ويتخلى عن شريكه في مقومات كثيرة . فإن لم يرتبط المسيحي بالمسلم بالرابطة الدموية ، فإنه يرتبط معه بالجامعة اللغوية ، أو بالرابطة الوطنية والمصالح المادية المشتركة . فهل يتجاهل كل ذلك؟ ، ويفضل فرنسا مثلا لكونها دولة أوروبية ، تدين بالمسيحية التي يدين بها أخونا المسيحي الشرقي ؟ الذي يعلم أن الأوروبي ، مهما تظاهر له بالقرب ، فإنه يحتقره في نفسه كما يحتقر المسلم ، ويعتبره كما يعتبر المسلم أجنبيا عنه ، في النسب والجغرافية واللغة والتقاليد والعادات ([1]) .

إن الحجج التي سردها الأمير شكيب ، وناقشها بشيء من التفصيل ، دفاعا عن موقفه الايجابي اتجاه المسيحيين الشرقيين، وموقعهم ضمن الجامعة الإسلامية، تبدو منطقية جدا ، إذ أنه لا يمكن بأية حال من الأحوال ، أن يكون لهم مكان آخر خارج الإطار الإسلامي ، ولو اختلفوا مع المسلمين في العقيدة ، التي قال بشأنها الأمير أنه لا يمكن تجاهل أهميتها لدى المجتمعات والتكتلات . فالمسيحي الشرقي ، سيظل شرقيا مهما اجتهد في موالاته للمسيحي الغربي، الذي ينظر إليه دائما نظرة الغريب والأجنبي عنه ، حتى ولو اشترك معه في العقيدة المسيحية . ومن ثمة ، فإن تظاهر الدول الأوروبية الاستعمارية الكبرى ، بالتقرب إلى مسيحي الشرق، وبالحرص على مساعدتهم وحمايتهم ، لا يعدو أن يكون ، محاولة منها لتوظيفهم ، خدمة لأغراضهم الاستعمارية ليست إلا. مستغلة في ذلك ، الامتيازات(Les capitulations) التي منحتها لها الدولة العثمانية بسخاء في هذا المجال .

فقد مارست فرنسا الحماية الدينية ، على كل المسيحيين الكاثوليك داخل الإمبراطورية ، وهي التي كانت تعتبر نفسها حامية كل الكنائس المسيحية في الشرق كاثوليكية أم غير كاثوليكية.

([1])– احمد الشرباصي : شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام ، مرجع سابق ، ص 136 .

أما روسيا فقد اهتمت بحماية المسيحيين الروم الأرثوذكس ، رغم أنها لم تجد منهم ترحيبا كبيرا، بسبب ميولهم المذهبية والاقتصادية إلى اليونان . وفي المقابل من ذلك ، تشبثت بريطانيا بالدفاع عن حقوق المسيحيين البروتستانت ، الأقرب إليها مذهبيا ([1]) .

لقد فند الأمير شكيب مبرر العقيدة ، الذي قدمه بعض المسيحيين الشرقيين تبريرا لانحيازهم، إلى جانب الأوروبيين وتعاونهم معهم ، سواء أثناء الحكم العثماني، أم بعد تحول المنطقة العربية إلى مستعمرات أوروبية . لأنه يعتبر الحقيقة غير ذلك ، فالسبب في ظنه هو تلك العداوة، التي بدأت أوروبا بإشعالها بين الطرفين إبان الحملة الصليبية ، فكان الصراع بين الطرفين في الشرق الأدنى من ناحية ، وفي الأندلس من ناحية ثانية . ومنذ ذلك الوقت ، كلما هدأت حدة العداء بين المسلمين والمسيحيين في الشرق ، تتدخل الدول الأوروبية لإيقاد ناره . ولما انهزمت الدولة العثمانية ،هزيمتها الأخيرة في الحرب العالمية الأولى ، وتقلص نفوذها في البلاد العربية ، ظهرت الدول الأوروبية التي كانت تحارب العثمانيين، بحجة مساعدة العرب ، وأخذت تحارب العرب أنفسهم ، بعد أن كانت تدعي أنها تريد أن تحررهم من هيمنة الأتراك . لكنها في الواقع كانت ، تريد أن تنقلهم من عبودية فيها بعض المساواة ، إلى عبودية كاملة ، فيخضعون لقهر الأوروبي . ومع ذلك ، لا تفتأ تزعم أنها إنما جاءت ، لحماية الأقلية المسيحية من تسلط المسلمين عليها ([2]) .

والحاصل أن ، الأمير شكيب قد ذهب في حديثه، إلى إمكانية توسيع الرابطة الإسلامية إلى غير المسلمين ، إلى أبعد مما أوردناه فيما سبق ، فذكر أنه بإمكانها أن تشمل كل المستضعفين الذين يشتركون في نفس الأوضاع ، وأطلق عليها اسم :(رابطة المستضعفين) . وكل المجتمعات أو الأقوام ، التي تعيش تحت نير العبودية ، التي يتحتم عليها أن تتوحد مع من يرفع ذلك النيّر عن عنقها ([3]) .

([1])– للتفصيل ينظر مجموعة من الباحثين : الأقليات والقوميات في السلطنة العثمانية بعد1516م ، مرجع سابق .

([2])– احمد الشرباصي : شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام ، مرجع سابق ، ص 152 .

([3])– لوثروب ستودارد ، المصدر السابق ، م1 ، ج2 ، ص 229 – 330.

إن المزايا التي يتوخاها شكيب من الجامعة الإسلامية عديدة ، أهمها الوقوف في وجه السيطرة الاستعمارية ، فكل الظروف المحيطة بالعالم الإسلامي ، تدفعه لكي يتحد اتحادا دفاعيا تاما ، وتستمسك أطرافه استمساكا وثيق العرى ، حتى يتسنى له الدفاع عن كيانه، ووقايته من الزوال المنتظر في المستقبل ([1]) . وقد أدرك قادة الجامعة الإسلامية هذه الحقيقة، وأيقنوا أن الثورات المحدودة ، التي تندلع في قطر مسلم دون الآخر ، لا يمكنها أن تضعف شيئا من قوة الدول الغربية الاستعمارية ، التي تتوفر على قوة حربية منظمة ومتطورة . وأدركوا حق الإدراك أن العالم الإسلامي، إذا أراد تحرير نفسه من الاستعمار الغربي ، الذي بسط سيطرته على بلدانه منذ زمن بعيد ، وجب عليه أن يعمل بشكل منظم ، وبخطى ثابتة في سبيل تحقيق الوحدة العامة والرابطة الكبرى .

وأيقنوا أيضا ، أنه لن يتم ذلك ، إلا إذا درس العالم الإسلامي علوم الغرب ، وأكتنه عظمته وقوته وتقدمه، ونهج مناهجه وسلك سبله ، في كل ما يؤدي إلى النهضة الصحيحة ، القائمة على قواعد العلم وأركانه . فلا سبيل غير هذا ، للإفلات من قبضة الاستعمار الغربي ، والتحرر من الحكم الأوروبي .

وفي هذا ، لا يرى الأمير حرجا على المسلمين ، أن يأخذوا عن الغرب ، ويقتبسوا الأفكار منه ، ويتبعون طريقه في كل ما هو ضروري ، لبلوغ أعلى درجات الرقي والتقدم . وهو موقف قادة الجامعة الإسلامية ، الذين رأوا أن الإسلام ، في حد ذاته صالح كل الصلاحية ، لكي يستمد منه المسلمون جميع ما يلزمهم لذلك ، ولهذا اقترح أمر الاقتباس من الغرب ، على محاكاته في مناهجه العلمية ، واستخدام وسائله العلمية فقط ([2]) .

وهكذا يكون الأمير شكيب ، قد ربط التحرر من هيمنة الاستعمار الغربي ، ليس بالجامعة الإسلامية فحسب ، وإنما بالنهضة العلمية أيضا ، أي أن الاتحاد لا يكفي وحده ولا يفي بالغرض ، إذا بقيت البلدان الإسلامية غارقة في التخلف والجمود والانحطاط ، مثلما كان عليه الحال في عصر الأمير . وهو في ذلك ، لم يخالف مفكري وسياسيي تيار الجامعة الإسلامية وأنصارها الذين رأوا : ((أن هناك عددا من التحديات التي تواجه الفكر الإسلامي والشعوب ،

([1])- لوثروب ستودارد ، مصدر سابق ، م 2 ،ج1، ص 307 .

([2])- المصدر نفسه ، ص ص 293 -294 .

سواء أكانت تلك التحديات آتية من داخل الأوطان الإسلامية ، كالتخلف الفكري والروحي والانحدار السياسي، والصراعات الإقليمية والقبلية . أو آتية من الخارج، في شكل المد الاستعماري والإمبريالي، الذي زحف من أوروبا على الشرق ، وخاصة في القرن التاسع عشر ...)) . وتوصلوا إلى أن الحل لتلك التحديات الداخلية والخارجية ، هو الوحدة الشاملة ، والنهضة العلمية ، للعودة بتلك الشعوب ، إلى دائرة التأثير الإنساني والعطاء الحضاري ، كما كانت عليه قبل أن تقهرها التحديات السالفة الذكر ([1]) .

وللإشارة ، فإن مفهوم التحرر لدى شكيب ،أو غيره من أقطاب ودعاة الجامعة الإسلامية ، لم ينحصر في الحصول على الاستقلال السياسي للشعوب الإسلامية ، بمقاومته بالسلاح وطرده نهائيا من البلاد ، بل يتعدى ذلك إلى مفهوم أشمل وهو التحرر الاقتصادي والثقافي والحضاري ، عن طريق توحيد الأمة الإسلامية ، فتنال حقوقها كاملة ، وتستعيد الريادة الحضارية والإنسانية ، التي فقدتها منذ عدة قرون . وهي نظرة شمولية ، جاءت كرد على الطموحات الغربية ، التي غزت المنطقة العربية والإسلامية ، وكحل لمعالجة مشاكل المجتمع سواء الفكرية أو الاجتماعية أو السياسية، من غير تعصب للنزعات الطائفية والوطنية والقومية ، لأولئك الأقطاب والمفكرين ([2]) .

وهو ما يبرر، موقف الأمير شكيب من الحكم العثماني ، الذي رغم أنه كان مدركا تمام الإدراك لمساوئه ومفاسده ، إلا أنه رأى أن تلك الخصائص على سوئها ، تبقى أقل شرا من الاحتلال الأوروبي المتربص ، ولذلك اعتقد ، بأن الإصلاحات كفيلة بإعادة الروح إلى الإسلام وإصلاح ما فسد . أما الاحتلال الأوروبي فهو شيء آخر، يمثل خطرا كبيرا على الأمة ، يجب التصدي له ([3]) .

موقف قال عنه ، أنه لم يكن شخصيا أو لجمهرة الأمة العربية ، وإنما لعقلاء العرب ، الذين أدركوا أنه إذا حدث الانفصال بين العرب والترك ، سقطت بلادهم تحت السيطرة الاستعمارية الأوروبية ، فاختاروا البقاء تحت الحكم العثماني ، خوفا من الحكم الأجنبي واختيارا

([1])– محمد عمارة : الجامعة الإسلامية والفكرة القومية (نموذج مصطفى كامل) ، مرجع سابق ، ص 50.

([2])– منذر معاليقي ، المرجع السابق ، ص ص 223 – 224 .

([3])– محمد شيا ، المرجع السابق ، ص 172 .

لأخف الضررين ([1]) ، فشق التأخي العربي العثماني ، لن يؤدي إلى الاستقلال المنشود ، وأنه سيكون مجرد تغيير احتلال بآخر . وبناءا على معطيات تلك المرحلة ، رأى أولئك العقلاء ومعهم شكيب ، أن الحل ربما يكون في التفاهم مع العثمانيين على دولة اتحادية ، وحكم ذاتي ومطالب إصلاحية ، أفضل جدوى وأكثر نفعا، من المراهنة على مساعدة الحكومات الاستعمارية الأوروبية ، فالجامعة الإسلامية كانت هي خشبة النجاة ([2])، في تلك المرحلة الشديدة الحساسية في تاريخ العلاقات الدولية بصورة عامة ، والبلاد الإسلامية بصورة خاصة .

وفي ذلك ، رد على بعض العرب الذين كانوا يقولون ، بأن الخلافة العثمانية ، لم تفد الإسلام بشيء ، وأنها كانت وبالا على المسلمين ، في حين أن ما كان وبالا عليهم في تصوره ،هوابتلاؤهم بالشقاق والانقسام ، وخاصة العرب الذي هم كما قال " النعمان بن المنذر " (*) لـ :"كسرى" (**) : ((تراهم كلهم ملوكا ، وكل أمة يريد جميع أفرادها أن يكونوا ملوكا ينتهي أمرها بأن يملك أمرها الأجانب ، ولا يبقى لها ملوكا)) ([3]) .

وقد بقي الأمير شكيب ، متمسكا بموقفه هذا من الخلافة العثمانية ، بل أنه قاتل إلى جانبها ضد الغزاة الأوروبيين ، إلى أن انتهت إلى الهزيمة وتصفية وجودها في المشرق العربي . حينذاك انتقل إلى الدفاع عن الجامعة العربية ، ليس انقلابا في مواقفه، وإنما لأنه أدرك استحالة إعادة الروح إلى الخلافة العثمانية ، التي أصبحت مجرد ماض، له إيجابيات ينبغي استثمارها، وسلبيات ينبغي على الجميع استخلاص الدروس والعبر منها .

([1])- شكيب أرسلان : سيرة ذاتية ، مصدر سابق ، ص ص 68 – 69 .

([2])- محمد شيا ، المرجع السابق ، ص 131.

(*)- النعمان بن المنذر (580–620) : من أشهر ملوك الحيرة اللخميين وآخرهم ، مدحه النابغة الذبياني . خلع وسجن في المدائن من طرف كسرى أنوشروان . عرف بأبي قابوس ، وقيل أنه صاحب يومي " البؤس والنعيم "، قتل الشاعر عدي بن زيد زوج ابنته هند . المنجد في اللغة والأعلام .

(**)- كسرى أوخسرو أنوشروان ابن قباذ (531م – 579م) : ملك ساساني ،حارب يوستينياس واحتل أنطاكية ، عقد هدنة مع البيزنطيين سنة 555م ، إستولى على اليمن سنة 570م ، عرف بعدله وإصلاحاته . المنجد في اللغة والأعلام .

([3])- احمد الشرباصي : شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام ، مرجع سابق ، ص 180.

وجملة القول، أن الإبراهيمي و أرسلان ؛ قد كانا من أشد المتحمسين لفكرة الجامعة الإسلامية ، التي تعني عندهما توحد المسلمين على أساس المشاعر الدينية ، التي تجعل من كل مسلم عضوا فيها مهما كان لونه أو عرقه ، أو خلفيته الاجتماعية والحضارية ؛ أي أنها تترفع عن كل الاعتبارات المعروفة عدا الدينية . وهي وإن كانت كذلك ، فإنها جامعة إيمانية إنسانية بناءة ، لا تستهدف تحقيق مصالح المسلمين فحسب ، بل تتعدى ذلك إلى جميع الأجناس والشعوب غير الإسلامية ، حتى لا ينتهي بها الأمر ، مثل الوحدة الألمانية ، التي غالت في أهدافها العرقية الضيقة ، واتخذت من الاعتداء على حقوق الآخرين، وسيلة للوصول إليها ، وكانت النتيجة توريط الشعب الألماني والشعوب الأوروبية ؛ في حربين عالميتين مدمرتين ، كانتا وبالا على ألمانيا ذاتها ، التي فقدت وحدتها القومية بانقسامها إلى دولتين شرقية وغربية، متعاديتين لا تتفقان على أي شيء ([1]) .

والحق أن الإبراهيمي و أرسلان ؛ قد جعلا من الجامعة الإسلامية ، فضاء دينيا وسياسيا واقتصاديا ، وعسكريا وحضاريا وإنسانيا ، يتسع للجميع عربا مسلمين ، ومسلمين غير عرب ، وعرب مسيحيين ، وكل المستضعفين في الأرض ، الذين تجمعهم مع المسلمين وحدة الواقع والمصالح المشتركة . وهو مفهوم شامل أكدا من خلاله أن الجامعة الإسلامية، ليست تكتلا عنصريا، كما يبدو للوهلة الأولى من خلال تسميتها . ولذلك قدرا ، أن الاختلاف في العقائد الدينية، لا يؤدي بالضرورة إلى الاختلاف في العقائد السياسية ، بمعنى أن الاختلاف في الدين ، لا يمكنه أن يلغي الروابط الأخرى ، التي سبقت الإشارة إليها ([2]) . فالتحدي الاستعماري يدفع الجميع إلى الوحدة ، مهما كانت أعراقهم وأديانهم ومذاهبهم ، بل أنه الحل الوحيد الذي يمكنهم من التحرر من قيود الاستعمار التي، لا قبل لهم بها ، إذا حاولوا التخلص منها وهم منفردين ومتفرقين .

ومنه فقد اتفق الإبراهيمي و أرسلان ، على أن الوحدة بين المسلمين، ليست خيارا بقدر ما هي ضرورة وحتمية ، من أجل مجابهة الاستعمار الغربي ، الذي حاربها بالوطنيات الضيقة المجردة من العقيدة الدينية ، التي تشكل بطبيعة الحال ؛ تحديا أساسيا وخطيرا على مصالحه

([1])- ينظر أبو الحسن علي الندوي ، المرجع السابق ، ص 31 وما بعدها .

([2])- أحمد الشرباصي : شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام ، مرجع سابق ، ص 147 وما بعدها .

الاقتصادية والسياسية في البلاد الإسلامية، ومن ثمة فقد راهن على استمرار الفرقة والتشتت لأمد أطول ، ضمانا لديمومة تلك المصالح .

واتفقا أيضا ؛ على أن الجامعة الإسلامية تبقى شعارا أجوفا ، إذا لم يتبعها تصميم وإرادة ، على الخروج من مأزق الجهل والتخلف والجمود ، باستيعاب الأسباب التي أدت إلى نهضة البلدان الاستعمارية نفسها ، مع المحافظة على المقومات الحضارية الذاتية ، التي تشكل صمام أمان ، أمام الذوبان في ثقافة الآخر المختلف عن المسلمين عقائديا وثقافيا . وبذلك تكون الوحدة أو الجامعة ، حتمية وليست خيارا ليس للمسلمين فحسب بل لغيرهم ، إن هم قصدوا فعلا هزيمة الاستعمار والتخلف معا .

والملاحظ أن الإبراهيمي، في تحديده لمفهوم الجامعة الإسلامية ، وقوله أنها يمكن أن تتسع لغيرهم من الأجناس الأخرى ، لم يشر إليهم أو يذكرهم بالأسماء . بينما فعل ذلك الأمير شكيب ، حيث خص بالاسم المسيحيين الشرقيين ، وأطنب في ذلك ، وقد تكون العلة في ذلك أن الإبراهيمي تحاشى الحديث عن الدور السيئ ، الذي قام به بعض المسيحيين الشرقيين ؛ خاصة في البلاد الشامية إزاء الخلافة العثمانية ، بدعم من الدول الاستعمارية الكبرى ، التي استغلت ارتباطها الديني بهم ، لكي تدفعهم إلى التمرد على السلطات العثمانية ، بل أن منهم من تحول أثناء احتدام المسألة الشرقية ، إلى أداة لزرع عدم الاستقرار والنهوض في المنطقة ، مما عجل بتسريع تجسيد المخططات الاستعمارية ، التي توجب بطرد العثمانيين ، وفرض الانتداب الإنجليزي والفرنسي كأمر واقع . في حين استفاض الأمير شكيب، في لوم المسيحيين الشرقيين على مسلكهم ذاك ، وتذكيرهم بأصولهم الشرقية ، وبمخاطر ما كانوا يقدمون عليه ، بحكم انتمائه إلى البيئة المشرقية عامة والشامية خاصة ، التي جعلته يحرص على إثارة هاته القضية الحساسة ، بكل شفافية وموضوعية .

وبالفعل، إن الدور المضاد للجامعة الإسلامية ، الذي قاده بعض المسيحيين الشرقيين ، قد شكل عقبة لا يستهان بها في هذا الاتجاه ، بل أنه كان إحدى الآليات الأساسية ، التي راهنت عليها الدول الاستعمارية الكبرى ، لوأد المشروع الوحدوي الإسلامي في مهده . وهو ما لم يغب عن قادة الجامعة الإسلامية، ومنهم بطبيعة الحال أرسلان والإبراهيمي .

لقد حمل الإبراهيمي المسؤولية ؛ في استمرار الانقسام والتشرذم، على الساحة الإسلامية إلى طرفين أساسيين هما : الأمة وقادتها الذين لم يواجهوا الإستراتيجية الاستعمارية ، التي كانت تعمل بدون هوادة على تكريس الفرقة في الجسد الإسلامي ، ومنع أي مظهر من مظاهر التقارب أو التعارف بين المجتمعات الإسلامية، مهما كانت بسيطة أو محدودة، وبكل الوسائل الممكنة والمتاحة . ولذلك ركز الشيخ على تحليل تلك الإستراتيجية، التي حاربت بها الجامعة الإسلامية ، ونبه إلى خطورتها وخاصة في جانبها الثقافي ، والمقصود به الغزو الفكري ، الذي يعد وسيلة مثالية وفعالة لنجاح ذلك . أما الطرف الثاني فهو علماء الدين، الذين وجه لهم سهام انتقاداته الشديدة ، للدور الذي كانوا يقومون به، في التكريس للطائفية والمذهبية ، طالبا منهم القيام بواجباتهم نحو الأمة، ممثلة في الدعوة إلى لم الشمل والتسامي عن الخلافات، ونبذ الصراعات ،وحثها كل مكوناتها العرقية والطائفية والمذهبية، والتقارب والتكاثف والتسامح، حتى تقطع الطريق أمام الاستعمار المتربص بالجميع ، وتسمح للأمة بالاستيقاظ من جمودها وانحطاطها ، وتلتحق بركب الأمم الراقية ، وهو ما ليس بمستحيل .

أما الأمير ، فقد أبدى تفاؤلا أكبر من الإبراهيمي ، لأنه رأى بأن الجامعة الإسلامية، وإن كانت غير موجودة كمشروع اقتصادي وسياسي وحضاري، في أرض الواقع ، إلا أنها ظلت حسبه في وجدان المسلمين، منذ البعثة النبوية وحتى العصر الذي كان يعيش فيه ، وهو ما لم يستطع الاستعمار أن يقضي عليه ، وبالتالي أحد العوامل الهامة التي يمكن المراهنة عليها، في إنجاح هذا المشروع المصيري .

والحق أن الإبراهيمي و أرسلان ، لم يكتفيا بالتنظير للجامعة الإسلامية، بل سعيا بشكلين مختلفين، إلى الترويج لها والدفاع عن قناعاتهما وأفكارهما في هذا الصدد ، فقد وضعها الإبراهيمي على رأس أولوياته، في رحلاته إلى المشرق العربي وبعض الدول الإسلامية ، أين استغل وجوده هنالك ، لجس نبض القادة والجماهير الشعبية، إزاء موضوع الوحدة الإسلامية ، وللوقوف على شروط نجاحها من فشلها . وفي المقابل كان الأمير أكثر راديكالية ، من خلال

و في حروب البلقان التي اندلعت سنة 1912م ، وفي تقديم المؤازرة السياسية لها أثناء الحـــرب العالمية الأولى ، متحملا في ذلك كل المخاطر والانتقادات اللاذعة، التي ذهبت بعضها إلى حـــد اتهامه بخيانة الأمة العربية .

إن الجامعة الإسلامية ؛ فضاء ديني وسياسي وحضاري واقتصادي ، أجمع الإبراهيمـــي و أرسلان، على أنه يبنى بالتدرج وليس بالتسرع والقفز على المراحل ، وهو تحد صعب ولكنه ممكن في نظرهما . وفي المبحث القادم، سنرى رؤية الرجلين للخطوات العملية، التـــي ينبغـــي مباشرتها والقيام بها ، لانجاز مشروع الجامعة الإسلامية و إخراجه من دائرة الحلم إلى دائـــرة التجسيد ، بعيدا عن الارتجال والحماسة ، لأن الفشل يعني انتظار الكثير من الوقت ، وهو أمـــر في غير صالح المسلمين.

المبحث الثالث : كيفية بناء الجامعة الإسلامية في آراء الإبراهيمي وأرسلان

01- كيفية بناء الجامعة الإسلامية في رأي الإبراهيمي :

كانت الشعوب الإسلامية ، تشكل أمة بالمعنى التام خلال القرون الأولى، التي تلت ظهور الإسلام ، حيث امتزجت فيما بينها في مجال العلم و السياسة، و الإدارة الاقتصاد و المواصلات ، و سائر مجالات الحياة ، امتزاجا يدعو إلى الاندهاش و الإعجاب . و كان الشعور بالانتماء إلى الوطن الإسلامي و الثقافة الإسلامية ، أقوى بكثير من الشعور بالانتماء إلى الوطن الصغير أو القومية الضيقة ، فتجد في الفقهاء و المحدثين ، و في الأطباء و الفلاسفة و في الحكام ، سواء كانوا عربا أو هنودا أو فرسا أو تركمانا ، ملتفين على مستوى الثقافة و العقيدة الإسلاميتين، و حول المفاهيم و العادات الإسلامية ([1]) .

و هو أمر طبيعي ، لأن الإسلام أكد على وحدة العقيدة في المجتمع ، فالمجتمع و فقه لا يقوم على أساس اعتبارات الجنس أو اللون أو الأرض ، و إنما تجمعه أساسا وحدة العقيدة و الفكر ،و قد أدى ذلك إلى تماسك المجتمع و تضامنه ، بالإضافة إلى روح الإخاء و المساواة ، التي لعبت دورا كبيرا في اندماج كافة العناصر غير العربية، التي دخلت في الإسلام ، فانتشرت بينها اللغة العربية و العادات و التقاليد العربية ، و أصبحت تمثل جزءا مهما في كيان الأمة . و عليه فالإسلام هو الدعامة القاعدية ، التي بني عليها المجتمع في المرحلة الأولى من التاريخ الإسلامي ، و الرباط المتين الذي استلهمت منه الأمة العربية و الإسلامية وحدتها ، و من ثمة قوتها و تفوقها ([2]) .

و إذا كان، هذا هو حال الأمة الإسلامية في القرون الأولى ، فإنها على العكس من ذلك تماما في القرون الأخيرة من وجهة نظر الشيخ الإبراهيمي ، الذي ذهب إلى التأكيد بأن الأخوة الإسلامية ، ضعفت فيها و تلاشت إلى درجة قريبة من العدم ، حتى أضحت كلمة تلوكها الألسن و فقط ، دون أن تكون لها سلطة على القلوب .و حجته في ذلك، أنه لو كانت لها منزلة و تأثير في نفوس المسلمين ، لتحولت الحكومات الإسلامية إلى حكومة متحدة في مواقفها

([1])- محمد المبارك : المجتمع الإسلامي المعاصر ، مرجع سابق ، ص 34

([2])- حكمت عبد الكريم فريحات ، إبراهيم ياسين الخطيب : مدخل إلى تاريخ الحضارة العربية الإسلامية ، دار الشروق للنشر و التوزيع ، عمان ، الأردن : 1999 م ، ص ص 27 – 28 .

و سياساتها ، ولرجع علمائها إلى الكلمة الجامعة في الدين ، و نبذوا كل ما يوسع من دائرة الخلاف . و الأمر نفسه مطلوب بالنسبة للشعوب و أهل الرأي و الكلمة فيها ، فالأولى يتعين عليها أن تسعى إلى تحقيق المصالح العليا للأمة ، و ليس مصالحها القطرية الضيقة ، أما الثانية فيفترض فيها أن تسترجع المكانة التي وضعها فيها القرآن الكريم .

و يمضي الإبراهيمي، في حديثه عن غياب الأخوة الإسلامية ، فيذكر بأن الحكام المسلمين انشغلوا بتوافه الأمور ، و بالتنافس على المناصب و مغريات السلطة ، يستهلكون كل طاقاتهم، و يسخرون جل أوقاتهم في الخلافات و الصراعات ،التي تتوسع بشكل مطرد ، ممتنعين عن التفكير في الوحدة ، التي تحمي مصالحهم العليا ، و في التعاون الذي يحررهم من استغلال الأجنبي ، لمقدراتهم الاقتصادية ، يبيعون له المادة الأولية بأثمان بخسة ، و يشترونها من منتوجات مصنعة بأسعار باهظة ، فإن أغلق أسواقه في وجوههم ، أفلس أغنياؤهم ، و مات فقراؤهم جوعا و عريا ([1]) . و معناه أنه يعتبر الحكام المسلمين ، المسؤول الأول عن هاته الوضعية ، لمسلكهم الخاطئ و لنمط تفكيرهم العقيم ، و فساد أخلاق عدد منهم ، و تظاهرهم بالتحضر و المدنية، من خلال تجردهم من العقيدة الإسلامية ، التي تشكل الرابطة الجامعة بين كل المسلمين ، في أي زمان و مكان .

ومن أسباب ضعف الأخوة الإسلامية أيضا عند الإبراهيمي ، استفحال ظاهرة العصبية ، التي قضت عليها و على غيرها من الطبائع ، التربية الإسلامية التي أنشأت مجتمعا جديدا ، يختلف اختلافا جذريا عن المجتمعات العربية التي سبقت وجود الإسلام ([2]) ، حيث كانت العصبية القبلية و العرقية جارية و متأججة ، أساسها القول العربي المأثور : ((أنصر أخاك ظالما أو مظلوما)) ، و لذلك نجد أن الحرب و الغزو طبع متأصل فيهم ، و جزءا لا يتجزأ من حياتهم اليومية ([3]) ، و لما جاء الإسلام أصبح ولاء الفرد أو المجتمع الوحيد هو لله ، لكن هذا

([1])- محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 4 ، مصدر سابق ، ص 214

([2])- المصدر نفسه ، ج 1 ، ص 110

([3])- أبو علي حسن الندوي : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، مرجع سابق ، ص 89 .

الوضع لم يدم طويلا ، إذ سرعان ما عاد المسلمون إلى سالف عهدهم من التعصب ([1]) ، بفعل الانحطاط الديني، و تأثير الآداب و الحضارة الغربية ([2]) .

لكن ذلك لا يعني أن الإسلام ، ينفي ارتباط المسلمين على اختلاف أقطارهم، بعصبتهم أو جماعتهم ، و الجد في نصرتها و التعصب لمبادئها ، و إنما يدعو إلى الترفع عن العصبيات الضيقة، و التمسك برباط العصبة الإسلامية . فالمعتنق للدين الإسلامي متى رسخ في اعتقاده ، يتجاوز نسبه و شعبه ، و يلتفت عن الروابط الخاصة إلى الروابط الأشمل ، و هي علاقة المعتقد أو جامعة الدين . لهذا نرى العربي لا يرفض سلطة التركي ، و الفارسي يقبل سيادة العربي و هكذا . كما أن المسلم لا يأنف ، أو يستنكر انتقال الحكم من عرق لآخر ، أو من عصبة لأخرى ، مادام الحكم يحفظ الدين و يستلهم منه سياسته ، فإذا حدث العكس نراه يعرض عنه و ينفر منه ، فيضعه في خانة الأجنبي المعتدي ، و لو كان من أشد المتعصين للوطنية ([3]) .

ومنه فإن الإبراهيمي يرى ، أن العودة إلى العصبية هي السبب الرئيس، في ضعف الارتباط بين المجتمعات العربية و الإسلامية على حد سواء، و هي أربعة أنواع : فأما النوع الأول فهو العصبية العرقية ، و يقصد بها التعصب لعرق و لو لم تكن له أية مكانة تذكر في التاريخ . و يتمثل النوع الثاني في العصبية إلى الرأي ، و إن كان أبعد ما يكون عن المنطق و الصواب . أما النوع الثالث فيسميه العصبية للآباء ، و لو خلى تاريخهم من أي إنجاز يذكر مهما كانت ثقافته . و يتمثل النوع الرابع في التعصب للشيوخ ، حتى في المواطن التي زاغ فيها فكرهم و تعثر .

و بعد استعراضه لأنواع العصبيات ، التي انتشرت و نمت و تعاظمت لدى المجتمعات الإسلامية، في مرحلة الانحطاط ، ينتقل إلى توضيح نتائجها السيئة على الأمة، فيقول: بأنه بسببها أصبحت الأمة الواحدة أمما، و الاتجاه الواحد اتجاهات ، فساءت الأوضاع و ضعفت الأخوة الإسلامية أولا، و ضعفت سلطة الوازع الديني على النفوس ثانيا ، و ضعف هذا الأخير أدى بدوره إلى ضعف أعظم ركن في الدين الإسلامي، و هو الأمر بالمعروف و النهي عن

([1])- محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج1 ، مصدر سابق ، ص 110.

([2])- أبو علي حسن الندوي ، المرجع نفسه ، ص 282 .

([3])- جمال الدين الأفغاني ، محمد عبده ، المرجع السابق ، ص 49 و ما بعدها .

المنكر ، فطغت البدع على السنن حتى طمستها. و الأمر نفسه بالنسبة للعلوم الإسلامية، التي انتقلت إليها عدوى الفتور الذي أصيب به المجتمع الإسلامي . كما لابست حقائق الدين شبهات تحولت مع مرور الزمن إلى معضلات كبرى، ترتبت عنها آثار خطيرة . ليأتي التقليد في النهاية ، فيقضي على بنيان الاستدلال من قواعده، فيجفف منابع العلم و يصيب العقول بالعقم ، أما أخطر نتيجة لكل ذلك، فهي ابتعاد الأمة الإسلامية، عن هداية كتاب الله و سنة رسوله " ص " ، و سيرة السلف الصالح ([1]) .

و منه نستشف أن الإبراهيمي ، يذهب إلى أن العصبيات؛ لم تؤد فقط إلى إضعاف الأخوة الإسلامية ، و إنما انتقلت آثارها إلى الدين الإسلامي ككل ، فقوضت أركانه و شوهت حقائقه و كبحت جماح الإبداع و الفكر فيه ، و حرمت الأمة من استلهام القيم و العبر، التي يحفل بها القرآن الكريم و السنة النبوية الشريفة ، بالإضافة إلى أعمال كبار الصحابة و التابعين ، الذين كانت لهم مساهمات كبيرة خلال القرون الأولى ، التي أعقبت ظهور الإسلام ، و تميزت بصعود الحضارة العربية و الإسلامية و ازدهارها .

أما السبب الثالث ، الذي :((أرخى حبال الأخوة)) الإسلامية على حد تعبير الشيخ ، فهو خوض العلماء فيما لا ينفع الأمة ، كالقدر و الذات الصفات الإلهية ([2])، و الجنة و النار هل هي مخلوقة سابقا أم أنها ستخلق ... و غيرها من المسائل، التي لم تطرح في عهد الرسول" ص " و صحابته و تابعيهم ، ناهيك عن تركيزهم على القضايا الجزئية الخلافية ، وعدم محاولة تحقيق التقارب و الحوار و التفاعل مع المذاهب المخالفة . و هنا تجدر الإشارة إلى أن هذا المسلك قد، أدى في جانب آخر إلى حلول المذهب محل الشريعة ([3]) ، و تلك قضية تم التطرق إليها في عناصر سابقة .

لقد بالغ – في نظر الشيخ – العلماء و الفقهاء المسلمون في خلافاتهم ، التي طغت على كل مناحي الحياة ، ففي البيت يجلس الشباب إلى أبويه و أهله، فلا يسمع إلا المذهب و الخلاف ،و انتقاد المخالفين في المذهب قبل المخالفين في الدين ، و يجلس إلى علماء الدين فلا يسمع

([1])– محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 1 ، مصدر سابق ، ص 110 .
([2])– المصدر نفسه ، ص 164 و ما بعدها .
([3])– محمد المبارك : المجتمع الإسلامي المعاصر ، مرجع سابق ، ص 77 .

منهم إلا عبارة : ((عندنا و عندهم)) ، تحركهم :((جرثومة التعصب)) فيصرفون جهودهم و ذكاءهم في الجدل الجاف و العقيم ، و قد عبر عن ذلك بمرارة قائلا : ((و يمينا لو أن تلك الجهود التي تفرقت إلى الكلام تآلفت على جهة عقلية أخرى لفتحت في العلم فتحا أغر زاهرا ، و لتعجلت به الفخر للإسلام و أهله)) ([1]) . و إن كان هنا، قد تحدث إجمالا عن مسلك العلماء و الفقهاء ، فإنه في أمكنة أخرى قد خص الطرق الصوفية بمقالات كثيرة ، انتقدها فيها انتقادا لاذعا شديد اللهجة ، فوصفها في بعضها بـ :((الطرق المشؤومة)) التي يرجع إليها الفضل الكبير في تفكيك روابط الأخوة ، و نشر العداوة و التضريب و البغضاء ([2]) . فقد شاهد بنفسه في موسم الحج، كيف يتجنب المسلم المتمذهب بالمذهب الحنفي (*) ، الصلاة وراء المسلم الذي يتبع المذهب المالكي (**) ، و كيف يرفض الشافعي (***) الصلاة وراء المالكي ، كل ذلك حسبه بسبب الطرق الصوفية المنحرفة التي عمقت هوة الخلافات ، حتى وصلت آثارها السيئة

([1])- محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 4 ، مصدر سابق ، ص ص 221 – 222 .

([2])- المصدر نفسه ، ج 1 ، ص ص 164 – 172 .

(*) – نسبة إلى أبي حنيفة النعمان بن ثابت بن زوطي ، الفارسي الأصل ، ولد بالكوفة سنة 80 هـ ، الفارسي الأصل ، عاش منها نحو 52 سنة في العصر الأموي و نحو 17 سنة في العصر العباسي ، عاصر بعض كبار الصحابة و التابعين ، ناصر العلويين ضد العباسيين خلال الفتنة التي قامت بينهما، فقد كان ناقما على العباسيين لسطوتهم و شدتهم ، سلك مسلك التشدد في قبول الأحاديث النبوية و الحرية في وزن أقوال الصحابة و التابعين ، كما جعل القياس أساسا من أسس التشريع الإسلامي ، و لأن مذهبه كان جديدا بالنسبة للناس، بما تميز به من نزعة إلى حرية العقل، بالاعتماد على الرأي و القياس ، فقد أحدث ثورة فكرية جلبت له مؤيدين و معارضين، توفي ببغداد سنة 150 هـ . أحمد أمين : ضحى الإسلام ، ج 2 ، مرجع سابق ، ص 176 و ما بعدها .

(**) – مؤسس المذهب المالكي مالك بن أنس الأصبحي المدني ، العربي الأصل ، ولد سنة 93 أو 97 هـ ، عرف عنه أنه كان لا يشترط في الحديث الشهرة و إنما صحة السند و نحوها ، و من مسلكه في التشريع العمل بقول الصحابي إن صح نسبته إليه ، أهم آثاره كتاب: " الموطا " الذي خصص جانبا منه للحديث و الجانب الآخر للفقه ، و كتاب: " المدونة " و هو مجموعة من الرسائل بلغت نحو ستة و ثلاثين مسألة ، توفي سنة 179 هـ . أحمد أمين ، المرجع نفسه، ص 206 و ما بعدها .

(***) – الشافعي: هو محمد بن إدريس ، قرشي من جهة الأب ، يلتقي مع الرسول " ص " في عبد مناف ، ولد سنة 150 هـ / 767 م بغزة أو عسقلان ، لازم الإمام مالك في المدينة و درس عليه، عرف بعذوبة

إلى البقاع المقدسة في مكة المكرمة و المدينة المنورة ، و هي أمكنة إذا لم يتوحد فيها المسلمون، فما الجدوى باعتقاده من اجتماعهم بها : ((و كم كنت امتعض حين أرى الحنفي لا يصلي خلف الشافعي، و الشافعي لا يصلي خلف المالكي، بل كنت أمتعض لتعدد الحلق الصوفية التي لا تجمع الناس لمدارسة علم ، و إنما تجمعهم لتحكيم وهم ، و أقول في نفسي إذا لم تجتمع قلوبنا في حرم رسول الله " ص " فهل ينفعنا اجتماع الأبدان ؟)) ([1]) .

و تجدر الإشارة في هذه القضية، أن مواقف الشيخ من الطرق الصوفية المنحرفة، و ممارساتها في الجزائر على نحو خاص ، قد جعلته عرضة لعداء شيوخها و محلا للسخرية و الاستهزاء و الاحتقار ، و التعريض من لدن صحفها و منتسبيها ، شأنه في ذلك شأن سائر زملائه العلماء من أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، لما كان ينشره أولئك الشيوخ من عقائد مخالفة للدين ، هي كفر و إلحاد صريح ، فجعلوا الناس يعتقدون فيهم أنهم واسطة تقربهم إلى الله ، كما أصبحوا لا يصلون و لا يخشعون إلا بين أيديهم تبركا بهم ، يتسابقون إلى تقديم العطايا والهدايا بمزاراتهم و مقاماتهم ، و غيرها من الخرافات و البدع ، التي استحدثوها و استحكمت على عقول الناس ، ينهبون أموالهم باسم الدين لدرجة تجعل التفريق بين عصر عبادة الأصنام ، و ما آل إليه المجتمع الجزائري في ظل الاحتلال الفرنسي ، الذي تحولوا إلى خدمته حفاظا على امتيازاتهم الاجتماعية أمرا مستحيلا ([2]) . فكانوا من بين أهم الوسائل التي وظفتها الإدارة الاستعمارية، لمحاربة الإسلام في الجزائر ([3]) ، و تفكيك أواصر الوحدة و الانسجام الاجتماعيين بها .

منطقه و حسن بيانه و ذكائه، وقدرته الفائقة على الجدل و قوته في التفكير، و مهارته في الاستنباط، نقد الإمام مالك نقدا قويا في مجال الحديث ، امتحن في مسالة خلق القرآن حيث عانى من الاضطهاد ، من آثاره: " رسالة في أصول الفقه" ، كتاب " الأم " في الفروع ، و" المسند " في الحديث و السنن ، توفي بمصر سنة 204 هـ / 820 م . أحمد أمين ، المرجع نفسه ، ص 218 و ما بعدها .

([1])- محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 1 ، مصدر سابق ، ص 191 .

([2])- مبارك الميلي : رسالة الشرك و مظاهره ، مرجع سابق، ص 102 .

([3])- للمزيد ينظر عبد الكريم بوصفصاف : جمعية العلماء المسلمين الجزائريين و علاقاتها بالحركات الجزائرية الأخرى 1931 م – 1945 م ، مرجع سابق . و ينظر أيضا رسالتنا : الشيخ الإبراهيمي و دوره في القضية الوطنية 1920 م – 1965 م ، مرجع سابق .

أما السبب الرابع برأيــه ، فيتمثــل فــي الممارســات الســلبية و المســلك الخــاطئ للأحزاب (*) و الهيئات ، و رجال السياسة المتواجدين آنذاك على الساحة السياسية في المشرق العربي خاصة ، بانخراطهم في الخلافات و الصراعات التافهة و المزمنة ، و إهمالهم لواجباتهم العظمى نحو الأمة ، التي يأتي على رأسها إيقاظها من تخلفها ، و السعي إلى إرســاء أواصــر الوحدة و التقارب و الأخوة بين شعوبها ، حيث فشلوا فشلا ذريعا في تحقيق تلكــم الأهــداف ، بفعل جهلهم الذريع بجوهر السياسة التي يقسمها إلى قسمين :

- اللباب : و معناه إيجاد الأمة ،التي لا يمكن إيجادها إلا بتثبيت مقوماتها الستة و هي: الجــنس و اللغة و الدين و التقاليد الصحيحة ، و العادات الصــالحة و الفضــائل الجنســية الأصــيلة ، و بتصحيح ما يتصل بجانبها العقائدي و بإيمانها بالحياة ، و بتربيتها تربية تجعلها تعتد بنفســها و تفتخر بقوتها المعنوية ، و تغالي في إبراز قيمتها و تراثها . مع الحرص الشديد على ذلك كله حتى يتحول إلى عقيدة راسخة تناضل لأجلها ، و تستميت في الدفاع عنها ، و إلى قناعة تامــة بأن وجود تلك المقومات شرط أساسي لوجودها ، و متى : ((اجتمعت تلاقحت و متى تلاقحت ولدت وطنا)) . و باختصار فلباب السياسة، هو الاشتغال بالأصول .
- القشور : معناه الاهتمام بالفروع بدل الأصول ، من خوض في السطحيات، و خــوض فــي الخصومات و النزاعات و غيرها ... الخ .

و بإسقاطه لهذين المفهومين على ارض الواقع ، بالنسبة للأحزاب و الجمعيات و السياسة في المشرق العربي ، يسجل بكل أسف أن حظهم فيما يقومون به القشور و ليس اللباب حيث :

- غفلوا أو تغافلوا عن الاشتغال بالأصول السالفة الذكر .
- أهملوا تربية الجماهير و تصحيح مقوماتها ، حتى تصبح أمة أولا، و قوية ثانيا ، وذات رأي عام ثالثا .

(*)- من أشهر الأحزاب السياسية في المشرق العربي، في عصر الشيخ الإبراهيمــي : حــزب اللامركزيــة السوري الذي أنشأ سنة 1912 م ، حزب الوطني 1907 م و حزب الوفد 1919 م ، حزب الأحرار الوفد 1919 م ، حزب الأحرار الدستوريين في مصر .أما بالنسبة للجمعيات فنذكر منها : رابطــة الــوطن العربي 1900م ، جمعية النهضة العربية 1906 م ، جمعية الإخــاء العربــي العثمــاني 1908 م ، الجمعيــة القحطانية 1909 م ، جمعية العربية الفتاة 1911 م ، الجمعية الإصلاحية 1913 م .

- ترويضهم إياها على طلب الحق قبل التفكير في استحقاقه ، و على إطلاق لفظ الخصم قبل إظهار الدليل، و لفظ العدو دون الاحتراس .
- اتصافهم بالغرور ، الذي يجعلهم يأخذون بظواهر الأمور قبل سبر بواطنها ، و بالسطحيات قبل إدراك الجوهريات ، و بالأقوال قبل أن تترجم إلى أفعال .

و لا يكتف الشيخ البشير بهذا التحليل ، لحال الناشطين السياسيين في المشرق العربي ، من أحزاب و سياسيين و جمعيات ، بل يضرب ([1]) مثالا صريحا على ذلك ، فيذكر أنه في الوقت الذي كان في جمال الدين الأفغاني (1839 م – 1897 م) ، يضع أساس الوطنية الإسلامية، على قواعد الإسلام الحقيقي ، و يدعو المسلمين إلى الثورة من ملوكهم و حكامهم و فقهائهم ، لأنهم السبب الأول و الأخير في إنحططاطهم و تخلفهم ، و في كل المآسي و العلل و الأمراض التي يعيشونها . وفي الوقت أيضا، الذي كان فيه الشيخ "محمد عبده"(1849 م – 1905 م) ، يكمل بناء ما أنجزه أستاذه "الأفغاني" كان "مصطفى كامل" (1874م–1908) على إخلاصه لدينه و وطنه ، يدعو الأمة المصرية إلى الخلافة الإسلامية ، التي تجاوزتها الأحداث و عفا عنها الزمن و يخيف الدول الاستعمارية : ((بشبح لا يخيف))، ثم جاءت الأحزاب المصرية، و نهجت منهجا يصب في نفس الإطار :

- إهمال فضيع لمسألة تربية الأمة ، و تثبيت مقوماتها .
- تصارع و تطاحن، على مناصب الحكم و المسؤولية .
- ترديد جاف لشعار الوطنية ، و عدم الجدية في السعي لتثبيت دعائمها .
- تغن بمصالح الوطن ، التي ضاعت منذ زمن طويل .
- تبادل التهم، رغم أن الجريمة ثابتة في حق الجميع .
- تقديس الأشخاص ، و إهدار المبادئ .

و يمضي في قوله ، فيذكر أن تلك الأحزاب، كانت تقوم بكل تلك الممارسات السلبية ، تحت أنظار قادة الاستعمار الذين يسخرون من الجميع ، و يطمئنون كل الاطمئنان على أن مصالحهم محفوظة و سياساتهم منفذة ، و أهدافهم المسطرة محققة ، طالما أنهم تمكنوا من

([1])– محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 3 ، مصدر سابق ، ص ص 64 – 65 .

توجيههم نحو الوجهة الخاطئة ، و قد اختصر الموقف في العبارة التالية : ((والاستعمار من وراء الجميع يضحك ملء شدقيه ، و ينام ملء عينيه)) .

و يتساءل ، أنه كان إذا الاستعمار من خصائصه ، أنه يحارب مقومات الأمة و يقضي عليها ، و أنه إذا كان من خصائص الأحزاب أنها تهملها و لا تعيرها أدنى اهتمام ، فهل نلوم العقلاء على أنهم اعتبروا الأحزاب و بالا أشد خطورة على الشرق من الاستعمار نفسه ؟ ، لأن هذا الأخير خصم معلوم بالنسبة إليه . و بالتالي فإنه يحذر و يحتاط منه ، لما يعرفه من أساليبه المختلفة، التي لا يتوان في توظيفها في سبيل تحقيق أهدافه و غاياته . أما الأحزاب فإنها تأتيه من حيث هو غافل و مطمئن، فإن اجتمعت الغفلة المستشرية استشراء الداء في الجسد ، مع الخلافات الحزبية و خصوماتها ، يكون من الطبيعي ما نراه و نسمعه عن الشرق ، الذي أصبح حاله بتعدد أحزابه السياسية، كحاله خلال الفترة العباسية ، التي كان فيها كل خلاف جدلي حول لفظة ، يؤدي إلى ظهور فرقة أو فرق ، وكل مجلس عقد للمناظرة (*) بين فريقين يفرخ فرقا أخرى .

و بناءا عليه ، يرى بأن الرأي القائل، بأن كثرة الأحزاب السياسية في أمة من الأمم دليل على حيويتها و حركيتها ، و ضمان لوصولها إلى حقوقها ، هو غير صحيح بالنسبة للبلاد العربية و الإسلامية ، التي لم يؤدي فيها تعدد الأحزاب ، إلا إلى أضعاف قوتها و ضرب وحدتها و إعانة الخصوم عليها ، و اشتغال تلكم الأحزاب ببعضها البعض ، بدل قضايا الأمة المصرية ، و يستدل في حكمه هذا من القرآن الكريم الذي لا يكاد – حسبه – يذكر الأحزاب بصيغة الجمع إلا في مقام الخلاف و الهزيمة ، و من الأمثلة قوله تعالى : ((فاختلف الأحزاب

(*)– ازدهرت المناظرات في العصر العباسي، بفعل الشغف بالعلوم و طمعا في عطاء الخلفاء و الأمراء ، و نيل الحظوة لديهم، و الرغبة في الوصول إلى الحقوق ، فكانت مجالس المناظرات تعقد في الدور و القصور و المساجد، و بين العلماء و في حضرة الخلفاء ، في الفقه و النحو و صرف و المسائل الدينية . و من الخلفاء الذين شغفوا بالمناظرات "المأمون " ،الذي اشتهر بثقافته الواسعة، و بإجادته فروعا علمية كثيرة يناظر فيها . و على كل حال، فقد لعبت هذه المجالس دورا كبيرا في الرقي العلمي ، و شجعت العلماء على البحث و النظر و حملتهم على الجد في حل المسائل ، حتى يظهروا في تلك المناظرات، بمظهر المتمكنين و الدقيقي النظر ، و حتى لا يفشلوا فيكون فشلهم قضاء على مكانتهم . ينظر أحمد أمين : ضحى الإسلام ، ج 2 ، مرجع سابق ، ص 54 و ما بعدها .

من بينهم)) (*) و قوله : ((جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب)) ، في حين لا يكاد يذكر الحزب بصيغة المفرد إلا في موقف الخير و الفلاح و من ذلك في قوله : ((ألا إن حزب الله هم المفلحون)) (**) .

لكن لا ينبغي ، أن نفهم من انتقاده الشديد هذا للتعددية الحزبية ، أنه يعارضها معارضة مطلقة ، حيث يستدرك الأمر فيقول: أنه من الغفلة و البله أن نضع الأحزاب في المشرق العربي و نظيرتها في الدول الأوروبية، في كفة واحدة ، لأن الأحزاب الأوروبية بإعتقاده ظهرت بعد أن توفرت لها شروط النجاح ، و منها إستكمال تربية مجتمعاتها ، و تصحيح مقوماتها بفضل قادتها الذين وحدوا صفوفها ، و علمائها الذين أحيوا لغاتها بعد أن كادت تندثر، و معلميها الذين ربوا الأجيال على كل ذلك ، و هو مالا يتوفر بالنسبة للأحزاب العربية و الإسلامية : ((إن من الغفلة و البله أن نقيس أحزابنا بالأحزاب الأوروبية ، فإن تلك الأحزاب ظهرت في أمم إستكملت تربيتها و صححت مقوماتها ، بدعوة دعاة جمعوا الكلمة ، و علماء أحيوا اللغة ، و معلمين راضوا الأجيال على ذلك و أين نحن و أحزابنا من ذلك ؟)) ([1]) .

و منه نستخلص ، أن الأحزاب السياسية في المشرق العربي – بإعتقاد الشيخ – قد لعبت دورا سلبيا إزاء الإخوة الإسلامية ، ففي الوقت الذي كان فيه من الواجب عليها ، أن تعمل على تمتينها ، و رفعها إلى المستوى الذي يجعل منها عامل قوة، في عصر التكتلات و التحالفات ، فإذا بها تكون سببا في إضعافها ، بإهمالها للتربية الإجتماعية التي تسبق التربية السياسية ، و إنغماسها في الخلافات الحزبية الضيقة ، التي إستنزفت طاقاتها الفكرية و المادية ، و النتيجة أنها أضحت عقبة كأداء أمام نهضة بلدانها و رقيها ، و بالتالي فإن زوالها أفضل من بقائها ، و هو ما أشار إليه صراحة من خلال ما سبقت الإشارة إليه .

ولا شك أن الواقع نفسه ، كان في بقية البلاد العربية و الإسلامية الأخرى و منها الجزائر ، حيث طغت الخصومات و الحساسيات ، و النظرة الحزبية الضيقة بين أحزابها

(*) – سورة مريم ، الآية 36.

(**) – سورة المجادلة ، الآية 21.

([1])– محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 3 ، مصدر سابق ، ص ص 65 – 66 .

السياسية وقادتها (*)، رغم وحدة الواقع و الأهداف، و هو ما خدم الإستعمار خدمة عظيمة ، الأمر الذي دفع الشيخ الإبراهيمي ،إلى وصف سلوكاتها بالكذب و النفاق السياسي ، و انتقاد أساليبها؛ التي تقرن المبادئ بالخضوع المطلق للأشخاص ، و تقديس و عبادة الزعامات ، في حين تحتقر الأمة بعدم الالتفات و التقرب إليها، لتوجيهها الوجهة السليمة ([1]) .

أما السبب الخامس ، فأرجعه إلى كثرة الطوائف العرقية في المجتمع الإسلامي ، نتيجة لتوسع الفتوحات الإسلامية ، و بسط الإسلام لسلطانه على الكثير من الممالك ، التي كان لها السبق في الحضارة و القوة ، حاملة معها الكثير من الأفكار ، و الاعتقادات و الممارسات و التقاليد السلبية التي ورثتها عن أسلافها ، فما كادت تلك الطوائف أن تندمج في الحياة الجديدة و يؤثر الإسلام فيها ، حتى أسرعت إليها أعراض التفرق و الانقسامات المذهبية ([2]) .

و فعلا، فقد سمحت الفتوحات الإسلامية، بدخول أمم مختلفة في الدائرة الإسلامية ، فكان منها المغرب و مصر و الشام و جزيرة العرب و العراق و فارس ، و ما وراء النهر . و لأن الأمم تختلف في خصائصها ، اختلافا كالذي بين أفرادها، فيما يتصل بالعادات و التجارب ، و في منهج التفكير، و في الجوانب العقلية و الثقافية و العاطفية و المزاجية ، فإن تلك الأمم قد حافظت على تلك الخصائص و الاختلافات ، رغم أنها ألفت فيما بينها أمة واحدة هي الأمة العربية الإسلامية ، والاختلاف في الأهواء و الميول السياسية، و في الشعائر و العادات و التقاليد و الآداب و غيرها ....([3]) .

(*)- و تتمثل في حزب " نجم شمال إفريقيا " الذي أسسه حاج علي عبد القادر (1883 م – 1957 م) و مصالي الحاج (1898 م– 1974 م) سنة 1926 م بفرنسا، و قد قامت السلطات الاستعمارية بحله بمقتضى مرسوم 26 جانفي 1937 م . فحل محله "حزب الشعب الجزائري" بتاريخ 11 مارس 1937 م ، و حزب "حركة أحباب البيان و الحرية" الذي انشئ في 1 مارس 1944 م بزعامة فرحات عباس (1899 م –1984م) . و"حركة إنتصار الحريات الديموقراطية"، التي ظهرت سنة 1946 م، معوضة حزب الشعب المحل سنة 1939 م .

([1])- للمزيد حول إنتقاداته للأحزاب الجزائرية ينظر رسالتنا : الشيخ البشير الإبراهيمي و دوره في القضية الوطنية 1920 م–1965 م ، مرجع سابق ، ص ص 107 – 108 .

([2])- محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 1 ، مصدر سابق ، ص 164

([3])- ينظر أحمد أمين : ضحى الإسلام ، ج 2 مرجع سابق ، ص 5 و ما بعدها .

فالإشكال عند الإبراهيمي إذا ، لا يمكن في عدد الطوائف ، و إنما في كون أن كل طائفة منها احتفظت بشعائرها و عاداتها الخاصة ، التي قد تتصادم في الكثير من الأحيان ، مع جوهر الدين الإسلامي، و مع روح المجتمع الجديد ، الذي تشكل من خلال تمازج تلك المجموعات البشرية ، التي جمعها الانتماء إلى العقيدة الواحدة و الحضارة العربية الإسلامية . و برأينا فإن هذا التعارض ربما لم يكن مهما في بداية الأمر ، لما كان العرب و المسلمون في أوج عطائهم الحضاري ، حيث ذابت و اضمحلت تلك الفروقات و النزاعات إلى حد كبير ، لكنها عادت إلى الظهور و النمو في عصر الانحطاط ، و لا تزال إلى غاية الآن .

و بالرغم من كل ما سبقت الإشارة إليه ، فإن الإبراهيمي قد أبدى تفاءلا كبيرا بإمكانية تجاوز حالة التشرذم و التشتت و الانقسام ، التي كان عليها أمر المسلمين في عصره ، ببناء وحدة إسلامية شاملة ، تنصهر فيها كل الخلافات و الحساسيات العرقية و الطائفية، و المذهبية و اللغوية و الثقافية ، ليس من باب الإختيار ، و إنما بحكم الضرورة ، لأن العصر عصر تكتل و إندماج ، لا مكان فيه للضعفاء المنقسمين، مثل البلدان الإسلامية التي لم يعد يجمعها سوى الإسم ، و بعض الشعائر و العادات و التقاليد ، التي لا تغير من واقعها شيئا . و عليه فإنه يرى أن الوحدة المنشودة ، لن تتحقق إلا من خلال ما يلي :

01 – أخذ العبرة من السيرة النبوية ، حيث تمكن الرسول "ص " من المؤاخاة بين المهاجرين و الأنصار على العروبة و الإسلام ، بصورة قل نظيرها في تاريخ البشرية ، بفضل سلطان القرآن الكريم ، الذي كانت هيبته كبيرة على القلوب ([1]) .

02 – أن يضطلع العلماء المسلمون ، بواجب الدعوة إلى الإتحاد ، و إحياء الحقائق الإسلامية السامية ، و إلى نهضة الشرق ، فإذا تقاعس احد منهم عن ذلك فإنه يعد خائنا لدينه و لأمانة الله ، لأنها مسؤولية عظيمة يحاسبون عليها يوم القيامة (*) . فلا يمكن للأمة الإسلامية التي تفرقت بها السبل ، أن تجتمع مرة أخرى ، إلا بعلمائها الذين يجتمعون على إستقلال الفكر و إتحاد

([1])– محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 3 ، مصدر سابق ، ص 473 .

(*) – جاء ذلك في خطاب الإبراهيمي أمام الوفود العربية و الإسلامية ، على هامش إجتماع الجمعية العامة للأمم في باريس ، حيث أقامت شعبة جمعية العلماء مأدبة عشاء بنزل العالمين (DEW MONDE) في شارع " الأوبرا " (OPERA) مساء يوم الثلاثاء 29 جانفي 1952 م ، و قد ألقيت خلال الحفل ثلاث خطب : الأولى للأستاذ "عبد الرحمان عزام" الأمين العام لجامعة الدول العربية ، و الثانية من طرف الإبراهيمي ،

الوجهة([1]) تماما مثل العلماء الأوائل ، الذين كانت ترجع إليهم الأمة ، فتجدهم كتلة متماسكة في الدين ، لا تتفرق بها السبل، و لا تتشعب بها الآراء ([2]) .
03 – تربية الشبيبة الإسلامية ، على الدين و الفضيلة و التقوى ، فإذا نشأت على التدين أحبت الدين ، و إذا أحبت ما فيه من فضائل و أخلاق حميدة ، عملت على غرسها في نفوس غيرها من الأجيال اللاحقة . فيكون كل ذلك دافعا ، لمحبة العروبة و الإسلام و الإعتزاز بهما و الدفاع عنهما . و من شأن ذلك أيضا، أن ينمي لدى الشباب المسلم ، الدافع إلى الإجتماع بإخوانهم في الدين و العروبة ، و هنا يحسن بالحكومات الإسلامية ، أن تدفع في هذا الإتجاه من خلال تشجيع التعارف بين أبناء الأمة ، بتقوية الرغبة لديهم في الأسفار و حب الرحلة و الإستطلاع، و الإستفادة من بعضهم البعض ([3]) .
04 – السعي إلى جمع كلمة المسلمين ، من خلال القضاء على الإختلاف في إحياء الشعائر الدينية ، و منها على الخصوص الصوم و العيدين ، و ذلك بقبول شهادة أي قطر إسلامي بالرؤية ، و تعميم الخبر بالإذاعات الرسمية ، على أن يقوم بالمهمة قضاة معينون من قبل حكومة إسلامية ([4]) : ((لأن الأقطار الإسلامية كلها دار واحدة ، فحيثما ثبتت الرؤية و علمت على وجهها الشرعي الصحيح ، قامت معها الحجة على الجميع ، و تعلق بها الحكم صوما و إفطارا ، و لا عبرة بما هو شائع من إختلاف المطالع ، فإن القواعد الفلكية تنقضه)) ([5]) .
فقد أدى الإختلاف في هاتين الشعيرتين ، إلى تشتيت كلمة المسلمين ، و توريث العداوة و البغضاء بينهم بشكل خطير ، و شيوع التعصب وسط العلماء على حد سواء ، و إلى إثارة الفتن و إيقاظ الأحقاد الدينية ، فضلا عن تقطع الروابط و الأواصر بين صفوفهم ، و إستخفاف الأجانب بهم و بدينهم . ففقد الصوم و العيد جمالهما و جلالهما في النفوس ، و طمست حكمة

و الثالثة للأستاذ "فارس الخوري" رئيس الوفد السوري . للمزيد ينظر محمد البشير الإبراهيمي ، المصدر نفسه ، ج 2 ، ص 472 .

([1])– محمد البشير الابراهيمي: الاثار ، ج 1 ، مصدر سابق، ص 224 .

([2])– المصدر نفسه ، ج 3 ، ص 309 .

([3])– المصدر نفسه ، ج 5 ، ص 301 .

([4])– المصدر نفسه، ج 4 ، ص 81 .

([5])– المصدر نفسه ، ج 2 ، ص 405 .

الإسلام بكونه : ((دين الإتحاد و الوفاق بكل عقائده و عباراته ، وآدابه ترمي إلى الوفاق و تربي على الوفاق و تدعوا إلى الوفاق)) ([1]) . و لعل السبب في كل ذلك،هو غياب المرجع الديني الذي يوحد الأمة في كل شؤونها الدينية ([2]) ، و طغيان الاعتبارات السياسية و الجغرافية بين الأقطار الإسلامية ، حتى في القضايا الدينية المفصول فيها ([3]) .

05 – تجاوز كل الخلافات بين المسلمين ، مهما كان نوعها أو حجمها ، لأنها طبيعية تمر بها كل الأمم في الأطوار الأولى من نهضاتها ، حتى لا يتصور البعض أنها تخص المسلمين وحدهم فقط ، و تكون عاملا مثبطا لجهود بناء وحدتهم . فالمطلوب إزالتها بالتدرج لأن : ((أول مراحل النهضة هو آخر مراحل الإنحطاط)) ،و إستبدالها بالرباط الجامع للأمة و هو المحبة ، التي إذا خلصت بين الأفراد ، تحول الخلاف إلى وفاق و تجانس و تآلف .

06 – واجب التقارب و التعارف بين المسلمين، فلكي يلتئم شمل هذه الأجزاء المتنافرة من الجسم الإسلامي الكبير ، يتوجب على كل مخلص لدينه، أن يعمل على جمع هؤلاء الإخوة المتقاطعين في مصلحة غيرهم . و في هذا الإطار تتواجد في العالم الإسلامي ، مؤسسات عديدة و جمعيات و أحزاب سياسية و جرائد محلية ، ينبغي عليها أن تتعارف فيما بينها، بتبادل الزيارات و الجرائد و الكتب و النشريات ، و أن توجه كل جهودها من أجل تعريف المسلم بأخيه المسلم ، و تقريب وسائل الإستفادة من بعضها البعض ، حتى يثمر التعاون إثمارا كاملا ([4]) ، مثلما كانت تقوم به جمعية علماء المسلمين الجزائريين في الجزائر . كما لا ينبغي إغفال دور البعثات العلمية بين الدول العربية والإسلامية، في تمتين التآخي العربي و الإسلامي ، فهي من الوسائل المثلى التي تقرب الأمزجة و توحد الشعور ، و تنمي الفضائل الأصلية و هي فضائل الإسلام ، و تقضي على مظاهر الغزو الثقافي الغربي، التي كان المراد منها تفكيك الإنسجام بين الشعوب العربية و الإسلامية ([5]) .

([1])– محمد البشير الابراهيمي : الاثار ، ج 4 ، مصدر سابق، ص 82 .
([2])– المصدر نفسه ، ج 2 ، ص 420 .
([3])– المصدر نفسه ، ص 406.
([4])– المصدر نفسه ، ج 4 ، ص 79 – 97 .
([5])– المصدر نفسه ، ص 330 .

07 – وحدة الدعاة المسلمين ، لمواجهة التحلل و الإلحاد ، لأنها لا تزال متفرقة و متباعدة ، فتجتمع لتكون أقوى ، و توحد قيادتها لكي تكون أرهب لخصومها و المتآلبين على الإسلام، هذا من ناحية . و من ناحية أخرى ، يتوجب عليها أن تبني أمرها على العلم الصحيح و التربية الرشيدة ، فتبدأ بتنشئة جيل مسلم جديد، متشبع بالتربية الإسلامية القوية ليكون قاعدة للأجيال الآتية بعده ، فتغرس فيه العقائد و الأخلاق الإسلامية منذ الصغر ، و يروض على الصبر و العفة و الجد وعموده لا يزال طريا ، و يوجه الوجهة الصحيحة في الدين و الحياة ، و يكلف بعظائم الأمور حتى ينشأ، و هو مسلح بالاستعداد لها غير عابئ بتكاليفها ، لأن انتشار الضلالات العقائدية والبدع في العبادات و الخلافات في الدين، هو الذي أوقع المسلمين فيما هم عليه من تحلل ديني ، و بعد عن روحه و حكمته و فضائله .

08 – وحدة التشريع في كل البلدان الإسلامية ، باعتماد التشريع الإسلامي المتصلة حلقاته من عقائد و عبادات و آداب و معاملات ، بغية إنشاء أمة متحدة في المبادئ و الغايات، فتضمن إستمراريتها إلى الأجيال اللاحقة ، كما وصلت إليها من الأجيال الإسلامية الأولى([1]) .

09 – الدور الهام، الذي يمكن أن تلعبه الجامعات العلمية الدينية الإسلامية الكبرى مثل الزيتونة في تونس، و الأزهر في مصر ،و القرويين في المغرب الأقصى ، بالإضطلاع بدورها في تقوية الروابط بين الأخوة المسلمين في كل مكان ، عن طريق تلقين الشباب المنتمي إليها الدروس، التي تحبب إليه الترحال و السفر في البلاد الإسلامية في الشرق و الغرب و الشمال و الجنوب ، لما لذلك من فوائد عظيمة في إحداث التعارف بين الشباب المسلم ، بإعتبارهم حملته و المؤتمون على الدعوة إليه في المستقبل .

10 – تفعيل دور وسائل الإعلام المختلفة في هذا الإتجاه ، و منها الجرائد و المجلات التي لا تزال قليلة في العالم الإسلامي ، و طرق نشرها محدودة، بالإضافة إلى الإذاعة التي تعد أهم أدوات التعارف الفعالة ، لو أحسن إستخدامها لجاءت بنتائج باهرة ، بأن تشرف عليها كفاءات

([1])– محمد البشير الإبراهيمي : الاثار ، ج 4 ، مصدر سابق، ص ص 203 – 359 .

من المرشدين و المربين ، الذين يتوجهون إلى الشبان المسلمين بمحاضرات و دروس ، حــول أهمية الوحدة و مزايا التعارف و التقارب، بين كافة الفئات الشبانية في كل الأقطار الإسلامية ، على أن لا يقتصر الأمر على إذاعة بعينها و إنما جميع الإذاعات ([1]) .

([1])– محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 5 ، مصدر سابق ، ص 298

02 – كيفية بناء الجامعة الإسلامية في رأي أرسلان :

لم يمنع الانقسام و التشتت ، اللذان كان عليهما المسلمون في عصر الأمير شكيب ، من التفاؤل بإمكانية تحويل حلم الجامعة الإسلامية ، إلى حقيقة مجسدة في الميدان ، من خلال المبادرة السياسية ، التي تأخذ في عين الاعتبار ، أن المشروع يتطلب أولا : الاقتناع التام بأن الجامعة ضرورة و ليست خيارا ، و من ثمة حشد كل الطاقات المادية و المعنوية لإنجاحه . و ثانيا : أخذ الوقت الكافي في نجازه ، أي تجنب التسرع الذي من شأنه ، أن يؤدي إلى نتائج عكسية ، فيقضي على المشروع و الفكرة معا في مهدهما ، و هو ما كان يسعى إليه الاستعمار الغربي . و لذلك اقترح شكيب ، البدء بإنضاج الفكرة على المستويات الشعبية ، بتربية الفرد المسلم ، حتى يكون فاعلا في العملية ، ثم بإحياء و تفعيل التضامن و الأخوة الإسلاميين ، بالإضافة إلى التكتل الاقتصادي و الإقليمي. كل هذه الخطوات ، سنستعرضها و نناقشها على الترتيب فيما يلي :

ذهب الأمير شكيب ، إلى أنه من الواجب أن يبدأ العمل من القاعدة ، فيربى الفرد المسلم و يعد ليكون عاملا قائما بالواجب المنوط به ، سواء كان مزارعا أو صانعا أو حاكما أو معلما أو مصليا ... إلخ . و من هذا المجموع القائم بذاته ، يتألف البلد الراقي المزدهر ، و من مجموع البلدان الراقية المزدهرة ، تتألف المملكة القوية المهيبة ، التي لا تحصل على القوة إلا بحصولها على استقلالها . و من مجموع الممالك القوية المهيبة ، تتألف الخلافة ، و لا يشترط أن تكون جميع أجزاء العالم الإسلامي، ولايات تابعة لدولة الخلافة، فهذا غير ممكن و لا ينبغي العمل لأجله . و إنما لا بد لتلك الأجزاء ، أن تتصف بالعمل و النشاط و الجدية و النصرة للخلافة .

و ضرب هنا مثالا([1]) على ذلك بإنجلترا ، التي تتقوى بقوة بريطانيا العظمى و الدومينيون و الهند ، فبالرغم من أن 400 مليون نسمة ، الذين هم تحت سلطة ملك إنجلترا ، حوالي 350 مليونا منهم هم في الحقيقة أعداء للإنجليز ، و الإنجليز الذين يعملون لمجد هذه السلطنة هو 50 مليون فقط ، إلا أنهم كأفراد ، يقومون بكل ما يجب عليهم إزاء بريطانيا

([1])– نجيب البعيني ، المصدر السابق ، ص 259 .

العظمى و أضاف الأمير شكيب ، بأن هذا هو مذهبه لكي تنهض الأمة الإسلامية ، فقد كانت تأتيه رسائل كثيرة من مختلف أنحاء العالم الإسلامي ، يقترح أصحابها عقد مؤتمر إسلامي ، أو انتخاب خليفة أو ما شابه ذلك من المقترحات ، و كانت إجابته دائما ، أنه ينبغي لنا البناء من القاعدة ، بتربية الفرد ثم البلد ، ثم القطر ثم المملكة ثم العالم الإسلامي . و لا مجال هنا للتسرع و استعجال النتائج ، فالتعليم الذي يهذب الفرد ، يجب أن نمنحه الوقت الكافي ، و إن كان طويلا بالنسبة للبعض ، حتى يعطي ثماره ، فما لفائدة : ((أن نعقد مؤتمرا لمجموع من الضعفاء ليس لهم إرادة مستقلة و هو لا يقدرون أن ينفذوا قرارا فما فائدة ذلك ؟ أنريد نحن أن نجمع أصفارا ؟)) . فقد اجتمع المؤتمر الإسلامي في مكة ، و قرر إعادة "العقبة" و" معان" إلى الحجاز ، و سكة حديد الحجاز كلها إلى المسلمين ، فهل نفذ أي شيء من ذلك يتساءل الأمير ؟ . و العلة في ذلك برأيه ، أن الدول الأوروبية ، تعلم ضعف العالم الإسلامي ، و أن الذين اجتمعوا خلال المؤتمر في المرة الأولى ، لم يجتمعوا بعدها ، و أي ضعف و أي تخاذل أكثر من هذا يتساءل الأمير ؟ ([1]) .

جوهر القضية إذن ، يتمثل في التربية الناجحة ، التي لن تتحقق إلا بنظام تربوي اجتماعي بناء و واضح المعالم . تكون ثماره أجيال من الأفراد ، متشبعة بقيم الوحدة و التضامن ، و هنا تلعب الفكرة الدينية الإسلامية دورا أساسيا ، بما لها من قوة في التأثير و التغيير ، فهي من جعلت من البدوي العربي إنسانا متحضرا و محضرا ، بمعنى أنها السبب في إعادة تنظيم و توجيه جهود الفرد و طاقاته و تفعيلها . و الأمثلة على ذلك كثيرة في بدايات التاريخ الإسلامي ؛ و منها ما حدث لما كان النبي "ص" منشغلا في المدينة بتجهيز جيش المسلمين لخوض معركة بدر ، حيث كان صحابته يأتون إليه و يقدمون له عن طيب خاطر ، جزءا من أموالهم قائلين له ((يا رسول الله خذ من أموالنا ما شئت ، و ما أخذته منها أحب الينا مما تركت)) (*) ([2]) .

([1])- نجيب البعيني ، المصدر السابق ، ص 260 .

(*) – صاحب هذا القول هو الصحابي سعد بن عبادة (ت 14 هجرية / 635 م) : صحابي أنصاري من الخزرج ، من الأمراء الأشراف في الجاهلية و الإسلام ، شهد العقبة و أحدا و الخندق . توفي في حوران . المنجد في اللغة و الأعلام .

([2])- مالك بن نبي : ميلاد المجتمع الإسلامي ، مرجع سابق ، ص ص 78 – 80 .

و هو ما يحيلنا إلى القول أن شكيب أرسلان ، يوافق الرأي القائل؛ بأن أصل كل المشاكل التي واجهها المسلمون في عصور الانحطاط ، و منهـا الانقسـام و التشـرذم و فشـل كـل المحاولات ، التي سعت إلى الجامعة الإسلامية ، هو أسباب نفسية و اجتماعية بالدرجة الأولى ، و أن تجاهلها لن يؤدي إلى تحقيق أية خطوة في هذا الاتجاه . أما علاجها فيكمن فـي التربيـة، التي تتولى إعادة تأهيل الفرد في المجتمع الإسلامي ، تأهيلا يسمح له بالتفاعل الإيجـابي مـع القضايا الكبرى لأمته ، فينظر إليها بمنظار واقعي و ليس عاطفي، كما جـرى فـي العصـور الأخيرة من التاريخ الإسلامي .

و بلا شك أنه رأي صائب ، فقد فشلت كل التجارب و المبادرات و المحاولات السياسية في هذا الاتجاه ، لأنها لم تستند على قاعدة اجتماعية أو شعبية واعية بالتحديات، التـي كانـت مطروحة أمام الأمة آنذاك .

أعرب الأمير شكيب عن امتعاضه من الحال الذي آل إليه التضامن بين المسلمين ، حيث أضحى يتميز بالضعف و المحدودية ، لجملة من الأسباب تتمثل حسبه في : انصراف كل قطـر من الأقطار الإسلامية إلى مشاكله ، و اشتغاله بقضاياه الوطنية الداخلية . فضلا عـن الأزمـة الاقتصادية العالمية ، التي ترتبت عن الحرب العالمية الأولى 1914 م – 1918 م ، و التي ظل مفعولها لزمن طويل في الشرق و الغرب . انتشار الاعتقاد الخـاطئ فـي الـبلاد الإسـلامية و العربية ، بأن سياسة الإتحاد الإسلامي لها ضرر على المسلمين ، و عامل محفز لأوروبا لكي تتألب عليهم ، و عائق يحول دون حصولهم على استقلالهم ، فلو قامت الشـعوب الإسـلامية ، بحركة وطنية أو قومية مجردة من الصيغة الدينية ، لما وجد حسب أصحاب هذا الرأي مانع من منهم استقلالهم . ثم غلبة التشاؤم على المسلمين عامة ، و مفكريهم خاصة ، و فقدانهم كل ثقتهم في الإسلام ، فأصبحوا ينظرون إلى كل حركة إسلامية مقاومة لأي سلطة أوروبية أنها : ((من قبيل حركة المذبوح تحت السكين)) ، و يقولون أن أوروبا ستنال لا محال من متزعميها ، إلى غير ذلك من العقائد السياسية ، التي زادت الإسلام ضعفا على ضعف ، و التـي كـان أولئـك المفكرون ، يتنافسون فيها ، لإظهار مبلغ عقلانيتهم ، و بعد أفكارهم عن الخيالات ([1]).

([1])– لوثروب ستودارد ، المصدر السابق ، م2 ، ج 3 ، ص 193 .

أما السبب الأخير، في تحليل الأمير شكيب لضعف التضامن الإسلامي ، فهو محاربة الطورانيين (الحركة الطورانية) و الوطنيين المصريين ، للجامعة الإسلامية أو التضامن الإسلامي أو الإتحاد الإسلامي . فقد استفحلت هاته العقيدة في تركيا ، و لقيت رواجا كبيرا ، بفعل الدعوة الطورانية ، التي تضمنت أن الأتراك، يتوجب عليهم أن يكونوا أتراكا في المقام الأول و مسلمين في الثاني ، بل ذهب بعض الغلاة منهم ، إلى العمل على محاربة الدين الإسلامي بشتى الوسائل و الطرق ، بغية اقتلاع مركزه و محو الصبغة العربية بين صفوف الأتراك . أما في مصر فقد ازدادت ، بسبب مراعاة جانب الأقباط الذين اشترط كبار زعمائهم ، نفض اليد من الجامعة الإسلامية ، مقابل اندماجهم الحقيقي في " الكتلة الوطنية المصرية " ، المعروف عنه غلوه في إتباع الزعماء ([1]) .

و كنتيجة لكل ذلك ، يقر الأمير شكيب؛ بأن غياب التضامن الإسلامي، و ضعف الأخوة الإسلامية ، هو الذي جعل المسلمين يقفون موقف المتفرج أمام قضاياهم المصيرية و منها القضية الفلسطينية ، حيث تمكن الصهاينة (*) ، رغم قلتهم من تحقيق حلمهم بإنشاء وطنهم القومي المزعوم في أرض فلسطين ، بمساعدة من الدول الغربية و على رأسها بريطانيا ، التي تبنت الأطماع الاستعمارية ، من خلال الدعم السياسي و التآمر ، و الدعم

([1])- لوثروب ستودارد ، المصدر السابق ، م2 ، ج 3 ، ص 193 .

(*) – الصهاينة : من الصهيونية ، جاءت هذه التسمية من جبل صهيون بالقدس ، الذي بنى عليه النبي سليمان عليه السلام الهيكل ، و فيه المسجد الأقصى و الصخرة ، و قد أصبح هذا الجبل مقدسا عند اليهود ، لاعتقادهم أن الرب يسكنه و يقيم فيه ، إذ ورد في سفر المزامير : ((رنمو للرب الساكن في صهيون)) . و الصهيونية حركة يهودية عالمية ، أعطاها " تيودور هرتزل " الحيوية ، خلال القرن التاسع عشر في كتابه: " الدولة اليهودية " ، فأعطى المبدأ صبغة دولية منذ ذلك التاريخ ، و أخذ يسري في الأفكار و يرسخ في أوروبا ، حتى جاء تصريح " بلفور " سنة 1917 م ، الذي استجاب لمطلب الحركة بتأسيس " وطن قوي لليهود " في فلسطين . و قد تمكنت في نهاية الأمر من تحقيقه سنة 1948 م ، مستخدمة كل الوسائل و الطرق غير المشروعة ، و منها ورقة الإضطهادات التي تعرض لها اليهود في أوروبا الوسطى ، و التقتيل و الإبادة اللذان لحقا بهم من طرف النازية خلال الحرب العالمية الثانية 1939 م – 1945 م ، مستفيدة من التواطؤ التام ، للقوى الكبرى و المجتمع الدولي . توفيق الواعي : اليهود تاريخ إفساد و إنحلال و دمار ، ط 1 ، دار ابن حزم للطباعة و النشر و التوزيع ، بيروت : 1995م ، ص 151 . و للمزيد ايضا، ينظر عبد الحميد بن أبي مزيان بن أشنهو ، المرجع السابق، ص 110 و ما بعدها .

المادي المتمثل في المساعدات العسكرية – التي لم تتوقف إلى الآن – ، و بالوقوف إلى جانبها في كل حروبها ضد العرب ([1]) .

و قد قابل المسلمون كل ذلك ،بالتقاعس و التخاذل ، و الإحجام عن تقديم المساعدة و العون لإخوانهم الفلسطينيين ، تاركينهم يواجهون مصيرهم لوحدهم . و من الأمثلة التي ساقها الأمير شكيب في هذا الإطار لتأكيد ذلك ، أنه خلال الاشتباكات الدموية ، التي حدثت بفلسطين سنة 1929 م بين اليهود و المسلمين ، هب اليهود و غيرهم في مختلف أنحاء العالم ، لنجدة نظرائهم في فلسطين ، حتى بلغت قيمة التبرعات مليون جنيه ، بينما قدرت تبرعات المسلمين في مجملها بثلاثة عشر ألف جنيه ، أي ما يعادل 1% من تبرعات اليهود .

و هو بلا شك تقاعس خطير ، تساءل الأمير عن سببه ، و أجاب عنه في مكان المسلمين و العرب قائلا: بأنهم سيقولون أنهم لا يملكون الثروة التي يملكها اليهود ، و هو مبرر غير مقبول لديه ، لأنه يتوجب عليهم أن ينفقوا على إخوانهم بمثل ما أنفقه اليهود و الأوروبيون ، و ليس بحجم ما يملكون من رؤوس أموال . أما الفقراء الذين لا يملكون ما يزيد عن حاجتهم ، فليس من واجبهم التبرع لصالح الشعب العربي المسلم في فلسطين ([2]) . أي أنه يسقط مبرر الفقراء من المسلمين و قلة حيلتهم أمام اليهود و المسيحيين ، فبالنظر إلى العدد الهائل للمسلمين المقدر آنذاك بحوالي 400 مليون مسلم ، و الذي يفوق بأضعاف مضاعفة عدد اليهود (20 مليون) ، و بالافتراض فقط أن كل مسلم يساهم بقرش واحد ، و هو مبلغ برأي الأمير شكيب زهيد جدا في متناول الفقراء ، فإنه من الممكن وفقا لذلك جمع حوالي ثلاثة ملايين و نصف مليون جنيه ، و هو مقدار يفوق ما تبرع به اليهود بثلاثة مرات و نصف . لكن الذي حدث كان العكس ، حيث استطاع اليهود و هم الأقلية ، أن يجمعوا من الأموال لصالح نظرائهم في فلسطين ، ما فاق بكثير ما جمعه المسلمون و هم الأكثرية ، فعلق الأمير على ذلك بأسلوب تهكمي ساخر قائلا : ((أهذا ما تريدون أن تسموه " تضحية " ؟ . أو بمثل هذا تجاهدون في

([1])– محمود السيد : المرجع السابق ، ص 101 و ما بعدها .

([2])– نجيب البعيني ، المصدر السابق ، ص 44 – 45 – 46 .

سبيل الله بأموالكم و أنفسكم ؟ . أو هذه درجة نجدتكم لإخوانكم في الدين و جيرانكم في الوطن و القائمين عنكم بالدفاع عن المسجد الأقصى الذي هو ثالث الحرمين و أولى القبلتين)) ([1]) .

و علاوة على ذلك ، يرى شكيب أنه من الأمور السخيفة ، وجود من يقول من المسلمين ، أن الغرب الذي يدعم اليهود ، يتفوق عليهم ماديا و معنويا ، و بالتالي لا سبيل للوقوف في وجهه . و يبرر ذلك بالقول أن حال المسلمين ، كان سيئا قبل أن يخترع الأوروبيون معدات القتال الحديثة ، و المدافع و الدبابات و الطائرات ، و قبل أن يصبحوا فيما هم عليه من القوة ، التي دانت لهم بفضل العلم . إنه أمر في منتهى السفه و الحماقة ، فلكل عصر علم و صناعة و مدنية تماثله ؛ ففي العصور الوسطى ، كانت هناك علوم تماثلها مثل العلوم و الصناعات و المدنية المعاصرة ، فوجدت المنجنيقات و الدبابات و النيران المصنعة تصنيعا مجهولا في عصرنا ، فكانت في تلك الأثناء كما هي في أيامنا هذه ، المدافع و الرشاشات وقنابل الديناميت و غيرها ... إلخ . و بغض النظر عن ذلك ، فليست المعدات الحربية من دبابات و طائرات و رشاشات ، هي التي تحرك العزائم و توقظ الحمية في الصفوف ، بل الحمية و العزيمة هي التي تأتي بذلكم العتاد ، و دون ذلك عبث لأن المادة لا تعمل من تلقاء نفسها و إنما : ((الذي يعمل هو الروح ، فإذا هبت أرواح البشر و تحركت عزائمهم فعند ذلك نجد الدبابات و الطيارات و الرشاشات و الغواصات و كل أداة قتال و نزال على طرف التمام)) ([2]) .

و عليه فإن السبب في ضياع فلسطين ، لا يكمن في قوة اليهود ماليا وعسكريا ، و لا في الدعم الكبير الذي قدمته لهم الدول الغربية الكبرى ، و إنما في ضعف التضامن الإسلامي ، و انفصام عرى الأخوة الإسلامية ، فلو توفرت الإرادة اللازمة و هب المسلمون لنجدة الشعب الفلسطيني بإظهار التعاطف معه، و جمع التبرعات و حث الناس على التطوع في صفوف المقاومة ، لما تمكن الصهاينة من إنشاء دولتهم القومية . بمعنى أن نكبة فلسطين كانت نتيجة

([1])- شكيب أرسلان : لماذا تأخر المسلمون و تقدم غيرهم ؟ ، مصدر سابق ، ص ص 46 – 47 .
([2])- المصدر نفسه ، ص ص 77 – 78 .

لتخاذل و تقاعس المسلمون ، لمبررات واهية كقلة المال و السلاح ، فندها الأمير و أعتبرها سخيفة عارية من الحقيقة .

فالأمير شكيب ، و إن سلم باختلال ميزان القوة العسكرية و المالية بين المسلمين و الصهاينة ، فإنه لم ير مبررا للاستسلام للأمر الواقع ، لأنه في أيدي المسلمين أسلحة أخرى ، لا تقل شأنا و فعالية عن العتاد الحربي، و منها سلاح المقاطعة التجارية ، فمن غير المقبول حسبه أن يفضل المسلمون شراء البضائع من عند الأجنبي على العربي ، جريا وراء تخفيضات زهيدة ، يوفرونها عند الشراء من اليهودي و الإنجليزي ، غافلين عن الضرر العظيم ، الذي يلحقونه بأنفسهم ، مقابل قروش تافهة مؤقتة ، يجنونها من التاجر اليهودي أو الإنجليزي ، تاركين ابن جلدتهم أو ملتهم ([1]) . لكن الأمر لم يتوقف عند هذا الحد ، بل وجد من الحكام المسلمين، من يعمل لصالح المشروع الصهيوني على حساب مصالح أمته ، و قد ذكر شكيب في هذا السياق حاكم مصر "الخديوي سعيد" ، الذي مارس ضغوطا على شكيب ، لكي يستجيب لطلبه المتمثل في نشر الدعوة إلى المصالحة بين العرب و اليهود ، بالإضافة إلى إقناع عرب فلسطين بالنزوح إلى شرق الأردن ، للاستقرار فيه بشكل نهائي ، و أن يسعى لدى الزعماء الفلسطينيين لإقناعهم بعدم جدوى مقاطعة اليهود ، لاختلال ميزان القوى بين الفريقين . مستغلا في ذلك الظروف المالية المتدهورة لشكيب ، بعد الأزمة الاقتصادية العالمية 1929 م ، مهددا إياه بقطع المعونة المالية (*) التي كان يدفعها له في حالة الرفض . و قد كان رده بطبيعة الحال ، الرفض و الغضب و الاستهجان و التعنيف للخديوي ، الذي نزل ضيفا عنده في منزله بجنيف ، مستغربا ذلك الطلب بقوله : ((كيف يؤمل من أمير مسلم أن يسعى إلى إخراج

([1])- شكيب أرسلان : لماذا تاخر المسلمون و تقدم غيرهم ؟ ، مصدر سابق ، ص 48 .

(*) - ذكر ظاهر محمد صكر الحسناوي ، أن تلك المعونة كانت تقدر بـــ : 30 جنيها شهريا ، و هو مبلغ مهم حسبه لمهاجر مثل شكيب أرسلان . ظاهر محم صكر الحسناوي : شكيب أرسلان الدور السياسي الخفي ، ط 1 ، دار رياض الريس للكتب و النشر ، بيروت : 2002م ، ص 121 . نقلا عن : الحسن بوعباد : " إسبانيا و الإسلام بالمغرب الأقصى " ، مجلة الفتح ، السنة السابعة ، العدد 311 / جمادى الأولى 1351 هـ ، ص 2 .

المسلمين من فلسطين ؟ أبهذه المبادئ يرجو أفندينا أن يكون له شأن في بلاد الإسلام ؟)) ([1]) ، فكانت تلك الزيارة الأخيرة بينهما ، حيث انقطع حبل الود بين الشخصيتين بإعلان الأمير المقاطعة التامة للخديوي ، غير مكترث بتوقف المساعدة المالية ، التي كانت يقدمها له بدوافع صهيونية ، رغم الوساطات التي أطلقها هذا الأخير ، لإعادة الوضع إلى ما كان عليه قبل الحادثة ([2]) .

و قياسا عليه ، فإن التضامن الإسلامي ، يقتضي لدى شكيب أرسلان ، أن يقوم المسلمون في كل مكان بتقديم الدعم العسكري و المالي للشعب الفلسطيني ، بالشكل الكافي الذي يمكنهم من طرد الاحتلال الصهيوني عن كل أرضهم ، التي هي حق عربي و إسلامي ثابت . و بالقيام بكل ما من شأنه ، إضعاف اليهود في المنطقة وعملائهم الإنجليز اقتصاديا ، كالمقاطعة التجارية ، التي راهن عليها كثيرا الأمير شكيب ، باعتبارها سلاحا فعالا لا يقل أهمية عن الأسلحة الأخرى. و قد تأسف كثيرا للتخاذل و اللامبالاة، اللذان كانا يبديهما المسلمون في هذا الإطار ، حيث يساهمون بغير إدراك في تقوية أعدائهم، من خلال الإقبال على شراء سلعهم ، مستنكفين عن بضائع أبناء جلدتهم أو ملتهم ، رغم الخطورة الكبيرة التي تلحق بالجميع، جراء هذا المسلك الإقتصادي الخاطئ .

لكن الأخطر من كل ذلك ، وجود فئة من قادة المسلمين ، الذين تحولوا إلى أدوات في خدمة الإطماع الاستعمارية و الصهيونية، مقابل إغراءات مادية يحصلون عليها، كثمن لخيانة شعوبهم و أوطانهم و قضاياهم القومية ، هذا الصنف من القادة هو الذي أعان و مهد الطريق أمام الحركة الصهيونية ، للاستيلاء على فلسطين و إقامة الدولة اليهودية على أراضيها ، بعد أن كان ذلك مستحيلا عليها في الماضي. و لا عجب في تقدير شكيب أرسلان ، أن يتآخى المسلمون مرجعا ذلك لسببين أساسيين : فأما الأول فيتمثل في كون أن التضامن بين الضعفاء أمر بديهي

([1])– أحمد الشرباصي : أمير البيان شكيب أرسلان ، مرجع سابق ، ص 739 .

([2])– ظاهر محمد صكر الحسناوي ، المرجع السابق، ص 121 . نقلا عن ذوقان قرقوط : تطور الحركة الوطنية في سورية 1920 م – 1939 م ، ط 1، دار الطليعة للطباعة و النشر ، بيروت : 1975م ، ص 280 .

و لا يحتاج إلى مبرر ، حتى و لو لم ينتموا إلى عقيدة واحدة ، فكيف إذا كانوا يشتركون في عقيدة واحدة كالمسلمين . أما السبب الثاني ، فهو كون أن المسلمين يعتقدون بالشريعة الإسلامية ، و بالقرآن الكريم الذي يقول بأن المؤمنين إخوة ، فالأخوة الإسلامية فرض ، و مؤازرة المسلم أمر شرعي تاركه يؤثم عليه . على ألا تكون هذه الأخوة ، مانعا دون الإخاء مع غير المسلمين ، كما يعتقد البعض ، أو يدعي آخرون افتراء . لأن المسلمين يرتبطون بغير المسلمين برابطة الإنسانية ، فالنبي "ص" قال : ((الناس عيال الله و أحب الناس إلى الله أنفعهم لعياله)) ، و لم يقل : ((المسلمون عيال الله)) ([1]) .

و منه فإن الواجب على المسلمين ، بأن يهتموا بإخوانهم في الدين و القومية في تلك البلدان البعيدة ، من الذين تقطعت بهم الأسباب و أعجزهم ضعف الحال ، و في هذا الصدد قال شكيب: أنه و غيره من الشخصيات الإسلامية ، قد رفعوا أصواتهم مرارا ، طالبين من المسلمين أن يلتفتوا إلى هؤلاء الإخوة ، و لكن كيف يتضامن المسلمون معهم ، و هم فيما هم عليه من تفرق في كلمتهم و تفكك لجامعتهم ؟ . إنه من الواجب على القادة المسلمين التفكير في مثل هذه القضايا ، و إيلائها العناية الكبيرة ، حتى لا ينقرض الدين الإسلامي في تلك البلدان ([2]) . كما لا ينبغي لهم أن يهملوا الشعوب و الطوائف غير الإسلامية ، الذين لا تمثل الجامعة الإسلامية أي خطر عليهم ، بل على العكس من ذلك فإنها تشكل عضدا قويا و سندا متينا لهم ([3]) .

و خلاصة القول ، أن الأمير شكيب، أكد على ضرورة إحياء التضامن الإسلامي و الأخوة الإسلامية، و تفعيلهما إلى أعلى المستويات، بعد أن كادا أن يندثرا في القرون الأخيرة ، بفعل الانحطاط العام الذي كان عليه المسلمون في كل المجالات ، و الدور السلبي لحكامهم و قادتهم في هذا الإطار ، حيث ساهموا عن جهل أو عن دراية، في توسيع الهوة بين المسلمين سواء كانوا عربا أم غير عرب ، و هو ما كان يبتغيه الاستعمار الأوروبي، الذي طبق سياسة فرق تسد داخل البلد الإسلامي الواحد من جهة ، و بين كل البلدان الإسلامية القريبة و البعيدة من جهة ثانية .و قد استمر ذلك الجفاء بين الأقطار الإسلامية ، حتى بعد تحررها من المستعمر

([1])- أحمد الشرباصي : شكيب أرسلان داعية العروبة و الإسلام ؟ ، مرجع سابق ، ص 124 .

([2])- لوثروب ستودارد ، المصدر السابق ، م 2 ، ج 3 ، ص 384 .

([3])- أحمد الشرباصي ، المرجع نفسه ، ص 125 .

و حصولها على سيادتها ، الأمر الذي يتطلب جهودا كبيرة من أجل التقريب بينها ، و دفعها نحو التعاون و التعاضد ، لمواجهة تحديات العصر : السياسية و الاقتصادية و الحضارية ، التي لا يمكن بأي حال من الأحوال التعامل معها، بالوضع الذي هو عليه أمر المسلمين . و لقد جرت عدة محاولات في سبيل ذلك ، لكنها آلت إلى الفشل الذريع ، لأنها انفرادية و لم تستند إلى كل جهود المجموع الإسلامي الهائلة .

و لقد أكد هذه الحقيقة الزعيم المصري " مصطفى كامل " ، الذي قال أن الجامعة الإسلامية هي التضامن و التعاطف الأدبي و السياسي و الفكري ، و هو أمر لا تعارض بينه و بين الجامعات الوطنية للشعوب الإسلامية ، و أعتبر أن : ((ميل كل مسلم لأبناء دينه أمر طبيعي و شرعي ، و لا يوجد رجل منصف ينتقد ذلك الميل)) . لكنه في المقابل لم يجعلها الحل السحري الوحيد، لمشكلة التخلف الحضاري، التي كان يعانيها المسلمون ، بل ذهب إلى أن المسلك الصحيح في ذلك، هو بإحياء الإسلام و إظهار حقيقته ، لأنه ليس عقيدة دينية فحسب ، بل قانون اجتماعي يصلح لأن يكون مرجعية ،فكرية للنهضة الإسلامية المنشودة ([1]) .

و لعل القضية الفلسطينية ، أكبر محفز يمكن استثماره بشكل إيجابي في هذا الصدد ، إذ لا يمكن أن يستمر الشعب الفلسطيني لوحده، في مواجهة الاحتلال الصهيوني ، الذي سلبه أرضه و شرده خارجها ، بالتقتيل و التهريب و التجويع ، و المسلمون جامدون ، لا يدركون أن القضية تتجاوز الفلسطينيين و العرب ، منقسمون بسبب اختلاف ولاءاتهم الخارجية ، فمنهم الموالي لأمريكا و منهم لدول غربية أخرى ، غافلين عن كون أن تلك الدول و إن اختلفت سياسيا فيما بينها ، فإنها متفقة على دعم اليهود ، و بذل كل شيء لتثبيت وجودهم في فلسطين ([2]) .

أما الخطوة الثالثة ، في بناء الجامعة الإسلامية بحسب الأمير شكيب ، فهي التكتل الإقليمي و الاقتصادي ، و يتحقق التكتل الأول ، بأن يبدأ كل قطر أو إقليم بنفسه أولا ؛ فيوطد أركانه ، فإذا تبين له أنه تقوى و نما و صار قادرا على النهوض ، التفت إلى جاره و مد له يد العون و المساعدة ، فتكون هذه الجامعة بين هذه الأقطار ، أمرا طبيعيا و ممكنا و سهلا ، و لا

([1])- محمد عمارة : الجامعة الإسلامية و الفكرة القومية نموذج مصطفى كامل ، مرجع سابق ، ص 124 .

([2])- محمد أبو زهرة ، المرجع السابق ، ص 242 .

خشية عليها مادام القرآن موجودا ، فتكفي إشارة واحدة من تلك الأقطار ، حتى يتحرك جميعها و كأنها ثريا كهربائية ، تضيء بضغط على زر واحد ، لكن لا فائدة من كل ذلك ، إذا لم تكن الحياة فيها عامرة و متحفزة . و يقصد الأمير شكيب بالحياة العامرة و المتحفزة ، نشاط الجمعيات و الشركات و النقابات و الهيئات الممثلة بالشعوب ، التي إذا كانت مضطلعة بوظائفها بصورة تامة ، تصبح إذا تحركت إزاء قضية من القضايا مثل البربر (*) أو طرابلس (**) أو غيرها ، كانت نتائجها فعلية و عملية و سريعة و مؤثرة و عامة ، على نحو يجعل الدول الأجنبية، تخشى جانب المسلمين و تنقاد لمطالبهم ، لأنها تدرك أن وراء تلك الحركة قوة عظيمة تعضدها ([1]) .

أما التكتل الاقتصادي ، فيرى أن له أهمية بالغة في الجامعة الإسلامية، بالموازاة مع الجانب السياسي ، و غايته أن تكون ثروة المسلمين للمسلمين ، و عائدات التجارة و الصناعة في جميع البلاد الإسلامية ، تكون لهم يستفيدون منها هم و ليس الدول الغربية . و هو أيضا امتناع عن رؤوس الأموال الغربية ، و استبدالها برؤوس أموال إسلامية . و فوق كل ذلك ، هو قضاء على الهيمنة الأوروبية على موارد الثروة الطبيعية في بلاد المسلمين ، بعدم تجديد الامتيازات الممنوحة لهم ؛ في المناجم و الغابات و السكك الحديدية و الجمارك . فما دام كل ذلك في يد الغرب ، فسيظل العالم الإسلامي عالة على غيره ([2]) .

واضح أن شكيبا، كان يرمي من خلال ما سبق ، إلى تقوية الجبهة الداخلية لكل قطر أو بلد إسلامي ، قبل الإقدام على أية خطوة اتجاه ، إنشاء تكتل إسلامي سياسي و اقتصادي بالدرجة الأولى ، الذي لا يمكن أن يحقق الأهداف المتوخاة منه ، في غياب قاعدة صلبة يقف عليها ، المتمثلة في الرأي العام الحيوي، المدرك للدور المفترض فيه أن يلعبه في هذه القضية ، و المؤهل للتفاعل الإيجابي مع القضايا القومية المطروحة و المستجدة . و المتمثلة أيضا، في الحد الأدنى من النمو الاجتماعي و الرقي العلمي ، اللذان يوفران للبلدان الإسلامية هامشا

(*)- يقصد بذلك الظهير البربري .

(**) – يعني بقضية طرابلس، الاحتلال الإيطالي لليبيا الذي بدأ منذ سنة 1911 م .

([1])- نجيب البعيني ، المصدر السابق ، ص ص 258 – 259 .

([2])- محمد شيا ، المرجع السابق ، ص 167 .

نسبيا ، من عدم التبعية الحضارية و الاقتصادية للدول الاستعمارية الكبـــرى ، فتتمتـــع بالقـــدر المطلوب من الاستقلالية في القرار السياسي ، الذي يسمح لها بالتحرر الاقتصادي فـــي نهايـــة المطاف ، و ممارسة السيادة الكاملة على ثرواتها الطبيعية، و قطاعاتها الاقتصادية الكبرى .

و باختصار، فقد ربط بين قضية العلم و قضية التحرر الاقتصـــادي، و منـــه التحـــرر السياسي ، و لذلك ثمن قرار المؤتمر السوري الفلسطيني ، بإنشاء جامعة إسلامية في فلسطين ، معتبرا إياها من أهم القرارات ، خاصة بعد قيام اليهود بتأسيس "الجامعـــة العبريـــة" بـــالأرض الفلسطينية ، داعيا البلدان الإسلامية للمساهمة في هذا المشروع ، و مما قاله في هذا المضمار : ((أن العلم و الذل للأجنبي لا يتساكنان ، و أن المعرفة و الاستقلال توأمان ، فلتكن للمســـلمين جامعتهم التي تسير فيها العلوم العصرية إلى جانب العقيدة الإسلامية الصافية ، على أن تكـــون اللغة العربية هي لغة التعليم الأولى في هذه الجامعة باعتبارها لغة الإسلام الدينية)) ([1]) .

و حديثه هنا ؛ هو دعوة إلى الوحدة الثقافية، التي تشمل التعليم بكل مراحله، و البـــرامج التعليمية و مناهج التدريس، و الإدارة التربوية و تكوين الإطارات ... و غيرها من أساســـيات إنجاح العمل التروي المشترك بين البلدان الإسلامية .

([1])- ينظر نجيب البعيني ، المصدر السابق .

وعلى ضوء، ما جاء في هذا المبحث الذي خصصناه ، لاستعراض رؤية كل من الإبراهيمي و أرسلان، للخطوات الواجب القيام بها ، لوضع بناء الجامعة الإسلامية على قواعد صلبة و متينة ، حتى تتمكن من تأدية الدور المنتظر منها على أكمل وجه ، و الخروج بها من دائرة الشعارات الجوفاء ؛ التي لم تغير شيئا من حالة المسلمين، الذي كان يسير من السيئ إلى الأسوأ ، إلى موضع التنفيذ و التجسيد في الميدان ؛

يظهر لنا أن الإبراهيمي، قبل أن يستعرض تلك الخطوات ؛ قد ركز بشكل خاص ، على تحليل أسباب ضعف ما سماه بالأخوة الإسلامية ، التي أرجعها إلى ممارسات الحكام المسلمين ؛ الذين اسقط عنهم درجة الأهلية لقيادة الشعوب الإسلامية ، التي كانت تحت تصرفهم ، فلا هم لهم إلا النهب و الإستغلال و التعسف، و ممارسة القهر و الحرمان على رعيتهم ، التي إستسلمت لهم فيما يبدو ، و الخضوع و الخنوع للأجانب إقتصاديا و فكريا و ثقافيا و حضاريا ، إلى الحد الذي حولوا فيه أوطانهم ، إلى مناطق ملحقة بالدول الأوروبية الكبرى ، لا تستطيع أن تحيى بدونها .

وأرجعها أيضا، إلى إستفحال ظاهرة العصبية ، التي صنفها إلى ثلاثة أقسام : عرقية ، و تعصب للرأي ، و تعصب للأجداد ، و التي أضعفت أواصر الإرتباط داخل المجتمعات الإسلامية و بينها . أما السبب الثالث، فكان برأيه ؛ خوض العلماء ، فيما لا ينفع الأمة في دينها أو حياتها . ثم جاءت الطرق الصوفية، التي نعتها بالطرق المشؤومة ، لتزيد الهوة إتساعا ، منطلقا في ذلك من الواقع الجزائري ، الذي يعد أفضل مثال ، على الدور السلبي التي كانت تقوم به في هذا الإطار . كما أعرب عن إمتعاضه و رفضه الشديد ، لتعدد الأئمة ، حيث أضحى المسلمون جراء ذلك طوائف و جماعات، ولاءها للإمام أو الشيخ، و ليس للدين أو للوطن أو الأمة .

أما السبب الأخير، فأرجعه إلى الأحزاب السياسية و الجمعيات ، التي كانت في نظره وبالا على الأمة الإسلامية ، تفرق بدل أن تجمع ، تستنزف جل طاقاتها و أوقاتها، في الصراعات و الخصومات التافهة ، التي تفترض أن لا تنزل إليها ، غير معتبرة بنظيراتها في

أوروبا ، لكي تساهم بفعالية في نهوض مجتمعاتها و قيادتها نحو الوجهة الصحيحة . كل ذلك برأي الإبراهيمي ، دفع ما أطلق عليه " جرثومة التعصب " ،إلى التعاظم على نحو أضحى و كأنها ظاهرة طبيعية ملتصقة بالمسلمين دون غيرهم .

أما أرسلان فقد إهتم بهاته القضية ، التي أطلق عليها عبارة :((التضامن الإسلامي)) ،الذي ذهب على أنه أصيب بالوهن في الضعف في عصره ، لكنه اختلف جذريا في تحليل أسباب ذلك بالمقارنة مع أوردة الإبراهيمي ، حيث ذكر جملة من الأسباب ؛ منها الاشتغال بالقضايا الوطنية أي الداخلة و القطرية ،على حساب القضايا الإقليمية القومية . و الأزمة الإقتصادية العالمية 1929 م، التي أضعفت الجبهة الإقتصادية و الاجتماعية للشعوب العربية و الإسلامية ،و جعلتها عاجزة عن نجدة بعضها البعض بالمال و الغذاء و السلاح ، رغم وجود الرغبة في ذلك . و ذكر أيضا، الإعتقاد الخاطىء لدى بعض الفئات من المسلمين ، و مفاده بأن الجامعة الإسلامية، هي التي أجلت حصول بلدانهم على إستقلالها و سيادتها ، لكون الدول الأوروبية المستعمرة تعارضها، و لا تمانع في وجود دول عربية مستقلة لا تتبنى طرح الجامعة الإسلامية ، وهو إعتقاد حاول الأمير تفنيده و إبطال صحته . و أخيرا ذكر الحركات المعادية للجامعة ، ومنها الطورانية في تركيا و الوطنية في مصر ، التي أضعفت هي الأخرى الإرتباط الإسلامي، و قللت من أهميته . ومنه فان الإختلاف جلي بين رؤيتي الرجلين، لأسباب ضعف الأخوة الإسلامية أو التضامن الإسلامي، اللذان يحملان نفس المدلول .

و واضح أيضا أنهما ، كانا ينظران إلى الجامعة الإسلامية ، كمشروع سياسي و إقتصادي و ثقافي و حضاري ، يتطلب بناءه التدرج فيه ، و عدم التسرع في جني ثماره ، فقد تتعاقب أجيال من المسلمين، و لا تحقق النتائج المرجوة . فالتحدي الكبير ، يكمن في الإنطلاقة الصحيحة ، و المنهج السليم ، و القادة المؤهلين من النواحي الفكرية و السياسية و النفسية ، المخلصين للفكرة ، المقتنعين بجدواها ، و بعد ذلك لا تهم المدة الزمنية التي إستغرقتها ، لأن العبرة بالنتائج المحققة ، لا باقتصاد الوقت .

و إذا كان الإبراهيمي، قد عبر بوضوح عن آرائه في بناء الجامعة الإسلامية، من خلال تركيزه على التربية الإجتماعية ، و جعلها الشرط الأساسي ، الذي لا يمكن إغفاله

أو التساهل فيه ، إذ أراء المسلمون فعلا تكوين جامعتهم على أسس متينة ، بعيدة عن العواطف و الحماسة و الارتجال . على أن تتولاها المؤسسات التعليمية من مدارس و معاهد و جامعات ، و الدينية المتمثلة في الجوامع و المساجد ، و الإعلامية المكتوبة و المسموعة ، وفق منهج تربوي موحد و منتقى بعناية فائقة . و هو بذلك، لم يدعو إلى منهج تربوي إسلامي ، يدفع بالمجتمعات والشعوب الإسلامية ، نحو الوحدة و الارتباط و التعاون فحسب ، و إنما إلى منهج شامل ، يعيد بناء الحياة لدى البلدان الإسلامية ؛ في جوانبها السياسية و الاجتماعية و الاقتصادية و الحضارية ،و يخرجها من الانحطاط و التقهقر الحضاري ، الذي لازمها لعدة قرون .

فإنه و في المقابل؛ قد أظهر أرسلان في تقديرنا بعض التردد ، في ما ينبغي البدء فيه حتى توضع الجامعة الإسلامية في الطريق الصحيح ، فتارة نجده يدعو إلى تفعيل المبادرة السياسية التي تعني بطبيعة الحال القرار السياسي ، فمن الضروري حسبه أن يقتنع القادة السياسيون المسلمون، مهما كانت أشكال الحكم التي يتبعونها ، بالفكرة إقتناعا كله صدق و إخلاص ، و يأخذون الوقت الكافي لإنضاجها وسط الجماهير الشعبية . و تارة أخرى، نجده يلح على الإهتمام بالقاعدة ، من خلال تربية الفرد و المجتمع ،و البلد و العالم الإسلامي . و قد يعود السبب في ذلك في رأينا ، إلى أن أرسلان كان يريد من الحكام و المسؤولين و السياسيين المسلمين ، أن يكونوا هم قادة الدعوة إلى الجامعة الإسلامية ، و المشرفين على إنجاحها مع توفر النية الحسنة و الصدق و الإخلاص و الجدية ، مثلما أشرنا إليه سالفا .

في حين أن الإبراهيمي ، لم يكن متحسما كثيرا لهذا المسلك ، ربما ليأسه من تغيير ذهنيات الحكام المسلمين ، الذين أعرب في أكثر من مناسبة عن عدم ثقته فيهم ، و عقده الأمل على علماء الدين و رجال الإصلاح الحقيقيين ، الذين كان ينظر إليهم على أنهم القادة الحقيقيين للأمة ، و من ثمة فقد دعاهم إلى استرجاع القيادة التي ضاعت منهم ، وأخذها من الحكام الجهلة و الفاسدين.

لعل الذي دفعه إلى ذلك ، هو إيمانه بأن الجامعة الإسلامية ، ليست مشروعا سياسيا ، يترك هكذا للسياسيين، يقررونه متى و كيف و أين يشاءون . بل مشروعا اجتماعيا حضاريا ،

تبنيه بالتراكم الأجيال المتعاقبة ، حتى يستوي بناءه و ينضج. دون أن يعني ذلــك أن أرســلان، كان لا يسلم بفكرة ، إيجاد البيئة الاجتماعية المناسبة ، عن طريق التربية الاجتماعيــة ، التــي تجعل الفرد يقتنع فكريا بالجامعة الإسلامية ،على نحو منطقي و هادئ ([1]) . تماما مثلما ما تقبلا لكثير من الحقائق الدينية الإسلامية ، فتتحول الجامعة إلى مطلب اجتماعي و لــيس سياســي ، و هي إحدى الضمانات الكبيرة لنجاح المشروع .

و عليه فإن المنهج الإبراهيمي، في بناء الجامعة الإسلامية، يعتمد على جهــود العلمــاء و المصلحين و المعلمين ، الذين يضطلعون بالتربية الإجتماعية، التي تنتج أجيالا مسلمة ، تؤمن بالمشروع ، فتدفع بحكامها و قادتها، إلى تبنيه و بذل كل طاقاتهم وجهودهم لكي ينجح . بينمــا يقوم منهج أرسلان ، على المزاوجة بينهما ، ربما إستثمارا للوقت ، أو ضمانا للفعالية و النجاعة لأنه لا يمكن بأية حال من الأحوال ، إغفال العامل السياسي، في مثل هذه القضايا الكبرى .

و فيما دعا الإبراهيمي بإلحاح ، إلى تجاوز الإعتبارات السياسية و الجغرافية والمذهبية ، وتأسيس مرجعية دينية موحدة ، تكون لها الكلمة العليا في كل الشــؤون الدينيــة الإســلامية ، وتضع حدا للفوضى الكبيرة التي كانت تشهدها الساحة الدينية، و خاصة ما تعلق منها بالشــعائر كالصوم والحج . تعضدها منظومة تشريعية واحدة ، تشرع القوانين المســتمدة مــن الشــريعة الإسلامية بالدرجة الأولى ، و تكون بديلا للقوانين السائدة، التي لا يتلاءم جانب كبير منها مــع الخصوصية الإجتماعية و الدينية، و الثقافية للمجتمعات الإسلامية ، لأنها إستوردت من بيئــات غربية مختلفة عنها إختلافا صريحا .

شدد أرسلان، على التكتل الإقليمي و الإقتصادي ، الذي يسمح للمسلمين بالظهور كقــوة سياسية و إقتصادية ، قادرة على إستغلال ثرواتها الطبيعية الهائلة و تصنيعها بنفسها ، تمهيــدا للقضاء على كل أشكال الإحتكار، و الهيمنة الغربية في هذا المضمار ، فلا إســتقلال سياســي بدون إستقلال إقتصادي . و في هذا يبدو الأمير شكيب ، من أوائــل المفكــرين و المصــلحين و السياسيين ، الذين إلتفتوا إلى أهمية التحرر الإقتصادي ، فــي وقــت كانــت كــل الأنظــار و الجهود، موجهة صوب التحرر السياسي .

([1])– ينظر فاطمة خليل : " التربية الإسلامية أداة تغيير الإنسان " ، مجلة المستقبل الإسلامي ، لنــدن : العــدد 03 / جويلية 1992 م ، ص 68 .

خاتمة الفصل :

من خلال ما تم عرضه و تحليله، و مناقشته في هذا الفصل ، الذي تطرقنا فيه إلى الجامعة الإسلامية في آثار الشيخ البشير الإبراهيمي و الأمير شكيب أرسلان ؛ نخلص إلى النتائج التالية :

ان فكرة الجامعة الإسلامية ، جاءت كرد فعل من قادة الإصلاح و النهضة ، على الهجمة الإستعمارة الغربية ، التي إشتدت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر و أوائل القرن العشرين ، ساعية إلى بسط سيطرتها التامة على الأقطار العربية و الإسلامية، في المغرب و المشرق العربيين ، مستفيدة من التردي الشامل، الذي آلت إليه الإمبراطورية العثمانية عسكريا و إقتصاديا و سياسيا ، و من الظروف الدولية، التي تميزت بالتنافس و الصراع و عدم الإستقرار .

بمعنى أن الفكرة لم تستفد من الظروف المناسبة ، و لم تأخذ الوقت الكافي ، حتى تحدد معالمها الفكرية و الفلسفية و السياسية ، كما هو مطلوب في مثل هذه المشاريع الكبرى . فضلا عن كونها لم تكن الجبهة الوحيدة التي ناضل، من أجل تجسيدها المفكرون و المصلحون المفكرون المسلمون الأوائل في عصر النهضة ، فثمة جبهات أخرى شغلتهم في نفس الوقت مثل : التخلف الحضاري ، الغزو الثقافي ، التبشير الديني المسيحي الغربي ، ... إلخ . و هو ما من شأنه أن يوزع الجهود ، و يشتت الأفكار ، و يفتح المجال واسعا أمام الإستعمار الخصم الحاضر في كل تلك الجبهات ، لكي يقوض كل المحاولات الرامية للتصدي للمخططاته ، فيكون في وضع المهاجم، و يكون المسلمون دائما في حال المدافع . و لا شك أن قادة الجامعة الإسلامية الأوائل ، قد استشعروا صعوبة التوفيق، بين كل تلك التطلعات دفعة واحدة ، و في نفس الوقت، كانوا يدركون أنهم يرتكبون خطأ إستراتيجيا فادحا ، إذا هم تخلوا عن جبهة واحدة من تلك الجبهات .

و مهما يكن، فقد مهدوا الطريق أمام القادة الذين جاؤوا من بعدهم ، لكي يغنوا فكرة الجامعة الإسلامية ، بضبط مفهومها ، و رسم الخطوات العملية لتحقيقها ، حتى لا تبقى مجرد شعار أجوف تلوكه الألسن ، و مشروعا حبيس الكتب و الجرائد و المنتديات ،

و الأحزاب و الجمعيات ، التي لا تستقر على رأي، لإغراقها في التنظير أو في الخصومات و الصراعات ،التي لا تكاد تتوقف .

و إذا كان في غير الإمكان ، إنكار الجهود التي بذلها دعاة الجامعة الإسلامية، بداية من السيد "جمال الدين الأفغاني" ، في سبيل إنجاح هذا المشروع الحيوي لنهضة الأمة ، و إعادةالإعتبار لها ، إلا أنه و مع الأخذ في عين الإعتبار الظروف السالفة الذكر ، نسجل أن الفكرة لم تكن واضحة المعالم ، حيث اكتفى أصحابها بوضع أطر عامة ، تفتقد إلى مخطط تفصيلي و دقيق لتجسيد الفكرة . فالأفغاني ذاته؛ دفعه حماسه الشديد ، و رغبته الكبيرة في إنجازها ، إلى التحالف مع السلطان العثماني "عبد الحميد الثاني" ، و هو ما يعني انه كان يراهن على الدور السياسي لإنجاح حلمه ، لكن خيبته كانت كبيرة ، لما إكتشف أن السلطان كان يريد أن يتقوى سياسيا فقط بقادة الجامعة ، للمكانة الشعبية التي كانوا يحضون بها . فدفعه ذلك إلى البحث عن سبل أخرى ، لكنه فشل ، و إنتهى به الأمر إلى أن يكون أحد ضحايا الجامعة الإسلامية ، كما جاء في حديثنا عن إغتياله بالسم . و ربما كان ما حدث للأفغاني مع السلطان ، سببا كافيا لعدم تحمس الإبراهيمي ، للمبادرة السياسية في هذا الاتجاه ، على خلاف الأمير شكيب الذي أشار، إلى ضرورة المزاوجة بين العمليتين السياسية و التربوية .

و الحق أن الإبراهيمي و أرسلان ، قد إجتهدا في تحديد مفهوم واضح للجامعة الإسلامية ، كان في نظرنا أوسع و أشمل من مفهوم القادة الأوائل ، من خلال رسم عدة مستويات لها هما : المستوى الأول ؛ و يشمل جميع الشعوب المسلمة التي تنتمي إلى بلدان أو دول لامية . المستوى الثاني ؛ و ينضوي تحته كل المسلمين المتواجدين، كأقليات دينية في مختلف أنحاء العالم . المستوى الثالث ؛ و يضم الشعوب غير المسلمة، و خاصة المسيحية التي تعيش إلى جانب الشعوب الإسلامية . و أخيرا المستوى الإنساني؛ و يتعلق بالشعوب و الأمم التي تشترك مع الجميع في كونها مضطهدة من قبل الإستعمار ، و تسعى للحصول على حريتها و سيادتها ، و للحاق بركب الرقي و التقدم . و لا شك أنهما بنيا مفهومهما المبتكر هذا، على المفاهيم السابقة ، مع تطعيمه بمفاهيم الوحدة المعروفة آنذاك . و في هذا أبدى أرسلان إعجابه الشديد، و ميله إلى تفضيل النموذج الإنجليزي ، بينما إمتدح الإبراهيمي الوحدة التي حصلت بين

القوميات الباكيستانية ، التي إنصهرت و كونت دولة باكستان الحديثة ، و أعرب عن أمله في أن تكرر في كامل البلدان الإسلامية، فتتشكل الجامعة الكبرى .

و بالرغم من ذلك ، لم يستقر الرجلان على مصطلحات أو تسميات، أو توصيفات ثابتة ؛ فالإبراهيمي للدلالة على الجامعة الإسلامية، يطلق عليها أحيانا:((الرابطة الإسلامية)) و أحيانا أخرى :((الوطنية الإسلامية الكبرى)) ، و حتى:((الحكومة الإسلامية)) . و الأمر ذاته تكرر مع أرسلان حيث كان يوظف تسميات عدة مثل : ((المملكة الإسلامية))، أو ((الخلافة الإسلامية)) ... و غيرها من التسميات، التي يظهر أنها تحمل معاني أو مفاهيم مختلفة ، فلا ريب أن دقة المصطلحات لها أهمية مركزية في ذلك .

و يبدو أن أرسلان ، الذي تحدث مطولا إلى المسيحيين الشرقيين، مفندا كل مبرراتهم؛ بكون أن ولائهم للدول الغربية المسيحية ،هو أمر طبيعي ، يحكم العقيدة المشتركة ، طالبا منهم الانضواء تحت مضلة الجامعة الإسلامية ، التي عدها الفضاء المناسب لهم ، لإعتبارات جغرافية و عرقية و حضارية و مصلحية و تاريخية ، قد نسي أو تغافل عن توجيه الخطاب ذاته لشريحة من طائفته الدرزية ، التي كانت في خصام دائم مع الحكم العثماني ، و أبدت تعاونها مع الإنجليز و الفرنسيين . و حتى أرسلان نفسه ، كان كثيرا ما يتعرض لإنتقادات شديدة من بعض أقطابها ، تتهمه بخيانة مصالح طائفته ، بتحالفه مع خصومها العثمانيين . و لذلك وجدناه في حرج كبير ، وهو يحاول أن يثبت الإنتماء الإسلامي لطائفته، و ولائها السياسي للخلافة الإسلامية .

لقد فرق الإبراهيمي جيدا، بين الجامعة الإسلامية و الخلافة الإسلامية ، فالأولى تعني بالنسبة إليه تحول الحكومات الإسلامية إلى حكومة واحدة، متحدة في مواقفها السياسية . أما الثانية فهي إعتباره، نظاما سياسيا تجاوزته الأحداث ، و لم يعد صالحا عمليا ، و أن البديل الطبيعي له هو الجامعة الإسلامية . أما أرسلان ؛ فقد ظلت الخلافة الإسلامية ممثلة في الدولة العثمانية ، تعني لديه الجامعة الإسلامية ، حتى تم إلغاءها و إنشاء تركيا الحديثة بدلا عنها، و أثناءها حكم بنهاية الجامعة الإسلامية ، و إنتقل بعدها إلى الدفاع عن الجامعة العربية، التي رأى فيها الإطار السياسي الأمثل للعرب ، يكون الإنتماء فيه للعرق العربي و ليس للعقيدة الدينية

الإسلامية . و يبدو أن هذا الإنتقال منطقي، لأن أرسلان إستمات في مواقفه المؤيدة لدولة الخلافة في أحلك ظروفها ، و تمسك بالأمل في أن تستعيد مكانتها السابقة ، مع مباشرة الإصلاح فيها . و الحق أن الإبراهيمي، قد كان موقفه واضحا منذ البداية في هاته المسالة ، بتصوره بأن الجامعة الإسلامية ، كيان سياسي و اقتصادي و اجتماعي، و ثقافي و حضاري جديد ، لا ينبغي تكيفه مع وضع الخلافة العثمانية ، و لذلك وجدناه يرشح دولة باكستان الحديثة، لتكون نقطة الانطلاق للجامعة و ليس تركيا ، لأن أمر هذه الأخيرة محسوم بالنسبة إليه . إذ من العبث محاولة إعادة الروح، لخلافة ظلت طيلة قرون ، عاجزة عن النهوض و العودة من جديد ، و هو و إن رأى ذلك، فإنه لم يعمل ضدها أثناء الحرب ، لكنه لم يخفي تعاطفه و تجاوبه، مع الحركة العربية الناشئة في المشرق .

بدا لنا الإبراهيمي و الأمير شكيب ، متفائلان ، في إستشرافهما لمستقبل الجامعة الإسلامية، رغم توجسهما من الوضع السيئ جدا ، الذي كان عليه حال المسلمين إبان عصرهما ، في كل في بلدانهم المستعمرة أو المستقلة على حد سواء . معربان عن امتعاضهما الكبير، من القادة السياسيين العرب ، الذين لم يفعلوا شيئا ذي بال للقضية ، و من الجبهة الداخلية المتمثلة في الأوساط النخبوية و الشعبية ، التي كانت تفتقد إلى الحد الأدنى من النضج الفكري و الوعي السياسي في هذا المضمار .

و من جهة ثانية، راهن الرجلان كثيرا على القضية الفلسطينية ، لتكون محفزا قويا لعودة التضامن و الإرتباط الإسلامي، إلى مستواهما المطلوب ، لكن خيبة أملهما كانت كبيرة ، لما شاهدا كل يهود العالم غربيين و شرقيين، يهبون لنجدة و دعم الحركة الصهيونية ماليا و عسكريا و سياسيا ، في مقابل تقاعس و تخاذل العرب و المسلمين في نصرة إخوانهم في العقيدة ، و حتى تواطؤ البعض منهم . و قد شهدا معا كيف ، تمكنت العصابات الصهيونية المسلحة رغم قلتها ، من الإستلاء على أغلب أملاك و أراضي الفلسطينيين السكان الأصليين، بالقوة و العنف و إرتكاب المجازر و المذابح، بتاطير وحماية من بريطانيا . و من قمع كل الحركات الشعبية الفلسطينية المقاومة في مهدها ، لتتمكن في نهاية المطاف ، من تأسيس الوطن

القومي اليهودي المزعوم في شهر ماي 1948 م ، الذي شهده الإبراهيمي و غاب عنه أرسلان بسبب وفاته .

لقد مثلت القضية الفلسطينية، إمتحانا أخيرا لاختبار التضامن و التعاطف الإسلاميين ، لكن الجميع سقط فيه بحسب الإبراهيمي و أرسلان ، و هما اللذان حذرا مبكرا من خطورة المؤامرات الدولية، التي كانت تحاك بين الحركة الصهيونية و الحكومات الاستعمارية الكبرى ، مؤكدين على أن التفريط في فلسطين يعني ضياعها على الأبد .

تمثل جملة الأفكار و التصورات ، التي طرحها الإبراهيمي، لوضع الجامعة الإسلامية على أسسها الصحيحة ، منهجا متكاملا ، يعتمد على التنشئة الاجتماعية؛ من خلال دور مؤسسات: المدرسة و المسجد و الجامعة ، التي تتولى تخريج أجيال من الشبيبة الإسلامية ، تدرك أن أوطانها هي جزء لا يتجزأ من مجموعة إسلامية كبرى ، و أن من مصلحتها أن تتعارف و تتقارب و تتواصل، فيما بينها حاضرا و مستقبلا . و لعل الهدف الأساسي الذي توخاه من كل ذلك ، هو الوصول إلى مجتمعات موحدة التفكير و المنازع و الأهواء ، على عكس ما كان حاصلا في تلك الثناء . و يبدو أن الإبراهيمي، يتقاطع في هذا كثيرا مع الشيخ "محمد عبده"، الذي إختار النهج التربوي في الإصلاح، أكثر من تقاطعه مع الأمير شكيب ، و إن كان هذا الأخير كما أسلفنا لم يهمل التربية الإجتماعية .

إن دعوة الإبراهيمي و أرسلان، إلى إستلهام الدروس و التجارب من التاريخ الإسلامي الأول ، يؤكد أنهما من النخبة المفكرة؛ التي تنظر إلى التراث الإسلامي، نظرة موضوعية علمية إستقرائية ، لا تمجده كله و لا ترفض جله ، ففيه من المحطات الحية التي لا زالت صالحة ، لكي تكون قاعدة لبعث الحياة من جديد في الجسد الإسلامي ، الذي تجمد منذ عدة قرون بصفة عامة ، و في إعادة اللحمة بين المسلمين على اختلاف أوطانهم و مذاهبهم و ثقافتهم بصورة خاصة ، باعتبار أن الإسلام قد حث على الوحدة في كل شيء، و جعلها معيارا للتقوى و الإيمان.

و الملاحظ أن الإبراهيمي، خص السيرة النبوية بالتحديد ، التي حفلت بالكثير من المواقف ، التي دلت بوضوح، على أهمية التآخي بين المهاجرين و الأنصار في المدينة

المنورة ، و بين قبيلتي "الأوس" و "الخزرج" ، و التنافس الإيجابي الذي كان بين الجميع، من أجل إرساء دعائم الدولة الإسلامية الفتية و حمايتها، من الخصوم و الأعداء المتربصين بها في الداخل و الخارج ، و نشر الدعوة الإسلامية إلى أوسع نطاق .

إن إبداء أرسلان إعجابه بالنموذج الوحدوي الإنجليزي، و إستفاضته في شرح خصوصياته و إيجابياته ، يدفعنا إلى القول أنه كان يفضل إتحادا فيدراليا، يخضع لسلطة مركزية ، تشترك دوله في السياسات العامة و القضايا المصيرية ، على أن تترك القضايا القطرية للحكومات المحلية ، لأنها أدرى بإدارة شؤونها من السلطات العليا . و هو تصور، لاشك أنه بينه و بين تصور الإبراهيمي اختلاف بين ، سواء تعلق الأمر بالنموذج الباكستاني ، أو بمنظمة المؤتمر الإسلامي التي أنشأت سنة 1969 م، بهدف تعزيز التضامن الإسلامي و التعاون بين الدول العضوة فيها ، و دعم كفاح الشعوب الإسلامية، في سبيل المحافظة على كرامتها و إستقلالها وحقوقها الوطنية ...إلخ ([1]) .

فالنموذج الأول – الباكستاني – أراد الإبراهيمي من خلال تطبيقه، تفعيل الوحدة في كل بلد إسلامي على حدى . أما النموذج الثاني ، فيمثل المرحلة الثانية من الوحدة ، أي أن الجامعة الشاملة تسبقها وحدة متينة بين شتى المكونات الدينية و الطائفية، و المذهبية و العرقية و الثقافية للقطر الواحد . و معناه أنه، رمى إلى جعل الجامعة الإسلامية، تبدأ من القاعدة ، و تنتهي إلى القمة ، بخلاف أرسلان الذي إرتأى أن تكون العملية على الجبهتين .

و في السياق ذاته ، يظهر أن الإبراهيمي و ارسلان، لم يكن يستهويهما النموذجان الوحدويان الألماني و الايطالي ، ربما لإيغالهما في العصبية العرقية أو الدموية من ناحية ، و لكونهما إستغلا تصاعد المد العنصري في القارة الأوروبية، عقب نهاية الحرب العالمية الأولى 1914 م – 1918 م ، و كان من نتائج حرب النهج ، الزج بأوروبا و العالم في حرب عالمية ثانية 1939 م – 1945 م ، كانت و بالا بالدرجة الأولى على الأمتين الإيطالية و الألمانية ، و على البلدان الأوروبية و العالم بدرجة ثانية . و منه فإن الجامعة الإسلامية بالمفهوم الإبراهيمي و الأرسلاني، ليست تكتلا عنصريا، أو عرقيا شبيها بالنازية أو الفاشية ، بل تجمعا قوامه الروابط الدينية أولا، ثم الجوارية ثانيا ، ثم الإنسانية ثالثا .

([1])– للمزيد ينظر عادل بن عمر ، المرجع السابق .

و لا جدال، في أهمية التكتل الإقتصادي ، الذي تحدث عنه الأمير شكيب ، لأنه يسمح للأقطار الإسلامية و خصوصا العربية ، التي تتوفر على موارد إقتصادية هائلة ، من إستثمارها بنفسها ، بعيدا عن الشركات الرأسمالية الكبرى ، التي إستغلت التآخر الحاصل في هذا المجال ، و راحت تستنزف تلك الثروات الباطنية و السطحية، في ما يشبه عمليات نهب مقننة ، توفر لأصحابها مداخيل طائلة، و لإقتصادات دولها المواد الأولية الحيوية لصناعاتها ، مقابل أثمان رمزية تدفعها للحكومات لا تعكس قيمتها الحقيقية ، و لا تمكنها من تحقيق التنمية الإجتماعية و الإقتصادية المطلوبة . و لاشك أن التكامل، سيسمح للبلدان الإسلامية الفقيرة ، بتوفير ما تحتاج إليه من مواد أولية تفتقدها . لكن العقبة الكبيرة ستظل، في غياب نهضة إقتصادية حقيقية ، تحول تلكم الدول من مستهلكة للمنتوجات الأجنبية ،إلى منتجة لها. عندئذ يمكن الحديث عن تكامل إقتصادي حقيقي، مثلما هو حاصل في أوروبا و أمريكا، و رابطة المستعمرات البريطانية (الكومنويلث) . فالتبعية الإقتصادية، هي التي تفقد الدول و الأمم ، سيادتها السياسية و الإقتصادية و الثقافية ، و لعلها أحد أكبر أسباب فشل كل المحاولات التي جرت لحد الآن .

نعتقد أن اعتبار الانتماء الدين الإسلامي ، جوهرا للجامعة الإسلامية ، سيظل يشكل نقطة تجاذب مع التيارات الاجتماعية و السياسية الممثلة للطوائف غير الإسلامية ، التي رغم أنها تشكل أقليات دينية و مذهبية ، إلا أن بعضها تمثل مركز ثقل سياسي و اجتماعي و إقتصادي معتبر ، و خصوصا في الشرق العربي . فلا يكفي دعوة هؤلاء، للانخراط في مسار الإتحاد ، دون التفكير ربما في أشكال و صيغ أخرى لانضوائها . كما لا يمكن أن نغفل الانقسامات ، الأساسية الحاصلة داخل المجموعة الإسلامية نفسها ، بين السنة و الشيعة ، بل أن منها من يلغي الآخر من الدائرة الإسلامية، و هكذا دواليك . و لسنا ندري إلى أي مدى، سيتمكن فيه علماء الدين الإسلامي ، من تقليص الفجوة الحاصلة بين المذهبين بشكل خاص ، و بين المذاهب الأخرى بصورة عامة ، كما ذهب إليه الشيخ البشير الإبراهيمي .

و صفوة القول ، أن الأمير شكيب، قد جعل من الجامعة الإسلامية ، فضاء دينيا و سياسيا و اقتصاديا و عسكريا، و حضاريا و إنسانيا ، يتسع للجميع عربا مسلمين ، ومسلمين

غير عرب ، و عرب مسيحيين ، و كل المستضعفين في الأرض ، الذين تجمعهم مع المسلمين وحدة الواقع و المصالح المشتركة . و هو مفهوم شامل ، أكد من خلاله أن الجامعة الإسلامية ، ليست تكتلا عنصريا كما يبدو للوهلة الأولى، من خلال تسميتها . كل ذلك من أجل مجابهة الاستعمار الغربي ، الذي حاربها بالوطنيات الضيقة ، المجردة من العقيدة الدينية ، التي تشكل تحديا أساسيا و خطيرا، على مصالحه الاقتصادية و السياسية في البلاد الإسلامية . و من ثمة، فقد راهن على إستمرار الفرقة و التشتت لأمد أطول ، ضمانا لديمومة تلك المصالح .

و لذلك قدر الأمير شكيب ، أن الاختلاف في العقائد الدينية ، لا يؤدي بالضرورة إلى الاختلاف في العقائد السياسية ، بمعنى أن الاختلاف في الدين ، لا يمكنه أن يلغي الروابط الأخرى التي سبقت الإشارة إليها ([1]) . فالتحدي الاستعماري ، يدفع الجميع إلى الوحدة ، مهما كانت أعراقهم و أديانهم و مذاهبهم ، بل أنه الحل الوحيد، الذي يمكنهم من التحرر من قيود الاستعمار ، التي لا قبل لهم بها ، إذا حاولوا التخلص منها و هم منفردين و متفرقين .

لكنه حل لا فاعليه له ، إذا لم يصاحبه تصميم و إرادة ، على الخروج من مأزق الجهل و التخلف و الجمود ، باستيعاب الأسباب التي أدت إلى نهضة البلدان الاستعمارية نفسها ، مع المحافظة على المقومات الحضارية الذاتية ، التي تشكل صمام أمان ، أمام الذوبان في ثقافة الآخر، المختلف عن المسلمين عقائديا و ثقافيا . و بذلك تكون الوحدة أو الجامعة الإسلامية، حتمية و ليست خيارا ، للمسلمين و لغيرهم ، إنهم قصدوا فعلا هزيمة الاستعمار و التخلف معا.

و مهما يكن ؛ فإن الأفكار و التصورات التي أوردها الإبراهيمي و أرسلان، بشأن الجامعة الإسلامية ، عملية في الكثير من جوانبها ، تحتاج فقط إلى إرادة كل المكونات في البلدان الإسلامية : القادة السياسيون ، و النخبة المثقفة، و الفئات الاجتماعية العريضة ، التي يمكن لها أن تتخذ من الإرث الفكري، الذي خلفه مناصرو الجامعة الإسلامية ، نقطة ترتكز عليها في بعث المشروع ثانية ، مع تكييفه و أحوال العصر التي تغيرت كثيرا عنه ، بالمقارنة مع ما كانت عليه في عصر الإبراهيمي و أرسلان ، اللذان ربطا نجاح الوحدة ، بربح المعركة الاقتصادية و الثقافية و العلمية ، و هو ما لم يحصل بعد وفاتهما .

([1])– احمد الشرباصي : شكيب أرسلان داعية العروبة و الإسلام ، مرجع سابق ، ص 147 .

تمهيد :

عالجنا في الفصل المنصرم، موضوع الجامعة الإسلامية في آراء الإبراهيمي و أرسلان، و توصلنا إلى أنهما إختلفا نسبيا، في مفهومها و في خطوات أو مراحل إنجازها ، لكنهما إتفقا على أهميتها البالغة، في حاضر و مستقبل الشعوب العربية و الإسلامية، على كل المستويات و الأصعدة . و في هذا الفصل، الذي يتطرق إلى الوحدة العربية في آثار الشخصيتين ، سنحاول الوقوف من خلاله؛ على آرائهما و أفكارهما من قضية الوحدة العربية ، التي أخذت هي الأخرى حيزا كبيرا من إهتماماتهما الفكرية و نشاطاتهما السياسية ، خاصة بعد نهاية الحرب العالمية الأولى، التي أدت إلى طرد العثمانيين من المشرق العربي ، و فترة ما بين الحربين ، التي شهدت فيها العلاقات الدولية جوا من التوترات السياسية و العسكرية، بين القوى الإستعمارية الكبرى، انتهت باندلاع حرب كونية ثانية ، كانت نتائجها هذه المرة حاسمة و مؤثرة، في تشكيل صورة المجتمع الدولي .

و بطبيعة الحال لم تكن البلاد العربية ، طرفا مؤثرا في تلك الظروف و إنما متأثرا بها . و لعل أكبر عامل دفع بالإبراهيمي و بارسلان ، الى تبني الفكرة الوحدوية العربية ، هو إلغاء الخلافة العثمانية على المستوى الرسمي، بعد أن إنتهت على أرض الواقع منذ زمن طويل . دون أن يعني ذلك، أنهما يطرحان الجامعة العربية كبديل للخلافة العثمانية ، و إنما كإطار طبيعي فرضته الأوضاع الجديدة، التي أفرزتها الحرب العالمية الأولى.

و عليه فقد قسمنا هذا الفصل إلى أربعة مباحث ؛ قدمنا في الأول صورة عامة عن جذور تيار القومية العربية، التي ترجع إلى النصف الثاني من القرن 19 م ، ثم عن أهم المراحل التي مر بها إلى غاية نهاية الحرب العالمية الثانية . بينما تحدثنا في المبحث الثاني، عن بواعث الوحدة العربية بحسب الإبراهيمي و أرسلان ؛ حيث أجمعا على أنها عديدة، و يأتي على رأسها مقاومة الهيمنة الاستعمارية، و محاربة التخلف الشامل الذي كانت تحياه الشعوب العربية بدون إستثناء . أما المبحث الثالث، فقد تطرقنا فيه إلى دفاع الإبراهيمي و ارسلان -على الترتيب- عن عروبة عرب المغرب العربي و الطائفة الدرزية، و موقعهما الأساسي في حركة الوحدة العربية . أما المبحث الرابع، فقد إستعرضنا فيه، الخطوات العملية التي إقترحها الرجلان،

لوضع مشروع الوحدة العربية، موضع التجسيد في الميدان . هذا و قد أتبعنا كل مبحث من المباحث السابقة، بمقارنة شاملة بين ما أورده كل منهما و بخاتمة .

و حري بنا هنا إلى الإشارة أن ،الشيخ البشير و الأمير شكيب ، لم ينظرا إلى الوحدة العربية، نظرة عرقية أو عنصرية ضيقة، كما يبدو من الوهلة الأولى ، بل نظرة سياسية و إقتصادية و ثقافية و حضارية، تتجاوز إلى أبعد الحدود العرق أو اللون، هذا من جانب . و من جانب آخر، أنهما لم يريا أي تعارض بين الوحدة العربية و الجامعة الإسلامية ؛ فالأولى كانت حسبهما مجرد خطوة أولى فقط، في طريق تشييد الثانية التي تعد الأوسع و الأشمل و الأكثر قوة و فعالية، على اعتبار أنها تضم كل المسلمين في العالم . بما فيهم المسلمين العرب ، و منه فقد ربطا نجاح الثانية بنجاح الأولى ، و هو لا شك تصور صائب ينم عن سعة في التفكير ، و بعد في النظر .

المبحث الأول : تيار القومية العربية : الجذور و التطور :

القومية رابطة إجتماعية و سياسية ؛ تعني انتماء الشخص إلى أمة معينة و ولائه لهـا ، أي أنها تتضمن مدلولا مزدوجا : إجتماعي و سياسي كلاهمـا مـرتبط بـالآخر ؛ فالمـدلول الإجتماعي : ((يبرز كيان القومية بإعتبارها رابطة تربط الفرد بكائن إجتماعي ، هو الأمـة ، يتحد أفرادها في اللغة و التاريخ و الثقافة و المصلحة المشتركة . و قوام هذه الرابطة ، يتكـون من ذات المقومات التي تقوم عليها الأمة)) . أما المفهوم السياسي لها – القومية – يفيد بأنهـا : ((عقيدة سياسية قوامها الشعور القومي ، الذي يدفع أبناء الأمة إلى الإعتقاد ، بأنهم مجموعـة بشرية متميزة عن غيرها من الجماعات ، لها كيانها الذاتي و تطلعاتها القومية ، و من حقها أن تنتظم في وحدة سياسية مستقلة عن غيرها ، و تنظم كيانها القومي تنظيما إجتماعيـا و سياسـيا و إقتصاديا بما يحقق شخصيتها القومية)) . و لقد دفعا هذان المدلولان ، بالباحثين إلى التمييـز بين القومية في حد ذاتها،و إلى التمييز بين القومية كرابطة إجتماعية من ناحية، و كمبدأ أساسي من ناحية أخرى ؛ فالمعنى الأول يشير إلى القومية في حالة سكونها ، بينما الثاني يرمـز إلـى القومية في وضعية الحركة، و سعي أبنائها إلى تنظيم كيانها القومي . و قد إستندوا فـي هـذا التمييز ، إلى التطور التاريخي للقومية ، حيث لازمت بعض مظاهر القومية الإنسان منذ القدم ، في حين أن حركة القومية ، تعتبر ظاهرة سياسية حديثة ، عرفتها الشعوب الأوروبية مع الثورة الفرنسية ، إذ لم يسبق لها أن وجدت قبل ذلك العهد ([1]) .

و للشعور القومي مظاهر عدة منها ؛ الإفتخار بفضائل الأمة و إظهار مساوئ أعدائها ، و التباهي بمنجزاتها و دورها في الحضارة البشـرية ، و تخليـد أعمـال عظمائهـا الأبطـال و الموهوبين من أبنائها ، الولاء الكامل لكل القضايا القومية و التضحية من أجلها، بغض النظر عن معارضتها أو موافقتها للمصالح الفردية أو الطبقية، أو المحلية أو الإقليمية .

يتفق أغلب الباحثين،على أن القومية فكرة حديثة ، ترجع في أقصى تقـدير إلـى نهايـة القرن 18 م و بداية القرن التاسع عشر ، و بلغت أوجها خلال هذا الأخير ، بفعل إنتشار مبادئ

([1])– محمد محمود بوعياد ، و آخرون ، المرجع السابق ، ص 231.

الثورة الفرنسية ؛ و منها حق الشعوب في تقرير مصيرها ، و قيام التنظيم السياسي للمجتمع الدولي بناءا على الدولة القومية، التي تشمل أبناء الدولة الواحدة . و هو السبب، في إطلاق تسمية " عصر القوميات " على هذا القرن . و تجدر الإشارة في هذا المقام ، أن فكرة القومية ، قد تعرضت لهجوم شديد في نهاية القرن التاسع عشر، و بداية القرن العشرين من جهات عدة ؛ منها دعاة الإتجاه العالمي و أصحاب النظرية الفكرية الشيوعية ، لكنها تمكنت من الإنتصار عليها ، بعد أن إنهار الاستعمار وإستقلت شعوب المستعمرات ، حيث عملت الدول المستقلة حديثا ، على إقامة دولها على أسس قومية ([1]) .

ينبغي الإقرار، انه من الصعوبة بمكان ، تحديد تاريخ لبداية الحركة القومية العربية ، بفعل إختلاف الظروف السياسية و الإجتماعية و الإقتصادية في الأقاليم العربية ، بالنظر الى سقوط القسم الإفريقي منها تحت الهيمنة الإستعمارية الأوروبية إبان القرن 19 م ، في حين أن القسم الأسيوي ظل خاضعا للدولة العثمانية إلى غاية الحرب العالمية الأولى ، ثم سقط هو الآخر في يد الإستعمار الأوروبي و من زاوية أخرى ، فقد إختلفت أراء الباحثين حول قضية تكييف ، تلك الحركات السياسية التي شهدتها البلاد العربية أثناء القرن 19 م ، فثمة من وصفها بكونها حركة قومية ، في مقابل البعض الآخر الذي نظر اليها، على أنها مجرد حركات سياسية فحسب ؛ تفتقد لبعض مقومات الحركات القومية . أما نقطة الإتفاق بينهم ، فهي إعتبار بداية القرن التاسع عشر ، و بالضبط الحملة الفرنسية على مصر ، البداية الحقيقية للحركة القومية العربية، ليس في كامل الوطن العربي ؛ بل في بعض أجزائه التي إنتفضت لبناء دولة عصرية من جهة أولى ، و لإستيقاظ الشعور الوطني ، الذي تطور فيما بعد إلى شعور قوي من جهة ثانية ، و لبروز يقضة فكرية مهدت الطريق للفكر القومي من جهة ثالثة ([2]) .

و بما أن الفكرة القومية،التي إعتنقها العرب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، و بداية القرن العشرين أوروبية الأصل ، فإنها إنتقلت إليهم لأنها وجدت الظروف المواتية في تلك الفترة الزمنية بالذات ، حيث كانت بلاد الشام عامة مهدها الأول و لبنان تحديدا ، لعدة عوامل يمكن حصرها فيما يلي :

([1])- ينظر محمد محمود بوعياد ، و آخرون ، المرجع السابق ، ص 245 و ما بعدها .

([2])- ينظر المرجع نفسه ، ص ص 335 – 336 .

01 – وصول أصداء الحركات القومية ، التي اشتدت إبان القرن التاسع عشر في أوروبا الوسطى و الشرقية ، فقد وصف هذا القرن بقرن القوميات و التحرر القومي في أوروبا ، كما سميت سنة 1848 م بربيع الشعوب ، إذ عرف إندلاع حركات قومية و ليبرالية عنيفة في القارة الأوروبية عامة، و في وسطها و شرقها خاصة ، فضلا عن تحمس فئة هامة من الأوروبيين و الأمريكيين ، لتحرير اليونان مهد الحضارة الأوروبية و الغربية عموما من الهيمنة العثمانية .

02 – تمكن بعض القوميات الأوروبية، من الإنفصال عن الإمبراطورية العثمانية ، بعد نضال مرير معها ؛ مثل صربيا (SERBIE) في بداية القرن 19 م ، و اليونان سنة 1832م و بلغاريا عام 1878 م .

03 – نجاح الوحدتين الإيطالية و الألمانية، في الستينات و السبعينات القرن 19 م .

04 – حملة "نابليون بونابرت" على مصر (1798 م – 1801 م) ، التي كانت حملة عسكرية و علمية ، جعلت النخبة المصرية ، تدرك الفرق الشاسع بين العالم الإسلامي و أوروبا (*) .

05 – البعثات الطلابية ، التي أرسلها " محمد علي باشا "والي مصر إلى أوروبا (**) .

06 – بداية إنتشار التعليم العصري ، في الإمبراطورية العثمانية .

(*)– فقد جاء مع الحملة عدد معتبرا من كبار العلماء ؛ مثل : " برتولاي " – BERTHOLLET – ، كونتاي – CONTE – ، دونان – DONON – ، مونج – MONGE – ، دولوميو – DOLOMIEU – ... إلخ . و ذهب بعض المؤرخين الى تقدير عددهم بـ : 4 مهندسين عمرانيين ، 4 علماء فلك ، 3 علماء صيدلة ، 12 طبيبا و جراحا ، 15 أدبيا و عالما إقتصاديا و عالم آثار ، 8 كميائيين و فزيائيين ، 10 مستشرقين ، 15 مهندسا جغرافيا ، 15 مهندسا في قياس الأراضي ، 21 ميكانيكيا ، 5 مهندسين في صناعة السفن ، 18 مهندسا في الجسور و الطرقات ، 4 علماء المعادن ، 5 علماء في النبات ، 8 غير معروفي الإختصاص ، 6 خبراء في الطباعة . و لا شك أنه عدد هائل من العلماء و المهندسين و الخبراء ، الأمر الذي يؤكد أنها لم تكن حملة عسكرية فحسب بل علمية أيضا، و حتى الفنانين و الموسيقيين كان لهم حضورهم أيضا ، حيث قدر عددهم بثمانية ، الهادي التيمومي ، المرجع السابق ، ص 56 .

(**) – قدر عدد الطلبة الذين أرسلهم "محمد علي باشا" إلى أوروبا ، بين 1818 م و 1848 م بأكثر من 330 طالبا ؛ 230 طالبا منهم نحو فرنسا ، 95 إلى بريطانيا ، 14 نحو بقية الدول الأوروبية . للتخصص في مجالات الصناعات و العلوم الهندسية (310 طالبا) ، الطب (15) ، العلوم الإنسانية (22) ، الزراعة (02) . الهادي التيمومي ، المرجع نفسه ، ص 56 .

07 – إزدهار الترجمة و النقل ، اللذان سمحا بنقل جزء معتبر من التراث الأوروبي ، فضلا عن إنتشار الطباعة و الصحافة ، خاصة في مصر و لبنان و تونس .

08 – السياحة و الأسفار ، و الإحتكاك بالتجار و السياح الأوروبيين، الوافدين على الإمبراطورية العثمانية .

09 – رجوع بعض المهاجرين اللبنانيين من أمريكا ، حيث تعلموا هنالك مفهوم القومية ،باحتكاكهم بالقومية الأمريكية .

10 – دور حركة الإستشراق .

11 – تشبع بعض المثقفين العرب ، الذين استقروا بباريس، فرارا من بطش "السلطان عبد الحميد الثاني" ، بفكرة القومية السائدة هنالك، و التي كان قوامها الثأر من الألمان، الذين إستولوا على مقاطعتي "الألزاس" و "اللورين" في حرب 1870 م ، التي هزم فيها "بسمارك" فرنسا هزيمة مذهلة .

12 – ظهور تيار في أوساط المسيحيين السوريين ، مشكك و معادي للعقائد الدينية ، و مدافع عن الإلحاد . علاوة على التعصب الديني ، و الصراع العنيف الذي كان مستحكما، بين الطوائف الدينية المسيحية .

13 – قيام فرنسا و خاصة بريطانيا ، بتشجيع القومية العربية ، بفرض الضغط على الإمبراطورية العثمانية ، التي كانت سائرة في طريق التحالف مع ألمانيا، منذ أواخر القرن 19 م . و قد كانت إستراتيجية بريطانيا، ترمي إلى تقسيم العالم الإسلامي إلى ثلاثة أقطاب ؛ القطب التركي و القطب الإيراني و القطب العربي ، و اجتهدت في تشجيع كل الأطراف المناوئة للعثمانيين، كالبروتستانت في لبنان ، و "آل الصباح" في الكويت ، و "آل سعود" في الحجاز و غيرهم (*) .

(*) – إحتضنت بريطانيا و فرنسا الحركة العربية الثائرة ، و تنافستا في السيطرة عليها ، فكان الإنجليز يتولون حماية كل متمرد من مصر ، و يحولون دون أن يبطش به الأتراك ، و الأمر ذاته كان الفرنسيون يقومون به مع المتمردين المسيحيين في بلاد الشام ، مدعين الحق لأنفسهم في حمايتهم ، و قد وصل هذا التنافس إلى حد إحتضان بعض الضباط العرب لدى الطرفين . منذر معاليقي ، المرجع السابق ، ص 187 .

كل هذه العوامل، ساعدت على ولوج الفكرة القومية إلى البلـدان العربيـة ، و سـمحت بظهور نخبة عربية مطلعة و متفتحة بشكل أو بآخر، على الفكر القومي الأوروبي . فلـم تعـد أسماء مثل " إرنست رينـان " (E . RENAN) (**) و مـازيني " (G. MAZZINI)، أو " غاريبالدي " (GARIBALDI) أو " فيختة " (J. FICHTE) (*)،غريبة عن الأوساط القومية العربية . و قد راجت الفكرة القومية على نطاق واسع ، و اتخذت عدة أشكال ؛ فمنهـا التي اقتصرت على مجالات جغرافية محـدودة (القوميـة اللبنانيـة، السـورية، المصـرية ، التونسية،... إلخ) و منها من نظر إلى القومية نظرة أوسع ، تشمل العـالم العثمـاني بأكملـه، أو المجال العربي ([1]) .

و إذا كان في حكم المؤكد ، أن الفكرة القومية العربية الحديثة ، كانت انعكاسا للحركـات القوميات الأوروبية التي مرت بها ، فإنها عرفت تأخرا قبـل أن تظهـر فـي نهايـة القـرن التاسع عشر ، لسببين أساسيين هما :

01 – غياب المفهوم القومي ؛ بفعل هيمنة خطاب الدعوة إلى الجامعة الإسلامية ، التي جعلـت من الدين رابطة أمثل لجمع شمل الجميع و صيانة حريتهم و كرامتهم ، فهو العامل حسبهم الذي وحد بين القبائل و الأجناس و صهرهم في أمة واحدة . أما النظريـات الحديثـة مـن قوميـة و وطنية ، فهي في اعتبارهم ، حيل صنعتها القوى الأجنبية الاستعمارية و حلفائها ، لكي تنهب بواسطتها ثروات العرب و المسلمين الاقتصادية ، و تبسط سيطرتها على بلدانهم ، و لهذا آثـر العرب عدم الثورة على الحكم العثماني .

(**) – أرنست رينان (E. RENAN) (1823 م – 1892 م) : أديب فرنسي ، إهـتم بدراسـة اللغـات السامية و تاريخ الديانات بعد أن تخلى عن دعوته الإكليريكية . أعرب عن فقدانه الإيمان و إتجاهه للعقلانية التي عبر عنها في كتبه : " مستقبل العلم " ، " تاريخ نشأة المسيحية " ، المؤلف من عدة أجزاء و كان الجزء الأول منه بعنوان " حياة يسوع " ، الذي أحدث تأثير واسعا في أوروبا . زرا كل من لبنان و فلسطين حيث قام بها بعدة تقنيات أثرية . المنجد في اللغة و الأعلام . .

(*) – " يوحنا فيختة " (J . FICHTE) (1726 م – 1814 م) : فيلسوف ألماني ، تأثر في بداية الأمـر بتعاليم الفيلسوف " كانت " ، ثم تحول إلى فلسفة مثالية محورها " الأنا " . المنجد في اللغة و الأعلام .

([1])– للمزيد ينظر الهادي التيمومي ، المرجع السابق ، ص 55 و ما بعدها .

02 – طبيعة النظام العثماني ، الذي تمكن من تغييب المفاهيم القومية، و طمس الرغبات المشتركة ، مستفيدا من التأخر الحاصل في قطاع خطوط المواصلات و وسائل النقل و الاتصالات الحديثة ؛ التي ظلت لفترة طويلة من الزمن شبه معدومة ، إلى غاية وصول "محمد علي باشا" إلى الحكم في مصر ، الذي قام بإصلاحات شاملة ، حطمت ركائز النظام الاقتصادي – الذي جمد الحياة و منع الاتصال و الاحتكاك بالخارج – ، و أعاد تجديد نمط العلاقات الاجتماعية و الاقتصادية ، و أعرب صراحة عن رغبته في إقامة دولة الوحدة القومية بين سوريا و مصر ([1]) .

و هكذا يتبين أن الدولة العثمانية ، قد استطاعت بفعل رابطة الدين الإسلامي ، و نظامها الإقطاعي المتخلف و المنغلق ، أن تكبح جماح تطلعات القوميين العرب ، الذين كانوا شديدي التحمس للفكر القومي المتأجج في أوروبا ، و الرغبة في أن تكون لهم كياناتهم الخاصة بهم . لكنها وقفت عاجزة في نهاية المطاف ، عن مقاومة التيار القومي العربي المتنامي في المشرق العربي عامة و بلاد الشام خاصة ، الذي استفاد من التضعضع العام الذي كانت عليه الإمبراطورية ، و تزايد الحمية العربية ضدها ، ردا على استمرارها في تجاهل المطالب القومية العربية ، تحت غطاء الجامعة الإسلامية ، و بفعل تعاظم دور العناصر التركية المعادية للشعوب العثمانية و بخاصة العربية . هذا و يمكن أن نحصر التطورات التي عرفتها فيما يلي :
كانت بلاد الشام (سوريا ن لبنان ، فلسطين ، الأردن)، المهد الأول لليقظة الفكرية العربية ، التي كان من نتائجها بروز وعي سياسي، بين صفوف عدد من المثقفين الذين جمعوا بين الثقافتين العربية و الأوروبية ، تحول بمرور الزمن إلى وعي قومي، تجلى في الثورة العربية التي اندلعت أثناء الحرب العالمية الأولى . و قد اختلفت ظروف الشام عن غيرها من البلاد العربية و خاصة الإفريقية منها ، ففي البلاد الشامية سجل الاحتكاك الدائم بين العنصرين العربي و التركي خصوصا ؛ مع تزايد تقهقر الدولة العثمانية منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، و كان من نتائجه ازدياد التدخل الأجنبي في شؤونها الداخلية ، و استمرارها في التقاعس عن اللحاق بركب التقدم ، و إدارة ظهرها لكل دعوات الإصلاح الإداري و الدستوري في مقابل الانتشار الواسع لمبادئ الثورة الفرنسية، و الأفكار القومية في كل مكان من العالم .

([1])– للمزيد ينظر منذر معاليقي ، المرجع السابق ، ص 175 و ما بعدها .

و اتجهت الأمور نحو المزيد من التآزيم ؛ مع ظهور الحركة الطورانية، التي كانت غايتها إعلاء شأن القومية التركية على حساب القومية العربية ، فأفرزت محاولات لتتريك الدولة العثمانية ، الأمر الذي حرك شعور العرب بالكراهية ضد الأتراك ، و دفعهم إلى التماسك للوقوف في وجه نظام الحكم العثماني المستبد و الفاسد ، بالحفاظ على مقوماتهم ، و إظهار خصوصيتهم الذاتية التي تختلف عن نظيرتها التركية .

و يعود الفضل في ذلك للأقلية المسيحية ، التي تشبعت بالثقافة الأوروبية عن طريق الإرساليات التبشيرية ، و أدركت عظمة التراث العربي و حاجته للإحياء و التجديد ، فراحت تتفاخر به و تعتز بنسبها العربي، و بالحضارة العربية الإسلامية ؛ التي اعتبرتها إرثا مشتركا بين المسلمين و المسيحيين و اليهود على حد سواء . و في الوقت ذاته ، أظهرت تبرمها من الحكم التركي و كراهيتها للأتراك ، لكونهم أجانب و دخلاء عن تلك الحضارة ، فحصلت لديها القناعة بضرورة الانفصال عن الدولة العثمانية ، يدفعها في ذلك إحساسها بأنها تعيش على هامش الحياة السياسية ، بسبب التمييز الممارس ضد أفرادها لكونهم عرب مسيحيين و ليس مسلمين .

كل ذلك، جعل البيئة الاجتماعية الشامية ، جاهزة لظهور الفكرة القومية لدى النخبة المسيحية المثقفة ، على خلاف المسلمين الذي لا زالوا إلى غاية تلك الأثناء، متمسكين بالفكرة الإسلامية ، رغم اتفاقهم على وجوب استعادة التراث العربي و الإسلامي و حمايته . و جوهر الخلاف بينهما، كان حول التنظيم السياسي للكيان العربي ؛ حيث كان المسيحيون من أنصار الانفصال التام عن الدولة العثمانية، و تكوين دولة خاصة بالعرب ، في حين كان المسلمون يعتقدون بإبقاء الارتباط معها . و قد استمر هذا الخلاف حتى مطلع القرن العشرين ، حيث ضم المسلمون صوتهم لصوت المسيحيين ([1]) .

هذا و قد ظهرت الفكرة في بادئ الأمر ، في صورة نهضة لغوية و أدبية (ظهور الرواية و المسرح ... إلخ) ، أساسها التعليم و التأليف و الصحافة ، بدافع من المبشرين المسيحيين ، و بتجاوب من أفراد الطوائف المسيحية ، و من المثقفين الذين نهضوا بالأدب و اللغة العربية في هذه المرحلة : " فرنسيس فتح الله " ، "مراش" و أمين الشميل " ، "يوسف

([1])- محمد محمود بوعياد ، و آخرون ، المرجع السابق ، ص 352 ، 353 ، 354 .

الأسير " ، " ميخائيل مشاقة " ، " بطرس البستاني " ، " ناصيف اليازجي " ، " إسحاق و يعقوب صروف " ، " عبد الرحمان الكواكبي " ، " أمين الريحاني " ... الخ . أما المبشرون فنذكر منهم : الطبيب و المبشر الأمريكي " كورنيليوس فانـدايك " (C.VANDYCK) (1818 م – 1895 م)، الـذي كـان يـتقن اللغـات اللاتينيـة و اليونانيـة و الهولنديـة، و العبريـة و السريانية و اللغة العربية ، و إليه يعود الفضل فـي تحقيـق العديـد مـن الكتـب العلميـة بالعربية ، و سار على دربه المبشرون البروتستانت و الكاثوليك ، و أساتذة الجامعتين الإنجيلية و اليسوعية و خاصة الأمريكيين منهم ، الذين درسوا باللغة العربية علـوم الطـب و الفيزيـاء و الرياضيات .

هذا و لا يمكن أن نهمل في هذا الصدد ؛ دور الجمعيات الثقافية مثل : " الجمعية السورية لإكتساب العلوم و الفنون " ، التي تأسست عام 1847 م في بيروت من قبل وجهاء المدينة مـن المسيحيين بمعاونة المبشرين الأمريكيين ، و كان من أبرزهم " ناصيف اليازجي " و " بطـرس البستاني "، و " الجمعية المشرقية " (1850 م) ، التي كان رائد فن التمثيل المسرحي العربـي " مارون النقاش " أحد أهم أعضائها . و " الجمعية العلمية السورية " (1857م)، التي تعد أول جمعية عربية جهرت بالقومية العربية ، عبر صوت شاعرها "إبراهيم اليازجي" الـذي أطلـق قصيدة في ذلك ، تحولت إلى نشيد لكل القوميين العرب ، و قد جاء في مطلعها :

تنبهوا واستفيقوا أيها العرب فقد طمى السبيل حتى غاصت الركب

فيم التعلل بالآمال تخدعكم و أنتم بين راحات القنا (*) سلب

و من الجمعيات أيضا : " زهرة الإحسان " ، " شمس البر " ، " زهـرة الآداب " ، " المقاصـد الخيرية " . و قد كانت المحاضرات و المسامرات و المناقشات، التي تدور في هذه الجمعيات ، يتم التركيز فيها على الفضل الكبير للعرب على الحضارة الإنسانية ، و وجوب عودة العـرب إلى مسرح الأحداث .

و لعبت بعض الصحف و المجلات، التي اشتهرت بلغتهـا العربيـة القوميـة ، دورا لا يستهان به في إعادة الحياة للغة العربية و آدابها ، حيث اعتبرت الفترة الممتدة بـين 1860 م – 1882 م، من أغنى الفترات في تاريخ الصحافة العربية ، و من أكثرها تأثيرا في التكوين

(*) – القنا: العبودية . المنجد في اللغة و الاعلام .

السياسي، للنخبة العربية المثقفة في الحواضر الكبرى مثل: تونس و حلب و دمشق و القاهرة و بيروت ، و منها على سبيل المثال : " حديقة الأخبار " التي أسسها "خليل خوري" عام 1858 م ببيروت ، " الجوائب " (1861م) التي أصدرها " فارس الشدياق " في الأستانة ، " الجنان " (1870 م) " لبطرس البستاني " ، " المقتطف " لفارس نمر" (1876 م) و " يعقوب صروف " ، " المقطم " (1888 م) بمصر ، " الهلال " (1892م) " لجورجي زيدان " ، " الضياء " (1898 م) بيروت " لإبراهيم اليازجي " .

و علاوة على ذلك ، فقد شهدت هذه المرحلة أيضا، إنتاجا أدبيا غزيرا ، ظهر في مؤلفات قيمة أغنت اللغة و الأدب العربي القديم ، كمعجم "محيط المحيط "، و "دائرة المعارف العربية " التي جاءت في ستة أجزاء " لبطرس البستاني " ([1]) .

و من ذلك يتضح لنا، أن الرواد الأوائل للقومية العربية ، قد استندوا على العامل اللغوي و العلاقة الحضارية الثقافية ، التي من شأنها صهر أبناء الوطن الواحد ، مهما تباينت شرائعهم و دياناتهم في وحدة متجانسة ، معتبرين إياهما باعثا نهضويا للأمة العربية – المستغرقة في التخلف و الانحطاط – انطلاقا من إدراكهم أن العروبة ليست عرقا أو جنسا، و إنما لغة و حضارة ([2]) . لكن هذه المطالب الثقافية ، تحولت تدريجيا إلى مطالب سياسية كما سيتضح في المرحلة الموالية .

– **<u>مرحلة المطالبة بالاستقلال التام للشام 1875 م – 1908 م :</u>**

تعتبر سنة 1875م، بداية لاتجاه المثقفين العرب نحو العمل السياسي ، حيث تأسست " جمعية بيروت السرية " من قبل مجموعة من طلاب الكلية السورية الأمريكية البروتستانتية (الجامعة الأمريكية) ، التي باشرت نشاطها السري بتوزيع المنشورات في شوارع بيروت و دمشق و طرابلس و صور ، و كان من أعضائها " نمر فارس " و " يعقوب صروف " و الشاعر " إبراهيم اليازجي " ، و قد حصرت مطالبها فيما يلي :

01 – منح سوريا استقلالها ، متحدة مع لبنان .

02 – الاعتراف باللغة العربية لغة رسمية للبلاد .

([1])– الهادي التيمومي ، المرجع السابق ، ص 61 و ما بعدها .

([2])– ينظر منذر معاليقي ، المرجع السابق ، ص 189 و ما بعدها .

03 – إلغاء كل أشكال الرقابة و القيود المفروضة، على حرية التعبير و نشر المعرفة .
04 – أن تكون الخدمة العسكرية محلية ([1]) .

كما دعت الجمعية إلى الثورة عند اللزوم ، و هاجمت فساد الحكم التركي حاثة العرب على الثورة لإسقاطه ، و أمام تعاظم تأثيرها ([2]) ، لجأ السلطان "عبد الحميد" إلى تقويض نشاطها بطريقتين : بإغراء أعضائها و المتعاطفين معها بالمناصب، و بكل أنواع الحظوة و التقريب من جهة ، و بالقمع و الإرهاب من جهة ثانية ([3]) ، و لما اشتدت وطأتها على القومين ، فضلوا الهجرة إلى خارج الإمبراطورية في باريس و لندن و جنيف ، أين ظهرت " جمعية حفظة حقوق الملة العربية " (1882م) ، التي ناشدت العرب من مسلمين و مسيحيين تحرير : ((بلادهم من العبودية الأجنبية دون أن ينتظروا حتى يباعوا إلى الدول الغربية)) ([4]) . و حضت على التآخي بين الطوائف المسلمة و المسيحية ، و بينت أن تركيا تسعى إلى تعميق فجوة الخلافات المفتعلة بينها ، لأنها كانت تخشى من إتحادها ([5]) .

و مع نهاية القرن التاسع عشر ، ظهرت شخصية قوية و جذابة ، استطاعت أن تعطي للحركة القومية العربية نفسا جديدا ، و هي "عبد الرحمان الكواكبي" ، الذي بحث في أسباب ضعف العالم الإسلامي عامة و أقطاره العربية خاصة ، بأسلوب بارع و عميق ، و دعا إلى ضرورة استعادة العرب لمكانتهم اللائقة بهم ، و لدورهم في تقرير مستقبل الإسلام و مصيره . و تكمن أهمية دعوة "الكواكبي" ، في كونها ميزت بين القومية العربية ، و الدعوة العامة للنهوض بالعالم الإسلامي. فإذا كان "الأفغاني" قد اعتبر العلم الإسلامي، يمثل رقعة جغرافية واحدة ، يقتضي الأمر أن تتوحد جميع أجزائه بقيادة خليفة ما، يشترط فيه أن يكون مسلما و فقط و لا يهم إذا كان عربيا أو أعجميا . فإن تصور "الكواكبي"، يقع على النقيض من ذلك ، لأنه عمد على التمييز على نحو واضح بين الشعب العربي و الشعوب المسلمة من غير العرب ،

([1])– علي المحافظة ، المرجع السابق ، ص 130 .
([2])– محمد محمود بوعياد ، و آخرون ، المرجع السابق ، ص 355 .
([3])– جورج أنطونيوس ، المرجع السابق، ص 164 .
([4])– الهادي التيمومي ، المرجع السابق، ص 75 .
([5])– منذر معاليقي ، المرجع السابق ، ص 180 .

مستوحيا ذلك من الدور الذي قام به العرب أثناء ظهور الإسلام و انتشاره ، و من العلاقة الوثيقة بين العبقرية و روح الإسلام ، و من المكانة المتميزة التي حصل عليها العرب، بفضل لغتهم و نسبهم . و لذلك أيد "الكواكبي" فكرة الجامعة الإسلامية تأييدا تاما ، لكنه في الوقت ذاته نادى بإلغاء حق السلطان في لقب الخلافة ، مشترطا مبايعة رجل عربي من قريش . و قد ساهمت هذه الأفكار ، في تحول قيادة الحركة القومية العربية تدريجيا، من أيدي المسيحيين إلى أيدي المسلمين .

و بالإضافة إلى أفكار" الكواكبي" ، نسجل ظهور الحركة التي قادها " نجيب عازوري " و هو عربي نصراني ، بباريس سنة 1904م ، أين أسس جمعية تحت اسم " جامعة الوطن العربي " (LIGUE DE LA PATRIE ARABE) بغرض تحرير الشام و العراق من السيطرة التركية ، و كان لسان حالها مجلة شهرية بعنوان " الاستقلال العربي " (L'Indépendance ARABE) ([1]) . و نشر "نجيب" كتابا باللغة الفرنسية: (le réveil de la nation ARABE) " يقظة الأمة العربية "، الذي تضمن دعوة صريحة إلى انفصال الولايات العربية عن الدولة العثمانية ، على أن يحتضن الحجاز مقر الخلافة العربية ، و أن يتوحد الشام و العراق في دولة موحدة عصرية ، و زيادة على ذلك ، طلب بوحدة الكنائس الكاثوليكية تحت عنوان الكنيسة الكاثوليكية العربية ([2]) .

و إذا كانت هذه الحركة قد استطاعت ، أن تحدث بعض التأثيرات في أوروبا في تلك الفترة ، فإن أثرها على مستوى القومية العربية ، اتسم بالمحدودية و الضعف ، لأسباب عدة منها : الرقابة اللاحقة التي وقفت حاجزا ، أما وصول نداءاته و منشوراته إلى البلاد العربية – على نطاق واسع – . و باختصار إن الوعي القومي العربي في هذه المرحلة في منطقة الشام ،قد تميز بالنمو البطيء بفعل سياسة السلطان "عبد الحميد الثاني" ، التي حالت دون ذلك ، باستثناء الزخم الذي أحدثته " جمعية بيروت السرية " ،و حركة " عبد الرحمان الكواكبي "، و الحركة الفكرية في مصر التي بقيت بعيدة عن متناول السلطان ، و تحولت مع مرور الزمن

([1])– جورج أنطونيوس ، المرجع السابق ، ص 172– 173 .
([2])– علي المحافظة ، المرجع السابق ، ص ص 134 – 135 .

بالإضافة إلى باريس ، مركزين لالتقاء اللاجئين السياسيين من خصوم السلطان ([1]) .

– **المطالبة باللامركزية داخل الدولة العثمانية : 1908م – 1913 م**

استبشر القوميون العرب خيرا بعد دستور 1908م ، و تحمسوا له تحمسا كبيرا ، اعتقادا منهم أن ساعة الحرية و الخلاص، قد جاءت أخيرا ، فانتشرت مظاهر الابتهاج و الاحتفال به في كل مكان . و ترجمة لذلك تأسست سنة 1908 جمعية عرفت باسم : " الإخاء العربي العثماني " في القسطنطينية ، بهدف : المحافظة على الدستور ، و توحيد جميع العناصر العثمانية في الولاء للسلطان ، و السعي إلى تحسين الأوضاع في المقاطعات العربية على أساس من المساواة الحقيقية، مع العناصر العرقية الأخرى التي تضمها الدولة ، و العمل على نشر التعليم باللغة العربية و تنمية الشعور بالمحافظة على العادات العربية و إتباعها ... إلخ . لكن ((شهر العسل)) على حد تعبير " جورج أنطونيوس " ، لم يدم طويلا بين القوميين العرب و الحكام العثمانيين ([2])، حيث جاء قانون 23 أوت 1909، الذي منع قيام الجمعيات و الأحزاب ذات الأهداف القومية ، مما دفع بالقوميين العرب إلى العمل على الجبهتين : جبهة العمل العلني، و العمل السري .

فمن الجمعيات العلنية التي شكلت نذكر : " جمعية المنتدى الأدبي " التي ظهرت في الأستانة سنة 1909 م ، و مارست النشاط السياسي تحت غطاء النشاط الأدبي و الفني ، مستلهمة أفكارها من شخصية " غاريبالدي " أحد أبطال الوحدة القومية الإيطالية . و كان على رأس أهدافها ، إحياء الجامعة العربية ، و زرع روح التعارف ، و إحياء عاطفة الأخوة و التعاون بين العرب ، بغض النظر عن دينهم أو مذهبهم ، حيث يتسع الوطن العربي للجميع .

و منها أيضا " جمعية العلم الأخضر " (1912 م) : التي أسسها بعض القوميين العرب في الأستانة . و " الكتلة النيابية العربية " (1911 م) ، و " جمعية بيروت الإصلاحية " (1912) ، و " جمعية البصرة الإصلاحية " ، و " حزب اللامركزية الإداري العثماني" الذي أنشأ في مصر(أواخر 1912 م) بدعم بريطانيا ، الذي طالب بأن تكون الدولة العثمانية دولة نيابية دستورية ، على أن تدار الولايات العربية فيها على أساس لا مركزي إداري .

([1])– جورج أنطونيوس ، المرجع السابق ، ص 173 .

([2])– المرجع نفسه ، ص 175 و ما بعدها .

أما الجمعيات العربية السرية، فنذكر منها: "الجمعية القحطانية " التي تأسست سنة 1909 م في الأستانة ، من قبل ضباط عرب في الجيش العثماني، و تمحور برنامجها حول : قيام إتحاد تركي عربي، يماثل الإتحاد الذي كان قائما في الإمبراطورية النمساوية المجرية ، يكون فيه للولايات العربية الاستقلال الداخلي . و " جمعية الجامعة العربية " (1910 م) ، التي أنشأها الشيخ "رشيد رضا" ، بغرض تأليف تحالف بين أمراء الجزيرة العربية ، و العمل على إزالة الخلافات بينهم ، و تحقيق التعاون بين الجمعيات العربية في الشام و العراق . و " الجمعية العربية الفتاة " ، التي ظهرت في باريس سنة 1911 م، على يد مجموعة من الطلبة العرب غالبيتهم مسلمين ، بهدف إيصال الأمة العربية إلى مصاف الأمم الراقية الحرة أو المستقلة الكبرى ، من خلال تمكين العرب من الحكم الذاتي ضمن إطار الإمبراطورية العثمانية ، و قد تعرض الكثير من أعضائها للإعدام ، على أيدي الأتراك أثناء الحرب العالمية الأولى ([1]) .

04 – المؤتمر العربي الأول بباريس (جوان 1913 م) :

انعقد هذا المؤتمر بين 18 و 23 جوان 1913 بباريس ، بدعم من فرنسا لكونه يستجيب لتطلعاتها الاستعمارية في سورية و لبنان ، و بإعداد من " الجمعية العربية الفتاة " و " لجنة الإصلاح البيروتية "، و " حزب اللامركزية العثماني " المؤيد من قبل بريطانيا ، و حضرته قرابة 25 شخصية من لبنان و مصر و الأستانة و العراق و الشام و فلسطين و الولايات المتحدة الأمريكية و المكسيك ، و الجالية العربية بباريس ، ترأسه "عبد الحميد الزهراوي" (1855 م – 1916 م) ، في غياب ممثلين عن الجزيرة العربية و المغرب العربي . و قد تداول المؤتمر مسألتين أساسيتين هما : الحقوق العربية في إطار الإمبراطورية العثمانية ، و الإصلاح من خلال منحهم الحكم الإداري الذاتي ، أما مسألة انفصال الولايات العربية عن الإمبراطورية فلم يتم طرحها إطلاقا ([2]) .

كان رد فعل الحكومة العثمانية ، سلبيا إزاء انعقاد المؤتمر ، فعملت على إفشاله بكل الوسائل و الأساليب ، كمهاجمته في الجرائد الموالية لها ، و الاتصال بالحكومة الفرنسية

([1])– ينظر الهادي التيمومي ، المرجع السابق، ص 86 و ما بعدها . و أيضا على المحافظة، المرجع السابق ، ص 135 و ما بعدها

([2])– الهادي التيمومي ، المرجع نفسه ، ص 92 و ما بعدها .

لإقناعها بمنع عقده على أراضيها ، و تحريض دعاة الجامعة الإسلامية ضده ، و إرسال برقيات التنديد و الاستنكار .لكنها في النهاية رضخت للأمر الواقع ، و أرسلت مبعوثا عنها للتفاوض مع المؤتمرين . و قد تمخضت عن المؤتمر القرارات التالية :

01 – أن الإصلاحات الحقيقية واجبة و ضرورية للمملكة العثمانية فيجب أن تنفذ بوجه السرعة.

02 – من المهم أن يكون مضمونا للعرب التمتع بحقوقهم السياسية، و ذلك بأن يشتركوا في الإدارة المركزية للمملكة اشتراكا فعليا .

03 – يجب أن تنشأ في كل ولاية عربية إدارة مركزية، تنظر في حاجاتها و عاداتها .

04 – كانت ولاية بيروت قدمت مطالبها بلائحة خاصة، صودق عليها في 31 كانون الثاني 1913 م بإجماع الآراء، و هي قائمة على مبدأين أساسين هما :توسيع سلطة المجالس العمومية ،و تعيين مستشارين أجانب فالمؤتمر يطلب تنفيذ هذين المطلبين.

05 – اللغة العربية يجب أن تكون معتبرة في مجلس النواب العثماني ، و يجب أن يقرر هذا المجلس ، إلا في الظروف و الأحيان التي تدعو إلى الاستثناء الأقصى .

06 – يتمنى المؤتمر من الحكومة السنية العثمانية أن تكفل لمتصرفية لبنان وسائل ماليتها .

07 – يصادق المؤتمر و يظهر ميله لمطالب الأرمن العثمانيين القائمة على أساس اللامركزية .

08 – سيجري تبليغ هذه القرارات للحكومة العثمانية السنية .

09 – و تبليغ هذه القرارات أيضا للحكومات المتحابة مع الدولة العثمانية .و يشكر المؤتمر الحكومة الفرنسية شكرا جزيلا لترحابها الكريم بضيوفها ([1]) .

يستشف من هذه القرارات، أن المؤتمرين أرادوا الظهور بمظهر الاعتدال، كما أنها كانت في مجملها إعادة للإقتراحات و المطالب، التي سبق و أن طرحت على الحكام العثمانيين في أكثر من مرة ، مشفوعة بتأكيد الحقوق السياسية الكاملة للعرب ، و بنصيبهم في المشاركة الفعالة في إدارة شؤون الدولة ([2]) . و إذا أردنا أن نقيم نتائج هذا المؤتمر ، نقول أنه و إن مثل خطوة نحو الأمام في مسار التيار القومي العربي ، فإنه في المقابل لم يشكل نقطة تحول حاسمة و يمكن تفسير إكتفائه بالمطالب المشار إليها ، بخوف قادته من رد الفعل العربي و الإسلامي

([1])– ينظر علي المحافظة ، المرجع السابق ، ص 148 و ما بعدها

([2])– جورج أنطنيوس ، المرجع السابق ، ص 192

برفض فكرة الاستقلال العربي الكامل ، و هو ما حدث بالفعل ، حيث واجه انتقادات كثيرة من لدن شخصيات فكرية و إصلاحية، و أدبية و علمية، عربية و إسلامية ذات صيت كبير كأمير البيان "شكيب أرسلان" و للشاعر "معروف الرصافي" و غيرها ([1]) . أما موقف الحكومة الاتحادية العثمانية ، فقد كان ظاهره القبول بتلك المطالب ، و باطنه المراوغة و عدم الاكتراث بالقضية ([2]) ، إلى أن جاءت الحرب العالمية الأولى، التي خلقت تطورا نوعيا في تعامل التيار القومي العربي مع الحكم العثماني ، بتحوله إلى العمل المسلح الذي ظهر في الثورة العربية الكبرى بقيادة " الشريف حسين " سنة 1916 م .

05 – الثورة العربية الكبرى 1916 م :

مثلت الحرب العالمية الأولى ، الفرصة المناسبة للتحرك العسكري ضد الأتراك ، الذين لم يكتفوا برفض مطلب العرب بالحكم الذاتي ، بل راحوا يمارسون سياسة جديدة ضدهم، تقوم على الإقصاء و الإذلال و التتريك .يدفع العرب في ذلك ،تشجيع الحلفاء لهم و خاصة بريطانيا ، بفتح جبهة عسكرية ضد الأتراك حلفاء ألمانيا في الحرب العالمية . و بروز شخص "الشريف حسين" و أبنائه و طموحهم الشديد للحكم ، و استمرار الحكم العثماني في القمع و التسلط ، خاصة في عهد والي الشام "جمال باشا" (1873 م – 1922 م)، الذي عمد إلى إعدام مئات القوميين العرب شنقا، في الساحات العمومية ببيروت و دمشق أعوام 1915 م و 1916 م . بالإضافة إلى الأحوال الاجتماعية، التي ازدادت سوءا في الشام و العراق و الحجاز ، بسبب الحرب ، و جعلت السكان يموتون جوعا .

انطلقت الثورة من الحجاز يوم 10 جوان 1916 ، بدعم من الفرنسيين و الإنجليز ، الذين أمدوا "الشريف حسين" بالمال و السلاح و بالخبراء العسكريين، و على رأسهم ضابط المخابرات البريطاني " توماس إدوارد لورانس " (1888 م – 1935) ، و قد تمكن الجيش العربي بفضل تلك المساعدات ، و بفضل شجاعة بعض المقاتلين العرب ، من تحرير أغلب الجزيرة العربية و دخول الشام ، فيما احتل الجيش البريطاني فلسطين في ديسمبر 1917 م ، بعد معارك طاحنة مع الأتراك ، خلفت آلاف القتلى من الجانبين . و بعد انتهاء الحرب ، تنكر الحلفاء و خاصة

([1])– ينظر الهادي التيمومي ، المرجع السابق ، ص 97

([2])– جورج أنطونيوس ، المرجع السابق ، ص 194 و ما بعدها

بريطانيا ، من كل الوعود التي قدموها " لشريف حسين " ، حيث تبين أن اتفاقيات سرية انعقدت بين تلك الدول من أجل تقاسم المنطقة العربية فيما بينها من ناحية ، و بزرع اليهود في فلسطين بعد أن تضع الحرب أوزارها " اتفاقية سايكس بيكو 16 ماي 1916 م " .و بذلك تكون الثـورة العربية، قد عجزت عن تحقيق هدفها الأساسي الذي اندلعت لأجله ، و هو قيام دولة عربية على الأقل في المشرق العربي ، و الحيلولة دون تقسيم المنطقة بين الدول الكبـرى . وقـد أوعـز الدكتور الهادي التيمومي ([1]) ذلك إلى عوامل خارجية، و أخرى داخلية و هي :

- العوامل الداخلية : و تتمثل في :

01 – معارضة الدول الاستعمارية الكبرى (فرنسا و بريطانيا)، نشوء دولة عربية موحـدة ، تمتد على مساحة جغرافية كبيرة مثل المشرق العربي ، قد تهدد مصالحها في المنطقة .

02 – وقوف غالبية العرب و المسلمين ضد الثورة ، اعتقاد منهم أنها تعد تمردا علـى الدولـة الشرعية و على الإسلام .

- العوامل الخارجية : و تتمثل في :

01 – عدم إدراك قادة الثورة العربية لحقيقة الإمبريالية (بريطانيا و فرنسـا) ، و اغتـرارهم بوعودها الكاذبة .

02 – التخلف الاقتصادي و العسكري و الثقافي .

03 – الطبيعة البدوية للحركة .

04 – عدم الاستفادة من عامل الزمن (التأخر في إعلان الثورة) .

05 – استبداد "الشريف حسين" ، الذي جعل الكثير من الضباط و القوميين الأكفاء ينفرون منه .

06 – محدودية الصلابة النضالية ، بفعل نقص التجربة السياسية .

07 – فقدان الحركة لأغلب قادتها و مؤطريها ، بفعل إعدامهم من قبل " جمال باشا " .

08 – وجود فجوة بين الحجازيين و الشوام(أهل الشام) ، أدت إلى استحالة التعاون بينهم .

09 – حصر مطلب الوحدة العربية و الاستقلال في الجزء الأسيوي فقط من المنطقـة العربيـة دون الجزء الإفريقي .

([1])– ينظر الهادي التيمومي ، المرجع السابق ، ص 103 و ما بعدها .

10 – غياب برنامج واضح للثورة ،و افتقادها لأي مضمون اقتصادي و اجتماعي .
11 – اقتصار الدعاية فيها على المرجعية الإسلامية ، و إغفالها للمرجعيات القومية ، الأمر الذي قلل من حماس العرب المسيحيين .

– فترة ما بين الحربين العالميتين :

تميزت هذه المرحلة، من تاريخ الحركة القومية العربية في بداياتها، بظهور الوعي السياسي الإقليمي و الولاءات الإقليمية ،بالموازاة مع الوعي القومي و الولاء القومي ، مع طغيان الأول على الثاني . أما في أواخرها، فقد شهدت بروز تيارات فكرية جديدة في المجتمع ، بتأثير الأفكار الثورة البلشفية التي انتصرت في روسيا ، و الحركتين النازية في ألمانيا و الفاشية في إيطاليا ، زيادة على التيارات الفكرية الأوروبية، التي قامت على المذهب الفردي و النظام الديمقراطي . فقد تحولت الجمعيات السرية، و الحركات السياسية ذات الصبغة القومية ، إلى أحزاب سياسية على شاكلة الأحزاب السياسية الأوروبية ، و ركزت مطالبها في الاستقلال و الحياة الدستورية ، إقتداء بالنظم الديمقراطية الأوروبية .

كما ظهرت أحزاب، اتخذت من الفكر النازي أو الفاشي أو الشيوعي، مرجعية لها ، و أخرى نادت بالقومية في إطار الديمقراطية السياسية، أو في إطار الديمقراطية الاجتماعية .
كما ظهرت حركات من نوع آخر ، كالدعوة إلى المغرب الكبير في شمال إفريقيا ، ووادي النيل في مصر و السودان ، و سوريا الكبرى ... و غيرها ([1]) .

– فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية :

ظل الوعي القومي العربي، رغم كل شيء ، حيا في النفوس و خاصة لدى المثقفين ، لكنه استمر في حالة السكون و الضعف، لدى عامة الناس مغلفا بالعاطفة الدينية ، بسبب الظروف الدولية ، و خضوعه لإرادة الزعماء السياسيين و طموحاتهم الشخصية . و لعل أبرز حدث على الساحة العربية بعد نهاية الحرب العالمية الثانية ، هو ميلاد جامعة الدول العربية في 22 مارس 1945 م ، التي ورد في ميثاقها أنها جاءت : ((تثبيتا للعلاقات الوثيقة و الروابط العديدة بين الدول العربية و حرصا على دعم هذه الروابط و توطيدها على أساس احترام استقلال تلك الدول و سيادتها و توجيهها لجهودها إلى ما فيه خير البلاد العربية قاطبة و صلاح

([1])– ينظر محمد محمود بوعياد ، و اخرون ، المرجع السابق ، ص 360 و ما بعدها

أحوالها و تأييد مستقبلها و تحقيق أمانيها و آمالها و استجابة للرأي العربي العام في جميع الأقطار العربية)) .

و قد بعثت هذه المبادرة ،الأمل لدى الشعوب العربية ، في أن تكون خطوة تتبعها خطوات أخرى، لوضع مشروع الوحدة العربية موضع التجسيد في أرض الواقع ، لكنها لم تكن كذلك ، بفعل طغيان المصالح الطائفية أو الحزبية ، و استشراء الخلافات و الصراعات السياسية بين الأنظمة العربية الحاكمة ([1]) . ليظل حلم الوحدة العربية، يراود الكثير من أبناء و مفكري الوطن العربي ، و هو : ((أمل كلما اقتربت السبل إلى تحقيقه ، تكاثفت الظروف لتبديده ، و تبقى دائما المعضلة الصعبة في أن أشد مناطق العالم اتصالا بوحدة الدين و اللغة و الثقافة و التراث الحضاري و الامتداد الجغرافي و الترابط العضوي اقتصادا و أمنا ، هي أشدها تعثرا في إيجاد صيغة لوحدة شتاتها في عصر ذابت فيه الكيانات الصغيرة في تجمعات أكبر ، و تسامت على عوامل فرقتها و ماضي الصراعات بينها دول عديدة في مختلف المناطق الأخرى من العالم)) ([2]) .

و منه نستنتج، أن الحركة القومية العربية ، قد كانت انعكاسا لعوامل داخلية، يمكن حصرها في الأوضاع السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية السيئة، التي كانت تعيشها الشعوب العربية في ظل الحكم العثماني، الذي أمعن خلال فترة ضعف الإمبراطورية ، في الفساد و القمع و التعسف، و إسكات الأصوات المتطلعة إلى الحرية و الاستقلال . و قد أخذت العلاقات بين الطرفين أشكالا صدامية ، تمكن الحكام العثمانيون من حسمها لصالحهم، في أغلب الحيان . و كانت انعكاسا لعوامل خارجية ، لتأثرها بالمد القومي الذي اجتاح القارة الأوروبية ، بعد نجاح الثورة الفرنسية سنة 1789 م ، و بالتشجيع المادي و المعنوي الذي كانت تتلاقاه من الدول الاستعمارية الكبرى، ممثلة في بريطانيا و فرنسا ، التي استطاعت احتواء الحركة القومية العربية ، و وجهتها الوجهة التي تخدم تطلعاتها الاستعمارية في المنطقة .

([1])– ينظر محمد محمود بوعياد ، و آخرون ، المرجع السابق ، ص ص 372 – 373 .

([2])– أحمد محمود جمعة : إنشاء جامعة الدول العربية : مقدماتها و تطورها ، ج 1 ، د ط ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة : 2006 ، ص 07 .

و لقد استقطبت تلك الحركة، شريحة واسعة من رجال الفكر و الإصلاح العرب ، الذين انقسموا فيما بينهم إلى؛ فريق تبني كل طروحاتها الفكرية و السياسية و أهدافها المعلنة، و فريق أيدها من حيث المبدأ، لكنه تحفظ على بعض توجهاتها و ممارساتها ، خاصة مـا تعلـق منهـا بالثورة المسلحة على الأتراك ، و التعاون مع بريطانيا و فرنسا .

المبحث الثاني : بواعث الوحدة العربية في كتابات الإبراهيمي و أرسلان

01- بواعث الوحدة العربية في كتابات الإبراهيمي :

استهل الشيخ البشير الإبراهيمي حديثه ، عن بواعث الوحدة العربية ، و الفوائد التي يجنيها العرب من ورائها ، بالقول أنه حينما يفكر في قومه العرب ، يجدهم يتخبطون في مشاكل و أزمات لا نهاية لها ، يمتحنون في كل عام مرة أو مرتين ، لكنهم لا يستخلصون الدروس و لا يعتبرون منها ، لا يكادون يقطعون خطوة إلى الأمام ، إلا و تأخروا خطوات إلى الوراء ، فلقد أنزلوا أنفسهم من الأمم منزلة وضيعة ([1]) .

و يعتبر أن أكبر علة أصابت العرب ، انقسامهم إلى دويلات و إمارات يحكمها ملوك و أمراء ، الأمر الذي منع أن تكون لهم دولة واحدة جامعة ، لأنهم في الأصل أمة واحدة ، تسكن رقعة جغرافية واحدة ، لو حدث ذلك لما تجرأ الاستعمار على التفكير، في غزوهم و احتلال بلدانهم .

و يضيف مواصلا حديثه ، بأن أصل داء العرب التفرق و الخلاف ، بدأ بسيطا في الدين ، ثم أخذ يكبر في الأمور الدنيوية ، ثم تشعب و تعاظم و شمل كل مناحي الحياة ، و كان من مظاهره :

01- التخاذل و الأنانية ، و وهن العزائم .

02- عدم الاعتداد بالنفس ، و عدم الثقة بالأخوة .

03- تعدد الزعماء و الأحزاب ، في البلد الواحد .

04- ضعف العقيدة ، و فساد الرأي .

05- بيع الذمم و الضمائر ، و التفريط في المصالح الوطنية .

06- التفكير السطحي ، و اعتبار التضحية أقوالا .

07- إتباع الأهواء ، و الزعامات المزيفة .

08- اعتبار النصر تصفيقا .

09- مقابلة القضايا المصيرية ، بالاستهتار و اللامبالاة ([2]) .

([1])- محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 3 ، مصدر سابق ، ص 483 .

([2])- المصدر نفسه ، ج 4 ، ص 301 و ما بعدها .

و من الواضح، أنه يعتبر أن غياب الوحدة الجامعة بين العرب ، هو السبب في كل ما يعانونه من مشاكل و أزمات ، و أن التفرق و الخلاف يمثلان أكبر المعوقات ، في سبيل تحقيقها في أرض الواقع ، و أن كان قد أقر بأنهما بدآ بداية بسيطة في الدين ، قبل أن يستفحلا و يشملا كل المجالات و الميادين ، فإنه أرجعهما إلى القادة و الحكام، الذين حملهم نسبة كبيرة من المسؤولية في ذلك .

و الواقع، أنه في الوقت الذي كان فيه الإبراهيمي ، و غيره من قادة الفكر و الرأي العرب ، ينادون بالوحدة و التكتل ، لمواجهة تحديات العصر السياسية و الاقتصادية و الحضارية ، كانت هناك اتجاهات فكرية متنوعة تغذي النزعة الإقليمية الضيقة في البلاد العربية . ففي مصر ظهرت فئة المتشددين من المصريين ، الذين غالوا كثيرا في الحديث عن جمال مصر و مصالحها الوطنية ، و قد أخذت الحركة منحى تصاعديا بعد ثورة "سعد زغلول" (1857 م – 1927 م) سنة 1919 م (*) ، و أصبحت تدعوا إلى الفرعونية ، و إلى إقامة جامعة مصرية ، و إلى انسلاخ مصر عن الأقطار العربية ، و الانطواء على الهوية المصرية البحتة ([1]) .

و على حد قول الإبراهيمي ، فإن هذه الحركات العنصرية، تستهدف في حقيقة الأمر العروبة ، التي تحولت في حد ذاتها لدى العرب المتأخرين ، إلى مشكلة تتفرع عنها مشكلات أخرى غاية في التعقيد و التداخل ، فقد أصبحت وسيلة لكل ذي مصلحة ، و لكل طاعن فيها ، و سبيلا لأبنائها الذين يتسللون من خلالها لتحقيق نواياهم العنصرية الضيقة ، فمنهم من ناشد الفرعونية أو الفينيقية (**) أو البربرية (***)، فيتخذ البعض من شعره الأشقر و عينيه

(*) – دعا متزعمو الحركة الفرعونية ، إلى إقامة أدب مصري خاص يتميز عن الأدب العربي ، إتخذوا من الصحف و الندوات منبرا لدعايتهم ، رسموا رأس " ابي الهول " على الطوابع البريدية و الأوراق النقدية ، مثلما فعل الأتراك بالذئب الأغبر ، كما وضعوا امام كل كلية من كليات الجامعة المصرية تمثالا و معبودا من المعبودات الفرعونية ، شجعوا إستخدام الزخرفة و النقش المصري القديم في الأبنية الحكومية ، نقلوا رفاة سعد زغلول بعد وفاته بثلاث سنوات إلى ضريح بني على الطراز الفرعوني . ينظر محمد محمد حسين ، المرجع السابق ، ص 50 و ما بعدها .

([1])– منذر معاليقي ، المرجع السابق ، ص ص 167 – 168 .

(**) – الفينيقية : نسبة إلى الفينيقيين ، و هم شعب سامي إستوطن لبنان في القرن الثامن الميلادي ، وإمتزج

الزرقاوين حجة لنفسه ، من تلك العنصريات ([1]) . و قد وصف هذا الصنف من أبناء العــرب، بضعفاء الفكر و النفس من الذين : ((أشربوا في قلوبهم الذل فرئمــوا الــذل ، فرئمــوا الــذل و المهانة ، و استحبوا الحياة الدنيا فرضوا بسفاسفها ، و نزل الشرق بنفوسهم بدار غريبة فلــم يقم ، و نزل الهوان منها بدار إقامة فلم يرم ، و أصبحوا يتوهمون كل حركة مــن إســرائيل ، أشباحا من عزرائيل)) ([2]) .

و من المنطقي بالنسبة إليه ، أن يكون لهذا الوضع آثار سيئة و عميقة علــى المجتمــع العربي برمته ، حيث توسعت الهوة بينهم و بين الأمم الأخرى ، التي أضحت رائدة في العلم و العمل و الصناعة و الحضارة ، بفضل أبنائها المخلصين ، بينما نجد أبناء العروبة يستحون من الانتساب إليها ، و يتبرؤون منها ، إذا ما خالطوا أبناء تلك الجنسيات ، لما يشعرون به أمــامهم من ضعف و استصغار لأنفسهم . و حتى العروبة كلغة، باتت مهددة بالرطانات الأعجمية التي

بشعوب ما قبل التاريخ ، إنتشر على سواحل البحر الأبيض المتوسط بين أوغاريت (راس شــمرا) و جبــل الكرمل ، أنشأ مدنا دولا من أهمها : (جبيل ، صور ، صيدا ، بيروت ، أرواد)، إرتبطوا بعلاقات وطيدة مع الفراعنة ، مدوا نفوذهم التجاري حتى " حماه " و " دمشق " ، أسسوا المصارف و المتــاجر و المســتعمرات على شواطئ المتوسط ، وصلوا إلى إسبانيا (بلاد ترشيش) بحثا عن الفضة و القصدير ، شيدوا مراكز هامة على الشاطئ الإفريقي من أهمها : (قرطاجة ، سبراطة ، حضرموت) ، في أوروبا : (ملقة و قــادش فــي إسبانيا ، و مالطة) . إكتشفوا الأبجدية في أوغاريت و طوروها ، برعوا في صــناعة الصــوف المصــبوغ بالأرجوان و الفخار ، و أدوات الزينة و التبرج ، خلفوا آثار هندسية رائعة : (الهياكل ، الأسوار ، القبــور ، النواويس ، الرسوم الناتئة ، التماثيل) . قامت ديانتهم على القوى الطبيعية ، و من أهم آلهتهم : البعل و البعلة ، عشتروت و هداد . المنجد في اللغة و الإعلام .

(***) – البربرية : نسبة إلى البربر ، و هم قدماء سكان شمال إفريقيا من " برقة " إلى المحــيط الأطلســي ، عرفوا منذ العهد الروماني بتمردهم و ثوراتهم ، من أشهر ممالكهم القديمة نوميديا و موريتانيا ، اعتنق أغلبهم الديانة الإسلامية على يد الصحابي الفاتح " عقبة بن نافع " ، شاركوا في فتح إسبانيا بقيادة " طارق ابن زيــاد " ، أنشأوا خلال العهد الإسلامي عدة دول منها : الأغالبة و الرستميين ، و المرابطين و الموحدين . المنجد فــي اللغة و الإعلام .

([1])– محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 5 ، مصدر سابق ، ص ص 149 – 150 .

([2])– المصدر نفسه ، ص 483 .

غمرتها ، و اللهجات العامية التي مزقتها ، و اللهجات الأجنبية التي نافستها ، عن طريق أبنائها من ضعفاء الهمم و العزائم ([1]) .

و بالتالي، فإن غياب الوحدة من وجهة نظره ، ليس لها نتائج سلبية على الصعيد السياسي فحسب ، بل تعدت إلى الأصعدة الحضارية و النفسية ، فأصبح الانتساب إلى العروبة مجلبة للشعور بالنقص و التخلف ، لدى أبناء العرب عامة و الشباب منهم خاصة ، و ذهب إلى أكثر من ذلك، حينما اعتبر اللغة العربية مهددة بالانقراض ،إن استمروا بالتعامل معها مثلما هم عليه في تلك الأثناء .

و الحق أن اللغة العربية ، قد تعرضت في عصر الشيخ الإبراهيمي ، إلى انتقادات كثيرة من الناشئة و الشباب على وجه الخصوص ، واصفين إياها بالضعف لسببين هما :

– كونها لغة صعبة و معقدة ، لا يماثلها في تعقيدها ، شيء من اللغات الموجودة في العالم .

– أن العرب بين سائر الأمم يعانون من ازدواج ، ناشئ من كونهم يفكرون و يستخدمون في معاملاتهم لغة عصرية عملية ، ثم ينقلون ذلك التفكير إلى اللغة العربية القديمة و المعقدة ، لما يكتبون أدبهم و يسجلون علومهم .

و ينتهي أصحاب الرأي الأول ، إلى المطالبة بإعادة النظر في قواعد اللغة العربية ، نحوها و صرفها ، و إعادة تبويبها و تشكيلها ، و حتى باستبدال الخط العربي و اعتماد الحروف اللاتينية . بينما انتهى أنصار الاتجاه الثاني ، إلى اعتبارها لغة ميتة عاجزة عن التفاعل مع الحياة ، و مسايرة تطوراتها ، و غير صالحة لتدوين العلوم و المعارف الحديثة ، و وضع المصطلحات لمبتكرات الحضارة المعاصرة ، و أن الازدواج يعطل الملكات ، و يشل و يكبح انطلاقها ، و هو في نظرهم أحد أسباب تخلف العرب و عجزهم عن الابتكار ([2]) .

لقد دافع الشيخ البشير الإبراهيمي في كتاباته ، عن خيار الوحدة العربية بحماسة شديدة ، بتعديد و شرح الدوافع التي تجعل منها ضرورة و حتمية للعرب ، و بتبيان الفوائد الجمة التي يجنونها منها ، فأما الدوافع فقد حصرها في ثلاثة و هي:

([1])– محمد البشير الإبراهيمي: الآثار، ج 5 ، مصدر سابق، ص ص 149 – 150

([2])– للمزيد ينظر محمد محمد حسين ، المرجع السابق ، ص 146 و ما بعدها .

فأما الدافع الأول : فيتمثل في أن العصر الذي نعيشه ، ينفرد بكونه عصر التكتل و القوة العددية ، فالأمم القوية تسعى جاهدة لكي تتكتل و تتكاثر عدديا ، رغم أنها تفتقر إلــى مقومــات الوحدة ، فكيف بالعرب و هم إخوة يشتركون فيما بينهم في الدم و اللغة و الخصائص العرقية ، لا يتكتلون و لا يتحدون ؟ ([1]) . و في هذا السياق، دعا عرب المغرب العربي ، إلــى التمســك بخيار الوحدة و التكتل ، قائلا بأن بلدانهم قطع متجاورة متصلة الأجزاء بالمشرق العربي ، و أن سكان هذه القطع يمثلون نصف عدد العرب تقريبا ، فإذا استمرت القطيعة و عدم التعاون بيــنهم و بين المشرق كما هو حاصل ، وجدت في ذلك أوروبا فرصة سانحة لبسط سيطرتها على بلاد المغرب ، و ضمها إلى سيادتها إلى الأبد ، و النتيجة أن العــرب سيخســرون بــذلك نصــف عددهم ([2]) .

أما الدافع الثاني : فهو حتمية الوحدة لطرد الاستعمار الغربي من بلادهم ، الذي وعــدهم خلال الحرب العالمية الأولى (1914 م – 1918 م) ، بوحدة تكون جامعة لشملهم ، و مناهم بخلافة تعيد لهم مجدهم الضائع ، و ملك لا حدود له يجعلهم سادة و أقوياء ، شريطة أن يكونوا وقودا للحرب التي أشعلها . فلما تحقق له الانتصار ، قام بتمزيق بلدانهم ، و تجزئة أوطانهم إلى أمم شتى ، و ضرب بعضهم ببعض ، ليتسنى له السيطرة عليهم ، و استغلال خيراتهم و ثرواتهم جميعا دون استثناء ، فتحولوا بذلك من طامعين في الغنيمة إلى غنيمة .

و لما جاءت الحرب العالمية الثانية (1939 م – 1945 م ، التي تمثل امتدادا للأولى في الأسباب و الملابسات ، قام الاستعمار بتجديد وعوده و عهوده لهم بشكل آخــر ، و قــد نجــح في ذلك ، لأنه وجد في العرب سرعة الانخداع بحيله و أكاذيبه ، بعد أن هيأهم لتقبلهــا أثنــاء الفترة الفاصلة بين الحربين . و لما انتصر مرة ثانية، كافأهم على تضحياتهم ، بانتزاع فلسطين منهم و إهدائها لليهود على مرآهم و مسمعهم ، جاعلا من الدولة الإسرائيلية شوكة في جسدهم ، لا يقر لهم معها قرار و لا يهدأ لهم بسببها مضجع ، فإن تركوها أهلكتهم و إن حاولوا إستنزاعها آلمتهم ([3]) .

([1])– محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 4 ، مصدر سابق ، ص 279 .

([2]) المصدر نفسه ، ج 5 ، ص 156.

([3])– المصدر نفسه ، ص 81 .

و يضيف الإبراهيمي في هذه النقطة ، أنه إذا كان الاستعمار على درجة كبيرة من القوة ، كما يتصور العرب ، فإنهم في الحقيقة إنما يزيدونه قوة بتخاذلهم و تفرقهم ، و تطاحن هيئاتهم ، و إضاعة أوقاتهم في الجهل الفارغ ، و الانسياق مع الأهواء المضللة ، التي فوتت عليهم فرصة استغلال الكفاءات الذاتية التي في حوزتهم : ((و هيهات أن يحي وطن ، أو يستقل بالهتافات المتوددة من الحناجر ، بين يحيا فلان و يسقط فلان)) ([1]) .

و يظهر لنا هنا ، أن الشيخ يسخر من الشعور العام، الذي كان سائدا لدى العرب آنذاك ، من أن الاستعمار قوة لا تقهر ، و لذا وجب الاستسلام له و الانقياد إليه ، و قد وظف الاستعمار هذا الوضع من أجل إبقاء هيمنته ، و تأمين وجوده .

و مثلما كان غياب الوحدة سببا مباشرا أو عاملا أساسيا ، في فرض الهيمنة الاستعمارية الغربية على بلاد المغرب في العصور السابقة ([2]) ، فإنه برأي الإبراهيمي أن العرب لو تحلوا بشيء من روح التضامن ، لما تركوا مثلا الجزائر تواجه مصيرها لوحدها أمام الاستعمار الفرنسي ، و لأدركت ضمائرهم أن الاستعمار :((غول)) ، إن تركوه يتغذى بالجزائر فسوف يأتي الدور عليهم ليتعشى بهم ، و قد كشفت الأيام صحة ذلك ([3]) .

أما الدافع الثالث للوحدة : فهو القضية الفلسطينية ، التي عدها وصمة عار في جبين العرب ، فضحت تخاذلهم رغم أنهم مجتمعون ، فكان وقعها شديدا على أنفسهم . لكنها و رغم ذلك يمكن أن تكون عاملا إيجابيا لهم ، فلا شيء يجمع القلوب مثل المصائب ، التي من شأنها أن توقظ المشاعر و الأحاسيس ، إذا كانت عامة .

و في هذا الصدد، طرح جملة من التساؤلات إزاء نكبة فلسطين ، التي عدها من أكبر المصائب التي حلت بالعرب منها: إن أدت إلى جمع مشاعرهم ؟ ، أو أعادت الإدراك إلى عقولهم ؟ ، و هل أزالت ما كان في أنفسهم من أنانية و أثرة ؟ ، و ما كان يسود بينهم من تنافس و صراع لا يخدم إلا عدوهم ؟ .

([1])- محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 4 ، مصدر سابق، ص 303 .

([2])- ناصر الدين سعيدوني : الجزائر منطلقات و آفاق ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت : 2000 م ، ص ص 416 .

([3])- محمد البشير الإبراهيمي ، المصدر نفسه ، ص 301 .

و يجيب قائلا: بأنها إن كانت كذلك ، فإنها تكون عندئذ نعمة ، ينبغي أن نشكر عليها الصهاينة شكرا جزيلا ، فقد جلبوا لنا الخير بينما أرادوا منا الشر : ((و أي نعمة أعظم من نعمة تجمع شمل العرب ، و توحد كلمتهم ، بعد هذا التفرق الذي ترك الجزيرة رقعا ملونة بألوان شتى)) ([1]) .

نستشف من ذلك، أنه كان ينظر إلى نكبة فلسطين نظرة إيجابية ، بررها بكونها قد تكون بداية لجمع المشاعر المتفرقة ، و إعادة الإدراك الغائب إلى العقول ، و القضاء على الأمراض النفسية المستفحلة ، من أنانية و أثرة و تنافس و صراع .

فهي قضية الجميع ، خاصة إذا علمنا أن الاستعمار الغربي ، أراد من خلال إنشاء الكيان الإسرائيلي في أرض فلسطين ، جعله حاجزا بين قسمي الوطن العربي الإفريقي و الأسيوي ، أي لمنع قيام أي تكتل أو وحدة عربيين ([2]) .

و بعد استعراضه لدوافع الوحدة ، يوجه الإبراهيمي جملة من النصائح للعرب استكمالا لما قاله سالفا و منها :

01 – أنه على العرب أن يدركوا أن عدوهم واحد ، فليواجهوه في الميدان برأي واحد و صف واحد ، و لو فعلوا ذلك و أخلصوا لسعت إليهم الحرية تركض ، و لكن عدوهم على علم و دراية بتلك النقائص المتفشية فيهم ، و لذلك فهو نائم ملء عينيه ، مادام يراهم مستغرقين في تلك الحال ، و الحل هو أن يبادروا إلى إزعاجه و قض مضاجعه : ((أزعجوه و أقضوا مضاجعه بإتحاد لا يتزعزع ، و عزائم لا تتزلزل ، و أخلاق يذعن لها الجبابرة ، و يومئذ تجدون الاستعمار و قوته و أساليبه و تخيلاتكم كلها باطلا في باطل ، و تجدون منها ما يجدع الخائف من الغول الذي لا حقيقة له)) ([3]) .

([1])– محمد البشير الإبراهيمي: الاثار ، ج 4 ،مصدر سابق، ص 242 .

([2])– عبد الوهاب محمود أطرش : " الصهيونية من الخداع الإيديولوجي إلى الرؤية القاصرة " ، مجلة العربي ، الكويت : العدد 516 / 2001 م ، ص ص 168 – 169 .

([3])– محمد البشير الإبراهيمي ، المصدر نفسه ، ص 303 .

02- ضرورة استبدال الوطنيات الضيقة بالوطنية الجامعة الواسعة ، لأن الاستعمار لو وجد العرب كتلة موحدة ، لما تسنى له أن يستولي على بلدانهم الواحد تلو الآخر : ((... و لما رأيناه يطير كالديك من غصن إلى غصن ، و يؤذن على كل غصن بآذان ...)) ([1]) .

3 – أن اللغة الوحيدة التي يفهما هذا الاستعمار المتاله ، ليست لغة المجاملات ، و إنما لغة القوة و المعاملة بالمثل ، و التي تجعله يحترم حقوق العرب ، و لا يتعدى عليها ([2]) .

4 – أنهم لن ينالوا الحرية ، إلا ببذل مهرها و هو المال ، و بالدماء التي تراق و النفوس التي تزهق ، و توطين الأنفس على تحمل الشدائد و مواجهة المكاره فتحرير الوطن يتطلب تقديم الثمن الباهظ ، و هو واجب لا يتم إلا بالإخلاص و الإتحاد و الكلمة الجامعة ، و الصفوف الموحدة ، و الخطط المنظمة ، و الصبر على البلاء الذي يحل بهم في الأنفس و الأموال ، و هو بلاء مهما عظم فإنه يبقى في نظر الشيخ دون جسامة بلاء الاستعمار ([3]) .

5 – إن السبيل الوحيد لانتزاع شوكة إسرائيل المنغرزة في الجسم العربي ، لا يكون إلا بقطع اليد التي غرزتها و هي الاستعمار : ((و ليت شعري بماذا يعد هذا الشيطان العرب في الحرب الثالثة و نذرها تتوالى ؟ إنه سيغير الأسلوب ، و يأتي كطالب الغيث بالرداء المقلوب ، فهل يلدغ العرب من جحر واحد ثلاث مرات ؟)) ([4]) .

من الواضح هنا، أن الإبراهيمي ، يجعل من الوحدة الحل الأفضل لكل المشاكل و التحديات الكبرى ، التي كانت تواجه العرب في عصره ، و التي وضع على رأسها الاستعمار ، الذي تعد محاربته مفتاحا لحل و تصفية كل القضايا ، فقد أقنعهم بالانخراط في مخططاته في المنطقة العربية ، مقابل وعود لم يوف بأي منها ، بل أكثر من ذلك أنه بسط سيطرته التامة عليها ، و أهدى فلسطين للحركة الصهيونية العالمية ، لتقيم وطنا قوميا لها عليها.

و في هذا يتفق مع السيد "جمال الدين الأفغاني" ، و تلميذه الشيخ "محمد عبده"، اللذان نبها إلى خطر الاستعمار الغربي المحدق بالجميع ، و حذرا من استمرار الانقسامات و تشتت الآراء،

([1])- محمد البشير الإبراهيمي : الاثار، ج 2 ، مصدر سابق، ص 233 .

([2])- المصدر نفسه ، ج 4 ، ص 303 .

([3])- المصدر نفسه ، ج 2 ، ص 233.

([4])- المصدر نفسه ، ج 5 ، ص 93 .

و تعاظم الخلافات ، خاصة بين الأمراء و الحكام العرب و المسلمين على حد سواء ، التي كان الاستعمار يذكيها بشتى الأساليب و الطرق ، و حثا على توحيد الكلمة و الرأي : كسبيل وحيد للوقوف في وجه الاستعمار الأوروبي المتربص بهم ([1]) .

و قد أقسم الإبراهيمي، في ختام حديثه في هذه القضية ، أن لا مخرج للأمة من قبضة الاستعمار بمواجهته فرديا ، و إنما المخرج الوحيد هو الالتفاف عليه كأمة واحدة ، موحدة في الرأي و القيادة و العواطف ، و دون ذلك مستحيل : ((أما و الله لن نفلت من مخلب الاستعمار فرادى ، و لن نفلت منه إلا يوم نصبح أمة واحدة تلقى عدوها برأي واحد ، و قائد واحد ، و قلب واحد ، فإن لم نفعل فلا نلم الاستعمار ، و لنلم أنفسنا)) ([2]) .

([1])- ينظر محمد دراجي ، المرجع السابق ، ص 186 و ما بعدها .

([2])- محمد البشير الإبراهيمي : الاثار ، ج 5 ، مصدر سابق ، ص 93 .

02- بواعث الوحدة العربية في كتابات أرسلان :

بدأ الأمير دعوته إلى الجامعة العربية سنة1922 م ، عندما حاول رفقة بعض رفاقه المنشغلين في تلك الأثناء بالقضية العربية ، كشف النقاب عن حقيقتها . و في سنة1923 م ، نشر بيانا بليغا موجها إلى العرب شعوبا و ملوكا ، وزعت منه آلاف النسخ ، دعا فيه الجميع إلى الجامعة العربية ، طالبا منهم تكوين كتلة عربية موحدة ، مبينا الخطر المحدق بهم ، إن إستمروا في تخاذلهم و تفرقهم . و قد عاد سنة 1931 م ، مبشرا بالجامعة أو الحلف العربي ، و داعيا إليهما ، و من جملة ما قاله في هذا الإطار ، أن حلم الجامعة العربية قد طال انتظاره ، و أنه لا جدال في أن لا حياة و لا وجود للعرب في هذا العصر، و ما يأتي بعده إلا بالإتحاد و التكتل ، لكونهما الوسيلة الوحيدة ، لمواجهة الاستعمار ، الذي بسط سيطرته على أجزاء هامة من الوطن العربي ، و هو مستعد لضم المتبقية منها إلى دائرة نفوذه ([1]) .

و في سنة 1937 م ، ألقى محاضرة عن الوحدة العربية في النادي العربي بدمشق ، قرر خلالها أن الوحدة العربية ضرورة حيوية ، لتحقيق الأمن و الاستقرار لدى الشعوب العربية ، و لكي تتمكن من الوقوف في وجه الأطماع الاستعمارية . فلم يعد ممكنا حسبه أن يعيش العرب مشتتين ؛ مليونا في هذا القطر ، و مليونين في ذاك القطر ، و ثلاثة ملايين في ذلك القطر ، لا يرتبطون فيما بينهم إلا باللغة ، و هم على علم بأن القوى الكبرى الهائلة التي تمتلكها الدول الاستعمارية ، التي تقود مائة مليون من البشر، و منها ما يحصي أربعمائة مليون ، أن لا أمل لثبات العرب أمام هذه الدول ، إلا إذا اتحدوا في جبهة واحدة ، تقف في وجه الأجنبي الطامع .

و قبيل اندلاع الحرب العالمية الثانية ، قال بأن كل المؤشرات تدل على أن حربا أوروبية على وشك الاندلاع ، و أن نتائجها ستكون كارثية و خطيرة على الأمم الضعيفة ؛ و منها الأمة العربية التي ليس لها مخرج ، لدرء هذا الخطر الداهم ، سوى الإتحاد في كل شيء ([2]) .

([1])- محمد شيا ، المرجع السابق ، ص 208 .

([2])- احمد الشرباصي : شكيب أرسلان داعية العروبة و الإسلام ، مرجع سابق ، ص ص 97 – 101 .

و هو بذلك، قد جعل من الوحدة العربية حتمية لا خيارا ، كما أنه حث على الإسراع في تحقيقها ، لأن الظروف الدولية بعد الحرب العالمية الأولى ، لم تكن في صالح الأقطار العربية ، حيث أفرزت أوضاعا جديدة ، جعلتها مستهدفة بالغزو و الاحتلال . و قد صح ما تنبأ به ، فلم تمضي إلا سنوات قليلة، حتى أحكمت الدول الأوروبية الاستعمارية الكبرى ، سيطرتها على كافة البلاد العربية، باسم الحماية أو الوصاية أو الانتداب ، و هي مسميات متعددة و النتيجة واحدة وهي الاحتلال .

ومن المعلوم أن الأمير شكيب ، كان قبل ذلك من أنصار الخلافة العثمانية، ومن أشد المعارضين للثورة العربية ، و قد برر امتناعه عن المشاركة في الحرب ضد الأتراك، باعتقاده أن البلاد العربية، ستصبح نهبا مقسما بين انجلترا وفرنسا ، وأن فلسطين ستكون وطنا قوميا لليهود ، وهو ما حصل بعد انتصار الحلفاء . لذلك صرح، بأنه يفضل البقاء في ظل الدولة العثمانية ،على الوقوع في يد الاحتلال الأوروبي . ولما صدق حدسه عقب نهاية الحرب ، اعترف له الكثيرون ببعد نظره ومنهم من اعتذر له ؛ ومن أبرزهم الملك "فيصل" ، الذي وجه إليه رسالة بعد إسقاطه من عرشه في دمشق، يشيد فيها بإخلاصه للقضية العربية ، و يعترف له فيها أنه أول من تكلم معه في قضية الوحدة العربية . أما سبب تحوله في تأييد الخلافة ، و مناداته بالوحدة العربية ، فقد أرجعها الأمير إلى إدارة الأتراك ظهرهم للعرب ، و إلغائهم للخلافة الإسلامية ، واختيارهم للمنهج العلماني ([1]) . فأكد ذلك التحول ، بقوله أن الخلافة العثمانية ، قد اندثرت و ذهبت إلى غير رجعة ، أما العروبة ووحدتها فلا تزالان قائمتين ([2]) .

و الحق أن الأمير شكيب ، في وقوفه ضد هذه الثورة العربية ، كان حريصا على أن لا يقاتل العرب مع بعضهم البعض، لصالح الأهداف الاستعمارية الإنجليزية الفرنسية الصهيونية في المنطقة ، فجاءت انتقاداته شديدة اللهجة إلى الأمير "علي بن الحسين" الذي أغار على أطراف حوران وجبل الدروز في لبنان ، من أجل الانضمام إلى الإنجليز الذين كان متحالفا معهم ، و مما قاله له في هذا الصدد : ((أتقاتل العرب بالعرب أيها الأمير حتى تكون ثمرة دماء قاتلهم و مقتولهم استيلاء انجلترا على جزيرة العرب ، وفرنسا على سوريا ، و اليهود

([1])– احمد الشرباصي : شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام ، مرجع سابق ، ص99 .
([2]) – شكيب أرسلان : الإرتسامات اللطاف ، مصدر سابق ، ص 279 .

على فلسطين)) ([1]) .

لقد كانت اللعبة واضحة، لدى الأمير شكيب ،لذلك لم ينجر وراء عواطفه، و يركب قافلة الثائرين على الأتراك المتحالفين مع بريطانيا و فرنسا ، الذين عجزوا عن فهم أن مبدأ تلك الدول ؛ لا يقبل أن يتوحد العرب، ويتحولون إلى قوة سياسية و عسكرية و اقتصادية ، قد تسبب لها مشاكل ومتاعب . و بالتالي، العجز عن إدراك الطبيعة الاستعمارية للدول الكبرى ، التي تتماشى مع مصالحها الاقتصادية الجوهرية، و ليس مع مصالح العرب أو غيرهم ([2]). و لذلك كان موقفه وسطيا ، تضمن الإبقاء على الخلافة مع الإصلاح ، أي التوفيق بين العثمانية و العربية ، أو الإسلامية و العربية ، وعدم الانخداع لما يروج له الاستعمار بصفة عامة، و الإنجليز بصفة خاصة ([3]) .

فلقد كانت بريطانيا منذ أواخر القرن 19 م ، إستراتجية تهدف إلى تقسيم العالم الإسلامي إلى ثلاثة أقطاب : القطب التركي ، القطب الإيراني ، القطب العربي . فعملت على تشجيع كل الحركات و القوى المناهضة للعثمانيين ، في البلاد العربية ، بهدف الضغط على تركيا ، التي كانت كل المؤشرات تدل، على أنها ماضية في طريق التحالف مع ألمانيا ، و قد سلكت فرنسا النهج ذاته الذي سلكته بريطانيا ([4]) ، لكن الأمير يبدو أنه كان يستشعر الخطر الأكبر من هذه الأخيرة،دون أن يقلل من خطورة الأولى .

يستند الأمير، في حكمه بحتمية الوحدة العربية ، إلى كون العالم العربي موحد النزعة و اللغة و الغايات ، ومن ثمة فالطبيعة تدفع به دفعا إلى الوحدة ، فهذه الممالك التي مزقها الاستعمار الأوروبي ، إلى أجزاء من السنغال إلى الموصل ، ستعود واحدة كما كان الأمر في الخلافة العباسية ([5]) .

([1])- نجيب البعيني ، المصدر السابق ، ص 151 .
([2])- الهادي التيمومي ، المرجع السابق، ص55 .
([3])- احمد الشرباصي : شكيب ارسلان داعية العروبة و الإسلام ، مرجع سابق ، ص 93 .
([4])- الهادي التيمومي ، المرجع نفسه ، ص 59
([5])- احمد الشرباصي ، المرجع نفسه ، ص 71 .

وفي رده على الأمير "علي بن الحسين" ، الذي قاتل العرب لصالح الإنجليز ، قـال: أن العرب سيبقون عبيدا للأجانب مهما فعلوا ، إذا ما بقوا مبعثرين و مشتتين كما هو حاصل في تلك الأثناء ، و في هذا المضمار دافع كثيرا عن وحدة سورية مع العراق ، و انتقد بشدة النخبة السورية ، التي ترفض الوحدة مع العراق لمصالح ضيقة ([1]) .

و بحسبه فإن العدو الحقيقي هو الاستعمار الإنجليز ، الذي استخف بهم بسبب تفككهم وتمزقهم ، و الأسباب أخرى قال أنها كثيرة ، ومنها النزاع الدائم و الخصام المستمر بين العرب ، حيث وجدت بريطانيا أمة كثيرة العدد متوقدة الذكاء ، لكنها مفككة الأوصال ، إلى حد أن بعضها لا علم له ببعض ؛ أمة قوية البأس ، لكن بأسها موجه فيما بينها ، يشغلها تماما عن الخارج ، أمة متوقدة الذكاء ، لكن ذكاءها تصرفه إلى كيد بعضها البعض ([2]) .

وهو بذلك يقر بأن العرب أمة عظيمة ، تتوفر فيها كل شروط القوة و الكمال ، من مجد و ذكاء ، لكنها لا تستثمرها في بناء نفسها، و إعادة مجدها ، ومجابهة الاستعمار المترصد لها ، و إنما توجهها لاستنزاف قدرتها الذاتية و ضرب بعضها البعض ، أمام مرأى بريطانيا التي صدقوا و عودها الكاذبة ، بأنها ستعمل على بناء عالم عربي ، يسود فيه القانون و الشرع محل الظلم العثماني . و لما انتصرت في الحرب الكونية الأولى رفقة حليفتها فرنسا، رمت بتلك الوعود و العهود جانبا ، و شرعت في تقسيم المنطقة رفقة فرنسا ، فأصيب العرب الذين كانوا يعلقون عليها ، آمالهم و أحلامهم القومية ، بخيبة أمل كبيرة و منهم "الشريف حسين" قائد الثورة العربية الكبرى ([3]) .

و في حقيقة الأمر ، أن بريطانيا لم تنتظر نهاية الحرب، لتنقلب على وعودها إزاء العرب ، باستقلالهم عن تركيا و تكوين دولة عربية واحدة ، ففي الوقت الذي كانوا فيه يقاتلون في صفها و يشددون عضدها ، راحت هي تعقد اتفاقا سريا بينها و بين فرنسا و روسيا عام 1916 م ، عرف باتفاق " سايكس بيكو " ، الذي تضمن تقسيم أراضي الدولة العثمانية فيما

([1])– نجيب البعيني ، المصدر السابق ، ص 169 .
([2])– احمد الشرباصي ، المرجع السابق ، ص 98 .
([3])– محمد شيا ، المرجع السابق ، ص 112 .

بينها . كما قطعت على نفسها في عام 1917 م ،عهدا يحقق لليهود وطنهم القومي المزعوم في فلسطين عرف ب: " وعد بلفور " .

و لم ينكشف الستار عن تلك الاتفاقيات السرية ، إلا بعد قيام الثورة البلشفية في روسيا سنة 1917 م ، و هناك تأكد للعرب أنهم راحوا ضحية مؤامرة استعمارية، قادتها بريطانيا ، التي أصدرت تصريحا مشتركا مع فرنسا في 1918/11/08 م ، يقضي بتقسيم الأراضي العربية ، و إنشاء دول بها ، و تزكية معاهدة الصلح في "فرساي" لمشروع التجزئة ([1]) . و بذلك يكون قد حدث بالضبط ما نبه إليه ، و حذر منه الأمير شكيب قبل و خلال الحرب العالمية الأولى ، فضاع الأمل في تحقيق الدولة العربية في المشرق العربي .

ومثلما اعتبر الإنجليز أكبر أعداء الوحدة العربية ، لأن هذه الأخيرة هي الوحيدة الكفيلة بمواجهتهم و طردهم من بلاد العرب ، فإنه أشار إلى أعداء آخرين ؛ و منهم من سماهم بالشيوعيين ، الذين عرفهم بأنهم أولئك الذين لا يتركون فرصة تمر ، إلا و انتقصوا فيها من فضل العرب ، و حطوا من منزلتهم في التاريخ ، و من مدنيتهم العريقة ، لا يرون جانبا سلبيا للعرب ، إلا وتهافتوا على إظهاره ، كما يتهافت الذباب على الحلواء ([2]) .

و يضيف إلى أولئك خصوما آخرين ؛ و منهم الأتراك الكماليون ، الذين كان لسان حالهم يقول : ((إذا كان لا بد من أن نبقى مسلمين ، فليكن إسلامنا تركيا ، و لنرفع منه كل ما فيه من رائحة عربية)) . و في سبيل ذلك، ترجموا القرآن الكريم إلى اللغة التركية ،و أجازوا الصلاة بها، كما منعوا الحج، وألغوا التقيد بالشريعة الإسلامية في مجال المعاملات مهما كانت، و اعتمدوا القانون المدني السويسري ([3]) .

و هي أسباب كانت كافية للأمير ، ليهاجمهم بشدة ؛ واصفا إياهم بالملاحدة الأتراك تارة، و بالطائفة الكمالية أو الفئة الضالة، التي تنكرت للعرب تارة أخرى . و ليطالب تركيا مرارا ، بأن تعيد "لواء الإسكندرونة" الذي أخذته دون وجه حق ، لأنها ارض عربية سورية حسبه ([4]) .

([1])– ينظر محمد محمود بوعياد ، و آخرون ، المرجع السابق ، ص 352 و ما بعدها .

([2])– احمد الشرباصي : شكيب ارسلان داعية العروبة و الإسلام ، مرجع سابق، ص 88 .

([3]) – لوثروب ستودارد ، المصدر السابق ، م1 ، ج 1 ، ص ص 211 – 212 .

([4])– احمد الشرباصي ، المرجع نفسه ، ص 72 .

بمعنى أنها أصبحت بلدا محتلا ، شأنها في ذلك كشأن الدول الاستعمارية التي كانت تحتل أغلب البلاد العربية ، فقد كان يفرق بين العثمانية و التركية . و معناه أن تخلي الأتراك عن الخلافة ، أسقط عنهم مبرر الوجود في الأراضي العربية ، و من ثمة يصبح ينظر إليهم على أنهم محتلون أو معتدون .

و ينتهي شكيب بعد كل ما سبق، إلى القول بأن استقلال البلدان العربية و تحررها من قبضة الاستعمار ، لن يتحقق إلا بالوحدة الشاملة ، و ليس بالأمة المجزأة المفككة المبعثرة ([1]) . و أنه لا حياة لها في المستقبل ، في عصر القوميات كما أصطلح على تسميته ، و ختم كلامه متسائلا إن كانت للعرب نجاة بغير الإتحاد ؟ ([2]) .

و في الأخير نستطيع القول ؛ أن الإبراهيمي و أرسلان ، قد اجتهدا في تقديم مبررات موضوعية، في دفاعهما عن فكرة الوحدة العربية ، كخيار استراتيجي ، و حل طبيعي ومنطقي ، من شأنه أن يسمح للعرب بمعالجة قضاياهم الأساسية، و على رأسها الاستعمار و التخلف و القضية الفلسطينية من جهة ، ومن التموقع في عالم أخذ فيه المجتمع الدولي ،يتشكل أكثر من أي وقت مضى ؛ من تجمعات و تكتلات سياسية و بشرية و اقتصادية و عسكرية ، من جهة ثانية .

و عليه فلقد أقر الإبراهيمي ، بتأزم و تردي الأوضاع العربية في كل المجالات ،وبين أن الانقسام هو علة العلل في ذلك ، معتبرا أن غياب الوحدة ، هو السبب في عجزهم عن الخروج من الضعف السياسي و التخلف الحضاري ، اللذان لازماهم منذ عدة قرون . كاشفا عن خصوم الوحدة ، الذين حددهم في الشعوبيين ؛ ممثلين في الحركات العنصرية كالفرعونية و البربرية ،ووصفهم الفكر و النفس . ليخلص، إلى أن الوحدة تعد الحل الأمثل ، إن لم تكن الوحيد ، لكل المشاكل و الأزمات و التحديات التي كانت تحياها الأمة العربية ، وقد برر ذلك بمتطلبات العصر، الذي يصعب فيه على الأمم أو الشعوب أو الأقوام المنقسمة و المشتتة ، أن

([1])– نجيب البعيني ، المصدر السابق ، ص 263 .

([2])– احمد الشرباصي : شكيب ارسلان داعية العروبة و الإسلام ، مرجع سابق ، ص 93 .

تواجه التحديات السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية، و الحضارية و العسكرية ، التي فرضتها الثورة العلمية و التكنولوجية .

أما المبرر الثاني الذي ساقه ، وهو طرد الاستعمار، الذي جثم على أجزاء هامة من البلاد العربية ،ويستعد للاستيلاء على الأجزاء المتبقية ، أي أنه حث على الوحدة لإنقاذ ما تبقى من البلاد العربية من مصيرها المنتظر ، ولتحرير المستعمرة منها . أما المبرر الثالث في تقديره ، فهو القضية الفلسطينية ، التي رأى فيها أن الصهاينة شذاذ الأفاق ، ما كان لهم ليجرؤوا على تهويد فلسطين و غزوها تدريجيا ، لو وجدوا أمة عربية متحدة في الرأي و العمل ، و لما تحولت الأحلام اليهودية و أوهامهم القومية إلى حقيقية عام 1948 تاريخ ميلاد دولتهم العنصرية .

أما الأمير شكيب ؛ فقد ذهب إلى أنه لا سيادة ولا استقلال، و لا نهضة للعرب في المستقبل ، إذا لم ينظروا إلى الوحدة العربية، على أنها خيار استراتيجي و ضرورة حتمية ، يتوجب الإسراع في انجازها في الميدان دون تأخير ، على أسس متينة و قوية حتى تستمر وتتحقق الأهداف المنشودة منها .كما وضح أن أكبر خصوم الوحدة العربية، الاستعمار بصورة عامة و الانجليزي بصورة خاصة ؛ الاستعمار الذي ساعد حسبه العرب على طرد العثمانيين من أراضيهم ، ليس لتحررهم من الاستبداد العثماني و تخلفه ، وإنما ليحل محله ، و ليوطن اليهود في الأراضي الفلسطينية . وهو السبب الذي جعل شكيبا ، يرفض تأييد الثورة العربية المتحالفة مع الانجليز ، و يفضل الدفاع عن الخلافة العثمانية ، رغم اتهامه بخيانة القضية العربية و بالعمالة للأتراك . وقد أظهر بموقفه هذا ؛ وعيا سياسيا كبيرا بمجريات الأحداث العالمية ، بفضل ثقافته العالية ، التي اكتسبتها من تعليمه الجيد ، ومن سفره وترحاله الدائم في الولايات العثمانية ، و البلدان الأوروبية ، التي أقام طويلا في أكبر عواصمهما واهم حواضرها كما أشرنا إليه في الفصل الثاني، في المبحث الذي أدرجناه للحديث عن حياته و آثاره، من هذه الدراسة .

و فيما يبدو ، أن الإبراهيمي ، في حديثه عن خصوم الوحدة العربية، الذين حصرهم كما مر بنا ،في الحركات العنصرية، التي ظهرت في أكثر من بلد عربي، ونمت مع تعاقب الزمن ، بفضل الظروف الداخلية السيئة التي تساعد على ذلك ، و الدعم الخارجي الذي راهن على دورها

في بسط الطريق أمامه للغزو أو للبقاء . أنه لم يتوقف كثيرا عند الاستعمار، كخصم أساسي من خصوم الوحدة ، انطلاقا من إدراكه بأن الاستعمار، يجتهد في خدمة مصالحه لا غير ، و أنه لم يكن في أي وقت من الأوقات قدرا محتوما لا مناص منه .و بالتالي، فمن الطبيعي أن يوظف الوسائل التي يراها كفيلة ، بتأمين جانبه؛ ومنها ضرب القومية العربية ، مستفيدا من القابلية النفسية و الذهنية ، التي وجدها لدى أبناء العروبة ، لمسايرة مخطط التفرقة ، الذي أعده لهذا الغرض . ومن طبقة الحكام و الأمراء بتأليب بعضهم على بعض ، وإغرائهم بالأمارة على أقاليم أخرى ، إن هم انخرطوا في دائرته ، وحتى بشراء ضمائرهم عن طريق الرشوة، و بهذا تمكن من إضعاف الجميع و احتلال الجميع . وفي ذلك لا فرق عنده بين الاستعمارين الإنجليزي او الفرنسي، على خلاف الرأي السائد في تلك الأثناء ، المتضمن أن الأول أرحم من الثاني وأكثر تمدنا و إنسانية منه ، في أغلب الأقطار التي احتلها ومنها العربية ، وقد عمل الإنجليز أنفسهم على الترويج لهذا الرأي ، فلقي صدى كبير في البلاد العربية وفي غيرها من البلدان .

و في النقطة ذاتها، خص أرسلان الاستعمار الإنجليزي دون غيره من الاستعماران الأخرى ، فاعتبره خصما لدودا للعرب ودافعا لتسريع قيام وحدتهم القومية ، التي تسمح لهم بالوقوف في وجهه، وإبطال مخططاته في بلدانهم، التي تعمل على إدامة الفرقة و الانقسام إلى أبعد مدى . و المسارعة إلى تقويض أيه بادرة للوحدة في مهدها ، بتدبير المكائد و الدسائس ، وإثارة الفتنة و النعرة العصبية بين العرب ، فينخرق الإجماع العربي ، و تتبخر الجامعة العربية. و بطبيعة الحال ، لا وجود لاستعمار رحيم و آخر عكس ذلك، فان وجد اختلاف بينهما ، فلا شك أنه في الاستراتجيات، و ليس في الأهداف التي تظل واحدة ، لا تخرج عن نطاق استغلال ونهب مقدرات الشعوب ، ولو باستعبادها و أعمال القمع و الإبادة بين صفوفها ، وإنزالها منزلة الأنعام .

و إذا كان أرسلان ؛ قد تجنب تحميل جانب من المسؤولية ، في الواقع العربي المتسم بالانقسام و التشرذم ، إلى الفئات المثقفة في الوطن العربي . فإن الإبراهيمي، أكد على دورهم السلبي الذي أضعف كثيرا الأمة ، و منعها من أن تنهض و تستعيد مكانتها وسط الأمم القوية و الراقية ، بسبب نفوسهم الضعيفة وفكرهم المريض، اللذان جعلاهم يحتقرون مقومات أمتهم؛

من لغة ودين و عادات، وقيم حضارية مهما عظمت ، و ينبهرون بكل ما هو غريب مهما كـان تافها . حتى وصل بهم الأمر حد شعورهم بالنقص الشديد أمـام الغربـي فـي كـل شـيء ، واعتقادهم الجازم بأنه يستحيل عليهم التفوق ، أو حتى الوصول إلى ما وصل إليه من إنجازات مادية و تقنية ، و خجلهم من عروبتهم و شرقيتهم ، كما لو أن الحياة الغربية هي مطلب كل من يرمي إلى الرقي و التقدم . ومنه فقد دأب الإبراهيمي، على انتقادهم نقدا لاذعا، كلما سنحت لـه الفرصة، لان المجتمع الجزائري في عصره، قد عرف وجود ذلك الصنف من المثقفين ، الذين تشبعوا بالثقافة الغربية ، وأرادوا الاندماج التام في الحياة الفرنسية، التي مثلت بالنسبة إليهم غاية ما يسعون إليه .

وفي المبحث الموالي ، سنرى كيف دافع الإبراهيمي عن عروبة المغرب العربـي و أرسلان عن عروبة طائفته الدرزية ، وعن كونهما يشكلان قطعة أساسية في الوحـدة العربيـة المنشودة، ردا على المشككين في ذلك من العرب و الغربيين على حد سواء .

المبحث الثالث : عروبة عرب المغرب العربي و الدروز وموقعهم من الوحدة العربية

01- عروبة عرب المغرب العربي و موقعهم من الوحدة العربية (الابراهيمي) :

بدأ الشيخ البشير الإبراهيمي ، كلامه عن وضع المغرب العربي، إزاء الوحدة العربيـــة ، بالتأكيد على أنه لا جدال في عروبة الشمال الإفريقي ، مهما كانت الأصول التي إنحـــدر منهـــا سكانه، و الخصائص الإجتماعية التي يتميـــزون بهـــا؛ كالعـــادات و التقاليـــد و الأخـــلاق ... و غيرها ، و هي عروبة أثبت و أنقى من إنجليزية الإنجليز و ألمانية الألمان .

و بالإشادة بالفضل الكبير للأبجدية العربية ، في تثبيت و تمكين اللســـان العربـــي فـــي المنطقة ، و حفظ أصول الدين و متون اللغة ، و في تدوين الآداب و الشرائع ، و كتابة التاريخ و تسجيل الأحكام و الحقوق ، و فتح أبواب العلم ، كما كانت الطريق إلى الحضارة ([1]) .

و عروبة المغرب العربي ، كما تطرق إليها العديد من الباحثين ، تقوم على جملـــة مـــن الأسس هي : اللغة و الدين و التاريخ ، و الأغلبية الساحقة من البربر تتكلم اللغة العربية ، و بها يتفاهم الجميع على إختلاف لهجاتهم المحلية . و لقد ظل البربر، يحرصون علـــى تعلـــم اللغـــة العربية ، بإعتبارها لغة دينهم ، و لكونها اللغة العلمية و القومية الوحيدة ، التـــي تمكـــنهم مـــن الرقي الفكري ، بينما إقتصر إستخدام لهجاتهم المحلية في التخاطب فقط .

و الواقع، أن رسوخ اللغة العربية و الدين الإسلامي ، هو العامل الأساسي الـــذي يســـر عملية الإرتباط بين العنصرين العربي و البربري من ناحية ، و أدى إلى فشل حركة الفرنسة في بلدان المغرب العربي ، رغم كل الأساليب و الطرق، التي إتبعها الإستعمار الفرنسي في ذلك ، لجعلها أوربية أو مسيحية أو مزيجا بينهما من ناحية ثانية ([2]) .

العنصران العربي و البربري منذ أربعة عشر قرنا و إمتزجا إمتزاجا تاما و قد جمعهما الإسلام و اللغة العربية)) .

و قد حاول الإبراهيمي تفنيد تلك الحجج ، فأعتبرها باطلـــة لا تســـتند إلـــى أي أســـاس صحيح ، و دليله في ذلك أن الدول التي قامت في المغرب العربي كاللمتونية (*)

([1])- محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 3 ، مصدر سابق ، ص ص 428 – 429 .

([2])- أنور الجندي : الفكر و الثقافة المعاصرة في شمال إفريقيا ، مرجع سابق ، ص 83 و ما بعدها .

(*) – لمتونة : قبيلة من البربر من صنهاجة ، و منها خرج المرابطون .

(1056 م– 1147 م) ، و الرستمية (761 م– 908 م)، و الموحدية (1121 م – 1269 م) ، و الصنهاجية ، و المرينية ، و الزيانية (1235 م – 1554 م) ، لا تمت بصلة إلى البربرية إلا من ناحية النسب، وعدا ذلك فهي عربية في صميمها ؛ فقد كانت عربية في كل ما يتعلق بمقومات الدولة ، كالوظائف الإدارية و المالية ، و القضائية (العقود و التسجيلات) (*) ، و عربية في ميدان الكماليات التي تستوجبها الحضارة و الترف ، كالغناء و الموسيقى و الشعر ، فلم يرد في الأثر ، أن شعراء البلاط في تلك الدول كانوا يتقربون إلى الملوك و السلاطين بالشعر ، و إن حدث ذلك فهو نادر جدا ([1]) .

و قد أكد " أنور الجندي " ([2]) هذه الفرضية ، بالقول: أن العرب لما توغلوا في بلاد المغرب العربي فاتحين لها ، لم يتخذوا ترجمانا بينهم و بين السكان المحليين (البربر) ، و هذا معناه برأيه أن اللغة البربرية لم تكن في تلك الأثناء، سوى لهجة عربية محرفة ، يستطيع العربي أن يفهمها بكل سهولة و يسر ، كما أنهم وجدوا أن أغلب أسماء الأعلام من البربر عربية . و يخلص إلى أن اللغة البربرية، ليست عربية في ألفاظها و مفرداتها فحسب ، بل من حيث تراكيبها و حروف المعاني فيها .

و يظهر لنا من خلال هذا التحليل ، أن إعتماد اللغة العربية كلغة رسمية في الحكم و الإدارة ، و الإقتصاد و الأدب ، و العلوم و المعارف ، كان خيارا طبيعيا و منطقيا خلال كل مراحل العهد الإسلامي في بلاد المغرب ، مما جنب حدوث أي إصطدام أو تعارض بين اللغتين ، و بالتالي بين الفريقين العرب و البربر ، و هو ما سعى الإبراهيمي إلى إبرازه ، ردا منه على الآراء و النظريات المشككة في ذلك ، التي إجتهد الغربيون و خاصة المؤرخون منهم ، على تثبيتها و كأنها حقائق علمية .

و عليه فإنه يرى أن المغرب العربي ، يشكل جزءا لا يتجزأ من الوطن العربي ، تربط بين أجزائه روابط الدم و اللغة ، و الدين الإسلامي و الجغرافية ، و هي خصائص تجمع ما بين

(*) – ينظر السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، م 2 ، مرجع سابق .

([1])– محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 3 ، مصدر سابق ، ص ص 428 – 429 .

([2])– أنور الجندي : الفكر و الثقافة المعاصرة في شمال إفريقيا ، مرجع سابق ، ص 99 .

البلدان المتباينة ، فكيف لا تجمع بين أبناء الوطن الواحد ؟ . و أن التفرق الحاصل بين أجـــزاء الوطن العربي ، ليست ناجمة من طبيعتها ، و إنما بسبب أمزجتنا ، و تأثرنا بكل ما هو دخيـــل و غريب عنا ([1]) .

و الظاهر هنا ، أن الشيخ يحصر أسباب الفرقة و التشرذم ، اللذان كان يشهدهما الــوطن العربي في عصره في سببين أساسيين ، فأما الأول فيتمثل في أمزجــة العــرب فــي عصــور الإنحطاط، الذين أصبحوا ميالين إلى العصبية العرقية و الإنقسام و الذاتية ، و أما السبب الثاني فيعود إلى الغزو الفكري و الثقافي ، الذي حمل معه أفكار و مبادئ تحث على الفرقة و الإنقسام بدل الوحدة .

فلم تحاول تلك الأفكار و المبادئ الوافدة ، التشكيك في وحدة المشرق و المغرب العربي فحسب ، بل عملت على تمزيق وحدة هذا الأخير ، بإختلاق قضايا و مسائل، تصوره على أنـــه لا يشكل وحدة بشرية و إجتماعية و حضارية متجانسة ، بمعنى أن كل قطــر منــه لــه مــن الخصوصيات التي تحول دون إتحاده ، أو تكتله مع الأقطار الأخرى ([2]) .

و الحق أن الشيخ، كان كثير التذكير بقضية التقليد ، إذ لاحظنا من خلال إطلاعنا علـــى آثاره ، أنه يعتبرها في كل مرة أحد الأسباب الأساسية ، ليس في غياب الإتحاد و التعاون بـــين أجزاء الوطن العربي ، و إنما في كل القضايا و المشاكل و الأزمات التـــي عايشـــها بنفســـه ، و لذلك كان يعاتب المشارقة بصفة خاصة ، على إسرافهم في تقليد الغرب دون حكمة أو تبصر في ابسط الأمور ، و خاصة مصر التي تعد في نظره : ((إمامة المشرق)(، و يطمئنهم بـــأن المغاربة سيبقون تلامذة لهم ، لكن في غير ماهم فيه تلامذة للغرب ، أي كمشارقة ([3]) .

و لقد أفردنا في هذه الدراسة حيزا ، لمواقف الشيخ البشير الإبراهيمي ، و الأمير شكيب ارسلان ، من قضية الغزو الثقافي و الفكري في البلاد العربية و الإسلامية ، التي كانت هدفا

([1]) محمد البشير الإبراهيمي: الاثار ، ج 3 ، مصدر سابق ، ص ص 2-467 .

([2])- أنور الجندي : الفكر و الثقافة المعاصرة في شمال إفريقيا ، مرجع سابق ، ص 100 و ما بعدها.

([3])- محمد البشير الإبراهيمي، المصدر نفسه ، ج 1 ، ص 333 .

لاستعمار الغربي ، و مسرحا لحضارته و مفاهيمه عن الحياة ، يسوقها بشتى الوسـائل، تحت شعار العلم و الإنسانية و التبشير الديني ([1]) .

و يقر الإبراهيمي ، بأن المغرب العربي بصورة عامة، و الجزائر بصـورة خاصـة ، فرغم الظروف الإستعمارية القاسية التي يحيونها ، إلا أن ذلك لا يسقط عنهما مسؤولية المساهمة في بناء الوحدة العربية ، فيذكر أن جريدة البصائر و هي لسان حال جمعية العلمـاء المسـلمين الجزائريين ، ترى في المشرق العربي : ((شركة مساهمة)) يحق للمغرب العربي أن يسـاهم فيها برأسمال ، و قد ترجمت الجمعية ذلك في أرض الواقع من خلال جريدتها ، حيث أن هـذه الأخيرة تعد المؤسسة الوحيدة، التي إلتزمت بتقديم مساهمتها كاملة: ((للشركة العربية)) ، بمـا بذلته من مجهودات جبارة، لتقريب أواصر الأخوة بين عرب المغرب و المشرق ، و ما بنته في الجزائر من مؤسسات تربوية ، أخذت على عاتقها إحياء اللغة العربية ، التي حاول الإسـتعمار الفرنسي القضاء عليها .

و يستدرك فيقول ، أنه و إن قال هذا الكلام و هو حقيقة لا غبار عليها ، فإنه لا ينـتقص من جهود المؤسسات الأخرى العاملة في هذا الميدان ، و إنما هو إشارة إلى أن المساهمة فـي رأس مال الشركة العربية ، لا يكون عن طريق البرقيات أو إقامة الإحتفالات بيوم العروبـة ، و إنما بإثبات أننا عرب ([2]) .

و على ضوء هذه الفكرة ، تجلى لنا أن الشيخ الإبراهيمي ، أراد أن يبين بـأن جمعيـة العلماء المسلمين الجزائريين كانت لها نظرتان : نظرة وطنية من خلال مقاومة الإستعمار فـي الجزائر ،و إثبات أن الكيان الجزائري يختلف عن الكيان الفرنسي في الدين و اللغة و العـادات و التقاليد ، و نظرة قومية تتمثل في الإهتمام بالقضايا المطروحة آنذاك على الساحة السياسـية و الفكرية ، و منها الوحدة العربية ([3]) . كما أوضح لنا أن العروبة مشروع حضـاري ، يبنـى بالتخطيط و الإجتهاد و بذل الطاقات ، و ليس بإطلاق الشعارات و إقامة التظاهرات الإحتفالية ،

([1])– ينظر غازي التوبة ، المرجع السابق ، ص 292 و ما بعدها .

([2])– محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 2 ، مصدر سابق ، ص 232 .

([3])– محمد طهاري : الحركة الإصلاحية في الفكر الإسلامي المعاصر ، مرجع سابق ، ص ص 93 – 95 .

و الأطناب فيها بذكر العروبة و التغني بمحاسنها و أمجادها ، على النحو الذي كان يحدث في ذلك الوقت .

و العروبة عند الإبراهيمي ، تستوجب تقديم النصح و التوجيه للأخوة ، و لذلك وجدناه يدعو حزبا " الشورى " و " الاستقلال " المغربيان في عدد أفريل 1951 م من جريدة البصائر ، اللذان إستفحلت بينهما الخلافات السياسية ، إلى إلتزام الحكمة و العقل و التبصر ، مراعاة لمصلحة أحزابهم و بلدهم الذي يرزخ تحت وطأة الإستعمار ، معتبرا ذلك واجبا دينيا و قوميا :((... و أن منطقنا الصحيح في هذه القضية ... ، أن كل عربي لم يمتعض لها ضنين في نسبه- مشكوك في نسبه- ، و ان كل وطني لم ينتصر لإخوانه الوطنيين المقصودين بالشر فيها ، كاذب في دعواه)) .

و لذلك أيضا، سارع إلى الترحيب بقيام الأحزاب المغربية الأربعة (الإستقلال ، الشورى و الإستقلال ، الإصلاح ، الوحدة المغربية) ، بالإعلان عن موقفها الموحد إزاء قضية المغرب مع إحتفاظ كل حزب بشخصيته و إستقلاله ، بقوله أن هذه الخطوة هي حلم كنا نحلم به ، و قد عملنا لأجله بالأقوال و الأفعال ، إنطلاقا من إعتقادنا الراسخ بأن الإتحاد هو السلاح الوحيد الذي نستطيع به، أن نقضي على الإستعمار .

فمن حظ الإستعمار في هذه الأمة، وجود عناصر من المرتزقة و الأئمة ،والعلماء و الموظفين و شيوخ الطرق الصوفية ، الذين وضعوا أنفسهم في خدمته ، فإذا إختلفت العناصر الصالحة زاد ذلك في حظه . و بالتالي، فإن هذا الإتحاد الذي وحد مواقف الأحزاب المغربية – السالفة الذكر – ، يعد خسارة جسيمة للإستعمار ، و ضربا لسياسته و إستراتيجيته في المنطقة ، و إحقاقا لحقوق الوطن ، فقد كان يعتمد على الفئة الأولى ، و على إنشقاق و تشرذم الفئة الثانية ، فلما توحدت هاته الأخيرة فقد كل شيء ([1]) .

كما توجه إلى قادة الأحزاب السياسية الجزائرية ، بالقول أن المبادئ التي يتمسكون بها دسائس دخيلة ، مصدرها أفكار تنشر العداوة الحزبية بين الأخوة ، بحجة واهية هي الحفاظ على المبدأ . و دعاهم إلى نبذها، بضرورة الإتحاد و تقدير الظروف و دحضها ، إستجابة للمصلحة

([1])- محمد البشير الإبراهيمي : الاثار ، ج 2 ، مصدر سابق، ص ص 393- 400 .

الوطنية . و أضاف أنه بين الصفوف رجال مندسون، يبحثون عن المنافع المادية الشخصية ، و المناصب السياسية، على حساب المصلحة العامة ، فينبغي طردهم من الصفوف ،و الإستغناء عن العمل بآرائهم ، لأن طردهم (إخراجهم) لا يترتب عنه نقصان في العدد أو ضعف في القوة ، بل قطع لدابر الفساد من الصفوف ، و إستئصال لعنصر الضعف من الأتباع .

و ختم خطابه، بالتنبيه إلى أن الأمة الجزائرية من وراء تلك الأحزاب ، و قد إمتد إليها الخلاف بسبب إختلافاتها ، فإذا بادروا إلى الوحدة إتحدت ، و أنها مستاءة من تلك الخلافات في تلك الأوقات بالذات ، و قد يدعوا ذلك الإستياء إلى اليأس و عدم الثقة بكم : ((فأنعشوا أمال أمتكم بإتحادكم و قووا معنوياتها بجمع كلمتكم)) ([1]) .

و منه نستطيع القول، أن الإبراهيمي ، كان يعتبر أن الخلافات السياسية و الصراعات الحزبية في بلدان المغرب العربي – و قد ذكر منها المغرب الأقصى و الجزائر – ، كلها تصب في خدمة المستعمر و تستجيب لأهدافه ، و سياسته القائمة على ضرب الوحدة الداخلية لتلك البلدان ، حتى ينفرط عقد الوحدة المغاربية ومن ثمة الوحدة العربية .

و تجدر الإشارة هنا أيضا ، الى أنه قد نبه إلى قضية في غاية الأهمية ، و هي وجود عناصر فعالة داخل المجتمعات العربية في مختلف المجالات : السياسية و الدينية و الثقافية ، تعمل بالتعاون مع الإستعمار للحيلولة دون قيام أي إتحاد ، بإثارة النعرة الحزبية و المذهبية و العنصرية و الإقليمية . و شدد على خطورة الدور الذي تؤديه ، و حث على الإسراع في إبعادها بكل حزم و صرامة .

فهذه الفئة بما كانت تحمله من أفكار و توجهات ، و ما تقوم به من ممارسات ، هي التي هيأت الطريق للإستعمار الخارجي، – و التي تحرص كل الحرص على بقائه و إستمراره ، لأن وجودها مرتبط بوجوده – ، رغم معاملة الجور و الظلم و التعسف ، و مصادرة الحريات و الثروات و الأملاك ، التي كان يمارسها في مجتمعاتها ([2]) .

لقد عاتب الإبراهيمي كثيرا العرب و المسلمين ، على سكوتهم المطبق إتجاه سقوط الجزائر في يد الإستعمار الفرنسي، بشكل أوحى له و كان الأمر لا يعنيهم ، رغم أن الجزائر

([1])– محمد البشير الإبراهيمي: الآثار ، ج 3 ، مصدر سابق، ص 302 .

([2])– محمد دراجي ، المرجع السابق ، ص ص 120 – 122.

قطعة أساسية في الوطن العربي و العالم الإسلامي . و قد إعتبر موقفهم هـذا خطيـرا جـدا ، سيؤدي إلى نتائج وخيمة على الجميع ، حيث تنبأ بأن يد الإستعمار سـتمتد إلـى كافـة الـبلاد العربية ، و هو ما حدث فيما بعد ([1]) .

و إذا كان السكوت عن الإحتلال ، هو موقف الأغلبية من البلاد العربية و الإسـلامية – كما ذكر الشيخ – فإن البعض و منهم " محمد علـي باشـا " (1769 م – 1849 م) حـاكم مصر ، قد عرض كل المساعدات المادية و المعنوية لفرنسا في حملتها لغزو الجزائر ، بل أنـه وافق على إحتلال الجزائر بقيادة إبنه "إبـراهيم باشـا" (1789 م – 1848 م) ، ثـم تـونس و طرابلس ، بدلا عن فرنسا التي تتحمل فقط الأعباء المالية و تقدم الدعم السياسـي الـلازم ، مقابل ثمن زهيد هو 04 سفن حربية ذات 80 مدفعا ، و 20 مليون فرنك ؟ ([2]) .

و منهم أيضا حاكم تونس " حسين باي " ، الذي إلتزم موقف الحيـاد الميـال للحكومـة الفرنسية ، و قام بإرسـال وفـد لتقـديم تهـاني النصـر إلـى الجنـرال " دي بورمـون " (DE BOURMONT) بعد سقوط العاصمة ، متحديا الإحتجاجات الشعبية . و زيادة علـى ذلك منع موفد السلطان العثماني من النزول بميناء " حلق الـوادي " ، حتـى لا تجـد القضـية الجزائرية حلا لها . أما السلطان المغربي " مولاي عبد الرحمان " ، فقد رخص للقوات الفرنسية أن تتمون من موانئ مملكتـه ، و لـم يصـدر منـه أي تضـامن أو تعـاطف مـع الدولـة الجزائرية ([3]).

و مهما يكن، بالنسبة للشيخ البشير الإبراهيمي ، فإنه من حق الجزائر على العـرب ، أن يعرفوها و يتواصلوا معها ، و أن يدرسوا تاريخها الذي هو جزء من التاريخ العربي المشترك ، و أن يعدوا محنتها محنتهم ، و قضيتها جزءا من قضيتهم ، فإذا كانت قضايا البلدان العربية في

([1])– محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 5 ، مصدر سابق ، ص 78 .

([2])– ينظر عمار هلال ، المرجع السابق ، ص 41 ، 42 ، 43 . و ينظر أيضا بوضرساية بوعزة : " موقـف حاكم مصر محمد علي باشا من الإحتلال الفرنسي للجزائر من خلال إحدى التقـارير السـرية الفرنسـية " ، الذاكرة ، مجلة الدراسات التاريخية للمقاومة و الثورة ، المتحف الوطني للمجاهد ، الجزائـر : 1995م ، ص 185 و ما بعدها .

([3])– فتحي دردار : الأمير عبد القادر الجزائري بطل المقاومة الجزائريـة (1832 م – 1847 م) ، د ط ، الجزائر : 2001 م ، ص ص 17 – 18 .

المشرق ممكنة الحل، دون طلب المساعدة من بقية العرب ، فإنه من الخطاء الإعتقاد أن كل القضايا في الإمكان حلها لوحدها ، بل من المستحيل تحقيق ذلك ، و عليه فإنه لا مجال إلا بجعل كل تلك القضايا قضية واحدة ، و عندئذ يتيسر حلها، بفضل الوحدة و التلاحم و الحديث بصوت واحد ([1]) .

إن السبب برأيه، الذي جعل الإخوة العرب ، يقفون ذلك الموقف إتجاه القضية الجزائرية هو الغرب الذي عمد إلى تخذيرهم بالوطنيات الضيقة ، و قد نجح في ذلك ، إذ أصبح كل فريق عربي يقتنع بقطعة صغيرة من الأرض أشبه : ((بجلد الضب)) ، و يدافع عنها : ((بسلاح الضب)) ، فإذا تمزقت الأطراف ، فكيف لنا أن نسعى لأن تبقى العواطف موحدة . فأصبح " المصري " يتغنى ببلده مصر ، و " اللبناني " لا يرى أبعد من " الجبل " ، و دمشق تفتخر بأمجادها التي أقامها خلفاء بني أمية " مروان " و "عبد الملك " ، و بغداد مزهوة بعهد " هارون الرشيد " دون أن تسعى إليه .

و يضيف، بأن الغرب لجأ إلى هذا النوع من التخذير ، حتى يستطيع أن يقسم الخبزة إلى لقم عديدة ، فيسهل عليه مضغها و إبتلاعها ثم هضمها ، و قد أفلح في تحقيق غايته في الأولى و الثانية ، و هو الآن بصدد الثالثة (الأخيرة) أي الهضم : ((فإما أن نكون مغصا في أمعائه وعلة لموته ، و إما أن يهضمنا فنستحيل غذاءا له و مزيدا في قوته)) .

و يختم حديثه في هذا الصدد ، بالإقرار أن الغرب أغرانا بترك و إستهجان الجنسيات و إعتناق المبادئ ، في حين يؤمن هو بالجنسيات و يحارب المبادئ ، فالكيان الصهيوني تأسس على العنصرية الإسرائيلية ، و الحركة " النازية " قامت على العنصر " الجرماني " ، و روسيا اليوم و رغم أنها تدعي النزعة العالمية إلا أنها قائمة على " السلافية " ، و الأمر ذاته بالنسبة لإنجلترة القائمة على " السكسونية " ، و أمريكا التي تعد "كشكولا" (*) من الأقوام جمعتهم

([1])- محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 5 ، مصدر سابق ، ص 101 .

(*)- الكشكول و الكشكولة : وعاء المتسول يجمع فيه رزقه (و الكلمتان آرميتان) ، و به سمي كتاب : " الكشكول " لـ : " بهاء الدين العاملي " ، لأنه جمع أشياء كثيرة ، مختلفة المواضيع . المنجد في اللغة و الاعلام .

المصالح المادية ، و سيأتي اليوم الذي تستفحل فيه النزاعات و التناحرات بينهم فينفــرط ذلــك الإجتماع .

و عليه فإن العرب، ليسوا سابقة في هذا المجال ، فلهم نفس المقومات و الإســتعدادات ، حتى يكونوا مثل تلك الشعوب الغربية ، التي بنت دولها على أساس العنصرية و القومية . لكــن هذا لا يعني أن الإبراهيمي ، من العلماء الذين يدعون إلى العصــبيات الجنســية و الوطنيــات الضيقة ، و إنما يدعوا الى ما يسميه : ((الوطنية الواسعة ، و العقيدة الروحية الجامعة)) ، فإذا إكتملت و رسخت في النفوس ، فإنها لا تتعارض مع التمسك بالجنسيات دون تعصب ، فنكــون بذلك قد حققنا سنة الله ، التي جعلت الناس شعوبا و قبائل ليتعارفوا))([1]) .

و هكذا نجد أن الشيخ الإبراهيمي ، ينتقد بشدة العصــبيات العنصــرية ، و الوطنيــات الضيقة ، التي إستشرت في البلاد العربية ، و تعاظمت إلى الحد الذي تحولت فيه إلى أداة في يد الإستعمار الغربي ، يوظفها في الإستفراد بأجزاء الوطن العربي الواحد بعد الآخــر ، فبعــد أن إحتل الجزائر سنة 1830 م ، جاء الدور على تونس سنة 1881 م ، و مصر سنة 1882م ... إلخ ، إلى أن إحتلها جميعا .

و مع ذلك فإنه لا ينفي ، وجود دول عربية مستقلة بذاتها ، لأن الأمة قد تتألف مــن دول عديدة ، كل واحدة مستقلة بنفسها ، على أن تجمعها رابطة القومية ، التي تتجاوز حــدود تلــك الدول المتفرقة ، و تسعى إلى ربطها كلها برباط معنوي عام ، يســمو فــوق كــل الوطنيــات الخاصة ([2]) .

كما أنه دافع بشدة أيضا ، عن حق العرب في أن تكون لهم وحدتهم الخاصة ، على شاكلة الأمم الأخرى و منها الغربية ، و أوضح أن عناصر النجاح و الديمومة كبيرة بالنسبة إليهم ، إذا ما قورنت بأمم أخرى جمعت شعوبها المصلحة المادية ، و أعطى مثــالا بالولايــات المتحــدة الأمريكية .

([1])- محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 5 ، مصدر سابق ، ص 102 .
([2])- أبو خلدون ساطع الحصري ، المرجع السابق ، ص 10 .

و لهذا رأى ، أن تضامن العالم العربي مع المغرب الأقصى في محنته ، أمــر طبيعــي لا غرابة فيه ، لأنه جاء إستجابة لنداء الدم و القرابة ، و العواطف و الفطرة الإنسانية ، التي لا يمكن كبح جماحها ، فلا يلام فيها العرب ، مثلما لا يلام اليهود في أمريكا على تضــامنهم مــع إخوانهم يهود ألمانيا ، و يهود فرنسا إذا تــألموا لكارثــة أو مصــيبة ، قــد تحــل بــإخوانهم في فرنسا ([1]) .

و لإعطاء الدليل ، على إرتباط شعوب المغرب العربي بالمشرق العربي ، و مــن ثمــة بالوحدة العربية ، إستشهد بميثاق "جبهة تحرير الجزائر" ، الذي إعتبر الجزائر جزءا لا يتجــزأ من المغرب العربي ، الذي هو جزء من العالم العربي الكبير ، و أن توجهها نحــو العروبــة ، و تعاونها مع الشعوب و الحكومات و الجامعة العربية، هو أمر طبيعي. كما حث الميثاق، على الإيمان بوجوب توحيد الكفاح ضــد الاســتعمار، بــين أقطــار المغــرب العربــي الثلاثــة : (تونس ، الجزائر ، مراكش) ([2]) .

و بالفعل، فقد ظل المغرب العربي ، على إتصال دائم ببلاد المشرق ، حتى فــي أحلــك فترات القمع و التضييق التي فرضها الإستعمار عليه ، حيث كانت مقصد أعلامه و مجاهديــه ، يكتبون المقالات حول القضايا المغاربية ، في صحفه و مجلاته ، و يكشفون مساوئ الإســتعمار الفرنسي و الإيطالي و الاسباني في الشمال الإفريقي، في أنديته و مجالسه ([3]) .

و قد أكد الشيخ في الختام،على هذا الارتباط و متانته ، بقوله: أنه رغم مــا يقولــه عنــا الغربيون بأننا برابرة و متوحشون ، فإننا متشددون في تمسكنا بالروابط الشرقية في الكثير مــن مناحي الحياة ، و لقد تعرضنا للإستعمار مدة طويلة فاقت قرنا من الزمن ، لكنه لم يســتطع أن يقطع تلك الأواصر ([4]) . فبقيت كل قلوب شعوب المغرب تهفوا إلى المشرق العربي ، و تتطلع أنفسهم إلى كل ما يأتي منه من أنوار ، و تعترف عقولهم بما أنتج و أبدع في حقول العلم

([1])- محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 3 ، مصدر سابق ، ص ص 429 – 430 .

([2])- المصدر نفسه ، ج 5 ، ص 54 .

([3])- ينظر أنور الجندي : الفكر و الثقافة المعاصرة في شمال إفريقيا ، مرجع سابق ، ص 105 و ما بعدها.

([4])- محمد البشير الإبراهيمي ، المصدر نفسه ، ج 1 ، ص 333 .

و المعرفة ، و الفن و الحضارة ، و تعترف بفضل العراق على العروبة و الإسلام ، و تنتظـــر اليوم الذي تزول فيه :((الحواجز المزيفة)) ، فتتصل الأطراف ببعضها البعض كمـــا تتصـــل القلوب ([1]) .

([1])– محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 2 ، مصدر سابق ،ص 202 .

02 – عروبة الدروز و موقعهم من الوحدة العربية (ارسلان) :

أوردنا في الفصل الثاني من هذه الدراسة ، في المبحث الذي كرسناه للحديث عن نسب الأمير شكيب أرسلان ، أنه ينحدر من الأسرة الأرسلانية ، التي تنتمي إلى الطائفة الدرزية ، إحدى الطوائف الأساسية المؤلفة للنسيج الإجتماعي و الديني في لبنان ، التي تضاربت الآراء و الكتابات حول نسبها ؛ فمنها من قال بأن نسبها عربي صميم ، و منها من أرجعه إلى أصول فارسية ، و ذهب بعضها إلى القول بأنها من بقايا الصليبيين و اليهود في بلاد الشام . و إجتهد كل فريق في سرد الأدلة التاريخية و المادية ، لتأكيد صحة رأيه أو نظريته .

أما مترجمنا الأمير شكيب، فقد دافع بشدة عن عروبة طائفته ، فتصدى بالكتابة و النقد لكل من نفى عنها العروبة أو الإسلام ، مبينا الخلفيات و الغايات التي تحركها . مظهرا غضبه و إمتعاضه الكبير، من بعض العرب و المسلمين، الذين إنساقوا حسبه لتلك المحاولات المغرضة التي تستهدف إبعاد الدروز عن الدائرة العربية و الإسلامية ، خدمة للمصالح الإستعمارية ، التي تتغذى و تتقوى من التفرقة و التشتيت و التقسيم .

فبعد أن وردت إليه مقالة مترجمة لكاتب ألماني سنة 1925 م ، زعم فيها أن الدروز كسائر أهل سوريا ينتمون إلى أجناس مختلفة ، سارع الأمير إلى الرد عليها بمقالة عنوانها : " الدروز أو بنو معروف بأجمعها عرب صراح " ، بدأها بالقول أن الدروز في نسبهم عرب أقحاح ، و أن عروبتهم أصح و أقدم و أمتن ، من كل عرب الجزيرة العربية قاطبة ، معتبرا الإقرار بأنهم من بقايا الصليبيين و اليهود ، رأي سخيف ، مستغربا و متسائلا عن الدلائل و الإشارات التي استندوا إليها في حكمهم ذاك، التي تجعلهم شبيهين بالإفرنج الصليبيين ؛ هل هي سنحتهم أم ألوانهم أم شكل رؤوسهم ، أم أخلاقهم أم عاداتهم، أم لغتهم العربية الفصيحة التي لا توجد في كامل سورية ، من يتكلمها أحسن منهم ؟ . و يضيف إلى ذلك متسائلا أيضا ، كيف أمكن أن يتحول الدروز ذلك التحول العظيم ، من افرنج صليبيين إلى عرب أقحاح ؟ و ما هو الزمان و المكان اللذان حدث فيهما ذلك التحول المزعوم ؟ ([1]) .

([1])– شكيب أرسلان : بنو معروف أهل العروبة و الإسلام ، مصدر سابق ، ص 71 .

و أعرب عن تحديه ، لأولئك الكتاب و المؤرخين ، أن يجدوا له و لو إشارة ، على ما ذهبوا إليه و زعموه بشأن قومه ، في كتابات كبار المؤرخين العرب و المسلمين ، من أمثال: عز الدين علي بن الأثير (1160 م – 1234 م) ، عبد الرحمان إبن خلدون (1332 م – 1406 م) ، ياقوت الحموي (1179 م – 1229 م) ، إسماعيل أبو الفداء (1273 م – 1331 م) ، أبو القاسم على إبن عساكر (1105 م – 1176 م) ، شمس الدين محمد الذهبي (1274 م – 1348 م) ، عبد الرحمان بن إسماعيل أبو شامة (1203 م – 1268 م) ، عز الدين محمد إبن شداد (1217 م– 1285م) أبو بكر إبن قاضي شهبة (ت 1448 م) ، محمد إبن النديم (ت بعد 1000 م) ، أحمد إبن خلكان (1211 م – 1282 م) ، شمس الدين (محمد) إبن طولون (1483 م – 1546 م) ، صلاح الدين خليل الصفدي (1296 م – 1362 م) ، كامل الغزي (1853م – 1933 م) ... و غيرهم . و حتى لدى المؤرخين اللبنانيين: كأبو سعد السمعاني (1113 م – 1167 م) ، إبراهيم الحاقلاني (1605 م – 1664 م) ، صلاح الدين خليل الصفدي (1296 م – 1362 م) ... و غيرهم من المؤرخين، المشهود لهم بالتمكن في الكتابة التاريخية عامة ، و في الانساب خاصة . أما الدلائل التي تثبت حسبه عروبة الدروز ، فهي كالآتي :

01 – سحنتهم العربية الخالصة ، و تشابههم فيما بينهم ، حيث يمكن التمييز بين الدرزي و غيره بسهولة كبيرة .

02 – فصاحة لغتهم العربية ، و إخراجهم الحروف من مخارجها الصحيحة ، فتجد الدرزي البسيط يتحدث لغة فصيحة ، تفوق فصاحة المتخصص في النحو ، وفيها إصطلاحات تدل على أنهم من عرب اليمن .

03 – كون أن كل المصادر الدرزية و غير الدرزية ، تتفق على أنهم من نسل إثنتي عشر قبيلة عربية ، هاجرت من حلب الى لبنان ، في أوائل العهد العباسي .

04 – كونهم من " الشيعة السبعية " ، أي القائلين بالأئمة السبعة ، و هم فرقة من الشيعة ، مع العلم أن شيعة سورية هم عرب أقحاح (من عرب اليمن)([1]).

([1])– شكيب أرسلان : بنو معروف أهل العروبة و الإسلام ، مصدر سابق ، ص 85 .

05 – وجود بطون و أفخاذ في المجتمع الدرزي ، تتصل أنسابها إلى قبائل عربية ، و منها من ما زالت الصلات بينها لغاية الآن ([1]).

06 – لا اختلاف بين جماجم الدروز و عرب البادية ، بحسب الأطباء الذين فحصوها .

07 – بقاء القرابات بين الدروز و الشيعة إلى عصرنا هذا ، لا ينفي وجود عائلات درزية أصلها من أهل السنة .

08 – كون أن أخلاق و عادات و منازع و مشارب ، آل معروف (الدروز) كلها عربية خالصة ([2]) .

إنطلاقا من ذلك ، نلاحظ أن الأمير شكيب، لم يدع مؤشرا أو دليلا ، يثبت به انتماء الدروز إلى القومية العربية ، إلا أتى به و بينه ؛ حتى نتائج الأبحاث العلمية في ميدان الطب و السلالات ، التي تعني بدراسة الأجناس البشرية ، و تصنيفها و تتبع تطورها ، من خلال فحص الجماجم و بعض الأعضاء الأخرى ، و مقارنة بعضها ببعض . مما يدل على أنه كان منزعجا كثيرا ، من تلك الكتابات و الآراء ، التي رأى أنها سخيفة و مغرضة ، لا تستند على أية حقائق تاريخية أو علمية . ما كان لها أن تنتشر و تلقى الرواج ، لو لا انسياق بعض المؤرخين لها ، دون تدقيق أو تمحيص ، كما يفترض في ناقل الخبر أو المعلومة التاريخية .

و في هذا، ذكر المؤرخ اللبناني " فيليب حتي " ، الذي لامه كثيرا على نقله لتلك المغالطات في كتابه عن الدروز، التي ما فتئ المؤرخون الأوروبيون يروجون لها ، و التي وصفها بالخلط و أصحابها بالخالطين الإفرنج ، الذين إجتهدوا في سوق التبريرات الكثيرة ، التي و رغم كثرتها إلا أنها بقيت ضعيفة و عاجزة عن قلب الحقائق ، لأنها إنصرفت إلى البحث عن الرأي الطريف الذي لا وجود له ، و جعله نظرية علمية جديدة غير مسبوقة . فيحسن بالمؤرخ أن يتحلى بالدقة ، في كل ما يطلع عليه من رأي ، و أن لا يقبل به مهما بلغ من شهرة ، إلا بعد تمحيص تطمئن به نفسه ، و تحقيق يودي به إلى عين اليقين . و في المقابل أكد أنه لا أسوأ و لا أضر بالعلم و المتعلمين ، أن يستغرق الباحث كل جهوده في : ((الإتيان ببدع و السبق

([1])– شكيب أرسلان : بنو معروف أهل العروبة و الإسلام ، مصدر سابق ، ص 85 .

([2])– احمد الشرباصي: شكيب ارسلان داعية العروبة و الإسلام ، مرجع سابق ص ص 67 – 68 .

إلى رأي لم يقل به أحد أو تقوية رأي ضعيف)) .

إن الباحث الذي يتعمد مخالفة الرأي المتعارف عليه (المشهور) لأنه مشهور ، و يحاول أن يكسب الشهرة بالإتيان برأي جديد يحل محل القديم ، يكون بذلك في نظر الأمير شكيب، قد خالف الشروط العلمية على الإطلاق . فإذا كان في الإمكان ، تفهم أو قبول الأمر في بعض الجوانب : الأزياء و الألبسة و المساكن و المطاعم و المشارب ، و غيرها مما يتصل بالمعيشة ، مما ترتاح إليه الأنفس التي تتطلع دوما إلى التغيير و تمل من النمطية ، و تسأم الثبات في الأذواق ، و لا شك أن كل ذلك جد طبيعي و مقبول و معقول . لكنه غير ممكن في الحقائق التاريخية، التي لا يجوز الإختراع فيها لمجرد الإختراع، أي من أجل المخالفة و الشهرة لأن : ((إختراع الآراء التاريخية حبا بجدة الآراء و البحث عن خبر جديد نأتي به و لو لم يركب في عقل و لا نقل و نؤيده و لو كان متداعيا لمجرد اللمح كل هذا ولوعا منا بالإطراف و الإبداع ، هذا جناية على العلم)) .

و لهذا توجه بالتحذير للدكتور " فيليب حتي " ، من الإنسياق في هذا المسلك الذي لا يؤدي إلى أي شيء بنظره ، و نصحه بإعتماد التحقيق الذي لا يبالي بما يجيء في طريقه سواء أكان موافقا للرأي القديم أم مخالفا له . و توجه بالتحذير أيضا لعامة العرب ، من التهافت على ما وصفه بالإغراب الذي هو عكس التحقيق ؛ و معناه الإتيان بما هو مخالف للحقائق حبا في الشهرة و تعمدا للمخالفة ، و ليس بغرض تأكيد أو نفي، أو تعديل القديم، بعد توافر الأدلة القاطعة ([1]) .

و الحال أن الأمير شكيبا ، في نقده التاريخي لأراء المؤرخين الغربيين حول أصول الدروز ؛ و لمسلك بعض المؤرخين العرب بصفة خاصة و الشرقيين بصفة عامة ، المتمثل في نقلهم و تبنيهم لتلك الآراء و الأطروحات، دون إعمال للقواعد العلمية المتفق عليها في هذا الميدان ؛ من تحقيق و تدقيق و تمحيص و إصدار للأحكام، بناءا على الأدلة القاطعة ، و ليس على المشكوك فيها . قد أظهر، أنه كان يتمتع بوعي تاريخي عال جدا ، بل إن ما جاء في مقالته تلك – التي أشرنا إليها فيما سبق – ، بين أنه كان على دراية كبيرة بعلم التاريخ و مناهجه و مدارسه، في القديم و الحديث . حتى و إن كان بصدد الدفاع عن الأصول

([1])– ينظر شكيب أرسلان : بنو معروف أهل العروبة و الإسلام ، مصدر سابق، ص 79 و ما بعدها .

العربية الخالصة لقومه الدروز ، فإنه في مقابل ذلك؛ أكد على أن التاريخ علم قائم بذاته ، ينبغي على المشتغل فيه، أن يلتزم الموضوعية و الحياد قدر الإمكان . فالمؤرخ عالم مثل بقية العلماء في الحقوق العلمية و المعرفية الأخرى ، لكنه يختلف عنهم في كونه إذا أخطأ مع التعمد، فإن لخطئه نتائج فكرية خطيرة على حاضر و مستقبل الأفراد، و الجماعات و الشعوب و الأمم ، يصعب تصحيحه بعد أن يتمكن من الأذهان .

و من الصفات التي شدد على توفرها في المؤرخ ، ملكة النقد ، فليس كل ما ورد إليه صوابا ، إذ ينبغي عليه : أن يتفحص كل ما يقع تحت يده من أصول، و أن يخضعها لكل أنواع النقد و التحليل، على ضوء المصادر الأخرى، و طبيعة العصر، و منهج البحث العلمي المنزه عن الهوى . فإذا أغفل المؤرخ هذا الجانب، سقطت عنه صفة المؤرخ ، و أصبح مجرد شخص يكتب ما يقع تحديده ... لأن – من واجبه – أن يقدم كل ما أمكن عن الحقيقة .

كما شدد أيضا، على ضرورة أن يتحلى المؤرخ بالأمانة و الشجاعة ؛ فالأولى تعني نقل المادة التاريخية دون تحريف أو زيادة أو نقصان ، أما الشجاعة فيقصد بها ، الإحتكام للضمير في نقل الحقائق التاريخية . فإذا فعل العكس لا يعد مؤرخا ، و سوف يقدم نتائج مخالفة للحقيقة ، ثم يأتي باحث آخر و يكشف الحقيقة ، فينسخ ما قدمه لعدم إلتزامه بالأمانة و الشجاعة ([1]) .

و لذلك اعتبر البعض ، ما يقوم به المؤرخ مهنة شاقة ، و صناعة مثل باقي الصناعات ، تحتاج الى المهارة و الدقة و الإتقان ، ليخرج المنتج في أحسن صورة ، و هو ما تحتاج إليه الحقيقة التاريخية ([2]) .

و ختم الأمير شكيب دفاعه ، عن عروبة الدروز ، بمخاطبة الأجانب الذين يقصد بهم الغربيين ، بأن سعيهم لفصل طائفته عن الجسم العربي من خلال زرع تلك الأكاذيب و الإفتراءات ، هو مسعى مآلة الفشل ، فما إن تجد ساعة الجد ، حتى يسارع الدروز ،

([1])– ينظر محمود سعيد عمران : منهج البحث التاريخي و مصادر العصور الوسطى ، د ط ، دار المعرفة الجامعية ، السويس ، مصر : 2006م ، ص 14 و ما بعدها .

([2])– ينظر غني تويلييه ، جان تولار : مهنة المؤرخ ، تعريب عادل العوا ، ط 1 ، عويدات للنشر و الطابعة ، بيروت : 2001م .

إلى الانضمام إلى الجامعة العربية و الجامعة الإسلامية ، لأنهما المكان الطبيعي لهما، و الذي يقول عكس واهم و كذاب و مفتري ([1]) .

و في المقابل من ذلك ، خاطب أهل طائفته بالقول : أنه ليس من اللائق بالطائفة الدرزية ، التي عدها أصفى الطوائف السورية ، عروبة و أثبتها نسبا ، أن تتكر العروبة و تفضل عليها الأجانب ، فهو أمر مخجل إن فعلته ، فلا بد لها أن تقدم الجامعة العربية على كل إعتبار ، و كل مسعى خارج هذا الإطار ، يحط من شأنها و يسجل عليها . فتبعية جبل الدروز للشام ، لا يعني أنهم عبيدا للشام ، بل يعني أنهما يؤلفان مملكة واحدة ، فإذا كانت مرسيليا تابعة لباريس عاصمة فرنسا ، فلا يعني ذلك أنهم عبيدا لأهل باريس ([2]) .

ورد في المضمار ذاته ، على من كان يدعو إلى جعل الدروز خارج الوحدة السورية ، بأن جبل الدروز لا يمكنه أن يكون منفصلا عن سورية ، و لا يمكنه أن يحيى مستقبلا ، إذا كانت تحت حماية الأجنبي ، فلماذا تستثقل علينا نحن الدروز الأمة العربية الإنضمام إليها و نسبنا عربي طاهر ؟ يتساءل الأمير شكيب ؟ ([3]) .

و جدير بالإشارة ، أن الدروز لم يتعرضوا للتشكيك في أصولهم العربية فحسب ، بل إمتد ذلك إلى عقيدتهم الإسلامية ، فقد أجمعت بعض الكتابات أن عقائدهم تتسم بالغموض و السرية الشديدين ، و ذهب بعضها الى حد إخراجهم من الدائرة الإسلامية ، بل و رميهم بالكفر و المروق عن الإسلام ، و هو ما حاول الأمير شكيب التصدي له أيضا .

حيث نفا ذلك نفيا شديدا ، في مقالة بعنوان : " و لا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مسلما " ، نشرتها جريدة الشورى عدد 31 ديسمبر 1925 م ، فذكر أن الدروز هم فرقة من الفرق الإسلامية ، أصلهم من الشيعة الإسلامية الفاطمية ، التي أصلها من الشيعة السبعية القائلين بالأئمة السبعة ، و هو مسلمون كما لا يخفى على أحد . فإذا قيل أنهم من الفرق الباطنية غير المسلمة ، فالجواب على ذلك ؛ أنهم مسلمون و يلتزمون بإقامة كل الشعائر الإسلامية ،

([1])- أحمد الشرباصي : شكيب أرسلان داعية العروبة و الإسلام ، مرجع سابق ، ص 68 .

([2])- نجيب البعيني ، المصدر السابق ، ص 405 .

([3])- المصدر نفسه ، ص 388 .

و يربطون مصيرهم بمصير المسلمين في السراء و الضراء ، و يعتبرون كل من خرج عن ذلك منهم ، أنه ليس بمسلم .

و تبعا لذلك يصل شكيب إلى أنه ، يستحيل على المسلم الحقيقي ، الـذي فهـم الإسـلام صحيحا كما فهمه السلف الصالح ، و الذي سمع بالحديث النبوي الشريف : ((فهلا شققت على قلبه)) ، أن يخرج الدروز من الإسلام . و قد جاء في القرآن الكريم : ((ولا تقولوا لمن ألقـى إليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحيـاة الـدنيا)) ، و هـؤلاء القـوم – الـدروز – لا يلقون السلام فحسب ، بل يقولون أنهم مسلمون ، يحفظون القـرآن ، و يلقنـون موتـاهم : ((إذا جاء منكر و نكير و سألاك ما دينك و من نبيك و ما كتابك و ما إخوانك و ما قبلتك . فقل لهما الإسلام ديني و محمد "ص" نبيي و القرآن كتابي و الكعبة قبلتي و المسلمون إخـوتي)) ، و ليست هناك شعيرة من الشعائر الإسلامية لا يقيمونها ([1]) .

و ذكر الأستاذ " فليب حتي " أيضا ، أن الدين عند الدروز أسرار و ألغاز ، إذ يسـتحيل على غير الدرزي الإطلاع عليها ، لأنها غير مكتوبة في الغالب ، و المكتوب منها غير قابـل للفهم ، و الكلام عندهم ظاهر و باطن ، فقد حدث أن ضابط إنجليزيا جـاء ليعتنـق المـذهب الدرزي ، فطلب وساطة صديقه الدرزي الذي رد عليه قائلا :((أغلق الباب و من دخل دخل ، و لا يدخل علينا جديد)) . و السبب حسب " حتي " ، هو أن الدروز يعتقدون أنهم في غنى عن التبشير لمذهبهم ، حيث بشروا به حسبهم في فترة معينة من الزمن ، ثم إنتهى ذلك ، فهم قانعون بعددهم القليل، و لا يرغبون في إنضمام الآخرين إليهم .

و من المعروف، أن طبقة رجال الدين في المذهب الدرزي ، تتألف من ثلاثـة فئـات : الفئة الأولى هي : " المجربون " و هم مستعدون لتقبل أسرار الدين، و يلبسون لفة صغيرة مـن القماش الأبيض . أما الفئة الثانية فهي : " البارعون في علوم الدين" ، و يقومون بتعليم الأطفال و بالوعظ و الإرشاد ، و يشرفون على مراسيم الزواج و الموت " . أما الفئة الثالثة فتـدعى : " الأجاويد " مفردها " جويد " ، و هم النخبة الصالحة ، و يتميزون باللفة المبرومة و الثياب

([1])– شكيب أرسلان : بنو معروف أهل العروبة و الإسلام ، مصدر سابق ، ص 75 .

السوداء أو الزرقاء ، تحت العباءة الصوفية البيضاء ، و يتوكئون على العكاز ([1]) ، و بعضهم يعيشون عيشة الزهد و التقشف و التصوف في الخلوات ، كما أن إجتماعاتهم تتم في غاية السرية ([2]) .

و يعتقد الدروز أن جوهر الدين ، هو أن يتمتع الإنسان بضمير نقي زاهد متجرد ، حتى تكون عبادته خالصة لله سبحانه و تعالى ، فمن العبث و الحرام أن يعبد الله ربه و هو آثم . كما أنهم يؤمنون بعقيدة التناسخ و التقمص ، و كذلك الحلول ؛ فالتناسخ هو إنتقال النفس من جسم بشري إلى جسم بشري آخر ، و التقمص هو أن الجسم قميص للنفس ، و بالتالي فإن الموت عند الدروز يشبه النوم أي أن الموت لا يبطلها . أما الحلول، فهو نوع من التقمص ، لكن النفس المتنقلة فيه، تنتقل من جسم لآخر في بعض الأحيان ، بجميع صفاتها أو بعض صفاتها البارزة ([3]) .

و تساءل بإستغراب عن الأهداف المتوخاة ، من طرح من مسألة ديانة الدروز ، و إظهار ما فيها من مخالفة للإسلام ، في الوقت الذي يقاتل فيه الدروز إلى جانب إخوانهم المسلمين ، من الطوائف الإسلامية الأخرى ، دفاعا عن سورية ضد الأطماع الإستعمارية الفرنسية ، و هو دليل قوي بنظره ، على مولاة الدروز للمسلمين ، و معاداتهم للصليبيين منذ الحروب الصليبية . و أضاف بأن النبش في عقيدة طائفته و إنتمائها العقائدي ، حملة مغرضة قادتها الجرائد السورية المفرنسة ، بإيعاز من السلطات الفرنسية ، التي تعمل على ضرب وحدة المسلمين ، بإثارة الخلافات و الحساسيات ، التي ينبغي على المسلمين الترفع عنها ، خدمة لمصالحهم العليا ([4]) .

و إذا كان الأمير ، قد نفى نفيا قاطعا ، تعارض المعتقدات الدرزية مع العقيدة الإسلامية كما مر بنا ، فإن الكثير ممن كتبوا عنهم في هذا الجانب ، يتفقون على أن الشعائر الدرزية ، تخالف صراحة الدين الإسلامي ، فقد أورد المؤرخ " فيليب حتي " – الذي إنتقده و عاتبه الأمير

([1])– فيليب حتي ، المرجع السابق ، ص 10 ، 496 ، 497 .

([2])– المرجع نفسه ، ص 32 .

([3])– أمين طلع ، المرجع السابق ، ص ص 110 – 112 .

([4])– شكيب أرسلان : بنو معروف أهل العروبة و الإسلام ، مصدر سابق ، ص ص 76 – 77 .

بشدة – في كتابه " تاريخ لبنان " : أنهم لا يصومون و لا يحجون إلى مكة ، و لا يحضرون صلاة الجمعة ، و يحرمون تعدد الزوجات ، و الطلاق ميسر لهم . كما أن للدرزي الحق ، في أن يوصي بما له كما يريد ، مثله مثل النصراني ([1]) .

و على ضوء ما استعرضناه في هذا المبحث، نصل إلى إن الإبراهيمي ، حاول أن يبرز بالأدلة عروبة الشمال الإفريقي ، ردا على الآراء و الأفكار و النظريات ، المشككة في ذلك ، سواء كانت غربية أو محلية ، فبين أنه لا تعارض بين البربرية و العروبة ، بإعتبارهما خرجا من منبع واحد ، و هو ما يفسر بحسبه الإندماج الإجتماعي و الحضاري السريع ، بين العنصرين : العرب الفاتحين و البربر السكان الأصليين لمنطقة شمال إفريقيا ، و قد أدهشت تلكم السرعة في الإندماج و التجانس ، حتى المؤرخين الغربيين الذين قالوا : أنه لا يوجد مثيل لها في التاريخ . كما أبرز أيضا فشل المحاولات الإستعمارية عبر التاريخ ، التي سعت إلى تمزيق وحدة الشمال الإفريقي ،بفضل الشخصية المغاربية، التي إمتلكت دوما طاقة قوية و روحا صلبة ، لصد الهجمات الواردة من الخارج ([2]) .

ثم أكد على الإرتباط العرقي و الثقافي و الحضاري، للمغرب بالمشرق العربي ، و أثبت أنه جزء لا يتجزء منه ، و أن الوحدة العربية المنشودة ، لا تتم إلا بإنضمامه إليها ، و مساهمته الجادة في بنائها ، وفق تصور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، التي وضعت من أهدافها : أن تبني القومية على أساس متين أو تفسر الوطنية تفسيرا صحيحا ، و تشرح للأمة معنى الأمة شرحا عمليا ([3]) .

و المسلك ذاته، إتخذه الأمير شكيب ، الذي و بالرغم من كل التضارب الحاصل ، و الجدل الكبير الذي أثير حول عروبة و إسلام الدروز ، إستمات في تأكيد أن طائفته الدرزية، عربية العرق مسلمة الدين ، معتمدا على ثقافته التاريخية عامة و في مجال الأنساب خاصة ،

([1])– فيليب حتي ، المرجع السابق ، ص 496 – 497 .

([2])– أنور الجندي : الفكر و الثقافة المعاصرة في شمال إفريقيا ، مرجع سابق ، ص 98 ، 99 ، 104.

([3])– محمد البشير الإبراهيمي : الاثار ، ج 2 ، مصدر سابق ، ص 246 .

بأسلوب هادئ تارة و بالثورة و الغضب تارة أخرى . مما يدل على أنه كان يخشى العواقب الوخيمة، لتلك الآراء و النظريات و الطروحات ، ليس لأنها تقوم على حجج قوية ، و إنما لكونها حركت في فترة زمنية على درجة عالية من الحساسية ، و هي نهاية الحكم العثماني للبلاد العربية ، و دخولها في مرحلة جديدة ؛ تتميز بتكالب الدول الإستعمارية الكبرى عليها ، و سعيها لمنع أي شكل من أشكال الوحدة فيما بينها . و من الوسائل التي وظفتها في ذلك برأي أرسلان : التشجيع على الكتابات التاريخية ، التي تحرض على التفرقة و الإنقسام بين طوائف الأمة العربية ، بإبراز الإختلافات العرقية و العقدية و المذهبية ، و التشكيك في وحدتها العرقية و الدينية و الثقافية .

فتجند لهذه المهمة ، عدد لا بأس به من المؤرخين و المستشرقين الغربيين ، الذين طبقوا : ((معايير منمطة جاهزة على تاريخ عربي ، قد لا يستجيب لهذه المعايير و المقاييس)) ، عبرت عن الموقف الغربي الفوقي أي المتعالي ، الذي ينظر نظرة دونية إلى الماضي العربي الإسلامي ، من خلال الشعور بحرية إستثمار تاريخيه ، ليس لمصلحة العرب و المسلمين ، بل لإثارة المشاكل و بث الفوضى و الإضطراب ، و للإستجابة للحاجات الإستعمارية ، التي لا تمت بأية صلة للعرب أو للإسلام ، و بهذا صادر الفكر الإستشراقي ، تاريخ العرب و المسلمين ، لصالح ثقافته و حضارته ، و مشاريع دوله ، كما حدث أثناء الحقبة الإستعمارية ([1]) .

و إذا كان الأمير شكيب ، قد دافع عن الإنتماء العرقي العربي و الديني الإسلامي لطائفته الدرزية ، التي تمثل أقلية عددية في لبنان و الشام ، فإن الإبراهيمي كان يدافع عن كل سكان المغرب العربي، الذين يمثلون نسبة كبيرة من الإجمالي السكاني في الوطن العربي ،موزعين على الجزائر و تونس و ليبيا و المغرب و موريتانيا و الصحراء . عملت فرنسا بلا هوادة ،لفصلهم عن إمتدادهم الطبيعي في المشرق العربي ، بالزغم أنهم برابرة و ليسوا عربا، و أن أصولهم العرقية تتصل بالأصول اللاتينية ، لتصل الي نتيجة مفادها أن العرب الفاتحين دخلاء و غزاة . و عليه فمن الطبيعي العودة إلى أصولهم الأولى ، و التنكر لعروبتهم التي إعتبرتها

([1])– ينظر محمد الدعمي : الإستشراق الإستجابة الثقافية الغربية للتاريخ العربي الإسلامي ، ط 1 ، م د و ع ، بيروت : 2006م .

إنتماء مصطنعا و طارئا ، جاءت هي لكي تخلصهم منه ، و ترجع الأمور إلى طبيعتها . دون ان نقلل من خلال ذلك ، من أهمية حملات التشكيك التي تعرضت لها الطائفة الدرزية ، التي ينحدر منها الأمير شكيب .

و فيما يتعلق، بالأدلة التي ساقها كل واحد منها ، لتأكيد صحة ما ذهب إليه ، إكتفى الإبراهيمي بالقول: أن أكبر دليل على عروبة السكان الأصليين لشمال إفريقيا، سهولة تواصلهم و إندماجهم مع العرب الفاتحين ، حيث لم تشكل على الإطلاق اللغة عائقا بين الفريقين ، و هو حسبه دليل كاف ، للإقرار بأن البربر هم فرع عربي صميم، ساهمت العوامل الجغرافية في تشكيل خصوصيته الثقافية و اللغوية ، التي لا يمكن إلا إدراجها ضمن إطار التنوع في التراث العربي الثقافي و اللغوي .و هو دليل نحسبه يحمل الكثير من الموضوعية و المصداقية ، اذ لا يمكن بأية من الأحوال ، إنكار سهولة و سرعة الإندماج و الإنصهار، التي حدثت بين البربر و العرب الفاتحين ، و كان من أبرز مظاهرها تبني اللسان العربي كلغة رسمية و شعبية ، و الدين الإسلامي بدلا عن الديانات المحلية من يهودية و مسيحية و وثنية، التي إختفت بالسرعة ذاتها التي إنتشر بها الإسلام و اللغة العربية .

فيما أحال أرسلان، المشككين في نقاوة عرق طائفته ، على أمهات مصادر التاريخ العربي و الإسلامي و علم الأنساب ، و تحداهم أن يجدوا دليلا أو إشارة واحدة فيها تؤكد صحة إفتراضاتهم . و أستشهد حتى بالنظريات الطبية ، التي تفيد تطابق السمات الفيزيولوجية للدروز مع نظيرتها لدى العرب ، رغم أن كون ذلك يبقى نسبيا، بالنظر إلى النزوح و الهجرات و الإحتكاك بالأجانب، عن طريق التجارة و الغزو.و خلص إلى القول بأن عروبة الدروز ، أنقى و أصفى من عروبة كل عرب الجزيرة العربية . و بذلك يكون أرسلان قد عمد إلى التشكيك في عروبة عرب الجزيرة، الذين يعدون قياسا على عوامل كثيرة العرق العربي النقي و الصافي، و لسنا ندري هل حماسته هي التي دفعته إلى ذلك ، أم يقينه بأن قومه الدروز هم العرب الحقيقيون ؟ . وهم ما لم يخض فيه الإبراهيمي ، الذي إنتهى بعد كل ما أورده إلى الإستنتاج بأن اللغة البربرية فرع من اللغة العربية ، و أن بلاد المغرب جزء لا يتجزء من الوطن العربي ، و قطعة أساسية في هيكل الوحدة العربية المنتظرة .

و في المقابل أيضا ، بدا الإبراهيمي غير متحمس كثيرا للخوض في المسألة العرقيـة ، ربما لحساسيتها و لصعوبته الخوض فيها ، ليس على الساحة العربية فحسب ، و إنما بالنسـبة لكل القوميات و الجماعات العرقية ، فقد أدت التحـولات السياسـية و الإجتماعيـة و الثقافيـة و الحضارية ، الى إختلاط الشعوب ببعضها البعض ، و أصبح من الصعب الجزم بنقاوة جنس بعينه ، و هو ما شار إليه الشيخ البشير ، لمـا ذكـر بـأن العروبـة ليسـت لونـا أو عرقـا أو شعارات ، و إنما سلوكات عملية قصد بها التقارب و التعـارف، و التعـاون و التضـامن و التعاضد ، و لعله المفهوم الأقرب إلى الصحة .

و الواقع أن أرسلان ، بالرغم من التأكيدات التي سردها، ليدلل على عروبة الدروز ، إلا أن ذلك لم ينزع الغموض و التضارب عنها ، و حتى هو ذاته اظهر إمتعاضـه مـن المسـلك السياسي لأبناء جلدته، المتمثل في التعاون مع الإنجليز على حساب مصالح الأمة ، فراح يؤنبهم على صنيعهم، و يطلب منهم بيان أحقيتهم بلقب العروبة ، فينتزعون تلك الحجة من يد خصومهم و المشككين، في إنتمائهم العرقي و الدين و الحضاري .

و في الأخير ، ان تأكيد عروبة الشمال الإفريقي بالنسبة للإبراهيمي و الدروز بالنسـبة لأرسلان ، يعني لديهما أن ينخرطا الجميع في مسار الجامعة العربية ، و يساهم فـي بناءهمـا بفعالية و إخلاص ، و هو ما سنتعرض إليه في البحث التالي .

المبحث الرابع : خطوات تحقيق الوحدة العربية في كتابات الإبراهيمي وأرسلان .

01- خطوات تحقيق الوحدة العربية في كتابات الإبراهيمي :

لم يكتف الشيخ البشير الإبراهيمي ، بحث العرب على الوحدة والتكتل ، واستعراض الفوائد الجمة التي ستترتب عنها ، على كافة المستويات والأصعدة ، بل اجتهد في إعطاء تصوراته وأفكاره بشأن الخطوات التي يتوجب على العرب القيام بها ، لتحقيق حلم الوحدة العربية الشاملة ، وقد حصرها في خمسة خطوات هي : إزالة أسباب التنافر بين الشعوب العربية ، التقارب والتواصل بين البلدان العربية ، والتعريب الشامل لكل مناحي الحياة في المجتمع العربي ،واستقلال الأمة أدبيا وفكريا ولغويا ،ونبذ الانقسام واستبداله بالوحدة الشاملة .

- **إزالة أسباب التنافر بين الشعوب العربية :**

يرى الإبراهيمي أن أولى خطوات أو مراحل الوحدة ، تضافر الجهود من أجل إزالة أقوى أسباب التنافر بين الشعوب العربية ، في ميدان الثقافة والتفكير والاتصال بالعصر ، وأسباب الثروة ونهم الحياة وأوضاع الاجتماع . من خلال الاجتهاد في تشكيل رأي عام لدى كل شعب من الشعوب العربية ، ليتسنى لها تكوين رأي أعم ، يتولى التوجيه والإرشاد والتنشئة ، إذ أن بعض الشعوب العربية مازالت إلى تلك اللحظة ، لم يتكون فيها رأي عام ، وما زالت تحت سيطرة الزعامات الفردية ، التي تمثل مؤشرا للتفكك وأساسا للتخاذل ، كما أن بعض الشعوب تشهد وجود رأي عام ، لكنه يفتقد إلى النضج ، لأن الرأي العام لا ينضج إلا في مناخ يسوده الاستقرار ، والثقافة الهادئة التي تأخذ على عاتقها مهمة التوحيد ، ومقاومة التيارات الأجنبية المهدمة؛ كالشيوعية والمذاهب الفكرية الغربية التي تربك الأفكار ([1]) .

ووفقا لذلك، يبدو لنا أنه انتبه إلى قضية محورية ، وهي التفاوت في الواقع الاجتماعي والحضاري بين البلدان العربية ، التي تختلف اختلافات عديدة فيما يتعلق بالتاريخ الاجتماعي لكل بلد ، بما يتضمنه ذلك من اختلافات في البناء الاجتماعي والاقتصادي والإيديولوجي ، ولاشك أنها تشكل معوقا من المعوقات الأساسية ، في سبيل قيام الوحدة العربية على أسس

([1])- محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 4، مصدر سابق ، ص ص 374 – 375 .

متينة ([1]) .

ويبدو أيضا ، أنه من المؤيدين لفكرة أن الوحدة العربية، يجب أن يكون منطلقها شعبيا وليس فئويا ، تشارك فيه جميع شرائح المجتمعات العربية وطبقاتها، ومختلف أطيافها ، فضلا عن كل التيارات الفكرية والتنظيمات السياسية ،و الاجتماعية والاقتصادية، الموجودة في كل قطر ، والوسيلة في ذلك هي الجهد الثقافي، الذي يتولى التوعية وتكوين رأي عام، في اتجاه التوحيد ([2]) .

- **التقارب والتواصل بين البلدان العربية :**

اعتبر الشيخ الإبراهيمي : ((التقارب بريد الاتحاد ، والتزاور دليله ، والتحاور بشيره ، والتشاور مفتاح بابه)) ، كل هذه الأمور كانت تقع في تلك الأيام بين الرؤساء العرب وأصحاب الرأي منهم ، التي تكررت وأسفرت عن بعض المؤشرات الايجابية، التي أوحت باقتراب حلم تحقيق الوحدة الشاملة ، التي تخيف أعداء العرب ومنهم الصهاينة ، فيقولون أن في الجزيرة العربية قوما((جبارين)) .

ومن الأحداث الهامة – حسبه – في هذا الصدد، زيارة الأمير "عبد الله الجابر الصباح" رئيس معارف الكويت لمصر ، والتي كان لها دور جلي في التقارب بين العرب ، لما لبلده الكويت من مكانة في تاريخ الجزيرة العربية ، ولعائلته من منزلة في العائلات العربية الكبرى ، ولما يتمتع به شخصه من مزايا وخصائص استمدها من فطرة الإنسان العربي ،و من همته وشهامته ونبله و بساطته وسماحة نفسه ،و من الآداب و الاخلاق الإسلامية ،و تواضعه وصدقه في القول والفعل .

وقد شكر الإبراهيمي الحكومة المصرية ، على احتفائها بزيارة الأمير الكويتي ، وقيامها بتكريمه رسميا وشعبيا ، معتبرا أن ما قامت به، عكس لأول مرة تواصلها مع الشعب المصري

([1])– السيد يسن : الوعي القومي المحاصر (أزمة الثقافة السياسية العربية المعاصرة) ، د ط ، مركز الدراسات السياسية العربية بالأهرام ، القاهرة : 1991م ، ص ص 90-91 .

([2])– سعدون حمادي : مشروع الوحدة العربية ما العمل ؟ ، د ط ، م د و ع ، بيروت : 2006م ، ص ص 75 – 115 .

فقد كان في السابق يقوم هذا النوع من الاحتفالات ، على المجاملة والنفاق بدل الإخلاص والمحبة ، وعلى الرهبة والتملق بدل الرغبة والصدق . وختم كلامه بالقول: أن هذا السلوك الحسن الذي بدر من الحكومة المصرية ، باستقبالها الحار لشخصية عربية مرموقة ، هو في حقيقة الأمر : ((وصل لأرحام كانت مجفوة ، والرحم إذا تنبهت أسبابها تأتي بكل عجيب ، وتجرف كل ما كان يحجبها من حجب ، وما كان يغطي عليها من عقوق وقطيعة)) ([1]).

وعلى هذا الأساس ، اعتبر مصر أكثر البلدان العربية أهلية لقيادة العرب ، فهي التي احتضنت العروبة ، ونبت في أرضها لسانها ، وتفتقت فيها حضارتها وآدابها ، ولكل ذلك فمن الوفاء لها ، أن يعترف كل عربي بهذا الفضل والسبق ، فيقر لها بالقيادة والزعامة))([2]) .

وقد برر ترشيحه لمصر، لتكون قائدة و متزعمة للوحدة العربية ، بقوله أنه ينبع من التجربة كونها أكثر من غيرها من الأقطار العربية وحتى الإسلامية ، القادرة على لعب هذا الدور ، فكل آمال العرب بصفة، خاصة والمسلمين بصفة عامة ، معلقة عليها لقيادتهم ولم شتاتهم ([3]) .

ولا شك أن هذا الاختيار صائب ، ففي تلك المرحلة كانت مصر هي البلد العربي الوحيد القادر على لم شتات العرب ، ومن ثمة تزعم الوحدة العربية ، بالنظر إلى موقعها الجغرافي، الذي جعلها في مركز البلاد العربية الإفريقية والآسيوية ، ولما كانت تشهده من نهضة ثقافية وفكرية وأدبية وحركة سياسية ، كل ذلك أهلها لتكون ((الزعيمة الطبيعية)) للقومية العربية على حد تعبير "ساطع الحصري" ([4]) .

وفي حقيقة الأمر ، كان ذلك رأي أغلب المفكرين والمصلحين العرب والمسلمين ، ومنهم على سبيل المثال "أبو الحسن علي الندوي" ، الذي قال ([5]) في مصر : أنها تنفرد بخصائص كثيرة لا يشاركها فيه أحد ، ومنها تقدير العلم والحكمة ، وريادتها في اللغة العربية ، والعلوم

([1])- محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج4 ، مصدر سابق ، ص ص 442 – 443 .

([2])- المصدر نفسه ، ج 3 ، ص 493 .

([3])- المصدر نفسه ، ص 377 .

([4])- أبو خلدون سطع الحصري ، مرجع سابق ، ص 89 .

([5])- أبو الحسن علي الندوي : الصراع الفكري بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية ، مرجع سابق ، ص ص 81 – 82 .

الدينية ، ووسائل الطبع والنشر ، ووجود جامع الأزهر الذي يعد بنظره أكبر مركز ثقافي ديني في العالم الإسلامي .

- **التعريب الشامل لكل مناحي الحياة :**

يرى الإبراهيمي أنه من أهم خطوات تحقيق الوحدة العربية ، تعريب كل مناحي الحياة في المجتمع العربي؛ بدءا بتعريب الألسنة والأفكار ، والعقول والأذهان و التصورات، وحتى اللباس ووسائل النقل وأساليب المعاش ، وهيئات الأكل والشرب والنوم ، أثاث البيوت ([1]) ، و الأسرة. ولا يتم ذلك إلا عن طريق تعريب المدرسة ، بدءا من الكتاب إلى الجامعة، وتعريب التعليم من المعلم إلى الكتاب .

ويضيف بأن التعريب الشامل ، هو أكبر غايات كل من يعمل بإخلاص للعروبة ، إذ لا يتم على وجهه المطلوب إلا بالعلم وحده ، حتى وإن بلغنا فيه درجات متقدمة جدا ، فلا فائدة من العلم وحده ، إذا لم يتطعم في كل خطوة منه بتربية نفسية ؛ على ما للعرب من شمائل وهمم وبطولات ، ووفاء وصدق في القول وتفان في العمل ، وتضحيات وإباء وإيثار ، وكرم وشجاعة. وقد حث الإسلام على هذا النوع من التربية في قوله تعالى : ((ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة))(*) .

وقد شدد على أن هذا النوع من التعليم ، ينبغي أن يقوم به فقط ، جماعة من خطباء المساجد، ومن الوعاظ ومن كتاب العرب المسلمين ، الذين يتوجب عليهم جميعا أن يتفقوا على : ((نغمة واحدة و هي أن الإسلام عرّب جميع معتنقيه بالانتساب إليه ، وأن كل من تكلم العربية فهو عربي ، وأن العربي لا يكون عربيا ، حتى يكون فيه ما أثر عن العرب من شمائل وأخلاق)) ([2]) .

ومنه يظهر ، أن الإبراهيمي، يشترط أن يكون التعريب ذا محتوى عربي وإسلامي كامل ، مع إيكال هذه المهمة الحضارية لمعلمين ومدرسين مخلصين للعروبة والإسلام ، يتميزون بالعلم والإطلاع الواسع على تاريخ العرب وتراثهم ، وأخلاقهم وشمائلهم التي اكتملت

([1])- محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج5 ، مصدر سابق ، ص 267 .

(*)- سورة البقرة ، الآية 150.

([2])- المصدر نفسه ، ص 266 .

بمجيء الإسلام ، الذي هذبها وأصبغها بصبغته . هذا يقودنا إلى القول، أنه ممن يضعون التاريخ واللغة العربية ([1]) والدين الإسلامي ، كمقومات أساسية للوحدة العربية .

ويمكن أن نبرر موقفه هذا، إزاء مسألة التعريب ، بما تعرضت له اللغة العربية في المغرب العربي على يد الاحتلال الفرنسي ، الذي استهدفها بكافة الطرق والوسائل، وفي جميع الميادين ، حتى تحل اللغة الفرنسية محلها ، فيضمن بذلك بقاءه– إلى الأبد– ([2]) .

وفي السياق ذاته ، أشاد الإبراهيمي كثيرا، بالخطوات التي قام بها مؤتمر التعريب بالرباط ، معتبرا إياها واجبا يقوم به المؤتمرون، نيابة عن جميع الأقطار العربية ، حاثا المؤتمرين على الجدية والتحلي بالصبر والإرادة والعزيمة ، وإقران الأقوال بالأعمال ، قائلا: بأننا أمضينا أعمارنا في الأقوال ، دون أن نترجمها إلى أفعال ، حتى تسلل إلينا القنوط وكدنا أن نيأس ، فكم من الاجتماعات التي دعي إليها لهذا الغرض قبل هذا الاجتماع ، وانتهت دون نتيجة ، فالفرصة مناسبة إذن لاستدراك الموقف ، بالجد والعزم والحسم والانجاز([3]) .

وأضاف قائلا : بأنه في السابق كانت اللغة العربية ، تتعرض للأذى من الغريب المتنمر ومن القريب المتنكر لها ، فيسارع لنصرتها البعض من أبنائها الأوفياء وجنودها المتخفين ، لكن دون أن يسمع لهم صوت ، لتشرذمهم في الأقطار العربية المترامية الأطراف ، إلى أن جاء مجمع اللغة العربية إلى الوجود ، ساعيا إلى إعادة الشباب إلى اللغة العربية ، وتجديد معالمها ، وجمع أنصارها ، رغم الصعوبات التي واجهها في السنوات الأولى من إنشائه ، شأنه في ذلك كشأن أي هيئة فتية ، تفتقد إلى التجربة والخبرة اللازمين ، وظل ينمو ويتطور كلما انظم إليه المزيد من أنصار العروبة وفرسان بيانها ، إلى أن وصل إلى ما وصل إليه حاليا .

([1])– ومنهم الدكتور محمد عابد الجابري ؛ الذي لا ينفي أهمية اللغة والتاريخ، كمقومين أساسيين من مقومات الوحدة العربية ، لكنه يعتبر حصرهما في قالبين صوريين مجردين افقار مفهوم الأمة : ينظر محمد عابد الجابري : المشروع النهضوي العربي مراجعة نقدية ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ط2 ، بيروت : 2006م ، ص 97 وما بعدها .

([2])– أنور الجندي : الفكر والثقافة المعاصرة في شمال إفريقيا ، مرجع سابق ، ص 166 وما بعدها .

([3])– محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج5 ، مصدر سابق ، ص 267 .

وقد تمنى في الأخير ، أن يكتمل بناء مجمع اللغة العربية ، حتى يكون وسيلة فعالة في توحيد العرب ، فلا عجب أن أقوى جامع لصف العرب لغتهم ، وان تحقق ذلك ، فإنه يمكن اعتبار أسرة المجمع أكثر عروبة من كل العرب ([1]) .

وقد بدا الشيخ الإبراهيمي، مرتاحا للنتائج المحققة ، فقال بأننا مهدنا للوحدة العربية الشاملة بالتعريب الشامل ، الذي أزاح العقبات من سبيلها، وجمع ما فرقته السياسة والساسة ، فضلا عن الأجانب ، حيث أصبحنا بفضله إذا طلبنا معلما أو خطيبا أو واعظا أو طبيبا ، أو صيدليا أو محاميا أو قاضيا، أو جنديا أو شرطيا ، أو كل من يقوم بالمصلحة العامة ، وجدناهم عربا باللسان والشمائل والأخلاق والهمم ، قبل أن نجد فيهم الموظف الشخص ([2]) .

ومنه فإن التعريب الشامل ، في كل المجالات بما فيها الحياة العامة ، هو خطوة أساسية وحيوية في مسار الوحدة العربية في رأي الإبراهيمي ، لأن : ((اللغة هي روح الأمة وحياتها ... ومحور القومية وعمودها الفقري . وهي أهم مقوماتها ومشخصاتها)) ([3]) .

وهو ما يفسر، كون أن القضاء على اللغة القومية للعرب ، كان من أهم الوسائل التي عول عليها الاستعمار كثيرا ، بغية فرض نفوذه وبسط سيطرته ، بتكوين جيل موالي له ، يحتقر لغته وثقافته القومية ([4]) .

– **استقلال الأمة العربية أدبيا وفكريا ولغويا :**

كان الشيخ البشير الإبراهيمي ، خلال المؤتمرات الأدبية والمنتديات الفكرية واللقاءات العلمية ، كثير الحرص إلى دعوة الأمة إلى ضرورة استقلالها أدبيا وفكريا ولغويا ، أكثر من حرصه على الجوانب السياسية والاقتصادية ، التي لا تبرز على نحو كاف خصائص الأمم ومميزات الشعوب لأن، الذي يبرزها ويستعرضها أكثر من الأمم الأخرى ، آدابها وأفكارها ولغاتها ([5]) .

([1])– محمد البشير الابراهيمي: الاثار ، ج 5 ، ص ص 294 – 295.

([2])– المصدر نفسه ، ص 267 .

([3])– محمد عابد الجابري : المشروع النهضوي العربي مراجعة نقدية ، مرجع سابق ، ص ص 97 –98 .

([4])– محمد دراجي ، المرجع السابق ، ص 112 .

([5])– مقدمة الهادي الحسني . محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، المصدر نفسه ، ص 26 .

ويعرف الأدب العربي أنه : ((... الوشيحة القوية والوثيقة الباقية التي لم تنقطع طوال القرون وعبر الأزمان ... فهذه هي الأيام تطوي الدول ، وتقرب البعيد ، أو تبعد القريب ، وتقطع السبب أو ذاك من علاقات الأفراد أو روابط الجماعات ، ويبقى اللسان العربي والبيان العربي والشعر العربي رسلا صادقين وروابط قوية بين أبناء العروبة كلهم)) ([1]) .

وبناء على هذا التعريف ، نستخلص أن الأدب العربي ، ظل همزة الوصل المعنوية بين أبناء العروبة ، عبر العصور المتعاقبة ، وبرغم كل الظروف والأحوال ، على اعتبار أن الأدب بصفة عامة هو : ((هو الصورة الدائمة الخالدة التي تحفظ وجود أمة في صورتها الفكرية والحضارية)) ([2]) .

وعليه يرى الإبراهيمي ؛ أن الأدب العربي مثل الرباط ، الذي عجزت السياسات الإقليمية المفرقة على حل عروقه ، وسيظل على مر الأزمنة جامعا للعروبة ، موحدا لآلامها وآمالها . شريطة أن يبقى عربيا في أصوله وقواعده لا شرقيا ولا غربيا ، يستمد شخصيته وأهدافه من الحاجات الواقعية للمجتمعات العربية ، وليس من تلك المفتعلة أو المزيفة ([3]) .

ومن ثمة، يخلص إلى أن القومية العربية، تستمد قوتها من واقع الأدب العربي وسلطانه ، أما وحدة الأمة العربية فتظهر في وحدة الأدب على نحو عملي . كما أن قضية الوحدة العربية ليست كما يتصور الكثيرون ، أنها ميدان سلاح أو حرب ، وإنما هي ميدان لإعمال العقل والفكر ، فالأديب في ميدان الفكر مثل القائد وسط المعركة ، يوجهها بما لديه من خبرة ويديرها بالحكمة ، ويقودها بمواهبه ومعارفه ، إلى أن يتحقق النصر المنشود ([4]) .

([1])- محمد البشير الابراهيمي : الاثار ، ج5، مصدر سابق، ص 210 .

([2])- عبد الله شريط : تاريخ الثقافة والادب في المشرق والمغرب ، د ط ، م و ك ، الجزائر: 1983م ، ص26 .

([3])- محمد البشير الإبراهيمي ، المصدر نفسه ، ص 213 .

([4])- المصدر نفسه ، ص 211 .

وعلى ضوء ذلك ، نستنتج أن الشيخ البشير الإبراهيمي ، قد راهن كثيرا على دور الأدب والأديب العربيين في إحياء القومية العربية ، وتمتين أواصرها من جهة ، وفي الدفع بمشروع الوحدة العربية في مساره الصحيح من جهة أخرى ، انطلاقا من مسلمة مفادها انه إذا كان الأدب يمثل : ((المرآة العاكسة التي تعكس عليها حضارة أمة بجميع قيمها النفسية والعقلية والاجتماعية)) ، فإن الأديب هو الذي يتحمل مسؤولية الحفاظ على الصورة الخالدة لأمته ([1]).

- نبذ الانقسام واستبداله بالوحدة الشاملة :

دعا الشيخ البشير الإبراهيمي، إلى نبذ الانقسام الحالي،واستبداله بالوحدة الشاملة لجميع أجزاء البلاد العربية ، وفي هذا يتساءل كيف يتسنى ذلك ، وقد أفرز ذلك التقسيم أوضاعا جديدة وممالك وملوكا ؟ فمن الصعب جدا تغيير الممالك ،ومن الأصعب حرمان الملوك من لذة الملك ؟

ويجيب على تساؤله بالقول:أن البداية تكون بما هو ميسر ومتوفر ، وهو توحيد التعليم ومناهجه والتجارة وشؤونها ، وإزالة الحدود الفاصلة بين أجزاء الوطن الواحد ، وإعتبار المعتدي على جزء منها معتديا على كامل الأجزاء ، وعدو الشعب العراقي هو عدو للشعب المغربي ، وهكذا مع أخذ العبرة من إيطاليا في ضم أجزائها ، وألمانيا ، وفرنسا التي لم يهد أ لها بال في قضية الألزاس واللورين (*) ، وأيضا من انجلترا الشبيهة بجزيرة العرب ، والتي لو أن دولة اعتدت على جزء منها ، لتسارع الإنجليز في كل مكان لاسترداده ، فلما لا يفعل العرب مثل ذلك ؟ ([2]) .

ويواصل متسائلا عن المانع من أن تكون دولة واحدة ؟ ، في وجود الأمة الواحدة التي لا تحتاج في غالبيتها ، إلى ما قام به اليهود من جمع لشتاتهم من مختلف أنحاء العالم ، المتباينة أعراقهم وأفكارهم وميولاتهم ، ولا تحتاج إلى وسيط محتل للتعمير كلجوء الصهاينة إلى

([1])- عبد الله شريط ، المرجع السابق ، ص 26 .

(*)- الألزاس والنورين : خسرتهما فرنسا خلال حرب 1870م – 1871م مع بروسيا ؟، التي احتفظت بهما بموجب معاهدة فرانكفورت 10 ماي 1871 . ينظر عبد العزيز سليمان نوار : التاريخ الحديث أوروبا من الثورة الفرنسية حتى الحرب البروسية الفرنسية 1789م – 1871م ، ط1 ، دار الفكر العربي ، بيروت : 2002م ، ص 379 وما بعدها .

([2])- محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج2 ، مصدر سابق ، 471.

الاستعمار البريطاني ، فمن الممكن جدا تحقيق الحلم في أقصر زمن ، شريطة وجود قادة يتحلون بالإرادة والعزيمة اللازمين لذلك ([1]) .

ولا ريب، أن الهدف الذي توخاه ، من وراء إعطاء أمثلة بالوحدتين الإيطالية والألمانية من جهة ، وبالحركة الصهيونية من جهة أخرى ، هو دعوة العرب لأخذ العبرة واستخلاص الدروس منها . فقد كانت ايطاليا بمقتضى مؤتمر فينا 1815م، مقسمة إلى سبعة دول (*) ، خاضعة للنفوذ الأجنبي وغارقة في جو من الفساد والرشوة ، وسوء الأحوال الاقتصادية والاجتماعية . والأمر ذاته ينطبق على ألمانيا ، التي كانت غداة الثورة الفرنسية 1789م ، مقسمة إلى أربعمائة ولاية تقريبا . ورغم ذلك استطاعتا تخطي كل العقبات ، وتحقيق وحدتيهما القوميتين على مراحل ([2]) .

أما بالنسبة للحركة الصهيونية الحديثة ، فقد تمكنت من إقامة كيانها القومي في الأرض الفلسطينية عام 1948م ، وبالتالي من لم شتات اليهود في مختلف أنحاء العالم ، وخاصة يهود أوروبا الشرقية ، معتمدة في تبرير احتلالها لفلسطين على إدعاءات تاريخية ، وضعت خططها الصهيونية القديمة ، عندما قامت بتحريف التوراة ، ورسمت حدودا موهومة للدولة العبرية ، تمتد من الفرات إلى النيل . موظفة الانتداب البريطاني ، الذي سلمهم إياها بعد انتهائه ([3]) .

ولا يرى الإبراهيمي، في الملوك والأمراء العرب وقادة الرأي فيهم ، رغم تعدد واختلاف مشاربهم وأهوائهم ، إلا أنهم أمناء على مجد العروبة ، وأنه عليهم تقع مسؤولية إعادته ، خاصة وأن وسائل تحقيق ذلك متوفرة وميسرة لهم ، لا تتعدى طرح الأنانية جانبا ، لا يحاسبون على أسباب الإضاعة لأنها متقادمة فهم ليسوا مسؤولين عنها ، وإنما المطلوب منهم إعادة ما ضاع

([1])- محمد البشير الابراهيمي: الاثار ، ج5 ، مصدر سابق، ص 211 .

(*)- منها : مملكة نابولي وتشمل صقلية وعدد سكانها 7,5 مليون نسمة ، بدمونت وتشمل سردينيا وعدد سكانها 4 ملايين نسمة ، لمبارديا وعدد سكانها 25,4 مليون نسمة ، الولايات البابوية وعدد سكانها 3,5 مليون نسمة ...الخ . شوقي الجمل ، عبد الله عبد الرزاق : تاريخ أوروبا من النهضة حتى الحرب الباردة ، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات ، القاهرة : 2004م ، ص 181.

([2])- ينظر شوقي الجمل ، عبد الله عبد الرزاق ، المرجع نفسه ، ص 181 وما بعدها .

([3])- للاطلاع على المراحل التي مرت بها الحكومة الصهيونية بالتفصيل ينظر سهيل حسين الفتلاوي : جذور الحركة الصهيونية ، د ط ، دار وائل للطباعة والنشر ، عمان ، الأردن : 2002م .

من ذلك المجد ، ولا يشكل تعددهم عائقا أمام هذا الهدف ، إذا ما اتحدوا في الوجهة والعمـل ، واشتركت أيدي الجميع في عملية البناء على منهاج صحيح ، فليتعددوا أشخاصا ، وليتحدوا على النحو الذي يؤدي إلى الإيفاء بحق الدين وحق العروبة ، ويعيد المجد الذي أضـاعوه ، والحـق الذي نهب منهم ([1]) .

ولهذا وجدناه، يسارع إلى إرسال برقية من القاهرة ، يهنئ فيها " جمال عبـد الناصـر " (1918م – 1970م) رئـيس جمهوريـة مصـر العربيـة و " شـكري القـوتلي " (1891م – 1967م) رئيس الجمهورية السورية ، بمناسبة الإعلان عن قيام الجمهورية العربية المتحدة في فيفري 1958 م جاء فيها : ((أن وحدة العرب هي الأصل والقاعدة ومـا سـواهما شذوذ وانحراف ... فباسم الإسلام وباسم العروبة أهنيكم بنجاح مساعيكم الصادقة في الخطـوة الأولى بتوحيد العرب ، من أثر التفرق والاختلاف ، وسيكون لحاق المتخلفين بها عملا صـالحا كله ، فيا بشرى للسابقين)).

وختم كلامه، بتقديم مجموعة من النصائح ، والتوجيهات للحكام والقادة العرب ، وتتمثـل في ضرورة استئصال النقائص المتأصلة في النفوس ، والسعي إلى جمع الصفوف المتفرقـة ، وإسكات الأصوات الداعية إلى التفريق ، و قمع الشهوات الجامحة ومحـو الألقـاب المهينـة ، وتقوية العزائم المتراخية ([2]) .

و على ضوء ذلك ، نستنتج أن دور القادة والحكام العرب في انجاز الوحدة العربية ، يعد أساسيا في اعتقاد الشيخ البشير الإبراهيمي ، شريطة أن يكونوا على درجة كبيرة مـن الـوعي بالمسؤولية ، والتحلي بالصدق و الاخلاص في التعامل مع المصالح العليا، والقضايا المصـيرية للأمة . كل ذلك ممكن ، بالرغم من الخلافات العميقة، والصراعات المستشرية بينهم .

([1])– محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 4 ، مصدر سابق ، ص ص 242 – 243 .

([2])– المصدر نفسه ، ج5 ، ص ص 45–211 .

02- خطوات تحقيق الوحدة العربية في كتابات أرسلان :

أبدى الأمير شكيب تفاؤلا كبيرا ، بإمكانية تجسيد حلم وفكرة الوحدة العربية، بصورة عملية ، فخلال تواجده ببرلين ، كتب مقالا في شهر أوت 1925م ، جاء فيه أنها ليست قضية حكام أو ملوك ، و إنما هي قضية الأمة العربية ، التي ينبغي أن تكون مصالحها فوق كل اعتبار ؛ وأنه خير للإنسان أن يكون راعيا للضأن في عز قومه ، من أن يكون سلطانا عظيما على قوم مذلولين ، فهل من سلطان لمن هيمن الأجنبي عليه ؛ وقاده كما يقاد البعير يتساءل ؟. وقد جعله موقفه هذا مطاردا من قبل تركيا ، لاهتمامه بشؤون العرب ، وهجومه الشديد على حكامها الذين تنكروا للعرب والمسلمين ([1]) .

ومبعث تفاؤله ، أن العرب أمة كاملة ، تتوفر على جميع العناصر، التي يتطلبها كيان الأمم من الناحية السياسية والاجتماعية ، فهي أحادية العرق واللسان ، وغالبيتها تدين بدين واحد ، ولها مصالح ومنافع وآمال واحدة . ولكن الذي أضعف جانبها وأخرها، وأعاق لحاقها بمواكب المدنية ؛ تفككها واستعمار الأجنبي لها . ولذلك اعتبر نفسه : ((أنه جندي من جنودها له ثلاثة أهداف جلية وواضحة تمام الوضوح : الأول هو الاتحاد ، والثاني هو التحرر ، والثالث هو السير في مواكب النهضة والعلم والبحث)) ([2]) .

وجلي أنه، وضع الوحدة على رأس الأولويات ، فبدونها لا يمكن أن تتحرر البلاد العربية ،الواقعة غالبيتها تحت الهيمنة الإستعمارية ، وبدون استقلال وسيادة لا يمكن الحديث عن النهضة والرقي والتقدم ، معادلة ثلاثية الأطراف ؛ وكل طرف منها مرتبط بالطرف الآخر إلى أن تتحقق كاملة . ولكي تتحقق الوحدة الحقيقية، اشترط شكيب ؛ تمسك العرب بقوميتهم وشخصيتهم ، غرس الفكرة في الأذهان، ونبذ الخلافة الشخصية ، والتدرج فيها .

([1])- احمد الشرباصي : شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام ، مرجع سابق ، ص ص 39 – 43.

([2])- علي الطاهر ، المصدر السابق ، ص 242 .

- **ضرورة تمسك العرب بقوميتهم وشخصيتهم :**

يرى الأمير شكيب أن كل إنسان ، يحرص على التمسك بعاداته وميزاته القومية ، لا شك أن الذي يدفعه لذلك ، هو الشعور بالعزة والإباء اللذان تشبعت بهما روحه ، فقد سئل الروائي الفرنسي " بيار لوتي " (Pierre LOTI) (*) وهو مشرف على الموت ، عن أي الأمم التي يحب ؟ ، وكان من المتوقع أن يذكر الأتراك لكتاباته الكثيرة عنهم ، ولإعجابه الشديد بهم ، ولكنه أجاب : ((العرب لأنهم قوم متشبثون بشخصيتهم)) ، وقيل أنه قال لأنهم لم يتغيروا منذ آلاف السنين ([1]) .

ولذلك وجدناه، حينما قصد سنة 1929م البقاع المقدسة حاجا، يعرب عن فخره بأنه عربي ، حيث قال بأنه عربي في بلاد عربية حرة ، وأنه في غاية السعادة لأنه خاضع لحكومة عربية بحتة ، يوجد على رأسها مسؤولون هم منه وهو منهم ، ومعنى ذلك بالنسبة له أنه خاضع لنفسه وليس غيره . ومما قاله أيضا تكملة لذلك ، أنه شعر في الحجاز أن راية عربية تظلله . وهو فخر يفترض أن يصدر عن كل العرب ، الذين أوصاهم بالمحافظة على قوميتهم ومقوماتهم وعاداتهم وتقاليدهم ، وحذرهم من تقليد الإفرنج تقليدا أعمى ، أو تتبع خطواتهم في شيء يخصهم دون تبصر . على أنه لم يرى مانعا ، من أخذ النافع منهم ، مع التمسك بشخصية الأمة ومميزاتها وخصائصها التي لا تقوم إلا بها ، وتميزها عن الأمم الأخرى . فإذا كنا فعلا نريد أن نصبح أوروبيين ، فلنقتفي آثارهم ، في البحث والتمحيص ، ونحذو حذوهم في تقدير الأمور قبل اعتمادها ، وطرق أسباب المدنية ، ونهج منهجهم في البحث العلمي إلى ما استطاعوا تحقيقه من انجازات ، دون أن يتخلوا عن مقوماتهم القومية : من عادات وتقاليد وأذواق ، التي بقيت كما هي ولم تتغير رغم التقدم المذهل ، فنفعل نحن مثل ذلك : ((فإذا كنا حقا نريد أن نتفرنج فلنقتد بهؤلاء القوم في البحث والتمحيص ، وعدم قبول نظام ولا قانون إلا بعد قتل فائدته خبرا ، وإذا كنا نريد أن نتفرنج فلنحذو حذو هؤلاء القوم في عروجهم معارج المدنية كلها ،

(*)- بيار لوتي - Pierre Loti - (1850م – 1923م) : بحار وروائي فرنسي ، قام في رواياته بوصف البحر والبلدان البعيدة . له عدة روايات منها " صيادو ايسلاندا " و " رحلة إلى الشرق " . المنجد في اللغة والأعلام . و ايضا : Le Nouveau Larousse élémentaire

([1])- احمد الشرباصي : شكيب ارسلان داعية العروبة و الاسلام ، مرجع سابق ، ص ص 68 – 69 .

وسلوكهم طرق التحقيقات العلمية ، إلى آخر ما وصلت إليه ، مع حفظهم لعاداتهم ونزعاتهم وأذواقهم وبقائهم كما كانوا إفرنجا . إذا كنا فعلا نريد أن نتفرنج تحتم علينا أن نبقى عربا))([1]) .

ولقد أسهب الأمير شكيب في الحديث ، عن محافظة الشعوب الأوروبية على قوميتها ، فذكر الإنجليز الذين يرغبون في أن يبقوا إنجليزا ، والفرنسيين الذين يرغبون في أن يبقوا فرنسيين ، والألمان الذين لا يريدون إلا أن يكونوا ألمانا ، والطليان الذين لا يقبلون أن يكونوا طليانا ، والروس منتهى غايتهم أن يكونوا روسا وهكذا . ومن الأمثلة التي يرى أن لها تأثيرا نفسيا كبيرا : الأمة الايرلندية الصغيرة المجاورة للإنجليز، الذين بذلوا كل ما يمكن تصوره من الجهود مدة سبعمائة عام ، بغية دمجهم في المجتمع الإنجليزي ، لكنهم قاوموا كل تلك المحاولات بشدة، رافضين أن يصبحوا إنجليزا ، وبقوا ايرلنديين متمسكين بلسانهم وعقيدتهم وأذواقهم وعاداتهم .والأمر ذاته بالنسبة للأمم الصغيرة " كالبروتون " ، و" الباشكنس " جنوبي فرنسا، الذين احتفظوا بقوميتهم أمام العرب ثم الإسبان ثم الفرنسيين ، رغم أن عددهم الإجمالي مليون نسمة فقط ، وما يزالون كما كانوا في السابق على لغتهم وأزيائهم وعاداتهم وكل أوضاعهم . وهناك " الفلمنك " ، الذين ظلوا يكافحون من أجل جعل اللغة الفرنسية لغتهم القومية والثقافة الفرنسية ثقافتهم ، حتى أجبروا بلجيكا على الإعتراف لهم بكل ذلك . وفي سويسرا ، يتواجدا مليونان وثمانمائة ألف يتكلمون الألمانية ، وأكثر من مائتا ألف ناطقون بالإيطالية ، بقوا محافظين على لغتهم وقوانينهم ومنازعهم ، بالرغم من اتحادهم في المصالح السياسية وعيشهم في مملكة واحدة .أما في بلاد الدانمارك والإسكندناف وهولندا ، فتنتشر فروع عرقية ألمانية خالصة ، ومع ذلك لا تريد الإندماج ولا التخلي عن قومياتها السالفة الذكر . أما التشيك ، فقد بقوا مائتين من السنين تحت الحكم الألماني، دون أن يصبحوا ألمانا ، وتمكنوا من تحقيق استقلالهم السياسي بعد الحرب العالمية الأولى (1914م – 1918م) ، بعد أن مهدوا لذلك بالمحافظة على لسانهم وتميزهم العرقي مدة خمسة قرون .

ومن الأمثلة أيضا، التي ساقها الأمير في هذا الصدد ، أمة المجر التي ورغم أن الألمان نشروا بينها علومهم وطوروها ، إلا أنهم عجزوا على إدماجها في الأمة الألمانية ، فتجدهم أكثر

([1])– احمد الشرباصي : شكيب أرسلان من رواد العروبة والإسلام ، مرجع سابق ، ص 69 .

الأمم حرصا على لغتهم المغولية الأصلية وعلى قوميتهم المجرية . أما الأمة البولونيـة ، فقـد حاول الروس الذين حكموها قرابة الثلاثة قرون ، إدخالها في الجنس الروسي ، وحمل أفرادهـا على نسيان قوميتهم الخاصة ، بحجة أن الجنس السلافي يجمع بين البولونيين ، دون جـدوى ، حيث أصبحوا أمة مستقلة بنفسها بعد نهاية الحرب العالمية الأولى ، لأنهم لم يستجيبوا لكل تلـك المحاولات . والخيبة نفسها وجدها الروس ، مع سكانهم الاستوائيين ذوي الأصول المغوليـة ، ومع أمم بحر بلطيق من " ليتوانيين " و " ليتونيين " .

كما حافظ " الكرواتيون " على استقلالهم العرقي ، رغم أنهم محاطون بـأمتين كبيـرتين اللاتين والجرمان ؛ والصرب مع تركيا التي ظلت سيدة عليهم لعدة قرون ، و"الأرناؤوط" مقابل اليونان والصقالبة (السلاف) ، والبلغار أمام الروم والسلاف واللاتين والأتراك ([1]) .

فقد باءت بالفشل ، كل المحاولات الرامية إلى إدماج تلك القوميات الصغيرة ، في قوميات غير قومياتهم : ((لأن كل شعب مهما كان صغيرا لا يرضى بإنكار أصله ولا بـالنزول عـن استقلاله الجنسي)) . وقد برر الأمير شكيب، استشهاده بأمثلة من أوروبا ، لكي لا تقول الفئـة الجامدة من العرب ، أنها لا تريد أن تجعل أمما متأخرة قدوة لها . فالأمم التي استشهد بها كلهـا أوروبية ، بلغت مبلغا عظيما في العلم والرقي والتمدن ، وتحوز على عدد هائل من الجامعـات والأكاديميات ، والجمعيات العلمية ، والجيوش والأساطيل .

ويضيف بأنه على العرب ، أن يأخذوا العبرة أيضا من الأمة اليابانية ، التي تدرجت في سلم التقدم، إلى أن تمكنت من الوصول إلى ما وصلت إليه أوروبا ، من غير ان تفرط في لسانها وآدابها وحريتها ودينها ، وكل ما يقع في دائرتها القومية . فقد اندمج وتناغم الياباني العصري، بسرعة كبيرة ومذهلة مع مستجدات الحياة العصرية ، وظل مع ذلك دائم العودة إلى ماضـيه ، والتمسك الشديد بقوميته ، غير ملب لنداء التغريب (Occidentalisme) ، لأنه لا يريـد أن يأخذ من الغرب إلا ما هو ضروري ، لكي يقارع سائر الأمم بنجاح ، وهـي لا شـك تجربـة جديرة بالاهتمام والإتباع من قبل العرب يقول الأمير شكيب ([2]) .

([1])- شكيب أرسلان : لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم ؟ ، مصدر سابق ، ص 89 وما بعدها .

([2])- المصدر نفسه ، ص 91 وما بعدها .

وعلى هذا الأساس ، بين الأمير شكيب أن اقتفاء أثر الأمم الغربية ، في مجالات العلوم والمعارف والتقنيات ، لا يمثل عائقا على الإطلاق ، أمام الحفاظ على المقومات الشخصية للعرب بكل مكوناتها . ومن ثمة فقد رد بوضوح على أصحاب الرأي القائل بأن : اللحاق بالركب العالمي المتقدم ، ركب الدول الصناعية والأمم الراقية ([1]) ، لن يكون إلا بالإستجابة للتغريب، الذي يعني الانسلاخ عن كل الموروث اللغوي والتاريخي والأدبي، والديني والحضاري المكتسب ([2]) ، واستبداله بالقيم الجديدة، الوافدة مع التقنية والمعارف المجلوبة من الغرب . وحتى لو كانت قيما شديدة التباين مع القيم الذاتية العربية ، فقد نبتت في بيئات لا تمت بأية صلة بالبيئات الجديدة، التي يراد لها أن تستزرع فيها .

ومن مظاهر عناية الأمير شكيب بالعروبة ، إهتمامه بالبحث في أصل العرب وسبب تسميتهم ، وإعتزازه باللغة العربية ، الأمر الذي كان يدفعه دائما ، إلى التحدث والخطابة بها في كل الدول الغربية التي سافر إليها أو قام بها ، رغم إجادته لأكثر من لغة أجنبية كما هو معروف ([3]) . وتمجيده في كل مناسبة أو موقف لأمة العرب ، التي قال عنها أنها لم تتأهب للنهوض والاتحاد ، ولم تتطلع إلى هاته الدرجات السامية ، لو لا تاريخها المشرق ، الذي يشهد على أنها أمة عريقة ، من حقها أن تطمح نحو الأفضل في الحاضر والمستقبل ([4]) .

وللإشارة فإن اللغة العربية ، التي كانت لدى العرب القدامى؛ مصدرا للفخر والإعتزاز ، والشعور بتفوقها، وقدرتها على التعبير عن أغراضهم ومتطلبات حياتهم الإجتماعية، والعقدية والعلمية ، وعاملا لإرتقائهم الحضاري ، خلال العهد الإسلامي . قد أصبحت أثناء عصور الإنحطاط والغزو الإستعماري ، مستهدفة بإسم الحداثة والتغيير ، ومن شدة الهجمات التي تعرضت لها ، تحولت الى لغة تعاني الغربة لدى أهلها ، الذين كانت فئة لا بأس بها منهم، تنظر إليها بعين الإحتقار والإزدراء ، مفضلة لغة الغازي والمستعمر، التي مثلت لها قمة التفوق اللغوي . متجاهلين أن التمسك باللغة القومية ، وإن اعتراها طارئ الضعف والاضمحلال ،

([1])- محمد عابد الجابري : إشكاليات الفكر العربي المعاصر ، مرجع سابق ، ص 78 .

([2])- طارق البشري ، المرجع السابق ، ص 37 .

([3])- احمد الشرباصي : شكيب أرسلان من رواد العروبة والإسلام ، مرجع سابق ، ص ص 85 – 87 .

([4])- شكيب أرسلان : تاريخ غزوات العرب ، مصدر سابق ، ص 04 .

أفضل بكثير من استبدالها بلغة أخرى أجنبية، وإن بدت متفوقة وراقية . لأن اللغة ليست ألفاظا وتعابيرا وحسب ، وإنما شعورا وإحساسا مشتركا ، وثقافة وحضارة وتفكيرا وشخصية ،بكل قسماتها وسماتها وذاكرتها وفلسفتها ورؤيتها. ومثلما تضعف الأمة وتتراجع ، فاللغة تضعف وتتراجع أيضا ، ومنه فمن غير المنطقي تبرير التخلف بتخلف اللغة ([1]) .

واستهداف اللغة العربية ،هو في واقع الأمر استهداف للحضارة العربية والإسلامية ، بوسائل شتى: ومنها التحريض على النزعات المعادية للعروبة، ومنها النزعة الفرعونية ، التي انتقدها الأمير شكيب . فقد ظهرت عند بعض الناشئة المصرية ، بغية إعادة ارتباط مصر بالعهود القديمة ممثلة في الحضارة الفرعونية ، مع ميل لنفض اليد من الانتماء الحضاري العربي . آخذا طابعا تعصبيا ، بحجة أنه ليس على المصريين ، أن يتبعوا ملة ليست من سلالتهم إشارة إلى الإسلام ، وهي حجة مدحوضة برأي الأمير شكيب، لأن الإسلام دين لا يفرق بين عربي وأعجمي ، وأن مبدأه الأساسي التقوى ، وأن النبي"ص" الذي جاء به، لم يبعث إلى العرب وحدهم وإنما للبشرية جمعاء ، فإذا كانت هناك مساواة تامة في دين من الأديان أمام الخالق تعالى ، فقطعا في الإسلام ([2]) .

ومهما تزايد خصوم الوحدة العربية وتعاظمت قوتهم ، فلا أحد يستطيع بنظر الأمير شكيب، أن يستحوذ على العرب المنتشرين في كل أنحاء العالم، فالمستقبل لهم ، لأن المستقبل هو للأمم ذات الأعداد الكبيرة، والعرب يقدر عددهم بسبعين مليونا متصلون بعضهم ببعض؛ من السوس (*) الأقصى إلى الأهواز (**)، ومن حلب (سورية) إلى الخرطوم (السودان) ، وورائهم مائتان وخمسون مسلم يناصرونهم ([3]) .

([1])– للمزيد ينظر عبد الرحمن بودرع ، وآخرون : اللغة وبناء الذات ، سلسلة كتاب الأمة ، ط 1 ، وزارة الاوقاف والشؤون الإسلامية ، قطر : 2004م .

([2])– لوثروب ستودارد ، المصدر السابق ، م 1، ج 1، ص 168 .

(*)– السوس : واد في جنوب المغرب الأقصى ، طوله 180كلم ، ينبع من سفح جبل طوبقال بالأطلس الأعلى ، يروي سهل سوس جنوبي تارودانت ويصب في المحيط الأطلسي جنوبي أغادير . المنجد في اللغة والأعلام .

(**)– الأهواز : مدينة في جنوب غربي إيران ، عاصمة خوزستان بها النفط . المنجد في اللغة والأعلام .

([3])– احمد الشرباصي : شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام ، مرجع سابق ، ص 71 .

- **غرس فكرة الوحدة في الأذهان ونبذ الخلافات الشخصية :**

أوصى الأمير شكيب سنة 1929م ، بتكوين رأي عربي يقتنع بفكرة الوحدة ، ويخدمها ولا يبالي بالعوائق التي تعترضها ، كالإنقسامات الداخلية والأهواء الشخصية ، اعتبارا بالألمان والايطاليين ، الذين ظلوا لمئات السنين منقسمين ومتشاكسين ، ولم يتمكنوا من تحقيق وحدة بلدانهم ، إلا بتنمية الفكرة وتدريب شعوبهم لأمرائهم عليها، وحملهم على الانقياد لإرادة الأمة . فتألفت من تلك الإمارات المنقسمة ، أمتان عظيمتان إيطاليا وألمانيا . والأمة العربية التي تعد عشرات الملايين من الأفراد ، ليست باعتقاد شكيب ، بأقل منها عددا وذكاءا وقوة ، بل تتفوق عليهما في ذلك ([1]) .

وفضلا عن ذلك ، حث في رسائله المتبادلة مع كل من الملك "فيصل" والملك "ابن سعود" ، على نبذ الأمور الشخصية وتنزيه مشروع إتحاد العرب منها ، إذ ينبغي –حسبه – أن ينظر إلى الأمة ومصالحها بدل الأشخاص فالأمير "فيصل بن الحسين" عدو "الابن سعود" لأسباب شخصية ، لأن "ابن سعود" استولى على ملك آبائه . لكنهما تقابلا وتصافيا ، بصفة أحدهما ملكا للعراق والآخر للحجاز ونجد : ((فالمصلحة العربية قضت بهذا وهما بهذا غلباها على الميول الشخصية وهكذا ينبغي أن يكون وقد بدأ هذان الملكان بأنفسهما)) ([2]) . وفي السياق ذاته ، سعى إلى الإصلاح بين ملكي اليمن والسعودية ([3]) ، وحرض ملك العراق للاتحاد مع ملكي السعودية واليمن وجميع العرب ، حفاظا على الأمة وتجديد لمجدها ، واستنهاضا لهممها ، فتعود إلى سالف عزها ([4]) .

ومنطلقه في ذلك ، أن الوحدة مشروع كبير لن يتحقق إلا بالتدرج ، وقد بين ذلك سنة 1940م بقوله: أنه منذ نهاية الحرب العالمية الأولى ، وهو يوجه مساعيه في هذا الإتجاه . وأنه منذ عشرين سنة ، كان يتصل بكل من ملك السعودية وإمام اليمن وملك العراق في هذه القضية ،بينما كان أكبر قادة العرب يعارضونها بكل الطرق والوسائل ، أو يقولون عنها انها

([1])- احمد الشرباصي: شكيب ارسلان داعية العروبة و الاسلام ، مرجع سابق ، ص 104 .

([2])- الطيب بنونة ، المصدر السابق ، ص ص 124 – 125 .

([3])- محمد شيا ، المرجع السابق ، ص 208 .

([4])- شكيب أرسلان : تاريخ غزوات العرب ، مصدر سابق ، ص 06 .

خيال في خيال . وأقر بأن تلك الرسائل المتبادلة، بينه وبين أولئك الزعماء الذين ذكرهم ، تزيد عن مائة وخمسين رسالة ، ليس من باب الفخر ، وإنما رغبة منه لتأكيد جدية مساعيه ، التي تعهد بأنها لن تتوقف ، إلا بانجاز الوحدة واكتمال بنائها ([1]) .

وهكذا يكون الأمير شكيب ، قد حث العرب الذي يأملون في الوحدة القومية ، إلى الاقتداء بالنموذجين الألماني والإيطالي ، فيما يتعلق بتهيئة الأذهان حتى تستوعب الفكرة وبتجاوز الخلافات والحزازات والحساسيات الشخصية والطائفية ، التي أضرت كثيرا بالعرب ، وجعلتهم هدفا سهل المنال لدى الاستعمار الأوروبي . دون التقليل من الجهود العسكرية والسياسية والدبلوماسية ، التي بذلها قائدا الوحدتين " بسمارك " و " كافور " داخليا وخارجيا ، أثمرت ظهور دولتين جديدتين هما الإمبراطورية الألمانية والمملكة الايطالية ، ساهمتا في إحداث تغيير كبير في الخارطة السياسية الأوروبية ، وفي تحفيز القوميات الأخرى داخل القارة ، على النهضة والتطلع إلى تحقيق أهدافها القومية ([2]) .

- التدرج في الوحدة :

جاء في رسالة، بعث بها شكيب إلى مفتي القدس " الحاج أمين الحسيني " سنة1931م ، أن الحلف العربي مشروع لا ريب أنه لا يتم دفعة واحدة ، لكنه وضع في الأساس ، وأصبح واجبا على الأمة العربية ، أن تبذل المزيد من الجهود لأجل إكمال بنائه ، فتحوله إلى حقيقة بعد أن كان خيالا ، خاصة وأن المخلصين من العرب ، اتفقوا على وجوبه ، وعلى أن يكون عربيا خالصا . فالوحدة الألمانية، بدأت باتفاقيات اقتصادية وإدارية ، وظلت تنمو وتتطور حولي ثلاثين سنة ، حتى أصبحت وحدة سياسية .

وفيها أيضا، انتقد الرأي القائل ، بأن الجزء الناقص استقلاله ، لا يستطيع أن يتحالف مع الجزء التام استقلاله ، لأن الغرض من التحالف ، أن يكتمل الناقص بالكامل ، ويتقوى الجزء عن طريق الكل ، لأننا لا ننتظر من الأجنبي ، أن يقول من تلقاء نفسه ، اليوم أكملت لكم استقلالكم . وعليه يتوجب على العرب ، أن يبادروا إلى التحالف والتفاهم ، من أجل إعلاء شأن الأمة العربية .

([1])- أحمد الشرباصي : شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام ، مرجع سابق ، ص 99 .

([2])- ينظر فرانسوا جورج دريفوس ، وآخرون ، المرجع السابق ، ص 312 وما بعدها .

كما فند صحة الرأي الذي يقول أصحابه ، بعدم إمكانية الحلف العربي ، لأن الأمة العربية جاهلة ، وأنه لابد أن يسبق ذلك تربية علمية ،و أن العلم ضروري ومفيد في مثل هذه القضية. فأجاب بأن الحلف العربي ، فعلا في حاجة إلى العلم ، لكنه لا يشكل عائقا أمامه ، وأنه ليس ضروريا أن تصل الأمة العربية ، درجة الرقي الذي بلغته الأمة الألمانية حتى تستوعب أهمية الحلف ، كما أنها من الجهل الذي يجعلها لا تفقه معنى الإتحاد وضرورته ، فحتى الحيوانات لها الشعور بحس الدفاع عن نفسها ، وتتحد في مواجهة الخطر العام . ووفقا لذلك خلص إلى أنه ، من كانت له مشكلة مع الوحدة العربية ، فعليه أن يتحدث في موضوع آخر غير هذا ([1]) .

وفي لقائه سنة 1930م مع الأمير" فيصل" ، الذي دام عدة أيام وبحث في عدة قضايا ، ومنها قضية الاتحاد العربي ، وكيفية البدء به بين سورية والعراق والسعي لضم "ابن سعود" فيه استعرض الأمير شكيب عدة وجوه ممكنة للاتحاد وهي : الإتحاد النمساوي المجري ، الإتحاد الألماني ، الإتحاد السويسري ، الاتحاد الأمريكي ، وحث على الاقتداء بأحد منها . مقترحا البدء بالوحدة الجمركية ، والمواصلات والصحة والنقد والجوانب الاقتصادية . مع تكوين تحالف دفاعي عسكري ، والعمل على توطيد العلاقات الودية بين العراق ونجد والحجاز ([2]) .

ورأى أن نواة الوحدة العربية ، تبدأ باتحاد سورية مع العراق كمملكة ، ثم مع مملكة الحجاز ونجد حتى اليمن ، مع إحتفاظ كل مملكة باستقلالها ، أما التحالف بينها فيشمل الجوانب العسكرية والاقتصادية والسياسية الخارجية ، وهو أمر ممكن حصوله برأيه لولا وجود فئة من العرب أنفسهم تعمل عكس ذلك : ((وليس في هذا الاتحاد ملك يسود على ملك بل كل ملك يبقى على حاله وعلى استقلاله ، وإنما تقع المحالفة العسكرية والاقتصادية ، وتكون سياستهم الخارجية بالتفاهم مع بعضهم البعض ، وكل هذا ممكن لو لا فساد المفسدين من العرب أنفسهم فلا خوف على العرب إلا من العرب)) ([3]) .

([1])- نجيب البعيني ، المصدر السابق ، ص 267 .

([2])- الطيب بنونة ، المصدر السابق ، ص 123 – 124 .

([3])- نجيب البعيني ، المصدر نفسه ، ص 170 .

واقترح سنة 1940م على الدول الأربع : العراق والسعودية ، اليمن ومصـــر ، طـــرح موضوع الوحدة العربية ، والدخول في تحالفات عسكرية وسياسية واقتصادية وثقافية ، تجعــل منها كتلة واحدة ، تدافع عن مصالح العرب والشرق الإسلامي ([1]) .

وهو في ذلك، يرمي إلى بناء وحدة عربية على مراحل ، تشمل كل المجالات : الماليـــة والتجارة والاقتصاد والثقافة والسياسة والميدان العسكري . فلا تأخذ شكل الدولة الواحدة ، وإنما دولا متحدة تحافظ على شخصيتها السياسية ، خاصة في سياستها الداخلية ، بينما تتصرف فـــي سياستها الخارجية والدفاعية، وفقا للمصالح العربية وليس لمصلحتها القطرية . بمعنى أن الوحدة تكون في خدمة الدولة القطرية ، مثلما حدث في بلدان المغرب العربي ، التـــي وظفـــت فيهـــا الحركات الوطنية التحررية ، فكرة الوحدة – وحدة المغرب العربي – على نحو إيجابي ، فـــي نضالها ضد الاستعمار الفرنسي . فلقد أدى التنسيق بين الحركات الوطنية في كل من الجزائـــر والمغرب وتونس ، إلى إفشال المخططات الاستعمارية فـــي المنطقـــة ، بدايـــة مـــن سياســـة التجنيس ، والسعي إلى الفصل بين العرب والبربر ...الخ . مما كانـــت نتيجتـــه التـــزام تلـــك الحركات الوطنية ، بوحدة الهدف وهو الاستقلال التام ، زيادة على إنشاء هيئات للتنسيق تمثلت في مكتب " المغرب العربي " ، ثم " لجنة تحرير المغرب العربي " بالقاهرة ([2]) .

وقد برر اختياره للجزيرة العربية ، لتكون مهدا للوحدة ، ومناطا للأمة العربيـــة جمعـــاء بكونها بقيت بعيدة عن الاحتلال ، فلا يخفى على أحد أنه من السهل تقوية الموجود ، من استعادة المفقود إشارة إلى البلاد العربية المحتلة ([3]) . لكنه غير موقفه هذا فيما بعد ، حيث اعتبر مصر البلد العربي الوحيد ، الذي يمكن اتخاذه أساسا لبناء " دولة عربية كبرى " ، وهنا استخدم هـــذا المصطلح لأول مرة بدل " الوحدة " أو " الجامعة العربية " أو " الإتحاد " أو " الحلف العربـــي " كما اعتاد على ذلك ، مرجعا السبب في ذلك ، إلى كون مصر تضم جانبا كبيـــرا مـــن إفريقيـــا وجانبا أكبر من آسيا ، ولتوفرها على جملة من العوامل ، التي تمثل مواد لبناء الدول الضخمة ؛ كاليد العاملة الوفيرة ، والأراضي الخصبة الغنية بالثروات ... الخ .وهي كلها وسائل بإمكانها

([1])– احمد الشرباصي : شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام ، مرجع سابق ، ص 67 .

([2])– محمد عابد الجابري : إشكاليات الفكر العربي المعاصر ، مرجع السابق ، ص ص 91 – 92 .

([3])– احمد الشرباصي ، المرجع نفسه ، ص 100 .

أن تجعل مصر دون غيرها ، قادرة على تحقيق آمال العرب ، ولا ينقص في ذلك إلا الاستقلال الحقيقي ([1]) .

وواضح، أنه بنا موقفه الأول على أسباب سياسية تتمثل: في تمتع أغلب أقطار الجزيرة العربية بالاستقلال والسيادة السياسية ، رغم كونها كانت آنذاك ،لا تزال لم تظهر أهميتها الاقتصادية بعد ،حيث أن اكتشاف وإنتاج الثروات البترولية الضخمة التي تحويها أراضيها، مازال في بدايته . أما موقفه الثاني، فقد بناه على أسس جغرافية وإستراتيجية واقتصادية ، ممثلة في موقع مصر الجغرافي، الذي يشكل همزة وصل بين قسمي الوطن العربي (المشرق والمغرب) ، على خلاف الجزيرة العربية التي تقع في أقصى الشرق . وفي توفرها – مصر – على عدد سكاني هائل هو الأول عربيا ، يمكن توظيفه في قطاع الزراعة خاصة ، في وجود مساحات شاسعة من الأراضي ، تتميز بدرجة خصوبتها العالية ، فضلا عن المياه الكافية التي يوفرها نهر النيل . كل ذلك، من شأنه أن يحقق الاكتفاء الغذائي، ليس لمصر وحدها ، بل لكل البلاد العربية ، وهو ما قصده الأمير شكيب .

ولأن الوحدة في نظره مشروع مقدس ، فقد ذهب إلى أن الأمة العربية ، سائرة في طريق تحقيقها ، مهما وضع ((اللئام)) من أعدائها العوائق أمامه ، والمتفلسفون من أبنائها.فالوحدة آتية دون ريب ، مهما طال الزمن ولو بعد مائة سنة ، إذا جسدت أهم شروطها في أرض الواقع ([2]) .

ومجمل القول، بعد كل ما جاء في هذا المبحث ، أن الإبراهيمي وشكيبا، قد أظهرا تفاؤلا كبيرا، بإمكانية تغيير واقع البلاد العربية في عصرهما ، عن طريق الوحدة التي اعتبراها ؛ مفتاحا لكل القضايا والتحديات المتمثلة في : الاستعمار والتخلف الاقتصادي والاجتماعي والحضاري . وربطا نجاحهما ؛ بالاقتناع بالفكرة اقتناعا تاما ، على المستويات القيادية والشعبية

([1])– لوثروب ستودارد ، المصدر السابق ، ج 2 ، م 2 ، ص 120 .

([2])– شكيب أرسلان : الارتسامات اللطاف ، مصدر سابق ، ص 207.

على حد سواء ، وبسلوك المسلك الصحيح المؤدي إليها ، باتخاذ قرارات عملية حازمة ، بعيدة عن الارتجال والفوضى . وأجمعا على أن العرب سائرون في تحقيق وحدتهم ، رغم الصعوبات والعوائق الكثيرة ، التي تقف في سبيل ذلك .

وفي معرض حديثهما عن الخطوات ، الواجب إتباعها لبناء الوحدة العربية ، ذهب كل من الإبراهيمي وأرسلان، إلى ضرورة تشكيل رأي عام يؤمن ويدافع ويسعى إلى الوحدة ، بل هو الذي يدفع الحكام العرب إليها، كما حدث بالنسبة للشعبين الألماني والإيطالي ، اللذان كانا العامل الأساسي في نجاح المشاريع الوحدوية في بلديهما ، على خلاف ما كان يحدث من قبل ، أين كان السياسيون والقادة العسكريون والدينيون ، هم الذين هم الذين تزعموها ، ولم يهتموا بدور الرأي العام أي الشعبي في ذلك . ومنه فقد أكدا على أن منطلق الوحدة شعبي وليس فئويا أو نخبويا ، ولعل هذا التوجه يشبه إلى حد كبير، إستراتيجية الشهيد "العربي بن مهيدي" في توسيع نطاق الثورة التحريرية الجزائرية وتقوية شوكتها، حتى تعجز الجيوش الفرنسية المدججة بالسلاح والعتاد المتطور من القضاء عليها ، التي لخصها في قوله المشهور : ((أرموا الثورة إلى الشارع فسيحتضنها الشعب)) . لأن احتضان الجماهير العربية العريضة ، لمشروع الوحدة هو من أضمن العوامل لإنجاحها، دون التقليل من أهمية العوامل الأخرى ، التي تحدث عنها الإبراهيمي وأرسلان .

وتميز الإبراهيمي عن أرسلان، بكونه أولى أهمية كبيرة للوحدة الثقافية ، من خلال استفاضته في الحديث عن ضرورة تعريب : كل أوجه الحياة في المجتمع العربي ، بدء بالألسنة وانتهاء بمقتنيات البيوت . ربما لأنه ممن يعتقدون ؛ بأن معظم القضايا والإشكالات في الوطن العربي ، مصدرها ثقافي بالدرجة الأولى ، خاصة وأن الثقافة شكلت إحدى الأدوات المثلى ، لمنع أي تكتل عربي من قبل الاستعمار الغربي . فدفعه حرصه على أن تنال اللغة العربية ، مكانتها في كل ما يتصل بشؤون الحياة في البلاد العربية ، إلى إيكال مهمة التعريب فقط إلى فئة حددها في الأئمة والوعاظ والكتاب العرب والمسلمين ، على أن يكون منهجهم ذا محتوى عربي إسلامي كامل . ومنه فقط وضع التاريخ واللغة العربية والدين الإسلامي ؛ كمقومات أساسية للوحدة العربية . هذا يقودنا إلى التساؤل ، عن تصوره الذي لم يفصح عنه المتمثل في موقع

عرب المشرق العربي المسيحيين في الوحدة العربية ، اذا كان التاريخ والدين الإسلاميين، يشكلان ركيزة أساسية في العملية، وفقا لما ذهب إليه ؟ .

بينما ركز أرسلان، على أهمية تماسك الأمة العربية بعناصر هويتها وشخصيتها،التي تميزها عن الأمم الأخرى ، منتقدا الرأي الشائع بكون أن التقدم يعني التغريب ؛ أي تقليد الغرب في كل شيء ، مفصحا عن مفهومه الخاص للتغريب ؛ وهو اقتفاء آثار الأمم الغربية في طرق أسباب التفوق العلمي والصناعي والبحث، مستشهدا بشعوب وقوميات صغيرة في أوروبا ، ظلت محافظة على هويتها، رغم ما تعرضت له من محاولات لإذابتها في قوالب أخرى . وبالنموذج الياباني، الذي عده نموذجا رائدا في التعامل مع الحضارة الغربية ، حيث أخذ أسرار الرقي العلمي والمادي ، وأدار نظره عن القيم الثقافية والأخلاقية الغربية، مفضلا قيمه الذاتية رغم إيغالها في القدم .

وفيما سبق ، ظل أرسلان متمسكا بالحديث باللغة العربية، حتى في الدول الغربية والأمريكية والأسيوية التي أقام فيها أو زارها ، رغ إتقانه للعديد من اللغات الأجنبية كتابة وقراءة ، مثلما تطرقنا إليه في الفصل الثاني من هذه الدراسة. والواقع أن أرسلان قد إكتفى بالعموميات، في قضية حفاظ الأمة العربية على مقوماتها الشخصية ، على خلاف الإبراهيمي الذي تطرق إليها بالتفصيل .

وتميز أرسلان عن الإبراهيمي، في رسمه لشكل الوحدة على نحوعملي ، عبر استعراضه للنماذج الوحدوية التي أنجزت في القرنين التاسع عشر والقرن العشرين ، خاصة منها النموذج الألماني الذي بدأ باتفاقيات اقتصادية وجمركية وانتهى إلى وحدة شاملة ، جمعت شمل الشعب الألماني، الذي عانى الفرقة والانقسام، والتجاذبات الإقليمية والدولية لعدة قرون . فاقترح مخططا يشمل السياسة الخارجية ، وتتويج كل ذلك بتحالف دفاعي عسكري، دون إغفال أهمية زيادة العلاقات الودية ، التي من شأنها تعزيز قوة الاتحاد وإبقائه في أعلى مستوياته . مع احتفاظ كل الدول العربية بشخصيتها السياسية ، أي سياستها الداخلية بحكم الخصوصيات الحاصلة في هذا الجانب .

هذا وقد شذ الإبراهيمي عن أرسلان، في هاته النقطة الأخيرة ،حيث طرح فرضية الدولة الواحدة ، متسائلا عن المانع ، إذا كان اليهود وهم دون العرب مكانة وارتباطا ، من تكوين دولة قومية موحدة في أرض ليست لهم . استوعبت كل اليهود المشتتين في العالم ؛ المتباينين في الألوان والعراق واللغات والثقافات، والأوضاع الاقتصادية، والولاءات السياسية والانتماءات الإيديولوجية ؟.

وفيما يظهر أن الإبراهيمي ، كان أكثر تمسكا بمطلب استقلال الأمة أدبيا وفكريا ولغويا إضافة إلى الوحدة الثقافية ، فقد قدمها على المطالب السياسية والاقتصادية ، بفعل تكوينه اللغوي والأدبي والديني ، وربما لأنه شهد فشل جل التجارب الوحدوية العربية التي جرت في عهده ، مثل التجربة السورية العراقية والسورية المصرية ، لأن أصحابها تجاهلوا حقائق الواقع ، فقفزوا في تقدير الإبراهيمي على المراحل، وأرادوا الوصول إلى جني الثمار بسرعة، وهو ما لم يتحقق .لكن ذلك لم يمنع الإبراهيمي وأرسلان ، إلى الإعراب عن دعمهما لتلك المبادرات السياسية وتثمينها ، عن طريق البيانات التي أصدرها الأول، والرسائل الكثيرة التي وجهها الثاني في هذا الإطار .

لقد كان الإبراهيمي، واضحا منذ البداية ، في ترشيحه لمصر لتكون نواة وقائدة وحاضنة الوحدة العربية، لعوامل تاريخية وثقافية وعلمية وجغرافية وسياسية ، كانت تتوفر عليها مصر دون غيرها من البلدان العربية في تلك الأثناء . فيما اختار أرسلان، في المرة الأولى الحجاز الذي كان في منأى عن الاستعمار والتدخلات الأجنبية ، ثم سوريا والعراق ، ثم الحجاز ، ثم العراق والسعودية ومصر ، ويمكن تفسير عدم استقراره على رأي واحد في هذه القضية ، ربما لكونه أنه كان يراعي الاعتبارات السياسية، أكثر من الاعتبارات التاريخية والاقتصادية والثقافية والجغرافية ، وهو جوهر الاختلاف بينه وبين الإبراهيمي في المسألة .

ولا غرو أن اختيار الإبراهيمي ، كان رأي الغالبية من المفكرين والمصلحين والمثقفين السياسيين العرب ، الذين كانوا يدركون جيدا الموقع الجيوستراتيجي لمصر في الوطن العربي ، والدور المحوري والريادي ، الذي يمكن لها أن تلعبه في قيادة الأمة العربية ، في المجالات السياسية والثقافية والاقتصادية والحضارية ، مستفيدة من تجارب بلدان عربية وأخرى محورية

مثل سورية والعراق على سبيل المثال. و بطبيعةالحال ،لا يمكن التقليل من اختيارات ارسلان في القضية، لكونه أخضعها للمتغيرات السياسية ، التي لا جدوى من تجاهلها.

خاتمة الفصل :

على ضوء كل ما تقدم ؛ يمكن القول أن تيار القومية العربية ، قد ظهر كرد فعل على الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، السيئة التي كانت تعيشها الأقاليم العربية في المشرق العربي، أثناء النصف الثاني من القرن 19 وأوائل القرن 20م ، في ظل الحكم العثماني الذي فشل فشلا ذريعا في احتواء الوضع ، بالقيام بإصلاحات سياسية واقتصادية حقيقية . حيث تبين أن ما قام به ، لا يعدو أن يكون مجرد محاولات شكلية لم تمس الجوهر ، فالإشكال الحقيقي كان في طبيعة العثماني ككل ، الذي كان يرفض التغيير من الداخل ، لكي يتمكن من التكيف مع مستجدات العصر ، ربما لأن قادته لم يقدروا حجم التغيرات، والانقلابات السياسية والفكرية والحضارية (التقنية)، التي كانت تحصل بتسارع شديد، في تلكم المرحلة الدقيقة جدا من تاريخ العلاقات الدولية . أو ربما لكونهم كانوا يرفضون التغيير، من منطلق الحفاظ على المصالح الشخصية لزمرة النظام ، والمنتفعين منه؛ من النخبة العسكرية والسياسية والطائفية والبرجوازية، في الولايات العربية .

ومهما تكن، مبررات تعثر الإصلاحات التي تمت مباشرتها ، فإن ظهور وتنامي الفكر القومي العربي ، كان في غير الإمكان الوقوف في وجهه ، وإنما التوافق معه ، وهو ما لم يحدث ، حيث تظاهر الباب العالي ، بتفهمه لجملة المطالب العربية المرفوعة اليه ، والاستعداد للإستجابة إليها ، لكنه في واقع الأمر ، كان يريد ربح الوقت ليس إلا ، حتى يتسنى للنظام العثماني أن يسترد زمام المبادرة ، ويواجه الضغوط الهائلة التي كان يتلقاها من الدول الاستعمارية الكبرى ، التي كانت طرفا أساسيا في الدفع بالعلاقات بين القوميين العرب والسلاطين، إلى مزيد من التوتر والتأزم ، ربما لأنها نجحت فيما فشل فيه الباب العالي ، من احتواء للحركة القومية العربية الناشئة، وتوجيهها لخدمة مصالحها الاستعمارية في المنطقة ، التي لم تكن خافية على أحد .

ولعل أكبر أخطاء السياسة العثمانية في المنطقة ، سعيها المستمر إلى قمع أو التضييق على كل الأصوات المنادية بالإصلاح الجذري، الذي يكفل للشعوب العربية حقوقها السياسية، ويحفظ لها عناصر شخصيتها وهويتها ، دون أن يعني ذلك خروجها عن الدائرة العثمانية . فكان

من الطبيعي ، أن يتحول الرفض العثماني المستتر لتلك المطالب ، إلى شعور بالكراهية إزاء كل رموز الحكم العثماني في الأقاليم العربية ، بما فيها القيادات المحلية المنتفعة من الوضع . وكانت النتيجة ، انخراط العديد من القوميين العرب ، في لعبة الصراع العثماني الغربي ، حيث وجدوا أنفسهم من حيث لا يدرون، أنهم أطراف أساسية في المعادلة ، وأن تحقيق تطلعاتهم القومية لن يكون إلا بالتحالف أو التعاون مع فرنسا وبريطانيا بصورة خاصة ، بل أن هاتين الأخيرتين تحولتا إلى ناطقتين رسميتين باسم القوميين العرب، ووسيطا بينهم وبين سلاطين الدولة العثمانية ، لتبليغ مطالبهم القومية .

فلقد تحولت باريس ولندن إلى قبلتين ، لأولئك القوميين المطاردين من قبل السلطات العثمانية ، المهددين بالإعدام شنقا في الساحات العمومية، كما حدث في الولايات الشامية ، بتهمة الخيانة والتعامل مع العدو . فما لم يستطيعوا أخذه ،بالحوار والتفاهم مع حكام الباب العالي ، كانوا يضغطون به عليهم عن طريق الدول الكبرى ، التي كانت تدفع بالعلاقات بين الفريقين إلى المزيد من التوتر و القطيعة ، لأن هدفها كان واضحا هو تأجيج الكراهية ضد الأتراك ، حتى تجتمع الظروف المناسبة لطردهم ، وهو ما حدث عقب الحرب العالمية الأولى ، التي استبدلت فيها المنطقة التخلف والاستبداد العثماني ،بالاستعمار الغربي الذي أخذ تسمية مهذبة في الظاهر وهي الانتداب .

والحق أن اللوم يقع على الطرفين ، العثماني والعربي ، فبالنسبة للطرف العثماني، لا يمكن بأية حال من الأحوال تبرير المحافظة على الأمن والاستقرار في الدولة ، بالقمع العنيف لكل شكل من أشكال التعبير عن التطلعات القومية والمطالب السياسية والاجتماعية ، التي كانت في أغلبها موضوعية وممكنة التحقيق ، كما أنها في جوهرها لم تكن تصادمية أي ضد الوجود العثماني في المنطقة العربية . فقد وجد من القوميين العرب، من إعترف صراحة بالانتماء السياسي العثماني ، مع التسليم بالتعددية الإيجابية فيه ، ودعا صراحة إلى بقاء الدولة العثمانية مظلة يحتمي بها الجميع، ومنهم الأمير شكيب أرسلان على سبيل المثال ؛ الذي لم يأبه بالكره العام لها، ولا بخصوماتها مع الدروز الذين ينتمي إليهم طائفيا ، وبذل جهود جبارة في الدفاع

عنها سياسيا وعسكريا ودبلوماسيا وإعلاميا ، ولم يتخلى عنها إلا بعد أن قام الكماليون بإلغاء الخلافة نهائيا، بعد نهاية الحرب الكونية الأولى .

أما الإبراهيمي ، وإن لم يدافع عنها مثلما دافع عنها أرسلان ، إلا أنه هو الآخر لم يوظف قلمه أو لسانه، لصالح الأطراف المعادية لها .أما الطرف الثاني الذي يقع عليه اللوم في القضية ؛ فهي فئة محددة من القوميين العرب ،وخاصة منهم المسيحيين الذين لا يمكن في كل الحالات ، تفهم رغبتهم في التخلص من الاستبداد العثماني ، بالتحالف مع الدول الاستعمارية الكبرى ، التي كانوا يدركون جيدا مراميها وأهدافها . ولسنا ندري هل يمكن تبرير مسلكهم ذاك ، بسذاجتهم التي جعلتهم يثقون في الوعود الغربية التي دفعتهم إلى الحلم بمملكة عربية، تنشأ على أنقاض الحكم العثماني، الذي سيطرد بالتعاون بينهم وبين الغرب ، أو لإعتقادهم بأن الاستعانة بتلك الدول هو حتمية لا مفر منها .

لا تعارض بين الوحدة العربية والجامعة الإسلامية، عند الإبراهيمي وأرسلان ، كلاهما مكملة للأخرى ، بل ذهبا إلى أن الأولى خطوة نحو الثانية ، باعتبار أن نواة الجامعة الإسلامية هي الدول العربية التي تشكل الجامعة العربية . وقد أكدا على هذا الطرح، ردا على الآراء المحلية و الغربية، التي ذهبت إلى أنهما مشروعين مختلفين في الشكل والمضمون ، وبالتالي فإن السعي لربطهما ببعضهما البعض رهان فاشل . وهم في حقيقة الأمر بنظر الإبراهيمي وأرسلان ، يحاولون ضرب المشروعين معا ، فلا يتهيكل العرب في جامعتهم العربية، ولا المسلمون في جامعتهم الإسلامية .

ولا شك أن الطرح الإبراهيمي والأرسلاني، في هذه النقطة ، سليم جدا ، فلا يمكن للجامعة الإسلامية أن تتم أو تنجح في غياب الدول العربية التي تمثل في نفس الوقت؛ كبرى الدول الإسلامية وأعرقها تاريخيا ودينيا وثقافيا وحضاريا، هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى ، ليس في إمكان الجامعة العربية ، أن تستغني عن رابطة أقوى هي الرابطة الإسلامية ، التي تمنحها فضاء سياسيا واقتصاديا وعسكريا أكبر ، وتنوعا إيجابيا ، بالنظر إلى أن نسبة كبيرة من البلدان الإسلامية، ليست عربية وتنتمي إلى بيئات جغرافية وثقافية وحضارية مختلفة ، حيث تتوزع على القارات الثلاث : إفريقيا وآسيا وأوروبا ، دون أن تغفل المسلمين المتواجدين في كل

أنحاء العالم كأقليات دينية ، الذين حث الإبراهيمي و أرسلان على الالتفات إليهم حماية لهم ، وتقوية للجامعة الإسلامية .

و في الصدد ذاته ، افترضا أن الوحدة العربية، ليست تكتلا عنصريا معاديا للأمم والأقوام غير العربية ، بل هي إطار سياسي واقتصادي وثقافي وحضاري، يتطلع إلى خدمة المصالح العربية ، وإلى تنمية التعاون والتبادل مع الوحدات والتنظيمات والتكتلات، الموجودة في الساحة الدولية ، على أساس الاحترام والمنفعة المشتركة . فلا يمكن بأية حال من الأحوال ، تشبيه الوحدة العربية بالوحدتين الإيطالية والألمانية ، اللتان ربطتا المصالح القومية لألمانيا وإيطاليا ، بمعاداة القوميات الأخرى ، والدخول معها في حروب مدمرة ، كانت نتائجها كارثية على الجميع.

إن الشيخ البشير الإبراهيمي ، حينما شدد على ضرورة أن تكون الجامعة العربية، ذات محتوى عربي إسلامي كامل ، فإنه في حقيقة الأمر ، وكأنه يدعو إلى جامعة إسلامية مصغرة ، وهو ما لم يتبناه أرسلان ، الذي اشترط فقط العروبة للانضمام إلى الجامعة العربية ، مثلما أكد عليه القوميون العرب الأوائل ، الذين كانوا في غالبيتهم مسيحيين ، فجعلوا العروبة أساسا لدعوتهم ، وأقصوا الدين سواء كان الإسلام أو المسيحية . وعليه فإن رؤية الإبراهيمي هنا ، تصطدم بالمعسكر المسيحي ، الذي قد يتقبل فكرة الانضواء في إطار الجامعة الإسلامية على أساس التعاون لا التبعية ، لكنه في المقابل سيرفض لا محالة جامعة عربية قوامها الدين الإسلامي، الذي ليس دينهم بالضرورة .

لقد غطى تفاؤل الإبراهيمي وأرسلان ، وحماسهما الشديد للوحدة العربية ، على العقبات العملية الموجودة في الميدان ، والتي لا يمكن تجاهلها مثل:التعددية الدينية(الإسلام و المسيحية) و الطائفية و المذهبية ، و حتى القبلية والإيديولوجية ، التي أدت إلى انقسام في الولاءات السياسية، والتباين في المرجعيات الفكرية . فقد تعرضت المنطقة العربية مع نهاية الحرب الكونية الأولى، إلى محاولات جدية لاستقطابها سياسيا وإيديولوجيا؛ فانقسمت النخبة المثقفة والسياسية فيها، إلى يسارية تتبنى المنظومة الاشتراكية المدعومة من طرف الاتحاد السوفيتي ، وإلى ليبرالية حاولت ربط مصالحها المحلية والعربية بالمنظومة الرأسمالية . فكان من الطبيعي

أن تتأثر الدعوات إلى الوحدة العربية، بتلك التجاذبات الإيديولوجية ، زيادة على طرف إيديولوجي ثالث وقف ضد الفريقين، تمثل في عدد معتبر من قادة النهضة والحركة والإصلاحية العربية ومنهم: الشيخ البشير الإبراهيمي ، الذي رفض صراحة في أكثر من مرة،مسألة الاستقطابات الإيديولوجية والسياسية ، لأنها بحسبه مجرد غطاء، تستخدمه الدول الكبرى لفرض هيمنتها على المنطقة، وتحقيق ما عجزت عنه بالاستعمار . وقد ذهب بعيدا في موقفه هذا ، حيث جهر بمعارضته الشديدة للنهج الاشتراكي، الذي اختاره قادة الجزائر بعد الاستقلال ، الأمر الذي كلفه الإقامة الجبرية وقطع معاشه إلى أن توفي ([1]) .

اتفق أرسلان و الإبراهيمي ، على أن الأمة العربية ، تملك كل المقومات التي تجعل منها أمة موحدة الأجزاء، متكاملة في علاقاتها البينية والخارجية ، تنقصها فقط الإرادة السياسية، والوعي الاجتماعي بأهمية الوحدة وحتميتها ، لمجابهة تحديات العصر على كافة الأصعدة والمستويات . لكنهما اختلفا في الأولويات ؛ فالإبراهيمي رأى ضرورة إنضاج الفكرة شعبيا، عن طريق التربية الاجتماعية والتوعية السياسية . أما أرسلان، فإنه وإن لم يقلل من أهمية تصور الإبراهيمي ، فإنه أظهر ميلا واضحا، إلى العمل السياسي في هذا الاتجاه ، واستعجالا في إنجاز الوحدة ، لأن الأوضاع التي أفرزتها الحرب العالمية الأولى ، والتي لم تكن في صالح العرب ، ومنها استعداد الدول الكبرى لبسط احتلالها على ما تبقى من البلاد العربية ، لم تكن في نظره تنتظر أي تأخير . أما موقف الإبراهيمي السابق ، فقد بررناه بعدم ثقته كثيرا في القادة السياسيين، والحكام العرب في تلك الأثناء ، لما أظهروه من ضيق في الأفق السياسي ، ولانشغالهم بمصالحهم الضيقة ، واستغراقهم في إثارة الخلافات والحساسيات ، التي لا طائل منها ، ولا تؤشر إلا على انحطاطهم ، وعدم إدراكهم للتحديات التي كانت تواجهها الأمة حاضرا ومستقبلا .

وفي الأخير نستطيع القول ،ان التصورات والأفكار التي قدمها أرسلان و الإبراهيمـــي ، لتجسيد مشروع الوحدة العربية في أرض الواقع ، عملية وممكنة ، تتطلب فقط وفق ما ذهبا إليه

([1])– للتفصيل في هذه القضية ينظر رسالتنا : الشيخ البشير الإبراهيمي ودوره في القضية الوطنيـــة 1920 م–1965م ، مرجع سابق .

الجدية والمثابرة ، والاقتناع بأن قوة العرب في وحدتهم ، وليس في انقسامهم إلى وطنيا صغيرة متنازعة فيما بينها ، وقد تأكد للجميع أن الاستمرار في ذلك الوضع غير السليم ، خطأ استراتيجي كبير ، ينبغي تداركه بالوحدة العربية الشاملة ([1]).

فالتاريخ شهيد على العرب إما لهم وإما عليهم ، كما ذكر الإبراهيمي، الذي أضاف أنه من المحزن أنه شهيد عليهم بالتخاذل والتفكك، والركون إلى الكلام والأعمال غير المجدية ، وهو الذي لا يسجل إلا الأعمال العظيمة على حد تعبيره ([2]) .

هذا وقد كشف الإبراهيمي وأرسلان، من خلال تطرقهما المستفيض لحال الأمة العربية ، وواقع الارتباط والتضامن فيما بينها،عن حجم التحديات الداخلية:((الفرقة والانقسام المفتعل عبر التاريخ)) والخارجية التي تواجه العرب ، وتفرض عليهم الإسراع في انجازها للتصدي لتلك التحديات : ((فإذا ما تمت تهيأت لهم أسباب القوة والتقدم والتكامل في ميادين الحضارة ، وتبوؤوا المكانة الممتازة التي تليق بهم ، وبما كان لأسلافهم من أمجاد عظمى سياسيا وعسكريا وأدبيا واجتماعيا ، ودر عليهم من الخير ما يجعلهم في مقدمة أمم الأرض قوة وحضارة ورفاها)) . فإن استمروا في تقاعسهم ، فسوف يظلون عرضة لكل أنواع الازدراء والاعتداء، والاستغلال من قبل أعدائهم ([3]) .

([1])- فايد بشير : " خطوات تحقيق الوحدة العربية في تصور الشيخ البشير الإبراهيمي(1889م – 1965م)" ، مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية ، كلية الآداب والعلوم الاجتماعية ، جامعة فرحات عباس سطيف ، الجزائر: العدد 07 / السداسي الثاني / 2008 ، ص 228 .

([2])- محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 4 ، مصدر سابق ، ص 376 .

([3])- هادي حسن عليوي : الاتجاهات الوحدوية في الفكر القومي العربي المشرقي (1918م – 1956م) ، م د و ع ، ط1 ، بيروت ، 2000م . نقلا عن محمد عزة دروزة : الوحدة العربية (مباحث في معالم الوطن العربي الكبير ومقومات وحدته والعقبات التي تقف في طريقها ومعالجتها والمراحل التي يجب أن يسار فيها إلى تحقيقها) ، د ط ، القاهرة : د ت ، ص ص 304 –92 .

خاتمة البحث

من خلال ما سبق عرضه و شرحه ، و تحليله و مناقشته و مقارنته، في هـــذه الدراســـة التي تندرج ضمن الأبحاث التاريخية الفكرية المقارنة، يمكن استخلاص النتائج التالية :

- **أولا** : يبدو من خلال هذه الدراسة ان البيئة السياسية و الاقتصادية، و الاجتماعية و الثقافية و الدينية ، التي شب فيها الشيخ البشير الإبراهيمي و الأمير شكيب ارسلان ، قد كان لهـــا تـــأثير جوهري، في بلورة مواقفهما الفكرية و السياسية من قضـــايا عصــــرهما عامـــة ، و العربيـــة الإسلامية خاصة . و هي ميزة لا تقتصر عليهما فحسب ، بل شملت معظـــم رجـــال الفكـــر و الإصلاح العرب و المسلمين ؛ لأن التنشئة الأولى للفرد، هي التي تتحكم فيما بعد، في الكثير من معالم فكره و نظرته و تصوره ، فإن حدث بعض التغيير أو التعديل ، بفعل الاحتكاك ببيئـــات أخرى مختلفة عن البيئة الأولى ، فلا شك أنه سيكون طفيفا أو بسيطا . دون أن يعنـــي ذلـــك ، إسقاط فرضية إمكانية أن يتخلى رجل الفكر أو العالم، عن قناعاته أو رؤيته ، جملة واحـــدة أو بشكل جزئي ، التي اكتسبها من بيئته الأصلية .

فالأمثلة عن ذلك عديدة ، أوردنا بعضها في هذه الأطروحـــة ،و منهـــا مثـــال الاديـــب المصري الالمعي "طه حسين" ، الذي عاش حياة تقليدية محافظة في كل شـــيء ، فـــي البيـــت و الحي و المدرسة و البلد مصر ، فكان في بداية الأمر نموذجا للأديـــب المثقـــف الشـــرقي ، الملتزم بالقيم الحضارية الشرقية؛ في سلوكه اليومي أو في إنتاجه الأدبي و الفكري و الثقـــافي، دون إشكال ، فظل على هذا النهج في أغلب فترات حياته . لكن كل ذلك تغير فجأة ، لما ســـافر إلى باريس، التي فتحت أمامه آفاقا حياتية و أدبية و ثقافية و فكرية و سياسية و قيمية جديدة ، لم يعدها في مصر أو في الشرق . فتحول من مدافع عن ما سلف مـــن مكتســـبات، إلـــى مهـــاجم و منتقد ، لكل الموروث الشرقي حتى الايجابي منه، بل انه عمد الى التشكيك في الكثيـــر مـــن المسلمات، التي تعلمها في الكتاتيب المصرية أو في جامع الأزهر، أو من أمهـــات كتـــب الأدب و السير و التراجم و التاريخ و الدين . فلقد مثلت فرنسا بالنسبة إليه، إعادة لإكتشـــاف الـــذات، و الحياة التي ظلت مجهولة لديه، لما أمضى نسبة كبيرة من عمره في مصر، التي عدها طليعة التخلف و الإنحطاط الشرقي .

في حين كان الإبراهيمي و أرسلان ، مثل غيرهمـــا مـــن نخبـــة الفكـــر و الإصــــلاح و التجديد ، يعتبرانها المركز الإشعاعي و التنويري، الأول في العالم العربي الإسلامي ، و لذلك سافرا إليها كما كان يفعل الكثيرون ، من أجل إستكمال تكوينهما العلمي و الفكـــري ، و لتنميـــة آفاقهما السياسية ، بفضل عراقتها في ميادين العلـــم و الـــدين و الثقافـــة و الأدب و الإبـــداع ، و للمؤسسات العلمية و الدينية التي كانت تحوز عليها ، و تعد في تلك الأوقات مراكز إشـــعاع علمي و حضاري، يقصدها طلاب العلم و المعرفة من كافة أنحاء البلاد العربية و الإســـلامية ، و لموقعها الجغرافي الممتاز ، الذي جعلها منطقة إتصال بين الشرق و الغرب ، و لا تزال كذلك إلى غاية الآن .

و إذا كان "طه حسين" و غيره من الأعلام ، الذين دفعهم إنبهارهم الشـــديد بالحضـــارة و الحياة الغربية ، إلى الإنقلاب كلية على آرائهم و أفكارهم السابقة ، فإن أرسلان و الإبراهيمي كانا على العكس من ذلك ، فبالرغم من أن الأول قد عاش جزءا كبيرا من حياته في أوروبـــا ، التي إستطاع أن يندمج فيها بسهولة لكونه كان يتقن العديد من لغاتها ، و لشخصيته المتميـــزة ، التي سمحت له بالإقتراب حتى من الأوساط الحاكمة بها . و بالرغم من أن الثاني قد زار و أقام مدة معينة، في فرنسا التي تعتبر آنذاك ، عاصمة أوروبية و عالمية للفكر و الأنوار ، إلى أنهما لم ينتهيا إلى ما إنتهى إليه "طه حسين" ، بل أنهما أظهر تمسكا أكثر بخصوصـــيتهما الشـــرقية، و بقيمها الدينية و الحضارية ، و توصلا كما إتضح في هذه الدراسة ، إلى أن محاربة التخلـــف و الانحطاط ، لا يكون بالتجرد من كل ما أكتسبه العرب و المسلمون من تراث عبر الـــزمن ، و إنما من خلال مراجعة نقدية شاملة له ، للوقوف على الصالح منه القابل للبعث و الإحيـــاء ، و ترك الفاسد الذي تجاوزه الزمن ، مع أخذ العناصر الإيجابية من الحضارات الأخرى و على رأسها الغربية ، و المتمثلة في التطور العلمي و التكنولوجي ، الذي لا غنى عنه للحاق بركـــب الأمم المتمدنة .

<u>**ثانيا**</u> : تميزت البيئة اللبنانية التي ترعرع فيها الأمير شكيب ، بمزيج من الإيجابية و الســـلبية ، و مرد ذلك الى أن لبنان في عصر شكيب عاش مرحلتين مختلفتين نســـبيا ؛ المرحلـــة الأولـــى عثمانية والثانية فرنسية استعمارية . ولأنه عاش أغلب فترة شبابه في العهد العثماني،الذي استمر

حتى الحرب العالمية الأولى ، فإنه لم يتأثر بتبعات الاحتلال الفرنسي للبنان ،إلا و هو في نهاية العقد الخامس من عمره .

و هو ما لم يتوفر للبشير الإبراهيمي ، الذي ولد و الجزائر قد مضى على إحتلالها تســع و خمسون سنة ، كانت كافية لإخضاع الشعب الجزائري عسكريا، و سياسيا و إقتصاديا وثقافيا . فحتى و إن كان النظام العثماني في لبنان، و في غيره من الولايات العربية التي كانــت تحــت حكمه ، نظاما فاسدا و مستبدا و خاصة في سنواته الأخيرة ، إلا أنه و مع ذلك لم يخلــو مــن بعض الإيجابيات، بالمقارنة مع الوضع الذي كان سائدا في الجزائر ؛ و منهــا فتحــه المجــال السياسي لبعض الفئات الإجتماعية و الطائفية في لبنان، لكي تشارك في الحياة السياسية المحليــة و حتى العثمانية ، كما حدث مع أسرة آل أرسلان، الذين حكموا لوحدهم منطقة الجبل و الشوف طيلة الوجود العثماني ، أكثر من ذلك أنهم كانوا يحضون بمعاملة خاصة على أعلى مستوى لدى الباب العالي ، سمحت للأمير شكيب- كما مر بنا- أن يصبح عضوا في "مجلــس المبعوثــان" العثماني، و مقربا من كل السلاطين إلى غاية إلغاء الخلافة . و هي سياسة دأبت عليها الأوساط الحاكمة في الدولة العثمانية، خصوصا في الولايات الشــامية ، بســبب تركيبتهــا الإجتماعيــة و العرقية و المذهبية و الدينية الخاصة . و لا جدال في أن الأمير شكيب، قد إستفاد كثيرا مــن هذا الوضع السياسي المتميز في البلد بصورة عامة ، و بالنسبة لعائلته بصورة خاصــة ، مثلــه مثل أبناء العائلات الكبرى الأخرى : المسلمة بشقيها السني و الشيعي ، و المسيحية بفروعهــا الكاثوليكية و الأرثونكسية .

و في المقابل إكتشف الشيخ البشير، و هو في سن مبكرة ، أنه يعيش فــي ظــل نظــام إستعماري، لا يعترف بأية حقوق سياسية للجزائريين ، و لم يكتف بذلك، بل عمد إلى منع قيــام أية نخبة سياسية في البلد ، و هو ما يفسر غياب مقاومة سياسية حقيقية، موازية للمقاومة الشعبية إلى غاية نهاية الحرب العالمية الأولى 1914 م – 1918 م . فلقــد تعــرض إلــى التهمــيش و الإقصاء و التضييق ، حتى أولئك المثقفون و السياسيون الــذين ســعوا للتقــرب مــن إدارة الإحتلال ، بعرض خدماتهم عليها ، و إبداء حسن نواياهم إتجاهها ، على أمــل أن تلــين مــن نظرتها إليهم ، فتتعامل معهم كشريك محترم ، و هم الذين أعربوا صراحة عن إعترافهم بالسيادة

الفرنسية و إنبهارهم بالقيم و المدنية الأوروبية بشكل عام، و الفرنسية بشكل خاص ، و رغبتهم في الإندماج فيها . لكنهم لم يجدوا منها إلا الرفض و الصد التامين ، لأنها كانت تخشى مـــن أن يؤدي ذلك إلى تهديد مصالحها في المستقبل ، فهي لا تثق في الجزائري الـــذي كانـــت تصـــفه " بالأهلي " (L'indigène)، حتى و إن كان متعاونا معها تعاونا تاما، و متنكرا تنكرا كاملا لقيمه الوطنية و القومية .

و منه فقد سمح الجو السياسي العام، الذي كان سائدا في لبنان للأمير شكيب، أن يتمتـــع بحقوق المواطنة في إطار السيادة العثمانية ، و أن يحقق بعض طموحاته السياسية؛ المتمثلة فـــي تولي المناصب المهمة، و المشاركة في النشاط السياسي على مستوى أعلى . و في هذا نعتبـــر الأمير شكيب كان محظوظا جدا ، لأن المجتمع الجزائري الذي ينتمي إليه الشيخ البشير ، كـــان أفراده يخضعون لقوانين عنصرية (قانون الأهالي) ،جعلتهم في مرتبة العبيد الـــذين يعملـــون فقط، لصالح مجتمع المعمرين، المتمتعين بكل المزايا و الحقوق المدنية و السياســـية . و حتـــى فترة الإحتلال الفرنسي في لبنان، لم تكن بالسوء الذي كانت عليه في الجزائر ، حيث أن الإدارة هنالك أبقت تقريبا على نفس السياسة العثمانية ، مع تقوية دور و نفـــوذ العـــائلات المســـيحية، و إضعاف العائلات المسلمة، التي لاتقدم الدعم المطلوب للسياســـة الإســـتعمارية ، أو بمعاقبـــة بعض أفرادها الذين لا يقومون بذلك، مثل الأمير شكيب الذي تعرض للمطاردة و النفي، لـــيس لأنه ينتمي إلى أسرة درزية مسلمة ، و إنما لكونه جهر بعدائه الشديد ليس لســـلطات الإحـــتلال الفرنسي في لبنان فحسب، و إنما لجميع الدول الإستعمارية و في مقدمتها فرنسا .

أما في الجزائر، فقد إختلف الأمر عنه في لبنان ، إذ صدت الإدارة الفرنسية الأبواب في وجوه الجميع، و لم تعامل أية شريحة إجتماعية، بمعاملة تفضيلية كما فعلت في لبنـــان . فحتـــى بعض الجزائريين، الذين تمكنوا بعد محاولات كثيرة و مساعي حثيثة، من ربط علاقات مع قادة الإحتلال، مقابل خدمات متنوعة يسدونها لها ، إنتهى بهم الأمر في نهاية المطاف، إلى الإقصاء و اليأس .

و عليه نستطيع القول، أن البيئة السياسية اللبنانية ، كانت أفضل بكثير منها في الجزائر، فـــي عصر الأمير شكيب و الشيخ البشير ، سواء لما كان لبنان ضمن السيادة العثمانية، أم تحت

الإنتداب الفرنسي . فقد كان متاحا للأمير، الإختيار بين معاداة الإستعمار الفرنسي مثلما فعلـــه، أو مهادنته، كما كان نهج الكثير من أبناء الأسر الأرستقراطية اللبنانية، و خاصة المسيحية منها.

بينما كان الشيخ البشير، شأنه في ذلك كشأن كل الجزائـــريين، مجبـــرا علـــى محاربـــة الإستعمار الفرنسي، الذي هضم حقوق المجتمع بأكمله، و مارس عليـــه كـــل أصـــناف القمـــع و التعسف و الإستبداد ، و هي السياسة التي لم يتخل عنها إلى غاية إخراجه من الـــبلاد لســـنة 1962 م، بعد ثورة مسلحة دامت سبع سنوات و نصف .

<u>ثالثا :</u> و لأن الأمير شكيبا، نشأ نشأة أرستقراطية بإمتياز ، فقد ظهر تأثير ذلك بوضـــوح فـــي شخصيته، و في طموحاته المستقبلية التي رسمها لنفسه، و هو لا يزال شابا يطلب العلـــم فـــي المدارس اللبنانية ، حيث كان كثير الإهتمام، بأدق التفاصيل المتعلقة بحياته اليومية؛ مـــن أكـــل و لباس و عناية بصحته ، و بمسكنه الذي بناه على الطراز الأندلسي، و أنفق عليه ثروة كبيـــرة و جلب له متخصصين في ذلك الطراز العمراني القديم من المغرب الأقصى ، و حتى أنه لجـــأ إلى استيراد بعض مواد البناء المفقودة في لبنان، من أجل ينجز المشروع وفق ما كان يحلم به . و بالرجوع إلى كتاب نجيب البعيني : " من أمير البيان إلى كبار رجال العصر " ،الذي ضـــمنه مئات الرسائل التي كان يبعث بها إلى أصدقائه و إلى عائلته ، نجد عددا معتبرا منهـــا يستفســـر فيها اخوته عن وصول الأموال، التي كان يرسلها من منفاه خصيصا لإتمام إنجاز البيت ، و عن كفاءة البنائين و العمال ...الخ، و غيرها من الإستفسارات التي تشير إلى إهتمامه الكبيـــر بهـــذه القضية .

أما بشأن طموحاته ، فقد لخصها في قوله أنه جاء لهاته الحياة، لكي ينقذ الأمة العربيـــة الإسلامية، مما هي فيه من تخلف و إنحطاط ، مع تأكيده على أن ذلك لـــيس أضـــغاث أحـــلام، و إنما حقيقة لا جدال فيها . و هو ما يفسر كونه، أنه كان يقحم نفسه بإستمرار في أي قضـــية عربية أو إسلامية مهما كانت ، و يعتبر نفسه ناطقا بإسمها و محاميا عنها، و الأمثلة على ذلـــك كثيرة و منها : إتصالاته التي أجراها مع السياسيين الإيطـــاليين، و علـــى رأســـهم الـــزعيم " "موسيليني" بشأن القضية الليبية ، و الأمر ذاته كان يقـــوم بـــه لصـــالح القضـــيتين الســـورية و الفلسطينية ... و غيرهما .

و هي الميزات، التي لم نعثر لها على أي أثر لدى الإبراهيمي ، الذي نشأ فــي وســط عائلي ريفي متفتح على الآخر، ممثلا في الشرائح الاجتماعية الفقيرة ، بعيدا عن حياة الرفاهيــة التي عاشها شكيب . و لذلك وجدناه في جانب معتبر من آثاره، يتحدث عن الفقــر و الفقــراء، و البطالة و الأمراض الاجتماعية، المتفشية في الجزائر آنذاك بقوة ، بفعــل سياســة التجهيــل و الاستغلال و التفقير، التي طبقتها فرنسا في الجزائر . و في المقابل، كان يحث على الأخــوة و التعاون الاجتماعي، و محاربة الآفات الاجتماعية، عن طريق التعليم و تقوية الوازع الــديني، و مساعدة الأفراد على إيجاد فرص للعمل مهما كانت بسيطة، لمساعدة أهاليهم على متطلبــات الحياة، التي جعلها المستعمر صعبة إن لم تكن مستحيلة . و لملء الفراغ الذي إعتبــره الحقــل الخصب لكل الأمراض و الآفات الاجتماعية الفتاكة؛ كتعاطي الخمــور مــثلا ، بتشــجيع مــن الاستعمار، لأنها تصب في مصلحته المتمثلة في تفكيــك المجتمــع، و إغراقــه فــي الفســاد و الانحراف ، حتى لا يلتفت إلى حقوقه المهضومة، و لا إلى وطنه المغتصب . و لذلك أيضــا وجه عنايته، على غرار بقية العاملين في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، إلى نشر التعليم على نطاق واسع بين صفوف الجماهير الشعبية، في الأريــاف و المــدن ، و تنميــة المعرفــة و الثقافة بين أوساطهم ، لتنشأ أجيال واعية بواقعها، مدركة للتحديات التي تنتظرها ، فتعمل على طرد المحتل كشرط أول لنهوضها فيما بعد .

في حين غلبت على إهتمامات و مسيرة أرسلان ، القضايا السياسية بصورة خاصــة ، و لذلك قلما نجد له حديثا عن موضوع إجتماعي، أو تحليلا لظاهرة إجتماعية، كما كان يقوم به الإبراهيمي ، الذي و ان كان يعالج من خلال ذلك، أمراض المجتمع الجزائري في ظل الاحتلال الفرنسي ، فإنه كان يسقطها على كل البلدان العربية و الإسلامية، التي كانت أوضاعها تتشــابه إلى حد كبير مع الوضع في الجزائر .

-__رابعا__ : بالرغم من أن فرص التعليم بالنسبة للجزائريين، كانت محــدودة جــدا ، نظــرا لأن التجهيل و نشر الأمية، كانا إحدى دعائم السياسة الفرنسية في البلاد ، و التي عبر عنها الجنرال " بيجو " بمقولته الشهيرة : ((السيف و المحراث و القلم)) ؛ حيــث قصــد بالســيف القــوة العسكرية، و المحراث الاستيطان الزراعي ، أما القلم فأشار من خلاله إلى ما ينبغي القيام به في

المجال التعليمي و الثقافي و هو : حرمان كل الفئات الاجتماعية الجزائرية، مـــن أيـــة فرصـــة للتعليم والتثقيف و لو كانا بسيطين ، مع بعض الاستثناءات، لما تطلب الأمـــر تكـــوين بعـــض الكتاب و المترجمين و الأئمة و القضاة، إستجابة لحاجة الإدارة لمثل هاتـــه الوظـــائف ، التـــي لا يستطيع الفرنسيون أو الأوربيون القيام بها ، لأنها تتعلق بشؤون الأهالي و ليس المعمـــرين . أو فيما يتصل بتأهيل اليد العاملة الجزائرية، العاملة في الميـــدان الزراعـــي ، تحقيقـــا لرغبـــة المعمرين في زيادة مردودية الإنتاج و تحسين نوعيته .

و بالرغم من كل ذلك، استطاع البشير الإبراهيمي ، بفضل المستوى التعليمي و العلمي الممتاز، الذي كانت تقدمه عائلته لأبنائها، و لقاصديها من مختلف أنحاء البلاد ، من أن يتجـــاوز العقبات السالفة الذكر، التي كانت تحول بين الجزائريين و تحصيل العلم و المعرفة، و بفضـــل إصراره على إستكمال تكوينه خارج البلاد ، حيث هاجر قاصدا المراكز العلمية الكبـــرى فـــي المشرق العربي في سبيل ذلك . ليتمكن في النهاية، من تحقيق رغبة فحسب ، بل مـــن التفـــوق على معاصريه من المشارقة، في تخصصات كانت حكرا عليهم و هي اللغة العربية و آدابهـــا، اللذان كان له فيهما إجتهادات شخصية، لم يسبقه إليها أحد ، فولي إمارة البيان العربـــي، التـــي تنازل له عنها الأديب اللبناني "أمير الريحاني" .

و لم يقتصر تفوقه في هذا المجال ، بل تعداه إلى مجالات أخرى مثل الفقه ، الذي أبان فيه عن إلمام كبير بالتراث الفقهي الإسلامي، منذ بداياته الأولى و إلى غاية عصور الإنحطاط ، و كانت له فيه مواقف نقدية، لم يجرأ أحد من قبل على إتيانها ، الأمر الذي يجعله مـــن أوائـــل المجددين فيه في الفترة الحديثة و المعاصرة . أما في المجال الفكري ، فقد أظهر مستوى رفيعا، في معالجة القضايا السياسية و الإجتماعية و الإقتصادية، التي كانت مطروحـــة للنقـــاش علـــى الساحتين العربية و الإسلامية في تلك الأثناء ، فشكلت آراؤه و أفكـــاره و مقترحاتـــه، إضـــافة نوعية في بعض الجوانب، و خاصة الدينية و الإجتماعية منها . و هي في حقيقة الأمر لم تمثل فكر الإبراهيمي فحسب، الذي لا جدال في تميزه ، بل فلسفة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، التي إتخذت من الإصلاح أداة للنهوض بالمجتمع، من ركوده و جموده و إنحطاطـــه ، و هـــو نهج أثبت نجاعته بعد مدة من الزمن ، لما إستطاعت أن تكون الآلاف من الطلبة، تكوينا جيدا

نال التقدير و الإحترام، في المؤسسات العلمية في تونس و المغرب و مصر و الشام و الحجاز .
- **خامسا** : جلي أن الاختلافات الأساسية ، بين المجتمعين اللبناني و الجزائري ، فيمـا يتعلـق بالتركيبة الدينية و المذهبية ، قد كان لها هي الأخرى دورا هاما، في صياغة نظرتي الـرجلين من المسألة الدينية على نحو خاص . فقد ظهر الأمير شكيب، أكثر لينا و إنفتاحا فـي مناقشـته و معالجته، للواقع الديني في العالم العربي و الإسلامي ، المتسم بالتردي و الإنحطاط، مثله مثل الميادين الأخرى . و السبب في ذلك، هو تميز المجتمع الجزائري، الذي ينفرد بالأحادية الدينية و المذهبية العرقية ؛ و هي خصائص انعكست بشكل واضـح علـى فلسـفة و فكـر الشـيخ البشير ،المتصلين بالإصلاح الديني في البلاد العربية و الإسلامية ؛ إذ أنه في غالب الأحيـان، ينطلق من الخصوصية الجزائرية أو المغاربية، ثم يعممها على كافة أقطار العرب و المسلمين ، في حين أن الوحدة الدينية و المذهبية و العرقية السائدة، في الجزائر أو بلاد المغرب ، لا تشمل بلاد المشرق أو بقية البلدان الإسلامية .

فعلى سبيل المثال، نجده حينما يتحدث عن مسلك علماء الدين المتأخرين، و مـا يجـب عليهم القيام به، لكي يستعيدوا قيادتهم للأمة ، يدعوهم إلى ترك كل إختلافاتهم جانبا ، و الإقتداء بالعلماء الأوائل الذين بنوا الحضارة العربية الإسلامية ، متجاوزا واقع الحال الذي يتسم بالإنقسام المذهبي، الذي تكرس منذ عدة قرون ، حتى أصبح حقيقة لا يمكن إلا التكيف معها، هـذا مـن ناحية . و من ناحية أخرى ، فإنه تجنب الإشارة في أغلب أحاديثه و كتاباته، عن حقيقة أخرى ، و هي الوجود المسيحي، الذي لا يمكن الإستهانة به في المشرق العربي خاصة ، حيث أنه فـي كثير من الأحيان يضعهم في الدائرة الإسلامية، في حين أن ما كان يحدث في الميدان عكس ذلك فقد كانت ولاءات نسبة كبيرة منهم بإتجاه الدائرة المسيحية الغربية، و ليس العربية الاسلامية .

و هي الإشكالية التي لا تطرح بالنسبة للأمير شكيب ، الذي كان أكثر وضوحا في هاتـه القضية ، و نستشف ذلك في تركيزه على دورهم الأساسي في الحضارة العربية الإسلامية، هذا في الماضي ، و في الدور ذاته الذي يمكن أن يلعبوه، فـي محاربـة الإسـتعمار و التخلـف، و إستعادة الأمجاد الحضارية السابقة ، و ليس دعوتهم إلى الإنضواء تحت المظلة الإسـلامية، و تبني خيارات سياسية، ليست بالضرورة ضمن خياراتهم ؛ كالجامعة الإسلامية، التي جعل

الإبراهيمي العاطفة الدينية شرطا أساسيا للإنتماء إليها ، أو الجامعة العربية التي نظر إليها على أنها مجرد جامعة إسلامية مصغرة، بمعنى أن نواتها الصلب تتكون من العرب المسلمين بالدرجة الأولى . و بطبيعة الحال، أن هذا الطرح الإبراهيمي، يثير حفيظة العــرب المســيحيين، حتــى أولئك الذين لهم ميولا شرقية . و لا ريب أنها إشكالية معقــدة، تحتــاج إلــى معالجــة دقيقــة و واضحة . و الحق أن ما طرحه أرسلان في هذا الصدد ، هو برأينا أكثر عملية، مما جاء بــه الإبراهيمي ، فقد إشترط العروبة فقط للإنضمام إلى الجامعة العربيــة، و العروبــة و الإســلام للتكتل في إطار الجامعة الإسلامية . و هكذا كان للبيئة الدينية، دور بارز في تحديــد و توجيــه رؤيتي الرجلين، فيما يخص المسائل السابقة .

- **سادسا** : كان جيل الأمير شكيب و الشيخ البشير، شاهدا علــى تلــك التحــولات الكبــرى، و الأحداث المفصلية التي عرفها العالم ،خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر و النصــف الأول من القرن العشرين ، التي أثرت بشكل عميق على الحياة العالمية، في المجالات السياسية و العسكرية و الإقتصادية و الإجتماعية، و الثقافية و الحضارية ، و مست كل البلدان و الأقطار بدون إستثناء، و إن كانت بدرجات متفاوتة . و بطبيعة الحال ، كان العالم العربــي الإســلامي، أكثر البقاع التي تأثرت تأثرا مباشرا، بنتائج تلك التحولات و الأحداث ، لأســباب جيوسياســية؛ تتعلق بالموقع الجغرافي، الذي جعل أقطاره في إحتكاك مباشر مع القوى الإستعمارية الكبرى ، التي كانت تتطلع لإحتلاله عسكريا ، بغية الإستفادة من المزايا الإقتصادية و الإستراتيجية ، التي يمنحها ذلك الموقع .

و لأسباب تاريخية و ثقافية ، متمثلة في الصراع الأبدي بين الشرق و الغرب ، لــدوافع حضارية و دينية التي يعبر عنها بالحروب الصليبية ، كان من الطبيعي أن تنصــب اهتمامــات المفكرين و المصلحين و العلماء العرب و المسلمين ، على التصدي لتبعات هذا الوضع الــذي أفرزته العوامل السابقة ، و هو ما يعبر عنه في الأوساط السياسية الأكاديمية بفكــر الصــدمة ، حيث تجد النخبة المفكرة و المثقفة نفسها، وجها لوجه أمام أوضاع و مواقف ، قد تتجاوزها من حيث التعقيد و التشاكل ، فتأتي محاولاتها لمعالجتها في شكل ردود أفعال، تفتقد إلــى النضــج المطلوب ، لأن عامل الزمن لم يكن إطلاقا إلى جانب تلك النخب ، التي حملت على عاتقها

تراكمات إرث قرون من التخلف و الفساد و الانحطاط ، يستوجب الأمر قرونا مماثلة من أجـل عمليات التقويم أو الإصلاح أو التجديد .

و بالتالي نعتقد أن أرسلان و الإبراهيمي، علـى غـرار جيلهمـا مـن قـادة النهضـة و الإصلاح ، لم توفر لهم الأوضاع السالفة الذكر، الظروف المناسبة لكي يعالجوا قضايا الأمـة العربية الإسلامية ، على نحو يجعل ما اجتهدوا فيه، قابلا للتطبيق من الناحيـة العمليـة ، فـي وجود الكفاءة الفكرية و العلمية المطلوبة في هذا الصدد . و مع ذلك اضطلعوا بالمهمة ، و لـم يتركوا مجتمعاتهم تواجه مصيرها لوحدها ، في غياب القادة السياسيين المؤهلين أكثر من غيرهم في مثل تلك الأوضاع، لقيادة حركات مقاومة الإستعمار و سياساته، و النهوض بالأمة من كـل النواحي . فقد وجدنا الأمير شكيب، في طلائع المجاهدين ضد الإحتلال الإيطالي لليبيا ، و إلـى جانب الجيش العثماني لإخماد ثورات البلقان ، و على رأس الدبلوماسية العربية و الإسـلامية، المدافعة عن فلسطين و سوريا و الحجاز ، و من جملة المفكرين المشـتغلين بقضـايا التخلـف و النهضة، على المستويين العربي و الإسلامي .

و لم يختلف الأمر كذلك، بالنسبة للشيخ الإبراهيمي، الذي ناضل على أكثر من صـعيد ؛ ففي الجزائر كافح من أجل إستعادة حق الجزائريين، في تعلم دينهم و لغتهم، و ممارسة شعائرهم الدينية بكل حرية ، و عمل على التصدي للآفات و الأمراض الإجتماعية ،التـي كانـت تنخـر المجتمع ، كنتيجة منطقية لسياسات التفقير و التجهيل، و زرع الأمية و التهميش، بين صـفوف الجماهير دون إستثناء . و فضلا عن ذلك دافع بنفس الإرادة و العزيمة ، عن قضايا المغـرب و المشرق العربيين و العالم الإسلامي ، و حتى بعض القضايا الإنسانية، التي لا تعني العـرب و المسلمين بأي شكل من الأشكال .

و منه يمكن القول، أن جيل أرسـلان و الإبراهيمـي، مـن المصـلحين و المفكـرين و العلماء ، قد ناضل على جبهات عدة ، من المفيد جدا الوقوف على جميعها، حتى يكون تقييمنا للرصيد الفكري لذلك الجيل، تقييما موضوعيا .

<u>– سابعا</u> : كشف الإبراهيمي، عن كفاءة كبيرة ، في التوفيق بين النضال الوطني و القومي ؛

فالقضية الوطنية الجزائرية، التي كانت على رأس الأولويات ، بحكم الوضع الجزائري الخاص الذي ربما كان الأكثر سوءا و تأزما، من أي بلد عربي أو إسلامي آخر ، لم تشكل عقبة بالنسبة إليه، لتكريس جزء من جهوده و أوقاته ، للتمعن في الإشكالات و القضايا و التحــديات، التـــي كانت تحياها الأمة العربية الإسلامية في ذلك العصر ، ليس لأنه كان يرغب في أن يكــون لـــه حضور سياسي و فكري في أكثر من مستوى و صعيد، و إنما إنطلاقا من رؤيته الخاصة؛ التي تتمحور حول فكرة أن النضال الوطني ،هو جزء من النضال القومي ، فمعالجة الجهل و الأمية في الجزائر، هو سبيل لا غنى عنه لتحريرها من الهيمنة الإستعمارية ، و في نفس الوقت فهــو خطوة أساسية لمعالجة ظاهرة التخلف، و تحقيق النهضة الشاملة المنشودة ، ليس في الجزائـــر و حدها، و إنما في كل الأقطار العربية و الإسلامية ، التي تشترك معها في الأوضاع ذاتها .

هكذا كانت إذن، نظرة الشيخ البشير للأمور ، و هي لا ريب إحـــدى نقـــاط الإخـــتلاف الجوهرية بينه و بين الأمير شكيب ، الذي و إن لم يقلل من أهمية الإشتغال بالقضايا الوطنيـــة ، التي كان له فيها نشاط معتبر و متميز ، إلا أنه أبدى في المقابل إهتماما و تركيزا أكبر، علـــى جبهة العمل العربي و الإسلامي ، ربما لأن الأوضاع في لبنان و الشام، لم تكن على نفس القدر من الإستعجال الذي كانت عليه في الجزائر ، أو لكونه كان يتصور أن إصلاح الجــزء، يبـــدأ بإصلاح الكل .

و في واقع الأمر، أن القضية الوطنية الجزائرية ، لم تسمح للإبراهيمي بإبراز مواهبـــه الفكرية ، رغم أنه كان يمتلك المؤهلات المطلوبة لذلك ، و هو ما يفسر عدم إشـــتغاله بالكتابـــة و التأليف ، فإقتصر جل ما خلفه من آثار، على أحاديث و مقالات و خطب فحسب ، تضـــمنت موضوعات شتى ، شكلت المادة المصدرية لهذه الدراسة التاريخية الفكريـــة المقارنـــة . لكنـــه و رغم قلة المنتوج الفكري الإبراهيمي ، إلا أن المتوفر منه ، يكشف النقاب عن مستوى رفيـــع في الأسلوب و المنهج ، لا زالا محط إهتمام الدراسات العلمية الأكاديمية، خاصة في الســـنوات الأخيرة .

– <u>**ثامنا**</u> : يبدو لنا بشكل جلي ، حضور البعد الديني عامة، و الفقهي خاصة، في مجمـــوع مـــا كتبه الشيخ البشير من مقالات، و ما ألقاه من دروس و محاضرات ، حيث وظف ثقافته

الإسلامية الواسعة، بشتى فروعها العلمية من عقيدة و تفسير و حديث و فقه، و أصول و لغــة و غيرها ، توظيفا فاعلا في كل قضايا الواقع العربي الإسلامي ، التي كان شاهدا عليها و حاول علاجها . لأنه كان ينظر إلى الدين الإسلامي، بإعتباره منظومة حياتية شاملة ، لا تقتصر علـــى الشعائر و العبادات، مثلما هو الحال بالنسبة للديانات الأخرى كالمسيحية مثلا ، و إنمـــا يتعـــدى دورها إلى مجالات السياسة و التربية و الإقتصاد و الإجتماع و الثقافة . و ليس أدل على ذلك، تأكيده على أن علماء الدين هم الأولى و الأجدر ، و المؤتمنون أكثر من غيرهم، علـــى قيـــادة الأمة نحو الإستقرار الإجتماعي و الرقي الحضاري . و عليه فقد تناول قضايا الواقع العربـــي الإسلامي، في عمومياتها و جزئياتها ، بنظرة و فكر عالم الدين المصلح و المفكر ، و سعى في كل مرة إلى تفنيد و محاججة كل النظريات و الآراء، التي أرجعت تخلف العرب و المســـلمين إلى الدين الإسلامي، الذي زعمت بكونه دين جبر و جمود . و أقرّ بـــأن غيـــاب روح الـــدين الإسلامي، في حياة العرب و المسلمين المتأخرين، هو السبب في تخلفهم و ليس العكس ، و أن ما إنطبق على أوروبا لا ينطبق بالضرورة على المسلمين ، إشارة إلى الدور السلبي الذي لعبته الكنيسة و رجالها في أوروبا، خلال العصور الوسطى ، فتطلب الأمر الثورة على كل الرمـــوز الدينية لتلك الفترة ، من أجل تحرير الشعوب الأوروبية من العبودية، التي مورست عليهم بإسم الدين ، و من الجمود الفكري و العلمي، الذين كانا نتاجا لإلغاء العقل، و تكريس ثقافة الخرافات و الأساطير .

وحقا إن الإبراهيمي ، أثبت جدارة كبيرة في الدفاع عن نظرته الدينية هاته ، ليس كمـــا يدافع عادة الخطباء و الوعاظ، الذين تغلب عليهم العاطفة و الخماسة الجياشة ، و إنما بإستخدام الحجة العقلية و الدليل العلمي و الإستنتاج المنطقي ، و هي الخصائص التي كثيرا ما ينتقد فيها علماء الدين من قبل خصومهم ؛ حيث ينعتون في أغلب الأحيان، بالإندفاع و بالجهـــل بشـــؤون الحياة و السياسة ، و بالإبتعاد عن الدقة و المنهجية العلمية في طروحاتهم و تصوراتهم . و نحن هنا لا ندعي أن الأمير شكيبا، كان بعيدا في معالجاته للقضايا العربية و الإسلامية، عن النظـــرة الدينية ، التي نقر بأنها كانت حاضرة عنده ، دون أن ترتقي إلى ما كانت عليه لدى الشيخ البشير فقد زاوج في حقيقة الأمر، بين النظريتين الدينية و السياسية ، مع تغليب نسبي للثانية ، لأن

تكوينه العلمي لم يكن دينيا و لغويا صرفا ،كما هو الحال لدى الشيخ البشير ، و إنما كان سياسيا أيضا؛ سواء من خلال إحتكاكه بالحياة السياسية في لبنان و الشام و مصـــر ، أو عـــن طريـــق إنخراطه في النشاط السياسي، و العمل الدبلوماسي في أوروبا و أمريكا و آســيا، دفاعـــا عـــن القضايا السياسية العربية و الإسلامية .

و تبعا لما سبق ، نصل إلى أن خوض الإبراهيمي في المسائل السياسية و الإقتصـــادية ، بذلك المستوى العالي من المناقشة و التحليل و الإستنباط ، يفند الرأي القائل بأن علمـــاء الـــدين لا ينبغي لهم أن يخوضوا في تلك المسائل، التي ليست مـــن اختصاصـــهم ، بحجـــة أن الـــدين و السياسة ضدان لا يلتقيان ، و هو ما حاول الإبراهيمي طيلة مشواره الفكري، تأكيد خطئه .

- تاسعا : نقر بأن أرسلان و الإبراهيمي، لم يكونا دقيقين في تحديد أو ضبط بعض المفـــاهيم، مثل " العرب " و " المسلمين " على سبيل المثال ؛ فأحيانا يقصدان بالعرب مجمـــوع العناصـــر البشرية المتواجدة في المغرب ، العربية العرق أو اللسان ، و أحيان أخرى يشيران من خلالـــه إلى المسلمين . و العكس صحيح بالنسبة لمفهوم " المسلمين " ،الذي يعنـــي لـــديهما تـــارة كـــل الأجناس التي تدين بالدين الإسلامي، و تارة أخرى العرب المسلمين .

و هي إشكالية منهجية كبيرة صادفناها ، في التعامل مع المادة الخبريـــة و المصـــدرية المستقاة من نصوص الرجلين . و لذلك تعذر علينا، الفصل بين القضايا العربية و الإســـلامية ، لأنها عندهما قضايا واحدة ، فحتى الوحدة العربية التي يفترض أنها قضية عربية ، فهي قضـــية إسلامية وفق تصورهما . فيجد الباحث و الدارس نفسيهما، أمام تداخل كبير في المفاهيم ؛ فحين يعالجان على سبيل المثال قضية التخلف ، يجدان أن المقصود هو المسلمين بما فيهم العـــرب ، لكن الواقع المتحدث عنه لدى الشخصيتين هو الواقع العربي في أغلب الأوقات . لأنهما ينطلقان دائما من فرضية، أن واقع العرب بسلبياته و إيجابياته إن وجدت ، هو الواقع ذاته للمســـلمين . لكن هذا لا يبرر عدم الدقة في تحديد أو ضبط المفاهيم ، كما أن وحدة الواقع أمر نسبي و ليس مطلقا .

و الإشكال ذاته وجدناه في قضية النهضة ، فكلاهما وضع شروطا في شكل اقتراحات، للخروج من التخلف، و تحقيق النهضة العربية الإسلامية ، و من تلك الشروط على سبيل

التوضيح : ضرورة تكتل العرب سياسيا و إقتصاديا و حتى عسكريا بالنسبة للأمير ، و الأصح هو تكتل المسلمين بما فيهم العرب و ليس العرب فقط ، لأن الأمر يتعلق بالعرب و المســلمين معا ... الخ ، و غيرها من الإشكالات التي وقفنا عليها ، و حاولنا التعامل معها وفق ما يقتضيه موضوع هذه الدراسة .

و في ختام هذه النقطة، من المفيد الإشارة إلى ، أن ما أوردناه هنا لا يقتصر على آثــار الإبراهيمي و أرسلان ، و إنما يشمل عددا معتبرا من مفكري النهضة العرب و المسلمين، الذين اتسمت كتاباتهم في بعض المواضيع، باضطراب المفاهيم و المصطلحات ، الــذي يرجــع فــي الأساس، إلى التكوين العلمي التقليدي، الذي تتميز به المدرسة الفكرية التي ينتمون إليها .

- **<u>عاشرا</u>** : نظر الإبراهيمي و ارسلان ، إلى التخلف الحضاري الشامل، الــذي كــان يحيــاه العرب و المسلمون في عصرهما ، على أنه ليس وليد القرنين التاسع عشر و العشرين ، و إنما كنتيجة منطقية لعدة قرون من التراجع و التقهقر في شتى المجالات، يأتي في مقدمتها المجــالان الديني و السياسي ، حيث تحولوا تدريجيا من أساتذة للعالم على حد تعبير الأمير شكيب ، إلــى مجرد متفرجين على دورة الزمن، التي أقصتهم من دائرة الأمم الراقية، و وضعتهم في صــف المتخلفة منها ،و أعادت للبلدان الغربية المسيحية مقاليد الريادة الحضارية ، بعد أن كانــت قــد فقدتها بإنكسار شوكة الإمبراطورية الرومانية عسكريا و حضاريا، فاسحة المجال أمام الحضارة العربية الإسلامية الناشئة ، التي أسهمت إسهاما متميزا في مسار الحضــارة الإنســانية، علــى المستويين العلمي و الأخلاقي ، بفضل الدين الإسلامي، الذي فجر طاقات التفكير و الإبــداع ، بتحريره للعقل من العبودية و الوثنية، اللتان جمدتاه طويلا في الفترة التي سبقت مجيئه . و بحثه على طرق أسباب الرقي و التقدم ، و دعوته إلى أخلقة العلاقات الدولية و الإنسانية .

و إذا كانت السنن الكونية ، تقتضي صعود الحضارات و ســقوطها، فــإن الــذي آثــار إستغراب الشيخ البشير و الأمير شكيب ، هو عجز العرب و المسلمين المتأخرين عن تقلــيص تلك الفجوة الحضارية العظيمة، التي أضحت تفصلهم عن الدول المتقدمة . بالرغم من أن فرص تحقيق ذلك، كانت متوفرة في كل مرة ، و كأنهم سلموا يقينا بأنهم ليسوا أهلا للتمدن و التطور ، اللذان ليسا في حقيقة الأمر حكرا على سلالة بشرية بعينها . لأن المنافسة في هذا المضمار،

متاحة للجميع دون إستثناء ، لكن الوصول إلى ذلك المبتغى لن يكون بطبيعة الحال ؛ إلا للمتحفز لصناعة حاضره و مستقبله ، من خلال الوعي بالهدف و بالوسائل الموصلة إليه ، أو ما يسميه علماء الحضارة بـــ : ((شروط الحضارة)) ، تلك الشروط يدركها العرب و المسلمون أكثــر من غيرهم من الأمم ، حيث تعج بها أدبياتهم و فلسفاتهم، و إرثهم الثقافي الإنساني و قبل ذلــك مرجعهم الديني الأول المتمثل في الدين الإسلامي .

– **حادي عشر** : كشف أرسلان، في معالجته لقضيتي التخلف و النهضة في البلــدان العربيــة و الإسلامية ، عن ثقافة علمية و تقنية عالية جدا، خاصة في مجــال الكهربــاء و الجيولوجيــا و صناعة النسيج ، حيث كان يترجم كل ما يصادفه في سفره و ترحالــه فــي أوروبــا، مــن مخططات و كتيبات في هذا الإطار ، و يقوم بإرسالها إلى أصدقائه العرب، للإستفادة منها .ملحا عليهم بضرورة الإسراع ، في تحويلها إلى مشاريع صناعية في الميدان ، لتكون نواة أولى لقيام نهضة صناعية كبرى، كتلك الحاصلة في أوروبا و اليابان ، مشددا على عدم الإستخفاف بتلــك المشاريع لبساطتها ؛ لأن الأمم المتقدمة لم تحقق ما حققتها، إلا بعد أن مرت بتلك المرحلة مــن التصنيع . و قد أكد على أن نجاح العملية، مشروط بثلاثة شروط أساســية هــي : الإدارة أولا، توفير رؤوس الأموال اللازمة ثانيا، و الحرص على جودة المنتوج لكي ينافس نظيره الأجنبــي ثالثا .

أما الإبراهيمي، فلم نجد مؤشرات في آثاره ، تدل على أنه كــان علــى إطــلاع مثــل أرسلان ، على المجالات العلمية و التقنية الدقيقة السالفة الذكر ، التي تفوق فيه شكيب ليس على الإبراهيمي فحسب، بل على كل مفكري النهضة العربية الإسلامية، الأوائل و المتأخرين علــى حد سواء ؛ الذين إصطبغت أثارهم بالصيغة الدينية بدرجة أولى، و الصبغة السياســية بدرجــة ثانية .

و في المقابل، أظهر الإبراهيمي، تفوقا كبيرا على أرسلان ، فيما يتعلق بالثقافة الدينيــة و التاريخية ، حيث كان يلجأ باستمرار إلى توظيفها، خاصة في مقارنتــه بــين حــال العــرب و المسلمين المتأخرين و نظرائهم الأوائل ، حتى في أدق التفاصيل . فالتاريخ العربي الإسلامي وفق تحليله، ينقسم إلى مرحلتين أساسيتين : مرحلة الإزدهار و الريادة الحضارية ، و مرحلة

التقهقر و الإنحطاط التي كان شاهدا على جانب منها ؛ و رأى أن الخروج منهـــا، لا يكـــون إلا باستلهام عوامل القوة و التفوق، التي توفرت في المرحلة الأولى .

و منه فقد حاول أرسلان، معالجة قضايا التخلف و النهضة، في العالم العربي الإسلامي من زوايا مختلفة : سياسية و علمية و تقنية و نفسية، و دينية في الأخير ، بينمـــا تميـــز عنـــه الإبراهيمي، بتركيزه الكبير على الجوانب التاريخية و الدينية ، لأن التخلف عنده تمتد جـــذوره زمنيا إلى أبعد مما حدده أرسلان ، و أن أهم أسبابه إستبعاد الدين من حياة العرب و المسلمين، علـــى المســـتويين الرســـمي أو الشـــعبي ، و أن معالجتـــه لـــن تـــتم إلا بإســـتعادة مكانته من جديد .

– **<u>ثاني عشر</u>** : شكل الإستعمار عامة، و الفرنسي و الإنجليزي خاصة ، محورا هاما في تناول الأمير شكيب و الشيخ البشير، للقضايا العربية الإسلامية التي أدرجناها في هذه الدراسة ، حيث ذهبا الى إعتباره أكبر أسباب التخلف، و أول المعوقات التي تقف في طريق النهضة، و الوحدة بشقيها العربي و الإسلامي . و إذا كان من المنطقي، أن يركز الإبراهيمي على مهاجمة و إنتقاد و كشف سياسات و مخططات و جرائم فرنسا، التي عدها شيطان الإستعمار ، بحكم أنها الدولة التي كانت تحتل الجزائر منذ سنة 1830 م . فإن أرسلان، الذي كان يفترض به أيضا أن يكون له الموقف ذاته مع فرنسا ، قد خالف هذه القاعدة إلى حد كبير ، إذ أننا نجـــده ينتقـــد و يهـــاجم بريطانيا أكثر من فرنسا ، ليس لأنه كان يعتبر هاته الأخيرة أقل إجراما، و هي التـــي جعلتـــه يعيش في المنفى إلى غاية خروجها من لبنان و ســـوريا ، و إنمـــا لإعتقـــاده بـــأن الإســـتعمار البريطاني، أكثر خطورة من نظيره الفرنسي، و إن بدأ أقل عنفا و قسوة منه . و للتدليل علـــى صحة موقفه هذا ، كان دائما يستحضر التحالف الإنجليزي الصهيوني، من أجل إقامـــة الدولـــة العبرية في أرض فلسطين، بدعم فرنسي بطبيعة الحال ، حيـــث قـــدمت حكومـــات الإنتـــداب البريطاني في فلسطين منذ سنة 1977 م ، كل التسهيلات المادية و المعنوية للصهاينة ؛ لتحقيق حلمهم القومي في غفلة من العرب و المسلمين ، الذين كانوا يعتقدون أن بريطانيا صديق ينبغي الوثوق به . فقد نجحت في إبعاد الشكوك حول مخططاتها، بفضل الحنكة و الدبلوماسية

العاليتين، اللتان كان يتحلى بهما مسؤولوها ، و لسذاجة شريحة هامة من العرب و المسلمين، بما فيهم قادتهم الذين كانوا يصدقونهم رغم أن وضوح أهدافهم .

و بدون شك، أن المبررات التي استند إليها أرسلان صحيحة ، و لكن موقف الإبراهيمي كان برأينا أكثر انسجاما مع حقيقة الاستعمار ، إذ أنه و إن كان يستهدف بشكل خاص الاستعمار الفرنسي، في أغلب أحاديثه و كتاباته و محاضراته ، بحكم خصوصيته الواقع الجزائري ، فإنـــه مع ذلك لم يكن يفرق بين استعمار و آخر ؛ فالاستعمار هو الاستعمار على حد تعبيره ، و لذلك كان يعمد في كل مرة يتحدث فيها عن الاستعمار الإنجليزي، إلـــى وصـــف بريطانيـــا بخبيثـــة الاستعمار . و لم يكتف بذلك، بل أنه حاول لفت الانتباه إلى استعمار آخـــر تنبـــأ لـــه بخلافـــة بريطانيا و فرنسا، و هو الولايات المتحدة الأمريكية ، التي حذر من تنـــامي طموحاتهـــا فـــي المنطقة العربية و الإسلامية . و هو ما حدث بالفعل بعد نهاية الحرب العالمية الثانيـــة ، التـــي دحرجت فرنسا و بريطانيا إلى المرتبة الثانية، في ترتيب القوى الكبرى ، و دفعـــت بالولايـــات المتحدة الأمريكية و الإتحاد السوفياتي إلى المرتبة الأولى ، الأمر الـــذي يـــوحي بـــأن الشـــيخ البشير،كان يتمتع برؤية إستشرافية و نظرة مستقبلية دقيقتين، لمجريات الأحـــداث و صـــيرورة العلاقات الدولية .

- **ثالث عشر** : إن حديث الإبراهيمي و أرسلان ، عن التخلف و النهضة، إكتنفته الكثيـــر مـــن الإشكالات المنهجية ، إذ أنه من غير المنطقي أن نطرح القضيتين، و غالبية البلـــدان العربيـــة و الإسلامية كانت تحت الهيمنة العسكرية الاستعمارية الأوروبية . بمعنى أن القضية الأساسية، لم تكن التساؤل عن أسباب التخلف، و البحث عن السبل لمعالجته قصد الخروج منه، و للوصول إلى أعلى درجات التقدم و الرقي . و إنما حول كيفية التحرر و طرد الاستعمار، و في بعـــض الأحيان نجد الرجلين، يعمدان إلى جعل الواقع الاستعماري مرادفا للتخلف ؛ و النهضة للتعبيـــر عن أية حركة أو مبادرة تهدف إلى تحريك الجمود الفكـــري و الـــديني ، أو الحـــس الـــوطني و القومي أو الوعي السياسي، لمقاومة الاستعمار . و بشيء من التوضيح نقـــول ؛ أن التخلـــف العلمي الفكري و الاقتصادي و الاجتماعي و الديني ، الذي كان واقعا مكرسا في الحياة العربية و الإسلامية، في عصر الإبراهيمي و أرسلان ، و إن كان نتاجا للقرون السابقة كما أشرنا إليه

سالفا ، فإن معالجته قد تكون في جوانب كثيرة وفق ما ذهب إليه المفكران . و لكن ليس فـي ظل الاستعمار، الذي فاقم من الوضع، لأنه ينسجم مع أهدافه في المنطقة العربية و الإسلامية ، و إنما في ظل الاستقلال و السيادة اللذان يمثلان البيئة المنطقية، للحديث عن التخلف و النهضة.

و لعل بعض هذه الإشكالات، التي أشرنا إليها، تخص الأمير شكيب أكثـر مـن الشـيخ البشير ، و نستطيع أن ندلل على ذلك، بإلحاحه على ضرورة الاهتمام بالتنقيب عن المعادن في الأردن التي كانت تديرها بريطانيا ، و بالتركيز على صناعة النسيج في المغرب الذي وقع تحت الحماية المزدوجة الفرنسية و الإسبانية ، و باستغلال البترول في الخليج الذي وضعت بريطانيا يدها عليه تدريجيا .

و عليه نعتقد أن الحراك الفكري و الثقافي و السياسي، الـذي دعـا إليـه الإبراهيمـي و أرسلان ، يخص في العديد من مضامينه التحرر من قيود الاستعمار بكل أشـكاله، و لـيس النهضة . و منه فإن الاستقلال هو خطوة ضرورية ، لكي يفكر العرب و المسلمون، فيما ينبغي عليهم القيام به لإستعادة السيادة المسلوبة، دون أن يعني ذلك النهضة التي تأتي تبعا لذلك، فـي المرتبة الثانية ضمن الأولويات .

– **رابع عشر** : يبدو أن أهم ما ميز منهج المصلحين، في معالجتهما لقضايا العرب و المسلمين، هو مسألة الوقت ، حيث ظهر أرسلان، و كأنه يستعجل الأمر بأقصى سرعة ممكنة ، بإحـداث تغييرات جذرية في الأوضاع السياسية و الاقتصادية، و العلمية و الاجتماعية ، تؤدي إلى تحول المجتمعات العربية و الإسلامية ، من مجرد مجموعات بشرية و عرقية، غارقة فـي التخلـف و الانحطاط ، لا تجتمع على وحدة قومية أو دينية ، إلى قطب سياسي و اقتصـادي و علمـي و حضاري متميز، و قوة عسكرية كبيرة ، يزاحمان القوى الكبرى الرئيسية في تلك الأثنـاء ، خاصة و أن شروط تحقيق ذلك متوفرة و أكثر ؛ المادية و المعنوية منها .

و لعل أرسلان في ذلك، كان من الذين إقتنعوا أن مرحلة ما بعد الحرب العالمية الأولى ، كانت من أهم الفرص التي أتيحت للبلاد العربية و الإسلامية، لكي تغير من واقعها المـزري ، الذي لازمها لعدة قرون. و هو ما يدفعنا إلى القول، أن الأمير كان ينظر إلى كل القضايا نظرة سياسية بالدرجة الأولى ،على خلاف الإبراهيمي، الذي راهن على التربية الاجتماعية ، ليس لأنه

كان يقلل من العامل السياسي ، و إنما لرغبته في بناء قاعدة صلبة للنهوض و الوحـــدة ، حتـــى و لو تطلب الأمر وقتا أطولا ، و هو بلا شك لن يكون الوقت ذاته الذي استهلكه القادة العـــرب و المسلمون السابقون، دون أن يعود ذلك بالفائدة على مجتمعاتهم في أي شيء يذكر.

و بلا شك أن كلاهما قد أصاب في موقفه ، لكن الإشكال يكمن بالنسبة لموقف الأمير، في غياب قادة سياسيين حقيقيين في تلك الأثناء، مؤهلين لقيـــادة الأمـــة و الـــدفاع عـــن ســـيادتها و مصالحها ، فالموجودون منهم كان ينقصهم النضج الفكري، لفهم أبعاد الصراع القائم آنذاك ، و الحنكة السياسية اللازمة، لإدارة الوضع السياسي الذي نجم عن مخلفـــات الحـــرب العالميـــة الأولى ، حتى تحول بعضهم من حيث لا يدرون، إلى أداة توجهها القوى الاســـتعمارية، لتنفيـــذ مشاريعها في المنطقة العربية و الإسلامية ؛ كما حدث مع " الشريف حسين " و أبنائه .

فلو توفر القادة، الذين هم في مستوى الرهانات و التحديات المطروحة ، لكان ما ذهـــب إليه الأمير شكيب أجدى مما طرحه الشيخ البشير على المدى القصير . لكـــن و بمـــا أن هـــذا الشرط كان مفقودا ، فإن التربية الاجتماعية للجماهير العربية و الإسلامية عن طريـــق التعلـــيم و التثقيف و التوعية السياسية ، كانت برأينا النهج الأنسب ، خاصة و أن الأوضـــاع التعليميـــة و الثقافية في البلدان العربية و الإسلامية، قد بلغت درجة كبيرة من التردي و الانحطاط، و هو ما لا يشجع إطلاقا، حتى على وجود كفاءة سياسية على مستوى القادة و الحكـــام . فمشـــروع الوحدة في ألمانيا و إيطاليا على سبيل المثال، ظل حلما بعيد المنال مدة طويلة من الزمن، رغـــم تبنيه من قبل زعماء كانوا على درجة عالية من الكفاءة و الإخلاص ، و لم يتحقق إلا بعـــد أن نضج على مستوى الجماهير الشعبية، التي رأت فيه مطلبا حتميا، لأخذ ألمانيا و إيطاليا مكانتهما بين الأمم القوية و المتحضرة ، و هو ما حدث فعلا .

ا / ملاحق الابراهيمي :

الملحق رقم 01 : حول قبر الإبراهيمي ([1])

" لست أنسى "

أي خطب هز البلاد عويلا	ودهاها فما تفيق ذهـــــولا ؟
أي رزء أصابنا منه ماكا	د يدك الجبال دكا مهـــــولا
أي خسف طوى البلاغة والسؤدد	والمجد والكفاح الطويـــــلا ؟
أي هول تشيب منه النواصي	يوم شاء عنا البشير الرحيلا؟
يم شاء البشير أن يترك الدنيـــ	ـــا ويمضي لربه مستقيـــلا
أترى هذه المنية أغرتـــــــ	ـــه دعوة حببت إليه القبولا
حين همت به دعت إليها	بمجد مؤثـــــل تأثيـــــلا ؟
فحنا الشعب من بكاه رؤوسا	وتداعت له العيون همـــولا
ورأيت الرجال تكسى حدادا	وتسام الصدور هما وبيـــلا
وتبدت على الوجوه معان	ملؤها الحزن حسرة وذبولا
كلنا ثاكل يعزي أخاه	كلنا يسأل العزاء الجميـــلا
زمزمات وهمهمات توالى	كل نفس تتلو الأسى إنجيلا
في مصاب الجزائر المتفادى	وبلايا تغشى الحمى تطفيلا

* * *

أيهذا البشير أنت بشير ؟	أم نذيـــــر قتلتنا تقتيـــــلا ؟
أترانا – وأنت قائدنا الشهـــ	ـــم قعدنا على النهوض فتيلا ؟
أم خشيت الجحود من فئة قا	لت أقاويل أولت تأويـــــــلا ؟
أم مللت الحياة ؟ أم مل فيها	عزمك الرائد الطموح النزولا ؟
أم سئمت الجسم المثقل بالضر	ر – وقد كنت للجسيم حمولا – ؟
أم أعدت لك السماء قصورا	من نضار معمورة تبجيــــــلا ؟

([1])– محمد الطاهر فضلاء : الامام الرائد محمد البشير الابراهيمي ، مرجع سابق ، ص 78 و ما بعدها .

أم دعاك الإخوان باديس والتبــ ـــسي وحفلا من الكرام حفيلا ؟

أنا لا أعلم الحقيقة لكن في اعتقادي أن حققوا لك سولا

* * *

لست أنسى غداة أسس للعلــ ـــم كيان يطاول المستحيـــلا

في اتحاد سعيتم ووئام ونهضتم تجمعون الفلـــــولا

بشعار الاسلام والعلم والفصـــ حـــى ركبتم إلى الجهاد خيولا

تخلقون الرجال خلقا جديدا وتعدون للنضال رعيـــــلا

في سبيل التحرير لكن تعمو ن " بأن نحارب التجهيـــلا "

تنشرون الإصلاح في كل فج وتنادون " قتلوا التدجيـــلا "

بينما يعلن العدو رضاه ونواياه قاهرا مستطيـــــلا

إذا نذرتم به وصحتم عليه صيحة كانت النذير الفعولا

ثم خضتم غمار حرب ضروس وحلفتم : لتأخذن " الذحولا "

تحشرون الطغيان حشرا إلى الحـــ ـــق – صراحا – وترهقون العميلا

وترضون للسياسة نهجا يجمع الشعب قائلا ومقولا

شاعر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين : محمد العيد آل خليفة .

الملحق رقم 02: **ذكرى الأمير شكيب أرسلان** ([1])

الأستاذ محمد علي الطاهر ، أخ نعتز بأخوته ومجاهد نعترف بجهاده وصدق بلائـــه ، لا في سبيل فلسطين المظلومة فقط – التي عرف بها وعرفت به ووقف قلمه ولسانه ومواهبه على نصرها في محنتها من يوم طرقها البلاء إلى الآن – بل في قضية العروبة أينما وجد أبناؤهـــا ، وجريدته الشورى كانت آية الجهاد ، وميدان فوارس الطراد ، وقد كان من عجيب صنع الله في تجلية إخلاص المخلصين ، أن ينال الجريدة المجاهدة في فلسطين ، ما نال فلسطين من الظلـــم والحيف ، وإن كان ظلم القريب أنكى على الحر من ظلم الغريب .

وصلتنا من ذلك الأخ المجاهد رسالة تطفح سرورا بالبصائر وعودتها إلى الظهور ، وبما سنى الله لرجال جمعية العلماء من السلامة من الأيدي الظالمة وللجمعية من السير والتقدم فـــي الظروف المظلمة . وتفيض أسى لما يعانيه مغربنا العربي من ويلات الاستعمار وكل مـــا فـــي الرسالة يدل على أن قلب الأخ الأستاذ معلق بهذا الشمال ، وما زال الشمال مستقر القلوب .

وأرسل لنا الأستاذ الطاهر مع الرسالة نسختين من كتابه (ذكرى الأمير شكيب أرسلان) هدية ، خصص إحدى النسختين بنا والأخرى أمانة أبلغناها إلى مأمنها ، والكتاب جـــز ء حافـــل جمع فيه الأستاذ دموع الباكين على صديقه وأستاذه في الجهاد الأمير شكيب أرسلان ، وحسرات المتفجعين على مصاب العروبة والإسلام لفقده . وأكثر الباكين على الأمير شكيب ومـــا أكثـــر المتحسرين ، وإننا نعتقد أن ما جمعه الأستاذ الطاهر من المرائي والتحليلات هو ما وصلت إليه يده مما نشر في الصحف ، وإن ما لم يصل إليه من ذلك شيء كثير .

قرأنا الكتاب فلم نعجب لوفاء الرجل لصديقه ورفيقه أكثر مما عجبنا لصبره على جمـــع هذه الأشتات ، في وقت تقطعت فيه الصلات وتباعدت الأقطار . وهمته في إخراجه فـــي هـــذه الظروف العابسة الشحيحة ، لم نعجب لوفاء الرجل لصديقه لأن العلاقة بينهما في الحياة كانـــت وثيقة العرى لم يتخللها فتور ، وكانت مساندة في الجهاد تسمو عن الأغراض والأهواء . وعلاقة هذا شأنها في الحياة لا يزيدها الموت إلا متانة واستمساكا ، خصوصا إذا كان لها مـــن صـــفاء الجوهر النفسي ظهير ، وإن حظ الأستاذ الطاهر من ذلك الصفاء لكبير .

([1])– محمد البشير الابراهيمي : الاثار ، ج 2 ، مصدر سابق ، ص ص 180-181 .

الملاحـــــــــــــق :

نشكر للأستاذ هديته ونرجو أن تسامحه الأيام في كتابه تاريخ الأمير بقلمه ، وتحقق وعده لأبناء العروبة بقضاء دين في أعناقهم لأميرهم ، ومثله من يضطلع بذلك .

محمد البشير الابراهيمي

الملحق رقم 03 : **داء المسلمين ودواؤهم** ([1])

الباحث في أحوال المسلمين بحث تقص واستقراء رجل من اثنين ، رجل مـــن أنفســـهم ورجل من غيرهم ، وكلا الرجلين يجتمع بصاحبه في نقطة تبعث الحيرة وهي : كيـــف يســـقط المسلمون هذا السقوط المريع وفيهم كل أسباب الصعود وبين أيديهم كل ما ارتقى به أســـلافهم ، فأصول الدين من كتاب وسنة محفوظة لم يضع منها شيء ، وأسباب التاريخ واصلة لم ينقطـــع منها شيء ، واللغة إن لم ترتق لم تنحدر ، والعرب الذين هم جذم الإسلام ما زالوا يحتفظـــون بكثير من الخصائص الجنسية ومعظمها من المكارم والفضائل ، والأرحام العربية ما زالت تجد من بين العرب من يبلها ببلالها ، فلم تجف الجفاء كله وإن لم توصل الوصل كله ، والتجـــاوب الروحاني الذي تردد صداه كلمة الشهادة في نفوس المسلمين وكلمة التلبية في جنبات عرفات لم يتلاش تماما ، والأرحام المتشابكة بين المسلمين لم تجف الجفاء الذي يقطع الصلة ، ومن السنن الكونية المقررة في سقوط الأمم وعدم امتداد العزة والرقي فيها أن ينسى آخرها مـــآثر أولهـــا فينقطع التيار الدافع فيتعطل التقدم . والمسلمون لم ينسوا سلفهم ، بل هي بينهم مدونة محفوظـــة مقطوع بها بالتواتر ، بل هم أكثر الأمم احتفاظا بمآثر السلف وتدوينا لها ، ولا يعرف بين أمـــم الأرض أمة كتب علماؤها فيما يسمونه الطبقات والسير مثل ما كتب المسلمون في ذلك .

والباحث الأجنبي معذور إذا تحير ، وقد يخفف عنه ألم الحيرة ابتهاجه بهذا السقوط وأن بحثه عن الداء ليس بقصد الدواء ، فقد عودنا كثير من هؤلاء الباحثين الأجانب أنهم لا يبحثـــون لذات البحث ولا يدرسون هذه المواضيع لوجه التاريخ الخالص ، فضلا عن أن تجد عندهم مـــا يطلب من العالم المخلص ، وهو أن يرمي ببحثه وبإعلان نتائج بحثه إلى تنبيه الضال ليهتـــدي والمريض ليسعى في الاستشفاء والساقط ليأخذ بأسباب الصعود والنهوض ، وإفهامه أن الأيـــام دول وأن من سار على الدرب وصل ، بل نرى أكثرهم يتعمد إضلالنا في تعليل الأشياء كي لا يقف المريض على حقيقة دائه فيغفل مغترا ، أو يعالج داءه بداء أضر ، أو يضع الدواء في غير موضعه ، وقد نرى منهم من ينتهي من بحثه بنتيجة وهو أن سبب انحطاط المسلمين هو الإسلام نفسه ... وأن من يستطب لدائه بإشارة عدوه لحقيق بأن يسمع مثل هذه النصيحة ...

([1])- محمد البشير الابراهيمي : الاثار ، ج 4 ، ص 309 و ما بعدها .

أما الباحثون في أحوال المسلمين من المسلمين فهم ينقسمون إلى فريقين – بعد اتفاقهم علـــى أن الجسم الإسلامي مريض وأن مرضه عضال – فريق منهم هدي إلى الحق فعــرف أن الجســم الإسلامي لا مطمع في شفائه إلا إذا عولج بالأشفية القديمة التي صح بها جسم ســلفه ، وغــذي بالأغذية الصالحة التي قوي عليها سلفه ، وذلك أنه أقام الدين فاستقامت له الدنيا ، وانقاد له عباد الله بقوة ، فمشى على نوره إلى السعادة في الدارين ، وأرشده إلى أن سعادة الدنيا عز وسلطان ، وعدل وإحسان ، وأن سعادة الآخرة حياة لانصب فيه ولا نهاية ، واطمئنان لا خوف معـــه ولا كدر في أثنائه ، ورضوان من الله أكبر .

وفريق منهم ضل عن الحق في الدواء ، لأنه ضل قبل ذلك في تشخيص الداء ، وضـــل من قبل ذلك في طريقة البحث فتلقاها من أعداء الإسلام زائغة ملتوية ، وضل من قبل ذلك فـــي طريقة البحث فتلقاها من أعداء الإسلام زائغة ملتوية ، وضل من قبل أولئك في أسلوب التفكير ، فهو يفكر بعقل ملتاث بلوثات هذه الحضارة الخاطئة الكاذبة المستمدة من أصول الاستعمار الذي يسقي الأقربين ما يرويهم ، ويغذي الأبعدين بما يرديهم ، ثم يجتثهم من أصـــولهم ولا يلحقهــم بأصوله ، ويتركهم متعلقين بأسباب هذه الحضارة مفتونين بها ، مهجورين منها ، وقل ما شـــئت في العاشق المهجور ، الذي لا يملك من أسباب الحب إلا القشور ، ولا يملك من أسباب الوصل شيئا . وقد علمنا من سنن الحب أن أعلاه ما كانت معه كبرياء تزع ، واعتـــداد بـــالنفس يأخـــذ ويدع ، وقوتان إحداهما تدلل ، والأخرى تذلل ، أما هؤلاء العشاق المتيمون بحضـــارة أوروبـــا وعلومها وتهاويلها فقد فقدوا الشخصية التي تحفظ التوازن في ميدان العشق وتحفظ لصاحبها خط الرجوع .

هذا الفريق المزور على الإسلام ، الذي لا صلة له به إلا بما لا كسب له فيـــه كاســـمه ولقبه ، يرى أنه لا نجاة للمسلمين إلا بالانسلاخ عن ماضيهم ودينهم ، والانغماس في الحضارة الغربية ومقتضياتها من غير قيد ولا تحفظ ، وهو يعمل لهذا جاهدا يسره المسر كيدا ، ويعلنـــه المعلن وقاحة ، وأنك لتعرف ذلك منهم في لحن القول ، وفي مظاهر العمل ، وفي إدارة الكـــلام على أنحاء معينة ، وفي البداوات الخاصة ، وفي اللفتات العامة ، حتى لتعرفـــه فـــي أســـباب معيشتهم الشخصية ، ولكنهم يتناقضون ويتهافتون ، فيبتدئون من حيث انتهى سادتهم ، فســـادتهم

يرون أن اللعب إنما يحلو بعد الجد ، وأن القشور إنما يلتفت إليها بعد تحصـــيل اللبـــاب ، وأن الكماليات تأتي بعد الضروريات ، وأن الوقت رأس مال لا يجوز تبديده في غير نفع ، ولكن هذه الطائفة منا تفعل عكس ذلك كله وتختصر الطريق إلى اللهو ، لأنه يـــروي شـــهواتها ، وإلـــى الكماليات والمظاهر لأن لها بريقا هو حظ العين وإن لم يكن للعقل منه شـــيء ، وأن عصـــارة رأيهم في علاج حالة المسلمين تترجم بجملة واحدة ، هي : أن النجاة في الغرق .

هؤلاء الدارسين لعلل المسلمين منهم هم علة علل المسلمين ، وهـــم أنكـــى فـــيهم مـــن المستعمرين الحقيقيين ، فلقد كان دهاة الاستعمار في القرن الماضي يباشرون الشعوب الإسلامية كفاحا ووجها لوجه ، صراعا في الحرب ، وحكما في السلم ، فيمارسون منهـــا خصـــما شـــديد المراس ، قوي الأسر ، متين الأخلاق ، فلم ينالوا منها إلا ما تناله القوة من الضـــعف ، وهـــو محصور في التسلط على الماديات ، أم القلوب والعقول والعقائد والاعتزاز بالقوى والخصائص فلم يستطع سلطانهم أن يمتد إليها ، وهي عناصر المقاومة ، المدخرة ليوم المقاومة ، ولن تجـــد فيها ما ترى وما تقرأ أمة قاومت الغصب فدحرته ولو بعد حين إلا لأن هذه العناصر بقيت فيها سليمة قوية وبقيت هي عليها محافظة ، ولكن أولئك الدهاة أتونا من جهات أخرى فهادنونا علـــى دخن ، وحببوا إلينا مدنيتهم من جهاتها القوية ، ثم أعشونا ببريقها وابتلونا بما لا يلائم النفـــوس الضعيفة الحيوانية من شهواتها ، وقالوا : إن وراء هذه المدنية علما هـــو أساســـها ، وأن وراء العلم ما وراءه سعادة ، وفتحوا لناشئتنا أبوابا أمامية يدخلون منها ، وأبوابا خلفية يخرجون منها إلى عالم غير عالمهم الأصلي وجاءت البلايا تزحف ، فنقلتها تلك الناشئة تجري ركضا ، ودعت الكأس الأولى إلى ما بعدها وأصبحنا نتنافس في تقديم هذه القربان من ناشئتنا للاستعمار ، ومـــا زدنا بسفهنا على أن جهزنا له جيشا من أبنائنا يقتل فيه خصائصنا وروحانيتنا ، ليقاتلنـــا بـــه ، وليوليه ما عجز عنه لصعوبة مراسنا وشدة احتراسنا ، وليرجع إلى أهليه مملوء النفس باحترام أستاذه ، مصمم العزم على التمكين له ، وقد كنا لا نحترمه ولا نصادقه ولا نصافيه ولا ندمث له موضع الإقامة .

ما هو موقع الغلط في أبنائنا ؟أنهم بتعلمهم في الغرب ، بلغة الغرب وبلباسهم لبـــاس الغـــرب ، وانتحالهم رسومه في الأكل والشرب ، ظنوا أنهم أصبحوا كالغربيين فانسلخوا في مظاهرهم

ومخابرهم عن خصائصهم الأصلية الموروثة ، فخسروها ولم يربحوا شيئا ، إذن لم يقـــع فـــي تقديرهم أن جل الأحوال التي قلدوا فيها الأوروبي هي ألوان إضافية اصطبغ بها بعد أن استكمل وسائل عزه وقوته ، فلا تحسن في العين ، ولا ترجح في الوزن إلا ممن وصل إلى درجتـــه ، وقطع المراحل التي قطعها في الحياة ، وأنهم ظنوا غلطا في الفهم أن هذه الحضـــارة غربيـــة ، وأخطأوا فإن الحضارات ليست شرقية ولا غربية ، وإنما هي تراث إنساني متداول بين الأمـــم تتعاقب عليه فيزيد فيه بعضها ، وينقص منه بعضها ، ويبتكر بعضها بعض الفروع فينسب إليه ، ويلونها بألوان ثابتة فتبقى شاهدة له حتى تضمحل .

إن جل أبنائنا الذين التقطتهم أوروبا لتعلمهم عكسوا آية فرعون مع موســـى ، ففرعـــون التقط موسى لينفعه ويتخذه ولدا ورباه صغيرا وأحسن إليه ، فكان موسى له عدوا وحزنا وسخنة عين ، أما أبناؤنا فقد التقطتهم أوروبا وعلمتهم وربتهم فكانوا عدوا لـــدينهم ، وحزنـــا لأهلـــه ، وسخنة عين لأهليهم وأوطانهم ، إلا قليلا منهم دخل النار فاحترق ، وغشي اللج فأمن الغرق .

والسبب في هذا البلاء هو استعداد فينا كاستعداد المريض للموت ، وشعور بالنقص فـــي أنفسنا ، لبعد عهدنا بالعزة والكرامة ، ولموت أشياء فينا تصاحب موتها في العادة يقظة أشياء ، ففقد الإحساس بالواجب تصحبه يقظة الشهوات الجسدية ، وقوة الإحساس بالواجب هـــي التـــي أملت على بعض خلفائنا أن يعتزل النساء كلما هم بالغزو ، وهي التي حملت كثيرا مـــن قضـــاة سلفنا على أن يقمعوا شهوتهم الجسدية بالحلال قبل أن يجلسوا للخصوم في مجـــالس الحكـــم ، وموت النخوة تصحبه سرعة التقليد وعادة الخضوع للغالب وسرعة التحلل والذوبان .

إن الغرب لا يعطينا إلا جزءا مما يأخذه منا ، ولا يعطينا إلا ما يعود علينا بالوبال ، ولقد أعناه على أنفسنا فأصبح المهاجر منا إلى العلم يذهب بعقله الشرقي فينبذه هناك كأنه عقال على رأسه لا عقل في دماغه ، ثم يأتينا يوم يأتي بعقل غربي ، ومنهم من يأتي بعقل غربي ، ومعـــه امرأة تحرسه أن يزيغ ...

محمد البشير الابراهيمي

الملحق رقم 04 : تعارف المسلمين مدعاة لقوتهم وعزتهم ([1])

بسم الله الرحمن الرحيم :

أيها المستمعون الكرام :

أبعث لكم على أمواج الأثير بواسطة راديو بغداد تحيات الإسلام الطيبـــات الزكيـــات ، وأعرفكم في جمل قصيرة بمغزى رحلتي ، وبشيء من أعمال الجمعية التي أوفدتني ، وسأحدثكم بعد الليلة بشيء من أحوال الشمال الإفريقي الذي هو قطع عزيزة من أوطان الإسلام .

الغرض الأساسي من رحلتي هو التعرف إلى إخواني المسلمين بالوصف الجـــامع بيننـــا وهو أخوة الإسلام . ودراسة أحوالهم في مواطنهم ، والاتصال بعلمائهم وزعمائهم وقادة الفكـــر والرأي فيهم ، لننظر ونتبادل الرأي في إصلاح الفاسد من أحوالهم ، وإكمال الناقص من أعمالهم ، والتعاون على تبديل حالتهم بما هو أحسن منها ، وإزالة هذا التناكر الذي يسود مجتمعـــاتهم ، وتهيئة الوسائل الممكنة لتعارف الأخ بأخيه .

بدأت بباكستان ، وأطلت فيها لأن لها من مركزها ونشأتها وأحوالها الداخلية ما يقتضـــي هذا التطويل ، وسأنشر آرائي فيها بواسطة الصحافة إن شاء الله ، ليعرف إخواننا البعيدون عنها أشياء من حقائقها .

وأنا الآن في العراق ، وسأواصل رحلتي لبقية الأقطار الإسلامية لهذا الغرض الشريف ، وهو الدراسة والتعرف ، فإن من النقائص التي لازمت المسلمين قرونا وفوتت عليهم خيرا كثيرا وكانت سببا في إطالة آلامهم وأمراضهم ، هذا التناكر الذي يسود مجتمعاتهم ، وقـــد آن الأوان لأن تتعارف هذه الوجوه المتناكرة ، وتتقارب هذه النفوس المتنافرة ، ووجب على كـــل مســـلم مخلص لدينه ، مالك لوسيلة من وسائل التأليف بين مسلم ومسلم أن يسعى في ذلك بـــإخلاص ، وأن يوجه كل مسلم إلى أخيه ، وأن يؤذن فيهم بالتعارف الذي هو بريد التعاون ، الذي هو بريد القوة والعزة ، وأن ينذرهم بأن هذا التقاطع بينهم ليس من روح دينهم ، وإنما هو من آثار البعد عن دينهم ، وأنهم أضاعوا حقيقتهم يوم أضاعوا هذه المعاني التي كانت تربط أجزاءهم ، وتحفظ

([1])– محمد البشير الابراهيمي : الاثار ، ج 4 ، مصدر سابق ، ص 96 و ما بعدها .

عزتهم ، وتمكن لسيادتهم في الأرض ، حتى أصبحوا كلهم – بتفرقهم – في حكم العبيد ، ولـــم تغن عنهم كثرتهم شيئا حينما أضاعوا تلك الكثرة المعنوية .

آن الأوان لأن تتعارف ، وآن الأوان لأن تجتمع هذه الأجزاء المتنـــافرة مـــن الجســـم الإسلامي الكبير ، ووجب على كل مخلص لدينه أن يسعى في جمع هؤلاء الإخوة المتقـــاطعين في مصلحة غيرهم .

أيها المستمعون الكرام :

في العالم الإسلامي مؤسسات كثيرة وجمعيات وأحـــزاب وجرائـــد ومجـــلات ، وهـــذه المؤسسات هي التي يجب عليها أن تتعارف بتبادل الزيارات والجرائد والكتب والنشريات ، وأن تقف جهودها كلها نقطة ارتكاز وهي : تعريف المسلم بأخيه المسلم ، وتقريب وســـائل اســـتفادة المسلم من أخيه المسلم ، حتى يكون التعارف مثمرا ثمرات كاملة .

وإنني أحدثكم اليوم بمثال من هذا فأعرفكم بجمعية العلماء الجزائريين وبشيء من أعمالها للإسلام ، فإذا عرفتم عنها الكليات ، كان ذلك مدعاة لكم إلى البحث عن الجزيئات من أعمالها . وإن هذه المعرفة تفيدكم نشاطا وتبعث في الجمعية تنشيطا حيثما تعلم أنها بعين من إخوانها أهل الفكر والرأي في العالم الإسلامي .

جمعية العلماء لفظ معناه جماعة من العلماء المصلحين جمع بينهم العلم الواسع بحقـــائق الإسلام المستمدة من الكتاب والحديث ، والإطلاع الواسع على التاريخ الإسلامي والحظ الـــوافر من الإطلاع على أسرار اللسان العربي الذي هو لسان الإسلام وترجمان حقائقه ، وجمع بيـــنهم – زيادة على ذلك – نسق من الأخلاق المحمدية منها الإخلاص في الذود عن حقـــائق الإســـلام وتطهيره من كل ما علق به من ضلال العقائد وبدع العبادات ، وزيغ الأخلاق ، ومنهـــا الألـــم لحالة المسلمين الحاضرة مع العلم بأن منشأها الأول آت من هجرهم للقرآن وبعدهم عن فهمـــه فبعدوا عن هدايته ، ومع اعتقاد أنهم لا يعودون إلى ماضيهم العزيز إلا إذا عادوا إلـــى القـــرآن فأحيوه ، وإن هذه الجيوش من الرذائل التي تهاجم الإسلام في إيراد الشبه وفي تزيين الإلحـــاد ، لا تدفع إلا بالاعتصام بالعروة الوثقى وهي القرآن .

الملاحـــــــــــــق :

إن في الجزائر ذلك القطر الذي هو قطعة من وطن العروبة الأكبر ، وفلـــذة مـــن كبـــد الإسلام ، معاني من الدين وكنوزا من الأخلاق الإســـلامية الشـــرقية لاذت بنفـــوس عربيـــة ، وتوارثتها الأجيال عن الأجيال ، ومرت بها فترات من الجهل والضلال ، ونزعات مـــن الظلـــم الأجنبي والاعتدال ، فلم تفسدها ولم تفض إلى مكامنها حتى ظهرت في هذا العصر وتجلـــت ، أظهرتها الحركة الإصلاحية القائمة على يد جمعية العلماء الجزائريين .

إن في المغارب الثلاثة تونس والجزائر ومراكش قريبا من ثلاثين مليونا مـــن المســـلمين العرب الأشداء في إسلامهم وعروبتهم ن وطالما انتابتهم الأحداث التي تنسي الإنســـان جميـــع مقوماته ، ولكنهم لم ينسوا عروبتهم ولم يضيعوا إسلامهم ، وآخر الأحداث التي حلت بهم هـــذا الاستعمار الفرنسي الجاثم على شمال أفريقيا .

محمد البشير الابراهيمي

الملحق رقم 05 :

عروبة الشمال الإفريقي :([1])

عروبة الشمال الإفريقي بجميع أجزائه طبيعية ، كيفما كانت الأصـــول التـــي إنحـــدرت منهـــا الدماء ، و الينابيع التي إنفجرت منها الأخلاق و الخصائص ، و النواحي التـــي جـــاءت منهـــا العادات و التقاليد ، و هي أثبت أساسا ، و أقدم عهدا ، و أصـــغى عنصـــرا ، مـــن إنجليزيـــة الإنجليز ، و ألمانية الألمان .

قضت العروبة بقوتها و روحانيتها و أدبها و سمو خصائصها و إمداد عروقها – في الأكـــرمين الأول من نبات الصحاري و بناة الحضارات فيها – على بربرية كانت منتشرة بهذا الشـــمال ، و بقايا آرية كانت منتشرة فيه ، و فعل الزمن الطويل فعله حتى نسي الناس و نســـي التـــاريخ الحديث أن هناك جنسا غير عربي ، و ضرب الإسلام بيسره و لطف مدخله ، و ملائمة عقائده للفطر ، و عباداته للأرواح ، و آدابه للنفوس ، و أحكامه للمصالح ، على كـــل عـــرق ينـــبض بحنين على أصل ، و على كل صوت يهتف بذكرى إلى ماض بعيـــد ، و زاد العروبـــة تثبيتـــا و تمكينا في هذا الشمال هذه الأبجديـــة العربيـــة الشـــائعة التـــي حفظـــت أصـــول الـــدين ، و حافظة على متون اللغة ، و دونت الآداب و الشرائع ، و كتبت التاريخ ، و سجلت الأحكـــام و الحقوق ، و فتحت الباب إلى العلم ، و كانت السبيل إلى الحضارة .

كل هذه العوامل صيرت هذا الشمال عربيا قارا العروبة على الأسس الثابتة من دين عربـــي ، و لغة عربية ، و كتابة عربية ، و آداب عربية ، و منازع عربية ، و تشريع عربي ، و جـــاء التاريخ – و هو الحكم في مثل هذا – فشهد و أدى ، و جاءت الجغرافيا الطبيعية فصومت هـــذا الشمال بمنابت العروبة من جزيرة العرب ، و جاء الزمن بثلاثة عشر قرنـــا ، تشـــهد ســـنوها و أيامها بأنها فرغت من عملها ، و تم التمام و وقع الختم و أن عروبة هذا الوطن جـــرت فـــي مجريها على ...أعدى العقل ، و كأن الأمم التي كانت تغطي هذه الأرض قبل الاتصال بالغرب مهيأة للاتصال بالعرب ، أو كأن وشائج من القربى كانت مخبوءة في الزمن ، فظهرت لوقتها ، و كانت نائمة في التاريخ فتشبهت لحينها ، و إن الأمم لتتقارب بعد أن كانت متباعدة مثل ما

([1])– محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 3 ، مصدر سابق ، ص 424 و ما بعدها .

تتباعد بعد أن كانت متقاربة ، و لا يتوقف التقارب إلا على دعوة مصحوبة بحجة ، أو حادثـة مقرونة برجة ، و كلتاهما وجدت في الإسلام .

إن كل ما يحتج به القادحون في عروبة هذا الشمال هو حجة عليهم ، فالدول التي قامـت فيه – كالمتونية و الرسمية و الموحدية و الصنهاجية و المرينية الزيانية – ليس لها من البربرية إلا النسبة العرفية ، و هي فيما عدا ذلك عربية صميمة : عربية في الضروريات المقومة للدولة كوظائف القلم من إدارية و مالية ، و وظائف القضاء من عقود و تسـجيلات ، و عربيـة فـي الكماليات التي تقتضيها الحضارة و الترف ، كالغناء و الموسيقى و الشعر ، فما علمنا أن شعراء البلاطات في تلك الدول تقتربوا إلى الملوك بالشعر البربري ، إلا أن يكون في النـادر القليـل و في حال الإصطباغ بالبداوة الأولى .

هذه العروبة الأصلية العريقة في هذا الوطن ، هي التي صيرته وطنا واحـدا ، لـم تفرقـه إلا السياسية سياسة الخلاف في عصوره الوسطى ، و سياسة الاستعمار في عهده الأخير ، و هـذه العروبة هي مساكة على كثرة المفرقات ، و هي ملاكه على وفرة العوامل الهادمـة ، و هـي رباطه الذي لا ينقصم ، ببقية أجزاء العروبة في الشرق ، و هي السبب في كل ما يأخذ من تلك الأجزاء و ما يعطيها ، فينصرها في الملمات ، و يتقاضاها النصر في المهمات ، فالعالم العربي بهذه العروبة المكينة كالجسد الواحد إذا ألم بجزء من أجزائه حادث ، أو نزلت بـه مصـيبة ، تداعت له سائر الأجزاء بالنصرة و الغوث ، أو بالتوجع و الامتعاض ، و قد أمتحن في المغرب الأقصى – و هو عضو رئيسي من هذا الجسد – هذه المحنة التي لم تزل في عقابيلها ، فهبـت مواطن العروبة كلها صارخة في وجه العادي ، فقال كل عاقل في الدنيا : إن هـذا التضـامن طبيعي ، لأنه حنين العرق إلى العرق ، و محروبة الروح لروح ، و نداء الدم للدم ، و أنه فيض من شعاب الفطرة الإنسانية ، لا تملك القوة المادية و المالية ، و نعرة من ذوي رحم ، لا يتوجه إليهم فيها اليوم فضلا عن المؤاخذة ، و هو بلاء يهود أمريكا على انتصارهم لإخـوانهم يهـود ألمانيا ، و هل يلام فرنسيو كندا إن لو جعل مكر له حلت بإخوانهم في فرنسا ، إنها نعرة طبيعية لم يضعفها الإغراق في السوق ممن يخفضها الإمعان في الحضارة ، و لم يشذ بها دين و لا علم ، و ما العرب إلا من الناس ، و ما هم بأقل حظا في الإنسانية من الناس .

هذا هو فج الحقائق الذي يسلكه العقلاء فلا يضل بهم سبيل ، و لا يفسد علــيهم تعليــل ، فأمــا الاستعمار فإنه يسلك في ذلك كله فجاجا طامسة الأرجاء ، فيتناول الحقــائق الثابتــة بالتشــويه و المغالطة ، ثم بالمكابرة فيها ، و يجادل بالباطل ليــدحض بــه الحــق ، و كــأن ســنن الله (مستعمرة) أيضا . فهو ينقلها من رقعة إلى رقعة كقطع الشطرنج ، إذا خالفت ســنته هــو ، و ينقض قوله بفعله ، و فعله بقوله ، كلما أفحمه المنطق و أوهى حجته .

ينكر الاستعمار عروبة الشمال الإفريقي ، و يعمل لمحوها بالفعل ، و هو في جميع أعماله يرمي إلى توهين العربية بالبربرية ، و قتل الموجود بالمعــدوم ، ليــتم لــه مــا يريــد مــن محــو و إستئصال لهما معا ، و إنما يتعمد العربية بالحرف لأنها عماد العروبة ، و ممسكة الــدين أن يزول ، و لأن لها كتابة و مع كتابة العلم و أدبا ، و مع الأدب التاريخ ، و مع كل ذلك ، البقــاء و الخلود ، و كل ذلك مما يقض مضجعه ، و يطير منامه ، و يصخ مسمعه و يقصر مقامه .

و ما هذه البدوات التي تبدو منه حينا بعد حين ، إلا وسائل لمحو العربية و نقص العروبة مــن أطرافها ، فكلما هاجت به النوبة ، و غاظه من العروبــة هــذا التحــدي ، و هــذا الصــمود للعوادي ، و هذا التصلب في المقاومة ، إرتكب جريمة ، و سن له من القوانين ما يقويها و مــا يغطيها ، و يسميها مصلحة ، و جند لها من الأشخاص كل حاكم ، و كل طــامع ، و كــل ذي دخله سيئة ، و من الأعمال : التطبيل و التزمير ، و الإعــلان و التشــهير ، و مــن المعــاني الإستمالة و التسيير و الإستهاء و التعزيز ، و الإغواء و التبشير ، و ما الظهير البربــري فــي ذلك الباب بأول و لا أخير .

كل ذلك الجهد ، و مثله معه مصروف إلى غاية واحدة ، و هي محو العربية و قتــل العروبــة و كل ذلك الجهد مردف بجهد آخر في إحياء المعاني الميتة التــي قتلهــا الإســلام مــع بــدع و ضلالات ... .

و من أباطيل الإستعمار و تهافته ، أنه يسمى السوداني المتجنس بالجنســية الفرنســية ليومــه أو لساعته : فرنسيا ، و يلحقه بنسبه ، و يساويه به في حقوقه و مميزاتــه ، ثــم ينكــر علــى البربري – مثلا – أن يكون عربيا ، بعد ما مرت عليه في الإستعراب ثلاثة عشر قرنا و زيادة و بعد أن درج أكثر من ثلاثين جيلا من أجداده على الإستعراب ، لا يعرفون إلا العربية لغة

يتكلمون بها و يتأدبون و يتعبدون ، فليت شعري ، أيهما أقرب إلى الواقع : البربري المستعرب أم السوداني المتفرنس ؟ و أيهما أنفذ ؟ حكم الله أم حكم الإستعمار؟ .

و من آيات بغض الإستعمار لكلمة العروبة و نفوره منها ، أنه لا يريد أن يعتــرف بــأثر مــن أثارها الطبيعية من تراحم و تعاطف ، فهو في محنة المغرب الأقصى الأخيرة ، و ما أثارته من غضب العرب و سخطهم و إجماعهم على الإستنكار ، لا يرد ذلك إلى مرده الطبيعي ، و هــو التعاضد الجنسي ، و إنما يرده على شيء آخر تنكره روح هذا العصر المنافق ، و هو التعصب الديني ، كل ذلك ليبعد عن خواطره – و لو بالتوهم – خيال العروبة مجتمعة الشمل ، متصــلة الأسباب ، موصلة الأرحام ، معلنة لعروبة الشمال الإفريقي ، و تعمى الأهواء عينيه على حقيقة مجردة ، و هي أن حظ العرب المسيحيين في مصر و الشام من التألم لمحنة المغرب الأقصى ، لم يكن من أقل حظ إخوانهم المسلمين .

إن الإستعمار – على ذلك كله – ليعرف عروبة هذا الشمال و يعترف بها ، و لكنه ممن يكتمون الحق و هم يعلمون ، فقــد أحتــل هــذا الــوطن فكانــت أقوالــه فــي الحــرب و الســلم ، و أحكامه في العدل و الظلم ، كلها جارية بأنه عربي ، و على أنه عربــي ، و كلمــة العــرب Les Arabe التي يطلقها على أهله تمييزا أو نبزا أكبر حجة عليه ، و لكنه فــي مبتــدأ أمــره و منتهاه رجس من عمل الشيطان ، و هل في عمل الشيطان خير أو حق ؟ إنما هو عناد للحق ، و تزيين للباطل ، و نقض للخير و بناء للشر ، و ما شاء الشيطان من النقائص .

البشير الابراهيمي

الملحق رقم 06 : **تقارب العرب ... بشير اتحادهم** [1]

سماحة العلامة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي كبير علماء الجزائر ذو قلم ناطق بالصدق قائل بالحق ، فضلا عن فصاحة اللسان وحلو البيان ، وقد تفضل مشكورا فحلى جيد هذا الكتاب بالكلمة التالية :

((لم يمر على العرب عهد كانوا أحوج فيه إلى الاتحاد وجمع الكلمة من هذا العهد ، لأن المصائب التي جرها عليهم التفرق كانت تأتي متفرقة المواقع متباعدة الأزمنة ، بحيث لا يحـــس بوقعها المؤلم جميع العرب إلى أن وقعت واقعة فلسطين ، وسود عارها وجوه العـــرب كلهـــم ، وزاد في افتضاحهم بها أن القارعة حلت بهم وهم مجتمعون ، فكانـــت صـــاخة خرقـــت الآذان ونفذت إلى مواقع الإحساس من العرب جميعا .

لا يجمع القلوب شيء كالمصائب ولا يعم التنبه والإحساس إلا بعمومهـــا ، ولا أعـــم ولا أطم في تاريخ العرب من واقعة فلسطين ، فهل جمعت قلوب العرب ؟ وهل رجعت بعقولهم إلى مستقر الإدراك ؟ وهل غسلت ما كان فيهم من أن أنانية وأثرة وما كان بينهم من تنافس لا ينفـــع إلا عدوهم ؟ إنها إن أثمرت هذه الثمرة ستصبح نعمة علينا ؟ نكافئ عليهـــا صـــهيون بالشـــكر الجزيل ، فقد ساق إلينا الخير من حيث أراد بنا الشر ، وأية نعمة أعظم من نعمة تجمـــع شـــمل العرب ، وتوحد كلمتهم بعد هذا التفرق الذي ترك الجزيرة رقعا ملونة بألوان شتى ! .

التقارب بريد الإتحاد ، والتزاور دليله ، والتحاور بشيره ، والتشاور مفتاح بابه ، وكـــل هذا يقع في هذا الأيام بين رؤساء العرب وأولي الرأي فيهم ويتكرر وتصحبه مبشرات مؤذنـــة بقرب تبلج فجر من الاتحاد تعقبه الوحدة الشاملة التي ترهب أعداء العرب ويقول معها صهيون عن جزيرة العرب : إن فيها قوما جبارين .

كانت زيارة الأمير عبد الله الجابر الصباح رئيس معارف الكويت لمصر حدثا له آثـــاره الجلية في تقارب العرب ، لأن لبلاده مكانة في تاريخ الجزيرة العربية الحديث ، ولبيته مكانة في البيوتات العربية البارزة ، ولشخصه منزلة مستمدة من فطرة العربي وهمته وشـــهامته ونبلـــه وبساطته وسماحة نفسه ، ومن أدب المسلم وتواضعه وصدقه في القول والفعل والحال ، وكان

---

[1]– محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 4 ، مصدر سابق ، ص 242 و ما بعدها .

لاحتفاء مصر بزيارته وافتتانها في تكريمه مزاج لطيف من الرسمية والشعبية جمع لأول مــرة بين روح الشعب وروح الحكومة ، ودل لأول مرة على أن حكومة مصر من شعب مصر ، وقد كانت أمثال هذه الاحتفالات تقوم على المجاملة والنفاق ، لا على الإخلاص والمحبــة ؛ وعلــى الرهبة والملق ، لا على الرغبة والصدق . وأن هذا المزاج اللطيف الذي ظهر على حفاوة مصر برجل عربي له منزلته ، لوسط بين الرسمية المتكلفة والشعبية المتخلفة ، وهو – في حقيقتــه – وصل لأرحام كانت مجفوة والرحم إذا تنبهت أسبابها تأتي بكل عجيب وتجرف كــل مــا كــان يحجبها من حجب وما كان يغطي عليها من عقوق وقطيعة .

نحن لا نرى في ملوك العرب وأمراء العرب وقادة الرأي فــي العــرب – وإن تعــددوا واختلفت مشاربهم وأهواؤهم – إلا أنهم مستحفظون على مجد العرب ، وأن علــيهم عهــدا أن يعيدوه ووسائل هذه الإعادة ممكنة لهم ، ميسورة عليهم ، لا تكلفهم عناء إلا إطّــراح الأنانيــة ، وإننا لا نحاسبهم على أسباب الإضاعة ، لأنها قديمة ، وليسوا مسؤولين عنها ، وإنمــا نطــالبهم بإعادة ما ضاع من ذلك المجد . وليس تعددهم بمناف لذلك ولا مانع منه إذا اتحــدت الوجهــة واتحد العمل واشتركت الأيدي في البناء على منهاج صحيح ، فليتعــددوا بالشــخص وليتحــدوا بالمعنى يفوا بحق الله وحق العروبة ويعيدوا المجد الضائع والحق المنهوب .

ويقولون إن المال هو الذي وجه الأفئدة إلى الكويت ، وإن الغني هو الذي صرف الوجوه والآمال إلى البيت الصباحي ، وكأنهم يقولون إن احتفاء مصر بالأمير الكويتي هو أثر من ذلــك المعنى ، أو شعبة من تأثيره ، وأنا أقول أن العرق الكريم كريم في ذاته ، وأن الكويت والبيــت الصباحي فيه ...اختصا برأس مال معنوي ، وهو الخلال العربيــة الصــميمة ومنهــا الجــد ، والآداب الإسلامية القويمة ، ومنها حب الخير ثم فعله ، وهذا هو الاستعداد الفطري السليم الذي لا يزيد المال فيه ، ولا ينقص العدم منه ، فهذا هو رأس ما الكويت الحقيق الــذي لــم تفســده العوامل الدخيلة ولم تهدمه المعاول المختلفة المتعددة لهدم العرب بهدم أخلاقهم إفساد أذواقهــم ، ولو سلمت هذه الأخلاق للعرب والمسلمين لسلم لهم كل شيء وكانت منبهة لهم إلى تلافي الخلل قبل الفوات ، وضم الشمل قبل الشتات .

هذه الخلال في الكويت وفي غيرها من أمهات القرى العربية السالمة هي التـــي نعــدها رأس المال ، قبل المال ، فلما فض عليها المال فاضت معه تلك الأخلاق وقادته إلى الصالحات ولم يقدها إلى المهلكات ونعما المال الصالح للعبد الصالح ، والمال – منذ كان المال – لا يفســد الصالحين ، بل يزيدهم صلاحا . ولا يصلح الفاسدين بالطبع والجبلة ، والمال كالماء إنما يحـــي الأرض الخصبة . وأقرب الطبائع من المثل العليا في سياسة المال طبيعة العرب الـــذين يقــول أولهم :

إذا حال حول لم يكن في بيوتنا من المال إلا ذكره وفضائله

نحن مستنون – إن شاء الله – بسنة القرآن في تنزيله الأحكام علـــى الأعمـــال لا علـــى العاملين ، لأن العاملين يفنون ، والأعمال تبقى ببقاء آثارها . ولم نعود ألسنتا ولا أقلامنا مـــدح شخص لذاته أو للقبه أو لبيته أو لمنصبه ، فإذا أثنينا على شخص كان الثناء منصبا على عملــه الصالح النافع وعلى هذا الأصل القرآني ، فنحن نثني مسرورين مبتهجين على هـــذه الأعمـــال الصالحة التي قامت بها إمارة الكويت على يد أميرها وآل بيته ، وإعانة علمائها وسراتها وأهل الرأي فيها ، من تشييد المدارس التي في حصون العلم ، ومستشفيات العقول ؛ وتجهيز القوافـــل من شباب العرب إلى مصر ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ، وليدرسوا الحياة فيأخذوا بأقوى أسبابها إلى أشرف غاياتها ، ومن فتح الباب لأبناء العرب مـــن الخليج العربي إلى الجزائر العربية ليقطعوا مرحلة من مراحل التعليم في الكويـــت ، فيتلاقـــى أبناء العمومة من أقصى المغرب إلى أقصى المشرق على بساط العلم الجامع وفي ثرى الأخـــوة الندي ، وتتلاقى الأفكار التي شتتها تباعد الديار ، وكيد الاستعمار ، ومن شحن اللغة العربية إلى أبنائها المغتربين في باكستان والهند لتبقى صلتهم بإخوانهم ووطنهم ممدودة ومن تحقيق أســـباب العمران والتمدين في تلك الصحراء الجرداء . وإنها لأعمال جليلة في ذاتها ، محمـــود فاعلهـــا بالتبع لها ، ونحمد الله لأمراء الكويت أن وفقهم لأداء زكاة المال بهذه الصورة النافعة وأن وفقهم إلى شكره على النعم بهذه الصيغة العملية البليغة)) .

البشير الإبراهيمي

الملاحق :

ب – ملاحق أرسلان :

الملحق رقم 01 :

قالوا ...في رثاء الأمير ([1])

صبحت شكيبا برهة لم يفز بها   سواي على أن الصحاب كثير

(أحمد شوقي)

هذا الذي رفع اليراع منارة   غمرت سماء الشرق بالأنوار

لو دان أحرار البلاد لسيد   ناديته يا سيد الأحرار

(باشةر الخوري)

العالم العربي من أطرافه   بادي الوجوم منكس الأعلام

يبكي أمير بيانه فتى   فتيانه في الكر والإقدام

(خليل مطران)

أأبا الفدئيين صوتك لم يزل   في الشرق وحي يراعة وحسام

روح تهز الشرق من أعماقه   وسنى يمزق عنه كل ظلام

ويد تعانقه برغم منية   وفم يقبله برغم حمام

(علي محمود طه)

أدي الرسالة يا عصفورة الوادي   وباكري الحي من قولي وانشادي

لعل نغمة ود منك شائعة   تهز عطف شكيب كوكب النادي

هو الهمام الذي أحيا بمنطقه   لسان قوم أجادوا النطق بالضاد

(محمود سامي البارودي)

لما لمست بنا المواطن حرة   أغمضت من فرح لها أجفانك

الله يشهد والزمان مؤيد   أن العدى قد قدروا ميزانك

(محمود ستيتية)

([1])– شكيب ارسلان : مختارات نقدية في اللغة و الأدب و التاريخ ، مصدر سابق ، ص ص 9 – 10 .

سيبكي عليه العلم والحلم والندى ونصر لمظلوم وكبح لظالم
ويبكي عليه النبل والطهر والإبا بكاء الثكالى في جمع المآثم
وتبكي عليه غيرة مضرية كما ناحت عليه الورقاء بين الحمائم

(محمد تقي الدين الهلالي)

حمل الشرق جرحه ليس يدري أمصاب في قلبه أم لسانه
سكت الصادح المغرد فيه وطوى سفره أمير بيانه
ومضى الملهم العجيب ولفت حكمة الجيل معه في أكفانه

(سعيد العيسى)

إذا لم يكن أشعر شاعر فهو أكتب كاتب ولكنهما كفتا ميزان إن شالت الواحدة فلكي ترجح الثانية .

(المنفلوطي)

الملحق رقم 02 : **الدول المستعمرة والإسلام :**[1]

من الغريب أن فارس عرضت على إنجلترا المحالفة ، والدخول إلى جانب الحلفاء فـــي الحرب العامة ، فأبت انجلترا مساعدة فارس هذه . وهذا أمر صرحت به جريدة الطان ، لســـان حال فرنسا أثناء مؤتمر الصلح بباريس . وأن مصر عرضت نفسها أثناء الحـــرب العالميـــة أن تقاتل في جانب الحلفاء بشرط الجلاء الانجليزي عن مصر بعد الحرب، فأبت إنجلترا أيضا ذلك .وأن الشريف حسين بن علي ، ملك الحجاز اليوم ، كان عرض نفسه لمحالفة إنجلترا منذ بدأت الحرب العامة ، فأبت إنجلترا محالفته يومئذ كما أبت محالفة مصر والعجم . وأغـــرب منــــه أن تركية نفسها بينما هي في أول الحرب العالمية تتردد في الميل إلى أي الفـــريقين المتصـــارعين ،ويتجاذبها عاملان أحدهما إلى الحلفاء ، والآخر إلى الألمان ، صرحت لســـفراء الحلفـــاء فـــي الأستانة أنها تخشى إذا اعتزلت الحرب من أن يتفق الفريقان عليها ، ويعقـــدوا الصـــلح علـــى ظهرها . فقالت لهم لا بد لنا من محالفة . وعرضت على الحلفاء أن تكون معهـــم ، بشـــرط أن تأمن شرورهم في المستقبل . فأبى الحلفاء قبول محالفة تركيا لهم ، وكل ما طلبوه منهـــا كـــان التزام الحياد التام ، وبمقابلة ذلك تتعهد الروسية بأن لا تهاجم تركيا مدة ثلاثين ســـنة (تأمـــل) وتنال تركيا بعض المساعدات الأخرى ليس لها طائل كبير . وبديهي أن رفض الحلفـــاء هـــذه المساعدات من دول العالم الإسلامي مبني على أساس واحد ، وهو أن الحلفاء لو قبلوا مساعدات الحكومات الإسلامية أثناء الحرب العالمية ، لما كان لائقا أن يقتسموا فيما بعـــد الحـــرب بـــلاد الإسلام الباقية الاقتسام الأخير ، كما كانوا ينوون أثناء الحرب ، وكما فعلوا بعد الحـــرب فلـــو رضوا بدخول تركية معهم في الحلف و قبلوا عضدها لهم في ذلك الموقف، لما كان يجوز بعـــد الحرب إنفاذ برنامج التقسيم الذي كان مقررا بين إنجلترة وفرنسا منذ 1912م ، ومـــن جملتـــه قسمة سوريا وفلسطين . ولو رضوا بدخول العجم في الحلف وقبلوا معاونتها ، لما كان يحل أن يجهزوا عليها الإجهاز الأخير بعد الحرب كما كانت النية ، بل كان دينا عليهم إخـــلاء العجـــم ، وهذا ما لا يريدونه . ولو قبلوا إقتراح مصر في الدخول في الحرب إلى جانبهم ، لتعين علـــيهم الجلاء عن مصر بعد الحرب على وجه المكافأة ، مع أن المراد بعد الظفر الأخير هو إستلحاق

([1])– لوثروب ستودارد ، المصدر السابق ، م 1 ، ج 1 ، ص 329 ، 330 ،331 .

مصر تماما لا إعطاؤها حريتها . وكانوا يرون أنهم قادرون أن يستخدموا رجال مصر ويرتفقوا بأموال مصر بالقوة والقسر ، بدون أدنـــى منة لأهـــل مصـــر ، وبدون تعهد للجـــــلاء عـــن مصـــر على حـــد مـــا قال أبو الطيب :

من أطاق اغتنام شيء غلابا   واغتصابا لم يغتنمه سؤالا

ولقائل أن يقول : لكن ينقض نظريتك هذه ، أن الحلفاء حالفوا ســـنة 1915م الشـــريف حسينا ، وهذا ملك من ملوك الإسلام . والجواب أنهم ما قبلوا التحالف معه بادئ ذي بدء لظنهم أنهم يستغنون عنه ، ولا يتقيدون معه بعهد يمنعهم بعد الظفر من أخذ بلاد العرب . فلما طالـــت الحرب ، وظهر من تركيا ما ظهر من القوة التي لم تخطر لهم على بال ، ورأوا الحرب ستدوم أعواما ، وتأتي على الحرث والنسل وأن العالم الإسلامي كله في هيجان عليهم ، عادوا إلى قبول محالفة الشريف حسين أملا بفصل العرب عن الترك ، وباستمالة جانب من المسلمين ، وبتخفيف حملة كان الحلفاء بدأوا يشعرون بثقلها ، ومع هذا كله فقد ملئـــوا عهـــودهم للشـــريف إبهامـــا وغموضا ، حتى يتفصوا منها في المستقبل ، فما وضعت الحرب أوزارها حتى ظهر للشـــريف ولسائر العرب ، أنه مع كون قسم من العرب حالف الحلفاء محالفة فتت في عضـــد الأتـــراك ، وكانت من جملة أسباب انكسارهم لأسباب عديدة ، فقد عومل العرب بعد الحرب معاملة الأعداء ، وتقسمت بلادهم غنائم ، والذي هو باق منها بدون احتلال فعلا ، فالنية وضع اليد عليه عنـــد أول فرصة . وربما كابر بعض الناس في كون الشريف عرض التحالف من أول الحرب ولـــم يقبلوا ذلك منه ولا مجال هنا للمكابرة فالصحيح أنهم لم يقبلوا التحالف معه حتى احتاجوا عضـــد العرب وطالت الحرب فأرسلوا إليه بعض المعتمدين لمفاوضته فيه من جملتهم الجنـــرال حـــداد باشا ، وإن حداد باشا صرح لنا بهذه الحقيقة التاريخية أمام جماعة كثيرين من أعيان الســـوريين والفلسطنيين وربما كابر آخرون في كون الحلفاء أبوا مخالفة تركية وطلبوا منها الحياد لا غيـــر في الحرب العالمية ، والجواب هذا شيء يشهد به المستر مورغانتو أميركـــا فـــي تركيـــا لأول نشوب الحرب . ذكره في خاطراته وقال أن أقصى ما طالب الحلفاء به تركيا هو لزوم الحيـــاد فحسب والحاصل أن الحلفاء طلبوا أثناء الحرب العالمة العون من كل دولة ، وعرضوا التحالف مع كل حكومة ، حتى أصغر حكومات أمريكا ، ولم يكونوا ليقبلوا التحالف مع دولة من الدول

الإسلامية علما بما ينوونه للإسلام وجميع حكوماته في المستقبل وفرارا من مكافأة دولة إسلامية بالإبقاء عليها . فهذا من الحقائق الكلية التي ينبغي أن يتفطن لها المسلمون ولا يغيبونهـــا عـــن نظرهم ، وليعلموا أن الدول المستعمرة لا تقبل من الإسلام حتى ولا الصداقة ، وانها لا ترضى من المسلمين في جانبهم بذل الأرواح والأموال إلا مجانا .

شكيب ارسلان

الملحق رقم 03 : **الشرق والغرب :** ([1])

لم يعهد التاريخ دورا من الأدوار خلص من علاقة الشرقيين بالغربيين ، وخلطة الغربيين بالشرقيين ، ونسخ كل فريق عن الآخر ، واقتباس هذا من ذاك : أخذا وردا ، وجزرا ومـدا ؛ حتى في أعرق الأدوار في القدم وأوغل الأطوار في الظلم .

وقد عم هذا التحاك جميع أحوال الحياة ، وأركان العمران : من التجارة ، إلى السياسة ، إلى الصناعة ، إلى الثقافة . فكما تناقلوا فيما بينهم البضائع والمتـاجر ، فقـد تنـاقلوا الحكـم والخواطر . وكما حمل بعضهم إلى بعض المهـن والصـناعات ، فقـد حملـوا الاختراعـات والبراعات . وكما تسلط منهم الأشجع على الأجبن والأشك على الأعـزل (*) ؛ فقـد تسـلط الألحن على الألكن (**)والأعلم على الأجهل .

وإذا الأخذ والعطاء بين الشرق والغرب قديمان منذ طلعت الشمس وولي اليوم الأمـس ، لم ينحصرا في الأمور المادية والحوالات المالية والآثار اليدوية ، بل شملا الأمـور المعنويـة والمسائل العقلية والشؤون الاجتماعية . وما ترقت في سلم الاجتماع في شرق ولا غرب إلا كان الآخر عيالا عليها ، جادا محاكاتها ومتحسرا على مناغاتها . فقد أخذت اليونان عـن مصـر ، وأخذت بغداد عن اليونان ، وأخذت أوروبا عن الأندلس ، ثم أخذ الشرق في جدته الأخيرة عـن أوروبا . إلا أنه لم يعرف التاريخ فيما مضى – أي قبل ظهور الآلات البخارية والكهربائيـة – دورا أثت (***) فيه العلائق بين الشرق والغرب ، وارتفعت فيه الحواجز على البعد والقرب ، وتشارك فيه الناس في تناول كل مادي ومعنوي ، كما في هذه الأيام الأخيرة التي ألقـى فيهـا الغرب بجرانه السياسي على الشرق ، ورأى الشرق أن لا قبل له بمناهضة الغرب على وجـه كافل لنجاحه إلا أن يقاتله بسلاحه . فاضطر الشرق إذا في يأخذ عن الغرب طوعا أو كرهـا – والضعيف مولع بتقليد القوي – كل ما يتسنى له أخذه من أسباب المدنية ، كأداة الحرب والمتاع

([1])– شكيب ارسلان : مختارات نقدية في اللغة و الادب و التاريخ ، مصدر سابق ، ص ص 13–14 .

(*)– الأشك : لابس السلاح التام . والأعزل : من لا سلاح معه .

(**)–الألحن : الأفطن والأفصح . والألكن عكسه .

(***)–كثرت والتفت .

والماعون والعلم والحكمة والقانون ، مجتهدا في أكثر الأحيان أن يضمن هـــذه العلـــوم ألســـنته الذليقة ، و يطبع بها مدنيته العريقة، ويلقى على غرابتها ديباجته الشـــرقية ، احتفاظـــا بقوميتـــه واعتصاما بأنانيته . لأن كل أمة نسيت أصلها ، ونبذت قديمها ، وفرحت بجديـــدها ، وأنكـــرت رميمها ، فأحر بها أن تكون أمة ساقطة عن أمم ، وأن تعد خلطا لا تعرف من بين الأمم .

شكيب ارسلان

الملحق رقم 04 : **التسامح والتعصب بين الإسلام وأوروبة** ([1])

على ذكر المؤلف بلوغ الترك أسوار فينا سنة 1683 م للأمير شكيب

ما زلنا نؤكد أن الأوروبيين في عهد الحروب الصليبية وفيما بعدها بقرون لم يكونوا أقل من الترك تعصبا ولا جفاء وأن تاريخهم في الحروب الصليبية وما جرى منهم عند فتح القـدس من ذبح 70 ألف مسلم في المسجد الأقصى حتى سبحت الخيل حتى صدورها في الدماء ومـن استئصالهم شأفة المسلمين من الأندلس ، وصقلية وجنوبي فرنسا وسردانية ؛ مـع أنهـم كـانوا يحصون في هذه البلدان بالملايين تاريخ شاهد بصحة ما نقول ، فقد عفا الأوروبيون كـل أثـر للإسلام في أوروبا ولم يرضوا أن يبقى فيها مسلم واحد ، حال كون الترك الـذين يقـال أنهـم برابرة بقي تحت ولايتهم ملايين من المسيحيين من جميع الأجناس كانوا يقدرون فـي أوقـات عديدة أن يستأصلوهم أو أن يحملوهم عن الجلاء ؛ كما فعل ملوك اسبانية وفرنسا بالعرب . وقد يقال أن الذي منع الترك عن حمل النصارى الذين كانوا تحت سلطانهم على الإسلام أو الجـلاء هو الشرع المحمدي الذي يمنع الإكراه في الدين ويرضى من المعاهد بالجزية وقالوا أن السلطان سليمان القانوني كان فكر في سوء المغبة من بقاء الملايـين مـن الأروام والبلغـار والأرمـن وغيرهم في الممالك العثمانية ، وأحب إخراجهم ، وقيل بل السلطان سليم ؛ وكـان كـل مـرة يعترض في ذلك شيخ الإسلام ويقول : ليس لنا عليهم إلا الجزية . والجواب قد يكون ذلك ويثبت أن الإسلام هو الذي هذب الأتراك وحال بينهم وبين طرد المسيحيين من ديارهم ؛ فلماذا يا ليت شعري لم يذهب الإنجيل الشريف أقوام أوروبا ولم يمنع البابا اسكندر السادس وأساقفة الكنيسـة في اسبانية ، والملك فرديناند ، والملكة إيزابيلا ، وغيرهم من الملوك المشهورين بالكثلكة مـن نصب ديوان التفتيش وارتكاب تلك الفظائع في العرب واليهود ممن بقي على ديانته سرا إلى أن جلوهم بأجمعهم عن ذلك القطر الذي أوطنه العرب زهاء 820 سنة ، مع أن الإنجيـل كمـا لا يخفى لا يجيز شيئا من هذه الأفعال بل يوصي الناس بحب الأعداء فكيف تتـألف مـع شـريعة الإنجيل التي هذا مبلغ وداعتها وتسامحها قضية تحريق الناس بالنار لأجل عقائدهم ....

لا نريد أن نعزو إلى هذا المؤلف التحامل أو التعصب فيما جعله نتيجة عمل الترك بـل نشهد بكونه من أوفر المؤلفين الأوروبيين انصافا وتحريا ، ولكن ثمة أمور لا يزال الأوروبي

([1])– شكيب ارسلان : مختارات نقدية في اللغة و الادب و التاريخ ، مصدر سابق ، ص ص 21–22 .

مهما بلغ من انصافه وحرية فكره غافلا عنها أو هو لما يعتقده من علو قومه وكونهم مجبـــولين من طينة هي غير طينة الآخرين ، لا يقدر أن ينظر إلى عيوب قومه آثام بني جلدته بالعين التي يرى بها عورات غيرهم من الأقوام . فقد جرت لنا مباحثات طويلة مع كثير من علماء الافرنجة في موضوع التسامح وعدمه فكنا نراهم يعتقدون أنه لا يوجد في الدنيا أقل تسامحا وسجاحة من أهل الشرق فإذا ذكرناهم بما فعلوه بعرب الأندلس قالوا : ذلك شيء آخر . وإلى الآن لا نفهـــم لماذا هو شيء آخر . وبعضهم يقول هذه حوادث جرت في القرون الوسطى . فإذا سلمنا بأنهـــا جرت في القرون الوسطى فماذا يقولون في الموبقات والفظائع التي جرت من الجنس الأبـــيض الأوروبي في هذا العصر نفسه سواء في القرن التاسع عشر أو القرن العشرين مما فعلوه فـــي مستعمراتهم بأفريقية الوسطى وشمال أفريقية والكونغو والسودان المصري وبما فعلوه في الهند وغيرها من آسية ، بل بما وقع بمعرفة منهم في الروملي أثناء الحرب البلقانية بل بمـــا أوقعـــه بعضهم ببعض في الحرب العامة ....

هذا كله لم يقع في القرون الوسطى ؛ ولا في الجاهلية الأوروبية ، بل جرى في عصـــر النـــور وبحبوحة الحضارة وعنجهية التهذيب الأوروبي . نعم لا نفهم كيف إذا ذبح الترك الأرمن يكون ذلك توحشا وبربرية وتمتلئ الصحف بألفاظ القسوة والوحشية والهمجية ، وتقوم القيامة ، فـــإذا ذبح البلقانيون مسلمي الروملى واستباحوا حرمهم ، أو الأروام مسلمي غربي الأناضول ، لم نجد شيئا من تلك القيامة ولا هاتيك النعرة او عبر عنها بشيء قيل أنها حوادث مؤسفة أو مجريات لا تخلو منها حرب أو مقابلة بالمثل لاعتداءات سبقته ويجتهد كل الاجتهاد في تغطيتها وجر ذيـــول النسيان عليها . هذا الذي نعترض عليه وقلما نجد عليه جوابا سديدا ولكن ليس صـــاحب هـــذا الكتاب بالذي يتعمد تعمية الحقائق .

شكيب ارسلان

الملحق رقم 05 : **الرد على حساد المدنية الإسلامية المكابرين** [1]

أينسى حساد الإسلام والمكابرون في عظمة فضله ، الزاعمون أنه إنما نقل وتعلم وقلـد واقتدى وأنه إنما صلى وراء غيره : أن المدنية الشرقية يوم ظهر الإسلام كان أخنى عليها الذي أخنى على لبد . وأنه هو الذي جددها وأحيا آثارها ، وأقال عثارها ؟ وأنها بعد أن كانـت قـد أمحت ولحقت بالغابرين ، أبرزها من أصدافها ، وجلاها من بعد أن كانـت ملفوفـة بغلافهـا ونشرها بالخافقين ، وبلجها كفلق الصبح لكل ذي عينين ، وأضفى عليها لباس الإسلام الخاص ، ودبجها بديباجة القرآن ، التي لم تفارقها في شرق ولا غرب ، ولا سهل ولا وعر ، حتى حمـل ذلك كثيرا من علماء الإفرنج ممن لم يعمه الهوى ، ولم يحد في التحقيق عن مهيع الهدى ، على أن اعترفوا بأن مدنية الإسلام لم تكن نسخا ولا نقلا وإنما هي قد نبعت من القرآن ، وتفجـرت من عقيدة التوحيد ؟.

فأما ما ترجمته حضارة الإسلام من كتب ، وما أخذته عن غيرها من علوم ، وما أفادتـه من فتوحاتها من منازع جميلة ، وطرائق سديدة ، فلا يقدح ذلـك فـي بكارتهـا الإسـلامية ، ومسحتها العربية ، لأن هذا شأن الحضارات البشرية بأجمعها أن يأخذ بعضـها عـن بعـض ، ويكمل بعضا بعضا ، فالعلم الحقيقي ينحصر في هذا الحديث الشريف : " الحكمة ضالة المؤمن ينشدها ولو في الصين " وهذه من أقدس قواعد الإسلام .

وعلى كل حال لا يقدر مكابر أن يكابر أن الإسلام كان له دور عظيم في الدنيا سواء في الفتوحات الروحية أو العقلية أو المادية ، وأن هذه الفتوحات قد أسقت له في دور لا يزيد علـى ثمانين سنة ، مما أجمع الناس على انه لم يتسق لأمة قبله أصلا .وكـان نـابليون الأول لشـدة دهشته من تاريخ الإسلام يقول في جزيرة سنتيهلانة : أن العرب فتحوا الدنيا في نصف قرن لا غيره .

وتأمل أيها القارئ في أن قائل هذا القول هو بونابرت الذي لم تكن تملأ عينه الفتوحـات مهما كانت عظيمة .

وتعظم في عين الصغير صغارها   وتصغر في عين العظيم العظائم

([1])– لوثروب ستودارد ، المصدر السابق ، م 1 ، ج 1 ، ص 120 و ما بعدها .

فهذا رجل عظيم جدا استعظم حادث العرب الذي لم يسبق نظيره في التاريخ ، وقد بقـــي دور العرب هو الأول في وقته ، ولبثوا وهم المسيطرون في الأرض ، لا يضارعهم مضارع ، ولا يغلبهم مغالب ، مدة ثلاثة قرون أو أربعة . ثم أخذوا بالانحطاط ، وجعلت ظلالهم تـــتقلص عن البلدان التي كانوا غلبوا عليها شيئا فشيئا ، وذلك بفتور الهمم ، ودبيب الفساد إلى الأخلاق ، ونبذ عزائم الدين ، وإتباع شهوات الأنفس ، وأشد ما ابتلــوا بـــه التنـــافس علـــى الإمـــارات والرئاسات ، – ولاسيما بين القيسية واليمانية – مما لولاه لدانت لهم القارة الأوروبية بأجمعها ، وكانت الآن عربية كما هو المغرب . فالمصائب التي حلت بالمسلمين إنما هـــي ممـــا صـــنعته أيديهم ، ومما حادوا به على النهج السوي الذي أوضحه لهم القرآن الذي لما كانوا عاملين بمحكم آيه علوا وظهروا وكانت لهم الدول والطوائل ، فلما ضعف عملهم به وصاروا يقرؤونه بـــدون عمل ، وانقادوا إلى أهواء أنفسهم من دونه ، ذهبت ريحهم ، وولى السلطان الأكبر الذي كان لهم ، وانتقصت الأعداء أطراف بلادهم ، ثم قصدوا إلى أوساطها .

شكيب ارسلان

الملحق رقم 06 : **الدروز أو بنو معروف بأجمعهم عرب صراح** [1]

لسعادة الكاتب العربي الأكبر الأمير شكيب أرسلان

القاهرة في يوم الخميس 13 ربيع الأول سنة 1344 هـ

ورد في مقالة مترجمة عن الألمان كلام عن الدروز يزعم الكاتب فيه أن الدروز كسائر أهل سورية من أجناس مختلفة . وهذا الكلام خبص في خبص كسائر تخاليط الإفرنج إذا شرعوا في الكلام على الشرقيين .

والدروز في النسب عرب أقحاح لا يوجد في العرب الجالين عن جزيرة العرب أصح عروبة منهم .

نستدل على ذلك أولا من سحنتهم العربية الصرفة وتشابه بعضهم لبعض إذ لا يوجد قبيل يشبه بعضه مثل الدروز . وكان أستاذنا الشيخ محمد عبده رحمه الله كثيرا ما يفضي إلي بعجبه من شدة هذا التشابه فيقول لي : إذا رأيت الرجل المعروفي فكأنك رأيتهم جميعا .

ثانيا : في نقاوة لغتهم العربية وإخراجهم الحروف من مخارجها الصحيحة فلا تجد في الخراج عن جزيرة العرب من يتكلم بالعربية مثل – الدروز ولا من يتلفظ بالعربية مثل الدروز وأن المرأة منهم لتسوق الحديث بعبارة إن لم تكن معربة فهي فصيحة صريحة متينة مستعملة فيها الكلمات بالمعاني التي وضعت لها فتجدها أصح لغة من الرجل العالم النحوي من غيرهم . والفصاحة التي اشتهر بها الدروز رجالا ونساء آتية من كونهم عربا .

ثالثا : التواريخ التي عند الدروز والتي عند الطوائف الأخرى المساكنة لهم في جبل لبنان متفقة على كونهم أبناء اثنتي عشرة قبيلة عربية هاجروا من ديار حلب إلى لبنان في أوائل عهد العباسيين – ولا تزال منهم بقية في الجبل الأعلى بجهات حلب – وهذه القبائل كانت أوطنت بلاد معرة النعمان منذ أوائل الفتح العربي . ثم أن التواتر فيما بينهم مأثور من الخلف عن السلف يؤيد هذه التواريخ المكتوبة .

رابعا : أنهم كانوا من الشيعة السبعية أي القائلين بالأئمة السبعة وهم فرقة من الشيعة . فلما كانت الدعوة الفاطمية وتلقاها بعض الشيعة فكان منهم الإسماعيلية وكان منهم الدروز انقسمت بعض العائلات إلى قسمين منهم من بقي على التشيع الأصلي ومنهم من غلا غلو

---

(1)– شكيب ارسلان : بنو معروف اهل العروبة و الاسلام ، مصدر سابق .

الفاطميين . ولكن هذه العائلات ، والتي أصلها واحد ، معروف كثير منها إلى هذا اليوم يعرفون أنهم أقارب . و هؤلاء دروز وأولئك متاولة أي شيعة . وذلك مثل أبي علوان وبني عبد الصمد وبني المصري وبني القنطار وغيرهم .ى وكذلك موجود قرابات عصبية بين كثير من الــدروز والمسلمين السنيين وإن كانت هذه القرابات أكثر منها بين الشيعيين والدروز ، وذلك مثل بنـــي أبي شقرا وبني الأعور وغيرهم . ولا يخفى أن الشيعة في سورية هم عـــرب أقحـــاح أيضـــا وبلادهم جبل عاملة ، إنما سميت كذلك لنزول عاملة قبيلة من عرب اليمن بذلك الجبل . كـــذلك نجد أسماء كثيرة منسوبة إلى قبائل يمانية مثل السكسكية في ساحل عاملة بقرب صيدا وهي نسبة إلى السكاسكة من عرب اليمن وغيرها مما لم يحضرني بدون مراجعة كتب . ونجـــد بيوتـــات كثيرة محفوظة أنسابها إلى قبائل العرب مثل إخواننا الأمراء آل الحرفوش في بعلبك المنســـوبين إلى خزاعة ، ومثل إخواننا البكوات آل علي الصغير المنسوبين إلى عرب . أما الذين أصـــلهم من أهل السنة فلا بد من أن يكونوا من أهل السنة العرب أيضا بـــدليل الســـحنة إذ أن الســـحنة العربية لا تخفى ، ثم بدليل أنهم منذ تسعمائة سنة أي منذ وقع هذا الإنشقاق من الشجرة الواحدة لا يزال بعضهم يعرف بعضا ولا يوجد حفظ الأنساب إلى هذا الحد مع تعاقب القرون العديدة إلا عند العرب .

فلو كان أولئك المسلمون الذين تشعب من دوحة نسبهم كثير من بني معروف هـــم مـــن الآراميين أو الكلدانيين أو من الذين أسلموا من اليونان أو الرومان أو من الترك أو من الكرد ما كان نسبهم محفوظا .

خامسا : في الدروز أنفسهم بطون وأفخاذ معروفة الأنساب إلى قبائل العرب ، هذا إلـــى لخم وذاك إلى طي ، وأنس إلى تميم وأناس إلى كلب ومنهم من لا تزال معروفة مثل بني عزام الذين لهم أقارب في الشرارات ومثل بني قعيق وبني ركين وبني خميس الذين لهم أقـــارب فـــي عرب العراق .

نعم ، يوجد في الدروز بعض عائلات وجيهة أصلهم من الأكراد والأتراك وهم معروفون وعددهم قليل جدا وهذا لا يخرج هذه الطائفة عن صراحة النسب العربي لأن العبـــرة بالســـواد الأعظم كما لا يخفى .

شكيب ارسلان جنيف 12 سبتمبر 1925م

بيلوغرافية البحث

أولا المصادر :

- القرآن الكريم.

أ – مصادر الشيخ البشير الإبراهيمي :

01 – الإبراهيمي أحمـد طالـب : مـذكرات جزائـري ، ج 1 (أحـلام و محـن 1932 م – 1965 م) ، د ط ، دار القصبة ، الجزائر : 2006 م .

02 – الإبراهيمي أحمد طالب : مذكرات جزائري ، ج 2(هاجس البناء 1965 م– 1978 م)، د ط ، دار القصبة ، الجزائر : 2008 م .

03 – الإبراهيمي محمد البشير : آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمـي ، 05 أجـزاء ، جمـع و تقديم أحمد طالب الإبراهيمي ، ط 1 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت : 1997 م .

04 – الإبراهيمي محمد البشير : في قلب المعركة (1954 م – 1964 م) ، جمع و تقديم سعد الله أبو القاسـم ، ط 1 ، شـركة دار الأمـة للطباعـة و الترجمـة و النشـر و التوزيـع ، الجزائر : 1994 م .

05 – بن العقون عبد الرحمان بن ابراهيم : الكفاح القومي و السياسي مـن خـلال مـذكرات معاصر ، ج 2 (1936 م – 1954 م) ، د ط ، م و كـ ، الجزائر : 1984 م .

06 – بن العقون عبد الرحمان بن ابراهيم : الكفاح القومي و السياسي مـن خـلال مـذكرات معاصر ، ج 3 (1947 م – 1954 م) ، د ط ، م و كـ ، الجزائر : 1986 م .

07 – بن عمر باعزيز : من ذكرياتي عن الإمامين الرئيسين عبد الحميد بن بـاديس و محمـد البشير الإبراهيمي ، ط 2 ، منشورات الحبر ، الجزائر : 2007 م .

08 – التبسي العربي : مقالات في الدعوة إلى النهضة الإسلامية في الجزائـر ، ج 1 ، جمـع و تعليق الرفاعي شرفي ، د ط ، دار البعث ، قسنطينة ، الجزائر : 1981 م .

09 – حماني أحمد : صراع بين السنة و البدعـة ، ج 2 ، ط 1 ، دار البعـث ، قسـنطينة ، الجزائر : 1984 م .

10 – خير الدين محمد: مذكرات الشيخ محمد خيرالدين ،ج 2، د ط، م و كـ ،الجزائر: دت.

11- المجلس الأعلى للغة العربية : مقتطفات من آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (كتـــاب أصدره المجلس بمناسبة اليوم الدراسي : الإمام البشير الإبراهيمي منور الأذهان و فارس البيان المنعقد بالجزائر العاصمة في 2009/06/01 م) ، د ط، دار الخلدونيـــة للطباعـــة و النشـــر و التوزيع ، الجزائر : 2009 م .

12 – المدني أحمد توفيق : حياة كفـــاح (مـــذكرات) ، ج 1 (1905 م – 1925 م) ط 2 ، م و كــ ، الجزائر : 1988 م .

13 – المدني أحمد توفيق : حياة كفاح (مـــذكرات) ، ج 2 (1925 م – 1954 م) ، د ط، ش و ن ت ، الجزائر : 1977 م .

14 – المدني أحمد توفيق : حياة كفاح (مذكرات) ، ج 3 (مع ركب الثورة التحريريـــة) ، ش و ن ت ، الجزائر ، 1982 م .

15 – الورثيلاني فضيل : الجزائرة الثائرة، د ط، دار الهدى ، عين مليلة ، الجزائر: 1982 م .

16– AHMED TALEB – IBRAHIMI : mémoires d'un Algérien , T1 (Rêves et épreuves 1932 – 1965), Casbah édition , Alger , 2006 .

ب – مصادر الأمير شكيب أرسلان :

01 – أرسلان شكيب : الإرتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف ، مطبعـــة ابـــن زيدون ، ط 1، دمشق : 1936م .

02– أرسلان شكيب : بنو معروف أهل العروبة و الإسلام ، إعداد و تقديم ســـعيد المـــولى ، ط 1 ، دار العودة ، بيروت : د ت .

03 – أرسلان شكيب : تاريخ غزوات العرب في فرنسا و سويسرا و ايطاليا و جزائر البحـــر المتوسط ، ط 1، بيروت : 1966م .

04 – أرسلان شكيب : الحلل السندسية في الأخبار و الآثـــار الأندلســـية ، 3 أجـــزاء ، د ط ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت : د ت .

05 – أرسلان شكيب : سيرة ذاتية ، د ط، دار الطليعة ، بيروت : 1969 م .

06 – أرسلان شكيب : شوقي أو صداقة أربعين سنة ، مطبعة عيسى بابي الحلبي ،القـــاهرة : 1936 م .

07 – أرسلان شكيب : لماذا تأخر المســـلمون و تقـــدم غيـــرهم ؟ د ط ، مطبعـــة رحـــاب ، الجزائر : 1989 م .

08 – أرسلان شكيب : مختارات نقدية في اللغة و الأدب و التاريخ ، جمعها و قـــدمها ســـعود المولى ، ط 3 ، دار الكلمة للنشر، بيروت : 1983 م .

09 – البعيني نجيب : من أمير البيان شكيب أرسلان إلـــى كبـــار رجـــال العصـــر ، ط 1 ، دار المناهل ، بيروت : 1998 م .

10 – بنونة الطيب : نضالنا القومي في الرسائل المتبادلة بين شكيب أرســـلان و بـــين الحـــاج عبد السلام بنونة ، ط 1، مطبعة دار الأمل ، تونس : 1980م .

11 – لوثروب ستودارد : حاضر العالم الإسلامي ، ترجمة عجاج نـــويهض ، تعليـــق شـــكيب أرسلان ، مجلدان، ط 4 ، دار الفكر للطباعة و النشر ، بيروت : 1973 م .

ج – تقارير وزارة الشؤون الخارجية الفرنسية حول الأمير شكيب :

1 – Rapport du ministère des affaires étrangère : direction des affaires politiques et commerciales,les archives nationales de Tunisie , 26 Janvier 1934 .

2 - Rapport du ministère des affaires étrangère : direction des affaires politiques et commerciales , les archives nationales de Tunisie , 22 Février 1937 .

ثانيا : المراجع :

أ – الكتب باللغة العربية :

01 – إبراهيم إسماعيل: مشايخ ضد السلطة و السلطان ،د ط، دار الكتب ، القاهرة : 2004 م .
02 – إبراهيم عبـد العزيـز عبـد الغنـي : محاضـرات فـي تـاريخ أوروبـا الحـديث (عصر النهضة) ، منشورات ELGA ، مالطا : 1999 م .
03 – أبو زهرة محمد : الوحدة الإسلامية ، ط 2 ، دار الفكر العربي ، القاهرة : 1977 م .
04 – أبو شادي أحمد زكي : ثورة الإسلام ، د ط ، مكتبة الحياة ، بيروت : د ت .
05 – أبوطة أنور و آخـرون : خطـاب التجديـد الإسـلامي الأزمنـة و الأسـئلة ، ط 1 ، دار الفكر ، دمشق : 2004 م .
06 – أجيرون شارل روبير : تـاريخ الجزائـر المعاصـرة ، ط 2 ، ديـوان المطبوعـات الجامعية ، الجزائر : 1986 م .
07 – أرشد يسري محمد : حقوق الإنسان في ضوء الحديث النبوي ، سلسلة كتاب الأمة ، ط 1 ، وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية ، قطر : 2006 م .
08 – أعمال الملتقى الدولي : الإمام محمد البشير الإبراهيمـي بمناسـبة الـذكرى الأربعـين لوفاته ، الجزائر 23 مارس 2005 م ، ط 1 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت : 1984 م .
09 – الأفغاني جمال الدين ، عبده محمد : العـروة الـوثقى ، ط 1، دار الكتـاب العربـي ، بيروت : 1977 م .
10 – أمير علي سيد : روح الإسلام ، ترجمة عمر الديراوي ، ط 6 ، دار العلـم للملايـين ، بيروت : 1980 م .
11 – أمين أحمد : ضحى الإسلام ، ج 2 ، ط 10 ، دار الكتاب العربي ، بيروت : د ت .
12 – أمين جلال : التنوير الزائف ، سلسلة إقرأ، د ط ، دار المعارف ، القاهرة : 1999 م .
13 – أمين طلع : تاريخ الموحدين الدروز ، د ط ، دار الفكر ، بيروت : 1986 م .

14 – الأنصاري محمد جابر : مراجعات في الفكر القومي (مدخل لدراسة توصـــيفية لمحنـــة شعبنا و مقاومته البطولية) ، د ط ، د م ج ، الجزائر: 1999 م .

15 – أنطونيوس جورج : يقظة العرب ، ترجمة ناصر الدين الأسد و إحسان عبـــاس ، ط 8 ، دار العلم للملايين ، بيروت : 1987 م .

16 – أوساريس بول : شهادتي حول التعذيب (مصالح خاصة : الجزائر 1957م–1959 م) ترجمة مصطفى فرحات ، د ط ، دار المعرفة ، الجزائر : د ت .

17 – إيلز: الإسلام و العصر الحديث ، د ط ، دار الفكر ، بيروت : 1984 م .

18 – باشا سعيد حليم : لماذا تاخر المسلمون ؟ ، ترجمة عبد الرزاق بركـــات ،ط 1 ، عـــين للدراسات و البحوث الانسانية و الاجتماعية ، القاهرة : 1993م .

19 – بروكلمان كارل : تاريخ الشعوب الإســـلامية ، ترجمـــة نبيـــه أمـــين فـــارس و منيـــر البعلبكي محمد، د ط ، دار العلم للملايين ، بيروت : 1984 م .

20 – بزيان سعدي : جرائم فرنسا في الجزائر ، د ط ، دار هومة ، الجزائر : 2009 م .

21 – البشري طارق : ماهية المعاصرة ، ط 2 ، دار الشروق ، القاهرة : 2006 م .

22 – بقطاش خديجة : الحركة التبشيرية فـــي الجزائـــر 1830م –1871م ، د ط ، مطبعـــة دحلب ، الجزائر : 1992 م .

23 – بن الشيخ الحسين : ماذا قـــدمت أمريكـــا و الغـــرب أيـــن الطريـــق ، د ط ، د م ج ، الجزائر: د ت.

24 – بن عاشور محمد الفاضل : روح الحضارة الإسلامية ، ط 4 ، المعهد العـــالمي للفكـــر الإسلامي ، فيرجينيا ، الولايات المتحدة الأمريكية : 2005 م .

25 – بن العقون عبد الرحمان بن إبراهيم : الكفاح القومي و السياسي مـــن خـــلال مـــذكرات معاصر (الفترة الأولى 1920 م – 1936 م) ، م و ك ، الجزائر : 1986 م .

25 – بن نبي مالك : تأملات ، ط 5 ، دار الفكر ، الجزائر ، 1991 م .

26 – بن نبي مالك : شروط النهضة ، ترجمة عبد الصـــبور شـــاهين ، د ط ، دار الفكـــر ، دمشق : د ت .

26 – بـــن قينـــة عمـــر : شخصـــيات جزائريـــة ، ط 1 ، دار البعـــث ، قســـنطينة ، الجزائر : 1983 م .

27 – بن نبي مالك : المسلم في عالم الإقتصاد ، د ط، دار الشروق ، بيروت : 1978 م .

28 – بن نبي مالك : مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ، ترجمة بسام بركة و أحمد شـــعبو ، إشراف و تقديم عمر مسقاوي ، دار الفكر ، الجزائر : 1992 م .

29 – بن نبي مالك : مشكلة الثقافة ، ترجمة عبـــد الصـــبور شـــاهين ، ط 4 ، دار الفكـــر ، دمشق : 1984 م .

30 – بن نبي مالك : ميلاد المجتمع الإسلامي ، د ط، ترجمة عبد الصبور شاهين،دار الفكـــر، دمشق : 1984م .

– بن أشنهو عبد الحميد بن أبي مزيان : أصول الصـــهيونية و مآلهـــا ، د ت ، ش و ن ت ، الجزائر : د ت .

31 – بن نبي مالك : القضايا الكبرى ، ط 1 ، دار الفكر ، الجزائر : 1991 م .

32 – بن نبي مالك : في مهب المعركة ، ط 1 ، دار الفكر ، الجزائر : 1991 م .

33 – بودرع عبد الرحمان ، و آخرون : اللغة و بناء الذات، سلســـلة كتـــاب الأمـــة ، ط 1 ، وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية ، قطر : 2004 م .

34 – بوكروشة حليمة : معالم تجديد المنهج الفقهي (النموذج الشـــوكاني) ، سلســـلة كتـــاب الأمة ، وزارة الأوقاف و الشؤون الدينية ، قطر : 2002 م .

35 – بوازار مارسيل " إنسانية الإســـلام ، ترجمـــة عفيـــف دمشـــقية ، د ط ، دار الآداب ، بيروت : د ت .

36 – بوعياد محمد محمود، و آخرون : المجتمع العربي و القضية الفلسطينية ،تقديم و اعـــداد حسن الساعاتي ، د ط ، دار النهضة العربية ، بيروت : 1981م .

37 – بيان فاضل : العولمة العثمانية في المجال العربي (دراسة تاريخية في الأوضاع الإدارية في ضوء الوثائق و المصادر العثمانية حصرا مطلع العهد العثماني – أواسط القـــرن 19 م) ، ط 1 ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت : 2007 م .

38 – تركي رابح : التعلــيم القــومي و الشخصــية الجزائريــة1931 م – 1956م، د ط ، ش و ن ت ، الجزائر : 1981 م .

39 – تشيكو آمنة : مفهوم الحضارة عند مالك بن نبــي و أرنولــد تــوينبي ، د ط، م و ك ، الجزائر : 1989 م .

40 – التوبة غازي : الفكــر الإســلامي المعاصــر دراســة و تقــويم ، ط 3 ، دار القلــم ، بيروت : 1977 م .

41 – تويلييه غي تولارجان : مهنة المؤرخ ، تعريب عادل العوا ، ط 1 ، عويــدات للنشــر و الطباعة ، بيروت : 2001 م .

42 – التيمومي الهادي : في أصول الحركة القومية العربيــة (1839 م – 1920 م) نحــو إعادة التأويل ، ط 2 ، دار محمد علي الحامي ، تونس : 2006 م .

43 – الجابري محمد عابد : إشكاليات الفكر العربي المعاصر ، ط 5 ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت : 2005 م .

44 – الجابري محمد عابد : المشروع النهضوي العربي مراجعة نقديــة ، ط 2 ، م د و ع م ، بيروت : 2000 م .

45 – جبر حسن : أسس الحضارة العربية الإسلامية و معالمها ، د ط ، دار الكتاب الحديث ، القاهرة : 1999 م .

46 – جريشة علي محمد ، الزيبق محمد الشريف : أساليب الغزو الفكري للعالم الإســلامي ، ط 3 ، دار الوفاء ، المنصورة ، مصر : 1979 م .

47 – الجمل شوقي ، عبد الرزاق عبد الله : تــاريخ أوروبــا مــن النهضــة حتــى الحــرب الباردة ، د ط ، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات ، القاهرة : 2004 م .

48 – الجندي أنور : آفاق جديدة للدعوة الإســلامية فــي عــالم الغــرب ، ط 3 ، مؤسســة الرسالة ، بيروت : 1987 م .

49 – الجندي أنور : الفكر و الثقافة المعاصرة فــي شــمال إفريقيــا ، د ط ، دار الكتــاب ، القاهرة : د ت .

50 – الجندي انور : اليقظة الإسلامية في مواجهة الإستعمار (منذ ظهورها الى اوائل الحرب العالمية الاولى) ، ط 2 ،دار بوسلامة للطباعة و النشر و التوزيع ، تونس : 1985م .

51 – حتي فيليب : تاريخ لبنان ، د ط ، دار الفكر ، بيروت : 1986م .

52 – حربي محمد : الثورة الجزائرية سنوات المخــاض ، ترجمــة صــالح عيــاد و صــالح المثلوثي ، د ط ، موفم للنشر ، الجزائر : 1994 م .

53 – الحجي عبد الرحمان علي : أضواء على الحضارة و التراث ، د ط، شركة الشهاب للنشر و التوزيع ، الجزائر : د ت .

54 – الحسن كريم جير : عملية النهوض الحضاري ، ط 1، دار الهادي للطباعــة و النشــر و التوزيع ، بيروت : 1993 م .

55 – حسين محمد محمد : أزمة العصــر ، د ط، دار عكــاظ للطباعــة و النشــر ، جــدة ، السعودية : 1979 م .

56 – حمادة عبد المنعم : الأستاذ الإمام محمد عبده ، د ط، مطبعــة الإســتقامة ، القــاهرة : 1945 م .

57 – حمادي عبد الله : مســاءلات فــي الفكــر و الأدب (محاضــرات)،د ط، د و م ج ، الجزائر : 1994 م .

58 – حمادي سعدون : مشروع الوحدة العربية مــا العمــل ؟ ، د ط، م د و ع ، بيــروت : 2006 م .

59 – حوراني ألبرت : تاريخ الشعوب العربية ، ج 2 ، ترجمة نبيل صلاح الدين ، مراجعــة عبد الرحمان الشيخ ، د ط ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة : 1997 م .

60 – الحصري أبو خلدون ساطع : آراء و آحاديث في الوطنية و القومية ، ط 2 ، م د و ع ، بيروت : 1985 م .

61 – حوراني ألبرت : الفكر العربي في عصر النهضة ، دار النهار ، بيروت ، 1977 م .

62 – خالدي مصطفى ، فروخ عمر : التبشير و الإستعمار في البلاد العربية (عرض لجهود المبشرين التي ترمي إلى إخضاع الشرق للإستعمار الغربــي)، ط 5 ، المكتبــة العصــرية ، بيروت – صيدا ، 1973 م .

63 – الخباص عبد الله عوض : سيد قطب الأديب الناقد، د ط ،دار الشهاب ، الجزائر : د ت.

64 – خرفي صالح : الجزائر و الأصالة الثورية ، د ط ، ش و ن ت ، الجزائر : 1977 م .

65 – الدراجي محمد : جمال الدين الأفغاني : الأسس الفكرية لمشروعه الحضـــاري ، ط 1 ، دار غبريني للطباعة و النشر و التوزيع ، الجزائر : 2005 م .

66 – دراق زبير : المفيد الغالي في الأدب الجاهلي ، د ط ، د م ج ، الجزائر : 1994 م .

67 – دردار فتحـــي : الأميـــر عبـــد القـــادر الجزائـــري بطـــل المقاومـــة الجزائريـــة (1832 م – 1847 م) ، د ط ، الجزائر : 2001 م .

68 – الدسوقي منى حسين : الشيخ مصطفى الغلاييني في مفاهيمه الإصلاحية ، ط 1 ، المكتبة العصرية للطباعة و النشر ، بيروت : 1999 م .

69 – الدعمي محمد : الإستشراف الإستجابة الثقافية الغربية للتـــاريخ العربـــي الإســـلامي ، ط 1 ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت : 2006 م .

70 – رشا عبد الغفار: التقليدية و الحداثة في التجربة اليابانيـــة ، ط 1 ، مؤسســـة الأبحـــاث العربية ، بيروت : 1984 م .

71 – الزبيري العربي : المثقفون الجزائريون و الثورة ، د ط، م م و م ، م و ن ا ، الجزائر : 1995 م .

72 – زريـــق قســـطنطين : فـــي معركـــة الحضـــارة ، ط 3 ، دار العلـــم للملايـــين ، بيروت : 1977 م .

73 – زغينة محمد : المقالة الوجدانية في نثر أدباء جمعيـــة العلمـــاء المســـلمين الجزائـــريين (1926 م – 1953 م) ، د ط، دار الهدى ، عين مليلة ، الجزائر : 2005 م .

74 – زقزوق محمد : الوحدة العربية ما لها و ما عليها ، ط 1 ، دار التقريب بـــين المـــذاهب الإسلامية ، بيروت : 1994 م .

75 – زكار سهيل : تاريخ بلاد الشام في القرن التاســـع عشـــر ، د ط ، التلـــوين للدراســـات و الترجمة و النشر ، دمشق – حلبوني : 2006 م .

76 – سالم السيد عبد العزيز : المغرب الكبير ، ط 3 ، دار المعارف ، مصر : 1986 م .

77 – السايح أحمد عبد الرحيم : في الغــزو الفكــري ، ط 1 ، وزارة الأوقــاف و الشــؤون الإسلامية ، قطر : 1414 هــ .

80 – سعد الله أبو القاسم : الحركــة الوطنيــة الجزائريــة ، ج 1 ، القســم الأول ، م و ك ، الجزائر : 1992 م .

81 – ســعد الله أبــو القاســم : الحركــة الوطنيــة الجزائريــة(1900 م – 1930 م) ، ج 2 ، ط 3 ، م و ن ت ، الجزائر : 1983 م .

82 – ســعد الله أبــو القاســم : الحركــة الوطنيــة الجزائريــة ، (1930 م – 1945 م) ، ج 3 ، ط 3 ، م و ك، الجزائر : 1986 م .

83 – سعد الله أبو القاسم : خلاصــة تــاريخ الجزائــر (المقاومــة و التحــرر 1830 م – 1962 م) ، ط 1 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت : 2007 م .

84 – سعد الله أبو القاسم : رحلة إبن حمادوش الجزائري ، م و ك ، الجزائر : 1982 م .

85 – سعود الطاهر : التخلف و التنمية في فكر مالك بن نبي ، ط 1 ، دار الهــادي للطباعــة و النشر و التوزيع ، بيروت : 2006 م .

86 – سعيدوني ناصر : الجزائر منطلقات و آفاق (مقاربات و آفاق للواقع الجزائــري مــن خلال قضايا و مفاهيم تاريخية) ، ط 1 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت : 2000 م .

87 – سعيدوني ناصر ، البوعبدلي المهدي : الجزائر فــي التــاريخ (العهــد العثمــاني) ، ج 4 ، م و ك ، الجزائر : 1984 م .

88 – سفر محمود محمد : درا سة في البناء الحضاري (محنة المسلم مع حضارة عصره) ، د ط ، سلسلة كتاب الأمة ، وزارة الشؤون الإسلامية و الأوقاف ، قطر : 1409هــ .

89 – سلوادي عبد الرحمان : عبد الحميد ابن بــاديس مفســرا ، د ط ، م و ك ، الجزائــر : 1988 .

90 – السيد رضوان ، برقاوي أحمد : المسالة الثقافية في العالم العربي الاسلامي ، ط 2 ، دار الفكر ، دمشق : 2001 م .

91 – شابري لورانت ، شابري آني : سياسة و أقليات في الشرق الأدنى (الأسباب المؤدية إلى الإنفجار) ، ترجمة ذوقان قرقوط ، ط 1 ، مكتبة مدبولي ، القاهرة : 1991 م .

92 – شارل مالك : لبنان في ذاته ، د ط ، مؤسسة بدران و شــركائه للطباعــة و النشــر ، بيروت : 1984 م .

93 – شريط عبد الله : تاريخ الثقافــة و الأدب فــي المشــرق و المغــرب ، د ط ، م و ك ، الجزائر : 1983 م .

94 – صاري أحمد : شخصيات و قضايا من تــاريخ الجزائــر المعاصــر ، د ط، المطبعــة العربية ، غرداية ، الجزائر : د ت .

95 – صـــاري الجيلالـــي ، قـــداش محفـــوظ : المقاومـــة السياســـية 1900 م – 1954 م (الطريق الإصلاحي و الثوري)، د ط ، م و ك ، الجزائر : د ت .

96 – الصعيدي عبد المتعال : القضايا الكبـــرى فـــي الإســـلام ، د ط ، دار شـــريفة للنشـــر و التوزيع ، الجزائر : د ت .

97 – الصنهاجي أبي عبد الله محمد : أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم ، تحقيق و تعليق جلـــول أحمد البدوي ، د ط، م و ك ، الجزائر : 1984 م .

98 – ضاهر مسعود : النهضة العربية و النهضة اليابانيـــة (تشـــابه المقـــدمات و إخـــتلاف النتائج) ، د ط، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب ، الكويت : 1999 م .

99 – طعيمة صابر : أخطار الغزو الفكري في العـــالم الإســـلامي ، ط 1 ، عـــالم الكتـــب ، بيروت : 1984 م .

100 – طهاري محمد : الحركة الإصلاحية في الفكـــر العربـــي المعاصـــر (جمـــال الـــدين الأفغاني ، محمد عبده و مدرسته) ، الكتاب الأول ، دار الأمة للطباعة و النشر و التوزيـــع ، الجزائر : 1999 م .

101 – طهاري محمد : الحركة الإصلاحية في الفكر الإسلامي المعاصر ، ج 1(جمال الدين الافغاني، محمد عبده و مدرسته) ، ط 1 ، دار الامة ، الجزائر: 1999م .

102 – عباس فرحات : ليل الإستعمار ، ترجمة أبو بكـــر رحـــال ، د ط، مطبعـــة فضـــالة ، المحمدية ، المغرب : د ت .

103 – عباس محمد : البشير الإبراهيمي أديبا ، د ط، د م ج ، الجزائر : د ت .

104 – عبد الدايم عبد الله : في سبيل ثقافة عربية ذاتية (الثقافة العربية و التراث) ، ط 1، دار الآداب ، القاهرة : 1983 .

105 – العبد عارف : لبنان و الطائف (تقاطع تاريخي و مسار غير مكتمل) ، ط 1 ، مركــز دراسات الوحدة العربية ، بيروت : 2001 م .

106 – عروة أحمد : الإسلام في مفترق الطرق ، ترجمـــة عثمـــان أمـــين ، د ط ، و ن ت ، الجزائر : 1981 م .

107 – العقاد صالح : المغرب العربي ، ط 3 ، المكتبة الأنجلو المصرية ، مصر: 1969 م .

108 – عكاشة شايف : الصراع الحضاري في العالم الإسلامي (مدخل تحليلـــي فـــي فلســفة الحضارة عند مالك بن نبي) ، د ط ، د م ج ، الجزائر : 1993 م .

109 – عليوي هادي حسن : الإتجاهات الوحدوية فـــي الفكـــر القـــومي العربـــي المشـــرقي (1918 م – 1956 م) ، م د و ع ، ط 1 ، بيروت : 2000 م .

110 – عمـــارة محمـــد : الإســـلام بـــين التنـــوير و التزويـــر ، ط 1 ، دار الشـــروق ، بيروت : 1995 م .

111 – عمارة محمد : الجامعة الإسلامية و الفكرة القومية – نموذج مصطفى كامـــل ، ط 1 ، دار الشروق ، بيروت ، القاهرة : 1994 م .

112 – عمـــارة محمـــد : الطريـــق إلـــى اليقظـــة الإســـلامية ، ط 1 ، دار الشـــروق ، القاهرة : 1990 م .

113 – عمران محمود سعيد : منهج البحث التاريخي و مصادر العصور الوسطى ، د ط ، دار المعرفة الجامعية ، السويس ، مصر : 2006 م .

114 – عمر عبد العزيز عمر : دراسات في تاريخ العـــرب الحـــديث و المعاصـــر ، د ط ، دار المعرفة الجامعية ، القاهرة : 2005 م .

115 – العمري أكرم ضياء : قيم المجتمع الإسلامي من منظور تاريخي ، ج 2 ، سلسلة كتاب الأمة ، ط 1 ، وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية ، قطر : 1994 م .

116 – عميراوي حميدة : دور حمدان خوجة في تطـــور القضـــية الجزائريـــة (1827 م – 1840 م) ، ط 1 ، دار البعث ، قسنطينة ، الجزائر : 1987 م .

117 – عويمر مولود : أعلام و قضايا في التاريخ الإسلامي المعاصـــر ، تصـــدير ســـعد الله ابو القاسم ، ط 1 ، دار الخلدونية ، الجزائر : 2007 م .

118 – غربي الغالي : دراسات في تاريخ الدولة العثمانيـــة و المشـــرق العربـــي (1288م – 1916م) ، د ط ، د م ج ، الجزائر : 2007 م .

119 – الغزالي محمد : سر تأخر العرب و المسلمين ، د ط ، دار البعث ، قسنطينة ، الجزائر : 1985 م .

120 – غليسي جوان : الجزائر الثـــائرة ، تعريـــب خيـــري حمـــاد ، ط 1 ، دار الطليعـــة ، بيروت : 1961 م .

121 – الفتلاوي سهيل حسين : جذور الحركة الصهيونية ، دار وائـــل للطباعـــة و النشـــر ، عمان ، الأردن : 2002 م .

122 – فتوني على عبد : البلاد العربية و التحديات التعليمية الثقافية ، ط 1 ، دار الفـــارابي ، بيروت : 2007 م .

123 – فضلاء الطاهر : الإمام الرائد الشيخ محمد البشير الإبراهيمي فـــي ذاكـــراه الأولـــى ، د ط ، مطبعة البعث ، قسنطينة ، الجزائر : 1967 م .

124 – فلاديمير لوتسيكي : الحرب الوطنيـــة التحرريـــة فـــي ســـوريا 1925 م – 1927م (صفحة مشرقة من النضال العربي ضد الأمبريالية الفرنسية) ، د ط، تعريب محمـــد ذيـــاب ، سلسلة تاريخ المشرق العربي الحديث ، دار الفارابي ، بيروت : 1987 م .

125 – فريحات حكمت عبد الكريم ، الخطيب إبراهيم ياسين : مدخل الى تـــاريخ الحضـــارة العربية الإسلامية ، د ط، دار الشروق للنشر و التوزيع ، عمان ، الأردن : 1999 م .

126 – قاسم أحمد نجيب : التاريخ الحديث و المعاصر، د ط، دار المعارف مصر ، د ت .

127 – قربان ملحم : تاريخ لبنان السياسي الحديث (الإســـتقلال السياســـي) ، ج 1 ، د ط ، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع ، بيروت : 1981 م .

128 – قدورة زاهية : تاريخ العرب الحـــديث ، د ط ، دار النهضـــة العربيـــة ، بيـــروت : 1975م .

129 – قطب محمـــد : قضـــية التنـــوير فـــي العـــالم الإســـلامي ، ط 2 ، دار الشـــروق ، القاهرة : 2002 م .

130 – قطب محمد : هل نحن مسلمون ، د ط ، دار الشروق ، بيروت : 1986 م .

131 – قطب محمد : واقعنا المعاصر ، د ط ، مكتبة رحاب ، الجزائر : د ت .

133 – كنعان محمد : أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق ، ط 1 ، مركز البحـــوث و المعلومات ، قطر : 1990 م .

134 – كنفاني محمد عبد السلام : الحضارة العربية طابعها و مقوماتهـــا العامـــة ، د ط ، دار النهضة العربية ، بيروت : 1970 م .

135 – الكواكبي عبد الرحمان : طبائع الإستبداد و مصارع الإستعباد ، تقديم محمـــد خالـــد ، سلسلة الأنيس ، د ط ، موفم للنشر ، الجزائر : 1991م .

– مراد علي : الإسلام المعاصر ، د ط ، مطبعة دحلب ، الجزائر : 1995 م .

136 – كولر جون : الفكر الشرقي القديم ، ترجمة كامـــل يوســـف حســـين ، سلســـلة عـــالم المعرفة ، د ط، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب ، الكويت : 1995 م .

137 – لوبون غوستان : حضارة العرب ، ترجمة عادل زعيتر ، ط 3 ، دار إحيـــاء الكتـــب العربية ، القاهرة : 1965م .

138 – لوبون غوستاف : سر تطور الأمم ، ترجمة أحمـــد فتحـــي زغلـــول باشـــا ، ط 1 ، دار النفائس ، بيروت : د ت .

139 – المبارك محمد : المجتمع الإسلامي المعاصر ، ط 5، دار الفكر ، لبنان : 1980م .

140 – محاضرات ملتقى الفكر الإسلامي الســـابع عشـــر ، ج 2 ، د ط ، مؤسســـة العصـــر للمنشورات الإسلامية ، الجزائر : 1983 م .

141 – المحجوبي علي : النهضة الحديثة في القرن التاسع عشر لماذا فشلت بمصر و تونس و نجحت في اليابان ، د ط ، مركز النشر الجامعي ، تونس : 1999 .

142 – المحافظة علي : الاتجاهات الفكرية عند العرب فـــي عصـــر النهضـــة (1798 م – 1914 م) ، ط 2 ، الأهلية للنشر و التوزيع ، بيروت : 1978 م .

143 – مرحبا عبد الرحمان : أصالة الفكر العربي ، ط 2، د م ج ، الجزائر : 1983 م .

144 – محمود السيد :

145 – مجموعة من الباحثين : الأقليات و القوميات في الســلطنة العثمانيــة بعــد 1516 م ، ط 1 ، منشورات الجمعية التاريخية اللبنانية، الفنار ، لبنان : 2001 م .

146 – مرتاض عبد المالك : نهضة الأدب العربـــي المعاصـــر فـــي الجزائـــر(1925 م – 1954 م) ، ط 2 ، م و ن ت ، الجزائر : د ت .

147– مركز دراسات الوحدة العربية : الأعمال القومية لساطع الحصري (آراء و أحاديث في الوطنية و القومية) ، ط 2 ، بيروت : 1985 م .

148 – مسبيرو فرانسوا : سانت آرنو أو الشرف الضائع ، ترجمة مســعود حــاج مســعود ، د ط ، دار القصبة للنشر ، الجزائر : 2007 م .

149 – معاليقي منذر : معالم الفكر العربي في عصر النهضة ، تقديم ياسين الايــوبي ، د ط ، دار اقرأ ، بيروت : د ت .

150 – مصطفى محمد ، حميداتو محمد : عبد الحميد ابن باديس و جهوده التربوية ، سلســلة كتاب الأمة ، د ط ، وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية ، قطر : 1997م .

151 – منسي محمود صالح : حركة اليقظة العربية في الشرق الأســيوي ، د ط ، دار الفكــر العربي ، القاهرة : 1975 م .

152 – المودودي أبو الأعلى : بين يدي الشباب، د ط ، د م ج ، الجزائر : 1985م .

153 – المودودي أبو الأعلى : نحن و الحضارة الغربية ، د ط ، دار الفكر ، بيروت : د ت .

154 – موسى سلامة : مـــا هـــي النهضـــة و مختـــارات أخـــرى ، د ط ، مـــوفم للنشـــر ، الجزائر : 1990 م .

155 – نايت بلقاسم مولود قاسم : ردود الفعل الأولية داخلا و خارجا على غرة نـــوفمبر ، دار البعث ، قسنطينة ، الجزائر : 1984 م .

156 – الندوي أبو الحسن علي الحسين : الطريق إلى السعادة و القيادة للـــدول و المجتمعـــات الإسلامية الحرة ، ط 4 ، مؤسسة الإسراء الجزائر : د ت .

157 – الندوي أبو الحسن علي : الصراع الفكري بين الفكرة الإسلامية و الفكرة الغربية فـــي الأقطار الإسلامية ، د ط ، دار الهدى ، عين مليلة ، الجزائر : 2006م .

158 – الندوي أبو الحسن علي : ماذا خسر العالم بإنحطاط المسلمين ، ط 5 ، دار الشـــهاب ، باتنة ، الجزائر : 1987 م .

159 – نوار عبد العزيز سليمان : التاريخ الحديث – أوروبا من الثورة الفرنسية حتى الحـــرب البروسية الفرنسية– 1789 م – 1871 م ، ط 1 ، دار الفكر العربي ، بيروت : 2002 م .

160 – هلال عمار : أبحاث و دراسات في تاريخ الجزائر (1830م – 1962م) ، د ط ، د م ج ، الجزائر : 1995 م .

161 – هويـــــدا فريـــــدون : الإســـــلام المعطـــــل ، د ط ، دار النشـــــر مـــــارينور ، الجزائر : 1996 م.

162 – الورثيلاني الفضيل : الجزائر الثائرة ، د ط ، دار الهدى ، عـــين مليلـــة ، الجزائـــر : 1992 م .

163 – وعلي محمد الطاهر : التعلـــيم التبشـــيري فـــي الجزائـــر مـــن 1830 م – 1904 م (دراسة تاريخية تحليلية) ، د ط ، منشورات دحلب، الجزائر : 1997 م .

164 – ولاية ســـطيف : محاضـــرات ملتقـــى مجـــازر 08 مـــاي 1945 م فـــي الـــذاكرة الوطنية ، د ط ، الجزائر : 2005 م .

165 – ولد خليفة محمد العربي : المحنة الكبرى (مدخل لدراســـة توصـــيفية لمحنـــة شـــعبنا و مقاومته البطولية) ، د ط ، د م ج ، الجزائر : 1999 م .

166 – يحي جلال : العالم العربي الحديث و المعاصر (الفترة الواقعـــة مـــا بـــين الحـــربين العالميتين) ، ج 2 ، د ط ، المكتب الجامعي الحديث ، الإسكندرية : 1998 م .

167 – يحي جلال : المغرب الكبير (العصور الحديثة و هجوم الإســـتعمار) ، ج 3 ، د ط ، دار النهضة العربية ، بيروت : 1981 م .

168 – يحي جلال : المغرب الكبير (الفترة المعاصرة و حركات التحـــرر و الإســـتقلال) ، ج 4 ، د ط ، دار النهضة العربية للطباعة و النشر ، بيروت : 1981 م .

169 – يس السيد : الوعي القومي المحاصر (أزمة الثقافة السياسية العربيـــة المعاصـــرة)، د ط ، مركز السياسات الدراسية العربية الأهرام ، القاهرة : 1991 م .

170 – يوسف عبد التواب : الحضارة الإسلامية بـــأقلام غربيـــة و عربيـــة ، ط 1 ، الـــدار المصرية اللبنانية : 1994 م .

171– الواعي توفيق : اليهود تاريخ إفساد و انحلال و دمار ، ط 1 ، دار ابن حـــزم للطباعـــة و النشر و التوزيع ، بيروت : 1995 م .

ب : الكتب باللغة الفرنسية :

01 - A – NOUSHI : CONSTANTINE A LA VEILLE DE TUNISIE , N:° 11 , TR , 1955 , PP 210 – 214 .

02 – ANDRE NOUSHI : LA NAISSANCE DU NATIONALISME ALGERIEN , LES EDITTIONS DE MINIUT , PARIS , 1962 .

03 – BERGER – LEVRAULT : LA SYRIE ET LE LIBAN SOUS L'OCCUPATION ET LE MONDAT FRANÇAIS 1919 – 1927 , EDITIONS NANCY , PARIS , STRASBOORG , 1929 .

04 – CHARLES ROBERT AGERON : HISTOIRE DE L'ALGERIE CONTEMPORAINE (1871 – 1945) ; T 2, 1ere ed , PRESSE UNIVERSITAIRES DE FRANCE , PARIS , 1997 .

05 - CHARLES ROBERT AGERON : LES ALGERIENS MUSULMANS ET LA France (1871 – 1919) , T2 , P. U . F , PARIS , 1968 .

06 – CHARLES ROBERT AGERON : LES POLITIQUE COLONIALES AU MAGHREB , P.U.F , PARIS , 1972 .

07 – JACQUES BERQUE : LES ARABES D'HIER A DEMAIN , 3 ème EDITION , EDITIONS DU SEUIL, PARIS , 1969 .

08 – CLAUD COLLOT : LES INSTITIONS DE L'ALGERIE DURANT LA PERIODE COLONIALE (1830 – 1962) , ED C.N.R ET O.P.U , ALGER .

09 – CHERIF BENHABYLES : L'ALGERIE FRANCAISE VU PAR UN INDIGENE , ED ORIONTALE , ALGER , 1914 .

10 – DJILALI BENAMRANE : L'EMIGRATION ALGERIENNE EN France (PASSE , PRESENT , DEVENIR) , S.N.E.D , ALGER , 1983 .

11 – FANNY COLONNA : INSTITUTEURS ALGERIENS (1883 – 1839) , O.P.U , ALGER , 1975 .

12 - FANNY COLONNA : LETRES , INTELLECTUELS , ET MILITANTS EN ALGERIE (1880 – 1950) , O.P.U , ALGER , 1988 .

13 – GEORGES CORNE : L'EUROPE ET L'ORIENT (DE LA BALCANISATION A LA LIBANISATION : HISTOIRE D'UNE MODERNITE INACCOMPLIE) , EDITION BOUCHENE , ALGER , 1990 .
14 – GUSTANE LEBON : LA CIVILISATION DES ARABES , IMAG , SYRACUSE ,Italie , 1961 .
15 – JAQUES CARRET : L'ASSOCIATION DES OULEMAS D'ALGERIE , EDITION ALAM EL AFKAR , ALGER , 2007 .
16 – MAHFOUD KADDACHE : HISTOIRE DU NATIONALISME ALGERIEN (QUESTION NATIONALE ET POLITIQUE ALGERIENNE) , T1 , SNED , ALGER , 1980 .
17 – MUSTAPHA CHERIF , JEAN SUR : JACQUES BERQUE ORIENT-OXIDENT , EDITIONS ANEP , ALGERIE , 2004 .
18 – TAHAR GAID : REFLEXION SUR LA PENSSEE ISLAMIQUE , OFFICE DES PUBLICATION UNIVERSITAIRES , ALGER 1999 .
19 – WILLIAM L . CLEVELAND : ISLAM AGAINST THE WEST SHAKIB ARSLAN AND THE CAMPAINGN FOR ISLAMIC NATIONALISM , FIRST PUBLISHED AL SAQI BOOKS , LONDON , GREAT BRITAIN , 1985.

ج – الدوريات :

أ – المجلات :

01 – مجلة الآداب و العلوم الإجتماعية ، كلية الآداب و العلوم الإجتماعية ، جامعــة فرحــات عباس سطيف ، الجزائر : العدد 04 / جوان 2006 م .

02 – مجلة : الآداب و العلوم الإجتماعية، كلية الآداب و العلوم الإجتماعية ، جامعة فرحــات عباس سطيف ، الجزائر : العدد 07 / جوان 2009 م .

03 – مجلة الثقافة ، وزارة الثقافة ، الجزائر : العدد 85 / جانفي / فيفري 1985 م .

04 – مجلة الثقافة ، وزارة الثقافة ، الجزائر : العدد 87 ماي / جوان 1985 م .

05 – مجلة الثقافة ، وزارة الثقافة ، الجزائر : العدد 95 / سبتمبر / أكتوبر 1986 م .

06 – مجلة حضارة الإسلام ، العدد 06 / ديسمبر 1965 م .

06 – مجلة الثقافة ، وزارة الثقافة ، الجزائر : العدد 101 / 1988 م .

07 – مجلة الحوار الفكري ، مخبر الدراسات التاريخية و الفلسفية ، جامعة منتوري قســنطينة، الجزائر : العدد 05 / أوت 2003 م .

08 – مجلة الدراسات الإسلامية ، المجلس الإسلامي الأعلى ، الجزائر : العــدد 01 / جــوان 2002 م .

09 – مجلة الذاكرة للدراسات التاريخية للمقاومة و الثورة ، م و م ، الجزائر : 1995 م .

10 – مجلة الرواسي ، جمعية الإصلاح الإجتماعي و التربوي ، باتنة ، الجزائر ، العــدد 07 / فيفري / مارس 1993 م .

11 – مجلة الشهاب الجديد ، مؤسسة الشيخ عبد الحميد إبن باديس ، الجزائــر : العــدد 03 / أفريل 2004 م .

12 – مجلة العربي ، الكويت : العدد 343 / أكتوبر 1995 م .

13 – مجلة العربي ، الكويت : العدد 461 / أفريل 1997 م .

14 – مجلة العربي ، الكويت : العدد 463 / أكتوبر 1997 م .

15 – مجلة العربي ، الكويت : العدد 516 / 2001 م .

16 – مجلة الفكر العربي المعاصر ، مركز الإنماء القومي ، بيــروت : العــدد 12 / مــارس 1981 م .

17 – مجلة الفكر العربي ، لبنان : العدد 39 – 40 / جوان / أكتوبر 1985 م .

18 – المجلة العربية للثقافة ، المنظمة العربية للثقافة و التربية و العلوم : العدد 26 / مــارس 1994 م .

19 – مجلة المستقبل الإسلامي ، لندن : العدد 03 / جويلية 1992 م .

ب – الجرائد :

01 – جريدة البصائر ، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، الجزائر : العــدد 106 / 22 – 29 جويلية 2002 م .

02 – جريدة البصائر ، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، الجزائر : العــدد : 108 / 02 – 09 سبتمبر 2002 م .

03 – جريدة البصائر ، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، الجزائر : العدد 109 / 09 – 16 سبتمبر 2002 م .

04 – جريدة البصائر ، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، الجزائر: العــدد : 110 / 16 – 23 سبتمبر 2002 م .

05 – جريدة البصائر ، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، الجزائر: العدد 111 / 23 – 30 سبتمبر 2002 م .

06 – جريدة البصائر ، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، الجزائر : العدد 112 / 30 – 06 أكتوبر 2002 م .

07 – جريدة الخبر الأسبوعي ، الجزائر: العدد 542 / 15 – 24 جويلية 2009 م .

08 – جريدة الخبر الأسبوعي ، الجزائر: العدد : 543 / 22 – 28 جويلية 2009 م .

09 – جريدة الخبر الأسبوعي ، الجزائر: العدد 545 / 05 – 11 أوت 2009 م .

ثالثا : الرسائل و الأطروحات الجامعية :

01 – بن عمر عادل : منظمة المؤتمر الإسلامي الواقع و الآفاق ، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في العلوم السياسية و العلاقات الدولية ، قسم العلوم السياسية و العلاقات الدولية ، جامعـــة بـــن يوسف بن خدة ، الجزائر : السنة الجامعية 2006 م – 2007 م .

02 – بورغدة رمضان : الجزائريـــون و العدالـــة الفرنســـية فـــي عمالـــة قســـنطينة خـــلال القرن 19 م ، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث و المعاصر غير منشورة ، قســـم التـــاريخ ، جامعة منتوري قسنطينة ، الجزائر : السنة الجامعية 1999 م – 2000 م .

03 – بو الصفصاف عبد الكريم : الأبعاد الثقافية و الإجتماعية و السياسية في حركتي محمـــد عبده و عبد الحميد إبن باديس ، أطروحة دكتوراه دولة غير منشورة ، ج 1 ، جامعـــة تـــونس الأولى ، تونس : السنة الجامعية 1996 م – 1997 .

04 – بو الصفصاف عبد الكريم : جمعية العلماء المسلمين الجزائريين و علاقاتها بالحركـــات الجزائرية الأخرى (1931 م – 1945 م) ، د ط، منشورات م . و. م ، م و ن إ ، الجزائر: 1997 م .

05 – جمعة أحمد محمود : إنشاء جامعة الدول العربية : مقدماتها و تطورها ، ج 1 ، أطروحة دكتوراه دولة منشورة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مصر : 2006 م .

06 – الدهان سامي : شكيب أرسلان حياته و أثـــاره ، رســـالة ماجســـتير منشـــورة ، ط 2 ، دار المعارف ، مصر : 1976 م .

07 – السحمراني أحمـــد : الإســـتبداد و الإســـتعمار و طـــرق مواجهتهمـــا عنـــد الكـــواكبي و الإبراهيمي ، رسالة ماجستير منشورة ، ط 1 ، دار النفائس ، بيروت : 1984 م .

08 – الشرباصي أحمد : أمير البيان شكيب أرسلان ، أطروحة دكتوراه دولة منشورة ، د ط ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف و الترجمة و النشر ، القاهرة : 1963 م .

09 – الشرباصي أحمد : شكيب أرسلان داعية العروبة و الإسلام ، رسالة ماجستير منشورة ، د ط ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف و الترجمة و النشر ، القاهرة : 1963 م .

10 – شيا محمد : شكيب أرسلان و مقدمة الفكر السياسي ، رسالة ماجستير منشورة ، سلســـلة كتاب الفكر العربي ، د ط ، بيروت : 1983 م .

11 – ظاهر محمد صكر الحسناوي : شكيب أرسلان الدور السياسي الخفي ، رسالة ماجســـتير منشورة ، ط 1 ، دار رياض الريس للكتب و النشر ، بيروت 2002 م .

12 – عباس محمد : البشير الإبراهيمي أديبا ، أطروحة ماجستير منشورة ، كلية الآداب جامعة بغداد ، د ط ، د و م ج ، الجزائر ، د ت .

13 – فايد بشير : الشيخ البشير الإبراهيمي و دوره في القضية الوطنية 1920 م– 1965 م ، رسالة ماجستير غير منشورة ، قسم التاريخ و الآثار ، جامعة منتوري قســـنطينة ، الجزائـــر : السنة الجامعية 2000 م – 2001 م .

14– مهداوي محمد : البشير الإبراهيمي نضاله و أدبه ، رسالة ماجستير منشورة ، د ط ، دار الفكر ، دمشق : 1988 م .

15– بلاصي نبيل أحمد : الإتجاه العربي و الإسلامي و دوره في تحرير الجزائـــر، أطروحـــة جامعية منشورة ، د ط ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مصر : 1990 م .

رابعا : الموسوعات و المعاجم و القواميس :

01 – البغدادي أبي الفوز محمد أمين : سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب ، ط 2 ، تحقيــق كامل مصطفى الهنداوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت : 2005 م .
02 – بيرنجيه جان : موسوعة تاريخ أوروبا العـــام ، ج 2 ، ط 1 ، منشـــورات عويـــدات ، بيروت ، 1995 م .
03 – الحوتي سعد أبو سيف : الموسوعة العلمية في أنساب القبائل العربية ، ط 1 ، مطبعة أبو العزم ، مصر : 2002 م .
04 – دانيال ريغ : السبيل ، معجم عربـــي فرنســـي – فرنســـي عربـــي ، مكتبـــة لاروس ، باريس : 1983 م .
05 – دريفوس فرانسوا جورج ، و آخرون : موسوعة تاريخ أوروبا العام ، ج 3 (أوروبا من عام 1789 م حتى أيامنا) ، ترجمة حسين حيدر ، ط 1 ، منشـــورات عويـــدات ، بيـــروت : باريس ، 1995 م .
06 – الزركلي خير الدين : معجم الأعلام ، ج 4 ، ط 5 ، دار العلم للملايين، بيروت: د ت .
07 – الزركلي خير الدين : معجم الأعلام ، ج 5 ، ط 5 ، دار العلم للملايين، بيروت: د ت .
08 – المسعودي علي بن الحسين : مروج الذهب و معادن الجوهر ، ج 3 ، سلسلة الأنيس ، د ط ، موفم للنشر ، الجزائر : 1999 م .
09 – نويهض عادل : معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضـــر ، د ط ، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف و الترجمة و النشر ، بيروت : 1980 م .
10 – هادية علي، و آخرون : القاموس الجديد للطلاب ، تقـــديم محمـــود المســـعدي ، ط 7 ، م و ك، الجزائر : 1991 م .
11 – NOUVEAU LAROUSSE ELEMENTAIRE , IMPRIMERIE OFFEST-AUBIN PARIS , 1974 .

الفهارس :

أولا : فهرس الأعلام :

– أ –

- ب -

- ج -

- ح -

- خ -

- د -

- ذ -

- ر -

- ز -

- س -

– ش –

- ص -

- ط -

- ع -

- غ -

- ف -

- ق -

- ك -

- ن -

- هـ -

- و -

ثانيا : فهرس الأماكن والبلدان :

- أ -

- ب -

- ت -

- ج -

- ز -

- س -

- ش -

- ص -

- ط -

- ع -

- غ -

– ق –

– ك –

- ل -

- م -

-هـ -

-ن -

-

– و –

– ي –

<u>ثالثـــــا</u> : فهرس الشعوب و التنظيمات (الأحزاب ، الجمعيـــات ، القبائـــل ، المؤسســات ، المذاهب ، المنظمات ، الهيئات) .

– أ –

- خ -

- د -

- ر -

– ش –

– ص –

– ط –

- ظ -

- ع -

– غ –

– ف –

- كـ -

- ل -

- م -

- ن -

- هـ -

- و -

رابعا : فهرس الدوريات :

- ب -

- ج -

- ح -

- د -

- ر -

- ز -

- س -

- ش -

- ص -

- ض -

- ع -

- غ -

- ف -

- ك -

- ل -

- م -

- ن -

- و -

خامســــــا : فهرس الموضوعات :

